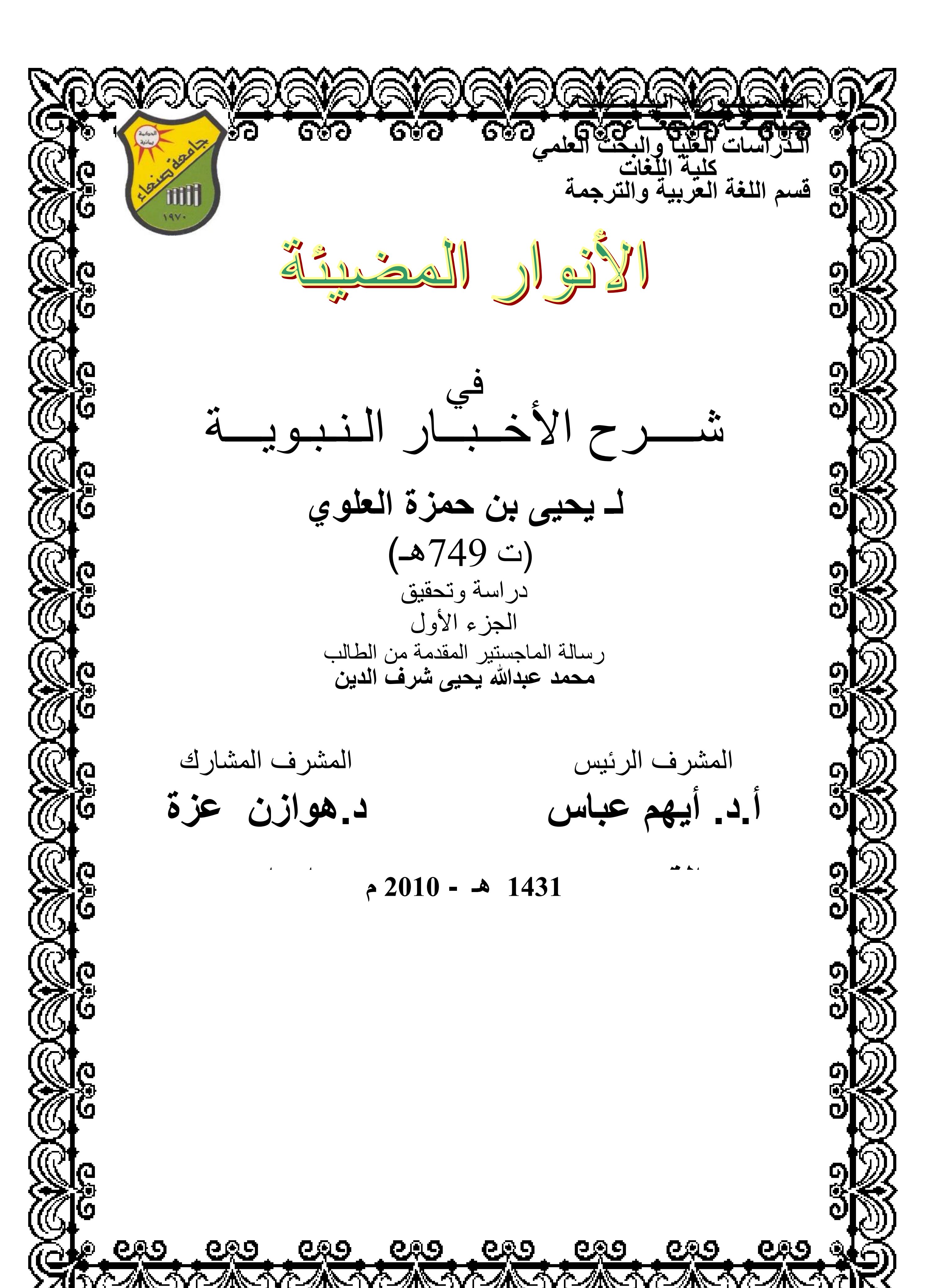


الجمهورية اليمنية
جامعة صنعاء
الدراسات العليا والبحث العلمي
كلية اللغات
قسم اللغة العربية والترجمة

الأنوار المضيئة

في
شـــرح الأخـبــار الـنـبـويــة

لـ يحيى بن حمزة العلوي

(ت 749هـ)

دراسة وتحقيق

الجزء الأول

رسالة الماجستير المقدمة من الطالب

محمد عبدالله يحيى شرف الدين

المشرف الرئيس
أ.د. أيهم عباس

المشرف المشارك
د.هوازن عزة

1431 هـ - 2010 م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

وبعد

التراث تاريخ الأمة، ورصيدها الباقى، وحضارتها الممتدة التى تستمد منه كل بارقة، وتراث أمتنا الفكرى قد حقق للإنسان المعطيات الإنسانية النافعة، وفتح حقولاً فكرية جديدة تفاعلت فيه الثقافات والأفكار؛ فكوّنت صورة مشرقة لتراثٍ أفاد الأمة فى الماضى، وخدم أممًا أخرى فى إناخة التخلف عنها .

إن البحث عن مقومات النهوض لهذه الأمة لا يمكن أنْ يكون بمعزلٍ عن إحياء تراثها الخالد، وبعث الحياة فيه لاسيما أنَّ الصلة حتمية بين ما هو قائم وما هو أصل لها، فلا سبيل لقطع الصلة بين مستقبلنا الذى هو بأمسّ الحاجة لتراثنا الذى كان سبيل فلاح أمتنا فى الماضى التليد، وحاضرنا المشرق الزاهى.

لقد خطا علماء الأمة خطوة جبارة؛ وذلك بجمعهم وتدوينهم ما كان متداولاً من التراث الفكرى بالرواية لعصور عدّة، والأمة الحيّة لا تقبل أنْ يظل ذلك التراث رهين الأسر، ولا يمكن أن ترقب جذور مجدها وحضارتها حبيس أعماق الزمن، وأقلّ ما يمكن تقديمه لذلك التراث الفكرى، ولجهود العلماء الأوائل؛ هو بعث الحياة فى ذلك التراث من خلال نشره بعد تحقيقه؛ التحقيق الذى يظهر التراث الفكرى بشكل مشرق معتمدًا الأساليب العلمية فى التحقيق لا التحقيق الذى يجنى على التراث الفكرى.

ومن ذلك التراث الفكرى المخطوطة الموسومة بـ (**الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية**) لمؤلفها الإمام (**يحيى بن حمزة العلوى**) التى تمّ اختيارها للدراسة والتحقيق، ليكون هذا الجهد فاتحة جهود مباركة، وتوجه علمى تتمنى أن تنهض به الجامعات ومراكز البحوث ودور المخطوطات بالجمهورية، ليتكلل ذلك ببعث الحياة فى الكثير من المخطوطات التى تحفل بها المكتبات اليمنية العامة والخاصة .

وقد وجد الباحث هذه المخطوطة جديرة بالدراسة والتحقيق، وذلك لمّا تنطوى عليه من ثروة علمية، ولعل من أسباب اختيار الباحث التحقيق ميدانًا للدراسة، قلّة تحقيق المخطوطات ونشرها؛ فتراث الفكر اليمنى سجين المخطوطات، فما يزيد عن نسبة 90% من ذلك التراث لم يخرج إلى ساحة التداول، وهذا يُحتّم على الجامعات، ومراكز البحوث والدراسات القيام بجهود مكثفة لإخراج هذه الكنوز، وبعث الروح والحياة فيها لتنهل الأجيال من المعارف والعلوم، وترتوى من فيض معينها وعطائها الزاخر الذى يمثل خلاصة عقول أصحابها من العلماء والأدباء، وفكرهم النيّر، ومن الأسباب فضلاً عمّا سبق ذكره؛ ندرة الدراسات الأكاديمية التى تقوم بتحقيق المخطوطات مع امتداد خط التحقيق القائم على أسس غير علمية فى اليمن، وبعث الحياة فى المخطوطة المراد

تحقيقها، وذلك بإخراجها إلى حيز الوجود الفعلى التداولى، وإغناء المكتبات بهذه الكنوز، ورفد الدراسات الأدبية والنقدية بإضافات جديدة بفضل ما تختزنه مخطوطة (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية) لاسيما أن الدراسات البلاغية المتخصصة نادرة فى تلك الحقبة الزمنية من تاريخ اليمن مع ذيوع شهرة المؤلف، ووضوح جهوده البلاغية.

ولدراسة هذه المخطوطة وتحقيقها أهمية وأهداف تتمثل فى تزويد الدارسين بكتاب لغوى نحوى بلاغى، وتقديم نموذج تطبيقى بين أيدى الدارسين لما نظّر له المؤلف فى كتابيه، (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق الإعجاز)، و(الإيجاز لأسرار كتاب الطراز فى معرفة حقائق الإعجاز)، وإثراء المكتبة اليمنية والعربية التى تفتقر إلى تلك الدراسات البلاغية، وكذلك خدمة التراث العربى والإسلامى، مع إظهار إسهامات علماء اليمن فى رفد الحضارة العربية والإسلامية بالمعارف والعلوم، فضلاً عن إظهار القيمة العلمية للمخطوطة، وذلك بشرح المؤلف الأدبى للأحاديث النبوية بطريقة متميزة ندر مثيلها فى ذلك العصر، حيث شرحها على خمسة مستويات؛ الأول: يختص بالألفاظ اللغوية وتوضيح معانيها، والثانى: يشتمل على المعانى الإعرابية، والثالث: يشتمل على العلوم المعنوية المختصة بعلم المعانى، والرابع: يختص بالعلوم البيانية، والخامس: يشتمل على علوم البديع.

ولوعورة هذا المسلك؛ أىْ مسلك دراسة المخطوطة وتحقيقها ، فقد استعان الباحث بجهابذة المحققين سواء فى مؤلفاتهم عن مناهج تحقيق النصوص، كالأستاذ عبد السلام هارون، والأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب، والأستاذ الدكتور نورى القيسى، والأستاذ الدكتور سامى العانى، أو الذين كتبوا عن مناهج التحقيق فى مقدمات الكتب التى حققوها كالأستاذ الدكتور شوقى ضيف، والأستاذ عبد السلام هارون.

إن منهج تحقيق النصوص الذى يدرس فى الجامعات له قيمة علمية لعل من أهمها إنشاء اتصال حميمى بين القارئ والمخطوطات بحيث يستفيد القارئ من مؤلفات علمائنا القدماء وخبراتهم، ويضمن لتراثنا البقاء مع التجديد فضلاً عن إثراء المكتبات بتلك النفائس التى يستفيد منها الباحثون.

ولذا كان المنهج العلمى الأكاديمى فى دراسة النصوص وتحقيقها – والذى يقوم على جانبين الأول يختص بشخصية المؤلف، والثانى يختص بالمخطوطة– هو المنهج الذى التزمه الباحث فى دراسته وتحقيقه، وبناءً على هذا المنهج، فقد تضمن العمل قسمين،

القسم الأول: الدراسة، وهى على النحو الآتى:

الفصل الأول شخصية المؤلف، وبُدئ بمدخل فيه لمحة عن عصر المؤلف سياسيًا وثقافيًا، وقد تضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث، المبحث الأول، فيه ترجمة وافية له، حيث ورد فى هذا المبحث اسمه ونسبه مع ذكر الاختلافات الواردة فى إسقاط بعض أجداده، وترجيح أصح تلك الروايات، فضلاً عن ذِكر أسرته ومولده ونشأته وشيوخه ومذهبه وتاريخ وفاته الصحيح مع ردّ

الروايات المخالفة لتاريخ الوفاة الصحيح بالدليل الواضح، أما المبحث الثانى، فضمّ مؤلفاته فى شتّى الفنون، والتى بلغت نيفًا وسبعين مؤلفًا، تمّ توزيعها على حسب التخصصات، وهى اللغة والبلاغة وعلم الكلام (أصول الدين) وأصول الفقه والفقه والزهد والسِّيَر والمنطق، فضلاً عن بعض خطبه وإجازاته العلمية وتعازيه وجواباته على أسئلة ودعواته وفتاويه ووصاياه، مع الإشارة إلى المخطوط منها ومكان وجودها، والمطبوع منها سواء كان قد خُصّ بدراسة جامعية أم لا، أما المبحث الثالث؛ فقد تناول جهود المؤلف فى مؤلفاته، ومكانته العلمية، فمن جهوده فى علوم البلاغة: قدرته على الجمع بين التنظير لحدود مباحث تلك العلوم مع ترتيب أبوابها وفصولها، وتحليل النصوص من الزاوية الجمالية بتذوق أصيل، وتمّ إظهار هذه القدرة بنماذج من كتبه البلاغية، ثم إظهار جهوده فى علم اللغة، ومنها شروحه لبعض المتون اللغوية، ثم إظهار بعض جهوده فى علم الكلام، ومن ذلك قدرته على ابتكار منهج أصيل فى التحليل يعتمد على أربعة معايير لصلاحية استخدام اللفظ: وهى القرآن الكريم، واللغة والعرف والاصطلاح، فضلاً عن تسخير ذلك المنهج فى الرد على الفرق، وبعد ذلك تمّ إظهار مدى موسوعية المؤلف الفقهية، من خلال بعض كتبه الفقهية.

أما الفصل الثانى كتابه (الأنوار المضيئة)، هذا الكتاب هو شرح لكتاب (الأربعون حديثًا السيلقية)، لذا خُصّ مدخل هذا الفصل بلمحة عن محدثها عبد الله بن زيد الهاشمى، وتسميتها بالسيلقية نسبة إلى راويها السيلقى، ومواضيعها الوعظية، وتجدر الإشارة إلى كون هذه الأحاديث لم ترد فى الصحاح الست والمسانيد، وقد أورد المؤلف فى مقدمة المخطوطة اتفاق نقله الأخبار وعلماء الحديث على صحتها؛ ولأنّ هذه الأحاديث قد شرحها الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة فى كتاب (حديقة الحكمة)، وذلك قبل أن يشرحها الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه (الأنوار المضيئة) لزم النظر فى هذه الدراسة السابقة، فخُصص المبحث الأول لدراستها من ناحية المنهج المتّبع والذى يميل إلى الاختصار، والغرض الذى من أجله تمّ شرح الأحاديث حيث كان الغرض هو إظهار المقاصد النبوية فى الأحاديث، فضلاً عن الإشارة إلى تضمن الشرح طرفًا من نسب الرواة وبعض أحوالهم، وتمّ ختم المبحث بذكر أهم القضايا التى تمّت مناقشتها فى هذا المبحث، أما المبحث الثانى، فقد كان مختصًا بالمنهج الذى اتبعه مؤلف (الأنوار المضيئة) عند شرحه الأحاديث، فتمّت مناقشة ما أورده فى المقدمة من غرضى شرحه البلاغى، ومنهجه فى الشرح، وعلة ترتيب منهجه على هذا الشكل بالذات، وإشاراته إلى تجنبه الطريقة المتبعة فى شرح كتاب (حديقة الحكمة)، ثم استعراض طريقة شرحه، ومدى التزامه بالمنهج الذى نظّر له فى المقدمة، وتمّت مناقشة علل عدوله عن هذا المنهج بعد أن التزمه فى الأحاديث الأولى، فضلاً عن الإشارة إلى بعض المميزات التى تميز بها شرحه، وطريقة تعامله مع مصادره، وخُتم هذا المبحث بذكر أهم معالم منهج المؤلف فى كتابه، وقد استقطب المبحث الأول والثانى مبحثًا ثالثًا اختصّ بعقد موازنة بين الكتابين تضمنت مدى تأثر اللاحق بالسابق، ومحاور الاتفاق، ونقاط التقاطع سواء فى المنهج أم عرض المادة أم نوعيتها مع إيراد المميزات والسلبيات لكل منهما، وخُتم هذا المبحث بذكر أخص سمات كتاب (الأنوار المضيئة).

أما الفصل الثالث جهوده البلاغية فى (الأنوار المضيئة)، فلمّا كان المؤلف قد جعل أغلب شرحه لهذا الكتاب مختصًا بالتحليل لمواطن البلاغة فى الأحاديث النبوية، فضلاً عن كون الباعث على الشرح غرضاً بلاغيًا، فإن مدخل هذا الفصل قد ورد فيه علل ذلك، والمتمثلة فى كون المؤلف قد اكتفى بالتنظير لحدود مباحث البلاغة وتقسيماته المختلفة فى كتابه (الطراز)، و(الإيجاز)، فضلاً عن كون (الأنوار المضيئة) مكملاً لمشروع كبير بدأه المؤلف فى الفن الثالث من كتابه (الطراز) حيث تناول مواطن البلاغة والفصاحة فى القرآن الكريم، وقد تمّ ترتيب مباحث هذا الفصل حسب ترتيبها فى كتاب (الأنوار المضيئة)، فالمبحث الأول: جهوده فى علم المعانى، واختص بمباحث علم المعانى التى تضمنته الأحاديث، التى شرحها المؤلف حيث تمّ ذكر ما استنبطه المؤلف، وشرحه ما تضمنته الأحاديث النبوية من مباحث علم المعانى، وتنكبه فى الغالب عن الاسترسال فى ذكر حدود وتعريفات مباحث علم المعانى، واعتماده على التحليل القائم على إظهار جمال التوظيف النبوى لعلم المعانى فى كلامه، وخُتم بخلاصة لما ورد فى المبحث، أما المبحث الثانى: جهوده فى علم البيان، فقد ذُكر فيه ما شرحه المؤلف من مباحث علم البيان التى تضمنت الأحاديث النبوية، وتمّت مناقشة وتوضيح بعض القضايا التى تناولها المصنف فى ما يخص التشبيه المضمر الأداة والكناية ومجاز الإفراد والتركيب والاستعارة الموشحة، فضلاً عن قضية اتساع المجاز عند المؤلف، وقد ختم المبحث بخلاصة ما تمّت مناقشته فيه، أما المبحث الثالث: جهوده فى علم البديع، فقد تمّ إيراد ما شرحه المؤلف من مباحث علم البديع التى تضمنته الأحاديث النبوية، ومناقشة بعض القضايا المتعلقة بغايات علم البديع، وكون البلاغة والفصاحة تحصل بكون الكلام سلسًا مألوفاً، واختصاص الفصاحة باللفظ والبلاغة بالمعنى، وتقسيم الألفاظ إلى جزلة ورقيقة وغيرها، وانتهى المبحث بخلاصة تضمنت ما ورد فى هذا المبحث، وخلاصة موجزة لما ورد فى مباحث علوم البلاغة الثلاثة.

القسم الثانى: التحقيق، وتضمن منهج التحقيق، وفيه خطوات التحقيق، ومراحله من إثبات عنوان الكتاب، ونسبته إلى المؤلف، وذُكر المميزات التى على أساسها تمّ اختيار النسخة الأم والأصل الذى على ضوئها ينشر الكتاب، وآلية المقابلة بين النسخ المعتمدة مع تضمين الهامش ما اختلفت فيه النسخ، وتحرير النصّ حسب القواعد الإملائية الحديثة، وضبط الآيات القرآنية مع إحالتها على سورها وأرقام آياتها، وضبط حروف الأحاديث النبوية المشروحة بالشكل مع تخريج كل الأحاديث النبوية، وضبط الأبيات الشعرية بالشكل مع نسبتها لقائليها إذا كانت غير منسوبة، وإذا كانت منسوبة تمّ التأكد من صحة نسبتها مع تكملة الناقص منها، وترجمة لقائليها، وتتبع أقوال العلماء مع إحالتها على قائليها، وترجمة كل الأعلام، وإضافة بعض العنوانات بين [ ]، وشرح الألفاظ الغامض معانيها، وأخيرًا الفهارس العامة، وتضمن القسم الثانى فضلاً عمّا سبق النسخ المعتمدة، فقد تمّ ذكر النسخ المعتمدة فى التحقيق مع وصف لكل نسخة، واتبع الباحث ذلك بصور مستنسخة للصفحة الأولى والثانية والأخيرة من كل نسخة للمخطوطة، وبعده النصّ المحقق، ثم الفهارس العامة.

وهنا يمكن الإشارة إلى اعتماد الإمام يحيى بن حمزة على حافظته فى شرحه- وإن لم يكن ذلك اعتمادًا كليًا- فإنه قد وجد بعض الصعوبات فى توثيق ما استشهد به من موارده، ولاسيما منها ما لم يكن منسوبًا لقائليه وما نُسب لغير قائليه، وما فيه نقص أو زيادة عمّا هو عليه فى مورده، وقد تمّت الإشارة إلى ذلك فى مواضعه فى النصّ المحقق.

وأخيرًا: أتقدم بالشكر الجزيل لأساتذة قسم اللغة العربية والترجمة بكلية اللغات لجهودهم، وحسن رعايتهم لى، ومن دواعى الفضل والعرفان أخص بالشكر والتقدير الأستاذ الدكتور الفاضل أيهم عباس القيسى، والدكتورة الكريمة هوازن عزة إبراهيم، وأسدى الفضل لهما بعد الله تعالى لما قاما به من رعاية واهتمام وتصويب ما وجدا إلى ذلك سبيلاً، ولما بذلاه من جهد ووقت أثمرت هذه الدراسة، فجزاهما الله خيرًا.

وبعد فإن الباحث لا يدعى أو يزعم أن عمله هذا قد حاز الغاية، وبلغ درجة الكمال؛ لأنّ الكمال لله وحده بل هو عمل قابل للنظر والتقييم والإضافات والتصحيح، الذى يزيد من ثبات هذا العمل ورسوخه، والحمد لله رب العالمين على فضله ومنّه، فله أتمّ الحمد والشكر.

الباحث

القســم الأول

الدراســة

الفصــل الأول

شخصية المؤلف

مدخـل

لقد عاش الإمام يحيى بن حمزة فى أواخر القرن السابع الهجرى مع النصف الأول من القرن الثامن الهجرى، وهذه الحقبة تندرج تحت عصر الانكفاء والانكسار العربى سياسيًا وثقافيًا، وذلك بعد سقوط الدولة العربية الإسلامية، أما بالنسبة لليمن فقد ظهرت على ساحته صراعات، فدولة بنى رسول- التى أسسها المنصور عمر بن على بن رسول سنة 626هـ [1]، فى المناطق الساحلية وبعض المرتفعات الجبلية الشمالية الغربية، والمناطق الوسطى- قد دخلت فى صراع مع دولة الأئمة الزيدية، فكان يمتد نفوذ بنى رسول فى المناطق الشمالية على حساب نفوذ دولة الأئمة الزيدية ممّا أوجد صراعًا شديدًا بينهما، فضلاً عن وجود تنافس ثقافى دفع كلا الطرفين إلى الاهتمام بالعلم لاسيما العلوم المتعلقة بالهوية المذهبية الدينية، وذلك لأنّ الدولتين تنتميان إلى تيارين فكريين مختلفين، فكلما اتسع نفوذ إحدى الدولتين السياسى اتسع نفوذها العلمى والفكرى والمذهبى، وكل طرف يحاول الحفاظ على ثقافته وفكرة ومذهبه، ويسعى إلى نشره.

ولذا شجع بنو رسول العلم والعلماء، فبنوا دور العلم، وشجعوا العلماء، وأجروا لهم الرواتب، وشاركوا فى طلبه ونشره، ومنهم على وجه الخصوص فى هذه الحقبة الملك المظفر يوسف بن عمر بن على بن رسول الذى تولى الحكم من سنة 647هـ، إلى وفاته سنة 694هـ، والملك الأشرف عمر بن يوسف الذى تولى الحكم سنة 694هـ، إلى وفاته سنة 696هـ، والملك المؤيد داود بن يوسف، الذى تولى الحكم سنة 696هـ، إلى وفاته سنة 721هـ [2].

وعلى المثل أئمة الزيدية الذين أسهموا فى ازدهار الثقافة والمعرفة، وألفوا الكتب والمقالات والرسائل التى أسهمت إسهامًا فعالاً فى الثقافة، واهتموا بالتعليم الإلزامى فى تحصيل العلوم إلى أبعد الحدود؛ ولأن ظروفهم كانت لا تسمح ببناء المدارس بالشكل الكافى فى كل مناطق نفوذهم؛ فقد استعانوا فى هذه المهمة بالمساجد فانتعش التعليم، وازدهر التأليف والتصنيف[3]، حيث بلغ

---

(1) ينظر: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، على بن الحسن الخزرجى، تصحيح محمد بسيونى عسل، ط2، عام 1403هـ، (د)، 1/ 52.

(2) ينظر: نفسه، 1/ 81، 90، 239، 249، 251، 258، 2/ 13.

(3) ينظر: الإمام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى وأثره فى الفكر الإسلامى سياسيًا وعقائديًا، د. محمد محمد الحاج الكمالى، دار الحكمة اليمانية، ط1، عام 1991م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 56، 57.

عدد المصنفات فى القرن السابع الهجرى أكثر من ثلاثمائة واثنين وأربعين مصنفًا[1]، ومنهم الإمام عبد الله بن حمزة المتوفى سنة 614هـ، الذى بلغت مصنفاته زهاء خمسة وثمانين مصنفًا، على الرغم من كونه لم يكن متفرغًا بشكل تام لهذا المجال لأنّه حكم البلاد مدة تُقدر بواحد وثلاثين عامًا من عمره الذى لم يتجاوز ثلاثة وخمسين عامًا[2].

(1) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، عبد السلام عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على العلمية والثقافية، ط1، عام 1985م، عمان، الأردن، 1204- 1209.

(2) ينظر: نفسه، 578- 585.

المبحث الأول

ترجمته

اسمه ونسبه

أجمعت المصادر التى ترجمت للإمام يحيى بن حمزة العلوى على نسبه الذى يصل إلى سبط رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- الحسين بن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه[1].

وهو: يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم بن يوسف بن على بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر الزكى بن على التقى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهم[2].

وقد قُدّم له فى كتاب (البدر الطالع) ترجمة سقط منها الجدّ الثالث وهو (يوسف)، والرابع (على)، والخامس (إبراهيم)، والسابع (أحمد)[3]، وقد وافق فى السقط الثلاثة الأجداد الأولى ما فى كتاب (إتحاف المهتدين)[4]، وفى السقط الجدّ السابع موافقة لما ورد فى مخطوطة (سيرة الإمام يحيى بن حمزة)[5]، وورد السقط نفسه- المتعلق بالجدّ السابع- فى كتاب (طبقات الزيدية)[6]، وسقط أيضاً فى كتاب (البدر الطالع) الجدّ الحادى عشر (محمد الجواد)، مع زيادة بعد الجدّ الثامن جدّ هو (على) بن جعفر الزكى[7]، وقد وافقت هذه الزيادة

---

(1) وهو الحسين بن على بن أبى طالب- رضى الله عنهما- ولد بالمدينة فى السنة الرابعة للهجرة، واستشهد بكربلاء فى سنة 61هـ. ينظر: التحف فى شرح الزلف، أبو الحسنين مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدى، مكتبة بدر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، عام1997م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 57- 61.

(2) ينظر: نفسه، 270.

(3) ينظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن على الشوكانى، دار الكتب العلمية، ط2، عام 2007م، بيروت، لبنان، 2/ 184.

(4) ينظر: إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين، محمد بن محمد زبارة، مطبعة المقام الشريف، عام 1343هـ، صنعاء، اليمن، 65.

(5) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، عبد الله بن الهادى بن يحيى بن حمزة، (مخطوط)، مكتبة الجامع الكبير التابعة للأوقاف، صنعاء، برقم (10 مجاميع)، ق 143.

(6) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، إبراهيم بن القاسم بن محمد، تحقيق عبد السلام عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على العلمية والثقافية، ط1، عام 1421هـ، عمان، الأردن، القسم الثالث، 3/ 1224.

(7) ينظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 2/ 184.

ما فى كتاب (بلوغ المرام)[1]، وتفرد بسقط الجدّ التاسع وهو (جعفر) كتاب (طبقات الزيدية)[2] .

وهنا يمكن استنتاج علّة هذا السقط؛ فلعلّه راجع إلى تكرار بعض الأسماء فى نسب الإمام يحيى بن حمزة مثل (على وإبراهيم ومحمد)، أما سقط الأسماء غير المتشابهة؛ فلعله عائد إلى سقط أثناء الطباعة لاسيما كون أغلب هذه الكتب غير محققة.

إن أكثر الدارسين يعولون فى دراساتهم التاريخية على ما يرد فى مشجرات الأنساب التى تحتفظ بها بعض الأُسر فى اليمن، وقد وافقت فيما يخص نسب الإمام يحيى بن حمزة ما ورد فى كتاب (التحف فى شرح الزلف)، وقد اعتُمد ما ورد فيه لاسيما أن مؤلفه مشهور بطول باعه فى هذا المجال[3] .

وقد لُقب يحيى بن حمزة بالإمام، وأمير المؤمنين، والمؤيد بالله، والمؤيد برب العزة، والمؤيد برب العالمين، ويكنى بأبى إدريس، وأبى الحسن[4] .

أسرته

تقدّم ذكر أبيه وأجداده، وورد أن أباه (حمزة) قدِم مع جدّه (على بن إبراهيم) من العراق أيام الإمام يحيى بن محمد السراجى المتوفى سنة ست وتسعين وستمائة للهجرة [5] .

وأمه أخت الإمام الناصر لدين الله يحيى بن محمد السراجى، وهى الشريفة الفاضلة الثريا بنت محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن، وهو سراج الدين– أىْ الحسن– بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن على بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه[6] .

---

(1) ينظر: بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، حسين أحمد العرشى، مراجعة وتصحيح محمد سالم شجاب، مكتبة الإرشاد، ط1، عام 2008م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 60.

(2) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى،القسم الثالث، 3/ 1224 .

(3) ينظر: الانتصار على علماء الأمصار فى تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل علماء الأمة، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق عبد الوهاب على المؤيد، على أحمد مفضل، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط2، عام 1425هـ، عمان، الأردن، 1/ 100 .

(4) ينظر: المنهاج فى شرح جمل الزجاجى، يحيى بن حمزة العلوى، دراسة وتحقيق د . هادى عبد الله ناجى، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، عام 1999م، مكتبة الرشد، ط1، عام 2009م، الرياض، المملكة السعودية، 1/ 22، 179 .

(5) ينظر: نفسه، 1/ 22. التحف فى شرح الزلف، 258، 259 .

(6) ينظر: الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق خالد المتوكل، إشراف عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 1/ 45. التحف فى شرح الزلف، 258، 259 .

أما أولاده: فسبعة من الذكور، وهم الهادى والمهدى ومحمد وأحمد والحسين وعبد الله وإدريس، وعقبهُ من الهادى ومحمد[1]، وست من الإناث، ولما كانت مخطوطة (سيرة الإمام يحيى بن حمزة)، قد سقط بعض أوراقها؛ فإنه ذكر منهم خمسة، وانتهى الموجود منها عند الحديث عن أولاد الهادى، وهذا ترتيبهم كما ورد[2]:

أولاً: عبد الله بن يحيى، كان صالحًا عالمًا فاضلاً تقيًا، ممّن يشار إليه بالإمامة، أقام فى هجرة حوث[3]، ثم انتقل إلى صنعاء، ولم يزل فيها إلى أن توفى بها سنة 788هـ.

ثانيًا: محمد بن يحيى، كان عالمًا جوادًا سمحًا، لزم حوث، ولم يخرج منها، وبنى فيها مسجد الشجرة الذى تحول إلى مدرسة، وأنفق على العلماء وطلبة العلم فيها الذين يقدرون ما بين خمسين إلى ستين شخصًا، كانت وفاته فى شعبان سنة 788هـ، فى هجرة حوث.

ثالثًا: أحمد بن يحيى، كان عالمًا صالحًا فاضلاً زاهدًا، اشتغل بطلب العلم وأخذ عن والده، وتوفى وهو شاب فى حياة والده فى الثانى عشر من شهر ربيع الآخر سنة 748هـ، فى حصن هران[4].

رابعًا: إدريس بن يحيى، كان عالمًا فاضلاً فطنًا، طلب العلم على يد والده، وكان فارسًا شجاعًا، كان خطاطًا ماهرًا كتب كثيرًا من تصانيف والده، انتقل من حوث إلى صنعاء، وتوفى بها ولم يذكر تاريخ وفاته.

خامسًا: الهادى بن يحيى، كان عالمًا صالحًا ناسكًا فاضلاً زاهدًا فى الدنيا، برع فى العربية وعلم الكلام وأصول الفقه والفقه، وكان خطيبًا مفوهًا وقارئًا حسن الصوت، وكان إمام وخطيب مسجد الشجرة، أقام أول مدته مع إخوته فى حوث، ثم انتقل مع أهله وأولاده إلى الشرف وسكن المحطور[5] حتى توفى فى شعبان سنة 796هـ، ومن أولاده عبد الله صاحب سيرة جده يحيى بن حمزة.

---

(1) ينظر: التحف فى شرح الزلف، 271.

(2) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق 147– 150.

(3) مدينة شمال صنعاء، وقرب محافظة صعدة، على بُعد 300كم من صنعاء تقريبًا، وسُمى بساكنه حوث بن حاشد. ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، ط3، عام 1403هـ، بيروت، لبنان، 1/ 474. الأعلام، خير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، ط5، عام 1980م، بيروت، لبنان، 1/ 50.

(4) وهو حصن مطل على مدينة ذمار باليمن. ينظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموى، دار الفكر، بيروت، لبنان، 5/ 396.

(5) المحطور قرية بحصن منبع فى بلاد الشرف، وهما فى محافظة حَجَّة. ينظر: هجر العلم ومعرفة معاقله فى اليمن، إسماعيل على الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، عام 1995م، 4/ 1956.

مولده ونشأته

ولد بصنعاء فى السابع والعشرين من صفر سنة تسع وستين وستمائة للهجرة[1]، وقيل: ولد بحوث[2]، والراجح مولده بصنعاء، وإنما انتقل إلى حوث فى فترة لاحقة، حفظ القرآن الكريم، واشتغل بطلب المعارف العلمية، وهو صبى، فأخذ فى جميع أنواعها على أكابر علماء الديار اليمنية، فرحل إلى حوث، فقرأ أكثر العلوم وتبحّر فى جميع العلوم، وفاق أقرانه، وصنف التصانيف الحافلة فى جميع الفنون حتى قيل بلغت مائة مجلد، ويُروى أن كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره[3].

شيوخه

من أجلّ شيوخه خاله الناصر لدين الله يحيى بن محمد السراجى المتوفى سنة 696هـ، والفقيه عامر بن زيد الشماخ[4]، ولم يرد تاريخ وفاته، ومن مشائخه- أيضًا-:

العلامة محمد بن خليفة بن سالم بن محمد يعقوب الهمدانى، المتوفى سنة 675هـ، قرأ عليه أكثر العلوم، كعلم الكلام وغيره[5].

والعلامة المطهر بن يحيى، المتوفى سنة 697هـ، أخذ عنه كتاب (أصول الأحكام) لأحمد بن سليمان[6].

والعلامة إبراهيم بن محمد إبراهيم الطبرى الشافعى المتوفى سنة 722هـ، وقد أجازه فى صحيح البخارى ومسلم، وكتاب الترمذى، والسنن للنسائى، ومسند أبى حاتم، وشرح السنة للبغوى، والناسخ والمنسوخ لمحمد الحارثى، والوسيط فى تفسير القرآن للواحدى[7].

---

(1) ينظر: البدر الطالع ، 2/ 184 . مصادر التراث اليمنى فى المتحف البريطانى، د . حسين العمرى، دار المختار للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، عام 1980م، دمشق، سوريا، 176 .

(2) ينظر: هجر العلم ومعرفة معاقله، 1/ 504 .

(3) ينظر: البدر الطالع، 2/ 184 . مصادر التراث اليمنى فى المتحف البريطانى، 176 .

(4) ينظر: مصادر الفكر الإسلامى فى اليمن، عبدالله محمد الحبشى، منشورات المجمع الثقافى، عام 2004م، أبو ظبى، الإمارات العربية المتحدة، 643، 644 .

(5) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث 3/ 1224، 1225 . وتاريخ الوفاة غير صحيح حيث ثبت ما كُتب على ضريحه أن وفاته يوم الجمعة فى العشر الوسائط من شهر ربيع الآخر سنة 695 هـ .

(6) ينظر: نفسه ،3 / 1225 .

(7) ينظر: نفسه، 3/ 1225، 1226، 1315 .

والعلامة الواثق محمد بن المطهر بن يحيى المتوفى سنة 728هـ[1].

والعلامة محمد بن أحمد الطبرى، المتوفى سنة 730هـ[2].

والعلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعروف بابن الواطن، ولم يرد تاريخ وفاته، وقد أجازه فى كتاب (شمس العلوم) فى اللغة لنشوان الحميرى، وكتاب (التهذيب) فى التفسير للحاكم الجشمى[3].

والعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الشاورى، ولم يرد تاريخ وفاته، وقد أخذ عنه كتاب(الفائق) فى الحديث[4].

الفقيه حمزة بن على،ولم يرد تاريخ وفاته، وقد أجازه فى كتاب (المهذب) فى الفقه لأبى إسحاق الشيرازى[5].

والعلامة عفيف الدين سليمان بن أحمد الألهانى، ولم يرد تاريخ وفاته، وقد سمع عليه (سنن أبى داود، وسيرة ابن هشام، وأمالى أبى طالب، ونهج البلاغة)[6].

والعلامة على بن سليمان البصير، ولم يرد تاريخ وفاته[7].

والعلامة محمد الأصبهانى، ولم يرد تاريخ وفاته، ومن جملة ما سمع عليه (أمالى أبى طالب)، و(مجموع الإمام زيد بن على)[8].

مذهبه الدينى

الإمام يحيى بن حمزة من أكابر أئمة المذهب الزيدى الذى يُنسب إلى الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ولد سنة 75هـ، واستشهد سنة 122هـ، والزيدية يجمعهم القول بإمامة الإمام زيد- رضى الله عنه-، وإن لم يكونوا على مذهبه فى مسائل الفروع، وتفضيل الإمام على- كرم الله وجهه-، ويقولون بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[9]، ومن الطبيعى أن يكون مذهبه زيديًا، فقد ولد لأبوين مذهبهما المذهب الزيدى، وعاش فى بيئة تدرس المذهب الزيدى.

---

(1) ينظر: نفسه، 3/ 1226.
(2) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، 3/ 1226.
(3) ينظر: نفسه.
(4) ينظر: نفسه، 1/ 205، 3/ 1225.
(5) ينظر: نفسه، 1/ 410، 3/ 1226.
(6) ينظر: نفسه، 1/ 77، 3/ 1225.
(7) ينظر: نفسه، 3/ 1225.
(8) ينظر: نفسه.
(9) ينظر: المنية والأمل فى شرح الملل والنحل، الإمام أحمد بن يحيى المرتضى، دار الندى، ط2، عام 1990م، بيروت، لبنان، 96.

ومن شأن الفكر الزيدى فتح باب الاجتهاد، وتحريم التقليد على المجتهد، وحُجية العقل[1]، فترتب على ذلك سعى منتسبيه إلى بلوغ الاجتهاد بالاطلاع والاستقراء الواسع للعلوم لاسيما علوم اللغة العربية حيث تُعد لديهم من علوم الآلة أىْ أنها صارت بمنزلة الآلة لكل العلوم لا تحقق معالجتها من دونها[2]، وفضلاً عن ذلك انفتاح علماء المذهب على الآخر والاستزادة منه، وجعْل العقل معيارًا ووسيلة للبحث والنظر والاجتهاد، مما جعلهم يأتون بالجديد العلمى المعتمد على ترجيحات العقل، ولذا فلا عجب من ظهور الإمام يحيى بن حمزة بتلك الجهود العلمية فى أغلب العلوم، والتى سيتم تفصيلها فى المبحث الثالث من هذا الفصل.

دعوته

دعا الإمام يحيى بن حمزة لنفسه بالإمامة انطلاقاً من مذهبه الذى يضع شروطاً متى اجتمعت فى المرء فإن له الخروج والدعوة إلى نفسه، وكانت دعوته فى الثانى من شهر رجب سنة 729هـ [3]، وقيل سنة 730هـ [4]، وهو أول الدعاة الحسينيين فى اليمن[5]، وكان ظهوره فى بلاد صعدة، وبلاد الشرف، ونهض إلى صنعاء، فقاتل الإسماعيليين وانتهى بالصلح، وعارضه فى القيام بأمر الإمامة الواثق المطهر ابن محمد بن المطهر المتوفى سنة 802هـ، ثم تنحى عنها للإمام يحيى بن حمزة[6]، والناصر على بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين المتوفى سنة 730هـ [7]، والداعى إلى الله أحمد بن على بن أبى الفتوح المتوفى سنة 750هـ [8]، ولكن الناس أجابوا دعوة الإمام يحيى بن حمزة، والتفوا حوله.

تلامذته

أخذ عن الإمام يحيى بن حمزة علماء، منهم:

---

(1) ينظر: الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى، د. أحمد شوقى إبراهيم العمرجى، مكتبة مدبولى، ط1، عام 2000م، القاهرة، مصر، 205.

(2) ينظر: الانتصار، 1/ 83- 90.

(3) ينظر: مآثر الأبرار فى تفصيل مجمل جواهر الأخبار، محمد بن على بن يونس الزحيف، تحقيق عبد السلام الوجيه، خالد المتوكل، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2002م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 2/ 973.

(4) ينظر: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، يحيى بن الحسين بن القاسم، تحقيق د. سعيد عاشور، د. محمد زيادة، دار الكتاب العربى، عام 1388هـ، القاهرة، مصر، 2/ 511. إتحاف المهتدين، 65.

(5) ينظر: بلوغ المرام، 60.

(6) ينظر: إتحاف المهتدين، 66.

(7) ينظر: نفسه، 64.

(8) ينظر: نفسه، 66.

العلامة محمد بن المرتضى بن المفضل، المتوفى سنة 732هـ، قرأ على الإمام يحيى فأسمعه المعقولات، وقرأ عليه المنقولات والمعقولات[1].

والعلامة أحمد بن حميد بن سعيد الحارثي، المتوفى في عشر الخمسين وسبعمائة، سمع على الإمام يحيى (كتاب البخاري ومسلم)[2].

والعلامة عبد الله بن يحيى بن حمزة (نجل الإمام)، المتوفى سنة 788هـ، وأجازه في مؤلفه (الانتصار)[3].

والعلامة الفقيه الحسن بن محمد النحوي، المتوفى سنة 791هـ، قرأ على الإمام يحيى مؤلفه (الانتصار) جميعه، ولم يسمعه عليه غيره، وأجازه في جميع مسموعاته ومستجازاته، وجميع مؤلفاته[4].

والعلامة إسماعيل بن إبراهيم بن عطية النجراني، المتوفى سنة 794هـ، وأجازه في مؤلفه (الانتصار)[5].

والعلامة علي بن إبراهيم بن عطية النجراني، المتوفى بعد سنة 801هـ، وهو من أجلّ تلامذته، أخذ عنه في كتب الأئمة وشيعتهم كـ (مجموع الإمام زيد بن علي)، و (أمالي أبي طالب)، وغيرهما، وأجازه في مؤلفه (الانتصار)[6].

والعلامة أحمد بن سليمان الأوزري، المتوفى سنة 810هـ، وأجازه في مؤلفه (الانتصار)[7].

والعلامة أحمد بن محمد الشغدري، وأجازه الإمام يحيى بإجازة ذكر فيها الكتب الحاصلة له سماعًا، وكذا الكتب الحاصلة له بطريق الإجازة، ومنها (سنن أبي داود)، و(السيرة لابن هشام)، و(نهج البلاغة)، و(أمالي أبي طالب)، وغيرها، ولم يرد تاريخ وفاته[8].

وفاته

بعد أنْ تمّ الصلح مع الإسماعيليين، ومعارضة أكثر من إمام للإمام يحيى بن حمزة، سار إلى حصن هران المطلّ على ذمار، واشتغل بالتأليف، وتقريب الشقة بين الناس، والنصح لحكام عصره، وقد قيل: إنه كان ميالاً إلى الإنصاف مع بهارة لسان، وسلامة صدر، وعدم

(1) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، 2/ 1071.
(2) ينظر: نفسه، 1/ 248، 3/ 1227.
(3) ينظر: نفسه، 2/ 650، 3/ 1227.
(4) ينظر: نفسه، 1/ 336، 3/ 1227.
(5) ينظر: نفسه، 1/ 248، 3/ 1227.
(6) ينظر: نفسه، 2/ 692، 3/ 1227.
(7) ينظر: نفسه، 1/ 135، 3/ 1227.
(8) ينظر: نفسه، 1/ 117، 3/ 1225، 1226.

الإقدام على التكفير والتفسيق بالتأويل مبالغة فى الحمل على السلامة على وجه حسن، وتوفى بحصن هران، ودفن بذمار، وقبره بها معروف مزور[1]، وكانت وفاته فى التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة 749هـ [2]، وما قيل عن تاريخ وفاته فى سنة 747هـ [3]، فهو غير سليم لأنَّ ابنه أحمد توفى فى حياة أبيه، وذلك سنة 748هـ [4]، فضلاً عن كون الإمام يحيى بن حمزة لم ينته من تأليف كتابه (الانتصار) إلا فى أواخر سنة 748هـ [5]، وأما القول بأنه توفى سنة 705هـ [6]، أىْ قبل التاريخ الذى أجمعت عليه أغلب الكتب التى ترجمة له بأربعة وأربعين عامًا فمردود لأنَّ من قال بذلك قد ذكر أن الإمام يحيى ابن حمزة دعا إلى نفسه بعد وفاة الإمام المهدى محمد بن المطهر، ونصّ قبلاً أن وفاة المهدى محمد بن المطهر كانت سنة 729هـ [7]، والقول بأن وفاته سنة 745هـ [8]، فغير سليم بما تقدم.

---

(1) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1124.

(2) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق 143. هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادى، عام 1955م، استانبول، تركيا، (د)، 2/ 526. مصادر الفكر، 643. الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، د. أحمد محمود صبحى، منشورات العصر الحديث، ط1، عام 1990م، بيروت، لبنان، 23. هجر العلم، 1/ 504.

(3) ينظر: غاية الأمانى، 2/ 511.

(4) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، 148.

(5) ينظر: الانتصار،1/ 102.

(6) ينظر: البدر الطالع، 2/ 185.

(7) ينظر: نفسه، 2/ 144.

(8) ينظر: بلوغ المرام، 60.

المبحث الثانى

مؤلفاته

يُعدّ الإمام يحيى بن حمزة موسوعة فى شتى العلوم، فما يُوجد ضمن مؤلفاته زهاء سبعين مؤلفًا[1] بين مخطوط ومطبوع موزعة على علم اللغة، وعلم البلاغة، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه والفقه وفنون متفرقة، فضلاً عن بعض المراسلات والجوابات والدعوات والتعازى والفتاوى، وهذه المؤلفات ليست على مستوى واحد، فمنها ما هو فى مجلدات عدة، ومنها ما هو عبارة عن رسالة قصيرة، وهذا حصر لها موزعة حسب العلوم، ومرتبة داخلها حسب الحروف الهجائية.

أولاً: اللغة

1- الأزهار الصافية شرح مقدمة الكافية، جزءان فى النحو، وُجد فى المكتبة الغربية للجامع الكبير بصنعاء برقم (1، 2)، وورد باسم الأنهار الصافية فى شرح المقدمة الكافية[2]، وقد حقق الجزء الأول منه محمد على سالم العطاونة، ونال به درجة الدكتوراة من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام 1982م، القاهرة، مصر، وحقق الجزء الثانى منه عبد الحميد مصطفى السيد، ونال به درجة الدكتوراة من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام 1982م، القاهرة، مصر، (وسيرد الحديث عنه فى المبحث الثالث من هذا الفصل).

2- الاقتصار، مخطوط فى النحو، جعله كالمدخل إلى كتاب المفصل، مفقود[3].

3- إكليل التاج وجوهرة الوهاج، مخطوط[4].

4- الحاصر لفوائد المقدمة لطاهر[5]، وهو مجلد فى النحو، وقد حققه زكريا محمد حسن على، ونال به درجة الماجستير من قسم النحو والصرف فى كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام1994م، القاهرة، مصر. (وسيرد الحديث عنه فى المبحث الثالث من هذا الفصل).

---

(1) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1124.

(2) ينظر: أئمة اليمن، محمد بن محمد زبارة، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، عام 1984م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 229.

(3) ينظر: البدر الطالع، 184/2. أئمة اليمن، 229. وضبطه الأول بالدال المهملة (الاقتصاد).

(4) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1125.

(5) ورد الكتاب بعناوين كثيرة، فما ورد فى تحقيق زكريا محمد حسن على هو (الحاصر لفوائد المقدمة لطاهر)، وفى نسخة مخطوطة بمكتبة العلامة محمد المنصور، صنعاء (الحاصر لفوائد المقدمة فى علم الإعراب)، وفى مكتبة وزارة الأوقاف برقم 1700 (الحاصر فى شرح مقدمة طاهر)، وذكر أيضًا بعنوان (الحاصر لفوائد مقدمة طاهر)، وذلك فى البدر الطالع، 2/ 184.

5- المحصل فى كشف أسرار المفصل، أربعة مجلدات، وقد حقق الجزء الأول خالد عبد الحميد أبو جندية، ونال به درجة الدكتوراة من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام1982م، القاهرة، مصر. (وسيرد الحديث عنه فى المبحث الثالث من هذا الفصل).

6- المنهاج الجلى فى شرح جمل الزجاجى، وقد حققه هادى عبدالله ناجى، ونال به درجة الدكتوراة من كلية الآداب، جامعة بغداد، عام1999م، بغداد، العراق. (وسيرد الحديث عنه فى المبحث الثالث من هذا الفصل).

ثانيًا: البلاغة

1- الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية، (وسيرد الحديث عنه فى القسم الثانى: التحقيق من هذه الدراسة).

2- الإيجاز لأسرار كتاب الطراز فى معرفة حقائق الإعجاز، سفران فى مجلد، وهو مختصر لكتابه (الطراز) فى البلاغة، وقد حققه الدكتور رياض القرشى، ونال به درجة الماجستير من كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام1984م، القاهرة، مصر.

3- الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى، وهو شرح لكتاب (نهج البلاغة) للإمام على بن أبى طالب- كرم الله وجهه- فى ستة أجزاء، تحقيق خالد قاسم المتوكل، إشراف عبد السلام عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

4- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، طبع بعناية دار الكتب المصرية، وبتصحيح سعد بن على المرصفى فى مطبعة المقتطف، عام 1332هـ، وهو فى ثلاثة أجزاء.

5- مختصر الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية، مخطوط، (وسيرد الحديث عنه فى القسم الثانى: التحقيق من هذه الدراسة).

ثالثًا: علم الكلام (أصول الدين)

1- الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، تحقيق فيصل بدير عون، راجعه د. على سامى النشار، منشأة المعارف، عام1971م، الإسكندرية، مصر.

2- التحقيق فى الإكفار والتفسيق، مجلد مخطوط، موجود فى مكتبة الأستاذ حسين السياغى[1]، وورد بعنوان: التحقيق فى التكفير والتفسيق[2] وقد ذكره صاحبه فى كتابه (الأنوار المضيئة) بعنوان: التحقيق فى الإكفار والتفسيق[3].

3- التمهيد لأدلة مسائل التوحيد، وورد باسم التمهيد لعلوم العدل والتوحيد، مخطوط فى مجلدين، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (61 علم الكلام)[4].

4- الجواب الرائق فى تنزيه الخالق عن مشابهة الممكنات والكون من الأرجاء والجهات، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

5- الجواب القاطع للتمويه عمّا يرد على الحكمة والتنزيه، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

6- الجواب الناطق بالصواب القاطع لعرى الشك والارتياب، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

7- الرسالة المفيدة، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (83، 13) مجاميع.

8- الرسالة الوازعة لذوى الألباب عن فرط الشك والارتياب، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

9- الرسالة الوازعة لصالح الأمة عن الاعتراض على الأئمة، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

10- الشامل لحقائق الأدلة العقلية، وأصول المسائل الدينية، أربعة أسفار فى مجلدين مخطوطين، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (88 علم الكلام)، وهو من أهم كتبه الكلامية[5].

11- القسطاس، جزءان فى مجلد، مخطوط، ولم يرد مكان وجوده[6].

12- مشكاة الأنوار للسالكين مسالك الأبرار، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، برقم (67 علم

---

(1) ينظر: البدر الطالع، 2/ 184، أعلام المؤلفين الزيدية، 1126.
(2) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث،3/ 1229. التحف فى شرح الزلف، 271.
(3) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 195.
(4) ينظر: البدر الطالع، 2/ 184. أعلام المؤلفين الزيدية، 1126.
(5) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1129.
(6) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق2. وورد فى التحف فى شرح الزلف: أنه كتاب فى أصول الفقه، 271.

الكلام)[1].

13- مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار، مجلد، حققه الدكتور محمد السيد الجليندى، منشورات دار الفكر الحديث، عام1962م، القاهرة، مصر.

14- المعالم الدينية فى العقائد الإلهية، مجلد، وهو مختصر لكتابه (الشامل)، حققه سيد مختار محمد حشاد، دار الفكر المعاصر، عام1988م، بيروت، لبنان.

15- نهاية الوصول إلى علم الأصول، مخطوط فى ثلاثة مجلدات[2]، وورد باسم النهاية فى الوصول إلى حقائق علوم الأصول، وموجود منه نسخة مصورة بمكتبة العلامة محمد عبد العظيم الهادى بصعدة[3].

16- الوعد والوعيد وما يتعلق بهما، مخطوط، ولم يرد مكان وجوده[4].

رابعًا: أصول الفقه

1- الحاوى لحقائق الأدلة الفقهية وتقرير القواعد القياسية، مخطوط، فى ثلاثة مجلدات، ومنه نسخة مصورة من السفر الثانى فى مكتبة المصطفى بمركز بدر العلمى والثقافى بصنعاء[5].

2- الكوكب الوقاد فى أحكام الاجتهاد، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم(106) مجاميع.

3- المعيار لقرائح النظار فى شرح الأدلة الفقهية وتقرير القواعد القياسية، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (1487 علم الكلام)، وأخرى فى مكتبة العلامة المرتضى بن عبد الله الوزير، بمحافظة صنعاء[6].

خامسًا: الفقه:

1- الانتصار على علماء الأمصار فى تقرير المختار من مذاهب الأئمة، وأقاويل علماء الأمة فى المسائل الشرعية

---

(1) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1130.

(2) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق2.

(3) ينظر: البدر الطالع، 2/ 184. أعلام المؤلفين الزيدية، 1131.

(4) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1131.

(5) ينظر: البدر الطالع، 184/2. الحقائق الراهنة فى المائة الثامنة، الشيخ آغا بزرك الطهرانى، تحقيق على تقى فنزوى، ط1،عام 1975م، بيروت، لبنان، 238. أعلام المؤلفين الزيدية، 1127.

(6) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1130.

والمضطربات الاجتهادية؛ وهو موسوعة شاملة لأقوال مختلف المذاهب، والعلماء فى الفقه الإسلامى، ويقع فى ثمانية عشر مجلدًا[1]، طبع منه الثلاثة المجلدات الأولى، تحقيق عبد الوهاب على المؤيد، وعلى أحمد مفضل، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، 2005م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

2- الاختيارات المؤيدية[2]، ويُسمى اختيارات المؤيد بالله[3]، مجلد مخطوط، يوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين برقم (4879)[4].

3- الإيضاح لمعانى المفتاح، مجلد مخطوط فى الفرائض، ولم يرد مكان وجوده[5].

4- الجواب المصلح للدين الموضح لسنن سيد المرسلين، مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

5- الجوابات الوافية بالبراهين الشافية، مخطوط يُوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم(106) مجاميع.

6- العدّة فى المدخل إلى العمدة، جزءان فى مجلد مخطوط[6].

7- العمدة فى مذاهب الأئمة، فى ستة مجلدات، مخطوط، ومنه الجزء الثالث والرابع مصورتان بمكتبة العلامة محمد عبد العظيم الهادى بصعدة[7].

8- الكاشف للغمة عن الاعتراض على الأئمة، مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

9- نور الأبصار المنتزع من كتاب الانتصار، مخطوط يوجد فى مكتبة جامع شهارة الكائن بمدينة شهارة بمحافظة حجة[8].

سادسًا: علوم متفرقة

1- أطواق الحمامة فى حمل الصحابة على السلامة، مخطوط بمكتبة آل يحيى بمدينة تريم بحضرموت[1].

---

(1) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق2.

(2) ينظر: أئمة اليمن، 229، وقد أشار بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى 2186/2 إلى وجود نسخة منه فى الهند.

(3) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1125.

(4) ينظر: المحصل فى كشف أسرار المفصل، الإمام يحيى بن حمزة العلوى، أطروحة دكتوراة مقدمة من خالد عبد الحميد أبو جندية إلى كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام1982م، القاهرة، مصر، 35.

(5) ينظر: البدر الطالع، 184/2. الحقائق الراهنة، 238.

(6) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق2.

(7) ينظر: سيرة الإمام يحيى بن حمزة، ق2. الحقائق الراهنة، 239.

(8) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1131.

2- تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، وهو كتاب فى الزهد والتصوف تحقيق إسماعيل بن أحمد الجرافى، إشراف أحمد على الهيصمى، المكتبة السلفية، عام1185م، القاهرة، مصر.

3- خطب الشهور والسَنة، مخطوط، ومنه نسخة مصورة بمكتبة العلامة محمد عبد العظيم الهادى بصعدة[2].

4- خلاصة السيرة، لخّص فيه سيرة ابن هشام، مخطوط، ولم يرد مكان وجوده[3].

5- الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب أصحاب سيد المرسلين، وهو مطبوع بالمطبعة المنيرية، عام1348هـ، القاهرة، مصر.

6- عقد اللآلى فى الرد على أبى حامد الغزالى، مخطوط، وموجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع، وردّ فيه على أبى حامد فى مسألة إباحته للسماع.

7- القانون المحقق فى علم المنطق، مخطوط، وورد باسم الفائق المحقق فى علم المنطق، ولم يرد مكان وجوده[4].

8- اللباب فى محاسن الآداب، مخطوط، وموجود فى مكتبة الأمبروزيانا برقم (124 g)[5].

سابعًا: إجازاته وتعازيه وجواباته على الأسئلة ودعواته ورسائله وفتاويه ووصاياه

1- إجازة للفقيه أحمد بن سليمان بجانب كتاب (المعيار)، مخطوط، موجود بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (84 علم الكلام)[6].

2- أسئلة الفقيه أحمد بن سليمان الأوزرى، والأجوبة عليها من المؤلف، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموعة رقم (11)[7].

3- تعزية إلى الشيخ أحمد بن حسن الرصاص، بوفاة الشيخ على بن محمد الرصاص، مخطوط[8].

---

(1) ينظر: حكام اليمن الأئمة المجتهدون، عبدالله الحبشى، دار القرآن الكريم، ط1،عام 1979م، بيروت، لبنان، 565. الزيدية، د. أحمد صبحى، الزهراء للإعلام العربى، ط1،عام 1984م، القاهرة، مصر، 256.

(2) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1127.

(3) ينظر: الأعلام للزركلى، 144/8.

(4) ينظر: الانتصار، 1/ 127.

(5) ينظر: الأعلام للزركلى، 144/8.

(6) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1124.

(7) ينظر: الانتصار،1/ 112.

(8) ينظر: نفسه،1/ 117.

4- تعزية فى الفقيه أحمد بن يحيى إلى فقهاء بيت حنش[1].

5- جواب الإمام يحيى بن حمزة لرجل من الشام يسأله عن أحواله، ومصنفاته، مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

6- جوابات ثمانية وثلاثين سؤالاً، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106 مجاميع)[2].

7- جوابات مسائل حول الشفعة والجوار، مخطوط[3].

8- دعوة الإمام يحيى بن حمزة إلى أمراء آل عماد الدين، مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

9- دعوة الإمام يحيى بن حمزة إلى سلطان اليمن المجاهد، مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

10- الدعوة العامة، مخطوط، يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

11- رأى الإمام يحيى بن حمزة فى أبى بكر وعمر- رضى الله عنهما- مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

12- رسالة إلى الإخوان بالظاهرية، ومشائخ بنى سعد بن حجاج أهل الظفير بحجة، مخطوط يوجد فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم(106) مجاميع.

13- رسالة فى بيان المصدر والحاصل له، مخطوط، موجود فى مكتبة حسين السياغى بصنعاء[4].

14- عهده إلى بعض قضاته، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

15- فتاوى، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

16- كتاب إلى الإخوان بمدينة حوث، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

17- كتاب إلى الأمير عبد الله بن أحمد القاسم، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

18- كتاب إلى الفقيه مسعود بن محمد الحويت، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

---

(1) ينظر: نفسه، 1/ 117.

(2) ينظر: نفسه، 1 / 116.

(3) ينظر: نفسه، 1 / 123.

(4) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1128.

19- من كلام الإمام يحيى بن حمزة فى المنع بالفتوى بمذهب الناصر، وفى جواب سؤال رد عليه، وكلامه وقد طالع كتاب التصفية للفقيه محمد الديلمى، وكلامه فى جواز التقليد، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

20- وصاياه إلى أولاده وأزواجه، مخطوط، موجود فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

المبحث الثالث

جهوده ومكانته العلمية

من خلال سرد مؤلفات الإمام يحيى بن حمزة يتراءى مجهوده الضخم الذى لم يقتصر على علم واحد من العلوم بل تعداه إلى علوم فى مجالات شتى فضلاً عن كون هذه الجهود متعمقة ومتبحرة فى كل تلك المجالات التى صنف فيها، ولعل هذا راجع إلى طريقة التعليم المتبعة فى بيئته حيث كان التعليم الإلزامى فى بيئته أمرًا يجب الخضوع له، وكان التحصيل العلمى فى شتى العلوم، فطالب العلم يدرس علوم اللغة والبلاغة وعلوم القرآن والحديث وعلم الكلام والمنطق وأصول الفقه والفقه فضلاً عن كتب الأخلاق والزهد وغيرها . . .، وتدرس جميعها على حد سواء، ولذا فلا غرابة إن كان الإمام يحيى بن حمزة قد صنف فى شتى تلك العلوم تصنيفاً يمكن وصفه بالمتعمق[1] .

وهنا يمكن الكشف عن جهوده فى بعض تلك المصنفات وما فيها من إضافات فى تلك المجالات، وتوفيقات فى الآراء والأقوال فضلاً عن الجديد فى حقول المعارف، مع انتصاره للحق، ودعوته للتسامح، وإصلاحاته الاجتماعية، ليُستشف من ثَم مكانته العلمية من خلال آثاره الظاهرة للعيان.

لقد حاز الإمام يحيى بن حمزة بجهوده العلمية مكانة فريدة بين علماء عصره والعصور اللاحقة، فهو موسوعة علمية ندر أن يكون لها نظير فى تلك الحقبة الزمنية من تاريخ اليمن، فقد بلغ الذروة فى شتى العلوم ولاسيما فى البلاغة، فكتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز) من أهم المصادر فى البلاغة، وعليه يعول الكثير من الباحثين والدارسين[2]، فضلاً عن كتابه (الإيجاز لأسرار كتاب الطراز فى علم البيان ومعرفة الإعجاز)، الذى جعله مختصِرًا لكتابه (الطراز) .

إنه عند دراسته علوم البلاغة استطاع الجمع بين طريقة عبد القاهر الجرجانى ت 471هـ المبنية على دراسة النصوص البيانية، واستخراج مناهج البلاغة فيها، وطريقة السكاكى ت626هـ وغيره[3]، فالسكاكى فى كتابه (مفتاح العلوم) قد ضبط الحدود والتعاريف لعلوم البلاغة، ونظم قواعده، ورتب أبوابه وفصوله، أما عبد القاهر الجرجانى، فدراسته تقوم على تحليل وتعليل من الزاوية الجمالية بتذوق نقدى أصيل، لا على قواعد صارمة ليس فيها إحساس نقدى، فعندما انتهى من كتابه (دلائل الإعجاز)–

---

(1) ينظر: الإمام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى، 71، 72 .

(2) ينظر: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة، 11– 19 .

(3) ينظر: الإمام زيد حياته وعصره وفقهه، محمد أبو زهرة، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان، 505، 909 .

الذى تحدث فيه حول المعنى، جاعلاً النظم أساس الجمال فى النصوص، ولا يكون الإعجاز إلا به[1]– حاول أن يخصص كتابًا لدراسة (معنى المعنى)، فكان كتابه (أسرار البلاغة) يرفع فيه من قيمة الفكرة الدقيقة، ويرى الاهتداء إليها من أهم ضروب اللذة النفسية فى تتبع صور الجمال، فمثلاً عندما درس التشبيه والتمثيل والاستعارة، فإنه أشار دائمًا إلى أنَّ (معنى المعنى) يقوم على مستويات متفاوتة فى الدلالة والتأثير معًا، وهو فى ذلك ينظر نظرة عميقة شاملة تدل على عمق نفسى فكرى مع مسحة فائقة الجمال[2].

فطريقة كل من الجرجانى والسكاكى عند تناول علوم البلاغة واضحة وبينة، ويمكن التساؤل كيف استطاع الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه (الطراز) أنْ يجمع بين الطريقتين ؟ وما آلية تلك الطريقة ومميزاتها ؟

لقد جعل الإمام يحيى بن حمزة كتابه (الطراز) فى ثلاثة مجلدات تنطوى على ثلاثة فنون، فالفن الأول والثانى خصّه لرسم القواعد وضبط الحدود الخاصة بعلوم البلاغة ومقدمات تلك العلوم، والفن الثالث شرح الآيات القرآنية بتذوق جمالى، يعتمد فيه على الفكرة الدقيقة فى تحليل أسرار فصاحة القرآن الكريم وبلاغته، وفى كونه معجزًا وأوجه إعجازه هذا إجمالاً، وتفصيل ذلك؛ لقد صدّر الإمام يحيى بن حمزة كتابه (الطراز) بمقدمة أورد فيها شرف العلوم الأدبية، وأشار إلى أنَّ أمير جندها هو علم البيان؛ لأنه المطلع على أسرار الإعجاز لما اكتنفه من دقة الرموز مع غموضها، فضلاً عن احتوائه على الأسرار والكنوز، استولت عليه يد النسيان، وآلت نجومه إلى الأفول، وذكر أنَّ المقصود من تصنيف الكتاب الإشارة إلى معاقد هذا العلم، والتنبيه على مقاصده، وقد نظر فى التصانيف التى بين يديه فى هذا العلم، فكان أصحابها على منحيين: الأول: باسط كلامه نهاية البسط، فكان آفته الإملال، والثانى: أوجز فيه غاية الإيجاز، فكان آفته الإخلال، وبعد ذلك أشار إلى تميز كتابه بالترتيب العجيب الذى يطلع الناظر على مقاصد هذا العلم، فضلاً عن اشتماله على التسهيل والتيسير والإيضاح، ثم ذكر ما ينطوى عليه كتابه من فنون حيث جعل الفن الأول مختصًا بمرسوم المقدمات السابقة التى تتناول تفسير علم البيان من بيان ماهيته وموضوعه ومنزلته من العلوم الأدبية، فضلاً عن ذكر ثمرته، والفن الثانى مختصًا بمرسوم المقاصد اللائقة التى تتناول مباحث علم البيان وأقسامه، ثم مباحث علم المعانى وعلومه، ثم مباحث علم البديع وأقسامه، والفن الثالث مختصًا بذكر فصاحة القرآن الكريم، وأنه قد وصل الغاية التى لا غاية فوقها، فضلاً عن ذكر كونه معجزًا مع ذكر أوجه إعجازه[3].

وقد التزم فى كتابه المنهج الذى حدده فى المقدمة؛ حيث جعل الفن الأول والثانى مختصًا بالحدود والتعاريف لكل ما تناوله

---

(1) ينظر: دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانى، تحقيق د. محمد التنجى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1995م، بيروت، لبنان، 76– 78، 292.

(2) ينظر: تاريخ النقد الأدبى عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، ط4، عام 1983م، بيروت، لبنان، 421 – 440.

(3) ينظر: الطراز، 1/ 1– 8.

من مباحث بلاغية مبتدئًا بذكر الحد اللغوى فالاصطلاحى مع ذِكره لتعاريف من سبقه حيث يورد التعريف ثم يحلله ويدعمه ويؤيده أو ينقضه ويلتمس له العذر، وقد يخرج بتعريف يتفرد به، وفى الثلاث الحالات يورد أمثلة وشواهد سواء تؤيد ما ذهب إليه أو تؤيد ما نقض من تعاريف أو ما تفرد به، وهو عند عرضه لما تضمنه الفنان يرتب مباحثه فى تبويبات وتقسيمات وتفريعات منتظمة يتخللها تنبيهات ودقائق وخيالات، فضلاً عن سعيه إلى التبسيط والتوضيح، وهذا مثال من كلامه قد يظهر بعض ما تمّ الإشارة إليه عن هذين الفنين، ففى الباب الأول من الفن الثانى خصّ البحث الأول بذِكر ماهية الاستعارة المجازية حيث قال: «اعلم أنّ الاستعارة المجازية مأخوذة من الاستعارة الحقيقية، وإنما لُقب هذا النوع من المجاز بالاستعارة أخذاً لها مّما ذكرناه؛ لأنّ الواحد منا يستعير من غيره رداء ليلبسه، ومثل هذا لا يقع إلا من شخصين بينهما معرفة . . .، وهذا الحكم جارٍ فى الاستعارة المجازية، فإنك لا تستعير أحد اللفظين للآخر إلا بواسطة التعارف المعنوى . . .، فأما معناه فى مصطلح علماء البيان، فقد ذُكر فى تعريف ماهيتها أمورًا خمسة»[1]، وبعد تبسيطه لمفهوم الاستعارة وتوضيحه لها أورد تعاريف خمسة حيث قال: «التعريف الأول: ذكره الرمانى، وحاصل ما قاله فى الاستعارة: أنها استعمال العبارة لغير ما وضعت له فى أصل اللغة، ، وهو فاسد من أوجه ثلاثة، أما أولاً: فلأنّ هذا يلزم منه أن يكون كل مجاز من باب الاستعارة، وهو خطأ، فإن كل واحد من الأودية المجازية له حدّ يخالف حدّ الآخر وحقيقته، فلا وجه لخلطها، وأما ثانيًا: فلأنّ هذا يلزم عليه أنْ تكون الأعلام المنقولة يدخلها المجاز، وتكون من نوع الاستعارة، وهو باطل، وأما ثالثًا: فلأنّ ما قاله يلزم منه أنَّا لو وضعنا اسم السماء على الأرض أن يكون مجازاً، وهذا باطل لا يقول به أحد»[2]، ثم أورد التعريف الثانى، والثالث والرابع، وذكر علة فساد كل واحد منها مستخدمًا آلية رده على التعريف الأول ذاتها، أما التعريف الخامس، فقد اختاره فأورد حد الاستعارة، ثم شرح ذلك الحدّ، فقال: «التعريف الخامس:– وهو المختار– أن يقال تصييرك الشىء الشىء وليس به، وجعلك الشىء للشىء وليس له بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكمًا، ولنفسر هذه القيود، فقولنا: تصييرك الشىء الشىء وليس به، وجعلك الشىء للشىء وليس له، شامل لنوعى الاستعارة، فالأول: كقولك: لقيت أسدًا . . .، والثانى: كقولك: رأيت رجلاً أظفاره وافرة، وقولنا: بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة، كقولك: زيد كالأسد . . .، وقولنا: ولا حكمًا، يحترز به عن صورة واحدة، وهى قولنا: زيد أسد . . .»[3].

وكما ظهر سعى الإمام يحيى بن حمزة فى الفن الأول والثانى من كتابه (الطراز) إلى ما سعى إليه السكاكى من ضبط قواعد هذا العلم، فإنه فى الفن الثالث من كتابه قد سعى فيه إلى تحليل الآيات القرآنية بنَفَس عبد القاهر الجرجانى وطريقته، ويمكن ذِكر

(1) نفسه، 1/ 198.
(2) الطراز، 1/ 198، 199.
(3) نفسه، 1/ 202.

مثال من شرحه يظهر تحليله التذوقى الجمالى، ففى قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾[1]

قال: «فانظر إلى مفردات أحرف هذه الآية ما أسلسها وأرقها وألطفها، ثم فى تأليفها ما أسهله على اللسان . . .، وسيقت على أتم سياق وأعجبه . . .، ابتدأ بقوله: «قيل» إبهامًا للقائل وإعظامًا لأمره . . .، ولم يقل: قال الله . . .، ثم نادى الأرض بالابتلاع للماء. . .، ثم أمر السماء بالإقلاع . . .، ثم قال: «وغيض الماء» تصديقًا لقوله: «ابلعى»، و«اقلعى»، لأنه مهما حصلا غاض الماء لا محالة لعدم ما يمده، ثم قال: «وقضى الأمر» إما فى إهلاكهم، وإما بحصول المرادات فى الأرض بإخراجهم إليها. . .، [ثم شرح المصنف الآية بالإضافة إلى موقعها من علم البيان] فنقول إنّ الله عزّ سلطانه لما أراد أن يظهر فائدة الخطاب اللغوى ساق الكلام على أحسن سياق بتشبيه المراد منه هذه الأمور بالمأمور الذى لا يتأتى منه التأخير عمّا أريد منه لكمال الأمر وجلال هيبته، وشبه تكوين المراد بالأمر الحتم النافذ فى تكوين المقصود إرادة لتصوير اقتداره الباهر، وتقريرًا لاستيلاء سلطانه. . .، وأغرق فى التشبيه، بأن جعلهم كأنهم عقلاء مميزون، قد عرفوه حقّ معرفته، وأحاطوا علمًا بوجوب الانقياد لأمره. . .، فقال من عزّ من قائل: «قيل» على جهة المجاز عن الإرادة، ثم حذف الفاعل، وجعله فى طىّ الفعل إبهامًا وإعظامًا لحاله عن الذكر عند عروض أمر هذه المكونات على جهة الذل والتسخير. . .»[2]، وشرحه لهذه الآية طويل حيث شرحها من الناحية المتعلقة بعلم المعانى فى مفرداتها من تقديم وغيره، وفى تأليف جملها، ثم شرحها من الناحية المتعلقة بعلم البديع فى موقعها من الفصاحة اللفظية، والفصاحة المعنوية[3]، وهو شرح بالطريقة التى تم إيراد طرف منها، وهو مع كل الآيات التى شرحها يتخير الطريقة نفسها، وتعد هذه الطريقة طريقة متميزة يكمن تميزها فى القدرة على إظهار كنوز النص القرآنى البلاغية بشكل منسجم مع الذائقة العربية الأصيلة خالية من التعقيد، تجعل القارئ يستوعب فصاحة القرآن الكريم وبلاغته بسهولة ويسر.

وهنا يمكن الوقوف على كتابه (الإيجاز) الذى جعله الإمام يحيى بن حمزة اختصارًا لكتابه (الطراز) كما ورد فى مقدمة الكتاب[4]، وقد ذكر أيضًا فى المقدمة منهجه فى الشرح، ورتبه على ثلاثة أنماط، النمط الأول: فى المبادئ والمقدمات السابقة، والنمط الثانى: فى المقاصد اللائقة، والنمط الثالث: فى التتمات اللاحقة، وقد التزم ذلك المنهج، جاعلاً تلك الأنماط فى تقسيمات وتفريعات منتظمة، حيث فرّع النمط الأول إلى خمس مقدمات تناول فيها مستند العلوم، وكيفية تحصيل العلم بالمعلومات، ومراتب

---

(1) سورة هود من الآية 44.

(2) الطراز، 3/ 226- 232.

(3) ينظر: نفسه، 3/ 235- 246.

(4) ينظر: الإيجاز، 3.

الأشياء فى الوجود، وأنواع العلوم الأدبية، وتنبيهات متفرقة، وقسّم النمط الثانى إلى ثلاثة أبواب، الأول مختص بمباحث علم المعانى، والثانى مختص بمباحث علم البيان، والثالث مختص بمباحث علم البديع، أما النمط الثالث فقد تحدث فيه عن البرهان على كون القرآن الكريم معجزًا، والفرق بين المعجز والحيلة والشعوذة، وإعجاز القرآن الكريم، ووجوه إعجازه[1].

وعند تناوله تلك المباحث بدأ بتحديد المعنى اللغوى ثم الاصطلاحى، ووقف كثيرًا عند الماهية الاصطلاحية حيث أورد آراء العلماء وتعريفاتهم، وحلل كل رأى وتعريف، وقدم حجج كل العلماء وأدلتهم، وغالبًا ما بدأ مباحثه بمقدمة تبدو متداخلة، ولكن ما إن ينتهى القارئ من المبحث حتى يدرك أن تلك المقدمة ملخص لمبحثه، وعلى سبيل المثال، فإنه عندما درس المجاز والحقيقة كانت النتيجة من مبحثه أن حدد مجالات المجاز فى الاستعارة والكناية والتمثيل، وجعل تلك النتيجة مقدمة ومدخلاً لدراسة هذا المبحث[2].

وقد حاول أن يزيل ما علق بمباحث البلاغة من علوم الكلام والمنطق والنحو والصرف حيث توقف عند القضايا المتعلقة بغير علوم البلاغة، وذلك بعد ذكر طرف يسير، ويشير إلى أن هذا متعلق بعلم الكلام أو النحو ونحوهما، ويحيل القارئ على أن يعود إلى أحد كتبه المتخصصة فى ذلك إذا أراد التوسع[3]، وهنا يمكن القول لقد كانت دراسته لعلوم البلاغة بمعزل عن الدراسات الأخرى.

ويمكن ختم القول عن الكتابين (الطراز)، و(الإيجاز) بأن المصنف لم يغفل كون ما نظّر له فى كتابيه (الطراز)، و(الإيجاز) يحتاج إلى نصوص يسقط عليها ذلك التنظير، وبتحليل تذوقى جمالى، فكان حقله الخصب القرآن الكريم، حيث خصّ الفن الثالث من كتابه (الطراز) بذلك، والنمط الثالث من كتابه (الإيجاز)، ثم التفت إلى كلام أفصح من نطق بالضاد، فتناول أحاديث الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- بالشرح والتفصيل فى كتابه- الذى بين أيدينا- (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية)، لتنال علوم البلاغة النصيب الأوفر من ذلك الشرح، (وسيتم استيفاء النظر فى جهوده البلاغية فى كتابه (الأنوار) فى الفصل الثالث من هذه الدراسة).

ولمكانة علوم البلاغة لدى المصنف، فقد خصّ كتابًا آخر ينطوى على شرح بلاغى ألا وهو كتابه (الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى) الذى سعى فيه لمناقشة وتعليل وتحليل كلام الإمام على بن أبى طالب- كرم الله وجهه- فى كتاب (نهج البلاغة) بروح الناقد المتذوق اللبيب، مقتطعًا من شرحه مساحة واسعة لعلوم البلاغة، ويظهر ذلك جليًّا ابتداءً بمقدمة

---

(1) ينظر: الإيجاز، 32، 33.

(2) ينظر: نفسه، 35.

(3) ينظر: نفسه، 348، 598، 615، 621.

كتابه، فعندما ذكر دوافع التأليف وأغراضه، جعل منها إظهار معانى كلام أمير المؤمنين اللطيفة العجيبة، وبيان أمثلته الدقيقة، ولطائف معانيه الرشيقة، إذ كان كلامه عليه السلام قد رقى إلى غاية الفصاحة والبلاغة، فيتم بذلك الإبانة عن عظيم قدر أمير المؤمنين، فضلاً عن الإبانة عن الحكم الأدبية، وجواهر اللغة العربية[1]، وهو مع دراساته البلاغية يُجسد دور المصنف فى تقديمه الشواهد الكثيرة من المنظوم والمنثور والإفاضة فى تحليلها التى تعيدنا إلى عصر التذوق البلاغى[2].

إن مقدرة الإمام يحيى بن حمزة الفائقة فى تناوله علوم البلاغة، وعرضه للمسائل بأسلوب دقيق وسلس، وبلغة سليمة تبرز تمكنه اللغوى الذى يُعدّ أحد ميادينه التى رفدها بالعديد من المصنفات؛ وكتابه (المحصل فى كشف أسرار المفصل) أحد الأدلة على ذلك التمكن مع التميز والدقة فى شرحه لكتاب (المفصل)، أو لمتون نحوية أخرى، وجميعها قد شرحها غيره قبله، ولعلمه بذلك فقد كان شرحه لتلك المتون متميزًا لكى لا يقال عنه أنه مكرر ليس إلا، وقبل إظهار ذلك لا بد أن يُسبق بلمحة عن الكتاب؛ فهو كتاب شرح فيه كتاب (المفصل) للزمخشرى، ويُعدّ أول كتاب له فى النحو حيث انتهى من تأليفه سنة 712هـ[3]، وقد اختار هذا الكتاب لأنه فى رأى المؤلف من أعظم كتب النحو، لإحاطته بقواعده، ولحسن نظمه، وجودة معانيه، ودقته عنده[4]، وهنا يُتوهم أنّ هذا الشرح تكرار لشروح شرحت كتاب (المفصل) كشرح ابن الحاجب المسمى (الإيضاح)، وشرح الخوارزمى المسمى (التخمير)، اللذين أشار الإمام يحيى ابن حمزة بوصولهما إليه، وبأنه سيحاول فى شرحه أن لا يقع ما وقع فيه غيره ملتزمًا بمعايير تميز شرحه عمّن سواه، وهى:

1- أن يذكر فى كل باب جميع أسراره.

2- أن يذكر مطلع الفصل من المتن.

3- أن يقتطع من الفصل شيئًا يذكره فى أثناء الشرح.

4- أن يشرح مقاصد الزمخشرى.

5- أن يقيد ما أطلقه، ويبين ما تسامح فيه.

6- أن يشرح شواهده القرآنية والشعرية والنثرية.

---

(1) ينظر: الديباج الوضى، 1/ 102، 103.

(2) ينظر: الإيجاز، 26.

(3) ينظر: الجهود النحوية ليحيى بن حمزة العلوى، رسالة ماجستير مقدمة من أزهار محمد لطف فايع، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة صنعاء، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 29.

(4) ينظر: المحصل فى كشف أسرار المفصل، 1/ 3.

وقد التزم هذا المنهج فى ثنايا شرحه مع متابعته فى ترتيب التبويب تبويب (المفصل)، وإلى حد كبير فى كتاب (المحصل) حيث التزم منهج وطريقةً شرح الإمام يحيى بن حمزة جمل الزجاجى فى كتابه (المنهاج الجلى)، والتزم منهجًا موحدًا فى شرحه، حيث يبدأ كل باب بإيراد نص الجمل مكتملاً، ثم يبدأ الشرح بذكر حد الباب فى اللغة، ثم يشرحه شرحًا تامًا يبين فيه ما يدخل تحت الحد وما يخرج عنه، وما يحترز منه، ثم يذكر حد الباب فى اصطلاح النحاة مع الإشارة لما له حدود كثيرة مع الإشارة إلى الأجود، مع إعرابه للشواهد، وتحديد موطن الاستشهاد، ويختم الباب بذكر خلاصته، وقد تميز منهجه بعدم الاستطراد فى الكلام الذى يخرجه عن موضوعه، وإن ألجأته العبارة إلى ذلك ينص على أنه ليس موضعه، وأنه لا يتصل بالموضوع الذى هو قيد البحث، وقد تابع الزجاجى فى التبويب والمادة العلمية مع عدم رضاه عن بعض التبويبات، وهو لا يسترسل فى الشرح بل يرتب المسائل ويفرعها فى كل باب مع ميله إلى التعليل فى معظم المسائل النحوية فضلاً عن ميله إلى الاختصار [1].

ومّما سبق فى كتب النحو يظهر ميل المصنف إلى الشرح والتوضيح والتعليل والتعقيب لمتون سابقيه من المصنفين النحويين مع سعيه إلى التميز سواء فى منهجه أو مادته العلمية، ولذا يستطرد فى الشروح، فقام بشرح (المقدمة المحسبة) لطاهر بن بابشاذ ت 469هـ، وسماه (الحاصر لفوائد المقدمة لطاهر)، وفيه التزم المصنف فى التبويب تقسيم كتاب (المقدمة المحسبة) مع تبرير المصنف ترتيب الأبواب فى (المقدمة المحسبة) [2]، وبمنهجه المتبع فى مقدمات كتبه يورد فى مقدمة كتابه سبب التأليف، وميزات شرحه، فأشار إلى كون شرحه تعليميًا ميسرًا، قصد فيه التقريب والتهذيب والتسهيل، مبتعدًا عن المسائل الدقيقة، وقد استدرك على ابن بابشاذ ما أغفله، ومنه عقد ابن حمزة فصلاً لجمع التكسير بعد إغفال ابن بابشاذ له، أما طريقة الشرح، فقد كان يورد نص مقدمة طاهر، ثم يشرحه مجملاً فوائده فمفصلاً، ذاكرًا الشواهد، واختلافات النحاة بإيجاز مع الترجيح والتعليل.

وقد ختم المصنف مؤلفاته النحوية بكتاب (الأزهار الصافية فى شرح المقدمة الكافية) حيث انتهى من تصنيفه سنة 727هـ[3]، وهو شرح لكافية ابن الحاجب- ت 646هـ- فى مجلدين، وقد بدأ بمقدمة أوضح فيها إعجابه بالكافية، وأنه اطلع على شرح ابن الحاجب لها، وشروح غيره فرآها غير وافية بتحقيق أسرارها، ولا مستولية على محاسنها، فقام بشرحها شرحًا يستولى على حل معاقدها ومناظمها، موضحًا لمعانيها ومصححًا لتراجمها، ومفصلاً لما أجمل ومبينًا لما أشكل ومقيدًا لما أطلق، وأشار إلى التزامه بأنْ يذكر كلام ابن الحاجب بألفاظه من غير إخلال ثم يشرحه محيطاً بمقاصده، مشتملاً على شواذه وشوارده

---

(1) ينظر: المنهاج، 1/ 59- 66.

(2) ينظر: الحاصر فى فوائد المقدمة لطاهر، الإمام يحيى بن حمزة، دراسة وتحقيق زكريا محمد حسن على، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام 1994م، القاهرة، مصر، 13، 14.

(3) ينظر: الجهود النحوية ليحيى بن حمزة العلوى، 34.

ومفيده ومهمله مع جمع شتات الفوائد بالتعليلات القوية، وإنشاد الشواهد الظاهرة، وإيراد المسائل الدقيقة، والتحرز عن إيراد التعليلات الركيكة، وإنشاد الشعريات النادرة، وألا يترك سرًا لطيفاً إلا ذكره، ولا مضطربًا إلا أفرده، وقد وفى فى الكتاب بذلك[1]، أما ترتيب الأبواب فقد لزم طريقة الكافية، وكان يختم شرحه لكل باب بتنبيه على مسائل تتعلق بالباب، ويضمّن هذه المسائل زيادات لم ترد فى المتن، وعند الشرح كان يورد نص الكافية ثم يردفه بالشرح. . .مع إكثار التعليلات والتقسيمات والاعتراض فى المسائل أو طريقة التبويب.

وقد استفاد الإمام يحيى بن حمزة من تمكنه فى اللغة والبلاغة فى عرضه للموضوعات الكلامية، ليس فحسب فى التقديم لأىّ موضوع بتعريفات دقيقة عن المصطلحات المستخدمة فيه، وإنما فى ابتكار منهج أصيل فى التحليل اللغوى، حيث حدد معايير أربعة لصلاحية استخدام اللفظ: القرآن الكريم واللغة والعُرف والاصطلاح، وإلا كان اللفظ أجوف والاستخدام زائفًا، ومن ثم بطلت النظرية التى تستند إلى مثل هذه الاصطلاحات الزائفة دون حاجة إلى إبطالها بحجج كلامية، هكذا كان نقده لآراء الفرق المختلفة كالخوارج والمرجئة فى أحكامهم على فاعل الكبيرة مستندًا إلى زيف استخدامهم لمفاهيم الإيمان والكفر، وهكذا دحض نظرية «الكسب» الأشعرية بعد تحرى مفهوم اللفظ وفقًا للمعايير الأربعة[2].

وقد وظف المعايير الأربعة فى كتابه (الشامل لحقائق الأدلة وأصول المسائل الدينية) فى الرد على الفلاسفة بل له ردود على الصابئة والمجوس والنصارى، وعبدة الأوثان، أما ردوده على الإسماعيلية فى عدة مسائل منها ما يخص النبوات والإمامة لاسيما ما قالوا عن الإمام المهدى المنتظر، كذلك تأويلهم الباطنى، فقد أفرد للنقد اثنين من كتبه، وهما (الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام)، و(مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار) فضلاً عمّا ضمنه كتب أخرى، ومنها (الشامل)[3]، ولموسوعية (الشامل) فقد اختصره فى كتابه (المعالم الدينية) حيث كان ميالاً لوضع اختصارات لكتبه الموسوعية تخفيفًا منه على قراء كتبه، ودفعًا للمشقة، ومن أجل ألا تقتصر كتبه على شريحة المتخصصين فقط، بل لتعم الفائدة ما أمكن غير المتخصصين.

وبانتهاء الحديث عند طرف من طريقة لزمها بعد تصنيف موسوعته يتراءى أضخم موسوعة فقهية إسلامية، وذلك فى كتابه (الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار فى تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل علماء الأمة فى المباحث الفقهية والمضطربات الشرعية)، وتقع فى ثمانية عشر مجلدًا، فمنهجه فيه يجعله موسوعة إسلامية رائعة سواء فى أعلام الفكر الإسلامى

---

(1) ينظر: الأزهار الصافية شرح مقدمة الكافية، الإمام يحيى بن حمزة، الجزء الأول، تحقيق محمد على سالم العطاونة، أطروحة دكتوراة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام 1982م، القاهرة، مصر، 1/ 2.

(2) ينظر: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، 10.

(3) ينظر: نفسه، 281.

ومدارسه ومؤلفاته أم فى تقرير آراء كل علم وفريق ومدرسة فى كل مسألة، وإيراد أدلة واجتهادات وأقوال كل منهم منقحة معللة مما يجعل من الكتاب بحثًا شاملاً فى إطار أصبح يسمى بالفقه المقارن[1].

وكما يفعل بعد الانتهاء من تصنيف كتبه لاسيما الكبيرة يضع مختصرًا لكتابه (الانتصار) فيسميه (نور الأبصار فى المنتزع من كتاب الانتصار)، وقد أراد الإمام يحيى بن حمزة أن تكون مؤلفاته الفقهية عبارة عن سلسلة فقهية متفردة، فصنف كتاب (العدة) وجعله مدخلاً إلى كتابه (العمدة فى مذاهب الأئمة) وكتابه هذا هو الدافع للإمام يحيى بن حمزة كى يصنف كتاب (الانتصار) حيث تدارك فيه ما نقص فى (العمدة) كما ورد فى مقدمة كتاب (الانتصار)[2]، ومن شأن هذه الموسوعة الفقهية أن تظهر تبحر المصنف فى علم أصول الفقه، فما سمىّ علم أصول الفقه بهذا الاسم إلا لتوحى بدلالة أن علم الفقه يقوم على علم أصول الفقه، ويعتمد عليه، وأن فقهًا بلا أصول فقه كبناء بلا أساس، وأهم ما يظهر مكانة الإمام يحيى بن حمزة فى علم أصول الفقه- فضلاً عن مصنفاته الفقهية- كتبه التى فى علم أصول الفقه، ومنها كتاب (الحاوى لحقائق الأدلة الفقهية) فى ثلاثة مجلدات مخطوطة، و(المعيار لقرائح النظار فى شرح الأدلة الفقهية وتقرير القواعد القياسية) مجلد مخطوط.

وانطلاقًا من مبادئ المذهب الزيدى القائمة على تبجيل وتعظيم مكانة الصحابة- رضى الله عنهم- الذين وفوا بشروط صحبة النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- صنف (أطواق الحمامة فى حمل الصحابة على السلامة)، و(الرسالة الوازعة للمعتدين عن سبّ أصحاب سيد المرسلين)، فانطلق فيها معظمًا لما قدموه من أجل الإسلام من تحمل الأذى والمشاق، والحفاظ على بيضة الدِّين، وهى فى المهد، حتى توفاهم الله تعالى صابرين محتسبين، ففارقوا الدنيا، وهم على ما كان عليه النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-.

ولميل الإمام إلى اختصار كتبه الكبيرة والمتعمقة- كما ورد آنفًا فى هذا المبحث- اختصر أحد كتب سواه، والمقصود كتابه (خلاصة السيرة) لخص فيه كتاب (السيرة لابن هشام)، وما ميله إلى الاختصار إلا ليسهل ويوضح ويقرب للقارئ العلوم والمعارف.

وثمة اهتمام آخر جعل له الإمام يحيى بن حمزة نصيبًا فى مصنفاته، ألا وهو الأخلاقيات والزهديات، فضمن بعض كتبه شيئًا منها، وأفرد لها كتاب (تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب)، ناقش فيه قضايا منها ماهية القلب وصلته بالأخلاق، وأمهات محاسن الأخلاق، وأمهات الذنوب، وآفات القلوب واللسان، وآفات نعم البدن، فضلاً عن الزهد والخوف والرجاء والتوكل. . .، وقد كان يورد ماهية الآفة وأنواعها وأشكالها . . .، ثم لا يترك الآفة دون حلول بل يورد حلولاً على منحيين الأول: علمى، والثانى:

---

(1) ينظر: الانتصار،1/ 12.
(2) ينظر: نفسه، 1/ 138.

عملى[1].

إن الناظر لمؤلفات الإمام يحيى بن حمزة فى النوع السابع من مؤلفاته– أىْ وصاياه وتعازيه وإجازاته وفتاويه وجواباته– من المبحث الثانى من هذا الفصل، يستشف جهودًا عظيمة، فمصنفاته عامة لم تجعل منه شخصية منكفئة على ذاتها ومصنفاتها، بل جعلت ذاته ينبوعًا من العطاء لمن حوله سواء على المستوى الأسرى أم العام الاجتماعى بمعنى أنه جسد ما استوعبه فى سلوكه، فعلى المستوى الأسرى، فإن مصنفه (وصاياه إلى أولاده وأزواجه) تجسد جهده فى بناء أسرة صالحة وتقية، ومن مظاهر صلاحها أن من أبنائه علماء مجتهدين، ويتعدى جهده إلى مجتمعه، وذلك فى إيجاده علاقات حميمية مع أفراد مجتمعه، ودليله (تعازيه)، أما (إجازاته العلمية)، فهى دليل على جهوده التعليمية التى تحاول رفع المستوى العلمى لمن حوله، وفى الوقت نفسه هو متصدر بـ (جواباته)، و(فتاويه) لدفع الجهالات.

إن جهود الإمام يحيى بن حمزة، وقدرته العلمية مكنته من استيعاب مصنفات سابقيه فى شتى العلوم، وليس ذلك فحسب بل وأسست لمكانة فريدة سواء بين علماء عصره أم العصور اللاحقة، ففى علوم البلاغة، وعند تحليله النصوص حاول أن يعيد عصر التذوق النقدى فضلاً عن تعليل تلك النصوص من الجانب الجمالى، ولم يغفِل قواعد ضبط حدود التعاريف لعلوم البلاغة، فنالت النصوص القرآنية والحديث النبوى النصيب الأوفر من ذلك التحليل، ثم نصوص الأدب الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى، فضلاً عن كلام الصحابة– رضى الله عنهم– لاسيما كلام الإمام على بن أبى طالب– كرم الله وجهه– ، وهو مع كل ذلك ينزع إلى التبسيط والتقريب.

وغالبًا ما كانت مصنفاته النحوية عبارة عن شروح لكتب سابقيه من العلماء، لكن اللافت فى شروحه أنه سعى إلى التميز عمّن سواه إن كان ما يشرحه سبق شرحه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كونه لم يخضع لكل مسلمات الكتب التى تناولها بالشرح بل يناقش ويرجح ويعلل، فضلاً عن إضافته فصولاً أغفلت فى تلك الكتب.

أما فى علم الكلام، فقد زاوج بين اللغة وعلم الكلام، فأنجب منهجًا يسهم فى حلّ الكثير من المشكلات الكلامية، مع رفعه العلم عن المراء والخوض فى الباطل، وفى الفقه يمكن القول أنه أنتج موسوعة فقهية ندر وجود مثيلها سواء فى علماء وفرق ومذاهب المسلمين أم آراء كل عالم وفريق ومذهب فى كل مسألة ناقشها . . . ، وقد تنبه إلى مكانة الأخلاقيات والزهديات فى صقل النفوس وتهذيبها، فخصها بكتب، وضمنها فى بعض كتب أخرى.

وثمة سمات عامة فى مصنفاته يجدر الإشارة إليها، ومنها:

(1) ينظر: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، 329– 368.

أولاً: وضعه مختصرات لمصنفاته الكبيرة لتكون من ثم مصنفاته موزعة على جميع المستويات العلمية، فمن لا يستطيع فهم كتبه الكبيرة، فإن مختصراتها تقوم بالغرض.

ثانيًا: اتفاق مقدمات مصنفاته حيث يعرض فيها منهجه الذى سلكه فى مصنفه، مع ذِكر أغراض التصنيف ودوافعه، وإن كان مصنفه شرحًا لكتاب، فإنه يورد مكانة ذلك الكتاب العلمية، مع تقييم الشروح التى سبقته إلى شرح ذلك الكتاب.

ثالثًا: استخدامه التبويب والفصول والتفريعات، والذى من شأنه أن يضع حدًا للاستطراد خارج المادة التى يتناولها، فإن حصل الخروج أشار إليه، وذكر مبرراته، فضلاً عمّا ورد فى عرض المادة بشكل منتظم.

فهذا هو الإمام يحيى بن حمزة جمع بين العلم والعمل، والنقل والعقل، والموسوعات والمختصرات.

الفصل الثانى

كتابه (الأنوار المضيئة)

مدخـل

قبل النظر فى الدراسات السابقة لـ (الأنوار المضيئة) فى شرح (الأربعون حديثًا السيلقية)[1] لا بدّ من الإشارة إلى طرف من ترجمة مؤلف هذه الأحاديث وراويها، وعلّة تسميتها بالسيلقية، ولماذا اُقتصر فيها على أربعين حديثًا ؟ مع الإشارة لمواضيعها .

إن هذه الأحاديث قد أُلّف بينها المحدث زيد بن عبدالله بن الهاشمى[2]، وسميت بالسيلقية نسبة إلى أحد رواتها، وهو الحسن بن محمد بن مهدى السيلقى[3]، وتسمى بالودعانية نسبة لراوٍ آخر رواها هو ابن ودعان[4] .

وانطلاقًا من قول النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– : «من حفظ على أمتى أربعين حديثًا من أمر دينها بعثه الله فقيهًا، وكنت له يوم القيامة شاهدًا وشهيدًا»[5]، صنف العلماء العديد من الأربعينيات، والكثير منها مشهور متداول، ومنها مثلا (كتاب الأربعين العلوية) للقاضى جعفر بن عبد السلام المتوفى سنة 567هـ، و(الأربعون النووية) للإمام يحيى بن شرف النووى المتوفى سنة 676هـ، و(كتاب الأربعين حديثًا فى العلم والعلماء) الإمام القاسم بن محمد المتوفى سنة 1029هـ، على أن تكون كل أربعينية من تلك الأحاديث فى موضوع واحد، وهذا ما يظهر فى (الأربعون حديثًا السيلقية)، فهى أحاديث فى الترغيب والترهيب تعالج أمراض النفس، وتُقوّم اعوجاج

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، زيد بن عبد الله بن مسعود الهاشمى، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام2002م، صنعاء، الجمهورية اليمنية .

(2) وهو زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة الهاشمى أبو الخير، وقيل: أبو القاسم، وينسب إلى جده زيد بن رفاعة، يعد من أعلام القرن الرابع الهجرى، محدّث، أديب، أقام شطرًا من حياته بالبصرة، وسكن الريّ، وحدّث ببلاد خراسان، كان أحد جماعة إخوان الصفاء، وأحد المساهمين فى تأليف رسائل إخوان الصفاء . ينظر: الأعلام للزركلى، 3/ 59 . معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، (ت)، 4/ 190 . أعلام المؤلفين الزيدية، 438 .

(3) وهو الحسن بن محمد بن مهدى العلوى الحسينى، أبو طالب السيلقى، من أعلام القرن الخامس الهجرى، وهو راوى الأربعين السيلقية على السيد على بن الحسين الحسنى بهمدان فى ربيع الأول سنة 458هـ، قال: حدثنا الشريف أبو القاسم زيد بن عبد الله بن مسعود الهاشمى المؤلف للأحاديث. ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، 1/ 329، 330 .

(4) وهو أبو نصر محمد بن على بن عبيد الله بن ودعان، قاضى الموصل المولود سنة 401هـ، والمتوفى فى الموصل سنة 494هـ. ينظر: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، أحمد بن أيبك المعروف بابن الدمياطى، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1997م، بيروت، لبنان، 1/ 20، 21 . الأعلام للزركلى، 6/ 277 .

(5) شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق محمد السعيد بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1410هـ، بيروت، لبنان، 2/ 270 .

السلوك، وتُحلّق بالنفس البشرية في سماء الرحمة الإلهية[1].

(1) ينظر: الأربعون حديثًا السيلقية، 7- 10.

المبحث الأول

الدراسات السابقة (حديقة الحكمة)

لقد شرح الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة- المولود سنة 561هـ، والمتوفى سنة 614هـ[1]- الأربعين حديثًا السيلقية فى كتابه (حديقة الحكمة النبوية فى تفسير الأربعين السيلقية)[2]، وهى الدراسة الوحيدة التى سبقت دراسة الإمام يحيى بن حمزة لهذه الأحاديث فى كتابه (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية)، وهنا يمكن طرح هذا التساؤل: لماذا شرح الإمام يحيى بن حمزة ما قد تمّ شرحه من قِبَل غيره ؟

ليس (الأنوار المضيئة) هو المصنف الوحيد الذى شرح فيه الإمام يحيى بن حمزة كتابًا قد سبقه آخرون إليه فشرحوه، بل قد سبق للإمام يحيى بن حمزة مصنفات شرح فيها كتبًا قد تناولها علماء قبله بالشرح، ومنها كتابه (المحصل فى كشف أسرار المفصل)، شرحَ فيه كتاب (المفصل) للزمخشرى، وكتابه (الأزهار الصافية فى شرح المقدمة الكافية)، وهو شرح لـ (كافية) ابن الحاجب، وقد تنبه الإمام يحيى بن حمزة لما قد يتوهمه المتلقون من أن شرحه عبارة عن دراسة لما قد أشبع بالدراسة والتحليل، فيظنون أنه تكرار ليس إلا، فضمن مقدمة كتابه (المحصل) ما يدفع ذلك التوهم بإشارات، أولها: بيّن أهمية علم اللغة العربية على باقى العلوم، ثم فضَّل كتاب (المفصل) على بقية المصنفات النحوية حسنًا ونظمًا وسياقًا، ولذا فلا ضير أن أعيد شرحه لأهمية علم اللغة لديه، ثم لمكانة هذا الكتاب العلمية[3].

ثانيها: ذِكره أسماء بعض سابقيه الذين شرحوا (المفصل)، واسم كتبهم موضحًا مميزات كل كتاب وعيوبه، ليكون من ثم شرحه مجانبًا لتلك العيوب الواردة فى شروحهم، فضلاً عن التزامه بشروط تميزه عن سواه[4]، فإذا كان شرحه لكتاب (المفصل) بقصد تلافى عيوب شروح من سبقه، فإن فى مقدمة كتابه (الأزهار) يظهر علّة أخرى بررت شرحه لكتاب (الكافية) ألا وهى أن الشرح السابق لشرحه غير وافٍ بتحقيق أسرارها ولا مستولية على محاسنها ولا دالة على لبابها، ولذا قام بشرحها شرحًا يستولى

---

(1) المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان الحسنى، ولد سنة561هـ، مجتهد، مجاهد، مجدد، فاق مجتهدى عصره، توفى بمدينة كوكبان سنة641هـ. ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، 3/ 596- 610. الأعلام للزركلى، 4/ 83. أعلام المؤلفين الزيدية، 578.

(2) حديقة الحكمة النبوية فى تفسير الأربعين السيلقية، المنصور بالله عبدالله بن حمزة، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، عام1991م، صنعاء ، الجمهورية اليمنية.

(3) ينظر: المحصل فى كشف أسرار المفصل، 1/ 2، 3.

(4) ولدفع التكرار فى الدراسة يمكن استكمال هذه الجزئية فى المبحث الثالث من الفصل الأول من هذه الدراسة.

على حل معاقدها ومناظمها موضحًا لمعانيها، ومصححًا لتراجمها، ومفصلاً لما أجمل، ومبينًا لما أشكل، ومقيدًا لما أطلق...[1].

وهنا تتراءى رؤية الإمام يحيى بن حمزة فى كون دراسته لكتاب سبق دراسته ليس فيه انتقاص لمكانته العلمية بل بالعكس فيه رؤية أخرى عند الدراسة، هذه الرؤية جعلته يتناول جوانب أخرى أُغفلت فى الدراسات السابقة، بمعنى أنه أراد أن يقول: الموضوع الواحد يمكن مناقشته من جوانب أخرى تُظهر الكتاب المشروح فى قالب آخر وبحُلة جديدة لم تكن بارزة فى الشروح السابقة له، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يُبرز إمكانات النص المشروح اللامتناهية- لاسيما الحديث النبوى- على استيعاب الكثير من الشروح الممكنة، وهذا كله يتراءى فى كتابه (الأنوار المضيئة)، و لكن لا يمكن إبراز ذلك إلا بعد تكوين صورة محددة معالمها عن كتاب (حديقة الحكمة)، لأن هذا الكتاب دراسة للأربعين حديثًا السيلقية وسابقة لكتاب (الأنوار المضيئة).

لقد ذكر الإمام عبد الله بن حمزة (ت614هـ) فى مقدمة كتابه (حديقة الحكمة) العلّة الدافعة للشرح بقوله: «فقد سألنى بعض من تلزمنى عهدة إجابته، ويتعين على فرض مساعدته من أفاضل الإخوان المرشدين معانى الأحاديث الأربعين النبوية السيلقية بإيضاح ألفاظها اللغوية، وإفصاح فوائدها المعنوية لتنفتح أكمامها، وتتضح أحكامها، وتنتشر أعلامها»[2].

إذن سؤال بعض المسترشدين هو الباعث، وهذه طريقة العلماء الأوائل فى إظهار علة التصنيف، ومن موقع المسترشدين وبلسانهم يُبين المصنف الجوانب التى تناولها عند شرحه، وهى إظهار الألفاظ اللغوية للأحاديث، ودلالات تلك الألفاظ ومعانيها، ليكون من ثم ذلك سبيلاً إلى استنباط المقاصد النبوية والمسحات الوعظية حيث أن الأحاديث النبوية هى المصدر الثانى للشريعة الإسلامية، والأربعين حديثًا السيلقية تتناول الترغيب والترهيب، وهنا تتراءى الرؤية المُنصبّة على الشرح، والتى جعلت من أخص ملامح هذا الشرح أنه دراسة استنباطية للأحكام الشرعية، وللزواجر الوعظية.

وقد أشار فى مقدمته- فضلاً عمّا سبق- إلى بعض ملامح منهجه فى الكتاب، ومنها: كونه مال إلى الاختصار، ثم إردافه بذكر ما وقع فيه الاختصار، فجعله على منحيين؛ الأول: عام، ويتمثل فى تنكبه طريقة الإكثار - سواء فى أدلة تؤيد ما ذهب إليه من رؤية فى المسائل الواردة أم كانت تفريعات ناتجة عن مناقشة المسائل المشروحة-، والثانى: خاص، ويتمثل فى تجريده الأخبار النبوية من الأسانيد، لأنها- أىْ الأسانيد- موجودة فى نسخ سماعه، وكُتب أصحابه، وذكَر فى هذا الشأن اقتصاره على إيراد راوى الخبر النبوى عن النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرة- أىْ الصحابة رضى الله عنهم-، مع ذِكر طرف من نسبهم، وبعض أحوالهم، وما اقتصاره على هذا إلا بقصد إعلام الناظر أن أهل هذا الشأن كانوا عيونًا عدولاً، وأدوا ما سمعوا كما سمعوا،

---

(1) ينظر: الجهود النحوية ليحيى بن حمزة، 35.

(2) حديقة الحكمة النبوية، 8.

فجزاهم الله خيرًا[1] .

لقد كتب الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة– فى المقطع السابق– كلامًا من أهم دلالاته الانفتاح على مدلولات متعددة، تتمثل فى الدلالة على مكانة الأسانيد– علم الحديث ورجاله– لديه، والمكانة العظيمة لرواة الأحاديث من صحابة النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى فكره واعتقاده، فضلاً عن سعيه إلى إفادة المتلقى بالأحكام التى استنبطها من الأخبار النبوية دون إدخال المتلقى فى علوم أخرى عند شرحه قد تشتت ذهنه عن الباعث الأسمى للشرح، هذا إجمالاً.

وتفصيل هذا الإجمال؛ إنّ الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة لم يكن ممّن يُغفل علمًا كعلم الحديث ورجاله، بل على العكس فقد عُرف بتعمقه الدقيق فى شتى العلوم لاسيما علم الحديث ورجاله، الذى كان يعنيه اهتمامًا خاصًا، والذى حاز فيه قصب السبق على معاصريه[2]، ويؤيده ما فى مقدمة (حديقة الحكمة) حين أشار إلى ما يخص الأسانيد، ففحوى هذه الإشارة؛ لولا أن أسانيد الأحاديث التى شرحها قد أوردها سابقًا فى كتب له لكان لها أولوية الذكر فى كتابه (حديقة الحكمة) .

أما ما يخصّ مكانة رواة الأحاديث من الصحابة– رضى الله عنهم– فما إيراده لبعض أخبارهم إلا ليكون ذلك الإيراد أقلَّ ما يمكن أن يقدمه لهم مقابل ما قدموا للدّين، فيكون من ثم ذلك القليل ممّا يقدمه مثريًا لما جهله المتلقى مع رفع شأنهم لدى المتلقى، ليظهر هنا غرض آخر من تصنيف الكتاب، ألا وهو إظهار قدر الصحابة– رضى الله عنهم– العظيم، وذلك من خلال عرض طرف من أخبارهم، وثمة إشارة أخرى لم يصرح بها المصنف فى مقدمته فيما يخص رواة الأحاديث من الصحابة– رضى الله عنهم–، ويمكن استنباطها من ثنايا مقدمته، ففضلاً عمّا نظَّر له المصنف فى هذا الشأن، فإن مكانة علم الحديث ورجاله العظيمة لديه قد جعله يورد طرفًا من أخبار رواة الأحاديث من الصحابة– رضى الله عنهم– وهذا الإيراد من صميم علم الحديث ورجاله.

وهنا ظهر– فى مقدمة كتاب (حديقة الحكمة)– أن إيضاح الألفاظ اللغوية للأربعين حديثًا السيلقية، وإفصاح فوائدها المعنوية غرضه الرئيس هو استنباط الأحكام، والزواجر الوعظية التى وردت فيها، وذكر طرف من أخبار رواتها من الصحابة– رضى الله عنهم– غرضه إظهار مكانتهم العظيمة، ليترتب على الأخير تناول المصنف طرفًا من علم الحديث ورجاله، وهذا هو كل ما ورد فى المقدمة من إشارات إلى المنهج المتبع عند شرح الأحاديث، ولكن ما مدى التزام المصنف بهذا المنهج عند شرحه الأحاديث ؟

عندما شرح المصنف الأحاديث ذكر قبل كل حديث راويه الذى سمع عن النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–، أو أسمعه

(1) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 8.

(2) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، 1/ 596– 610.

النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– مع إيراده طرفًا من نسبه، والإشارة إلى بعض أحواله، ولكن لدى بعضهم كان يكتفى بذكر اسمه وبعض أحواله دون أن يذكر نسبه[1]، وقد يقتصر على ذِكر اسم الراوى ونسبه دون أن يذكر بعض أحواله[2] .

وعندما يرد راوٍ قد سبق الكلام عنه يشير المصنف إلى أنه سبق الكلام عنه[3]، وقد لا يشير إلى أنه سبق الكلام عنه، حيث يورد اسمه ثم قول الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–[4]، وتركه التكرار فى ترجمة الرواة لم يكن بشكل دائم بل أعاد ترجمة بعض الرواة[5]؛ ولكن تلك الترجمات كانت عبارة عن تتمة لما فاته من ترجمة فى السابق.

وبعد إيراد المصنف ترجمة للراوى يورد الحديث المراد شرحه بتمامه وكماله، وقبل شرحه للحديث يقسمه إلى جمل، ثم يوضح الألفاظ اللغوية مع إيراد ما يقع من إشكالات لغوية لكل جملة على حِدة، فضلاً عن ذكر وزن بعض الألفاظ، وقد يسلك سبيلاً آخر، وذلك بأن يقتطع مفردة من الجملة، وبعد توضيح معناها بذكر ضدها أو شرحها بمرادفها، يردفها بما بعدها من مفردة، وهذا مثال يظهر ذلك بشكل جلى فى الحديث العاشر: «قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : «لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر. . . .»[6] . السبّ: هو الذم والتشنيع، والدنيا: هى أوقات التكليف . . .، ونِعم: نقيض بئس، وهما من الأفعال التى لا تتصرف. . .»، وعندما انتهى من توضيح مفردات الجملة الأولى، أورد ما بعدها «قوله: عليه السلام: «عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر» . هذه صفة المؤمن لأنه نقل منها زاده وحمل عتاده إلى دار معاده، ومشى وساده ومحط رحله، ومنتهى سبله، ففاز مع الفائزين، ونجا من شر تبعات العاجزين»[7]، واستخدم عند انتقاله من توضيح الألفاظ اللغوية إلى ما يتعلق بالمعنى ما نصه: «فهذا ما يتعلق باللفظ، وأما ما يتعلق بالمعنى . . .»[8]، ليكون ما يقصده عن المعنى هو توضيح مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى الحديث.

وعند شرحه المقاصد النبوية فى الأحاديث، يؤيد ما اختار من رأى بشواهد سواء من القرآن أم السنّة أم الشعر والحكم والأمثال أم القصص، ومنها فى معرض حديثه عن المسافر: «وأقل ما يسمى بقطعه الإنسان من المسافات سافرًا أو مسافرًا هو البريد فما فوقه فى عرف الشريعة عندنا، وقلنا ذلك لما روينا عن النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال : «لا يحل لامرأة تؤمن

---

(1) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 9.
(2) ينظر: نفسه، 97.
(3) ينظر: نفسه،87.
(4) ينظر: نفسه، 101، 111.
(5) ينظر: نفسه، 187.
(6) الأربعون حديثًا السيلقية، 23.
(7) حديقة الحكمة النبوية، 97، 98.
(8) نفسه، 10.

بالله واليوم الآخر تسافر بريدًا إلا مع ذى رحم»[1]، فجعل أقل السفر بريدًا لولا ذلك لما كان للحديث فائدة، والبريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع»[2]، وفى معرض حديثه عن الدنيا: «فأما الدنيا فجدتها تؤول إلى دمار، وريحها إلى انحسار، ونظارتها تؤول إلى الاصفرار، وطالبها وكاسيها يساق غدًا إلى النار فيخلد فى العذاب الشديد الطويل، ويهتف بالويل والعويل، ويقول كما حكى الله سبحانه وتعالى: ﴿ هَل إِلَى مَرَدٍّ مِن سَبِيلٍ﴾[3]، فيا لها من حسرة ما أطمها وأهمها على من أذهب طيباته فى أيام حياته، وكيف يرغب فى تحصيل دنيا هذا آخرها»[4]، ومنه فى معرض الحديث الأول: «قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «جالس أهل الفقه والحكمة» المجالسة معروفة، وإنما المراد الاستماع والإتباع دون مجرد المجالسة، فقد كان المنافقون يلزمون مجلس النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–، ولهذا قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾[5] يوهمون الحرص على حفظ ما جاء به الرسول وهم لا يتبعون، فلم يغن عنهم ذلك شيئًا بل عقب ذلك سبحانه بذمهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[6]»[7].

وثمة إشارات قليلة الورود قد ضمنها شرحه عن علم النحو وعلوم البلاغة، من إعرابات وصور فنية، ومحسنات بديعية، وغيرها، وذلك متى لزمت الحاجة فى إظهار المقاصد النبوية، وهذه القلة ليست مستغربة لأنه لم يُشرْ فى مقدمة كتابه إلى أن شرحه متناول هذه العلوم، ولذا كانت إشاراته البلاغية قليلة، ومنها فى معرض الحديث الأول، وعند شرحه قول النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–: «أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب» أيها الناس: خطاب عام، وكأن: حرف تشبيه، وله أخوات تنصب الأسماء وترفع الأخبار»[8]، وفى الحديث التاسع يقول: «وحصائد الألسنة: ثمارها، وهذا من الاستعارات الفصيحة، والإشارات البليغة؛ أن الكلام زرعًا، والمستحق عليه ثمرًا لذلك الزرع، وهذا أحسن استعارة، وأغرب إشارة، لأن المقصود من الزرع ثمره، ومن

(1) مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيبانى، مؤسسة قرطبة، (ت)، القاهرة، مصر، 2/ 250. بلفظ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر يومًا إلا مع ذى رحم».

(2) حديقة الحكمة النبوية، 12.

(3) سورة الشورى من الآية 44.

(4) حديقة الحكمة النبوية، 25.

(5) سورة محمد، من الآية 16.

(6) السورة نفسها، ومن الآية نفسها.

(3) حديقة الحكمة النبوية، 14، 15.

(8) نفسه، 10.

الكلام فائدته ونفعه»[1] .

وهنا يمكن القول: إن الإمام عبد الله بن حمزة فى كتابه (حديقة الحكمة النبوية فى تفسير الأربعين السيلقية) قد شرح الأربعين حديثًا السيلقية بمنهج ذكره فى مقدمة الكتاب، حيث قرر أنه شرح ألفاظ الأحاديث اللغوية، وبيّن معانيها بقصد إيضاح المقاصد النبوية، وكشف عن ميله إلى الاختصار من خلال تركه سند الأحاديث إلا ما يخص رواة الأحاديث من الصحابة- رضى الله عنهم- فإنه استثناهم، فأورد طرفًا من نسبهم وأحوالهم، وذلك قصد إظهار مكانتهم العظيمة، وقد برز تبحره وتعمقه فى علم الحديث ورجاله، وقد طبق هذا التنظير فى شرحه فأورد طرفًا من نسب الرواة من الصحابة- رضى الله عنهم- وأحوالهم إلا بعضهم فقد كان إما أن يذكر نسبه فقط أو يذكر بعض أحواله، وكان لا يترجم لهم أكثر من مرة إلا ما تمّت الإشارة إليه من ترجمة كانت على سبيل التتمة، وميله إلى الاختصار قد تعدّى ما نظّر له فى المقدمة- فى أن اختصاره مقتصر على الأسانيد- إلى ثنايا شرحه فى اختصار بعض المسائل لأنه يميل إلى الاختصار[2] .

وقد شرح ألفاظ الأربعين حديثًا السيلقية لغويًا، ووضح معانيها- مع تقليله شرح الأحاديث من الناحية الإعرابية والبلاغية- ليخرج من ذلك الشرح بالمقاصد النبوية من الأحاديث مستعينًا على ذلك بشواهد من القرآن والسنة وأشعار العرب، فضلاً عن إيراد القصص والحكم والأمثال والسير والأخبار، وهكذا فإن من أخص خصائص الكتاب أنه يحوى شرحًا من شأنه النظر فى الأحاديث النبوية من الناحية الشرعية والوعظية، ومستعينًا على ذلك بشرح الألفاظ اللغوية، وإظهار معانيها .

---

(1) نفسه، 92 .

(2) ينظر: حديقة الحكمة، 23، 70، 142 .

المبحث الثانى

منهجه فى (الأنوار المضيئة)

لقد اتبع الإمام يحيى بن حمزة منهجًا موحدًا فى شرحه للأربعين حديثًا السيلقية، وقد قام بالتنظير لها تنظيرًا علميًا فى مقدمة الكتاب، ومن جوانب عدة، مما جعل الكتاب يرقى إلى مستوى الدراسات العلمية الحديثة.

إن الدراسات الجامعية الحديثة تعتمد على إيراد أهمية الدراسة وأسبابها، والمنهج المتبع فى الدراسة وعلل اختيار ذلك المنهج دون سواه، فضلاً عن ذِكر الدراسات السابقة للدراسة المتناولة، وتناول بعض جوانبها، مع الأخذ بعين الاعتبار الالتزام التام فى الدراسة بالمنهج الذى سبق تقريره، وهذا ما يتراءى فى كتاب (الأنوار المضيئة)، ففى مقدمة الكتاب ذكر المصنف أهمية الموضوع الذى هو بصدد دراسته- وهو أحاديث النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- بأن: «كلامه عليه السلام هو الرتبة الثانية من كلام الله تعالى فى فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعانى . . .»[1]، أما عن أهمية الأربعين حديثًا السيلقية، فقد قال: «وهى من نفيس كلامه صلى الله عليه وآله وسلم فى الخطب والمواعظ، والبالغة كل غاية فى جلاء القلوب، وشفاء الأفئدة عن صدأ الذنوب مع اختصاصها بشدة النفع، وعظم الموقع»[2]، وبعد الإشارة إلى أهمية كلام النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- والأربعين حديثًا السيلقية بالذات أورد المصنف أسباب التصنيف، وهى: «أولاً: الإبانة عمّا اشتملت عليه من اللطائف من بديع الأسرار، وغريب المعانى، وما تضمنته من المجازات العالية، والاستعارات البديعة التى لا ينطق بها لسان، ولا يطلع على مخها إنسان.

ثانيًا: الإظهار لما خصّ الله تعالى الرسول من فصاحة المنطق، وإحراز قصب السبق، والتمييز، والبلاغة على كافة الخلق»[3]، وهذا يظهر أن غاية المصنف فى شرحه غاية بلاغية.

وقد حرص المصنف فى المقدمة على ذِكر منهجه الذى التزمه عند شرح الأحاديث بقوله: «أنَّا نُورد الحديث بكماله وتمامه حتى إذا كمل إيراده بألفاظه انعطفنا على بيان مواقع النظر فيه لإحراز معانيه، وبيان أسراره، وجملتها خمسة:

النظر الأول: نذكر فيه ما يختص بالألفاظ اللغوية، ونوضح معانيها .

النظر الثانى: نورد فيه ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية.

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 155.

(2) نفسه، 1/ 155.

(3) نفسه، 1/ 155.

النظر الثالث: نشير فيه إلى ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية المختصة بعلم المعانى، ويندرج تحته بيان المقاصد التى أرادها عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

النظر الرابع: فى الإشارة إلى ما تضمنه من العلوم البيانية.

النظر الخامس: نورد فيه ما اشتمل عليه من علوم البديع»[1].

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو: ما سرّ هذا الترتيب؟ أترتيب مقصود يقوم على أسس علمية أم ترتيب اعتباطى؟

إن هذا الترتيب فى الأنظار ليس ترتيبًا اعتباطيًا بل له اعتبارات أوردها بقوله: «ثم إن هذه العلوم الخمسة التى أشرنا إليها بعضها أخصّ من بعض، فعلم الإعراب أخصّ من علم اللغة، من جهة أن الإعراب مختصّ بالتركيب، وعلم اللغة مختصّ بالمفردات، والمفرد قبل المركب، وسابق عليه، وعلم المعانى أخصّ من علم الإعراب من جهة أن علم المعانى مبنى على توخى معانى النحو فى تقديم المقدم وتأخير المؤخر فى المفاعيل والمسند إليه والمسند به، وعلم البيان أخصّ من علم المعانى من جهة أن علم البيان مختصّ بأمر زائد، وهو جريه فى المجازات الحسنة والاستعارات الرشيقة، وعلم المعانى لا تؤخذ منه هذه الفائدة، وعلم البديع أخصّ من علم البيان من جهة أن علم البديع مختص بالبلاغة والفصاحة، وعلم البيان مقصور على المجازات من: التشبيه، والاستعارة، وعلم البديع هو الغاية القصوى فى تحسين الكلام، وإيراده فى القوالب البديعة، وينزل من الكلام منزلة الدهن من اللبّ، ويحلّ منه محلّ الإنسان من سواد العين، ولولاه لم ترَ لسانًا يحوك الوشى من الكلام، ويصوغ الحلى، وينفث السحر مفتر الأكمام، ومن ثمّة ظهر إعجاز القرآن ظهور المرئى فى العيان»[2].

لقد كان سرّ شرحه للأحاديث على ذلك الترتيب المخصوص له اعتبارات من جهة علاقة تلك الأنظار ببعضها؛ فالعلاقة قائمة على العموم والخصوص فبدأ بأعمها علم اللغة وانتهى بأخصها علم البديع.

وقد ذكر طرفًا من الدراسة التى سبقته إلى شرح (الأربعين حديثًا السيلقية) حيث قال: «نعم قد كان من الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين- رضى الله عنه وأرضاه- شرح سماه: (حديقة الحكمة)، ولقد أتى فيه بالعجب العجاب، ولباب الألباب فى الإناخة عن مقاصدها، والكشف عن أسرارها، لكنه لم يكشفها هذا الكشف بالاستيلاء على هذه العلوم الخمسة التى ذكرناها، واكتفى بشرح مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم من غير زيادة، وأهمل رعاية الضبط والحصر بالعقود اللائقة، والترتيبات الفائقة، وشرحه هذا دال على أن له فى علم الأدب اليد البيضاء، وفى علم التواريخ النصيب الأوفى، فأما أنساب الرواة، وذكر أحوالهم

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 156- 159.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 159.

وطرائقهم فقد أعرضنا عن ذكره؛ لأنه بمعزل عن حديث رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وهو بعلم التاريخ أليق فلا يمزج أحدهما بالآخر»[1].

إن من شأن كلامه هذا أن يبرز روح الناقد المنصف والدقيق، أما إنصافه فبذكره مكانة كتاب (حديقة الحكمة) العلمية العظيمة في القدرة على إظهار مقاصد النبي- صلى الله عليه وآله وسلم-، ومكانة مصنفه المتبحرة في علم التواريخ، وتتجلى دقته في إعراضه عن تضمين شرحه أنساب الرواة كي لا يمزج بين أكثر من علم لا يمكن علميًا المزج بينهما كما هو حاصل في (حديقة الحكمة)، فضلاً عن شرحه المستولي على العلوم الخمسة وفي ترتيبات فائقة وعقود لائقة.

وقد طبّق الإمام يحيى بن حمزة في شرحه ما نظّر له في المقدمة إلا أنه كان يفصل بين متن الحديث وشرحه بتصديرٍ يضم في طياته التحميد، والتمجيد، والصلاة على النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا من شأنه الإشارة إلى عدة سمات، وهي:

1- جعل شرح الحديث الواحد مؤلفًا قائمًا بذاته منفصلاً عمّا قبله وبعده، وله حيزه من الجهد والوقت، فإذا أراد شرح الحديث التالي يقوم بشرحه بإقبال جديد في الجهد والوقت ممّا يدفع الكلل الذي يسببه شرح الأحاديث بشكل متتابع.

2- منح كل حديث حقه الكامل من الشرح بحيث لا يطول شرح حديث على حساب غيره من الأحاديث.

3- عدم اعتماد أيّ حديث على ما قبله أو بعده من شرح، يجعل تناول القارئ شرح أيّ حديث منها يفيد فائدة تامة لا يكتنفها القصور.

4- إيجاد علاقة حميمية بين الكاتب والقارئ، وذلك لما يحصل في التحميد والتمجيد والصلاة على النبي وآله من استمالة القلوب إلى قراءة المكتوب، وممّا يؤكده تلاشي تلك العلاقة الحميمية بين السامع والمتلقي في الخطبة البتراء[2].

5- دوره في طلب التوفيق الرباني ورجاء الانتهاء بشرح تامة غاياته وبشكل سواء في كل حديث.

6- التمهيد الذي يناسب موضوع الحديث الذي هو بإزاء شرحه، ففي الحديث الثالث مثلاً الذي يدعو فيه النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- الناس إلى التوبة قبل الموت والمبادرة بالأعمال الصالحة، يقول المصنف في تصدير شرح الحديث: «فنقول: الحمد لله المنعم الذي رخّص بالتوبة عن المذنبين درن الأوزار، وألهمهم إلى الإنابة إليه، ومهّد لهم بكرمه ورحمته طريق الاعتذار، واصطفاهم بالمحبة وعظيم الزلفة، وأكرمهم بخضوع الندم وشرف الاستغفار، وصفى سرائرهم وبعدهم عن مراجعة ما تابوا عنه . . .»[3]، ومنه في الحديث التاسع الذي قال فيه النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- : «رحم الله عبدًا تكلم فغنم أو سكت

---

(1) نفسه، 1/ 160.

(2) ينظر: البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، (ت)، القاهرة، مصر، 2/ 6، 7.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 193.

فسلم، إن اللسان أملك شىء للإنسان، ألا وإن كلام العبد كله عليه إلا ذكرًا لله أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو إصلاحًا بين مؤمنين. . .»[1]. يقول المصنف فى تصدير شرح الحديث: «فنقول: الحمد لله الحميد المجيد الذى أنطق الألسنة بأسرار التوحيد فأفصحت له بحقائق المعرفة، وصرحت له بأنواع التمجيد . . . .، فسبحان من نزه ألسنة العارفين عن أن تفوه بالنطق باللغو والكذب، وأن تقول هجرًا . . .»[2].

طريقة شرحه للأنظار

بعد إيراد المصنف الحديث وإلحاقه بتصدير يبدأ: بـ «فنقول»، ويذكر النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية، وقد يسميه النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم اللغوية، فيوضح الكلمات الغامض معناها فى الحديث إما بشرحها، أو بذكر نقيضها، مع إيراد جمع المفرد، ومفرد الجمع، ونوع الكلمة من جهة كونها مشتقة أو جامدة، وأصل المزيد، وميزان الملتبس، والمشترك اللفظى، موضحًا للغريب منها، مستعينًا على ذلك بالشواهد.

ومثال على ما وضحه المصنف من معانى الكلمات بالنقيض أو بالمعنى، وتحديده المشتق والجامد، وذكره بعض الحدود والتعاريف الصرفية: «**فالعزّ:** هو القهر والغلبة، **والموت:** نقيض الحياة، والحياة بنية ممتزجة على جهة الاعتدال، بها يكون إدراك المدركات، وعليها يتقرر أمر القدرة والعلم؛ لأنّها مصححة لهذه الأمور كلها، والموت يزيلها ويبطلها، **والحسيب:** المحاسب، **والرقيب:** المراقب، وهما مشتقان من المحاسبة والمراقبة، ومعنى **الاشتقاق:** أن تكون اللفظتان يجمعهما جامع معنوى، وكل من ألفاظ العموم، وهى تفيد الاستغراق لغة وشرعًا، **والحسنة:** مأخوذة من الحسن، وهى موضوعة على كل ما يسرّ، **والسيئة:** مأخوذة من السوء، وهى اسم لما تنفر عنه النفوس، والمراد **بالحسنة** هاهنا: الطاعة، والمراد **بالسيئة:** المعصية، **والثواب:** اسم للمنافع التى تستحق على الطاعة، سُمى بذلك؛ لأنه يرجع على صاحبه بالمسرّة، **والعقاب:** اسم المضار التى تستحق على المعصية، وسُمى عقابًا؛ لأنه يستحق عقيب المعصية، **والأجل:** هو غاية كل شىء ونهايته، ومنه أجل المطلقة؛ لأنه الغاية فى التحريم حتى تحلّ للأزواج، **والكتاب:** هو العلم الكاشف على حدّ الأجل ونهايته، **والبدّ:** الفسحة والسعة، فإذا قال: لا بدّ لك من هذا أىْ: لا سعة ولا منه مندوحة عن فعله، **والقرين:** ما يقرن مع غيره؛ وأصله فى الإبل يقرن الصعب مع الذلول فلا يزال يحاذيه ويصاحبه حتى يلين مراسه وينقاد بسهولة، **والدفن:** المواراة، **الكرم:** معروف، **واللؤم:** معروف أيضاً، والمراد **بالكرم:** هاهنا المطابق للتقوى، والمراد **باللؤم:** ما

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 22.
(2) الأنوار المضيئة، 1/ 290.

يستحق عليه العقاب، **والكريمة من الإبل:** ما كانت غزيرة اللبن، **واللئيمة:** ما قلّ لبنها، وقد نُقل فى الاستعمال إلى بنى آدم، فجعل الكريم الحسيب، واللئيم البخيل.

وفى الحديث: أن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– قال فى صفة يوسف– عليه السلام– : «هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم»[1]»[2].

لقد كانت طريقة المصنف فى إظهار معانى الألفاظ اللغوية هو ذكر المعنى كما ظهر فى معنى كلمة: «العزّ»، أو ذكر النقيض كما فى كلمة: «الموت»، وتبيين مّما اشتقت الكلمة كما فى: «الحسيب والرقيب فى أنهما مشتقان من المحاسبة والمراقبة» مع إيراد تعريف الاشتقاق، وعند اللفظ الواضح معناه لا يوضحه ويكتفى بقوله معروف كما هو ظاهر فى قوله: «الكرم: معروف، واللؤم: معروف»، وعند ترك توضيح معنى اللفظ اللغوى لكونه ظاهرًا يوضح معناه فى سياق الحديث كما فى: «والمراد بالكرم هاهنا المطابق للتقوى»، وقد يعرّج على ذكر أصل استخدام اللفظ وما نقل إليه ويستشهد على ذلك النقل، كما ورد فى لفظة: «الكريم».

وإن عرضت لفظة فيها أكثر من لغة نبهه عليها، وفى المسائل الخلافية يذكر رأيه مع إيراد تعليل يؤكد رأيه، وإن وردت كلمة تحتمل أكثر من بناء صرفى يقف عندها ويوضحها، وذكر ما يجرى فى الكلمة من إعلال أو قلب أو إبدال، ويذكر المعانى المحتملة للكلمة الواحدة مع إيراد دليل لكل احتمال، ويمكن أن تظهر هذه القضايا مجتمعة فى معرض الحديث الأول: «**الناس:** اسم عام لجميع الخلق من الإنس الرجال والنساء والعبيد، **وفيه لغتان:** ناس، وأناس، فتصغير **ناس** نويس، على ترك الاعتداد بالمحذوف، وتصغير **أناس** أنيس على الاعتداد بالمحذوف، **والموت:** نقيض الحياة، وهل يكون معنى يضاد الحياة، أويكون تفريقًا للبنية لا غير؟

فيه تردد بين العلماء، والمختار أنه تفريق للبنية؛ لأنّا لا نقول بالمعانى العرضية، . . . ، **والسَّفْر:** اسم للجمع كالصحب والركب، وليس جمعًا على الحقيقة، ولهذا فإنه يصغّر على لفظه، فيقال: سُفَير وركَيب، فهو بالأسماء المفردة أشبه، ويضعف قول من قال: إنه جمع؛ لأن (فَعْلى) بسكون (العين) ليس من أوزان الجموع فى التكسير[3]، . . . ، **والجدث:** القبر، ويقال: جدف بـ (الفاء) أيضاً، **والأكل** معروف، **والتراث:** ما يخلفه الميت وراءه، وأصله وراث، فأبدلت (الواو) (تاء)، كما يقال: تيفور، وهو من الوفار، وتقوى وهى من الوقاية، **والخلود:** هو الدوام المؤبد، **والنسيان:** هو الذهول والغفلة.

---

(1) صحيح البخارى، محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير اليمامة، ط3،عام 1987م، بيروت، لبنان،3/ 1237.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 183.

(3) من قال أنه اسم جمع هو سيبويه، أما الأخفش فقد قال أنه جمع تكسير. ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى، تحقيق محمد نور، محمد الزفزاف، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، عام 1975. بيروت، لبنان، 2/ 203، 204.

والواعظة: فيها وجهان:

أحدهما: أن يكون صفة، أىْ: نسينا كل حادثة واعظة لنا، وهو الأكثر الأشهر.

وثانيهما: أن يكون اسم فاعله بمعنى المصدر، وأراد بها الوعظ كالكاذبة بمعنى الكذب، والعافية بمعنى المعافاة، والفاضلة بمعنى الفضل، وكلاهما لا غبار عليه، **والأمان**: نقيض الخوف، **والجائحة**: يتوجّه فيها المعنيان اللذان ذكرناهما فى الواعظة، **والجوائح**: هى التى تسحب ما فى يد الإنسان من أهل، ومال.

الطُوبى: (فُعلى) بضم (الفاء)، وعينها (ياء) قلبت (واو)، كالكوسى من الكيس، . . . .، **والاستهواء**: الغلبة يقال: استهواه النوم إذا غلبه، **والاستهواء**: الميل أيضاً، ومنه الهوى؛ لأنه يميل من جانب إلى جانب، والمعنيان حاصلان فى قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[1] أىْ: غلبته ومالت به . . . »[2].

وعلى هذا يمكن القول: إن الإمام يحيى بن حمزة عندما تناول ما اشتملت عليه الأحاديث من الألفاظ اللغوية كان يبدأ مباشرة بذكر اللفظ المراد توضيحه دون أن يسبقها بشىء من الكلام كما كان يفعل فى تصدير شرح الحديث حيث كان يبدأ بـ « فنقول»، وعندما ينتهى لا يورد أىّ خلاصة لما أورد، وبين الأمرين يوضح الألفاظ اللغوية بذكر النقيض أو المعنى، موردًا معانى بعض الألفاظ الاصطلاحية، واللغات الواردة فى الكلمة، منبهًا على المشترك اللفظى، وما سبق توضيحه فلا يعيد توضيحه فى بعض المواطن أما الغالب فإنه يعيد توضيح ما سبق توضيحه من الكلمات، ويجدر الإشارة إلى أنه جعل حيزًا لعلم الصرف فى هذا النظر فكان يورد وزن بعض الكلمات ويشير إلى المشتق منها وما حصل فى بعض الكلمات من إعلال أو قلب أو إبدال.

ويردف المصنف بعد النظر الأول النظر الثانى الذى يبين فيه ما اشتمل عليه الحديث من المعانى الإعرابية، وقد يسميه العلوم الإعرابية بدلاً عن المعانى الإعرابية، وكان يعرب ألفاظ الحديث لاسيما المشْكل منها كالمنادى والاستثناء والحروف والأسماء التى تختص بأكثر من عمل، والجمل التى لها محل من الإعراب، والجمل التى لا محل لها من الإعراب، والمتعلقات، وأنواع الاستثناء، مع إعرابه بعض الأفعال التى يُشْكِل متعلقاتها، وغالبًا ما يتناول المسائل الخلافية موردًا الآراء وحجة كل فريق، مع ترجيحه لرأى من تلك الآراء فى الغالب، وهو يستعمل المصطلحات البصرية والكوفية جنبًا إلى جنب، وإن كانت الغلبة للمصطلحات البصرية، كما هو الشأن فى معظم كتب النحو، ومنه على سبيل المثال استعمال لفظ الجر وهو مصطلح بصرى[3]، واستعمال لفظ ما لم يسم فاعله

---

(1) سورة الأنعام من الآية 71 .

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 163، 164.

(3) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 197، 340، 341.

وهو مصطلح كوفى[1]، وكذلك يستعمل مصطلحات النحاة الأخرى كالشاذ والنادر والقليل والكثير والسماعى والقياسى وغير القياسى، وغير ذلك من المصطلحات المتعارف عليها عند النحاة.

وهو يتناول فى إعرابه الآراء البصرية والكوفية على حد سواء، ويختار ما يراه صحيحًا من غير ميل إلى واحد منهم، بمعنى أنه يختار فى الإعراب ما يراه صحيحًا، ولا يهمه من يوافق بذلك الرأى، فمن مسائل الخلاف التى اختار فيها رأى البصريين، أن عامل الرفع لخبر (كأن) هو (كأن)، وليس الرفع بما كان مرفوعًا قبل دخول (كأن) حيث قال: «**كأن**: حرف من عوامل المبتدأ والخبر تنصب المبتدأ وترفع الخبر، وهل يكون الرفع بها فى الخبر، أويكون مرفوعًا بما كان مرفوعًا به قبل دخولها ؟

فيه تردد بين النحاة؛ والمختار أنه مرفوع بها، وهو رأى الجلّة من نحاة البصريين»[2] .

ومن المسائل التى اختار فيها رأى الكوفيين، وهى أقل من الأولى، أن الرافع للفعل المضارع المضارعة، وهو ما اختاره المصنف بقوله: «يبليان: مرفوع على المضارعة»[3] .

وانطلاقًا من رؤيته فى سلوك المنحى الإعرابى الذى يراه صحيحًا، فقد يخالف بذلك الرأى المتقدمين من علماء النحو، ومن المسائل التى اختار فيها رأى المتأخرين مخالفًا به رأى المتقدمين كسيبويه مسألة العلة التى لأجلها منع الجمع من الصرف، فسيبويه يذهب إلى أن المانع من الصرف هو عدم وجود فى الآحاد على مثاله، ويذهب ابن الحاجب إلى أن المانع كونه صيغة منتهى الجموع[4]، وهذا ما اختاره المصنف بقوله:«المعالم: منصوب بـ (إن) قبلها، وهى غير منصرفة للجمع ونهاية الجمع، وهى صيغة منتهى الجموع»[5]، وعندما يقف على ما سبق إعرابه يشير إليه بأنه سلف تقريره، ولا يعربه، وفى نهاية هذا النظر غالبًا لا يشير إلى الانتهاء من النظر.

أما طريقته فى تناول النظر الثالث فيما يخص المقاصد المعنوية، فإنه يجعله على بحثين– وقد يسميه مطلبان، ومقصدان– الأول: فى بيان الأسرار المتعلقة بالعلوم المعنوية، والثانى: فى بيان ما تضمنه من مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم، فعند تناوله البحث الأول خصّ بداية هذا البحث فى الحديث الأول بذكر طرف من حدّ وتعريف علم المعانى بقوله: «وهى فى الحقيقة متعلقة بأسرار التركيب، وتحوى معانى النحو فى التأليف»[6]، وعندما شرح ما يشمل الحديث من مباحث علم المعانى قد يبدأ بذكر

---

(1) ينظر: نفسه، 1/ 325، 385.
(2) الأنوار المضيئة، 1/ 165.
(3) نفسه، 1/ 219.
(4) ينظر: المنهاج الجلى، 1/ 91.
(5) الأنوار المضيئة، 1/ 208.
(6) نفسه، 1/ 167.

حدود أو غاية مباحث علم المعانى التى وردت فى الحديث– وهى قليلة–، ثم يشرح الحديث، ومنه: «التنبيه الأول: التأكيد: وهو معنى فى الكلام يُذكر لإزالة الاحتمال، وقطع الشكوك، فقد صدّر عليه السلام هذه الجمل بـ «إن» المؤكدة فى صدرها؛ ليدل بها على تأكيد المعنى الذى جىء بها من أجله»[1]، وقد يبدأ بذكر مكانة المبحث الذى يتناوله فى علم المعانى ثم يشرح الحديث، ومنه: «التنبيه الثالث: الإيجاز والاختصار: ولهما فى العلوم المعنوية موقع عظيم لا يخفى على من له أدنى ذوق»[2]، وغالبًا ما يتناول ما تضمنه الحديث من علم المعانى مباشرة.

وقد شرح المصنف موضوعات علم المعانى التى وردت فى الأحاديث، ومنها الفصل والوصل، والتأكيد، والتقديم والتأخير، وما يخص الجمل الإنشائية، والإيجاز والاختصار والحذف والإضمار والحصر والإبهام والإجمال والشمول والبيان والوضوح، منتهجًا عند شرحه لها منهجين:

المنهج الأول: جعل تلك المواضيع على ترتيبات وتفريعات فى نقاط يسميها تنبيهات، وقد يسميها أنواعًا ونكتًا ومعانى، ومنه فى معرض الحديث الثالث: «المطلب الأول: فى بيان الأمورالمعنوية التى اشتمل عليها من علم المعانى، وهو مشتمل على نكت ثلاث:

النكتةالأولى: الفصل والوصل، فالوصل ما كانت الجمل فيه حاصلة بـ «الواو» العاطفة، وهذا حاصل فى جميع الجمل كلّها التى وردت فى الحديث، فإنها جاءت وصلة بين الجملتين، وهكذا قوله: «ألا وإن» «الواو» هاهنا للوصل بين «إن»، و«ألا» للتنبيه، ولها موقع لطيف، وقد جاء الفصل فى قوله: «أيها الناس إن أكيسكم» لما لم يأت بـ (الواو) عطفًا على «أيها الناس» فى صدر الحديث لإرادة الفصل بين الكلامين، ولم يرد الجمع بينهما إيقاظًا للأسماع، وتنبيهًا على الخروج من كلام إلى كلام آخر ليس بينه وبين الأول علقة ولا ملاءمة بحال.

النكتة الثانية: الإيجاز والاختصار، فلقد أشار عليه السلام فى هذا الحديث إلى المبالغة فى الوعظ بأوجز عبارة وأخصرها، فذكر التوبة وأمر بها لإصلاح الأعمال، وبها يكون خواتيمها، وأمر بالمنافسة فى الأعمال الصالحة؛ لأنه يكون بها النجاة، ثم أمر بتقوية الأسباب بين الخلق وبين الله تعالى إلى آخر كلامه.

النكتة الثالثة: الحذف والإضمار، وهذا كقوله: «وبادروا» أىْ: بادروا الموت، وقوله: «قبل أن تُشغلوا» بالموت وأهواله، وقوله: «وصلوا الذى بينكم» بالطاعة، وقوله: «تُسعدوا» بالجنة، ونحو قوله: «تُرزقوا» الخير، وقوله: «تُخصبوا» فى ثماركم، فهذه كلها حذوفات جاءت على جهة الإضمار بها، وهى مراده فى التقدير»[3].

---

(1) نفسه، 1/ 186.
(2) الأنوار المضيئة، 1/ 186.
(3) الأنوار المضيئة، 1/ 198.

المنهج الثانى: الاسترسال فى شرح مباحث علم المعانى التى وردت فى الأحاديث حسب ترتيب ورود الجمل فى الأحاديث دون ترتيبها على شكل نقاط متسلسلة، ومنه فى معرض الحديث السادس: «المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى

فمنها، التقديم والتأخير، فى قوله: «حتى تكون فيه خمس خصال»، فقدّم الخبر بالظرف وأخر الاسم اهتمامًا واعتناء، ومن ذلك الفصل والوصل بـ (الواو) فى تعديد الصفات، والفصل، فى قوله: «إنه من أحب لله»، فأتى به من غير (واو)؛ تنبيهًا على الفصل، ومن ذلك البيان والإيضاح فى ما أجمل، فالإجمال فى قوله: «خمس خصال»، والبيان: هو ما ذكره من سرد الصفات التى أوردها، ومن ذلك التأكيد بـ «إن»، فى قوله: «إنه من أحب لله»، ومن ذلك الإبهام فى خبر الشأن والضمير، فى قوله: «إنه من أحب»، وهكذا حال الإبهام فى«من»، فإن هذه الأمور التى سردناها من علم المعانى فيها أسرار ورموز تطلع الناظر على المعادن والكنوز»[1].

وهنا يبرز سؤال ألا وهو: لماذا اعتمد المصنف فى شرح ما تضمنته الأحاديث من مباحث علم المعانى على منهجين؟ أكان المنهجان أمرًا انتبه له المصنف وقصده أم لا؟

نعم لقد اعتمد المصنف المنهج الأول الذى يقوم على ترتيبات وتفريعات فى نقاط متسلسلة فى الحديث الثانى والثالث والرابع والخامس والثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرين، وسلك المنهج الثانى الذى يقوم على شرح مواضيع علم المعانى حسب ترتيب ورود الجمل فى الأحاديث- دون وضعها فى نقاط متسلسلة- فى الحديث الأول والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والتاسع عشر، وهذا من شأنه أن يُبرز عدّة تعليلات، وهى:

1- لم يكن المنهج واضحًا فى الحديث الأول عند المصنف عند شرح هذا البحث، فشرحه ملتزمًا المنهج الثانى متأثرًا بالنظرين السابقين لهذا البحث حيث إنه شرحهما بالمنهج نفسه، وما هذا التأثر إلا لضبابية المنهج المناسب لعرض مادة هذا البحث، ومّما يؤكد هذه الضبابية أمران، الأول منهما: أنه أورد ضمن هذا البحث فى الحديث الأول بعض المسائل التى تخص البحث التالى لهذا البحث؛ أىْ تخص بحث مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم، والثانى: أنه لم ينظّر فى المقدمة لمنهجه المتبع فى عرض مادة هذا البحث، بمعنى أنه لم يذكر طريقة تناوله للمواضيع الداخلة فى بحث علم المعانى؛ وذلك لانشغاله فى المقدمة بالتنظير لما يضمه بحث علم المعانى من مواضيع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه كان منشغلاً بوضع قواعد منهجه الأعم، والمتمثل فى الأنظار الخمسة، وتوطيد حدود كل نظر.

---

(1) نفسه، 1/ 234، 235.

2- تنبّه المصنف عند شرحه الحديث الثانى إلى إمكانية شرح هذا البحث فى ترتيبات وتفريعات فى نقاط متسلسلة، وتنبّه لذلك بعدما شرح النظرين المتعلقين بعلم البيان وعلم البديع فى الحديث السابق- أىْ الأول- بترتيبات فى نقاط متسلسلة، وعلم المعانى هو صنو لهما فما ناسبهما من منهج سينطبق عليه، فلزم ذلك إلى الحديث الخامس.

3- فى الحديث السادس ألزمت المصنف مضامين الحديث، وذلك فيما يخص علم المعانى أن يعود إلى منهجه الأول الذى انتهجه فى شرح هذا البحث فى الحديث الأول، بمعنى أنه أدرك أن المنهج الأفضل لإظهار ما يضم الحديث السادس من علم المعانى وبشكل علمى يفيد القارئ هو المنهج الأول؛ لأن اللاحق من الجمل متعلق ومترتب بيانه على ما قبله من جمل الحديث، ويؤكد هذا التعليل أن المصنف نبه إلى ذلك فى الحديث التاسع بقوله: «وإنما تظهر فائدتها بتتبع ألفاظ الحديث، فصدر الحديث بلفظ الدعاء ملاطفة وتقربًا . . .»[1]، ومن شأن هذا الكلام أن يظهر أن المصنف كان يعى ذلك التحول فى المنهج والدليل تعليله ذلك التحول بكون ظهور الفوائد المتضمنة الحديث فيما يخص علم المعانى يحصل بتتبع ألفاظ الحديث، وقد التزم هذا المنهج حتى الحديث الحادى عشر مع الحديث العشرين للعلة نفسها .

4- بعد تلاشى العلة التى فى مضامين تلك الأحاديث، عاد إلى منهجه الذى أدرك أنه الأنسب عند شرح هذا البحث.

وللمصنف طريقتان فى ختم هذا البحث، الأولى: - هى الأغلب- لا يؤذن بانتهاء الغرض فى هذا البحث، والثانية: يؤذن بانتهاء ما تضمنته الأحاديث من مواضيع علم المعانى.

وبعد الانتهاء من البحث الأول من النظر الثانى يورد البحث الثانى: فى بيان ما تضمنته من مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم، مع الإشارة إلى أنه كان يسميه فى بعض الأحاديث المطلب الثانى، أو التقرير الثانى دون تبرير لذلك، وعند الشرح يبدأ بقوله: فاعلم، أو بقوله: واعلم، أو بقوله: وأراد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- من الحديث . . . ، وقد يبدأ بإيراد قول النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- المراد شرحه، وبعد الانتهاء من عرض مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم فى القول الذى أورده يردفه بالجملة التالية ثم يشرحها حتى يستوفى الشرح، وهكذا حتى ينتهى من إيراد جمل الحديث كاملة[2] .

وعند شرح المقاصد النبوية فى بعض الأحاديث جعل شرحه على الترتيبات والتفريعات المتسلسلة واضعًا لتلك الترتيبات والتفريعات عدة مسميات منها المقامات والحالات والوجوه والصور، وغالبًا ما تناول فى تلك الترتيبات والتفريعات الفضائل التى وردت فى الأحاديث، مبتدئًا بذكر حدّها وتعريفها، ومراتبها وأنواعها ودرجاتها، مستشهدًا على ما يشرحه بأدلة من القرآن

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 295.

(2) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 172- 178، 221- 229.

الكريم، والسنّة النبوية، وأقوال العلماء، وأشعار العرب وحكمهم وأمثالهم، فضلاً عن إيراد القصص والأخبار التى فيها العظة والعبرة[1] .

وللمسائل الكلامية مكان فى هذا البحث حيث تناولها المصنف عرضاً فى ثنايا الشرح، ويذكر آراء علماء الكلام، والفرق فى المسألة، وأدلة كل فريق وعالم، والمختار منها عنده، موردًا علل الاختيار ومدعمًا لما يقول بالأدلة، ومنه فى مسألة الثواب، أهو تفضل من الله يؤتيه من يشاء أم يستحقه على الطاعة: «الطّرف الأول: فيما يستحق به الثواب والعقاب؛ فالذى عليه أئمة الزيدية، والجماهير من المعتزلة أنهما إنما يستحقان على الطاعة والمعصية، وأنهما أعنى الطاعة والمعصية سببان فى استحقاقه، والمحكى عن الأشعرية أن الثواب تفضل من جهة الله تعالى يؤتيه من يشاء، ويخصّه من يشاء، والعقاب وإن كان مستحقًا على المعصية، ولكنه يجوز أن يعفو عن المعاصى، وأنه لا معنى للوجوب على الله، ولايقبح من جهته قبيح، ولا يحسن من جهته حسن، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وصرحوا ببطلان الأحكام العقلية من الحسن والقبح، والوجوب، والندب، وأن مستند هذه الأحكام كلها الشرع، ولا تصرف للعقل فيها، ولا قوة لنا على تحصيلها، وعلى القضاء بها، وحُكى عن الشيخ أبى القاسم الكعبى شيخ معتزلة بغداد أن الثواب إنما يستحق ليس على الطاعة، وإنما هو شكر للنعمة، وأما العقاب فيستحق على المعصية؛ والمختار هو ما أشار إليه الشرع من أن الطاعة سبب فى استحقاق الثواب عليها، وأن المعصية سبب فى استحقاق العقاب عليها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2]، وقوله: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[3]، وقوله:﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾[4]، فهذه واردة كلها دالة على ما ذكرناه من الاستحقاقين.

الطّرف الثانى: فى الإحباط والتكفير؛ اعلم أن الإحباط والتكفير إنما يتصوران على قول من يقول بوجوب التوفير فى كل واحد من المستحقين الثواب والعقاب، فأما من لا يقول بالوجوب على ما حكيناه عن الأشعرية، فلا وجه لجريهما بحال، فأما من قال بالوجوب لتعذر اجتماعهما، ففيه مذهبان:

المذهب الأول: إن الثواب والعقاب يتساقطان على الدوام، والغلبة للأكثر فى التوفير، وهذا هو رأى الشيخ أبى هاشم، والمذهب الثانى: إن الأقلّ يسقط فى جنب الأكثر، ولا يكون له حكم، وهذا هو رأى الشيخ أبى على الجبائى، فعلى رأى أبى هاشم، إذا استحق عشرين جزءًا من الثواب وعشرة أجزاء من العقاب سقط من الثواب عشرة، ووفرت عشرة، وعلى رأى

(1) ينظر: نفسه، 1/ 328، 329، 579- 588.
(2) سورة الزلزلة الآيتان 7، 8.
(3) سورة النساء من الآية 123.
(4) سورة الرحمن الآية 60.

الشيخ أبى على تسقط أجزاء العقاب، ولا يكون لها حظّ فى الإسقاط»[1].

وعندما ينتهى المصنف من شرح مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- لا يشير- فى الغالب- إلى انتهاء شرح المقاصد، وقد يشير إلى انتهاء غرضه- وهو الأقل- وفى النادر يختم بدعاء.

وفى النظر الرابع فى بيان ما اشتمل عليه الحديث من العلوم البيانية؛ بدأ المصنف فى شرح هذا النظر فى الحديث الأول بطريقة تختلف عن بقية الأحاديث حيث بدأ بذكر المداخل العظيمة لهذا العلم- أىْ علم البيان- فى القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، وعرّض بمن ينكر المجاز فيهما، وساق شواهد تثبت أن المجاز فى القرآن أظهر من نور الشمس، وبعد ذلك أورد ما تضمنه الحديث من علم البيان وشرحها، وهذا الإيراد هو الطريقة التى لزمها المصنف فى شرح النظر الرابع فى الأحاديث كلها عدا الحديث الأول.

وقد جعل شرحه على ترتيبات وتفريعات متسلسلة متنوعة تسمياتها من حديث إلى آخر، فإذا كان فى الحديث الأول يسميها استعارة، فإنه فى الحديث الثانى يسميها مواقع، وفى الحديث الرابع يسميها مجازات- واستيفاء هذه الجزئية وغيرها مّما يخص علوم البلاغة الثلاثة فى موضعها الفصل الثالث: جهوده البلاغية، من هذه الدراسة-.

وفى ثنايا شرحه أورد بعض الخلافات، و من علل هذا الإيراد استدعاء النص النبوى الشريف الذى يشرحه المصنف لذلك الخلاف، أىْ أن إيراد الخلافات لم يكن المصنف ليوردها لولا حاجة النص النبوى لها، ويختار المصنف له رأيًا فى ذلك الخلاف مع تدعيمه لما اختاره ورآه صحيحًا، ومنه- فى معرض الحديث الرابع عشر-: «فإن الغىّ: نقيض الهدى، وهو مجاز لا محالة، والغيابة والغيابات هى الحجاب على الشمس عن الاستنارة، فوصف الأمر بالغىّ مجاز فى جمعه، فنُقل من هذا المعنى إلى ما يناقض الهدى، وذكر (المنصور بالله)- عليه السلام- أن الغىّ مأخوذ من قولهم: غوى الفصيل[2] إذا زاد رضاعه فوق الحدّ، فيهلك أو يقارب الهلاك[3]، وليس الأمر كذلك، فإن الغىّ: مخالف للغَوى من جهة لفظه ومعناه، أما لفظه: فلأن (لام) الغىّ وعينه (ياآن) من باب حيى، بخلاف غوى فإن عينه (واو)، ولامه (ياء)، وأما من جهة معناه، فلأن **الغىّ:** هو التغطية عن الهداية، ومنه الغيابة والغيابات، وأما الغوىّ: فهو بشم[4] الفصيل من كثرة اللبن، فهما مفترقان كما ترى»[5].

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 188، 189.

(2) الفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه. ينظر: لسان العرب، مادة (فصل).

(3) ينظر: حديقة الحكمة، 134.

(4) البشم: تخمة على الدسم. ينظر: لسان العرب، مادة (بشم).

(5) الأنوار المضيئة، 1/ 388.

ومن الجوانب التى اهتم بها المصنف عند شرحه إظهار أثر الصور البيانية فى النص النبوى الشريف، ومنه- فى معرض الحديث الأول--: «فهذه الاستعارات كلّها قد بلغت فى الوعظ كل غاية، واتسق نظامها وحسن تأليفها، وصارت معجبة لما اشتملت عليه من حسن السبك وإعجاب النظم والتأليف»[1]، وإظهار المصنف لأثر الصور البيانية فى النص النبوى هى إحدى الطرق التى يختم بها هذا النظر، وقد يختم بعضها بالإشارة إلى انتهاء غرضه من الشرح، وفى القليل منها لا يؤذن بالانتهاء .

وبعد انتهاء المصنف من شرح النظر الرابع يتبعه بشرح النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه الحديث من علم البديع، وغالبًا ما يجعل موضوعات هذا العلم التى وردت فى الأحاديث على ترتيبات وتفريعات متسلسلة منوعًا فى نعوتها بين نعتها بالأصناف والضروب والأجناس والأساليب، ويُظهر هذه الترتيبات المثال الآتى: «النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع.

وقد اشتمل على أصناف أربعة:

الصنف الأول: الاشتقاق، كقوله: «لا يكتب فى المسلمين حتى يسلم الناس»، فقوله: فى المسلمين، ويسلم من باب الاشتقاق، كقوله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ** ﴾[2] .

الصنف الثانى: التسجيع، فى قوله: «بوائقه»، و«بوادره»، فإنهما مستويان فى الوزن، وهو سجع لا محالة.

الصنف الثالث: التجنيس، فى قوله: «ما لا بأس به حذار ما به البأس»، وقوله: «من عمله» فى حقّ المؤمن، و«من عمله» فى حقّ الفاسق، فإنه جناس كما ترى.

الصنف الرابع: الطباق، وهذا كقوله: «خير»، و«شرّ»، وقوله: «المؤمن»، و«الفاسق»، فإن ما هذا حاله معدود فى الطباق؛ لأن حاصل الطباق: ذكر النقيضين والضدين، كما مرّ بيانه»[3] .

وفى بعض الأحاديث لا يجعلها على هذه الترتيبات والتفريعات المتسلسلة، وهذه الطريقة أقل من الطريقة السابقة، ومنه: «النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علم البديع، فمن السجع: قوله: «معالمكم»، و«نهايتكم» . ومن التجنيس: قوله: «من نفسه لنفسه»، فهما من التجنيس الكامل، ومن الطباق: قوله: «الشبيبة قبل الكِبَر»، و«الحياة»، و«الموت»، ومن الطباق: «الجنة»، و«النار»، فهذه الأمور كلّها من علم البديع»[4] .

---

(1) نفسه، 1/ 179 .

(2) سورة الروم من الآية 43 .

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 280 .

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 215 .

وقد جعل النصيب الأوفر فى هذا النظر للطباق والسجع والجناس، ويسمى السجع فى بعض المواضع تسجيعًا، والجناس تجنيسًا دون الإشارة إلى كونهما سواء، ولم يورد فى شرحه حدود وتعاريف المحسنات البديعية إلا فى النادر وبشكل عابر فى ثنايا الشرح، ومنه ما ورد فى المثال المقتبس لإظهار الترتيبات المتسلسلة فى تناول المصنف علم البديع، فقد أورد هناك تعريف الطباق مع تكراره لتعريف الطباق فى أكثر من موضع.

أما المواضيع التى قلّ ورودها هذا النظر فهى الاقتباس والتعديد والترصيع والتعليل وحكاية الحال القولية والفعلية والمحاورة، والسر فى كثرة ذكر بعض المحسنات وقلة بعضها راجع لورودها فى الأحاديث النبوية المشروحة، وهو عندما يظهر ما ضمت الأحاديث من علم البديع لايكتفى بإظهارها بل يذكر أثرها فى النص النبوى، وغالبًا ما يختم هذا النظر بما يسميه حسن الإيضاح أو حسن السبك أو الفصاحة والبلاغة فيما تضمنه الحديث، ومنه– فى معرض الحديث الثالث–: «الضرب الثالث: ما تضمنه من الفصاحة والبلاغة، فإن أعملت الفكرة فى مفرداته وجدتها أعذب شىء وأحلاه، وإن فكرت فيما تضمنه من الجمل وجدتها مسوقة أحسن سياق، فقد صدّر الحديث بذكر التوبة؛ لكونها مصلحة للأعمال، وختم بذكر الموت؛ لمّا كان هو الغاية والنهاية، ووسّط بينهما ذكر الآداب الدينية والدنيوية، فحصل الحديث على تأليف عجيب وسياق رشيق»[1].

إن هذا الترتيب فى الأنظار قد التزمه المؤلف من الحديث الأول إلى الحديث الثامن، وابتداً من الحديث التاسع خرج المؤلف عن إطار هذا المنهج الذى نظّر له فى المقدمة، و سلكه فى شرحه للأحاديث الثمانية الأولى، أما المنهج المتبع عند تناوله للحديث التاسع إلى نهاية الجزء الأول بالشرح، والتفصيل؛ فيتمثل فى:

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الأدبية، وفيه بحثان:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية.

البحث الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم المعانى والبيان والبديع، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى.

المطلب الثانى: فى بيان ما تضمنه من علوم البيان.

المطلب الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(1) نفسه، 1/ 205.

لقد جعل المصنف الأنظار ثلاثة بعد أن كانت خمسة، وجمع بين الألفاظ اللغوية والمعانى الإعرابية فى نظر واحد فرّعه إلى بحثين؛ الأول مختص بالألفاظ اللغوية، والثانى مختص بالمعانى الإعرابية، وذلك بعد أن كان كلاهما مختصًا بنظر، وجمع بين علم المعانى وعلم البيان وعلم البديع فى نظر واحد فرّعه إلى ثلاثة مباحث؛ الأول مختص بعلم المعانى، والثانى مختص بعلم البيان، والثالث مختص بعلم البديع، وذلك بعد أن كان علم المعانى بحثًا من نظر، وبعد أن كان علم البيان مختصًا بنظر، وعلم البديع مختصًا بنظر، وجعل مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– مختصًا بنظر بعد أن كان بحثًا من نظر.

يظهر من هذا أن المصنف وإن عدل عن المنهج الذى قرره– فى المقدمة وطبقه على الأحاديث الثمانية الأولى– إلى منهج آخر لكنه لم يسقط من منهجه الجديد أىّ علم من العلوم التى قرر عرض الأحاديث عليها فى مقدمته، وإنما أعاد ترتيب تلك العلوم فى الأنظار ليس إلا وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤلات هى: لماذا اختار المصنف منهجه الأول الذى قام بالتنظير له فى المقدمة ؟ ولماذا عدل عنه وأعاد ترتيب هذه العلوم فى الأنظار؟ وما سمات المنهج الذى عدل إليه ؟

عندما اختار المصنف منهجه الأول، والذى نظّر له فى المقدمة وطبقه على الثمانية الأحاديث الأولى، كان ينظر إلى أن الشأن كله فى مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– ونظر إلى كون الألفاظ اللغوية والمعانى الإعرابية وعلم المعانى عبارة عن تمهيد وتوطئة للمقاصد النبوية، ولذا جعلها سابقة للمقاصد النبوية، ونظر إلى كون علم البيان وعلم البديع عبارة عن تتمة وتكملة للمقاصد النبوية، ولذا جعلها تتلو المقاصد، وجعل علم المعانى ومقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى نظر واحد لمسوغ هو أن الأسرار المعنوية المختصة بالتقديم والتأخير والفصل والوصل، وغيرها من الأسرار خاضعة لأغراض ومقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– حيث أن الانزياح التركيبى سرّه غرض ومقصد لا ارتجال– وهذا كله أورده المصنف فى المقدمة–، ولهذا التقارب بين علم المعانى والمقاصد النبوية فى كون حصول سرّ من أسرار علم المعانى لغرض ومقصد نبوى فلا جرم جمعهما المصنف فى نظر[1].

ثم عدل المصنف إلى منهجه الجديد فى الترتيب لمسوغات يمكن أن تستشف من كلامه فى المقدمة، فالألفاظ اللغوية والمعانى الإعرابية بينهما قوة تدانى وقرب تدانى فلا جرم جعلهما بحثين فى نظر من باب الاختصار لاسيما أنه لازال أمامه اثنان وثلاثون حديثًا تحتاج إلى شرح وتفصيل هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قوله– فى معرض الحديث الثامن عشر عن الألفاظ اللغوية–: «وما أخللنا به من المباحث اللغوية، فلعله يوجد فى المباحث الإعرابية؛ لأنهما يجمعهما جامع واحد، وهو إصلاح الألفاظ والمعانى

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 158.

من جهة اللغة»[1]، فبرز سبب آخر لهذا الجمع بين البحثين فى نظر واحد، وهذا السبب هو أن بعض الألفاظ اللغوية التى لم يشرحها فى بحثها سترد فى بحث المعانى الإعرابية بمعنى أن من مهام المصنف فى البحث الثانى تدارك ما لم يشرحه فى البحث الأول؛ لأنه يرى أن البحثين يجمعهما جامع واحد هو إصلاح الألفاظ والمعانى من جهة اللغة، وبالنسبة لجمع علوم البلاغة الثلاثة فى نظر واحد فلا يحتاج لتعليل؛ لأن من المعلوم لدى علماء البلاغة علاقة هذه العلوم الوطيدة ببعضها البعض، فلا جرم حين جمعها المصنف فى نظر واحد، وما وضع مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- منفردة فى نظر إلا فيها الشأن كله، وما العلوم السابقة لها إلا خدم لإظهار تلك المقاصد ليكون من ثم جعلها فى نظر أخير مناسب لأن من المعلوم أن تتقدم الأدوات والآلات على ما تنتجه ومعناه أن علمى اللغة والنحو الصرف وعلوم البلاغة الثلاثة من معانٍ وبيان وبديع عبارة عن أدوات وآلات تنتج النص وتظهر مقاصده.

وهنا تظهر عدة سمات لهذا المنهج، ففضلاً عن الاختصار، فإنه منهج يقوم على أسس علمية تكمن فى جمع الألفاظ اللغوية والمعانى الإعرابية فى نظر واحد لما بينهما من تقارب، لتكون المجموعة الثانية والمتمثلة فى النظر الثانى مخصصة لعلوم البلاغة الثلاثة التى طالما صنف فيها العلماء مجتمعة بعد أن فصلها العلماء عن باقى علوم العربية فى مصنفات خاصة بها ليكون من ثم ذلك الفصل خطوة متميزة فى طريق جعل علم البلاغة علمًا قائمًا بذاته، أما بالنسبة لثمرة هذه العلوم المتمثلة فى مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فمن العلمية أن تكون هى خاتمة هذه الأنظار فى نظر مخصص لها وحدها لأن المقاصد ليست نتيجة يتفرد بها أحد العلوم السابقة فتوضع مع أحدها فى نظر واحد بل هى نتيجة وثمرة تلك العلوم مجتمعة، ولذا فلا جرم أن تكون المقاصد النبوية فى نظر مخصص لها، وأن يكون ذلك النظر آخر نظر تناوله المصنف بالشرح والتفصيل.

أما سمات منهجه فى كتابه عامة، فمنها التزامه بحصر كلامه فيما يخص العلم الذى يتحدث فيه، فلا يستطرد فى الكلام، وإن ألجأته العبارة إلى الخروج فإنه يذكر طرفًا ثم يحيل القارئ على كتب أخرى، ومثال عليه، قوله فى مسألة اسم الله ألقب أم لا ؟ فإنه يقول: «فيه تردد، والحقّ أنه اسم جنس فى معنى اللقب، فبما فيه من الجنسية لا يجوز تغيره بالبدل إلى غيره، كلفظ الرجل والسواد، وبما فيه من اللقب لا يجوز فيه الاشتراك، كما لا يجوز فى الألقاب كزيد وعمرو، وقد رمزنا إلى أسرار هذه المسألة فى أسماء الله تعالى من كتاب (الشامل)[2] فى المباحث الكلامية، ورددنا على الفلاسفة مقالتهم»[3].

وعندما جعل الإمام يحيى بن حمزة شرحه على أنظار ثم فرع الأنظار إلى أبحاث والأبحاث إلى مواقع ووجوه . . . فإن

---

(1) نفسه، 1/ 511.

(2) وهو الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينية، فى (علم الكلام) أربعة مجلدات مخطوطة، نسخة بالمكتبة الغربية وأخرى بمكتبة مركز بدر. ينظر: أعلام المؤلفين، 1129.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 291.

من شأنه أن يبرز سمة أخرى، وهى أنه لا يرسل فى الكلام كيفما اتفق، ولا يدخل بعضها فى بعض، فضلاً عن كونه لا يكرر شرح ما سبق شرحه فى الغالب.

ومن سمات منهجه عند الكشف عن إشكالية ما استخدام أسلوب يجذب القارئ، وهذا الأسلوب هو صيغة: سؤال، يحمل فى طياته الإشكالية على هيئة سؤال، ثم يردفه بقوله: وجوابه، أو الجواب، وهذا أسلوب قصده فى بعض المسائل كى يستوفى حقها من الشرح، ومنه: «قوله عليه السلام: «ثم لا يحشر إلا معه، ولا تبعث إلا معه» . . . **سؤال:** أراه جعل العمل محشورًا مع الإنسان، وجعل الإنسان مبعوثًا مع العمل، فخالف بينهما، فما السر فى ذلك؟

وجوابه: هو أن معنى «مع» المصاحبة، فإذا حُشر الإنسان كان عمله مصاحبًا له مضافًا إليه؛ لأن المقصود هو الجزاء عليه بخلاف ما إذا حشر؛ فإنه يكون مصاحباً لعمله؛ لأن البعث: إخراجه من قبره، فالإنسان يكون مضافًا إلى عمله لما كان العمل هو المقصود، فكأنه يبعث فى ظل عمله، كما ورد فى الحديث:«المؤمن فى ظل صدقته»[1] لما كانت هى المقصودة، فافترقا»[2].

وهنا يمكن القول لقد جمع الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه (الأنوار المضيئة) بين جزالة الألفاظ ودقة التعبير والتوضيح والتبسيط فى عرض مادة الكتاب دون إسهاب واستطراد، وبين العقل والنقل فى شرحه والإنشاء والخبر فى أسلوبه، فضلاً عن الترتيبات والتفريعات فى نقاط متسلسلة.

مصادره

إن ما يحويه كتاب (الأنوار المضيئة) من ثروة علمية من شأنه أن يظهر مدى استفادة الإمام يحيى ابن حمزة الكبيرة من تراث الأمة العربية والإسلامية الكثير والغزير فى شتى العلوم، قد نقل الكثير من مواد العلوم المختلفة كالقرآن الكريم وعلومه، والسنّة النبوية الشريفة، والفقه وأصوله، واللغة، والنحو والصرف، والبلاغة، وأصول الدين والمنطق والسير والتاريخ، والقصص، وغيرها، حيث أورد فى شرحه كثيرًا من آيات الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية التى تعضد استدلالاً ما، وذكر الكثير من العبر والمواعظ والأمثال والحكم، وساق فى ثنايا شرحه عددًا من الروايات فى السير والتاريخ والأحداث والوقائع، ومسائل لغوية، وبلاغية، وكلامية، وفلسفية، وذلك بقصد التقييم أو المناقشة أو الاحتجاج أو النقد أو الموافقة أو المخالفة.

ولكن اعتاد كثير من العلماء السابقين ألا يذكروا اسم المصادر التى يستقون منها معلوماتهم، إلا القليل من تلك الإشارة،

---

(1) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، مكتبة الزهراء، ط2، عام 1983م، الموصل، العراق، 17/ 286 . بلفظ: «وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته».

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 185.

وهذا ما يظهر فى كتاب (الأنوار المضيئة) فعلى ثراء المادة الموجودة فيه إلا أن المصادر الواردة قليلة جدًا، حيث أنه قد أورد آراء لعلماء كسيبويه والأخفش والزجاج والزمخشرى وغيرهم، وآراء مدارس كمدرسة الكوفة والبصرة، وأقوال فرق ومذاهب كالزيدية والمعتزلة البغدادية والبصرية، والأشعرية، فضلاً عن ردوده على الملاحدة والسبعية والفلاسفة، وهو مع ذلك كله لا يذكر مصادره إلا بعض الإشارات العابرة كذكر كتاب (المنتخب فى النوب) الذى اقتصر فيه على الإشارة إلى أن مصنفه ابن الجوزى قد أورد الوعظ على منوال الآى، وعلى سجعها فجاء فى أحسن قالب[1]، وقد أشار فى موضع آخر من كتابه إلى كتاب (المجازات النبوية)، ومشيرًا إلى أنه قد ورد فيه غرائب فنون المجازات النبوية، وذكر أن مصنفه على بن ناصر[2]، مع أن الكتاب (المجازات النبوية) قد طبع تحت تأليف الشريف الرضى، ولعل على بن ناصر هو الناسخ للمخطوطة (المجازات النبوية) التى وصلت إلى يد صاحب (الأنوار المضيئة) لاسيما أن على بن ناصر قد عاصر الشريف الرضى ولزمه، وكان أول من شرح كتاب (نهج البلاغة) الذى جمعه الشريف الرضى، والذى سماه (أعلام نهج البلاغة)[3]، وضعيف أن يكون فى هذه النسبة تحريف من قِبل ناسخ (الأنوار المضيئة) لأن الأربع النسخ التى تمّ الاعتماد عليها فى التحقيق اتفقت على ذلك، ومن جهة أخرى فإن الإمام يحيى بن حمزة قد نسب كتاب (المجازات النبوية) لعلى بن ناصر فى كتابه (الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى)[4].

أما ما يخصّ طريقة تعامله مع مصادره، فإنه بين ثلاث طرق، **الأولى:** النقل دون الإشارة إلى صاحب القول وكتابه، وهى الغالبة حيث يزيد ويحذف فى الكلام المنقول ما يراه مناسبًا، ومن أمثلة ذلك فى نظر مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم، حيث ضمن المقاصد من كلام أبى حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) لاسيما ما يخص الزواجر الوعظية[5].

والثانية: النقل مع الإشارة إلى صاحب القول دون ذكر كتابه المنقول، ومنه قول المصنف: «ومصادر الفعل كثيرة واسعة، وقد ضبطها (الزمخشرى) مفصلة باثنين وثلاثين بناءً، وزاد غير (سيبويه) ثلاثة أبنية»[6].

والثالثة: النقل مع الإشارة إلى صاحب القول وكتابه الذى ورد فيه القول، ومنه قول المصنف: «وهل تصحّ التوبة من قبيح دون قبيح أو لا؟ فيه خلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إن القبيح شامل لكل قبيح، فلا يصحّ الندم على قبيح دون قبيح مثله،

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 523.

(2) ينظر: نفسه، 1/ 178.

(3) ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 725، 726.

(4) ينظر: الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى، 1/ 106.

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى، دار المعرفة، عام 1403هـ، بيروت، لبنان، 3/ 257، 258، والأنوار المضيئة، 1/ 495- 500. وينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 215- 217، والأنوار المضيئة، 1/ 582- 588.

(6) ينظر: المفصل فى صنعة الإعراب، محمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق د. على بو ملحم، مكتبة الهلال، ط1، عام 1993م، بيروت، لبنان، 275، والأنوار المضيئة، 1/ 428.

والمختار عندنا جواز ذلك، وهو رأى الإمام (المنصور بالله)- عليه السلام- فإنه قال هاهنا فى شرحه لهذا الحديث: وعندنا بل هو إجماع الأمة أن كل من تاب من دِين النصرانية إلى دِين الجبرية أن توبته صحيحة، وأنه قد خرج عن حكم النصارى إلى حكم المسلمين، وإن كان مصرًا على ذنب عظيم، بل من أئمتنا من جعله كفرًا»[1]، وهنا أسند الرأى لصاحبه الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة، مع العلم أن المنصور بالله لم يشرح هذا الحديث من الأربعين السيلقية إلا فى كتابه (حديقة الحكمة)، ولذا عندما قال الإمام يحيى بن حمزة إن المنصور بالله ذكر رأيه فى شرح هذا الحديث ظهر أنه يقصد فى كتابه (حديقة الحكمة) .

وقد جعل المصنف لكتبه مكانًا فى كتاب (الأنوار المضيئة)، وذلك عندما يتطرق لطرف من المسائل غير البلاغية فقد كان يحيل القارئ على بعض كتبه ليستوفى القارئ أطراف الموضوع، ولكى لا يخرج عن غاية شرحه البلاغية للأحاديث السيلقية، وكتبه التى ذكرها هى:

1- الشامل، ولم يرد بقية اسمه، وهو الشامل لحقائق الأدلة العقلية، وأصول المسائل الدينية، فى (علم الكلام) .

2- التحقيق فى الإكفار والتفسيق[2]، فى (علم الكلام) .

3- الأزهار فى علم الإعراب، واسمه كاملاً الأزهار الصافية شرح مقدمة الكافية، وورد باسم الأنهار الصافية فى شرح المقدمة الكافية، وقُدم أطروحة دكتوراة بالاسم الأخير كما مرّ فى المبحث الثانى مؤلفاته من الفصل الأول من الدراسة.

4- الحاصر فى علم الإعراب، واسمه الحاصر فى شرح مقدمة طاهر، وورد باسم الحاصر لفوائد مقدمة طاهر، وهو فى النحو، وقدم رسالة ماجستير بالاسم الأخير كما مرّ فى المبحث الثانى مؤلفاته من الفصل الأول من الدراسة.

5- المشكاة، واسمه مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار، فى (علم الكلام) .

6- الإفحام، واسمه الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، فى (علم الكلام) .

7- شرح المفصل، واسمه المحصل فى كشف أسرار المفصل.

لم يحل المصنف على كتاب بلاغى لأن كتابه (الأنوار المضيئة) فى علوم البلاغة، ولذا كان يستوفى القضايا البلاغية فيه، ويحيل القارئ فى المسائل الكلامية والنحوية على كتبه المتخصصة فى ذلك.

وأخيرًا لقد وضع الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه (الأنوار المضيئة) منهجًا علميًا حيث أورد فى المقدمة بواعث الشرح البلاغية، وأهمية الأحاديث التى شرحها، وذكر شرح الأحاديث السيلقية السابق لشرحه موردًا سمات تلك الدراسة وجوانب

(1) حديقة الحكمة النبوية، 28، والأنوار المضيئة، 1/ 194.

(2) وقد ورد باسم التحقيق فى التكفير والتفسيق. ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1126.

القصور فيها، وقد ذكر مجانبته لتلك الدراسة السابقة فى شرحه من خلال إيراد منهجه المتبع فى الشرح والقائم على الأنظار التى رتبها على أسس علمية.

وقد سعى المصنف إلى تطبيق ذلك عند شرحه بشكل تام إلا فى بعض مواطن شرحه التى تم تعليلها ومناقشتها، ولتأثره بعلم المنطق فقد أورد الكثير من التعليلات التى كان يطرحها على هيئة سؤال يحمل فى طياته إشكالاً ثم يرد عليه مع إقامة الحجج العقلية، وقد جعل مواضيعه على ترتيبات وتفريعات متسلسلة كى لا يخلط بين المسائل، ولا يستطرد فى الشرح الذى يخرجه عن موضوعه، وإن حصل وخرج فإنه لا يستطرد بل يحيل القارئ على كتبه المتخصصة فيما أحال، ومن شأن هذه الإحالات فضلاً عمّا سبق ألا يترك القارئ تائهًا فى تلك المسائل بل يقدم له المرجع فى تلك المسائل ليستوفى التحقيق فيها .

وعند إيراده الأقوال والآراء فإنه لم يكن مجرد ناقل بل يفاضل ويتلمس وجه الصحة لكل رأى، ويختار ما يراه مناسبًا دون الأخذ بعين الاعتبار من يوافق أو يخالف ما يراه صحيحًا مدعمًا الآراء بالأدلة والشواهد مع تجنب التكرار، وقد اعتمد على كتب لم تصل إلينا ككتابه (الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينية)، وكتابه (التحقيق فى الإكفار والتفسيق) .

المبحث الثالث

موازنة بين كتاب (حديقة الحكمة) وكتاب (الأنوار المضيئة)

إن من شأن الموازنة بين كتابين لمؤلفين ألا تجعل التفضيل والانتصار لأحدهما على الآخر، هى الغاية المبتغاة؛ لأنّ عقد الموازنة بهذه الطريقة سيجعل من أخص خصائصها تتبع الكبوات ليس إلا، فتكون بذلك موازنة تفتقر إلى روح الرؤية العلمية الناقدة، ولذا لزم عقد الموازنة على أسس تقوم على استنباط أوجه الاختلاف والتوازى، مع إبراز حالات التفرد لدى كل طرف، ومدى تأثر اللاحق بالسابق، وإفادته منه، ويجب قبل هذا كله وجود علاقة قائمة بين الكتابين كمسوغ علمى لعقد هذه الموازنة.

إن العلاقة القائمة- بين كتاب (حديقة الحكمة النبوية فى تفسير الأربعين السيلقية) للإمام عبد الله بن حمزة، وكتاب (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية) للإمام يحيى بن حمزة- تتمثل فى كونهما تناولا (الأربعين حديثًا السيلقية) بالشرح والتفصيل، وكتاب (حديقة الحكمة) هو الدراسة الوحيدة السابقة- فى شرح الأربعين السيلقية- للكتاب الذى بصدد الدراسة والتحقيق.

وابتداءً بالسابق- أىْ (حديقة الحكمة)- ومن مقدمته؛ فقد ورد فيها أَنَّ علة شرح الأربعين السيلقية، وذلك بقول المصنف: «فقد سألنى بعض من تلزمنى عهدة إجابته، ويتعين علىّ فرض مساعدته من أفاضل الإخوان المرشدين الهادين بحمد الله المهتدين أنْ أشرح للمسترشدين معانى الأحاديث الأربعين النبوية السيلقية بإيضاح ألفاظها اللغوية، وإفصاح فوائدها المعنوية لتنفتح أكمامها، وتتضح أحكامها، وتنتشر أعلامها فأجبته...»[1].

إذن سبب الشرح طلب بعض السائلين المسترشدين؛- وهذا أسلوب من أساليب بيان سبب التأليف لدى القدماء- ليكون من ثم إيضاح الألفاظ اللغوية، والفوائد المعنوية هى السبل التى تكشف المقاصد النبوية فى الأحاديث، وبهذا تكون الغاية توضيح الأحكام الشرعية، والزواجر الوعظية.

وثمة إشارة فى مقدمة الكتاب توحى بميل المصنف الواضح إلى علم الحديث و رجاله، فمن ركائز منهجه الذى نظّر له فى مقدمته ذكر طرف من نسب راوى الحديث من الصحابة- رضى الله عنهم-، والإشارة إلى بعض أحوال الراوى، لاسيما أن له فى هذا العلم النصيب الأوفر[2]، ولكن إذا كان مدار اهتمامه علم الحديث ورجاله حيث له النصيب الأوفى فيه، فلماذا اقتصر فى سند الأحاديث المشروحة على ذكر الراوى من الصحابة- رضى الله عنهم- دون إيراد السند كاملاً ؟

---

(1) حديقة الحكمة، 8 .

(2) ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، 3/ 597- 606.

إنَّ مصنف (حديقة الحكمة) قد خصَّ شرحه الأحاديث بالاختصار، وجعل من سبل الاختصار الاكتفاء فى سند الأحاديث على ترجمة السامع من النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- ولكى لا يتوهم القارئ أن المصنف أغفل جانبًا بالغ الأهمية فيما يخص علم الحديث وهو سند الحديث فقد نبه المصنف القارئ أن سند هذه الأحاديث قد ضمنها فى كتب له[1] .

بعد عرض ما ورد فى مقدمة (حديقة الحكمة) يمكن القول: إنَّ المصنف قد نظّر فى المقدمة تنظيرًا يظهر السمات البارزة فى شرحه للأحاديث، وهى:

1- شرح ألفاظ الأحاديث اللغوية، وتوضيح معانيها .

2- القصد من ذلك الشرح استنباط المقاصد النبوية.

3- الميل إلى الاختصار فى الشرح.

4- تناول رواة الأحاديث.

وهذه السمات من شأنها إبراز أهم النواحى المتناولة فى الشرح، وهى المقاصد النبوية، فضلاً عن النواحى المتعلقة بعلم الحديث، وما يؤكد السمة الأولى والرابعة ما ورد من تعليق فى مقدمة كتاب (الأنوار المضيئة)، وذلك فى معرض الحديث عن (حديقة الحكمة) حيث قال الإمام يحيى بن حمزة: «نعم قد كان من الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين- رضى الله عنه وأرضاه- شرح سماه: (حديقة الحكمة)، ولقد أتى فيه بالعجب العجاب، ولباب الألباب فى الإناخة عن مقاصدها، والكشف عن أسرارها، لكنه لم يكشفها هذا الكشف بالاستيلاء على هذه العلوم الخمسة التى ذكرناها، واكتفى بشرح مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم من غير زيادة، وأهمل رعاية الضبط والحصر بالعقود اللائقة، والترتيبات الفائقة، وشرحه هذا دال على أن له فى علم الأدب اليد البيضاء، وفى علم التواريخ النصيب الأوفى»[2] .

لقد أشار مصنف (الأنوار المضيئة) فى مقدمة كتابه إلى الجوانب التى تناولها الإمام عبد الله بن حمزة عندما شرح الأحاديث الأربعين السيلقية فى كتابه (حديقة الحكمة)، وحددها بأن مصنف (حديقة الحكمة) اكتفى بشرح مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- أىْ أنه اقتصر على شرح الأحكام الواردة فى أحاديث النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- مع توظيفه تبحره وتعمقه فى علم الحديث ورجاله- متمثلاً فيما أسماه مصنف (الأنوار المضيئة) بعلم التواريخ- فى تناوله ما يخص رواة الأحاديث.

لكن لماذا أورد الإمام يحيى بن حمزة فى مقدمة كتابه (الأنوار المضيئة) الجوانب التى شرحها الإمام عبد الله بن حمزة فى كتابه

---

(1) ينظر: حديقة الحكمة، 8.

(2) الأنوار المضيئة،1/ 160.

(حديقة الحكمة) ؟

لقد بيّن مصنف (الأنوار المضيئة) فى مقدمته اختصاص كتاب (حديقة الحكمة) بشرح مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- مع تناول رواة الأحاديث، لكى يبرز الجوانب التى تناولها شرحه للأحاديث، والتى يمكن وصفها بأنّها مغايرة للجوانب التى شرحها مصنف (حديقة الحكمة)، حيث سعى الإمام يحيى بن حمزة عند شرحه الأربعين السيلقية فى كتابه (الأنوار المضيئة) إلى شرحها من جوانب أخرى، فابتدأ بالمقدمة التى صبغ الحمدلة والصلاة على رسول الله وآله بصبغة بلاغية حيث وصف الله تعالى بأنه ألهم الإنسان سحر البيان، وجعل له سبيلاً إلى الإحاطة بعلوم البلاغة، وذريعة إلى معرفة إعجاز القرآن حتى صار علم البلاغة حاكمًا على العلوم الدينية، وقد صلى على النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- ونعته بأنه المبعوث بالبلاغة الرائقة، والمخصوص بالفصاحة الفائقة، والمعلن لعجائب الآداب البالغة التى فاقت فصاحة الفصحاء[1].

إن الحمدلة والصلاة على النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فى مقدمة كتاب (الأنوار المضيئة) قد لوحتا إلى توجه مصنفها البلاغى، ليعقب هذا التلويح تمهيد وهو أنه لما انتهى من شرح كتاب (نهج البلاغة) للإمام على بن أبى طالب- كرم الله وجهه- وقف على (الأربعين حديثًا السيلقية) حيث إن كلام النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- هو فى الرتبة الثانية بعد كلام الله تعالى فى فصاحة الألفاظ، بلاغة المعانى، إذ هو محط البلاغة ومنشؤها، ومورد الفصاحة ومصدرها[2]، وفى تمهيده الذى ذكر فيه مصنفه البلاغى (الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى) إشارة واضحة إلى توجهه البلاغى فيما هو بإزاء شرحه معللاً ذلك بكون النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- هو المحط والمورد لها.

وبعد ذِكره مكانة كلام النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فى البلاغة والفصاحة ذكر باعثى شرحه (الأربعين حديثًا السيلقية) بقوله: «فلا جرم كان لنا إلى شرحها باعثان:

الباعث الأول: الإبانة عمّا اشتملت عليه من اللطائف من بديع الأسرار وغريب المعانى، وما تضمنته من المجازات العالية، والاستعارات البديعة التى لا ينطق بها لسان، ولا يطلع على مخّها إنسان.

الباعث الثانى: الإظهار لما خصّه الله تعالى من فصاحة المنطق، وإحراز قصب السبق والتمييز، والبلاغة على كافة الخلق، ومصداق هذه المقالة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوتيت جوامع الكلم»[3]، وأراد بهذا أن الحكمة من الكلام الصادرة من

---

(1) ينظر: نفسه، 1/ 154.

(2) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 154، 155.

(3) صحيح البخارى،6/ 2573. بلفظ: «بعثت بجوامع الكلم». صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 1/ 372.

جهته تشتمل على معانٍ جمّة وفوائد متكاثرة؛ ولهذا فإنّ العلماء من أهل الاجتهاد لا يزالون يستنبطون من كلامه الأحكام الشرعية، ويستثيرون الفوائد الدينية غضّة طريّة فى الأعصر الخالية، والآماد المتمادية إلى آخر الدهر، وقوله عليه السلام: «أنا أفصح من نطق بالضّاد»[1] يشير بذلك إلى أنه أفصح من تكلم باللغة العربية؛ لأنّ الضّاد مخصوصة بالكلام العربى دون سائر اللغات: كالسريانية، والعبرانية، والتركية، وغيرها من سائر اللغات، ولم يدع الإعجاز فى كلامه اكتفاء بإعجاز القرآن على صدق نبوته، ولو قال: القرآن كلامه لصدقناه، وقد روى العلماء فى معجزاته أنها ثلاثة آلاف معجزة أبهرها القرآن؛ لأنه لا يزال على وجه الدهر لا تنقضى عجائبه، ولا تفنى غرائبه»[2].

وهنا يمكن القول: إذا كان مصنف (حديقة الحكمة) قد بيّن أنّ المقصود من شرحه إظهار مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– من خلال توضيح الألفاظ اللغوية ومعانيها، فإن مصنف (الأنوار المضيئة) قد جعل المراد من شرحه إظهار ما خصّ الله تعالى نبيه محمد– صلى الله عليه وآله وسلم– من فصاحة المنطق والبلاغة من خلال الإبانة عمّا اشتملت الأحاديث من بديع الأسرار وغريب المعانى والمجازات العالية والاستعارات البديعة، وإذا كان مصنف (حديقة الحكمة) جعل للرواة نصيبًا من شرحه، فإن مصنف (الأنوار المضيئة) قد قال فى مقدمته– فيما يخص هذا الشأن– : «فأمّا أنساب الرواة وذكر أحوالهم وطرائقهم فقد أعرضنا عن ذكره لأنه بمعزل عن حديث رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–، وهو بعلم التاريخ أليق فلا يمزج أحدهما بالآخر»[3]، وما إعراضه عن ذلك إلا لعدم خلط أكثر من علم فى مصنف واحد لكى يجعل كل علم قائمًا بذاته، وهذه نظرة ناقدة فى هذا الشأن.

وقد وضع مصنف (الأنوار المضيئة) له منهجًا فى شرحه نظّر له فى المقدمة، فذكر أنه تناول كل حديث على خمسة أنظار، وهى:

النظر الأول: يذكر فيه ما يختص الألفاظ اللغوية وتوضيح معانيها.

النظر الثانى: يورد فيه ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية.

النظر الثالث: يشير فيه إلى ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية المختصة بعلم المعانى.

النظر الرابع: فى الإشارة إلى ما تضمنه من العلوم البيانية.

---

(1) الحديث معناه صحيح ولا أصل له. ينظر: كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسه الرسالة، ط4، عام 1405هـ، بيروت، لبنان، 1/ 232.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 155، 156.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 160.

النظر الخامس: يورد فيه ما اشتمل عليه من علوم البديع[1].

وهنا يمكن التساؤل: ما مدى التزام كليهما فى شرحه لما نظّر له فى مقدمته ؟ وما مدى تأثر أو إفادة اللاحق بالسابق سواء فى المادة العلمية أم فى طريقة الشرح ؟

لقد سعى كلاهما لتطبيق ما التزم به فى المقدمة، فابتدأ مع كل حديث بإيراد نصّ الحديث بتمامه وكماله مع استئثار مصنف (حديقة الحكمة) إيراد نسب وبعض أحوال راوى الحديث من الصحابة- رضى الله عنهم- قبل إيراد الحديث، مطبقًا بذلك لتنظيره فى المقدمة من جهة اقتصاره على راوى الحديث من الصحابة- رضى الله عنهم- حيث قصد منه الاختصار، ومن أجل الاختصار لم يكرر ترجمة من سبق الترجمة له، وما كرره كان على سبيل التتمة لا التكرار، ولكنه لدى بعض الرواة كان يكتفى بذكر نسبه دون ذكر بعض أحواله والعكس[2].

وبعد أن يفرغا من إيراد نصّ كل حديث، وقبل شرحها يستأثر مصنف (الأنوار المضيئة) بتصدير فى طياته التحميد والتمجيد والصلاة على النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-، ولم يشر المصنف إليه فى مقدمته[3].

وعند الشرح سلك مصنف (حديقة الحكمة) طريقة تقسيم الحديث إلى جمل ومقاطع ثم يشرح كلاً منها على حِدة مبتدئًا بالألفاظ اللغوية ثم مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-، وفى بعض الجمل والمقاطع يذكر ألفاظها مفردة ويوضح معانيها اللغوية؛ فيوضح معنى الكلمات، وموازينها، وجمع المفرد، والإشارة إلى دلالات غريبها مستعينًا بالشواهد، ثم يورد الجملة ليشرح مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- منها، مؤيدًا ما ذهب إليه بدليل من القرآن الكريم أو السنة النبوية أو أشعار العرب وأمثالها وحكمها فضلاً عن بعض القصص، ويشير إلى ما سبق توضيحه ولا يعيد شرحه دون تحديد مكان السابق شرحه[4].

وخلافه فى كتاب (الأنوار المضيئة) فقد شرح كل حديث على خمسة مستويات، الأول: بيان ما يشتمل عليه من الألفاظ اللغوية ومعانيها، دون أن يخلط بيان الألفاظ اللغوية نظرًا آخر، ومستأنسًا عند بيان الألفاظ اللغوية بدليل يؤيد ما بينه، وبعد ذلك ينتقل للثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية- الدلالة التركيبية- فيعربه إعرابًا وافيًا مدعمًا إعرابه بالآيات القرآنية أو الحديث النبوى أو الشعر ذاكرًا ما يتعدد من أوجه إعرابية، وعندما يستوفى المعانى الإعرابية يتحول إلى الثالث: فى بيان المقاصد المعنوية- دلالة السياق- ثم ينتقل إلى الرابع: وهو بيان ما اشتمل عليه من العلوم البيانية؛ ليختم شرح الحديث بالخامس: فى بيان ما

---

(1) ينظر: نفسه، 1/ 156- 159.

(2) وتجنبًا للتكرار يمكن مراجعة نماذج تطبيقية لذلك فى المبحث الأول: الدراسات السابقة (حديقة الحكمة)، من هذا الفصل.

(3) ينظر: تعليلات ورود تلك التصديرات ونماذج منها فى المبحث الثانى: منهجه، من هذا الفصل.

(4) ينظر: المبحث الأول: الدراسات السابقة (حديقة الحكمة)، من هذا الفصل.

اشتمل عليه من البديع[1]، ويظهر من هذا التزامه بالمنهج الذى أورده فى مقدمته.

ممّا يتراءى فى شرح الكتابين أنهما أوردا شرح الألفاظ اللغوية للأحاديث، وهذا لا يعد ممّا تأثر به اللاحق فى (الأنوار المضيئة) بالسابق فى (حديقة الحكمة) لأنّ الظاهر عند تناول النصوص لدى المصنفين البدء بدلالات الألفاظ المعجمية بمعنى أنهم يتناولون اللفظة قبل انزياحها فى النص عن مفهومها فى أصل الاستخدام، فيسعون إلى إظهار دلالة اللفظة فى أصل الاستخدام ليبرز مدى انزياح تلك اللفظة فى سياق النص سواء فى نمط الإزاحة الدلالية أم نمط الإزاحة النحوية التركيبية، فضلاً عمّا حملته من مدلولات جديدة بفضل ذلك الانزياح[2]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مصنف (الأنوار المضيئة) قد أورد أن تناوله للأحاديث النبوية هو تناول بلاغى يتحقق بشرح وعرض الأحاديث على خمسة علوم، «وهذه الخمسة العلوم بعضها أخص من بعض؛ فعلم الإعراب أخص من علم اللغة من جهة أن الإعراب مختص بالتركيب وعلم اللغة مختص بالمفردات، والمفرد قبل المركب وسابق عليه، وعلم المعانى أخص من علم الإعراب، وعلم البيان أخص من علم المعانى، وعلم البديع أخص من علم البيان»[3]، وبهذا التسلسل جعل شرحه للأحاديث لغويًا ليس تأثرًا، وإنما نتيجة تفرضها طبيعية هذه الدراسة التى تقوم على هذه العلوم مجتمعة، فرؤية مصنف (الأنوار المضيئة) أن البدء بعلم اللغة والإعراب عند الشرح هو تمهيد لشرح علوم البلاغة.

وثمة تشابه آخر يتمثّل فى شرحهما لمقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى الأحاديث النبوية، وهذا التشابه ينطوى على اختلاف جوهرى يتجسد فى كون الغاية من تصنيف كتاب (حديقة الحكمة) الكشف عن المقاصد النبوية كما سلف، وليس شرح مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– هو الغاية من تصنيف كتاب (الأنوار المضيئة)، وهذا القول يمكن الاعتراض عليه بطرح هذه الإشكالية، وهى: وإن لم تكن الغاية شرح مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى كتاب (الأنوار المضيئة)، فإن تأثره بكتاب (حديقة الحكمة) دفعه ليعقد بحثًا فى شرح المقاصد النبوية. والرد: إنَّ من أخص خصائص البلاغة البيان، أىْ الكاشف قناع المعنى حتى يفضى السامع إلى حقيقته[4]، ولذا لا تدرس لذاتها، فالغاية من دراستها هو إظهار مدى استيعاب النص لتلك العلوم مع فاعلية ذلك الاستيعاب ودوره فى إخراج مقاصد النص على هيئة مميزة وبفصاحة وبلاغة فائقة، ولذا عقد مصنف (الأنوار المضيئة) بحثًا يختص بمقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–، ولو لم يعقد ذلك البحث لصار شرحه البلاغى للأحاديث غير متوج بالمعانى التى أنتجته علوم البلاغة فى النصّ.

---

(1) ينظر: تفصيله فى المبحث الثانى: منهجه، من هذا الفصل.

(2) ينظر: شعرية الخطاب فى التراث النقدى والبلاغى، د. عبد الواسع أحمد الحميرى، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، عام 2005م، بيروت، لبنان، 98– 109.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 159.

(4) ينظر: البيان والتبيين، 1/ 76.

وفضلاً عن ذلك فإن مصنف (الأنوار المضيئة) قد شرح المقاصد النبوية الواردة فى الأحاديث بترتيبات فائقة لم ترد فى كتاب (حديقة الحكمة) حيث جعلها فى قوالب مرتبة، ومقسمة على مطالب ومقامات وأنواع ومراتب وغير ذلك من التسميات. . .، ومنه– فى معرض بيان مقاصد النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى الحديث السابع: «اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أشار . . .إلى الخصال المحمودة . . .، ونحن نشير إلى ما ذكره، ونجعلها مراتب خمسًا:

المرتبة الأولى: فى الإسلام

فقد قال عليه السلام: «لا يُكتب فى المسلمين حتى يسلم الناس من يده ولسانه»

أما اللسان، ففيه آفات:

الآفة الأولى: الغيبة، وهى

الآفة الثانية: النميمة، وهى

الآفة الثالثة: النطق بكلمة الكفر، وهو . . .

الآفة الرابعة: السعاية إلى السلاطين الجورة، . . .

الآفة الخامسة: الإغراء بين المسلمين، . . .

الآفة السادسة: انتقاص المسلمين فى أعراضهم بالقذف . . .

الآفة السابعة: التهدد والوعيد من غير حق، فما هذا حاله يكون حرامًا، . . .

الآفة الثامنة: الاستحقار والاستخفاف والصغار بحقّ المسلمين، . . .

وأما اليد: فيتعلق بها آفات:

الآفة الأولى: القتل، فإنه أكبر الجرائم، وهو من أكبر الفسوق.

الآفة الثانية: السرقة، فإنها كبيرة من الكبائر الفسقية.

الآفة الثالثة: أخذ مال المسلم من غير حقّ، فهذا أيضًا أعظم عند الله تعالى، وهو محرم.

الآفة الرابعة: الجرح والضرب وسائر الأذايا بالفعل، فإنها محرمة عند الله تعالى، . . .

المرتبة الثانية: الإيمان

المرتبة الثالثة: فى التقوى

المرتبة الرابعة: الصدق:

اعلم أن الصدق إنما يرد فى الأخبار، وهو الأشهر الأكثر:

المقام الأول: فى بيان فضيلته

المقام الثانى: فى بيان مواقع الصدق

الموقع الأول: الصدق باللسان

الموقع الثانى: الصدق فى النية والإرادة.

الموقع الثالث: صدق العزم، . . .

الموقع الرابع: الصدق فى الوفاء بما عزم عليه . . .

الموقع الخامس: الصدق فى الأعمال، . . .

الموقع السادس: الصدق فى المقامات الدينية.

المرتبة الخامسة: فى الإخلاص: فهذان مقامان:

المقام الأول: فى بيان فضيلة الإخلاص

المقام الثانى: فى بيان درجات الإخلاص

وجملة ما نشير إليه من ذلك درجات أربع:

الدرجة الأولى: الرياء الظاهر.

الدرجة الثانية: أن يكون السالك لطريق الإخلاص قد فهم هذه الآفة.

الدرجة الثالثة: وهى أدق مما قبلها.

الدرجة الرابعة: وهى أدق وأخفى.[1].

وأخيرًا يمكن القول: إن الغاية من تصيف كتاب (حديقة الحكمة) هى الكشف عن مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فى الأربعين حديثًا السيلقية، وكان السبيل إلى ذلك هو إيضاح ألفاظ الأحاديث اللغوية وفوائدها المعنوية، مع اهتمام المصنف بإيراد نسب الرواة من الصحابة- رضى الله عنهم- وذكر بعض أحوالهم، وفى المقابل الغاية من تصنيف كتاب (الأنوار المضيئة) إظهار ما خص الله نبيه محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- من فصاحة المنطق والبلاغة على كافة الخلق خلال الإبانة عمّا تضمنته الأربعون حديثًا السيلقية من المجازات العالية والاستعارات البديعة، وغريب المعانى، وذلك على خمسة مستويات :

---

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 260- 270.

الأول: خاص بدراسة الدلالة المعجمية.

الثانى: درس فيه الدلالة التركيبية.

الثالث: درس فيه دلالة السياق.

الرابع: درس فيه الصور البيانية.

الخامس: درس فيه المحسنات البديعية.

وبهذا يكون من أخص سمات كتاب (الأنوار المضيئة) أنه كتاب بلاغى فيه أسلوب متميز فى الشرح، ويكمن التميز فى شرح الأحاديث على خمسة مستويات بشكل منتظم فى أنظار، ثم مباحث، ومواقع، ومقامات، ودرجات، وتنبيهات، فضلاً عن التنظير العلمى لعلل ترتيب الأنظار بذلك الشكل، **وهذا** قلما وُجد لدى المصنفين القدماء.

الفصل الثالث

جهوده البلاغية فى (الأنوار المضيئة)

مدخل

إن الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه (الأنوار المضيئة) قد ظهر بمظهر المحلل المتذوق؛ حيث وجه جلّ اهتمامه إلى إظهار ما تنطوى عليه الأحاديث النبوية من جماليات بلاغية، وقلّما كان منظرًا لعلوم البلاغة فى هذا الكتاب، والسرّ فى ذلك أنه قد قام بوضع الحدود والتعريفات والتفريعات لعلوم البلاغة فى كتابه (الطراز لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)، وفى مختصره المسمى بـ (الإيجاز لأسرار كتاب الطراز فى معرفة حقائق الإعجاز)، فأغنى كتابيه عن التنظير من جديد لتلك العلوم فى كتابه (الأنوار المضيئة) هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإمام يحيى بن حمزة قد نبّه فى مقدمة كتابه (الأنوار المضيئة) على أن الغاية من شرح الأحاديث هى إظهار ما خصّ الله نبيه محمد– صلى الله عليه وآله وسلم– من فصاحة المنطق والبلاغة من خلال الإبانة عمّا تضمنته الأحاديث النبوية من الأسرار البلاغية[1]، وهذا يتحقق بالنظر فى النواحى الجمالية التى وردت فى الأحاديث النبوية، وذلك بتحليلها وتذوقها لا التنظير لها، ولعل كتابه (الأنوار المضيئة) يُعد مكملاً لمشروع كبير كان قد بدأه فى الفن الثالث من كتابه (الطراز) حيث كان الفن الثالث مختصًا بأسرار القرآن الكريم فى أنه قد وصل الغاية التى لا غاية فوقها فى البلاغة والفصاحة مع ذكر كونه معجزًا للخلق ووجوه إعجازه[2]، ففى نظر المصنف أن أبلغ وأفصح كتاب هو كتاب الله تعالى القرآن الكريم، وفى المرتبة الثانية السنة النبوية الشريفة، وثمة مكانة عظيمة لكلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه عند المصنف، حيث شرح كتاب نهج البلاغة، فكأن مشروع المصنف الكبير هو شرح الكل من الناحية البلاغية.

---

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 155.

(2) ينظر: الطراز، 3/ 213.

المبحث الأول

جهوده فى علم المعانى

عندما شرح المصنف ما تنطوى عليه الأحاديث النبوية من مباحث علم المعانى قلما أورد تعريفات لتلك المباحث، ويمكن حصرها ليظهر مدى قلتها، وليظهر من ثم تعويله على التحليل، ففى معرض شرح ما تضمنه الحديث الثانى من مباحث علم المعانى، أورد حدّ التأكيد والوصل والفصل، ووجوه الحصر، فقال: «التنبيه الأول: التأكيد: وهو معنى فى الكلام يُذكر لإزالة الاحتمال، وقطع الشكوك . . .، التنبيه الثانى: الفصل والوصل: فالوصل: ما كان بـ «الواو» فى أول الجمل المؤكدة. . .، والفصل: إتيان الجمل من غير (واو) . . . التنبيه الرابع: الحصر: وهو التردد بين النفى والإثبات. . .، والحصر يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون حصرًا للصفة على الموصوف، كقولك: ما كاتب إلا زيد .

وثانيهما: أن يكون حصرًا للموصوف على الصفة، كقولك: ما زيد إلا كاتب»[1]، وقد كرر حدّ الفصل والوصل فى شرح الحديث الثالث، بقوله: «فالوصل ما كانت الجمل فيه حاصلة بـ «الواو» العاطفة. . .»[2]، كما أورد طرق الحصر فى معرض شرح الحديث العشرين، بقوله: «وللحصر طرق أربع:

الأولى: منها النفى والإثبات، كقولك: ما زيد إلا قائم، وما قائم إلا زيد .

الثانية: الحصر بـ «إنما»، كقولك: إنما الله إله واحد؛ لأنها فى معنى النفى والإثبات، كما مرّ بيانه.

الثالثة: العطف، كقولك: ما زيد قائم، بل كاتب؛ لأنه فى معنى النفى والإثبات أيضًا .

الرابعة: التقديم، كقولك تميمى أنا والعالم زيد، فهذه الطرق دالة على الحصر كما ترى، ثم إن القصر يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون قصرًا للصفة على الموصوف، ومثاله: ما عالم إلا زيد، فهذا يفيد أن العلم لا يحصل فى غير زيد، فإن حصل فى غير زيد كان مناقضة، ويجوز أن يجعل زيد على غير صفة العلم.

وثانيهما: أن يكون قصر الموصوف على الصفة، ومثاله: قولك: ما زيد إلا عالم ، فهذا يفيد أن زيدًا لا يحصل إلا على صفة العلم، فإن حصل له غيرها من الصفات كان نقضًا، ويجوز أن تحصل هذه الصفة لغيره، فهذه هى التفرقة بين قصر الصفة على

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 186، 187.

(2) نفسه، 1/ 198.

الموصوف، وبين قصر الموصوف على الصفة»[1].

بعد إيراد هذه الإشارات يتراءى مدى قلة اعتماد المصنف على إيرادها، وذلك لسرّ أخير يمكن إضافته لسابقَيه- وهما تعويله على التحليل، واكتفاؤه بما أورد فى (الطراز)- وهو توجيه المصنف قارئ كتابه إلى تذوق تحليله الأحاديث النبوية، ولذا أعرض المصنف عمّا قد يشغل القارئ عن ذلك، ومنه إيراد القواعد من تعريفات وتقسيمات وخلافات حول ذلك.

لقد سعى المصنف فى شرحه إلى تحقيق الغاية المرتجاة من مباحث علم المعانى؛ ألا وهى توظيف تلك المباحث فى إظهار المسحات الجمالية الواردة فى النص النبوى.

التقديم والتأخير

عند النظر فى شرح المصنف لما تضمنته الأحاديث النبوية من مباحث علم المعانى؛ ظهر اهتمامه بذكر علل تضمن الأحاديث النبوية تلك المباحث، حيث علل التقديم والتأخير الوارد فى جمل الأحاديث النبوية على منحيين: الأول: من أجل العناية والاهتمام بحال المقدم الذى من حقّه التأخير، ومثاله: «التنبيه الخامس: التقديم والتأخير: ولهما دخول فى علم المعانى؛ لعظم موقعه، وهذا كتقديم خبر «إن» على اسمها فى قوله: «إن لكل شىء حسيبًا، وعلى كل شىء رقيبًا، ولكل حسنة ثوابًا، ولكل سيئة عقابًا»، فإن الأصل تأخيره، ولكن قُدّم على جهة الاعتناء بالخبر. . .»[2]، وقوله: «النوع الثانى: تقديم الخبر فى قوله: «لكم نهاية»، وتأخير الاسم . . .، وإنما فعل ذلك من أجل الاهتمام بالخبر فى تقديمه، والقياس تأخيره . . .»[3].

والثانى: من أجل العناية والاهتمام بحال المقدم، ومن أجل السجع، ومنه: «وعلى التقديم والتأخير فى المعمولات، كقوله: «أحصى فيه عمله»، فإن الجار والمجرور قد قُدما على الفاعل، وأخر عنهما، وقوله: «من باطل جمعه أو من حقّ منعه»، فالجار والمجرور قُدما هاهنا على عاملهما من أجل الاهتمام بهذه المتعلقات، ولأجل المواظبة على السجع، بقوله: «منعه»، و«جمعه» . . .»[4].

لقد أشار المصنف فى كلامه هذا إلى المكانة العظيمة التى يقع فيها التقديم والتأخير، من جهة ما يقدمه من معانٍ خاصة لا تتحقق من دونه، ولم ينظر إلى أن التقديم والتأخير يكون من أجل السجع فقط، وإنما يكون من أجل الاهتمام والاعتناء بالمُقَدم الذى

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 595، 596.
(2) نفسه، 1/ 187.
(3) نفسه، 1/ 209، 210.
(4) الأنوار المضيئة، 1/ 326.

حقه التأخير، ومن ثم السجع، وفى تقديمه علة الاهتمام والاعتناء على السجع دليل على أن العلة فى التقديم والتأخير هى الاهتمام والاعتناء بالمقدم، فإن وافق بعد ذلك السجع فلا بأس فيه، فيكون فى ذلك إشارة إلى ألا يجعل الناس أو الخطيب تقديم ما حقه التأخير من أجل السجع فقط، لأنّ فى ذلك تكلفًا فى الصنعة يجعل المعانى تابعة للألفاظ[1] .

وأشار إلى أن التقديم والتأخير قد يكون بتقديم الخبر وتأخير اسمه، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل، وتقديم الجار والمجرور على فعله، ونبهه إلى أصل التركيبات قبل الانزياحات التى وقعت عليها من تقديم وتأخير، ليظهر أن ما حدث للجمل من تقديم وتأخير هو خرق لنظام بناء الجملة التقليدى، وحصل ذلك الخرق لخدمة بناء النصّ بشكل يفى بغرض إنتاج المعنى المراد من النص[2] .

الفصل والوصل

فى الفصل والوصل؛ أشار المصنف إلى كون الفصل والوصل من مهمات علم المعانى، وأنهما من علم المعانى لفى المكان الرفيع العالى[3]، ثم سعى فى شرح ما تضمنت الأحاديث من الفصل والوصل إلى البرهنة على ذلك المكان الرفيع العالى من خلال تحليله اللفتات النبوية فيما يخص هذا الشأن.

لقد اشترط المصنف لورود الوصل وجود ملاءمة بين الجمل التى تمّ الوصل بينها بـ (الواو)، وأشار إلى قبح الوصل مع عدم وجود تلك الملاءمة، فقال: «التنبيه الثانى: الفصل والوصل: فالوصل: ما كان بـ «الواو» فى أول الجمل المؤكدة، كقوله: «وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكلّ شىء حسيبًا، وعلى كل شىء رقيبًا»، فـ «الواو» هاهنا دخلت للوصل بين الكلام الأول والآخر، وللربط بين الجمل المتعاقبة؛ لأن المعطوف والمعطوف عليه لابدّ من أن يكون بينهما ضرب من المقارنة والملاءمة، ولهذا قبح قولك: زيد قائم، واليهود كفار؛ لمّا لم يكن بينهما نوع من المقاربة والمناسبة»[4] .

وقد أتى بمثال للوصل القبيح الذى يفقد تلك الملاءمة من أجل إظهار مدى جمال الملاءمة النبوية فى الوصل حيث أن جمال الشىء يظهر بإيراد نقيضه، وثمة أمر يظهر فى كلامه، وهذا الأمر هو تنبيهه على وجود غاية من الوصل، وهى الربط بين تلك الجمل المتعاقبة، وفضلاً عن هذه الغاية فإن للوصل دلالات وغايات قد فصّل المصنف القول عند ورودها فى الأحاديث النبوية، وبشكل

---

(1) ينظر: الطراز، 3/ 22.
(2) ينظر: شعرية الخطاب فى التراث النقدى والبلاغى، 104- 109.
(3) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 430.
(4) الأنوار المضيئة ، 1/ 186.

أظهر إمكانية انفتاح الوصل على العديد من الغايات، ومنها:

1- **المغايرة بين المتعاطفين، ومثاله:** «المعنى الثانى: قوله، فى الفصل والوصل، فإن «الواو» فى قوله: « والمُزْعَجين بعد الطمأنينة» إنما جيء بها من أجل الوصل دلالة على المغايرة بين «المأخوذين»، و«المزعجين»؛ لأنّ «الواو» دالة على المخالفة بين الصنفين»[1]، ولولا (الواو) التى سيقت للدلالة على المغايرة بين الصنفين لفهم أنهما صنف واحد، فسيق الوصل أحسن مساق فى التوضيح.

2- **تعديد الصفات،** ومثاله: «والوصل بـ «الواو» فى تعديد الصفات . . .»[2]، فكان الوصل بـ (الواو) بين الجمل هو سبيل الوصول إلى تعديد صفات كمال الإيمان من تفويض وصبر وتسليم ورضا . . . .

وإذا كانت الملاءمة شرطًا فى الوصل، فإن عدم الملاءمة الواقعة فى الجمل المتعاقبة سبب من أسباب الفصل، وقد قال فيه: «وقد جاء الفصل فى قوله: «أيُّها الناس إن أكيسكم» لما لم يأت بـ (الواو) عطفًا على «أيُّها الناس» فى صدر الحديث لإرادة الفصل بين الكلامين، ولم يرد الجمع بينهما إيقاظًا للأسماع، وتنبيهًا على الخروج من كلام إلى كلام آخر ليس بينه وبين الأول علقة ولا ملاءمة بحال»[3]، وقد كان الفصل بين الكلامين لعدم وجود ملاءمة؛ فكلام النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- الأول فيه أمر بالتوبة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، وكلامه الثانى فيه إخبار بكون أكيس الناس المكثر من ذكر الموت، وأحزم الناس الأحسن فى الاستعداد له.

أما علّة الفصل: فهى التنبيه على الخروج من كلام إلى كلام آخر من الأهمية بمكان، ليكون من ثم دور الفصل هو الإيقاظ للأسماع لما سيرد من كلام فى غاية الأهمية، وثمة علّة أخرى للفصل فى موضع آخر من حديث آخر، حيث قال: «وجاء بقوله: «الذين أقاموا على الشبهات» من غير «واو» للدلالة على الفصل، وأن إقامتهم على الشبهات وصف شامل للصنفين جميعًا، فانظروا إلى سرّ كلامه صلى الله عليه وآله وسلم فى الفصل والوصل ما أحسن مغزاه وأجمع للفوائد معناه»[4]، فمن أجل أن يكون هذا الوصف- الذين أقاموا على الشبهات- شاملاً للمأخوذين والمزعجين بشكل سواء، ودون اقتصاره على صنف دون آخر أتى النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- بالجملة الوصفية الشاملة تامة الفصل، لأنه لو أتى بـ (الواو) للدلالة على الوصل لتردد عطف الوصف على أىّ الصنفين، أو توهم الناظر فى كون هذا الوصف دالاً على صنف ثالث، ولذا كان الوصل بين المأخوذين والمزعجين، والفصل فى الجملة الوصفية اللاحقة للصنفين محققًا لمغزاه صلى الله عليه وآله وسلم، ومظهرًا لفوائد كلامه ومبينًا لدلالة معانيه دون أدنى لبس.

---

(1) نفسه ، 1/ 361.

(2) نفسه، 1/ 234.

(3) نفسه، 1/ 198.

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 361.

وهنا يمكن القول: لقد رأى المصنف أن مكانة الوصل والفصل الرفيعتين تتمثل فى جمال الملاءمة بين الجمل التى تمّ الوصل فيما بينها بـ (الواو) ودوره فى إظهار معانى النص النبوى، وحسن توظيف النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- للفصل فى كلامه فى كونه موقظًا للأسماع، ومنبهًا على الخروج من كلام إلى آخر لا علاقة بينهما، ليكون بذلك قد جاء بما يلائم حال المخاطبين.

التأكيد

عندما شرح المصنف ما تضمنته الأحاديث النبوية من التأكيدات كان حرف التأكيد (إنّ) هو المعنىُّ فى الأحاديث التى ورد فيها، وجعل ورود التأكيد بـ (إنّ) من جهة التمكين، وإزالة الاحتمال واللبس، وقطع الشكوك فى الجمل التى ورد فيها التأكيد بـ (إنّ)، ليكون من ثم له دور فاعل فى تأكيد المعنى الذى جىء به من أجله، وكانت مزية التأكيد فى أنه يكسب موقعًا فى النفوس وتمكينًا فى القلوب، ومثاله قوله: «التنبيه الأول: التأكيد: وهو معنى فى الكلام يُذكر لإزالة الاحتمال، وقطع الشكوك، فقد صدّر عليه السلام هذه الجمل بـ «إنّ» المؤكدة فى صدرها؛ ليدل بها على تأكيد المعنى الذى جىء بها من أجله، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مع العزّ ذلاً، وإنَّ مع الحياة موتاً» إلى آخرها، ثم إنه لا يخفى على الخبير موقع التأكيد من الكلام فإنه يكسبه موقعًا فى النفس، وتمكينًا فى القلوب»[1].

وله فى التأكيد بـ (إنَّ) فى حديث النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ، إنَّ اللِّسَانَ أَمْلَكُ شَىْءٍ لِلإِنْسَانِ...»[2]، حيث قال: «ثم إنه أردفه بالتأكيد الوارد على جهة التعليل؛ لأنّ الغنيمة فى الكلام، والسلامة فى السكوت إنما كان من أجل كون اللسان أملك ما يكون للإنسان؛ لأنه أسهل الجوارح فى العمل ولا تلحقه كلالة ولا ملل، بخلاف أعمال الجوارح فإنها تلحق بها السآمة والملالة»[3]، أىْ أنه لما كان للإنسان لسان هو أسهل جوارحه من ناحية التحكم فيه فمن السهل على الإنسان التكلم بكلام فى طياته فوائد، ومن السهل عليه- أيضًا- السكوت الذى فيه سلامة من الزلل، وهذه السهولة متأتية من كونها واقعة من جارحة هى أسهل الجوارح على الإنسان تحكمًا، فكان سوق هذه المسَلمة مؤكدة بـ (إنَّ) على جهة تعليل سهولة التكلم والسكوت المخصوصين فى أحسن سياق، قد أظهره المصنف عند الشرح بشكل يظهر إمكانية ورود التأكيد على جهة التعليل.

لقد ظهر اهتمام المصنف بمناقشة دور التأكيد بـ (إنّ) فى إزالة اللبس فى الجمل المؤكدة وتأكيد معانيها مع تعليلها، ممّا يجعل

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 186.
(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 22.
(3) الأنوار المضيئة، 1/ 295.

لها موقعًا فى القلوب، واستخدم المصنف فى إظهار ذلك أسلوبًا سلسًا سهلاً يزيد الكلام المشروح وضوحًا لا تعقيدًا .

الإبهام

عندما شرح المصنف ما تضمنته الأحاديث من إبهام، فقد وضح أن الورود حاصل فى الإبهام بالشروط المترادفة، ومثاله: «المعنى الخامس: الإبهام بالشروط المترادفة، كقوله: «من جعله أمامه»، «ومن جعله خلفه»، و«من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل»، فهذه الجمل الشرطية مترادفة دالة على الإبهام العام، وقد وقع هاهنا أحسن موقع؛ لما تضمنه من الحكم البديعة والآداب البالغة»[1]، وكما هو حاصل فى الشروط المترادفة، فإنه حاصل فى خبر الشأن والضمير، و(مَن)، ومثاله: «ومن ذلك الإبهام فى خبر الشأن والضمير، فى قوله: «إنه من أحب»، وهكذا حال الإبهام فى«مَن»، فإن هذه الأمور التى سردناها من علم المعانى فيها أسرار ورموز تطلع الناظر على المعادن والكنوز»[2]، وفى (ما) الموصولة، ومثاله: «التنبيه الرابع: الإبهام، فى قوله: «ما يكفيك»، و«ما يطغيك»، فإن الإبهام له موقع بالغ فى الكلام، ويزيده رونقًا وطلاوة، ويكسبه فخامة، كما قال تعالى: **وَأَلْقِ﴿ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾**[3]، وإنما أبهمه للدلالة على التحقير، أوعلى التفخيم لشأنه، فإن حملناه على التحقير، فكأنه قال: ألقِ العويد الصغير الذى بيدك يفعل بقدرة الله تعالى ما تراه من إبطال ما جاؤوا به من السحّر العظيم، وإن حملناه على التفخيم، فكأنه قال: وألقِ هذا الأمر الهائل الذى بيدك الذى قد صار آية ومعجزة لك، كسائر معجزاتك الباهرة، ودلائلك الظاهرة»[4] .

ومن شأن هذه الأمثلة التى فى الإبهام، وسائر ما ورد فى الكتاب من شرح فيما يخص الإبهام أن يظهر أن استنباط مواقع الإبهام فى الأحاديث النبوية ليس من أجل الاستنباط بقدر ما هو منصب على إظهار ما تحمله تلك الإبهامات من دلالات تخدم معنى النص النبوى، وحسن مواقعها الفخمة فى النص، كما هو بارز فى تحليله للأمر الذى أمر الله به موسى فيما يخص إلقاء عصاه، ويمكن أن يتجلى ذلك أكثر فى هذا النموذج الذى قال فيه: «المعنى الثالث: الإبهام بـ «ما» الموصولة فى قوله: «فلا كانوا ما أملوا»، وقوله: «ولا ما فاتهم»، وقوله: «قدموا على ما عملوا»، وقوله: «ندموا على ما خلفوا»، وهذه مواقع أربعة فى: «ما»؛ دلالة على الإبهام فيما تناولته، ولم يخصّ شيئًا من شىء، فقد وقع هاهنا أحسن موقع؛ لما تضمنته من الإبهام الدال على المبالغة فيما اندرج تحته»[5]، و«إنما أبهم الأمر فيما قدموا عليه مبالغة فى حقّه؛ ليكون ذلك أبلغ فى الحسرة، وأدخل فى الندامة، والمقصود أنهم قدموا

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 221.
(2) نفسه، 1/ 235.
(3) سورة طه من الآية 69.
(4) الأنوار المضيئة، 1/ 489، 490.
(5) نفسه، 1/ 361.

على أعمال قبيحة، وفضائح شنيعة منكرة شهد عليهم بها الملائكة الكرام الموكلون بحفظها على ممر الليالى والأيام، وندموا على ما خلفوا، أصابتهم الحسرة وتقطعت أفئدتهم ندامة على ما تركوه وراء ظهورهم، . . . فانظر إلى عواقب الإنفاق ما أحمدها، وإلى سوابق التقديم ما أسعدها، وإياك والميل إلى التخليف والاغترار بطول الأمل والتسويف»[1]، وهنا يظهر مناقشة المصنف لدلالة موقع الإبهام وأثره؛ فالذى سِيق للمبالغة فى حق المبهم، ليكون ذلك أبلغ فى الحسرة، وأدخل فى الندامة.

الإيجاز والاختصار

وكما جعل المصنف اهتمامه منصبًا على غاية الإبهام وأثره، فإنه عند استنباط ما تضمنت الأحاديث النبوية من إيجاز واختصار قد أشار إلى موقع الإيجاز والاختصار العظيم فى علم المعانى، والذى لا يخفى على من له أدنى ذوق[2]، وأشار إلى بلاغة وفصاحة النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فى الأحاديث من خلال سوقه المواعظ والمعانى الجمة والنكت المتكاثرة بأوجز عبارة وأخصرها[3]، وقد قدّر المصنف المحذوفات التى سيقت للإيجاز والاختصار لكى يظهر للقارئ الأصل الذى كانت عليه الجمل قبل الحذف، وما يحمل ذلك الحذف من معانٍ، ومثاله: «المعنى الأول: الاختصار والإيجاز فى حذف المتعلقات، كقوله: «لا خير فى العيش» التقدير فيه: لا خير لأحد، وقوله: «ناطق» أىْ: ناطق بالحقّ، أو مستمع للوعظ واعٍ له، وقوله: «شافع» لغيره، ومشفع فى غيره، وشاهد فى خبره مصدق على غيره، وقوله: «من قال به صدق » فى خبره، «ومن عمل به أجر» فى عمله، «ومن حكم به عدل» فى حكمه، فهذه المحذوفات كلّها جارية على جهة الاختصار والإيجاز»[4].

وقد أضاف أن الإيجاز والاختصار قد يكون بالإضمار كما يكون بالحذف، وأشار إلى أن له موقعًا عظيمًا من علم المعانى، ومثاله: «والإضمار: ما فى قوله: «تظلموها»، و«تمنعوها»، و«أهلها»، فإنها كلّها ضمائر دالة على رجوعها إلى «الحكمة»، وهكذا قوله: «أمر» فإنه اسم ظاهر، وقد رجعت هذه الضمائر فى قوله: «اتبعوه»، و«اجتنبوه»، وفى قوله: «رُدُّوه إلى الله» . . .، والإضمار دال على الاختصار والإيجاز»[5].

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 367.
(2) ينظر: نفسه، 1/ 186.
(3) ينظر: نفسه، 1/ 361.
(4) نفسه، 1/ 220، 221.
(5) الأنوار المضيئة، 1/ 387.

الجمل الإنشائية

لقد وقف المصنف عند الجمل الإنشائية الواردة فى الأحاديث النبوية وقفة الفاحص المتذوق، وذلك لمّا كانت هذه الجمل الإنشائية فى الأحاديث تختلف دلالاتها باختلاف معانى الغرض الإنشائى الواحد، وذلك بحسب الغاية التى سيق من أجلها الغرض الإنشائى، والذى يظهره القرائن، فألفاظ الاستفهام قد تخرج عن معناها الأصلى، وهو طلب حصول صورة الشىء فى الذهن إلى معانٍ أخرى تفهم من خلال السياق[1]، وهذا ما أظهره المصنف فى شرحه للاستفهامات الواردة فى الأحاديث النبوية، حيث قال: «ثم إنّ معاذاً لمّا رأى شدة الوعيد فى الكلام بما لا يعنى سأل الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– فائدة، فقال: «أنؤاخذ بما نتكلم به»؟ فأجابه الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– بالشدة فى ذلك، وأورده مورد الاستفهام، والغرض منه التقرير، فقال: «وهل يُكبّ الناس على مناخرهم»؟، وهذه حالة أعظم ما يكون من الألم، فالكبّ أولاً وهو جمع أطراف الإنسان، ثم الإلقاء على المناخر التى هى أعزّ الأعضاء وأشرفها، ثم النار»[2]، وقال أيضاً فى موضع وحديث آخر: « التنبيه الأول: الاستفهام، فى قوله: «ممَّ تضحك يا رسول الله»؟ فإن له موقعًا فى الكلام يدل على الاستعلام والاستخبار ويستدعى جوابًا فقوله: «ممَّ تضحك يا رسول الله»؟ هو استفهام عن جرى الضحك لأىّ شىء كان، فأجاب الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– بقوله: «رجلان من أمتى جثيا بين يدى ربى»، وحكى القصة بتمامها . . . .

التنبيه الرابع: قوله: «ثم قال الله تعالى» للمظلوم، وهو الطالب بحقّه على جهة الموعظة، والإرشاد إلى العفو، وحسن الصفح عن الحقوق: «ارفع بصرك فانظر إلى الجنان، فرفع رأسه فرأى ما أعجبه من الحبرة والنعمة»، فقال المظلوم: «لمن هذا يا رب؟ فقال الله تعالى: لمن أعطانى ثمنه» ترغيبًا فى الثواب، وتأكيدًا فى الاستحقاق، فقال المظلوم: «ومن يملك ذلك؟» إعظامًا للأمر فى استحقاق العظيم على الحقير، وتعجبًا من نيل ذلك»[3] .

لقد شرح المصنف ما الاستفهامات التى خرجت عن معانيها الأصلية حيث وضّح خروج الاستفهام إلى التقرير كما هو ظاهر من سؤال النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– الذى ساقه للإجابة عن سؤال معاذ– رضى الله عنه– بغرض تقرير الالقاء فى النار على الأنوف، وقد وضّح أيضاً خروج الاستفهام عن معناه الأصلى إلى غرض آخر هو التعظيم، كما هو ظاهر من سؤال

---

(1) ينظر: شروح التلخيص، سعد الدين التفتازانى، ابن يعقوب المغربى، بهاء الدين السبكى، دار البصائر، ط1، عام 2008م، القاهرة، مصر، 2/ 246.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 296.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 516، 517.

المظلوم الذى سيق لتعظيم الاستحقاق للثواب على العمل الحقير، وقد شرح الاستفهام الذى ورد فى الأحاديث النبوية للدلالة على معناه الأصلى وهوالذى يدل على الاستعلام والاستخبار.

وقد وردت الجمل الإنشائية فى الأحاديث النبوية بشكل متفاوت، ولأنّ السنة النبوية الشريفة المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم، فلا جرم كثر ورود الجمل الإنشائية الدالة على الأمر والنهى، والتى شرحها المصنف، ومنه قوله: «الموقع الثانى: الجمل الإنشائية فى نحو قوله: «أجملوا»، و«بادروا»، و«أكثروا»، فهذه جمل أيضاً واردة على جهة الإنشاء دالة على الزجر والمبالغة فى الوعظ»[1]، فهذه أوامر واردة بصيغة فعل الأمر للدلالة على المبالغة؛ ففى فعل الأمر (أجملوا) فيه دلالة على المبالغة فى إجمال الطلب بمعنى أن يكون الطلب بالتعريض فى المقال من غير إلحاف فى السؤال لأنّ ذلك الإلحاح يُعد فى الدّين نقصًا وحطًّا من جانب المروءة، وعلى الرزق حرصًا، وقلة ثقة بالله تعالى، وفعل الأمر (بادروا)، و(أكثروا) فيهما مبالغة فى الزجر والوعظ بمبادرة التوبة، والإكثار من الأعمال الصالحة قبل انقطاع الآجال[2].

وفى حديث النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– : «أيُّها النَّاسُ لاَ تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا، وَلاَ تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ، وَلاَ تُعَاقِبُوا ظَالِمًا فَيَبْطُلَ فَضْلُكُمْ، وَلاَ تُرَاؤُوا النَّاسَ فَيَحْبَطَ عَمَلُكُمْ، وَلاَ تَمْنَعُوا الْمَوْجُودَ فَيَقِلَّ خَيْرُكُمْ، أيُّهَا النَّاسُ: إنَّ الأَشْيَاءَ ثَلاَثَةٌ: أَمْرٌ اسْتَبَانَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعُوهُ، وَأَمْرٌ اسْتَبَانَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَأَمْرٌ اخْتَلَفَ عَلَيكُمْ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ، أيُّهَا النَّاسُ: أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَمْرَيْنِ خَفِيفَيْنِ مُؤْنَتُهُمَا عَظِيمٌ أَجْرُهُمَا لَمْ يَلْقَ اللَّهَ بِمِثْلِهِمَا، الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[3] قال المصنف– عن الجمل الإنشائية المنهية الواردة فى الحديث–: «المعنى الثانى: الجمل الإنشائية المنهيّة، فإنها جاءت مُؤذنة بالآداب الحسنة منبهة على جهة الترادف والتساوق يتلو بعضها بعضاً، والجمل الخبرية جاءت دالة على الآداب الحسنة منبهة عليها ومتضمنة للأوامر الإنشائية، كقوله: «اتبعوه»، و«اجتنبوه»، فقد وقعت هاهنا أحسن موقع؛ لاشتمالها على الأوامر الإنشائية، والمناهى الإنشائية، والأخبار الصادقة الدالة على الحكم النافعة »[4].

وبالنسبة للإنشاء غير الطلبى، فقد ذكر المصنف فى الترجى أنّ له موقعًا عظيمًا فى الكلام، وأنه كما يستعمل فى التوقع للأمور المحبوبة، فإنه يستعمل فى التوقع للأمور المكروهة، وذكر أمثلة لذلك، فعن التوقع للأمور المكروهة، كقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ

---

(1) نفسه، 1/ 342.

(2) ينظر: نفسه، 1/ 345، 346.

(3) الأربعون حديثًا السيلقية، 26.

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 386، 387.

قَرِيبٌ ﴾[1]، وفى التوقع للأمور المحبوبة، كقوله: لعلّ أباك يقدم[2]، وعن حديث النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لَا تَسُبُّوا الدُّنْيَا فَنِعْمَتْ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ. . .»[3]، فقد ذكر فى كون الدنيا نعم المطية للمؤمن بأنه مدح على جهة التعليل، وعلى هذا التأويل يكون المعنى: لا تسبوها لأنها نعم المطية للمؤمن[4].

وقد نظر المصنف إلى أن ورود حرف التنبيه (ألا) إيقاظًا للأسماع، وحثًا على الإصغاء، وتحفظًا من الغفلة، وذلك فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وإن كلام العبد كله عليه»[5]، وقد أشاد المصنف بضم حرف التأكيد (إن) إلى حرف التنبيه (ألا) حيث قال: «السرّ الثانى: أنه ضمّ إلى التنبيه حرف التأكيد بـ «إن»، فقال: «ألا وإن»،و كل واحد من هذين الحرفين له موقع عظيم فى الكلام، فكيف بهما إذا اجتمعا فهما مشعران بالزجر البالغ مع ما تضمناه من رشاقة السياق وحسن التأليف»[6]، وذكر أن حرف التنبيه (الهاء) فى (أيها الناس) قد ورد إيقاظًا للأسماع، وتحريكًا للقلوب عن غفلتها إلى سماع خطابه صلى الله عليه وآله وسلم، أما اختصاص لفظة (الناس) بالذكر دون سواها كابن آدم؛ فلأن لفظة (الناس) أرقّ وألطف وأعظم موقعًا فى القلوب؛ لما فى لفظة (الناس) من الإشعار بالأنس والتقريب، وقد ذكر أن لفظة (الناس) تدل على الشمول[7].

الجمل الحالية

لقد ذكر المصنف أنّ للجمل الحالية موقعًا بالغًا يزيد الكلام حسنًا ورشاقة، وأشار إلى كون تلك الجمل الحالية قد وردت فى القرآن الكريم كما وردت فى الأحاديث النبوية، وذكر بعض الشواهد من القرآن، ومثاله: «التنبيه الثالث: الجمل الحالية، فى نحو قوله: «وأنت تحزن» بـ «الواو»، فإنه يكسب الكلام ديباجة، ويعطيه فى المذاق حلاوة، كأنه قال: تؤتى برزقك فى حال حزنك، وينقص من عمرك فى حال فرحك، وهى واردة فى كتاب الله تعالى. . .، نحو قوله تعالى: ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[8]، وهو كثير»[9]، وجمال تلك الجمل الحالية فى كون وقعها ذلك الموقع أظهر مدى المفارقة الحاصلة فى كون الله تعالى يأتى برزق ابن آدم وحاله

(1) سورة الشورى من الآية 17.
(2) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 326.
(3) الأربعون حديثًا السيلقية ، 23.
(4) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 309.
(5) نفسه، 1/ 295، 296.
(6) نفسه، 1/ 430.
(7) الأنوار المضيئة، 1/ 167.
(8) سورة آل عمران من الآية 102.
(9) الأنوار المضيئة، 1/ 489.

الحزن مع تلك النعمة، وينقص من عمره كل يوم وحاله الفرح مع النقصان فى العمر.

وعندما ينتهى المصنف من بحث ما تضمنت الأحاديث النبوية من علم المعانى، قد يأتى بخلاصة عامة سار فى وضعها على منحيين:

المنحى الأول: يورد حكمًا عامًا يُعد نتيجة ما خرج به بعد شرح البحث، ومثاله: «ولله در كلامه صلى الله عليه وآله وسلم ما أسلسها على الألسنة، وأجمعها للمعانى، وأحواها للمقاصد وأحلاها، فلا تمل على تكرر الأيام والأزمنة»[1]، وهذا الحكم العام ممّا كان ينتهجه القدماء عند شرح النصوص حيث يصدرون أحكامًا عامة على جمال النص أو عدمه، إلا أن المصنف وإن كان حكمه عامًا إلا أنه لم يكن يصدر حكمه إلا بعد شرح ما تضمنه النص النبوى من جوانب جمالية ليكون من ثم حكمه العام قائم على أسس خاصة شرحها قبلاً، بمعنى أنه لم يكن حكمًا عامًا مجازفًا به يقوم على نظرة سطحية للنص النبوى.

المنحى الثانى: يوجز ذكر المواضيع التى شرحها فى الحديث والمتعلقة بعلم المعانى، ومثاله: «فهذه جملة ما اشتمل عليه من علوم المعانى، قد سردناها على هذا السرد، وأنت إذا تأملتها وجدتها مشتملة على الأمور الموصولة المسند إليها: إما بالفاعلية، وإما على جهة الابتداء، وعلى إضمار المسند إليه؛ لتقدم ما يفسره من الظواهر، وعلى تصدير الجملة بالنفى والإثبات بالاستثناء، وهكذا حال الحروف المتعلقة نحو: (من، وإلى، وعلى، وفى) فإن هذه الأحرف كلها كل واحد منها يختصّ بموقع ومعنى غير معنى الآخر، وموقعه وصاحب المعانى هو الذى يتكلم على أسرارها ومعانيها، ويعطى كل حرف منها ما يستحقه، وكل واحد منها ما يختصّ بموقعه الذى وقع فيه ولو وقع غيره من حروف المعانى موقعه لم يعط فائدته، ولم يجد جدواه، فهكذا يكون النظر فى علوم المعانى على هذه الكيفية، والله أعلم»[2].

وأخيرًا يمكن القول: نعم قد استنبط المصنف ما تضمنته الأحاديث النبوية من مباحث علم المعانى، وحدد مواقعها؛ إلا أنه لم يكن يكتفى بذلك بل يتعداه إلى النظر فى غايات ما استنبطه، ومن ثم النظر فى أثره فى المعنى، وسعى إليه بنظرة متذوقة لجمال ذلك الأثر؛ بمعنى أن استنباطاته تلك كانت عبارة عن سبيل للوصول إلى ما هو أحق بالشرح والتوضيح؛ وكان أثر مباحث علم المعانى فيما تضمنته الأحاديث النبوية هو الأحق بالشرح والتوضيح، ليكون بذلك قد حاول إزاحة ما اكتنفته مباحث علم المعانى من جمود بسبب التقعيد الذى وقع فى مباحثه، فضلاً عن المناقشات والخلافات التى طرأت على حدوده وتعاريفه وتقسيماته التى كانت سائدة فى عصر المصنف.

وقد ظهرت مجانبته ما كان سائدًا فى عصره فى شرحه وتحليله تحليلاً ينزع إلى تذوق الجمال فى النص النبوى، ويؤكده ندرة

---

(1) نفسه، 1/ 361.
(2) الأنوار المضيئة، 1/ 551، 552.

تطرقه لحدود وتعاريف وتقسيمات مباحث علم المعانى.

أما بالنسبة للمباحث المختصة بعلم المعانى والتى وردت فى الأحاديث النبوية التى عنى المصنف بشرحها فهى التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والتأكيد والإبهام والإيجاز والاختصار والحذف والإضمار والإظهار والتنبيه والشمول والتفصيل والجمل الحالية والجمل الإنشائية من استفهام وأمر ونهى وترجٍ ومدح.

وقد كان يتوج بحثه هذا ويختمه إما بحكم عام على الحديث النبوى كخلاصة لنتيجة ما خرج به من فيما يخص هذا البحث أو بذكر خلاصة ما شرحه فى الحديث، وعند بعض الأحاديث ختم بأنه انتهى من إيراد ما يخص هذا البحث دون خلاصة أو حكم عام.

المبحث الثانى

جهوده فى علم البيان

حاول الإمام يحيى بن حمزة أن يجعل علم البيان مختصًا بالمجازات، وذكر أنّ لهذا العلم بمجازاته وتجوزاته مدخلاً عظيمًا فى القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، وأنَّ من أنكر ذلك فقد أنكر ما هو أظهر من نور الشمس[1]، ويؤكد قوله باختصاص علم البيان بالمجازات كلام أورده فى المقدمة حيث قال فى حاصل علم البيان بأنه: «إيراد المعنى بطرق مختلفة؛ لإيضاح المدلول عليه»[2]، ثم مثل على ذلك بقوله: «ومثاله أنك إذا أردت أنْ تصف زيدًا بالشجاعة فتارة تُعبر عن ذلك بقولك: زيد كالأسد، ورأيت الأسد، وزيد أسد، فكلها تفيد وصفه بالشجاعة تارة بطريق التشبيه، ومرّة بطريق الاستعارة»[3]، ثم عقد مقارنة بين علم المعانى وعلم البيان بقوله: «وعلوم المعانى مقصورة على معرفة توخى معانى النحو فى التراكيب الإسنادية بخلاف علوم البيان، فإنها مقصورة على معرفة تأدية المعنى بطرق مختلفة من جهة التجوزات المجازية»[4].

إنَّ من شأن كلامه فى المقدمة عن علم البيان أنْ يظهر رؤيته فى حاصل علم البيان بأنه يقتصر على المجازات الواردة لتأدية المعنى بطرق مختلفة، ومن المعلوم عند البلاغيين أنَّ التشبيه والكناية من مباحث علم البيان؛ فكيف نظر المصنف إلى هذين المبحثين- التشبيه والكناية- فى كونهما ينطويان على مجاز؟

التشبيه

إن البلاغيين السابقين للمصنف قد اختلفوا فى كون التشبيه البليغ يُعد من المجاز؛ فبعضهم قال إنّ التشبيه المضمر الأداة ليس من المجاز، وجعله تشبيهًا، كأبى هلال العسكرى المتوفى سنة 395هـ[5]، وبعضهم الآخر، ومنهم ابن جنى المتوفى سنة 392هـ قال إنه مجاز[6]، واتفق الفريقان فى كون التشبيه الظاهر الأداة تشبيهًا[7]، فيكون قول المصنف بمجازية التشبيه ليس بِدعًا،

---

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 178.
(2) نفسه.
(3) نفسه.
(4) نفسه.
(5) ينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى، ط الحلبى، عام 1971م، 255.
(6) ينظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنى، تحقيق محمد على النجار، عالم الكتب،(ت)، بيروت، لبنان،2/ 442- 443.
(7) ينظر: الطراز، 1/ 205- 207.

وللمصنف فى هذه القضية تفصيل يمكن القول فيه؛ بأن المصنف قد وافق من سبقه على كون التشبيه الظاهر الأداة هو تشبيه محض، ولا يُعد من المجاز، ويظهر هذا عندما شرح حديث النبى- صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَيهَا النَّاسُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِى نُشَيِّعُ مِنَ الأَمْواتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُم أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهَمُ. . .»[1]، حيث قال: «ثم لمّا فرغ من النداء أردفه بذكر «الموت»، وصدّرها بحرف التشبيه مبالغة فى الإعراض، والغفلة عن أخذ الأهبة للاستعداد، فحالهم فى الذهول عن المراد مشبه بحال من لا يخطر على باله الموت، ولا يأخذ لوقوعه أهبة، ثم شفعه بكلام آخر مصدر بالتشبيه فى الإعراض عن الحقوق اللازمة، . . . ، ثم عطف عليه ذكر «الأموات» الذين نشاهد إدخالهم القبور، وتضمينهم إياها، فحالها فى حقّهم فى قلّة الاحتفال، وترك التيقظ واستيلاء الغفلة مشبه بحال الذين يغيبون فى طلب الأرباح يُتَرَقَّبُ وصولهم إلينا، وإقبالهم علينا، . . . ، فهذه جمل أربع واردة على جهة التشبيه ساقها عليه السلام مبالغة فى الوعظ»[2]، وسماه تشبيهًا لما ظهرت فى التشبيه أداة التشبيه «كأن».

أما ما يخص التشبيه المضمر الأداة- التشبيه البليغ- فقد نظر فيه المصنف على منحيين، فالأول: الذى لو قُدر فيه ظهور أداة التشبيه لم يفقده ذلك التقدير بلاغته، ولم ينزل من قدره.

والثانى: الذى لو قدرنا فيه ظهور آلة التشبيه لنزل قدره، ولخرج عن ديباجة بلاغته، فما هذا حاله يكون من باب المجاز على وجهة الاستعارة، ويفسد جعله من باب التشبيه، ولتظهر هذه القضية بشكل جلى يمكن إيراد مثال يكشف نظرته الخاصة فى التشبيه المضمر الأداة، فعند شرحه حديث النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-: «لاَ تَسُبُّوا الدُّنْيَا فَنِعْمَتْ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ. . .»[3]، قال: «المجاز الأول: منها «مطية المؤمن» استعارة للدنيا، فإنا راكبون لها، وهى تسير بنا، ولو كنا واقفين كما تسير المطية»[4]، هاهنا ظهر المشبه به «مطية المؤمن»، والمشبه «الدنيا»، والذى هو متمثل فى الضمير (هى) المقدر فى أسلوب المدح: نعم مطية المؤمن هى، حيث إنه يجوز حذف المخصوص بالمدح إذا تقدم ما يشعر به، أو دل عليه دليل[5]، فهذا من قبيل التشبيه المضمر الأداة، وقد جعله المصنف استعارة، لأنه لو قدرنا ظهور آلة التشبيه لنزل قدره، ولخرج عن ديباجة بلاغته، ولكان غثًّا، وفضلاً عن كون تقدير الأداة ينزل من قدره، فإن كون المشبه به (مطية) غير معرف بأل، فالأحق أن يكون من

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 15.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 167، 168.

(3) الأربعون حديثًا السيلقية، 23.

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 310.

(5) ينظر: شرح قطر الندى وبل الصدى، جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصارى، ضبطه على المخطوطة وصححه يوسف الشيخ محمد البقاعى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام 2003م، بيروت، لبنان، 251.

باب الاستعارة، ولو كان المشبه به معرفاً بأل فقد صار من باب التشبيه، لأن آلة التشبيه يحسن إظهارها مع المشبه به المعرف بأل دون المنكر[1].

وبهذا يظهر أن التشبيه قد نظر له المصنف على ثلاثة أوجه:

1- ما كان أداة التشبيه فيه ظاهرة، فهو تشبيه.

2- ما أضمر فيه أداة التشبيه، وتقدير ظهور الأداة لا تفقده بلاغته، فهو تشبيه.

3- ما أضمر فيه أداة التشبيه، وتقدير ظهور الأداة يفقده بلاغته، فهو استعارة.

الكناية

أما يخص مجازية الكناية، فإن المصنف قد نظر إلى كون الكناية مجازاً حيث قال: «المجاز الخامس: قوله: «وقد جفّ القلم»، فجفاف القلم استعارة للفراغ من كتابة الأعمال والختّم عليها، وليس الغرض الجفاف حقيقة، فإنه بعد الموت قد بطل كلّ شيء وفرغ من الأعمال كلها ومن قبول التوبة وبطلان الندم، فوضع جفاف القلم للدلالة على الفراغ من كل شيء، وهو أحسن مجاز كما ترى»[2].

إن جفاف القلم كناية عن الفراغ من كتابة الأعمال، والختم عليها، فهو مجاز من جهة كونه وضع للدلالة على غير معناه الأصلى فى اللغة، ومعناه الأصلى فى اللغة جفاف القلم عن مداده، وإنْ دلّ فى الحديث على الجفاف على الحقيقة اللغوية فليس الغرض فى الحديث الدلالة على المعنى الأصلى- أىْ الجفاف على الحقيقة-، لأنّ حمل جفاف القلم فى سياق الحديث على معناه الحقيقى الذى وضع له فى أصل اللغة لا قيمة له ولا فائدة، وذلك لأن الكناية عند المصنف هى اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقة ومجاز من غير واسطة، ومن جهة أخرى، فإن حمله على الحقيقة يمنع حمله على المجاز؛ لأن الحقيقة والمجاز بمثابة النفى والإثبات، ولذا فالمعنى الواحد لا يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً لاجتماع النفى والإثبات[3]، بمعنى أنه يمتنع حمل جفاف القلم على الحقيقة وهى جفاف القلم عن مداده، وحمله فى الوقت نفسه على المجاز وهو الفراغ من كتابة الأعمال، فيكون بهذا قد خالف من قال إن الكناية اللفظ الدال على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز[4].

---

(1) ينظر: الطراز، 1/ 208.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 362.

(3) ينظر: الطراز، 1/ 372- 374.

(4) ينظر: المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، عام 1995م، بيروت، لبنان ، 2/ 181، 182.

وبعد ظهور قول المصنف فى مجازية الكناية يمكن طرح هذا السؤال، وهو: لماذا سمّى المصنف الكناية استعارة ؟

إذا كانت الكناية فى نظر المصنف مجازاً ولا تحمل أىّ حقيقة، فهذا يجعل الكناية مع الاستعارة فى إطار واحد هو المجازية، وكما أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له، فهكذا حال الكناية؛ فإنها لا تكون إلا حيث يكون ذكر المكنى عنه مطويًا فيه، فلا جرم سميت الكناية استعارة من باب التوسع فى الكلام، وهذا التوسع لا يقضى الترادف بينهما لأن الاستعارة عامة، والكناية خاصة، ولهذا فإن كل استعارة هى كناية، وليس كل كناية استعارة[1] .

وهنا ظهر أن المصنف عندما أطلق القول باختصاص علم البيان بالمجازات، فإنه لم يخطئ؛ لأنه يرى الكناية من المجاز، ومن التشبيه التشبيه المضمر الأداة الذى لو قُدّر فيه الأداة لذهبت ديباجة بلاغته، فكان قوله بذلك توسعًا فى الكلام، وذلك كقول المعلم عندما يُسأل عن المستوى العلمى لطلاب صفه- فى حال كون مستواهم ممتازاً ما عدا بعضهم- فإن إجابته عن السؤال بقوله: إن مستواهم ممتازاً، هو جواب سليم من باب التوسع.

المجاز المركب والمفرد

عندما استخرج المصنف المجازات الواردة فى الأحاديث النبوية، فإنه كان يقول فى بعضها بأنه مجاز مركب، ويقول فى غيرها بأنه مجاز الإفراد، ومثاله: «المجاز الثالث: قوله: «الليل والنهار كيف يبليان كل جديد» أسند إليهما البلاء، وهذه لا يستند إليها، وإنما هى مسندة إلى الله تعالى، فما هذا حاله معدود فى المجاز المركب، ومعنى التركيب أن يسند الفعل إلى من يستحيل إسناده إليه»[2] .

وهنا يمكن التساؤل: ما المقصود بالمجاز المركب ؟

إن المجاز العقلى هو ما قال المصنف عنه بأنه المجاز المركب، ودلّ عليه تعريفه: بأنه إسناد الفعل إلى من يستحيل إسناده إليه[3]، ولكن لماذا عدل عن تسميته بالمجاز العقلى إلى هذه التسمية بالذات ؟

إن الليل والنهار ليسا فاعلين حقيقيين فى إبلاء كل جديد، وإنما الفاعل الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى، فوقع المجاز فى إسناد الفعل يبليان لغير فاعله الحقيقى المستعمل فى أصل اللغة، فأخرجه هذا الإسناد من الحقيقة إلى المجاز.

مع العلم أن الليل والنهار عند النظر إليهما كلفظتين فى حدّ ذاتهما وبعيدًا عن الإسناد قد استعملتا فى الحديث النبوى فى

---

(1) ينظر: الطراز، 1/ 377، 378.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 230.

(3) ينظر: شروح التلخيص، 1/ 239، 240.

موضعهما الأصلى فى استخدام اللغة، ووقع المجاز فى إسناد الفعل لهما، ولأن الإسناد لا يقع إلا فى التركيبات، فكان المجاز قد حصل فى التركيب، لا الألفاظ المفردة، ولذا سوغ قول المصنف بأنه مجاز مركب[1].

أما ما يخص مجاز الإفراد فى حديث النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِى النَّارِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[2]، فقد قال المصنف: «المجاز السادس: مجاز الإفراد، وهو قوله: «حصائد ألسنتهم»، وله توجيهان:

التوجيه الأول: إن حصيدة اللسان مستدق طرفه، وهى مستعارة من حصيدة السيف، وهى حدّه، فلما كان الكلام يجرح ويؤلم لاجرم استعير له...»[3].

إن لفظة حصيدة قد اُستعيرت من حصيدة السيف؛ أىْ حدّه، ووضعت للدلالة على حصيدة اللسان؛ أىْ مستدق طرفه، فوقع المجاز فى استعارة لفظة حصيدة لغير ما وضعت له فى حقيقة وأصل الاستخدام اللغوى، ولذا سمى المصنف هذا المجاز بمجاز الإفراد، لوقوع المجاز فى اللفظة المفردة، ومن ثم كان كلا المجازين– المركب والإفراد– من المجاز اللغوى بجامع أنهما استعملا لغير ما وضعا له فى حقيقة وأصل الاستخدام اللغوى[4].

وثمة أمر أخير فى مسألة المجاز المركب ومجاز الإفراد، ألا وهو إمكانية اجتماع وقوع المجازات فى المفردات والتركيب فى جملة واحدة، ففى حديث النبى– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا مِنْ شُبْهَةٍ فِى الدِّينِ ارْتَكَبُوهَا، أَوْ شَهْوَةٍ لِلَذَّةٍ آثَرُوهَا، أَوْغَضْبَةٍ لِحَمِيَّةٍ أَعْمَلُوهَا، فَإِذَا لاَحَتْ لَكُمْ شُبْهَةٌ فَاجْلُوهَا بِالْيَقِينِ...»[5]. قال المصنف: «المجاز الخامس: قوله: «فإذا لاحت لكم» مجاز من جهة أن اللوح إنما يستعمل فى المرآة، والسيف حقيقة، وهاهنا استعارة...، المجاز الثالث عشر: إسناد اللوح إلى الشبهة... من باب المجاز المركب من جهة أن إسناده إلى الفعل ليس حقيقة...»[6].

اللوح لفظة تستعمل فى أصل اللغة فى المرآة والسيف، ثم اُستعيرت فى الحديث النبوى لغير ذلك الاستعمال؛ أىْ اُستعيرت للشبهة، فكان من باب مجاز الإفراد، وفى الوقت نفسه أسند اللوح لغير فاعله الحقيقى المستعمل فى أصل اللغة، فكان من باب المجاز المركب، فحصل اجتماع المجازين فى الجملة الواحدة[7].

---

(1) ينظر: الطراز، 1/ 74، 75.
(2) الأربعون حديثًا السيلقية،22.
(3) الأنوار المضيئة، 1/ 297.
(4) ينظر: الطراز، 1/ 76.
(5) الأربعون حديثًا السيلقية، 27.
(6) الأنوار المضيئة، 1/ 468، 469.
(7) ينظر: الطراز، 1/ 75.

وهنا يمكن القول أن المصنف جعل المجاز نوعين:

الأول: المجاز المركب، ويقصد به المجاز العقلى، لأنه يقع فى إسناد الفعل لغير فاعله الحقيقى.

الثانى: مجاز الإفراد، الذى يحصل فى الألفاظ المفردة باستعمال اللفظ فى غير ما وضع له فى حقيقة اللغة وأصلها.

ويتحقق كل واحد منهما بشكل منفرد فى الجملة، وقد يجتمعان فى جملة واحدة.

والمصنف يثبت فى المسائل البيانية ما يراه صحيحًا، ولو خالف سابقيه من العلماء، ويورد الحجج والشواهد التى تؤيد ما ذهب إليه من رأى، ومثاله قوله: «المجاز السادس: مجاز الإفراد، وهو قوله: «حصائد ألسنتهم»، وله توجيهان:

التوجيه الأول: إن حصيدة اللسان مستدق طرفه، وهى مستعارة من حصيدة السيف، وهى حدّه، فلما كان الكلام يجرح ويؤلم لاجرم استعير له، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[1]، وقول من قال:

وَكَلْـمُ السَّيْفِ تَدْمِلُـهُ فَيَبْـرَى وَكَلْمُ الدَّهَرِ مَا جَرَحَ اللّسَانُ[2].

التوجيه الثانى: إن المراد بحصائد الألسنة ثمارها، فهذا هو الذى ذكره المنصور بالله، وقال: إن هذا من جملة الاستعارة الفصيحة، وهو جعل الكلام زرعًا للسان[3]، وهذا فإن كان محتملاً لكنه مجاز بعيد، والمجاز البعيد مع المجاز القريب كالمجاز مع الحقيقة، فلأجل هذا كان جملة ما ذكرناه أليق وأحسن»[4].

عندما شرح ما ذهب إليه من رأى فى كون الحصيدة مستعارة من حصيدة السيف، أردف بذكر الجامع أو الملائم بين المستعار والمستعار له، والمتمثل فى كون كل من السيف والكلام يجرح ويؤلم، ليكون هذا الملائم مسوغًا يدعم ما ذهب إليه من رأى، ثم أورد شاهدين يؤكدان ذلك الأول من القرآن الكريم والثانى من الشعر، مع إيراده لرأى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة، والمتمثل فى جعل الكلام زرع للسان، ولم يقطع ببطلانه، وإنما حمله على كونه من المجاز البعيد، ثم عقب بأن المجاز البعيد مع المجاز القريب كالمجاز مع الحقيقة؛ ليكون هذا مؤكدًا لحسن ولياقة ما ذهب إليه من رأى.

---

(1) سورة الأحزاب من الآية 19.

(2) البيت من الوافر، وقد ورد، ولم ينسب لقائل معين، ونصّه: وَجُرْحُ السّيْفِ يَدْمِلُهُ فَيَبْرَا وَيَبْقى الدَّهَرَ مَا جَرَحَ اللّسَانُ. ينظر: البيان والتبيين، 1/ 167. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، ط3، عام 1994م، بيروت، لبنان، مادة (دمل). ملامح يونانية فى الأدب العربى، د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، عام 1977م، بيروت، لبنان، 139.

(3) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 92.

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 297، 298.

الاستعارة الموشحة

يطلق المصنف على الاستعارة المرشحة الاستعارة الموشحة، ومنه قوله: «المجاز الخامس: قوله: «فإذا لاحت لكم» مجاز من جهة أن اللوح إنما يستعمل فى المرآة، والسيف حقيقة، وهاهنا استعارة.

المجاز السادس: قوله: الجلاء، فإنها تستعمل فى صدأ السيف والمرآة، وهو هاهنا وارد على جهة المجاز لا غير. . .

المجاز الثانى عشر: لمّا استعار اللوح فى الشبهة عقبه بالجلاء توشيحًا للاستعارة. . .، كما قال تعالى: ﴿ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾[1] على جهة الاستعارة، ثم عقبه بذكر الربح توشيحًا لهذه الاستعارة»[2].

الاستعارة المرشحة: هى التى قرنت بما يلائم المستعار منه دون ما يلائم المستعار له، وسميت بالمرشحة لترشيحها؛ أىْ تقويتها بذكر الملائم[3]، والاستعارة الموشحة كما قال المصنف هى الاستعارة المرشحة بعينها حيث حذف المستعار منه فى الاستعارة (لاحت لكم شبهة)، وهو السيف أو المرآة، وأتى بشىء من لوازمه وهو اللوح، ثم عقبه بذكر الجلاء، والجلاء يلائم المستعار منه لا المستعار له، فظهر أن الاستعارة الموشحة عند المصنف هى الاستعارة المرشحة، ولكن لماذا كانت فى مصطلح المصنف توصف بالموشحة ؟

عندما ذكر النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– لوح الشبهة عقبه بخصيصة من خصائص المستعار منه توشيحًا للاستعارة، فيكون بذلك قد وشّح الاستعارة وزينها فضلاً عن جمالها وحسنها بما ذكر من الأحكام الخاصة بالمستعار منه، وهو الجلاء، وهو مأخوذ من التوشيح، وهو ترصيع الجلد بالجواهر واللآلئ تحمله المرأة من عاتقها إلى كشحها، وهذا هو الوشاح[4]، واشتقاق التوشيح للاستعارة منه[5].

وثمة كلام فى كتاب (من مباحث البلاغة والنقد بين ابن الأثير والعلوى) للدكتور نزيه عبد الحميد فراج عن وصف المصنف للاستعارة المرشحة بالموشحة حيث عدّه الدكتور نزيه خطأ فى النقل، وقد سمى عنوان المبحث (خطأ العلوى فى مفهوم ومصطلح الاستعارة المرشحة)، وقال فيه: «البلاغيون جميعًا يسمون هذه الاستعارة (المرشحة)، أو (الترشيحية) . . .، إلا العلوى، فإنه

---

(1) سورة البقرة من الآية 16.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 468، 469.

(3) ينظر: شروح التلخيص، 4/ 130، 131. حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية للصبان، شمس الدين محمد بن محمد الإنبابى، المطبعة الأميرية ببولاق، عام 1315هـ، القاهرة، مصر، 428.

(4) ينظر: لسان العرب، مادة (وشح). الطراز، 1/ 237.

(5) ينظر: الطراز، 1/ 237.

يسميها (الموشحة)، ولولا أنه كرر ذكر الاستعارة بهذا الوصف عدة مرات فى كتابه (الطراز)، ولولا تفسيره للتوشيح لقلنا: إنّ الكلمة قد حدث فيها تغيير وتحريف، هذان الأمران يدلان على أن العلوى قد نقل الكلمة من (نهاية الإيجاز) للإمام الرازى، و(المصباح) لبدر الدين بن مالك محرفة، فبدل أن يقول: الترشيح قال: التوشيح، ولم يدرِ أن الأخير غير مقصود للبلاغيين إطلاقاً، ولا يطابق معناه معنى تلك الاستعارة، وصاحب (الكشاف) الذى يزعم العلوى أن تفسيره كان الباعث له على تأليف كتابه ذكر اسم الترشيح، وذكر ملائم المستعار منه ليس فيه تزيين وتحسين للاستعارة، لأن الاستعارة زائنة وحسنة وجميلة فى أصلها . . . ، وهذا يدل على أن الرجل ينقل ما يجده فى الكتب سواء كان صحيحًا أم خطأً دون وعى منه وتمييز لما ينقله»[1].

إن الإمام يحيى بن حمزة قد اختار وصف هذا النوع من الاستعارة بالاستعارة الموشحة، وقوله هذا مشهور، لتفرده به، وهذا التفرد يمنع أن يكون ناقلاً من غيره، لأنه يشترط فى المنقول أن يكون مطابقًا للمنقول عنه، وعندما اختار هذا الوصف كان يعى ما يقصده من توصيف، ويؤكده أنه علل هذا التوصيف، نعم قد اتفق البلاغيون على وصفها بالمرشحة، لعلة مفادها أن الترشيح هو عبارة عن تقوية الاستعارة بذكر ملائم المستعار منه، وهذا الاتفاق لا يمنع ما جاء به المصنف لا سيما أن وصف المصنف للاستعارة بالموشحة مطابق لحدها وتعريفها كما مرّ، وهنا يمكن القول ممّا لا يخفى على البلاغيين جمال الاستعارة وحسنها، وذلك لما تنطوى عليه من تناسى التشبيه، وادعاء أن المشبه من جنس المشبه به، وفرد من أفراده مبالغة فى اتصاف المشبه بوجه الشبه، فإذا كانت الاستعارة جميلة وحسنة فإنه عندما يؤتى بما يلائم المستعار منه فإنه يزيد من جمال الاستعارة وحسنها أو بالأصح يزينها على ما هى عليه من جمال وحسن، كالمرأة الجميلة الحسناء التى توشح بالجلد المرصع بالجواهر تحمله من عاتقها إلى كشحها ليزين ذلك الجمال والحسن، ولذا كان وصفها بالموشحة، ووصفُها بالموشحة وصف يذوب جمالاً وأناقة وذوقاً ولطفاً لما ينطوى عليه من دلالات حسنة ورقيقة تتناغم مع الموصوف وتكسبه أبهة ورشاقة، أكثر ممّا قد تنطوى عليه من وصفها بالمرشحة.

من شروط وقوع المجاز

إنَّ المصنف يرى أن من شروط وقوع المجاز فى الألفاظ أن يُسبق بوضع فى أصل الاستعمال اللغوى، وسماه المعنى الحقيقى، فيحصل المجاز عندما تخرج الألفاظ عن ذلك المعنى الحقيقى إلى معنى آخر، ولذا جعل علم اللغة بمثابة الأصل الذى من خلاله

---

(1) من مباحث البلاغة والنقد بين ابن الأثير والعلوى دراسة فى التأثير والتأثر وتجاوزات الفهم، د . نزيه عبد الحميد فراج، مكتبة وهبة، ط1، عام 1997م، القاهرة، مصر، 154، 156، 157 .

ينطلق المحلل والمتذوق البيانى لمعرفة مواقع المجازات والتجوازات، ويظهر هذا جليًا فى شرحه للمجازات الواردة فى الأحاديث النبوية الشريفة حيث يورد حقيقة الألفاظ فى أصل الاستعمال اللغوى ثم يشرح ما حصل لها من تجوزات، ومنه قوله: «المجاز الثانى: «إن السير بكم سريع» استعارة أيضاً، فإن «السير» هو نقل الأقدام»[1]، وقوله: «المجاز الأول: الانقطاع، فإنه استعارة ومبالغة أخذه من انقطاع الحبل، وهو أصل فيه، والانقطاع إلى الدنيا مجاز أيضاً»[2]، وقوله: «المجاز الأول: قوله: «هادم اللذات»، فإن الهدم إنما يستعمل فى الأبنية، وهو هاهنا مجاز»[3]، وقوله: «الاستعارة الأولى: قوله: «لا تعطوا الحكمة»، فالإعطاء هاهنا استعارة حسنة؛ لأن حقيقة الإعطاء المناولة، وهذا لا يتعقل فى الحكمة، فلهذا كانت مجازاً»[4].

لمّا كان كل من السير والانقطاع والهدم والإعطاء قد ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة للدلالة على غير ما وضع له فى أصل اللغة فقد خرج عن معناه الحقيقى إلى المجاز، وغير ذلك أن المجاز قد يكون فى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، حيث قال: «الاستعارة الثانية: حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، فى قوله: «إنما أنتم خلف ماضين» أىْ: قوم ماضين وبقية قوم متقدمين؛ ووجه الاستعارة هو أن المقصود إنما هو الصفة، فلأجل هذا طرح موصوفها لما كان الغرض الاستعجال بذكرها»[5].

من المعلوم أن جماعة المخاطبين لهم اسم جامع يخاطبون به، فإذا عُدل عنه فى مخاطبتهم إلى مخاطبتهم بصفتهم كما فى الحديث النبوى الشريف حيث خاطبهم النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– بصفتهم «خلف ماضين»، فقد طرح الموصوف وأقام الصفة مقامه، فيكون ذلك عدول عن الحقيقة إلى المجاز، وفضلاً عمّا سبق من المجازات، فإن من المجاز المجاز المرسل القائم على علاقة المسببية، حيث قال: «المجاز الأول: الإتيان هاهنا هو عمل القبيح فى الدنيا، وظاهر الخبر دال على أنها حاصلة فى الآخرة، وليس الأمر هكذا، وإنما جعل المسبب، وهو العذاب حاصلاً فى يوم القيامة، فلهذا قال: «يؤتى . . . يوم القيامة»، والإتيان: هو فى الدنيا، فهذا مجاز لا محالة وضع المسبب مكان السبب»[6]، الأصل أن عمل القبيح يحصل فى الدنيا، وعمل القبيح فى الدنيا هو سبب فى العذاب يوم القيامة، فكان عذاب يوم القيامة مسببًا عن عمل القبيح فى الدنيا، ولمّا كان العذاب حاصلاً يوم القيامة عن سبب عمل القبائح فى الدنيا، فقد أُقيم المسبب مقام السبب، فخرج عن حقيقته إلى المجاز.

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 230.
(2) نفسه، 1/ 288.
(3) نفسه، 1/ 327.
(4) نفسه، 1/ 387.
(5) الأنوار المضيئة، 1/ 597.
(6) نفسه، 1/ 467.

المجاز بالزيادة والنقصان

يكون المجاز بالزيادة والنقصان، ومثاله قوله: «الاستعارة الأولى: قوله عليه السلام : «أيها الناس» إنما حذف حرف النداء على جهة المجاز بالنقصان.

الاستعارة الثانية: العموم للخصوص بقوله: «الناس»؛ فإنّه عام مستعمل للخصوص؛ لأن المقصود هو من يخاطبه فى ذلك المقام إطلاق السفر على جهة التجوز على الأموات، واستعارة «عمّا قليل» تجوز بالزيادة فى «ما» »[1].

إن أصل استعمال أسلوب النداء فى اللغة أن يكون بأداة النداء، فإذا حذفت الأداة، فإنه خروج عن ذلك الأصل بنقص أداة النداء من أسلوب النداء، فكان ذلك مغايرًا لأصل استعمال أسلوب النداء فى أصل اللغة، وبهذا جعله المصنف مجازاً من جهة النقصان؛ أىْ نقصان الأسلوب من بعض مكوناته وهى الأداة، وكذلك الحال فى زيادة «ما» حيث جعل هذه الزيادة من المجاز لأنها خالفت استعمالها فى أصل اللغة، مع العلم أن هذه الزيادة والنقصان قد وردت فى الحديث النبوى لغرض بلاغى سوف توضح فى موضعها المناسب من هذه الدراسة.

مجازية دلالة الألفاظ على العموم والخصوص

فى الكلام السابق للمصنف عن النقصان كلام أظهر أن المجازات قد تحصل من سَوْق ألفاظ العموم لمعنى الخصوص؛ حيث أن لفظة «الناس» عامة فى الحقيقة لكن فى الحديث النبوى سيقت للخصوص؛ أىْ لمخصوصين هم من يخاطبهم النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- حين المخاطبة فى ذلك المقام النبوى، فحصل أن كان استعمال لفظة «الناس» للدلالة على الخصوص من المجاز، ومن هذا القبيل قول المصنف: «المجاز الخامس: قوله: «لكل عمل جزاء»، فإن العموم هاهنا يُراد به الخصوص؛ لأنّ المباحات من جملة الأعمال، وليس عليها جزاء، فلهذا كان العموم واردًا على جهة المجاز والاستعارة»[2]، وهنا أخرج اللفظ عن حقيقته إلى كونه مجازاً لامتناع حصوله على جهة الحقيقة حيث إن الأخذ بحقيقة العموم فى «لكل عمل جزاء» فى الحديث سيكون الجزاء واقعًا من قِبل الله على كل عمل قام به العبد، فتدخل المباحات من جملة العمل الذى عليه جزاء، والجزاء على المباحات ممتنع، ولذا لزم القول أن العموم فى الحديث للخصوص، وخروجه عن العموم جعله من المجاز، فحمله على المجاز لأن الأعمال التى يجازى عليها العبد ما كان من قبيل فعل الواجبات، وترك المحرمات، وما كان من قبيل فعل المندوبات، وترك المكروهات، فيستحق عليها العبد الثواب، ويستحق العقاب على

---

(1) نفسه، 1/ 179 .

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 343.

فعل المحرمات، وترك الواجبات[1].

مجازية الحروف

للمجاز مدخل في الحروف حيث قال المصنف: «المجاز الثاني: اللامان في نحو قوله: «كتب له»، و«قدر له» إنما حصلا على جهة المجاز؛ لأنهما حقيقة للملك ولا ملك هاهنا، فلهذا كانا مجازين

المجاز الرابع: قوله: «في القنوع»، وقوله: «في الاقتصاد»، و«في الزهد»، فإن «في» هاهنا واردة على جهة المجاز؛ لأنها للمكان والظرفية، وليس هاهنا حقيقة للظرفية»[2]، وقال في موضع آخر: «وقد حصل التجوز هاهنا في الاسم والفعل والحرف، فـ «تواضع» مجاز، و«عن» مجاز، والرفعة: مجاز لاستعمال كل واحد من هذه الألفاظ في غير معناها وموضعه، فلهذا قضينا بكونها مجازات.

الاستعارة الثانية: قوله: «عن غنية،... وعن قوة،... وعن قدرة»، فإن استعمال الحرف الذي هو «عن» إنما هو على جهة المجاز؛ لأن المجاوزة هاهنا لا حقيقة لها؛ لأن هذه الأمور لا تعقل فيها المجاوزة»[3].

يظهر من كلام المصنف الآنف ذكره أن المجاز يقع في الحرف كما يقع في الاسم والفعل، وذلك أن الحرف له دلالة واحدة حقيقية استعملت في أصل اللغة، فإن خرج الحرف عن هذه الدلالة إلى معنى آخر فإنه يُعد من المجاز، فحرف الجر «اللام» حقيقته للملك، فلمّا خرج في الحديث النبوي الشريف في «كتب له...، وقُدّر له» عن معناه الحقيقي كان من جملة المجاز، وحرف الجر «في» حقيقته في أصل الاستعمال اللغوي للظرفية، فلمّا خرج عن ذلك في قوله صلى الله عليه وآله وسلم «في القنوع»، و«في الاقتصاد»، و«في الزهد» كان وروده في الحديث مجازاً، وحرف الجر «عن» في أصل الاستعمال اللغوي للمجاوزة، ولم يدل على ذلك في الحديث النبوي في «عن غنية،... وعن قوة،... وعن قدرة» بمعنى أنه لم يستعمل في الحديث النبوي للدلالة على معناه الحقيقي فدل على معنى مجازي، وكذلك في حرفي الجر «إلى والباء» في قوله: «المجاز الثالث: حرف الجر في قوله: إلى باطنها وإلى ظاهرها، فإن «إلى» أصلها وحقيقتها للغاية التي ينقطع عندها التصرف، وهذا ليس حاصلاً هاهنا، فلهذا كان مجازاً.

المجاز الرابع: «الباء» في قوله : بالآجل والعاجل، فإن حقيقتها للإلصاق، ولا معنى للإلصاق هاهنا؛ لأن الإلصاق إنما هو

---

(1) ينظر: نفسه، 1/ 349، 350.

(2)الأنوار المضيئة، 1/ 343.

(3) نفسه، 1/ 432.

المضامة والملامسة، وهما غير حاصلين، فلهذا حكمنا بالمجازية كما ترى»[1].

إن حرف الجر «إلى» يستعمل فى أصل اللغة للغاية، وهذه الدلالة الحقيقية ليست حاصلة فيه عند وروده فى الحديث النبوى فكان مجازاً، ولأن الباء قد وردت فى الحديث النبوى للدلالة على غير الالصاق فلا جرم كانت مجازاً.

وهنا يمكن القول: إن ضابط المجاز اللغوى وحدّه عند المصنف حاصل فى استعمال الشىء فى غير ما وضع له فى أصل اللغة؛ سواء حصل فى الاسم أم الفعل أم الحرف أم الإسناد.

مجازية ما خالف القياس الصرفى المطرد

لقد توسعت دائرة المجاز عند المصنف، وبلغت إمكانية حصوله إلى ما خالف المطرد من الاستعمال الصرفى، ومثاله قوله: «المجاز الثالث: قوله: «محصية»؛ فإنه وارد على جهة المجاز، بالإضافة إلى ما اطرد فى الاستعمال من إعلاله، فصار مجازاً بالإضافة إلى الاستعمال المطرد»[2]. القياس الصرفى المطرد فى «محصية» أن (الواو) و(الياء) إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفين[3]، كقولك فى الأفعال: غزا ورمى، وفى الأسماء: عصا ورحى، فكان القياس الصرفى المطرد فى «محصية» أن يقال: «محصاة»، فكان ورودها مخالفة لذلك القياس من المجاز، وإنما جاء بها النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- على الأصل منبهًا به على أن الإعلال فى الأفعال أصل، وهو فى الأسماء دخيل، وإنما أُعلت الأسماء بالقلب لمّا كانت ضاربة بعرق فى الأفعال بالاشتقاق منها[4]، فكان خروج «محصية» عمّا اطرد من قياس فى الاستعمال الصرفى مجازاً بالإضافة إلى الاستعمال الصرفى.

المجاز بالإضافة إلى العرف الشرعى

إن الحقائق اللغوية هى تلك الألفاظ التى دلت على معانٍ مصطلح عليها فى الأوضاع اللغوية، فإن استعملت فى معناها الأصلى فهى حقيقة، وإن استعملت فى غيره فهى مجاز بالإضافة إلى حقائقها اللغوية[5]، فإذا ظهر هذا يمكن التساؤل ماذا يقصد المصنف بقوله مجاز بالإضافة إلى العرف الشرعى؟ وذلك فى قوله: «الاستعارة الثانية: وصف الحكمة بكونها مظلومة مجاز، واستعارة؛ لأن الظلم هو الضرر

---

(1) نفسه، 1/ 552.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 343.

(3) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، 3/ 95، 96.

(4) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 341.

(5) ينظر: الطراز، 1/ 51.

الخالى عن النفع، وهذا لا يتأتى فى حقّ الحكمة، فإطلاق الظلم عليها يكون مجازاً بالإضافة إلى العرف الشرعى فى الظلم»[1].

إن اللفظة التى يستفاد من جهة الشرع وضعها لمعنى غير ما كانت تدل عليه فى أصل وضعها اللغوى فهى حقيقة شرعية؛ بمعنى أن الشرع قد نقلها إلى إفادة معانٍ أُخر فصارت حقائق فى معانيها الشرعية[2]، والظلم فى اللغة: وضع الشىء فى غير موضعه[3]، وفى لسان حملة الشريعة الظلم: هو الضرر العارى عن جلب منفعة أو دفع مضرة تزيد عليه من استحقاق[4]، وفى الحديث النبوى الشريف عندما وصف الحكمة بكونها مظلومة هى حقيقية من جهة اللغة، لأن الظاهر من كلامه صلى الله عليه وآله وسلم لا تضعوا الحكمة فى غير موضعها، ولكن من جهة العرف الشرعى فوصف الحكمة بكونها مظلومة مجاز، لأنه يخالف حقيقة الظلم فى العرف الشرعى، ولذا كان وصف الحكمة بأنها مظلومة مجاز بالإضافة إلى العرف الشرعى لا من جهة العرف اللغوى.

من غايات المجاز

لكى لا يتوهم القارئ أن المصنف سعى عند شرح ما تضمنت الأحاديث النبوية الشريفة من مباحث علم البيان إلى استنباط الصور البيانية وتحديد مواضع ورودها مع تحديد أنواعها ليس إلا، لزم إظهار جهود المصنف فيما يخص نظرته لحسن وعظمة وفوائد وغايات الصور البيانية الواردة فى الأحاديث النبوية، ومنه قوله: «المجاز الأول: قوله: قوله: «أما رأيت المأخوذين على الغِرَّة»، فإن ما هذا حاله من أحسن الاستعارات، وأعظمها فى البلاغة، وأوقعها فى الدلالة على أنهم أخرجوا من الدنيا وهم على غير أهبة ولا أخذ عدّة، فجاءهم الموت فجأة، فيجمع هذه المعانى وغيرها قوله: «المأخوذين على الغِرَّة»، ولو أتى بالحقائق لم يعط هذا المعنى، فهذه هى فائدة المجازات، فإن قولك: رأيت الأسد، أدخل فى إفادة الشجاعة من قولك: رأيت الشجاع، وما ذاك إلا من جهة استعمال المجاز الدّال على المبالغة.

المجاز الثانى: قوله: «المزْعجين بعد الطمأنينة» هى استعارة رشيقة لما تضمنته من الإسراع والمعاجلة والقلق فى سرعة الأخذ بعد التمكن والاستقرار، وهو ألّم ما يكون للنفوس وأبلغ فى المشقة.

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 387.

(2) ينظر: الطراز، 1/ 55، 56.

(3) ينظر: مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتّاب العرب، عام 2002م، دمشق، سوريا، مادة (ظلم).

(4) ينظر: التاج المذهب لأحكام المذهب شرح متن الأزهار فى فقه الأئمة الأطهار، أحمد بن قاسم العنسى، ط1، عام 1947م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 3/ 305.

المجاز الثالث: قوله: «أقاموا على الشبهات» استعارة لتمكنهم منها، واستغراق أعمارهم على الإكباب عليها، والاستمرار على فعلها.

المجاز الرابع: قوله: «وجنحوا إلى الشهوات» استعارة أيضًا لميلهم إليها وإصغائهم إلى شغل قلوبهم وحواسهم بها، ومنه جناح الطائر؛ لأنه يميل به إلى كل جهة فى طيرانه»[1].

إن المجاز يعظم شأنه عن الحقيقة فى التعبيرات من جوانب عدة منها دلالته على المبالغة، وقدرته على إظهار المقصد بأوجز العبارات وأبلغها وأحسنها، وقد أبرز المصنف ذلك فى المجازات الواردة فى الحديث النبوى، وذلك فى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لو أتى بالحقائق لم يعط المعنى الذى أنتجه «المأخوذين على الغِرَّة»، وقد أظهر المصنف بلاغة النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فى استخدام استعارة «المزْعجين بعد الطمأنينة»، والتى من شأنها الدلالة على ما هو أبلغ فى النفوس مشقة من خلال الإسراع والمعاجلة فى سرعة الأخذ والتمكن والاستقرار، وقد أظهر المصنف- أيضًا- حسن استعارة «وجنحوا إلى الشهوات»، وذلك فى كون استعارة جنح الذى منه جناح الطائر الذى يميل به إلى كل جهة عند طيرانه، ففيه تخير حسن حيث قد شغلوا قلوبهم وحواسهم بالشهوات إلى حد أنهم يميلون إلى كل جهة فيها شهوات.

ومن ذلك فى موضع آخر أظهر المصنف مغزى استعمال النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- (يا) النداء للقريب تجوزاً فى نداء (الناس)، وهى موضوعة فى اللغة للبعيد، وذلك لمّا كان الناس بمنزلة البعيد بالإضافة إلى الغفلة والذهول عمّا يُراد بهم فى الحياة الدنيا[2].

ومن غايات المجاز- التى شرحها المصنف- أنه يفتح النص النبوى على المتعدد من المخاطبين فى أزمنة وأمكنة متعددة، ومثاله قول: «الاستعارة الأولى: قوله: «إنما أنتم» فالخطاب إنما هو للحاضرين، فمن كان فى زمنه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن يتلوه من بعده فقد صار مستعملاً فى الخطاب وغيره، وظاهره وحقيقته للمخاطبين، وهو شامل للكل، فلا جرم كان استعارة كما ترى»[3].

لو حمل المصنف نص النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- «إنما أنتم» على جهة الحقيقة لكان فيه إجحاف، بمعنى أنه لو حمله على أنه خطاب للحاضرين فى حضرته صلى الله عليه وآله وسلم فى زمان ومكان المخاطبة لكان فيه تجميد، وإنما نظر إلى كونه ينطوى على مجاز ممّا منح النص النبوى الدينامية والانفتاح على المتعدد من المخاطبين فى حضرته وما يتلوهم إلى أن تقوم

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 362.
(2) ينظر: نفسه، 1/ 179.
(3) الأنوار المضيئة، 1/ 596.

الساعة، ومن شأنه أيضًا أن ينفتح على المتعدد من الأزمنة والأمكنة، فهو بذلك كلام لمن كان فى مكان الحضرة النبوية لحظة إلقائه وللذين فى الأزمنة اللاحقة فضلاً عن بلوغه كل مكان فى تلك الأزمنة المتلاحقة[1].

أحكام المصنف البيانية العامة

كما أن البلاغيين قد جعلوا بيت حسان بن ثابت– أنصف بيت قالته العرب– والذى قال فيه:

أَتَهْجُـــــوْهُ وَلَـــــسْتَ لَـــــهُ بِكُـــــفْءٍ فَـــــشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَـــــا الفِـــــدَاءُ[2].

فإن المصنف قد أورد فى النص النبوى من هذا القبيل حيث قال: «وقوله: «لعن الله أعصانا لربه» فيه غاية الإنصاف؛ لأن كل من عصى فهو مستحق للعقاب من جهة الله تعالى، واللعن والطرد . . . وهكذا مقال الدنيا بلسان الحال، فيه غاية الإنصاف لمن لعن الدنيا، ولو قالت الدنيا: لعن الله من لعننى لكان ذلك جزافًا لا وجه له، فلما قالت هذه المقالة عرف بها مقصد الإنصاف»[3].

لم يكن حكم المصنف على ذلك القول حكمًا عامًا مجازفًا به بل كان حكمًا معللاً، وذلك فى كون مقالة الدنيا «لعن الله أعصانا لربه» جعلت معيار اللعن هو العصيان لله وليس لعنها، على الرغم أن العبد يتمسك بخيوط واهية حيث يقول إن الدنيا هى من تجعله يعصى الله وذلك بما فيها من مغريات فهى العاصية فكان هذا مسوغًا للعنها، ولكن الدنيا قد أنصفت بعدم لعن من لعنها بل جرعت من يلعنها من الكأس الذى حاول أن يجرعها حيث جعلت معيار اللعن هو عصيان الله، ثم استشهد المصنف بعد سوق هذه المسألة ببيت حسان الآنف ذكره.

والمصنف بعد أن يشرح ما تضمنت الأحاديث النبوية من صور بيانية، فإنه قد يختم بحثه بإصدار حكم على تلك الصور التى شرحها، ومثاله: «فقد اشتمل الحديث على هذه الاستعارات التى بلغت فى الرشاقة والحسن كل غاية، وما ذاك إلا لأنه قد صار قمر البلاغة وهلال هالتها، وشمس الفصاحة، وطراز غلالتها»[4]، وهذا الحكم قد استند إلى ما شرحه وأظهره من صور بيانية وردت فى الحديث؛ بمعنى أنه لم يكن حكمًا مجازفًا به بل كان حكمًا مسبوقًا بالأدلة الواضحة.

---

(1) ينظر: الخطاب والنص "المفهوم– العلاقة– السلطة"، د. عبد الواسع الحميرى، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، عام 2008م، بيروت، لبنان، 45، 207، 208.

(2) البيت من الوافر، وهو ثابت فى ديوان حسان بن ثابت. ينظر: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، وضعه وضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقى، دار الكتاب العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 61.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 313، 314.

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 205.

وأخيرًا لقد جعل المصنف التشبيه المضمر الأداة- التشبيه البليغ- الذى لو قُدّر فيه آلة التشبيه لنزل قدره، ولخرج عن ديباجة بلاغته من المجاز، ونظر إلى كون الكناية من المجاز، ليست من الحقيقة فى شىء، لأن الأخذ بالمعنى الحقيقى فى الكناية يجعلها بلا قيمة جمالية وبلا غرض فى السياق الذى وردت فيه.

أما مجاز الإفراد فهو ما يقع فى الألفاظ المفردة، فإذا حصل المجاز فى الإسناد فهو المجاز المركب، وذلك لأن الإسناد لا يقع إلا فى التركيبات، وجعل إمكانية تحقق كل واحد منهما على حدة فى الجمل، وقد يجتمعان فى موضع واحد، وقد أطلق على الاستعارة المرشحة موشحة أخذاً من التوشيح، وهو ترصيع الجلد بالجواهر تحمله المرأة من عاتقها إلى كشحها، وقد كان حد المجاز وضابطه عند المصنف هو استعمال الشىء فى غير ما وضع له فى أصل اللغة، وكان يسميه المعنى الحقيقى، سواء كان الاستعمال فى الإسناد لغير فاعله الحقيقى أم كان فى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أم كان فى إقامة المسبب مقام السبب أم كان بالنقصان أو الزيادة أم كان فى إيراد العموم للخصوص، وقد اتسعت دائرة المجاز عند المصنف ليضاف إلى مجازية الأسماء والأفعال مجازية الحروف التى استعملت للدلالة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة، فضلاً عن الألفاظ التى خرجت عن القياس الصرفى المطرد، وكان كل ما سبق من المجاز اللغوى، أما ما خرج عن حقيقة الاصطلاح الشرعى فهو مجاز من جهة العرف الشرعى.

ولم تكن جهود المصنف مقتصرة على هذا بل تعدت إلى النظر إلى القيم الجمالية للصور البيانية وغاياتها وفوائدها، وقد يتوج بحثه البيانى بخاتمة تحمل فى طياتها حكمًا يظهر مدى بلاغة النص النبوى، وحسن مواقع الصور البيانية فيه.

المبحث الثالث

جهوده فى علم البديع

لقد ذكر الإمام يحيى بن حمزة أنَّ علم البديع علم يختص بالفصاحة والبلاغة، ولا يختص علم البديع بشىء سواهما، وعلّة اختصاص علم البديع بالفصاحة والبلاغة فى نظر المصنف، فى كونه يرى أنَّ علم البديع هو الغاية القصوى فى تحسين الكلام، ولولاه لم تر لساناً يحوك الوشى من الكلام[1]، فيا ترُى لمَ جعل المصنف علم البديع هو الغاية فى تحسين الكلام ؟

إن المصنف انطلق فى حكمه على أنَّ علم البديع هو الغاية فى تحسين الكلام من منطلق اعتبار علم الإعراب أخصّ من علم اللغة، وعلم المعانى أخصّ من علم الإعراب، وعلم البيان أخصّ من علم المعانى، وعلم البديع أخصّ من علم البيان[2]، فيكون الحاصل من هذه التخصيصات؛ أنَّ علم البديع هو أخصّ علوم العربية، فلزم أنْ يكون هذا العلم– علم البديع– الغاية فى تحسين الكلام من منطلق هذه التخصيصات، ثم إنَّ المصنف قد نظر إلى علم البديع بأنه الغاية فى تحسين الكلام من جهة اختصاصه بالفصاحة والبلاغة؛ وللتعرّف على ما شرح المصنف من مباحث علم البديع التى تضمنت الأحاديث النبوية الشريفة، لا بد من التعرّف– أولاً– على ما تختص به الفصاحة والبلاغة، والفروق الحاصلة بينهما فى نظر المصنف.

ماهية الفصاحة والبلاغة

لقد أنكر المصنف أنّ الكلام الفصيح والبليغ ما لم يكن سلسًا مألوفًا، وجعله بالعكس؛ فالكلام الفصيح والبليغ ما كان فى غاية السلاسة بدليل أنَّ ألفاظ القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة فى غاية السلاسة، وحسن التّأليف والرقّة والعذوبة[3]، وعندما شرح ما تضمنته الأحاديث النبوية الشريفة من مباحث علم البديع، فإنه أظهر ما انطوت عليه الفصاحة والبلاغة، فبرز من كلام المصنف مؤشرات تظهر ما تختص به الفصاحة والبلاغة، والفروق بينهما، ومثاله قوله: «الأسلوب الثالث: الفصاحة اللفظية، وأنت إذا جردّت الفكرة فى مفردات هذا الحديث وجدتها فى غاية الخفّة والسلاسة، ليس فيها ثقل، ولا فى تركيب الحروف تنافر، وإذا نظرت أيضاً فى تأليف هذه المفردات وجدتها فى غاية الحسن والرشاقة. . .

---

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 159.

(2) ينظر: نفسه.

(3) ينظر: نفسه، 1/ 181.

الأسلوب الخامس: البلاغة المعنوية، وأنت إذا فكرت فى سياق هذا الحديث، وما تضمنه من المعانى البالغة فى الوعظ والدالة على الزجر ما فيه الكفاية من الوعظ لمن اتّعظ، وبلاغ لمن ازدجر، ولنقتصر على ما أوردناه، ففيه كفاية لمن كان له أدنى ذوق فى علوم البلاغة»[1].

يظهر من كلام المصنف أنَّ البلاغة تختص بمعانى التركيبات دون الألفاظ المفردة؛ أىْ أنها تحصل فى المعانى الناتجة من الكلام المركب على هيئة مخصوصة ونسق متفرد، والمعانى البلاغية التى تتحقق فى التركيبات، لا بد لها من ألفاظ حسنة، لأنَّ التركيبات تبنى بألفاظ، وإذا كانت التركيبات لا تحصل إلا بألفاظ، فإنَّ الكلام لا يوصف بكونه بليغاً إلا إذا جمع حسن اللفظ، وجودة المعنى[2]

أما الفصاحة، فهى من عوارض الألفاظ بالإضافة إلى معانيها المفردة والمركبة هذا إجمال؛ وتفصيله الفصاحة تختص بالمفردات من حيث خفتها وسلاستها وخلوها من الثقل وتنافر الحروف فضلاً عن معانيها – فى حالة الإفراد – التى لا يمجها السمع، وينبو عنها الطبع، وهذا قبل وضعها فى التركيب، وتختص الفصاحة أيضاً بمعانى الألفاظ فى التركيب، وهذا التأويل يُظهره، ويؤكده قوله: «وإذا نظرت أيضاً فى تأليف هذه المفردات وجدتها فى غاية الحسن والرشاقة»، فهو لا يقصد إلا أن معانى الألفاظ فى سياق الحديث النبوى فى غاية الحسن.

وهنا يمكن القول لقد جعل المصنف الفصاحة من متعلقات الألفاظ باعتبار ما دلّت من حسن المعنى ورشاقته، والبلاغة جعلها مختصة بالكلام المركب الذى يجتمع فيه حسن اللفظ وجودة المعنى[3]، فتكون الفروق الظاهرة أنَّ البلاغة أعمّ من الفصاحة، فكل كلام بليغ لا بد أنْ يكون فصيحًا، ولا يلزم فى كل ألفاظ فصيحة فى الكلام أن تكون موصوفة بالبلاغة، والبلاغة ورودها فى المعانى الحاصلة من التركيب دون معانى الألفاظ المفردة، والفصاحة تكون فى الألفاظ المفردة ومعانيها كما تكون فى معانى الألفاظ حال ورودها فى الكلام المركب، ولذا توصف الكلمة المفردة بأنها فصيحة، ولا توصف بأنها بليغة[4].

وفيما يخص الفصاحة، فإن المصنف خصّ بعض الأحاديث بكون ألفاظها جزلة، وفى أحاديث أخرى قال إن ألفاظها غاية فى الرقّة، ومثاله قوله – فى جزالة ألفاظ الحديث الثانى –: «فأنت إذا أعملت الفكرة فى سياق هذا الحديث وجدته قد أحرز نهاية الوعظ، وأرشد إلى المصالح الأخروية، والآداب الدينية، ولم يألُ جهدًا فى الترغيب، والترهيب مع جزالة الألفاظ، وبلاغة

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 469.

(2) ينظر: الطراز، 1/ 125.

(3) ينظر: نفسه، 1/ 125، 130، 130.

(4) ينظر: الطراز، 1/ 133.

المعانى»[1]، ومثاله قوله– فى رقّة ألفاظ الحديث الثالث عشر-: «النكتة الثالثة: الفصاحة فى الألفاظ، فإنك إذا فكرت فى مفردات هذا الحديث وجدتها فى غاية ما يكون من الرقّة والسلاسة والخفّة على الأسماع لم تختصّ بالنزول، فيكون فيها ركّة وثقل ولأدخلت فى الغرابة، فيكون فيها عنجهانية وتقعر»[2]، وهنا يتبادر سؤال: أتخصيصه قائم على رؤية تعتمد على أسس أم هو حكم عام ليس إلا ؟

إنَّ المقصود بالجزالة فى اللفظ أنْ يكون مستعملاً فى قوارع الوعيد ومهولات الزجر وأنواع الوعيد، والمقصود بالرقّة فى اللفظ أنْ يكون مستعملاً فى الملاطفات واستجلاب المودة والبشارة بالوعد[3]، وقد وضّح النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– فى الحديث الثانى أنْ عزّ الدنيا لا يدوم مع العبد لأنّ الذل يتعقبه، وأنّ الحياة بما تنطوى عليه من تنافس على عزّها وشرفها الزائلين يتعقبها الموت، وذكر أنَّ العقاب مترتب على عمل السيئات، وإسلام العبد للعذاب مترتب على أعمال العبد غير المقبولة عند الله– سبحانه وتعالى–[4]، فحصل أن ألفاظ الحديث قد استعملت فى قوارع الوعيد ومهولات الزجر، ولذا وصف المصنف ألفاظ الحديث بالجزالة.

وفى الحديث الثالث عشر دعا النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– بالرحمة لمن أنفق إنفاقًا يأجره الله– سبحانه وتعالى– عليه، ونزّه لسانه عن الكذب، وأمسك بزمام شهواته، وتغلب عليها، وخالف هواه ونفسه الأمارة بالسوء[5]، فحصل أنَّ هذه الألفاظ التى وردت فى الحديث قد استعملت فى الملاطفة بالدعاء، والبشارة بالوعد، ولذا وصفها المصنف بالرقّة.

الجناس

بعد ظهور اختصاص البلاغة بالمعانى والفصاحة بالألفاظ، وأنَّ البلاغة أعمّ من الفصاحة، وانقسام الألفاظ إلى جزلة ورقيقة، فإنه يمكن النظر فيما يخص المحسنات البديعية اللفظية، حيث تناول المصنف مواضع ورودها فى الأحاديث النبوية، فعن التجنيس– الجناس– أظهر المصنف مواضع وروده، مع تحديد أنواعه، ومنه قوله: «الأسلوب الثانى: من كلامه التجنيس، فقوله: «أفضل»، و«أفضل» من التجنيس، وقوله: «إنّ»، و«إنّ» من الجناس، وهكذا قوله: «أعلى»، و«أعقل» من التجنيس الناقص،

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 192.

(2) نفسه، 1/ 364.

(3) ينظر: الطراز، 1/ 115، 116.

(4) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 187– 190.

(5) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 368، 369.

فأما «أفضل» و«أفضل» من التجنيس الكامل كما ترى»[1].

لقد جعل المصنف التجنيس على نوعين:

النوع الأول: التجنيس الكامل، ويحصل فى تكرار لفظة بعينها مع تفرد كل واحدة منهما بمعنى يخالف الأخرى[2]؛ فـ (أفضل) تكررت مرتين، ولكن الأولى دلّت على أن الأفضل من تواضع وزهد وأنصف وحلم، والثانية دلت على أن الأفضل من اكتفى من الدنيا باليسير المُبلغ[3]، فاختلفت صفات المفضل فى كلا التفضيلين ، فحصل اختلاف المعنى فى اللفظتّين مع اتفاقهما فى عدد الحروف وترتيبها ونوعها وحركتها، ولذا كان تجنيسًا كاملاً، والحال نفسه فى (إنّ)، حيث جاءت (إنّ) الأولى لتأكيد معنى التفضيل الأول، وجاءت (إنّ) الثانية لتأكيد معنى التفضيل الثانى، وإذا ظهر اختلاف التفضيلين الأول والثانى من جهة صفات العبد المفضل، فإن هذا الاختلاف واقع فى التأكيد بـ (إنّ)، فكان تجنيسًا كاملاً.

النوع الثانى: التجنيس الناقص، ويحصل عندما يفقد الجناس الكامل أحد تلك الاتفاقات سواء فى عدد الحروف أم ترتيبها أم فى بعض أنواع الحروف أم حركتها[4]، كما هو ظاهر فى (أعلى)، و(أعقل)، فقد حصل الاختلاف فى نوع بعض الحروف، ممّا أخرجه من التجنيس الكامل إلى التجنيس الناقص.

الترصيع

من المحسنات اللفظية الواردة فى الأحاديث النبوية الشريفة الترصيع، وقد بيّن المصنف مواضع ورودها، شرحها، ومنه قوله: «الأسلوب الثانى: الترصيع، ومثاله: «فما عرض لهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه»، فقد تقارنت السجعتان فى الكلام والأوزان والأعجاز، فلا جرم كان ترصيعًا»[5]، إن (رفضوه) قد اتفقت فى الوزن مع (وضعوه) فضلاً عن اتفاقهما فى نوع حروف الأعجاز، وهما الضميران (الواو)، و(الهاء)، ولذا كان ترصيعًا[6]، والمصنف لم يورد تعريف الترصيع لغرض التنظير له، وإنما عرفه كى يوضح ويبسط ويقرب للقارئ ما استخرجه من ترصيع، وذكر المصنف لبعض تعاريف وأقسام وأنواع علوم البلاغة من هذا القبيل.

---

(1) نفسه، 1/ 433.

(2) ينظر: الطراز، 2/ 355، 356.

(3) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 434- 454.

(4) ينظر: الطراز، 2/ 359- 372.

(5) الأنوار المضيئة، 1/ 553.

(6) ينظر: الطراز، 2/ 373.

الطباق

الطباق من المحسنات البديعية اللفظية التى وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة، وكان له النصيب الأوفر من الشرح، وذلك لكثرة وروده فى الأحاديث النبوية الشريفة، وللمصنف فى هذا المحسّن تفصيل يمكن إبرازه من خلال قوله: «الأسلوب الثالث: الطباق، وهذا نحو قوله: «قليل»، و«كثير»، فإنه طباق لفظى ومعنوى، فأما قوله: «يكفيك»، و«يطغيك»، فإنه معدود فى الطباق المعنوى؛ لأنّ الغرض بقوله: «يطغيك» أىْ: لا يكفيك، وهكذا قوله: «تحزن»، و«تفرح»، فإنهما طباق لا محالة، والغرض من الطباق: هو تقابل النقيضين من جهة اللفظ والمعنى، أو من جهة أحدهما، فهذه الأساليب كلها دالة على البلاغة الرائقة واللطائف البديعة»[1]، ويظهر من كلامه هذا أنَّ حصول الطباق يكون بتقابل النقيضين أو الضدين، ثم فرّعه إلى فرعين:

الأول: يتمثل فى تقابل النقيضين من جهة اللفظ والمعنى، فـ (القليل) نقيضه (الكثير) فى اللفظ والمعنى.

الثانى: يتمثل فى تقابل النقيضين من جهة المعنى فقط، حيث معنى (يطغيك) لا يكفيك، فحصل من هذا المعنى المناقضة لـ (يكفيك)، أىْ من جهة المعنى دون اللفظ؛ لأنّ (يطغى) ليس اللفظ الذى يستعمل ضد (يكفى) من جهة اللفظ.

والمصنف لا يفرق بين الطباق والمقابلة، فهو يرى أنّ المقابلة من جملة الطباق، ويظهر عدم تفريقه قوله: «**الصنف الرابع: الطباق**، وهذا كقوله: «خير»، و«شرّ»، وقوله: «المؤمن»، و«الفاسق»، فإن ما هذا حاله معدود فى الطباق؛ لأنّ حاصل الطباق: ذِكر النقيضين والضدين»[2].

إنّ نصّ هذا المحسّن البديعى فى الحديث النبوى الشريف: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنَّ نِيَّةَ الْفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ»[3]، والمقابلة: هى أنْ يُؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب[4]، وحدّ المقابلة هذا منطبق على ألفاظ الحديث، فقد ذكر النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– لفظتى (المؤمن)، و(خير)، ثم أتى بما يقابلهما (الفاسق)، و(شرّ) على الترتيب، ولكنَّ المصنف نظر إلى كونه طباقاً.

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 491.
(2) الأنوار المضيئة، 1/ 280.
(3) الأربعون حديثًا السيلقية، 20.
(4) ينظر: شروح التلخيص، 4/ 297، 298.

لزوم ما لا يلزم

وفضلاً عمّا سبق من المحسنات البديعية اللفظية، فإن لزوم ما لا يلزم قد ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة، وشرحه المصنف حيث بيّن مواضعه مسبوقاً بتعريف له، وأشار إلى أنّه يرد- أيضًا- فى القرآن الكريم، واستشهد بآيات قرآنية، ومثاله قوله: «الأسلوب الرابع: لزوم ما لا يلزم، وهو أنْ يلتزم الناثر والناظم يضيقان على أنفسهما فى التزامه، بأن يكون آخر الكلمتين يتفقان فى حرفين أو ثلاثة، ومثاله: قوله عليه السلام: «العفاف»، و«الكفاف»، فإنهما متفقان فى أحرف ثلاثة، وهذا لا يلزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾[1]، وقوله:﴿ ٱلْخُنَّس ﴾[2]، و﴿ ٱلْكُنَّسِ ﴾[3]، وقوله:﴿ تَقْهَر ﴾[4]، و﴿ تَنْهَرْ ﴾[5] فى سورة الضحى، إلى غير ذلك. . .»[6]، ولم يكتفِ المصنف بتحديد مواضع لزوم ما لا يلزم فى الحديث النبوى الشريف بل تعداه إلى تعريفه، فضلاً عن ذكر وروده فى القرآن، والاستدلال عليه بإيراد شواهد من القرآن الكريم، وعلى الرغم من أنه فى إزاء توضيح ورود لزوم ما لا يلزم فى الحديث النبوى لا القرآن الكريم، إلا أنه أشار إلى وروده فى القرآن الكريم، وذكر شواهد قرآنية عليه، ولعل ذلك راجع إلى قلّة ورود هذا المحسّن فى القرآن الكريم، ممّا يجعل القارئ يتوهم عدم وروده فى القرآن الكريم بسبب تلك القلة، ولعل المصنف أشار إلى وروده فى القرآن الكريم لدفع ذلك التوهم، فمنح القارئ فائدة قد تكون غائبة عنه للعلة ذاتها، أما علّة قلة ورود هذا المحسن فى القرآن الكريم والسنّة النبوية، فلأنه غير لازم من الإتيان به فى البلاغة والفصاحة[7].

السجع

كما حصل فى المحسن اللفظى لزوم ما لا يلزم من تعريج المصنف فى الإشارة إلى وروده فى القرآن الكريم- لفوائد تمّ توضيح بعضها- وهو فى إطار توضيح مواضع وروده فى الأحاديث النبوية لا غير، فإنّ المصنف فعل ذلك عند شرحه مواطن المحسن البديعى اللفظى التسجيع- السجع- فى الأحاديث النبوية الشريفة، ويوضحه هذا المثال من شرحه: «الضرب الأول: التسجيع،

---

(1) سورة الطور الآيتان 1، 2.
(2) سورة التكوير من الآية 15.
(3) السورة نفسها من الآية 16.
(4) سورة الضحى من الآية 9.
(5) السورة نفسها من الآية 10.
(6) الأنوار المضيئة، 1/ 433، 434.
(7) ينظر: الطراز، 2/ 397- 400.

وقد اختار الله لكتابه الكريم من أنواع البلاغة السجع، فإنه داخل فيه كثيرًا، وما ذاك إلا لأنه داخل فى البلاغة أحسن موقع. . .»[1]، ولهذه الإشارة سبب وفائدة، أما السبب، فهو الحضور الكثير للتسجيع فى الأحاديث النبوية التى شرحها المصنف حيث كانت فى المرتبة الثانية بعد الطباق من جهة الورود، فكأن المصنف أراد أنْ يبرز أنَّ كثرة ورود هذا المحسّن فى الأحاديث النبوية ليس مستغربًا، لأنّ القرآن الكريم يمتاز بهذه الكثرة، وهو المثل الأعظم فى الفصاحة والبلاغة، ولذا ففائدة هذه الإشارة- أىْ قوله أن التسجيع ورد كثيرًا فى القرآن الكريم- هى التنويه على أنّ سرّ كثرة التسجيع فى كليهما- أىْ القرآن الكريم والسنّة النبوية- راجع لموقعه الحسن فى الكلام، ولكن كيف يرِد التسجيع فى أحاديث النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- وهو من أنكر سجع الكهان، وسجعًا كسجعهم[2]؟

لم ينكر النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- السجع مطلقًا، وإنما أنكر سجعًا مخصوصًا وهو سجع الكهان، لأنّ أكثر أخبارهم عن الأمور الكونية والأوهام الظنية على جهة السجع، ولو لم يكن جائزًا لما أتى عليه أفصح الكلام وهو كلام الله تعالى فى القرآن الكريم[3].

وقد فصّل المصنف القول فى أنواع التسجيع الوارد فى الأحاديث النبوية الشريفة، ومثاله قوله: «الصنف الأول: السجع، ويقع على أوجه ثلاثة:

أولها: أن تتفق الكلمتان فى الوزن، وفى أعداد الحروف، وما هذا حاله يلقب بالمتوازن، ومثاله: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « حسنت خليقته، وصلحت سريرته ».

وثانيها: أن تتفق الكلمتان فى الأعجاز، وتختلفا فى الوزن، ومثاله قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله»، فما هذا حاله يلقب بالمطرّف.

وثالثها: أن يتفقا فى الوزن ويختلفا فى الأعجاز، ويلقب بالمتوازى، ومثاله قوله: «نسينا كل واعظة، وأمنّا كل جائحة»»[4]، وفضلاً عن ذكره لأنواع التسجيع الثلاثة، فإنه ذكر الغرض من التسجيع، وقيمته البلاغية حيث قال: «الأسلوب الأول: التسجيع، وهذا

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 205.

(2) قال أبو هريرة: اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها، وما فى بطنها، فاختلفوا إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، فقضى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أن دية المرأة على عاقلتها وورثها ولد ومن معهم، فقال حمل بن النابغة الهذلى: كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل؟! فمثل ذلك بطل، فقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إنما هذا من إخوان الكهان»، من أجل سجعه الذى سجع. ينظر: صحيح مسلم، 3/ 1309. وفى رواية: «أسجع كسجع الكهان». ينظر: الطراز، 3/ 20.

(3) ينظر: الطراز، 3/ 20.

(4) الأنوار المضيئة، 1/ 179، 180.

حاصل فى قوله: «يطغيك»، و«يكفيك» وقوله: «تقنع»، و«تشبع»؛ والغرض بالسجع تحريك الخواطر، إلى قوله، وإصغاء الآذان إلى سماعه، فإن الكلام مهما كان مزدوج الإعجاز متشابهة أواخر الكلم منه، فإنه يقع موقعًا عظيمًا فى القلوب، وتتلقاه الأفئدة بالقبول»[1]، ولعل تحريك السجع لخواطر المستمعين عند سماع خطابه صلى الله عليه وآله وسلم من أسباب كثرة التسجيع فى الأحاديث النبوية الشريفة، فضلاً عن موقعه العظيم فى القلوب مما يجعلها تتلقاه بالقبول.

الاقتباس

وفيما يخص الاقتباس كونه من المحسنات البديعية اللفظية، فقد شرحه المصنف لورده فى الأحاديث النبوية، ومنه قوله: «النكتة الخامسة: الاقتباس، وهو إيراد آية من الكتاب الكريم دالة على تقرير المعنى السابق لها، ومناسبة وملائمة لمقصوده، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾[2] أوردها الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- عقيب ما حكاه من حال المظلوم والظالم، وما انتهى حالهما فى إصلاح الحال بلطف الله تعالى وكرمه وعظيم إحسانه، فلهذا أوردها بعد ذلك على جهة التتمّة والتكملة لما قبلها، فقد وقعت ياقوتة لوشاحه، وشعلة فى مصباحه وذرة فى تاجه، وزيتونة سراجه، وغلالة ديباجه، ويستعمله الفصحاء كثيرًا، ويرد على وجهين:

أحدهما: أن يكون الوارد آية بكمالها وتمامها، وهو الأكثر فى الإيراد، والأوسع فى الاستعمال، وهو الذى يحصل به الجمال والأبهة كما حكيناه هاهنا فى إيراد هذه الآية عقيب كلامه

وثانيهما: أن يكون الوارد بعض الآية، كما يقال: يا أيها الناس، ويا بنى آدم فى أول الخطاب لا غير، فما هذا حاله يعد فى الاقتباس، لكنه دون الأول فى البلاغة وحسن الموقع. . .»[3].

سبق القول: إنّ إيراد المصنف للتعاريف والحدود والأقسام من قبيل التوضيح والتبسيط والتقريب على القارئ لما ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة من المباحث البلاغية، ولذا أورد المصنف تعريف الاقتباس، ووجوهه، وقد اشترط فى الاقتباس أنْ يكون مناسبًا وملائمًا لمعنى الكلام الذى سيق له الاقتباس، ليكون قيمة الاقتباس فى الحديث النبوى السابق متأتية من تتمته لمعنى الكلام، وقد ذكر كثرته فى كلام الفصحاء لمّا يحصل منه من جمال وأبهة، ثم ذكر أوجه وروده ليظهر إمكانيات ورده وعدم اقتصاره

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 490.

(2) سورة الأنفال من الآية 1.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 522، 523.

على شكل واحد كما فى الحديث النبوى الشريف الذى هو بإزاء شرح الاقتباس الوارد فيه، والوجهان الممكنان فى الاقتباس هما:

1- أن يكون المقتبس آية بكاملها، ومن مميزاته أنه الأكثر والأوسع استعمالاً، وبه تحصل الجمال.

2- أن يكون المقتبس بعض آية، وهو دون الأول فى البلاغة والفصاحة.

إن كلام المصنف يقتصر على أن الاقتباس من القرآن الكريم، أهو كما قال أم له كلام آخر يمكن أن يكمل ما أورده ؟

قوله الآنف عن الاقتباس من تعريف هو خاص بما ورد فى الحديث النبوى الثامن عشر حيث كان الاقتباس فيه بآية قرآنية، ولكنه قال- فى معرض شرح الحديث العاشر-: «وقد ذكرنا من قبل أن الاقتباس من علم البديع، وكما يرد فى الآيات القرآنية، وفى الأخبار الشريفة النبوية، فقد يكون واردًا فى الأبيات الشعرية، فإذا ورد البيت الشعرى مطابقًا للكلام موافقًا لمعناه كما ورد هذا البيت الذى أورده الشريف على جهة المطابقة لما دلّ عليه الحديث، فإنه لا محالة معدود فى الاقتباس»[1]، وهنا بيّن أنّ الاقتباس ليس مقتصرًا على الآيات القرآنية بل يرد- أيضاً- فى الأخبار النبوية، والأبيات الشعرية، ولأهمية ملاءمة الاقتباس لما اُقتبس له، فإنه نبهه هنا على ذلك كما نبهه سابقًا.

الإيضاح

بعد إظهار جهود المصنف عندما شرح ما تضمنته الأحاديث النبوية الشريفة من المحسنات البديعية اللفظية، فإنه يمكن الانتقال إلى جهوده فى شرح المحسنات البديعية المعنوية الواردة فى الأحاديث النبوية الشريفة، فمن المحسنات البديعية المعنوية التى تضمنتها الأحاديث النبوية الشريفة الإيضاح، وقد شرحها المصنف، ومثاله قوله: «الجنس الثالث: الإيضاح للمعانى، وحسن الكشف للمقاصد، فأنت إذا أعملت الفكرة فى سياق هذا الحديث وجدته قد أحرز نهاية الوعظ، وأرشد إلى المصالح الأخروية، والآداب الدينية، ولم يألُ جهدًا فى الترغيب، والترهيب مع جزالة الألفاظ، وبلاغة المعانى»[2]، وظاهر كلامه أنه لمّا كان الحديث واردًا لغرض الوعظ والإرشاد إلى المصالح الأخروية، والآداب الدينية، فقد جعل النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- كلامه يبلغ فى الوعظ والإرشاد النهاية المرتجاة، وهذه النهاية المرتجاة تحصل بالإيضاح لتلك الأمور الدينية، وذلك لأن الأمور الدينية تحتاج أن يكون الكلام عنها واضحًا وجليًا، ولا يحتمل أىّ لبس أو غموض، ولذا فإن النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- قد استعمل فى كلامه ألفاظًا جزلة، وجعلها فى تأليف ونظم بليغ، وكله فى سبيل إيضاح المصالح الأخروية، والآداب الدينية.

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 311.
(2) نفسه، 1/ 192.

المبالغة

المبالغة من المحسنات البديعية المعنوية التى وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة، وشرح المصنف مواضع ورودها، مع ذِكره علة الورود، ومنه قوله: «الأسلوب الثانى: المبالغة بذكر أفعل التفضيل، فإنه إنما يرد فى الكلام من أجل المبالغة فيما تناوله، وهذا كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثر منكم بسطة، وأعظم سطوة»، وقوله: «أسكن ما كانوا إليها»، و«أوثق ما كانوا بها»، فسياق الكلام بأفعل التفضيل فيه دلالة على المبالغة فيما تناوله»[1]، وقد أورد المصنف أنّ المبالغة حصلت بورود أسلوب التفضيل، وهذا التفضيل من أجل المبالغة فى إظهار ما كانت عليه الأمم الماضية من جهة امتلاك المال والقوة، فضلاً عن أخذهم بغتة، وهم سكون مطمئنون إلى ما هم فيه، ليكون من ثم لهذه المبالغة تأثير عظيم على المخاطبين ليتزودوا بالصالحات قبل أن يأخذهم الموت بغتة، كما أخذ مَن قبلهم من الأمم على الرغم أنهم فى مال وقوة، ولهذا كان للمبالغة دور فى تأثير الخطاب النبوى فى المخاطبين.

التعليل

من أجل ترسيخ الخطاب النبوى فى الأفئدة، فقد ورد من المحسنات البديعية المعنوية فى الأحاديث النبوية الشريفة التعليل، وشرح المصنف مواضع وروده، فضلاً عن ذكره مكانة التعليل فى البلاغة، وساق شواهد شعرية تنطوى على تعليلات بقصد تأكيد ما ذهب إليه من مواقع التعليل العظيمة، ومثاله قوله: «النكتة الرابعة: التعليل، وإليه الإشارة بقوله: «قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك»؛ لأنّه لمّا نظر إلى الحبرة والنعمة والجنان، قال: فلأىّ شىء أعطيت هذا قال الله: «بعفوك»، فأخرجه مخرج العلّة فى الإعطاء، وللتعليل فى البلاغة حظّ عظيم وموقع كريم يكسبه حلاوة؛ لأنّ المعانى إذا عُللت رسخت فى الأفئدة، وكان له مدخل فى القلوب لا يخفى، ومما ورد فيه قول ابن رشيق:

سَـــأَلْتُ الأَرْضَ لِـــمْ جُعِلْـــت مُـــصَلَّى ... وَلِـــمْ كانَـــت طُهْـــرًا وَطِيْبَـــا .

فَقَالَـــتْ غَيْـــرَ ناطِقَـــةٍ لأَنِـــى ... حَوَيْـــتُ لِكُـــلِّ إِنْـــسَانٍ حَبِيْبَـــا[2] .

---

(1) الأنوار المضيئة، 1/ 598.

(2) البيتان من الوافر، وهما ثابتان فى ديوان ابن رشيق القيروانى، ونصّ البيت الأول منها:

سَـــأَلْتُ الأَرْضَ لِـــمْ كانَـــتْ مُـــصَلًى ... وَلِـــمَ كانَـــتْ لنـــا طُهْـــرًا وَطِيْبَـــا .

ينظر: ديوان ابن رشيق القيروانى، شرح د. صلاح الدين الهوارى، هدى عودة، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان، 39.

ولقد أحسن غاية الإحسان، وبلغ نهاية الإعجاب فى علّة كون الأرض مسجدًا وطهورًا، وقال أبو نواس:

وَلَـو لَـمْ تُـصَافِح رِجْلُهَـا صَـفْحَةَ الثَّـرَى لَمَـا كُنْـتُ أَدْرِيَ عِلَّـةً للتَّـيَمُّمِ[1].

أراد أنها لما وطئت الأرض بأخمصها عرف أن التيمم ما جعل طهورًا إلامن أجل مماسة قدمها للأرض، فلا جرم كان التيمم»[2].

بعد أن أظهر المصنف موضع التعليل فى الحديث الثامن عشر تحدث عن مكانة التعليل العظيمة فى البلاغة، وموقعه الكريم الذى يكسبه حلاوة، ولم يكن كلامه كلامًا نظريًا بل دعّمه بالشواهد الشعرية التى تنطوى على تعليل، ولم يكتفِ بذكر الشواهد الشعرية فتعداه إلى شرح مخارج التعليلات فيها، ليكون من ثم خروجه عن شرح التعليل فى الحديث النبوى إلى شرح التعليلات فى الأبيات الشعرية من قبيل سعيه للتوضيح والتبسيط فى مسألة التعليل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان شرحه للتعليلات الواردة فى الأبيات الشعرية لتأكيد حظ التعليل العظيم فى البلاغة، وقد أورد فائدة للتعليل، وتتمثل هذه الفائدة فى أن التعليل يرسخ المعانى المعللة فى الأفئدة.

ترجيع المحاورة

فى الحديث نفسه- الثامن عشر- وكما استشهد فيه المصنف على التعليل بأبيات شعرية، فإنه شرح المحسّن البديعى المعنوى ترجيع المحاورة التى وردت فى الحديث النبوى، وذكر أبيات شعرية تنطوى على ترجيع المحاورة؛ فيا ترى ما ترجيع المحاورة ؟ وما موقعها فى البلاغة ؟ ولماذا أورد أبيات شعرية تنطوى على هذا المحسّن البديعى المعنوى ؟

قال المصنف فى المحاورة: «النكتة الثالثة: المحاورة، وهو الكلام بين العبد وربه، وإليه الإشارة بقوله: «رجلان جثيا بين يدى ربى، فقال أحدهما: خذ لى»، فقال الله للظالم: «أعط أخاك حقه. . .» إلى آخر المحاورة التى حكاها صلى الله عليه وآله وسلم فى كلامه، وهذه المحاورة وترداد الخطاب بين المتحاورين تكسب الكلام بلاغة، وتعطيه فصاحة لا يكون حاصلاً من دونها، وأعظم شاهد على ذلك ما قاله أبو نواس: . . .، ومن نفيس ما جاء فى هذا المعنى قول وضاح: . . . ، فانظر ما ألطف هذه المحاورة، بالإضافة إلى ترجيع الأقوال وتردادها، فلا جرم وقع من البلاغة بموقع»[3].

---

(1) البيت من الطويل، ولم يرد فى ديوان أبى نواس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالى، دار الكتاب العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 233- 370. وهو ثابت فى ديوان ابن هانئ الأندلسى. ينظر: ديوان ابن هانئ الأندلسى، شرح أنطوان نعيم، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان، 482.

(2) الأنوار المضيئة، 1/ 522.

(3) الأنوار المضيئة، 1/ 520- 522. وقد تم استبعاد الشواهد الشعرية من المثال لما كانت كثيرة، ولها هوامش متعددة تكشف قضايا واردة فى =

لقد وضّح المصنف أنَّ المحاورة حاصلة من ترداد الخطاب بين المتحاورين، وذكر أنّ لها مكانة فى البلاغة، وذلك فى إكسابها الكلام بلاغة وفصاحة، ولكى يُبرز ما تكسبه من بلاغة وفصاحة أشار إلى أن الضد خير من يبرز ذلك، فلو لم يرد الكلام النبوى فى الحديث الثامن عشر على جهة المحاورة لما اكتسب الكلام بلاغة وفصاحة كما اكتسبه بورود المحاورة، ثم أورد الأبيات الشعرية المنطوية على المحاورة لتكون شاهدًا على ما قاله من بلاغة وفصاحة الكلام عندما يتضمن محاورة، وهذه الشواهد لم يكن معيار المصنف فى الاستشهاد بها تضمنها المحاورة بل هى من أعظم وأنفس ما جاء فى هذا المعنى، وبعد تحديد المصنف موضع ورود المحاورة فى الحديث الثامن عشر وذِكره ماهيتها، وما تكسب الكلام من بلاغة وفصاحة، واستشهاده بنفيس الشعر المتضمن لها، فقد ختم كلامه عن المحاورة بتفضيل لطف المحاورة المطلق على غيرها بالإضافة إلى ترجيع الأقوال، ولذا فلا جرم وقع من البلاغة بموقع.

حكاية الحال

وفى الحديث نفسه– الثامن عشر– جعل حكاية الحال على نوعين، وإن كانا جميعًا من حكاية الأفعال:

الأول: حكاية الحال القولية، وتتمثل فى حكاية فعل الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– .

الثانى: حكاية الحال الفعلية، وتتمثل فى حكاية فعل غير الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–[1] .

حسن التأليف والنظم

إن المصنف عند شرحه ما تضمنت الأحاديث النبوية الشريفة من علم البديع قد يختم بحثه بكلام عن حسن التأليف والنظم الواقع فى الحديث النبوى، ومنه قوله: «الأسلوب الخامس: حسن التأليف والنظم، فإن هذه الجمل متلائمة، كأن بعضها آخذ بأعناق بعض من شدّة التلازم، ورشاقة التأليف، فإذا فكرت فى مفردات الألفاظ وجدتها من أرقّ الألفاظ وأعذبها، لا تنافر فيها، وإذا فكرت فى تأليفها ونظمها، وجدته أحسن تأليف، وأعجب نظم، فهذا ما أردنا ذكره ممّا تضمنه هذا الحديث من علم البديع، والله أعلم بالصواب»[2] .

إن المصنف يرى أنَّ حسن التأليف والنظم، يبدأ من تخيّر الألفاظ الحسنة من جهة رقتها وعذوبتها المتأتية من عدم تنافر

تلك الأبيات وتم توضيحها فى موضع ورودها .

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 520 .

(2) نفسه، 1/ 599، 600 .

حروفها، وخلوها من الثقل، فضلاً عن معانيها فى حالة الإفراد التى لا يمجها السمع وفى حالة التركيب من جهة ملاءمتها لما يجاورها من ألفاظ، فيكون من ثم الكلام المركب من هذه الألفاظ المخصوصة بالحسن له مميزات تجعله غاية فى رشاقة التأليف من تلاؤم الجمل الذى يقوى الارتباط بينها، فتكون فى أحسن تأليف، وأعجب نظم، فحسن التأليف والنظم كالبناء الحسن الذى يكمن حسنه فى تخيّر لبنات البناء الحسنة، ثم التأليف المتلائم فيما بين تلك اللبنات الحسنة، فضلاً عن التلاؤم بين أجزاء البناء، وحُكم المصنف على الحديث بحسن التأليف والنظم مبنى على أسس، وهذه الأسس متمثلة فى شرحه للجوانب البلاغية فى الحديث النبوى، ولذا تأخير المصنف لمسألة حسن التأليف والنظم فى الحديث إلى بعد الانتهاء من شرح تلك الجوانب البلاغية كان فى أحسن موقع بحيث يكون كلامه فى حسن التأليف والنظم نتيجة وخلاصة مسبوقة بالأدلة والشواهد .

وأخيرًا يمكن القول: إنّ المصنف قد جعل علم البديع علمًا يختص بالفصاحة والبلاغة، وعدّه أخص علوم العربية بوصفه الغاية القصوى فى تحسين الكلام، وقد أنكر أنْ يكون الكلام فصيحًا وبليغاً ما لم يكن سلسًا مألوفاً، ونظر إلى ذلك بالعكس؛ أىْ أنَّ الكلام الفصيح والبليغ ما كان فى غاية السلاسة معتمدًا فى هذه الرؤية على ما ورد فى القرآن الكريم والسنّة النبوية من سلاسة وحسن تأليف، وقد سعى إلى إظهار ما انطوت عليه الأحاديث النبوية من فصاحة وبلاغة، وظهر من شرحه وجود فروق بين الفصاحة والبلاغة، يمكن حصرها واختصارها فى كون البلاغة معنوية، وتختص بالتركيبات دون الألفاظ المفردة، أما الفصاحة فهى من عوارض الألفاظ سواء وهى مفردة قبل التركيب أم فى معانيها وهى داخل التركيبات، والبلاغة أعمّ من الفصاحة، فكل كلام بليغ لا بدّ أن يكون فصيحًا، وليس كل كلام فصيحًا بليغاً، والمفردة توصف بأنها فصيحة، ولا توصف بأنها بليغة.

وهو يصف الألفاظ بالجزالة إذا استعملت فى قوارع الوعيد ومهولات الزجر، ويصفها بالرقّة إذا استعملت فى الملاطفات واستجلاب المودة والبشارة بالوعد، وقد شرح المصنف مواضع ورود المحسنات البديعية اللفظية فى الأحاديث النبوية الشريفة، ومنها التجنيس– الجناس– حيث عرفه وجعله على قسمين الأول الكامل، والثانى الناقص، وقد عرّف الترصيع، والطباق، وجعل الطباق على قسمين، الأول يتمثّل فى تقابل النقيضين من جهة اللفظ والمعنى، والثانى يتمثّل فى تقابل النقيضين من جهة المعنى، وجعل المقابلة من جملة الطباق، وبعد تعريفه للزوم ما لا يلزم، فقد أشار إلى قلّة وروده فى القرآن الكريم وعلل ذلك فى كونه غير لازم من الإتيان به فى البلاغة والفصاحة، وقد أشار إلى كثرة التسجيع– السجع– فى القرآن الكريم والسنّة النبوية، لموقعه الحسن فى الكلام، وذلك بعد توضيحه وجوهه الممكنة، وفضلاً عمّا سبق فقد عرّف الاقتباس، وذكر أنه قد يكون بإيراد آية قرآنية بكاملها، وهو الأكثر والأوسع استعمالاً، وبه تحصل الأبهة والجمال، وقد يكون بإيراد بعض آية قرآنية، وهو دون الأول، وقد جمع هذه المحسنات البديعية اللفظية جامع واحد فى شرح المصنف، وهذا الجامع هو أن المصنف حدد مواضع ورودها فى الأحاديث النبوية.

والحال ذاته فى المحسنات البديعية المعنوية، فالجامع لها فى شرح المصنف هو أنه حدد مواقع ورودها فى الأحاديث النبوية، وهى الإيضاح للمعانى وحسن الكشف للمقاصد النبوية، والمبالغة، والتعليل، والمحاورة، وقد يختم المصنف بحثه المتعلق بعلم البديع فى بعض الأحاديث بذكر حسن التأليف والنظم فى الحديث النبوى، ليكون هذا حكمًا عامًا على الحديث النبوى، واستند فى هذا الحكم إلى ما سبق من شرحه للأحاديث، والمصنف قد ظهر من خلال شرحه أنه محلل أكثر من كونه مقعدًا وضابطًا لحدود هذا العلم، وما تعاريفه لبعض مباحث علم البديع إلا من باب التوضيح والتبسيط والتقريب للقارئ.

وخلاصة ما سبق من مباحث علوم البلاغة الثلاثة، لقد ظهر الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية) بمظهر المتذوق لمواضع الجمال البلاغى فى الأربعين حديثًا السيلقية، حيث قام باستخراج مواضع ورود مباحث علوم البلاغة فى تلك الأحاديث النبوية الشريفة، وليس الاستخراج مقصودًا لذاته، وإنما استخرج ما تضمنته الأحاديث النبوية من مباحث علوم البلاغة لإبراز مدى تسخير النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- علوم البلاغة فى خدمة إظهار المعانى وتوضيحها، والموقع العظيم لها فى الكلام النبوى الشريف، فضلاً عن كونها تزيد كلام النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- حسنًا ورشاقة وسلاسة على الألسن، وتجعل الكلام النبوى الشريف لا يملّ على تكرار الأيام والأزمنة، وليس ذلك وحسب بل علل ورودها بهيئاتها التى وردت عليه مع إيراد غاياتها وفوائدها، وعندما أصدر المصنف أحكامه على الكلام النبوى الشريف بالفصاحة والبلاغة وحسن التأليف والنظم، لم تكن أحكامه تأتى من فراغ بل كانت تقوم على براهين سبق وذكرها عند شرحه ما تضمنته الأحاديث النبوية الشريفة من مباحث علوم البلاغة.

ولا يخلو الكتاب من بعض التنظيرات لبعض حدود وتقسيمات وأنواع مباحث علوم البلاغة، وهى على قلتها قد وردت بقصد تقريب وتبسيط وتوضيح ما هو بإزاء شرحه فى الأحاديث النبوية.

وثمة آراء للمصنف فى قضايا بلاغية اُستشفت من ثنايا الكتاب، ومنها التوسع فى المجاز حتى شمل الاسم والفعل والحرف وما خالف المطرد من الاستعمال الصرفى، وأنّ التشبيه المضمر الأداة- البليغ- مجاز إذا كان تقدير ظهور الأداة ينزل من قدره ويخرجه عن ديباجة بلاغته، والمجاز العقلى هو مجاز لغوى مركب، وأنّ المجاز قد يحصل بالإضافة إلى العرف الشرعى، والبلاغة تحصل فى المعانى، والفصاحة فى الألفاظ، وإذا ورد اللفظ فى الزجر والوعيد فهو لفظ جزل، وإن ورد فى الملاطفة فهو لفظ رقيق.

وقد أورد الإمام يحيى بن حمزة مقدمة تماثل إلى حدّ ما المقدمات التى توضع فى الدراسات الجامعية من حيث تضمنها أهمية الموضوع ومكانته العظيمة، وأسباب اختيار الموضوع، وذِكر المنهج المتبع والقائم على التعليل العلمى، فضلاً عن الإشارة إلى الدراسة السابقة لهذا الموضوع مع ذكر إيجابياتها وسلبياتها، والإثبات بالأدلة على مغايرة طريقة شرح الإمام يحيى بن حمزة

للأحاديث النبوية لطريقة شرح المنصور بالله لها .

وقد التزم المصنف فى شرحه المنهج الذى ذكره فى المقدمة إلا ما حصل فى الحديث التاسع من إعادة ترتيب الأنظار، والذى له فيه علل علمية، وهو لا يضمن أىَّ نظر ما ليس منه، وإنْ حصل فإنه ينبه على ذلك، ويحيل القارئ على كتب أخرى لاستكمال الموضوع، وهو عند شرحه الأنظار يستخدم طريقة طرح الإشكالات على هيئة أسئلة، ثم يورد جوابات فيها تفصيل تلك الإشكالات، وهو مع مصادره قد ينقل دون الإشارة إلى صاحب القول، وينقل مع الإشارة إلى صاحب القول، وينقل مع الإشارة إلى صاحب القول وكتابه المنقول منه، وهو مع الآراء يختار ما يراه صحيحًا ولا يهمه من يوافق ذلك الرأى أو يخالف، وذلك بعد عرض الآراء مع أدلة كل رأى، وقد استشهد عند شرحه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأبيات شعرية، فضلاً عن إيراد بعض الحكم والأمثال والقصص.

وأخيرًا ظهر أن كتاب (**الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية**) فيه إثراء للمكتبات اليمنية والعربية والإسلامية، وإغناء للدارسين بما ينطوى عليه من ثقافة بلاغية– تقوم على التحليل الجمالى– ومنهج متميز يبرزان ما بلغته الدراسات البلاغية فى اليمن– مع ندرتها– فى تلك الحقبة الزمنية من تاريخها، وختامًا نسأل الله تعالى التوفيق والعون، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

القسم الثانى

التحقيق

منهج التحقيق

من العثرات التى تُرتكب فى حقّ المخطوطات هو طبعها للمتلقى كما هى لا غير، وتحقيق المخطوطة ليس مقتصرًا على عملية نسخ مخطوطة بواسطة آلة كتابة بعد أن كانت مخطوطة باليراع، لأنّ هذه العملية لا تُمتُّ للتحقيق العلمى الأكاديمى بصِلة.

ويترتب على ذلك إلغاء عدة قرون تفصل بين المتلقى وتلك المخطوطة، وما ينطوى عليها من ظروف تاريخية وثقافية واجتماعية، ومصطلحات خاصة بتلك الحقبة الزمنية، فينعكس سلبًا على مدى قدرة استيعاب المتلقى لها، والاستفادة منها لاسيما أنَّ المتلقى المعاصر قد أَلِف كتبًا ذات إحالات وتخريجات وفهارس وغير ذلك، ولذا التحقيق بالطريقة الآنف ذكرها يُوجد قطيعة تامة بينهما، فلا تؤتى ثمارها بالشكل الذى قصده مؤلفها، وهذا يدفع للعزوف عن تراثنا العظيم، وما يحمله من نفائس.

إن المنهج العلمى الأكاديمى فى تحقيق المخطوطات هو السبيل الأقوم لإنشاء اتصال حميمى بين المتلقى والمخطوطة تجعل الطرف الأول يفيد من علوم علمائنا القدماء وخبراتهم، ويضمن لتراثنا البقاء والتجديد، فضلاً عن إثراء المكتبات بتلك النفائس.

ولذا عند دراسة الباحث وتحقيقه للمخطوطة الموسومة بـ (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية) للمؤيد بالله الإمام يحيى بن حمزة العلوى، كان المنهج العلمى الأكاديمى هو المنهج الذى يناسب الدراسة التى بين أيدينا؛ وتمثّل المنهج فى الدراسة الوافية لشخصية المؤلف من ترجمة، ومؤلفات، وجهوده ومكانته العلمية، وهذا ما يخص المؤلف، أما ما يخص المخطوطة؛ فيكون بالنظر فى الدراسة السابقة لها، والمنهج المتبع عند تأليف المخطوطة، وكذلك إجراء موازنة بين مخطوطة (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية)، وكتاب (حديقة الحكمة النبوية فى تفسير الأربعين السيلقية)- الذى يُعد دراسة سابقة- للمنصور بالله الإمام عبد الله بن حمزة، فضلاً عن جهوده البلاغية فى المخطوطة من معانٍ وبيانٍ وبديع، وهذا يُعدّ الجانب النظرى[1]،أما الجانب التطبيقى، فتمثّل فى الآتى:

أولاً: اسم المخطوطة ونسبتها للمصنف، إن النُسخ المعتمدة فى هذه الدراسة والتحقيق قد ورد فيها العنوان باسم (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية، تصنيف الإمام المؤيد بالله أمير المؤمنين يحيى ابن حمزة)، فضلاً عن نسخة للجزء الثانى بخط المصنف، وقد نُسبت المخطوطة للمصنف فى المصادر والمراجع التى بين يدى الباحث[2]، مع العلم أنه لم يرد أن نُسبت المخطوطة

---

(1) ينظر: تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجى، ط7، عام 1998م، القاهرة، مصر، 84.

(2) ينظر: البدر الطالع،2/ 184. طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث،3/ 1230. الانتصار،1/ 113. الأعلام للزركلى، 8/ 143. التحف فى شرح الزلف، 271. أعلام المؤلفين الزيدية، 1126. أما بالنسبة لأمهات كتب تاريخ الأدب العربى وتراثه، فإن بروكلمان لم يورد ذكر المخطوطة عند ذكره كتب الإمام يحيى بن حمزة فى كتابه تاريخ الأدب العربى، ترجمة محمود فهمى حجازى، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1995م، القاهرة، مصر، ينظر: القسم السابع منه، 124،125. كما أنها لم ترد فى كتاب تاريخ التراث العربى، د. فؤاد سزكين، نقله للعربية د. محمود فهمى حجازى، وراجعه د.عرفة مصطفى، و د. سعيد عبد الرحيم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أشرف على الطباعة والنشر إدارة =

لغير الإمام يحيى بن حمزة، وهنا يمكن الإشارة إلى وجود مختصر لهذه المخطوطة منسوبة للمصنف، واسمه (مختصر الأنوار المضيئة)، وهو كتاب اختصر فيه (الأنوار المضيئة)، ولم يرد وصف لهذا المختصر إلا أنه موجود فى إحدى المكتبات لا غير ودون تحديد حتى اسم مكتبة واحدة توجد فيها المخطوطة[1].

لقد ورد اسم المخطوطة- فى بعض كتب التراجم[2]- باسم (الأنوار المضيئة فى شرح الأربعين حديثًا السيلقية)، وهذا من قبيل إظهار وتبيين أىّ الأحاديث التى شرحها المصنف؛ بمعنى أنه اسم أورده بعض المترجمين ليُعرّفوا أنّ الأربعين حديثًا السيلقية هى المعنية بالشرح فى مصنف (الأنوار المضيئة)، ولم تعتمد هذه التسمية على ما هو ثابت من عنوان فى المخطوطة.

ثانيًا: موضوعها، لقد أُدرجت هذه المخطوطة فى المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء مع كتب الحديث[3]، وهذا من باب كون المخطوطة تشرح الأحاديث النبوية دون الإطلاع على نوعية الشرح بمعنى أنّ الشرح هو من يحدد المجال الذى تنطوى تحته المخطوطة، فإن كان شرح الأحاديث من جهة السند فهو من علم الحديث ورجاله، وإن كان شرح الأحاديث من جهة إظهار مقاصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فهو من الفقه. . . ، والمصنف قد ذكر أنَّ باعثى الشرح للأحاديث إظهار ما خص الله نبيه محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- فصاحة المنطق والبلاغة على كافة الخلق، وذلك من خلال الإبانة عمّا اشتملت عليه الأحاديث من المجازات العالية والاستعارات البديعة[4]، وهذا ما طبقه المصنف عند شرحه الأحاديث، ولذا فهو شرح بلاغى يتكون من سفرين- جزأين- فى مجلد واحد .

ثالثًا: اختيار النسخة الأم، وقد تمّ اختيار النسخة (ج) لتكون الأم والأصل للجزء الأول من المخطوطة الذى تنشر على أساسه المخطوطة، ومن سماتها التى رشحتْها أن تكون النسخة التى على أساسها تنشر المخطوطة؛ كونها كاملة، وسليمة من أىّ بتر أو تصحيف[5]،

الثقافة والنشر بالجامعة، عام 1404هـ -1983م، الرياض، المملكة السعودية، ولعل ذلك راجع إلى أمرين، الأول: تضاريس الجمهورية اليمنية الصعبة لاسيما السلسلة الجبلية الشمالية الغربية التى تعدّ موطن المؤلف، والمخطوطة، فقد أعاقت تناقل المخطوطة على المستوى الداخلى، والخارجى. الأمر الثانى: تمسك مالكى المخطوطة بها، والحفاظ عليها قديمًا، وحديثًا مّما حال دون تسربها إلى خارج اليمن.

(1) ينظر: الأعلام للزركلى، 8/ 144. أعلام المؤلفين الزيدية، 1130.

(2) والنسخ التى استقى منها هذا العنوان ثبت أن العنوان فى بعضها هو (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية)، ومنها بمكتبة السيد محمد محمد الكبسى، والسيد محمد قاسم الوجيه، وهما نسختان اعتمدتا فى دراسة وتحقيق المخطوطة. ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1126.

(3) ينظر: فهرس مخطوطات المكتبة الغربية فى الجامع الكبير بصنعاء، إعداد احمد عيسوى، محمد سعيد، طبع بإشراف منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 57.

(4) ينظر: الأنوار المضيئة، 1/ 155.

(5) ينظر: شرح ما يقع فيه التصحيف، أحمد بن عبد الله بن سعيد العسكرى، تحقيق عبد العزيز أحمد، مطبعة الحلبى، عام1963م، القاهرة، مصر، 10- 17.

أو تحريف[1]، أو خرم، وأنها بخط ثلث ممتاز، ولا يمنع أنها أحدث من غيرها أن تكون أمًا وأصلاً لوجود السمات السابقة[2]، والتى لا تتوفر فى النسخ الأقدم منها، وبلا شك فإن هذه النسخة قد نُسخت من نسخة أقدم منها وربما أنّ النسخة المنسوخ منها قد فُقدت أو تلفت.

رابعًا: المقابلة بين النسخ، بدءًا بمقابلة النسخة الأم (ج) بالنسخة (د)، ثم مع النسخة (ك)، ثم النسخة (م)، مع تضمين الهامش ما خالفت فيه النسخ الأخرى النسخة الأم لاسيما أن الأمانة العلمية تقتضى ذلك مع تضمين الهامش الأرجح ممّا اختلف فيه، ودعمه بالأدلة[3].

خامسًا: تحرير النص المحقق على وفق القواعد الإملائية الحديثة[4]، ووضع علامات الترقيم المناسبة، وضبط المُشكل منه.

ومن الأمور الشائعة فى المخطوطة عدم التفريق بين همزة الوصل وهمزة القطع عند رسمهما، وكذلك عدم التفريق بين الألف المقصورة المرسومة طويلة والمرسومة مطوية، وعدم كتابة همزة الاسم المنتهى بألف ممدودة.

سادسًا: التعقيب فى الهامش على ما ورد على وجه غير دقيق من الصحة.

سابعًا: ضبط الآيات القرآنية مع إحالتها إلى سورها، وأرقامها، وكتابتها بالرسم العثمانى.

ثامنًا: ما يخص الأحاديث النبوية:

1- ضبط جميع حروف الأحاديث المشروحة بالشكل.

2- تخريج الأحاديث المشروحة والمستشهد بها.

تاسعًا: ما يخص الشواهد الشعرية:

1- ضبطها بالشكل.

2- نسبتها إلى قائليها إذا لم تنسب.

3- التأكد من نسبتها إذا كانت منسوبة.

4- تكملة الناقص منها فى الهامش.

5- وضع ترجمة لقائليها.

---

(1) ينظر: أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجستر أسر، إعداد وتقديم د. محمد البكرى، مطبوعات دار الكتب، عام 1969م، بيروت، لبنان، 14.

(2) ينظر: منهج تحقيق النصوص ونشرها، د. نورى حمودى القيسى، د. سامى مكى العانى، مطبعة المعارف، عام 1975م، بغداد، العراق، 11.

(3) ينظر: نفسه، 79.

(4) ينظر: نفسه، 99.

عاشرًا: تتبع أقوال العلماء مع تحديد مصادرها .

حادى عشر: ترجمة الأعلام .

ثانى عشر: إضافة عدد من العنوانات، ووضعها بين [ ] .

ثالث عشر: الشرح فى الهامش ما يحتاج إلى توضيح من الألفاظ اللغوية الغامض معانيها .

رابع عشر: وضع الفهارس العامة:

- الآيات القرآنية .
- الأحاديث النبوية .
- الآثارالمروية .
- الأبيات الشعرية .
- الأعلام .
- الأماكن .
- مصادر ومراجع الدراسة والتحقيق .
- موضوعات الدراسة والنصّ المحقق .

مكونات المخطوطة

مخطوطة (الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية) مكونة من سفرين- أىْ جزأين- يبدأ الجزء الأول بمقدمة للمصنف، وينتهى بانتهاء شرح الحديث العشرين، والجزء الثانى يبدأ بالحديث الحادى والعشرين، وينتهى بشرح الحديث الأربعين، وقد ذكر المصنف أنه انتهى من تصنيفها فى العشر الوسطى من جمادى الآخرة سنة 736هـ[1]، أىْ قبل وفاته بثلاث عشرة سنة.

إن حجم المخطوطة الكبير المكون من جزأين، والذى يبلغ عدد صفحات إحدى نسخها766 صفحة، و 622 فى نسخة أخرى يستنزف الوقت والجهد عند الدراسة والتحقيق للجزأين منها؛ لذا تمّ الاقتصار على دراسة وتحقيق الجزء الأول من المخطوطة، ومن مسوغات ذلك أنَّ مصنفها قد جعلها فى جزأين، فلم يكن التقسيم من ابتكار الباحث، ومسوغ آخر هو أنَّ هناك العديد من الدراسات قد سبقت إلى ذلك، ومنها على سبيل المثال كتاب (الأنهار الصافية فى شرح المقدمة الكافية ليحيى بن حمزة العلوى) المكون من جزأين، فقد خُصّ الجزء الأول منه بالدراسة والتحقيق من قِبل محمد على سالم، ونال به درجة الدكتوراة من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام 1982م، والجزء الثانى بالدراسة والتحقيق من قِبل عبد الحميد مصطفى السيد، ونال به درجة الدكتوراة من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام 1982م، ولذا فلا جرم اقتصار دراسة الباحث وتحقيقه على الجزء الأول، وذلك للمسوغات السابقة.

---

(1) ينظر: الأنوار المضيئة، 2 ق 190.

النسخ المعتمدة فى الدراسة والتحقيق

النسخة الأولى:

مصدرها مكتبة العلامة محمد بن القاسم الوجيه، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

عدد أوراق الجزء الأول: 95 ورقة.

عدد صفحات الجزء الأول:190 صفحة، ومقاس الصفحة: 35×25سم.

متوسط عدد سطور الصفحة: 40 سطرًا تقريبًا.

متوسط عدد كلمات السطر: 15 كلمة تقريبًا.

وهى بخط الثلث، وبشكل واضح وممتاز، وهى ملونة باللون الأسود، والأحمر، والوردى، والأزرق الفاتح، والغامق، وصفحتها الأولى، والثانية مبروزة بتشكيلة جميلة، وكذلك رأس كل حديث، وهى سالمة من البتر والتصحيف والتحريف، فضلاً عن تشكيل أغلب حروف الكلمات بالحركات، وهى نسخة تمّت مقابلتها ومراجعتها بعد النسخ مع النسخة التى نُسخت منه، وهذا ظاهر من خلال بعض التنبيهات والملاحظات المُصَحِحَة لبعض الأخطاء التى تمّت إضافتها فى الهوامش، سواء كانت أخطاء علمية أم نحوية أم أخطاء ناجمة عن التصحيف، ولذا تمّ اختيارها لتكون النسخة الأم التى على أساسها تنشر المخطوطة.

دوّن أنَّ الناسخ للجزء الأول حسين مسرع الحرابى،وتمّ نقل هذا الكتاب بعون الله لعله فى سنة 1376هـ.

وقد رُمز لها بالرمز (ج)، والنموذج المصور لبعض أوراقها فى الملحق رقم (1، 2، 3).

النسخة الثانية:

مصدرها دار المخطوطات، صنعاء، الجمهورية اليمنية، وهى مسجلة ضمن كتب الحديث برقم (22)[1].

عدد أوراق الجزء الأول: 153 ورقة.

عدد صفحات الجزء الأول: 307 صفحة، ومقاس الصفحة: 36×23سم.

متوسط عدد سطور الصفحة: 25 سطرًا تقريبًا.

---

(1) ينظر: فهرس مخطوطات المكتبة الغربية فى الجامع الكبير بصنعاء، إعداد احمد عيسوى، محمد سعيد، طبع بإشراف منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 57.

متوسط عدد كلمات السطر: 15 كلمة تقريبًا.

وهى بخط نسخى، وأغلب أحرفها غير منقوطة، ودوّن أنَّ الناسخ حسن بن يحيى النجدى فى الثالث من شهر صفر سنة1330هـ، فى هجرة الوعلية من الشرف، وقد كانت بعناية عماد الدين يحيى بن حسن .

وقد رُمز لها بالرمز (د)، والنموذج المصور لبعض أوراقها فى الملحق رقم (4، 5، 6).

النسخة الثالثة:

مصدرها مكتبة السيد محمد بن محمد الكبسى، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

عدد أوراق الجزء الأول: 74 ورقة.

عدد صفحات الجزء الأول: 149 صفحة، ومقاس الصفحة: 35×24سم.

متوسط عدد سطور الصفحة:41 سطرًا تقريبًا.

متوسط عدد كلمات السطر: 20 كلمة تقريبًا.

وهى نسخة مقروءة، خُطت بخط الثلث ملون، بالأسود، والأحمر والوردى والأخضر والأزرق، ولتزاحم سطور الصفحات- حيث ربا سطور بعض الصفحات عن واحد وأربعين سطرًا- اختلطت نقاط بعض الكلمات بنقاط كلمات السطر السابق أو اللاحق. دوّن فى آخرها: بخط الفقير إلى مولاه يحيى بن حسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن حسن بن إسماعيل بن حسن بن محمد سهيل، وكان الفراغ من نسخها سنة 1371هـ، ولعله أصح مما ورد فى أول ورقة للمخطوطة عن الناسخ لها.

وقد رُمز لها بالرمز (ك)، والنموذج المصور لبعض أوراقها فى الملحق رقم (7، 8، 9).

النسخة الرابعة

مصدرها مكتبة المصطفى– صلى الله عليه وآله وسلم– بمركز بدر العلمى والثقافى، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

عدد أوراق الجزء الأول: 196 ورقة.

عدد صفحات الجزء الأول:393 صفحة، ومقاس الصفحة :29×19سم.

متوسط عدد سطور الصفحة: 21 سطرًا تقريبًا.

متوسط عدد كلمات السطر:14كلمة تقريبًا.

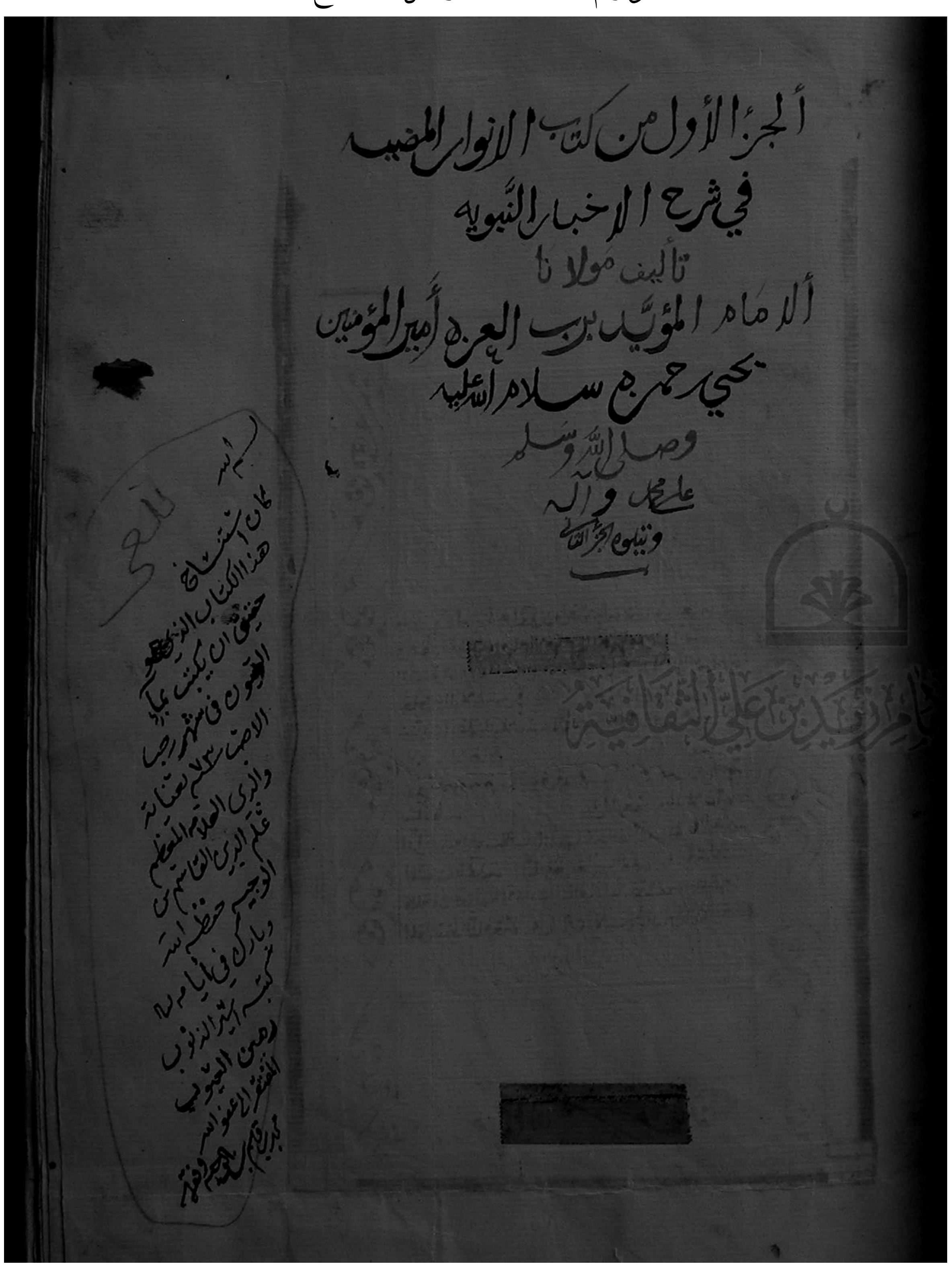
خطها جيد ومقروء.

لا يوجد بها اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ؛ لأنها مبتورة الآخر، وعليها بعض الحواشى، ويظهر أنها نسخة قديمة، وذلك ظاهر من نوع الأوراق، وخط الأوراق، وفضلاً عن وجود بتر فيها فإن حبر بعض أوراقها قد صار مطموسًا، وأغلب الحروف غير منقوطة، ويمكن الاستئناس بتاريخ وقفية المخطوطة ورد فى نهاية الجزء الأول وذلك التاريخ هو غرة الحجة سنة 1301هـ.

وقد رُمز لها بالرمز (م)، والنموذج المصور لبعض أوراقها فى الملحق رقم (10، 11، 12).

نماذج مصورة من نسخ المخطوطة

الملحق رقم (1)، الصفحة الأولى من النسخة (ج)



ألجزء الأول من كتاب الانوار المضيه

في شرح الاخبار النبويه

تأليف مولانا

ألامام المؤيد برب العزه أمير المؤمنين

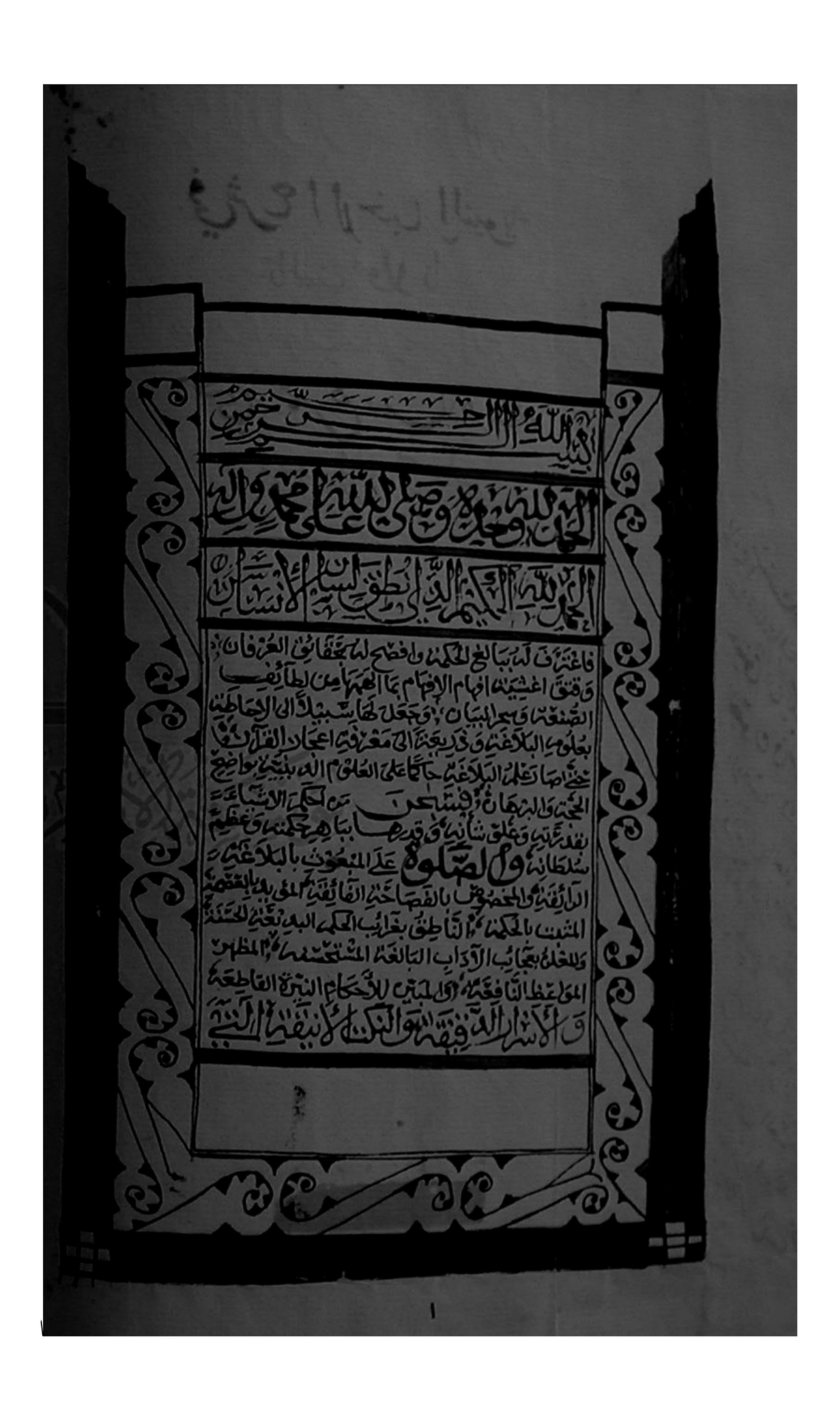
يحيى بن حمزه سلام الله عليه

وصلى الله وسلم

على محمد وآله

ويتلوه الجزء الثاني

الملحق رقم (2)، الصفحة الثانية من النسخة (ج)



بسم الله الرحمن الرحيم

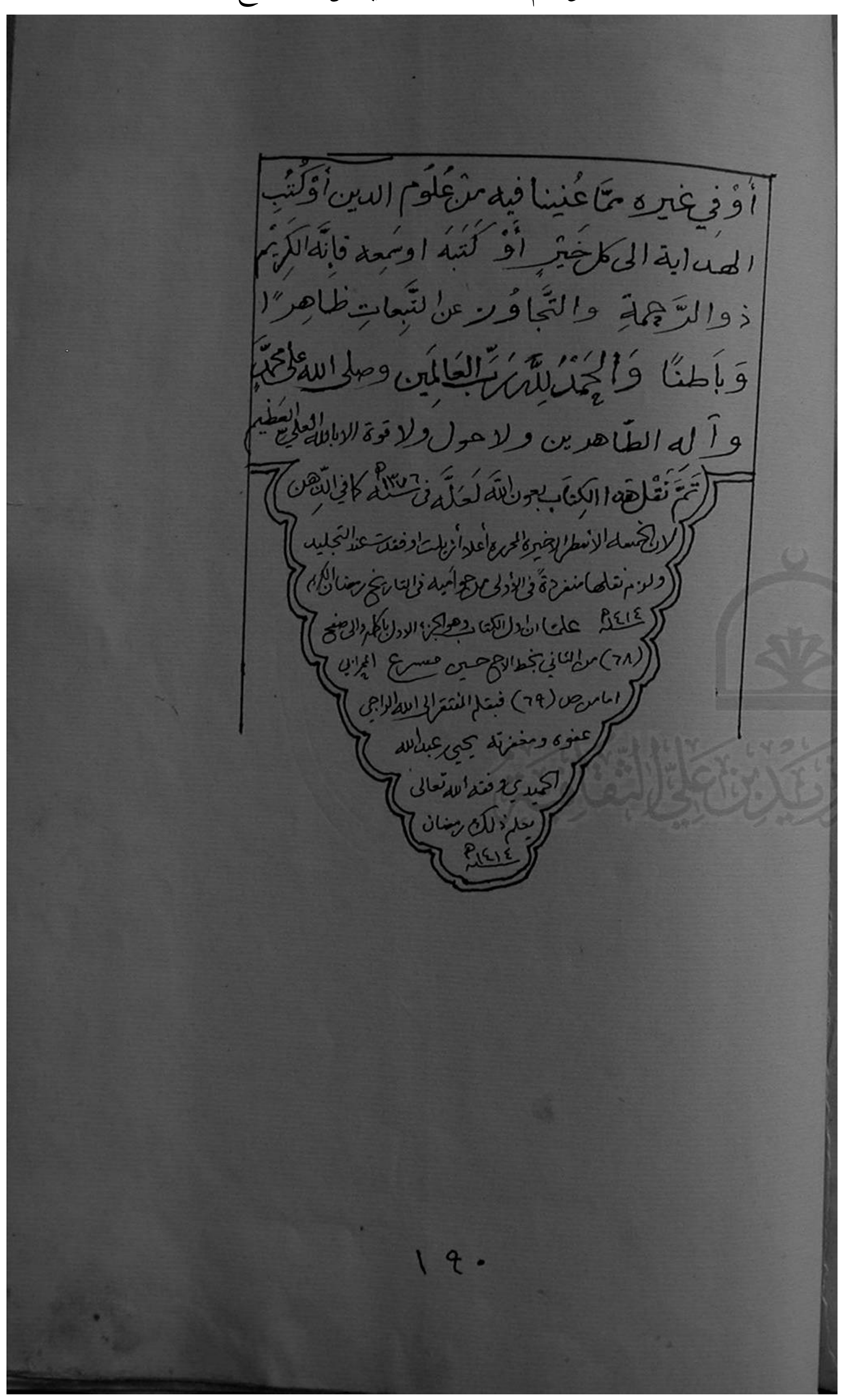
الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله

الحمد لله الحكيم الذي أنطق لسان الإنسان

فاعترف له ببالغ الحكمة وأفصح له بحقائق العرفان
وفتق أغشية أفهام الأفهام بما ألهمها من لطائف
الصنعة وسحر البيان، وجعل لها سبيلاً إلى الإحاطة
بعلوم البلاغة وذريعة إلى معرفة إعجاز القرآن
حتى صار علم البلاغة حاكماً على العلوم الأدبية بواضح
الحجة والبرهان، فسبحان من أحكم الأشياء
بقدرته وعلى شأنه وقدرها بباهر حكمته وعظيم
سلطانه والصلوة على المبعوث بالبلاغة
الرائقة والمخصوص بالفصاحة الفائقة المؤيد بالعصمة
المثبت بالحكمة الناطق بغرائب الحكم البديعة الحسنة
والمتخلق بعجائب الآداب البالغة المستحسنة المظهر
المواعظ النافعة المبين للأحكام النيرة القاطعة
والأسرار الدقيقة والنكت الأنيقة النبي

١

الملحق رقم (3)، الصفحة الأخيرة من النسخة (ج)

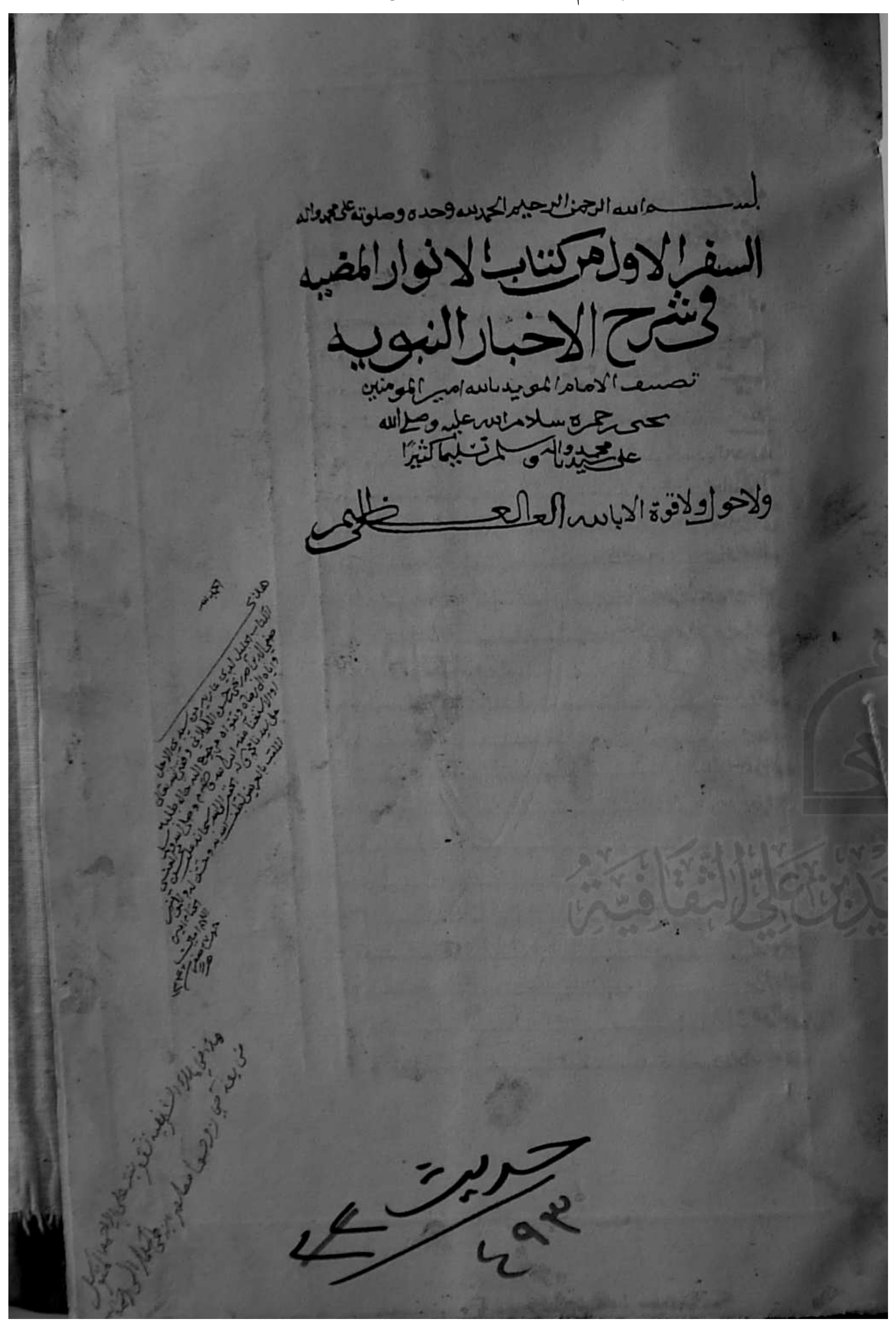


أو في غيره مما عُنينا فيه من علوم الدين أو كتب
الهداية الى كل خير أو كتبه او سمعه فإنه الكريم
ذو الرحمة والتجاوز عن التبعات ظاهراً
وباطناً والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد
وآله الطاهرين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

تم نقل هذا الكتاب بعون الله لعله في سنة ١٣٧٦هـ كافي الذهن
لان الخمسة الاسطر الاخيرة المحررة أعلاه أزيلت او فقدت عند التجليد
ولزم نقلها منفردة في الأولى من جزء أصليه في التاريخ رمضان الكريم
سنة ١٤١٤هـ علماً ان اول الكتاب وهو الجزء الاول بالكامل والى صفح
(٦٨) من الثاني بخط الاخ حسين مسرع المراني
اما من ص (٦٩) فبقلم الفقير الى الله الراجي
عفوه ومغفرته يحيى عبدالله
الحميدي وفقه الله تعالى
بعد ذلك رمضان
سنة ١٤١٤هـ

١٤٠

الملحق رقم (4)، الصفحة الأولى من النسخة (د)



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلوته على محمد واله

السفر الاول من كتاب الانوار المضيه

في شرح الاخبار النبويه

تصنيف الامام المويد بالله امير المومنين

يحيى بن حمزة سلام الله عليه وصلى الله

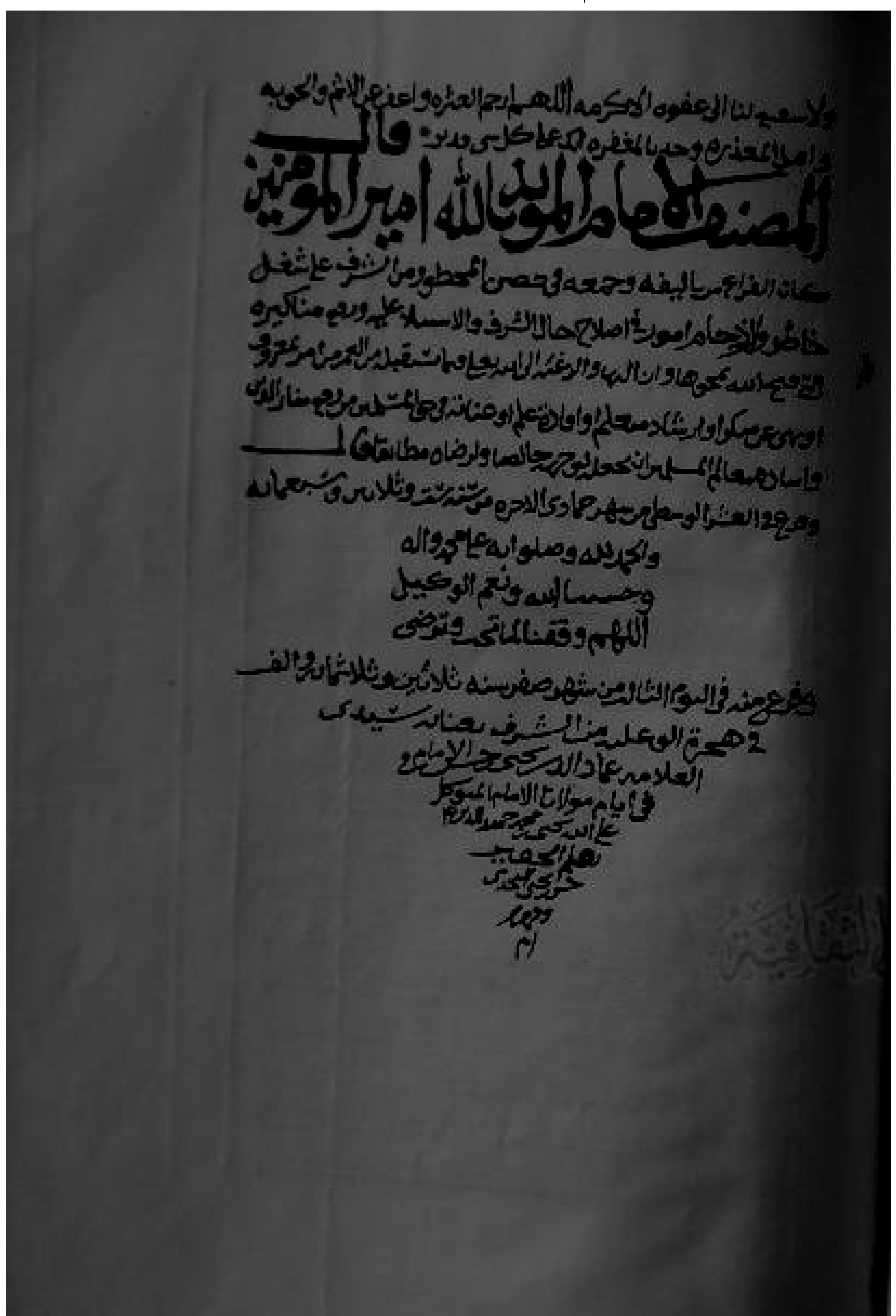
على سيدنا محمد واله وسلم تسليما كثيرا

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

الملحق رقم (5)، الصفحة الثانية من النسخة (د)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله
الحمد لله الحكيم الذي نطق لسان الانسان فاعترف له ببالغ الحكمة ووضح
له بحقائق العرفان وصدق اعتبيه افهام الاذهان بما الهمها من لطايف الصنعة
وسحر البيان وجعلها سبيلا الى الاحاطة بعلوم البلاغة وذريعة الى
معرفة اعجاز القرآن حتى صار علم البلاغة حاكما على العلوم الدينية
بواضح الحجة والبرهان **فسبحان من احكم الاشيا**
بقدرته وعلو شانه وقدرها بباهر حكمته وعظم سلطانه والصلوة على
المبعوث بالبلاغة الرايقة والمخصوص بالفصاحة الفائقة المؤيد بالعصمة
المثبت بالحكمة الناطق بغرايب الحكم البديعة الحسنة والمعلن بعجايب الادب
البالغة المستحسنة المظهر المواعظ النافعة والمبين للاحكام المنيرة القاطعة
والاسرار الدقيقة والنكت الانيقة التي فاق بها على فصاحة الفصحا وعظم
قدره واناف على بلاغة البلغا وعلى آله الطيبين جبال العلم الراسخة ومثاقيل
الحلم الراجحة قدوة من تمسك وعصمة من تنسك صلاة تعم ولا تريم انه
منعم كريم **اما بعد** فان الله عز سلطانه لما وفقني لما عنيت به من شرح كتاب
نهج البلاغة المختار من كلام امير المؤمنين علي في الخطب والمواعظ والحكم والرسائل والكتب
ومحاسن الادب وكان الباعث على شرحه غرضا ذكرناه في صدر الكتاب وكان
ذلك نعمة لا اقوم بشكرها ومنة من الله لا احصي ذكرها وذلك لما اشتمل عليه
وتضمنه من المصالح الدينية واستولى عليه من الاسرار والمقاصد الاخروية
التي فاتت العد وعدت الحد ثم اني لما وقفت على الاحاديث الاربعين السلفية
وحصلتها سماعا بطريق المصنف والعهدة عليه فيما وراء ذلك وكانت متفقا على صحتها
بين علما الحديث ونقلة الاخبار وهي من نفيس كلامه صلى الله عليه في الخطب
والمواعظ البالغة كل غاية في جلاء القلوب وشفا الافئدة عن صدا الذنوب
مع اختصاصها بشدة النفع وعظم الموقع وكلامه عليه هو الرتبة الثانية من كلام الله
تعالى في فصاحة الالفاظ وبلاغة المعاني وحسن السبك ورشاقة التاليف وهو الخضم
الذي لا يغافل والبحر الذي لا يساجل ولو كان معجز بعد كلام الله تعالى لكان هو

الملحق رقم (6)، الصفحة الأخيرة من النسخة (د)



ولا سبيل لنا إلى عفوه إلا بكرمه اللهم ارحم العثرة واعف عن الإثم والحوبة
واقبل المعذرة وجد بالمغفرة إنك على كل شيء قدير. قال
المصنف الإمام المؤيد بالله أمير المؤمنين
[illegible] الفراغ من تأليفه وجمعه في حصن [illegible] ومن الشرف على شغل
خاطر والإحجام [illegible] إصلاح حال الشرف والإقبال عليه [illegible]
[illegible] الرغبة إلى الله [illegible]
[illegible] أو إرشاد متعلم أو إفادة علم [illegible]
وإسناد [illegible] المسلمين [illegible] صالحا والرضا [illegible]
وفرغ [illegible] العشر الوسطى من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ثلاثين وسبعمائة
والحمد لله وصلواته على محمد وآله
وحسبنا الله ونعم الوكيل
اللهم وفقنا لما تحب وترضى
وفرغ منه في اليوم الثالث من شهر صفر سنة ثلاثين وثلاثمائة وألف
في هجرة [illegible] من الشرف بعناية سيدي
العلامة عماد الدين يحيى [illegible]
في أيام مولانا الإمام المتوكل
على الله يحيى بن محمد حميد الدين
[illegible]
[illegible]

الملحق رقم (7)، الصفحة الأولى من النسخة (ك)

ترجمة الكتاب

الجزء الأول من كتاب الانوار المضيئة

في شرح الاخبار

النبوية تاليف

مولانا

الامام المؤيد برب العزة امير المؤمنين يحيى بن حمزة

سلام الله وصلواته عليه

وصلى الله على سيدنا

محمد واله وسلم

الجزء الثاني

الفهرس

استنسخ هذا الكتاب الجليل الذي حوى من الترغيب والترهيب ما يشفي العليل

احوج خلق الله سبحانه الى عفوه ورضاه ومغفرته عبد الله وابن

عبده وابن امته محمد بن محمد بن محمد بن اسمعيل بن محمد بن يحيى بن احمد الكبسي غفر الله

ذنوبهم وستر عيوبهم وجميع المؤمنين والمؤمنات

لتاريخه رجب الاصب سنة 1371 احدى وسبعين وثلثمائة والف

فلله الحمد كثيرا بكرة واصيلا اسال الله

ان يفهمني معانيه والعمل

بما فيه انه ولي التوفيق

والهادي الى اقوم

الطريق

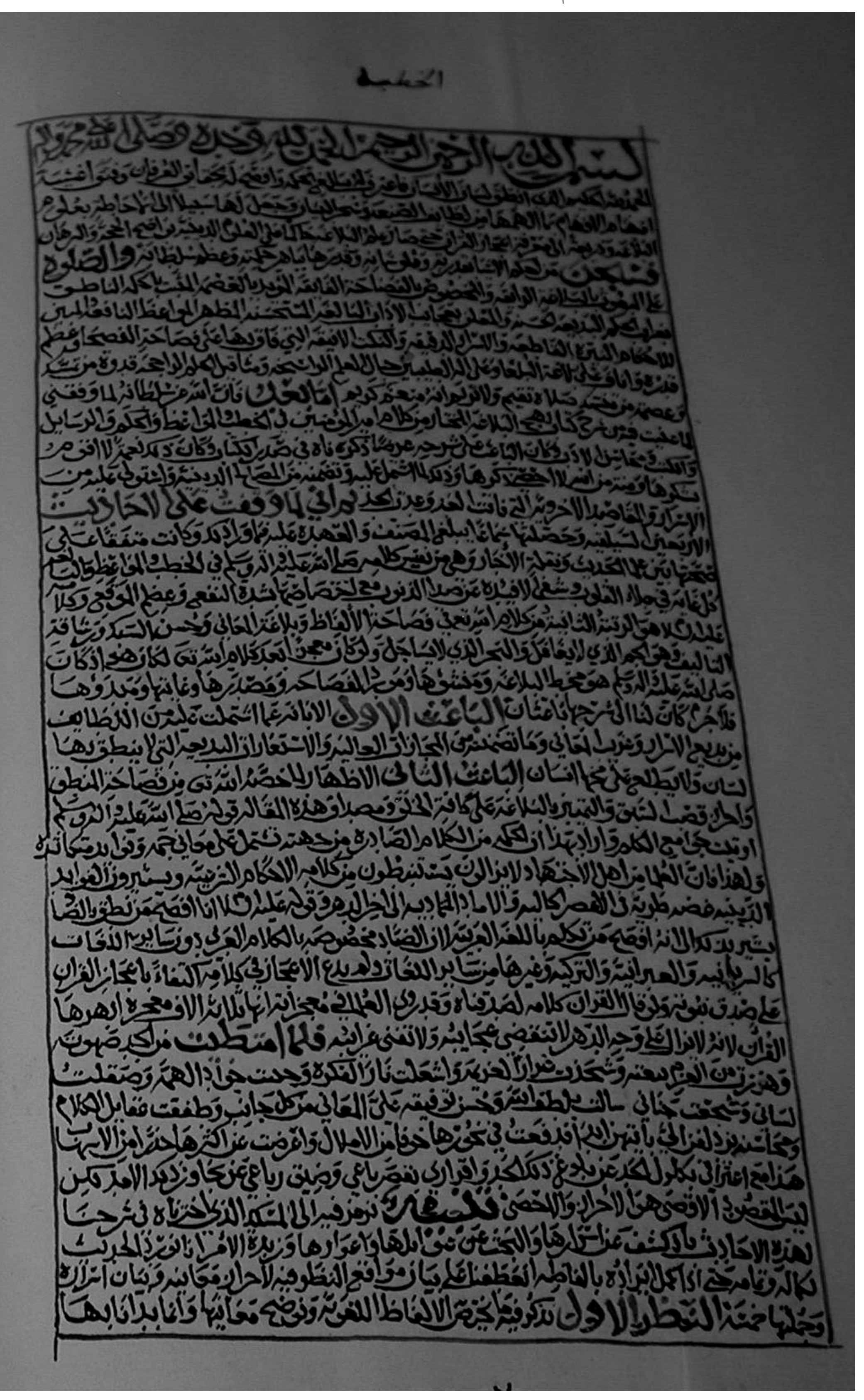
آمين آمين

آمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد واله الطيبين الطاهرين

1

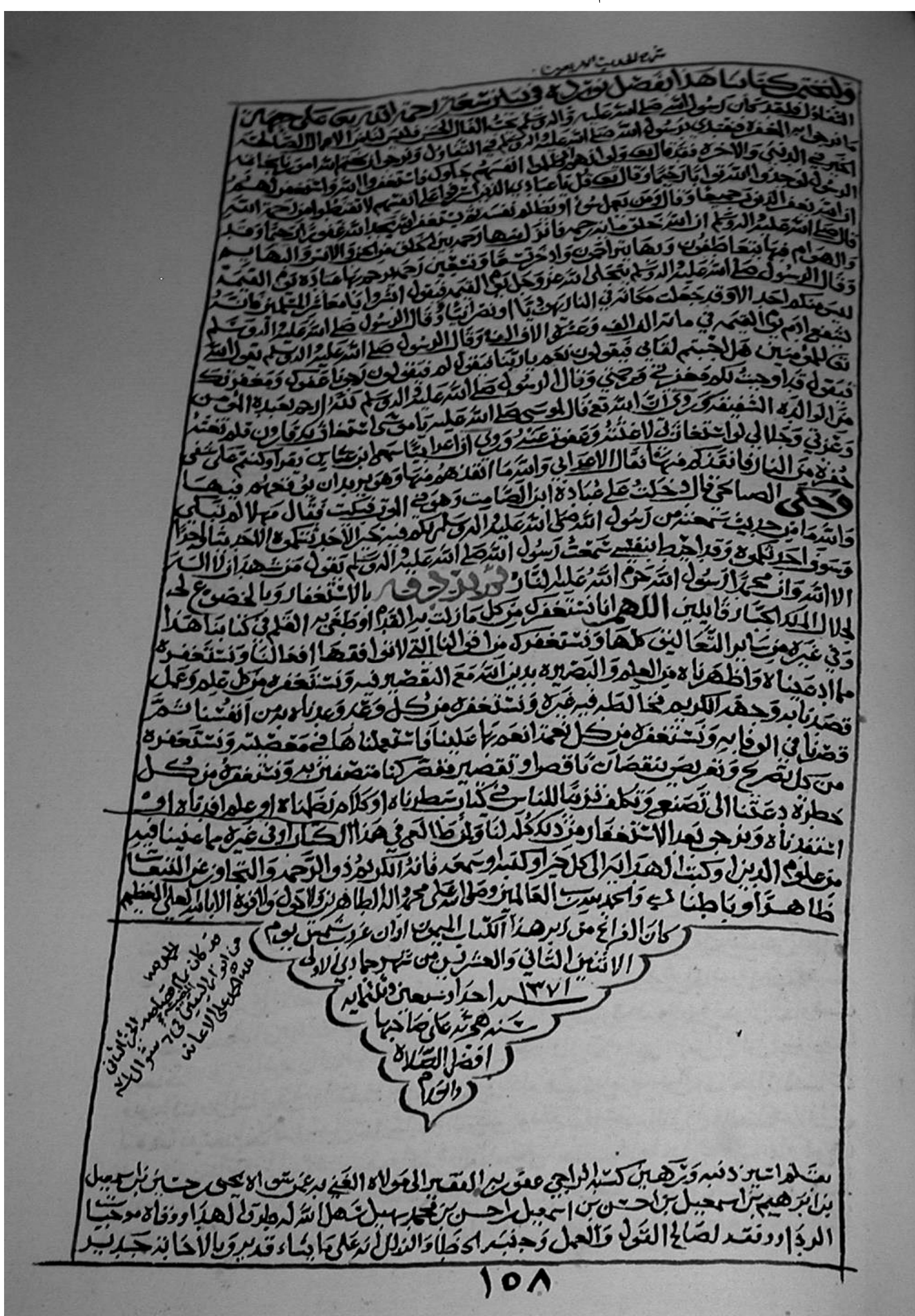
الملحق رقم (8) الصفحة الثانية من النسخة (ك)



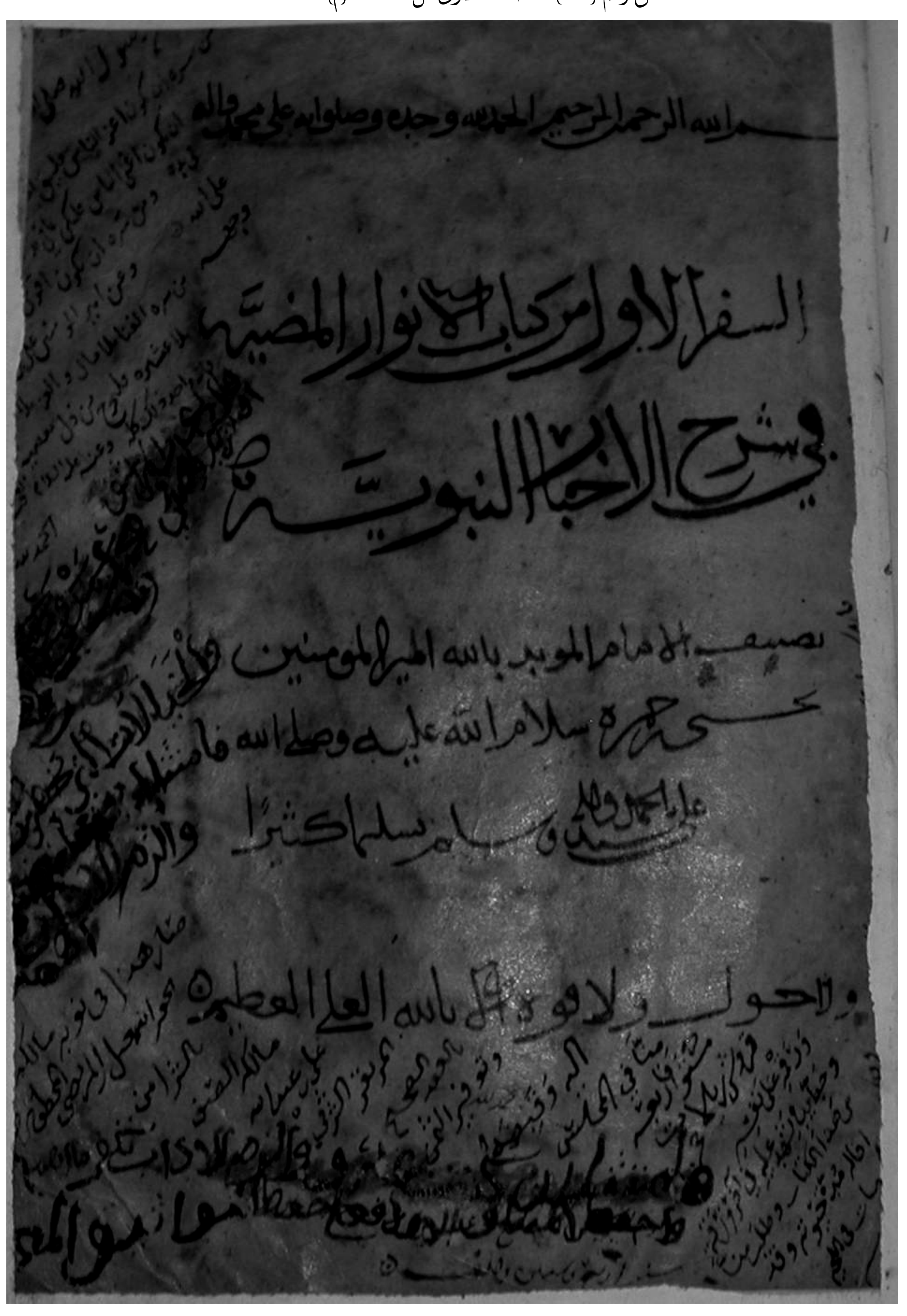
الخطبة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الملحق رقم (9) الصفحة الأخيرة من النسخة (ك)



الملحق رقم (10)، الصفحة الأولى من النسخة (م)



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله

السفر الأول من كتاب الأنوار المضيئة في شرح الأخبار النبوية

تصنيف الإمام المؤيد بالله أمير المؤمنين يحيى حمزة سلام الله عليه وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما كثيرا

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الملحق رقم (11)، الصفحة الثانية من النسخة (م)


بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله [illegible]

الحمد لله الحكيم الذي انطق لسان الانسان فاعرب له بالغ الحكمة

وافصح له بحقايق العرفان وفتق اغشيه افهام الافهام ما الهمها من [illegible]

الصنعه وعجز البيان وجعل لها سبيلا الى الاحاطه [illegible]

وذريعة الى معرفة اعجاز القران حتى صار علم البلاغة

حاكما على العلوم الدينيه بواضح الحجه والبرهان فسبحان

من احكم الاشيا [illegible] وعلو شانه وقهرها بباهر حكمه

وعظم سلطانه والصلاة على المبعوث بالبلاغه الرايقه والخصوص

بالفصاحه الفايقة المويد بالعصمة المثبت بالحكمة الناطق [illegible]

البديعه الحسنة والمعاني [illegible] الاداب [illegible] المواعظ النافعة [illegible]

الاحكام النبوية القاطعة والاسرار الدقيقة والنكت اللايقة التي [illegible]

الفصحا وعظم قدره واناف على بلاغة البلغا وعلى اله الطيبين جبال العلم الراسخة

ومثاقيل الحلم الراجحة قدوة من تمسك وعصمة [illegible]

اما بعد فان الله عز سلطانه لما وفقني [illegible] شرح كتاب نهج البلاغة المختار من كلام امير المؤمنين

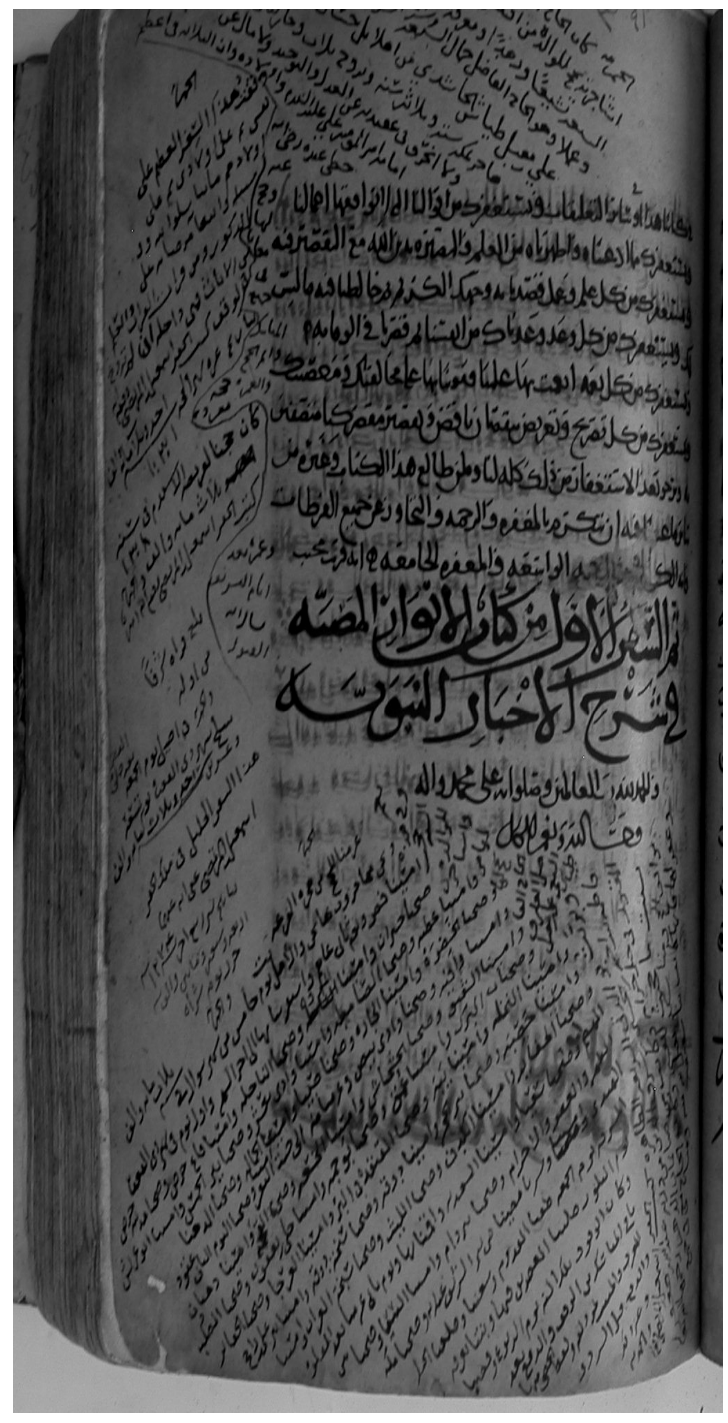
في الخطب والمواعظ والحكم والوسايل والنكت ومحاسن الادب [illegible]

في صدر الكتاب وكان ذلك نعمه لا اقوم بشكرها ومنه من الله لا احصي ذكرها وذلك

لما اشتمل عليه وتضمنه من المصالح الدينية واستولى عليه من الاسرار

والمقاصد [illegible]

الملحق رقم (12)، الصفحة الأخيرة من النسخة (م)



تم السفر الأول من كتاب الأنوار المضية

في شرح الأخبار النبوية

والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله

وحسبنا الله ونعم الوكيل

النصّ المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

الحمد لله وحده، وصلى الله على محمد وآله.

الحمد لله الحكيم الذى أنطق لسان الإنسان، فاعترف له ببالغ الحكمة وأفصح له بحقائق العرفان، وفَتَق[1] أغشية إفهام الأفهام بما ألهمها من لطائف الصنعة وسِحر البيان، وجعل لها سبيلاً إلى الإحاطة بعلوم البلاغة وذريعةً إلى معرفة إعجاز القرآن، حتى صار علم البلاغة حاكمًا على العلوم الدينية بواضح الحجة والبرهان، فسبحان من أحكم الأشياء بقدرته وعلو شأنه، وقدّرها بباهر حكمته وعظم سلطانه.

والصلاة على المبعوث بالبلاغة الرائقة، والمخصوص بالفصاحة الفائقة، المؤيد بالعصمة، المثبت بالحكمة، الناطق بغرائب الحكم البديعة الحسنة، والمعلِن بعجائب[2] الآداب البالغة المستحسنة، المظهر المواعظ النافعة، والمبين للأحكام النيرة[3] القاطعة، والأسرار الدقيقة، والنكت الأنيقة التى فاق بها على فصاحة الفصحاء، وعظم قدره وأناف على بلاغة البلغاء، وعلى آله الطيبين جبال العلم الراسخة، ومثاقيل الحلم الراجحة، قدوة من تمسك، وعصمة من تنسك، صلاة تقيم ولا تريم[4]، إنه منعم كريم.

أما بعد: فإنَّ الله– عزّ سلطانه– لمّا وفقنى لما عنيت فيه من (**شرح كتاب نهج البلاغة المختار من كلام أمير المؤمنين**[5])– رضى الله عنه– فى الخطب والمواعظ والحكم والرسائل والكتب ومحاسن الأدب[6]، وكان الباعث على شرحه عرضًا ذكرناه فى

---

(1) الفَتْقُ: خلاف الرّتق فتقه يفتقه فتقا أى شقه. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، ط3، عام 1994م، بيروت، لبنان، مادة (فتق).

(2) فى النسخة (د) لعجائب. ﴿وهى فى السياق أنسب﴾.

(3) فى (د،م) المنيرة.

(4) تريم: أىْ لا تبرح، وهى من رام يريم، وهو دعاء بالإقامة. ينظر: لسان العرب، مادة (ريم).

(5) وهو الإمام على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ولد بمكة سنة 23 ق هـ، تربى فى حجر الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أول من آمن من الرجال، وأول من صلى مع رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– شهد المشاهد كلها مع الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– ما عدا تبوك فإنه خلفه على المدينة، زوجه ابنته فاطمة– رضى الله عنها– فى السنة الثانية من الهجرة، بويع بالخلافة بعد استشهاد عثمان– رضى الله عنه–، وجعل الكوفة دار خلافته، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، قتله عبد الرحمن بن ملجم فى شهر رمضان سنة 40هـ، وقبره بالنجف مزور. ينظر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق على محمد البجاوى، دار الجيل، ط1، عام 1412هـ، بيروت، لبنان، 3/ 1089– 1128. الأعلام للزركلى، 4/ 295، 296.

(6) واسم الكتاب (الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى)، مطبوع حققه خالد قاسم المتوكل، وإشراف عبد السلام عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

صدر الكتاب، وكان ذلك نعمة لا أقوم بشكرها، ومنّة من الله لا أحصى ذِكرها؛ وذلك لما اشتمل عليه، وتضمنه من المصالح الدينية، واستولى عليه من الأسرار والمقاصد الأخروية التى فاقت العدّ وعدت الحدّ.

ثم إنى لمّا وقفت على (**الأحاديث الأربعين السيلقية**)، وحصلتها سماعًا تبلغ المصنف، والعهدة عليه فيما وراء ذلك، وكانت متفقًا على صحتها بين علماء الحديث ونقلة الأخبار، وهى من نفيس كلامه صلى الله عليه وآله وسلم فى الخطب والمواعظ، والبالغة كل غاية فى جلاء القلوب، وشفاء الأفئدة عن صدأ الذنوب، مع اختصاصها بشدّة النفع وعظم الموقع، وكلامه عليه السلام هو الرتبة الثانية من كلام الله- تعالى- فى فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعانى، وحسن السبك، ورشاقة التأليف، وهو الجمّ الذى لا يغافل، والبحر الذى لا يساجل، ولو كان[1] معجزًا بعد كلام الله تعالى لكان هو؛ إذ كان صلى الله عليه وآله وسلم هو محطّ البلاغة ومنشؤها، ومورد الفصاحة ومصدرها وغايتها ومبدؤها؛ فلا جرم كان لنا إلى شرحها باعثان:

الباعث الأول: الإبانة عمّا اشتملت عليه من اللطائف من بديع الأسرار وغريب المعانى، وما تضمنته من المجازات العالية، والاستعارات البديعة التى لا ينطق بها لسان، ولا يطلع على مخّها إنسان.

الباعث الثانى: الإظهار لما خصّه الله تعالى من فصاحة المنطق، وإحراز قصب السبق[2]، والتمييز، و[3]البلاغة على كافة الخلق، ومصداق هذه المقالة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوتيت جوامع الكلم»[4]، وأراد بهذا أن الحكمة من الكلام الصادرة من جهته تشتمل على معانٍ جمّة وفوائد متكاثرة؛ ولهذا فإنّ العلماء من أهل الاجتهاد لا يزالون يستنبطون من كلامه الأحكام الشرعية، ويستثيرون الفوائد الدينية غضّة طريّة فى الأعصر الخالية، والآماد الممادية[5] إلى آخر الدهر.

وقوله عليه السلام: «أنا أفصح من نطق بالضّاد»[6] يشير بذلك إلى أنه أفصح من تكلم باللغة العربية؛ لأنّ الضّاد مخصوصة بالكلام العربى دون سائر اللغات: كالسريانية، والعبرانية، والتركية، وغيرها من سائر اللغات، ولم يدع الإعجاز فى كلامه اكتفاء

---

(1) فى (د،م) زيادة: كلامه عليه السلام. ﴿وهذه الزيادة تخلّ بالمعنى﴾.

(2) القصب: كل نبات ذى أنابيب، وكل عظم مستدير، وقيل للسابق: أحرز القصب؛ لأنَّ الغاية التى يسبق إليها تُذرع بالقصب وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية فمن سبق إليها حازها، ويقال للسابق: حاز قصب السبق أىْ: استولى على الأمد. ينظر: لسان العرب، مادة (قصب).

(3) فى (د،م) الباء بدلاً عن الواو.

(4) صحيح البخارى، محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير اليمامة، ط3،عام 1987م، بيروت، لبنان،6/ 2573. بلفظ: «بعثت بجوامع الكلم». صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 1/ 371.

(5) فى (د) المتمادية.

(6) الحديث معناه صحيح ولا أصل له، كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسه الرسالة، ط4، 1405هـ، بيروت، لبنان، 1/ 232.

بإعجاز القرآن على صدق نبوته، ولو قال: القرآن كلامه لصدقناه، وقد روى العلماء في معجزاته أنَّها ثلاثة آلاف معجزة[1] أبهرها القرآن؛ لأنَّه لا يزال على وجه الدهر لا تنقضى عجائبه، ولا تفنى غرائبه.

فلما امتطيت من الجدّ صهوته، وهززت من العزم نبعته، وشحذت غرار العزيمة، وأشعلت نار الفكرة، وحنيت[2]جواد الهمة، وصقلت لسانى، وشجّعت جنانى، سالت بلطف الله، وحسن توفيقه علىّ المعانى من كل جانب، وطفقت عقائل الكلام، ومحاسنه يزدلفن إلىّ بأيتهن أبدأ، فدفعت فى نحورها خوفاً من الإملال، وأعرضت عن أكثرها حذرًا من الإسهاب، هذا مع اعترافى بكلول الجدّ عن بلوغ ذلك الحدّ، وإقرارى بقصر باعى، وضيق رباعى عن تجاوز ذلك الأمد، لكن ليس المقصود الأقصى هو الإحراز والإحصاء.

تنبيه: نرمز فيه إلى المسلك الذى اخترناه فى شرحنا لهذه الأحاديث، بالكشف عن أسرارها، والبحث عن غوائلها[3]وأغوارها وزبدة الأمر؛ إنّا نورد الحديث بكماله[4] وتمامه، حتى إذا كمل إيراده بألفاظه انعطفنا على بيان مواقع النظر فيه؛ لإحراز معانيه وبيان أسراره، وجملتها خمسة:

النظر الأول: نذكر فيه ما يختص الألفاظ اللغوية ونوضح معانيها

وإنما بدأنا بها؛ لأنَّها كلام فى الألفاظ المفردة، ودلالتها على معانيها، إما بالتوقيف[5] كما هو محكى عن ابن فورك[6]من الأشعرية[7]، وإما بالمواضعة[8]كما هو رأى الزيدية[9]، وأكثر المعتزلة[10]، وإما أنْ يكون بعضها بالتوقيف وبعضها بالمواضعة[1] كما

---

(1) ينظر: الخصائص الكبرى، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، دار الكتب العلمية، عام 1985م، بيروت، لبنان، 2/ 318.

(2) فى (د) حنّث. ﴿وهو المناسب للسجع والسياق﴾.

(3) الغول: الأمر الداهى والغوائل الدواهى. ينظر: لسان العرب، مادة (غول).

(4) فى (ك) لكماله. ﴿ولعل المناسب: بكماله﴾.

(5) التوقيف معناه: وضعها الله تعالى فعُبّر عن وضعه بالتوقيف، وهو رأى ابن فورك. ينظر: حاشية العطار على جمع الجوامع، حسن العطار، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1420هـ، بيروت، لبنان، 1/ 352.

(6) وهو محمد بن الحسن بن فورك الأنصارى الأصبهانى، واعظ عالم بالأصول والكلام من فقهاء الشافعية توفى سنة 404هـ- 1015م بالقرب من نيسابور فنقل إليها. ينظر: طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن محمد قاضى شهبة، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، ط1، عام 1407هـ، بيروت، لبنان، 1/ 136. الأعلام للزركلى، 6/ 83.

(7) الأشعرية: تنسب إلى أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى، وهم يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية، كالعلم، والقدرة، والحياة، وغيرها. ينظر: شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبى الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، عام 1959م، بيروت، لبنان، 1/ 59.

(8) المواضعة معناها: اصطلاحية وضعها البشر، وهو رأى أكثر المعتزلة. ينظر: حاشية العطار، 1/ 353.

(9) الزيدية: تنسب إلى الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب- رضى الله عنهما- المولود سنة 75هـ، والمتوفى سنة 122هـ، لقولهم جميعًا بإمامته، ويرون القول بالتوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. ينظر: المنية والأمل فى شرح الملل والنحل، أحمد بن يحيى بن المرتضى، دار الندى، ط2، عام 1990م، بيروت، لبنان، 96.

(10) المعتزلة: تنسب إلى واصل بن عطاء الغزال، اعتزل مجلس الحسن البصرى، حيث قرر المنزلة بين المنزلتين، فمرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، =

هو رأى الشيخ أبى على[2] من المعتزلة.

وإما بالوقف[3] كما هو محكى عن الشيخ أبى حامد الغزالى[4].

وحاصل هذه المقالة: هو أنّ الكل من هذه الأقاويل ممكن لا سبيل إلى القطع بواحد منها إلا ببرهان قوى، وحُجّة واضحة، وهذا هو المختار، وقد قررناه فى الكتب الأصولية.

النظر الثانى: نورد فيه ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية

لأنه كلام فى الجمل المركبة من جهة أن الإعراب لا يستحق إلا بعد العقد والتركيب؛ ونعنى بالتركيب الذى يكون مختصًّا بالإسناد المعنوى دون سائر التراكيب، فإنها لا تفيد الإعراب بحال، والذى يستفاد منه الإعراب هو قولنا: زيد قائم، وخرج عمرو، وكان إيراد المعانى الإعرابية على إثر الألفاظ اللغوية لما بينهما من قوة التدالى[5]، ومزيد الاتصال، وكلاهما معدود فى علم الأدب.

النظر الثالث: نشير فيه إلى ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية المختصة بعلم المعانى

ويندرج تحته بيان المقاصد التى أوردها عليه السلام، وفيه الشأن كلّه، وما سبق لها[6] كان على جهة التمهيد والتوطئة، وما يتلوه إنما هو على جهة التتمة والتكملة، والتفرقة بين علوم المعانى وعلوم الإعراب، مع أنّ كل واحد منهما لا تحصل إلا فى المركبات، هو أنّ المعانى المقصودة من علم الإعراب إنما يحصل بمجرد التركيب، وإسناد أحد الجزأين إلى الآخر بخلاف[7] المعانى الحاصلة من علوم المعانى،

فقال الحسن: اعتزلنا واصل، ويسمون أصحاب العدل والتوحيد. ينظر: الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، دار المعرفة، عام 1404هـ، بيروت، لبنان، 1/ 43- 45. المواقف، عبد الرحمن بن أحمد الإيجى، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ط1، عام 1417هـ، بيروت، لبنان، 3/ 652.

(1) ينظر: المزهر فى علوم اللغة والأدب، جلال الدين السيوطى، تحقيق فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1998م، بيروت، لبنان، 1/ 14- 20.

(2) وهو محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائى أبو على المولود سنة 235هـ- 849م، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام فى عصره وإليه تنسب الطائفة الجبائية، نسبته إلى جبى من قرى البصرة، توفى سنة 303هـ- 916م، ودفن بجبى. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط1، عام 1971م، بيروت، لبنان، 4/ 267- 269. طبقات المفسرين للداودى، أحمد بن محمد الأدنهوى، تحقيق سليمان صالح الخزى، مكتبة العلوم والحكم، ط1، عام 1997م، المدينة المنورة، السعودية، 1/ 62. الأعلام للزركلى، 6/ 256.

(3) ينظر: المنخول، محمد بن محمد الغزالى أبو حامد، تحقيق د. محمد حسن هيتو، دار الفكر، ط2، عام1400هـ، دمشق، سوريا، 71.

(4) وهو محمد بن محمد الغزالى الطوسى، فيلسوف متصوف، مولده ووفاته بطبران، سنة 450 – 505هـ = 1058 – 1111م. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 218. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن على السبكى، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو، د. محمود الطناجى، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، عام 1413هـ، القاهرة، مصر، 6/191. الأعلام للزركلى، 7/ 22.

(5) فى (د،ك،م) قرب التدانى.

(6) فى (د،م) إنما بدلاً عن لها.

(7) فى (د) سقط: الباء.

فإنها أمر زائد على التركيب، فإنها أخصّ من علم الإعراب؛ لأنّ المقصود منها توخى معانى النحو فى التركيب من تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وتقديم الفعل على فاعله، وتأخير المفاعيل، فإنْ خُولف ما ذكرناه، فإنما هو لأغراض ومقاصد إلى غير ذلك من الأسرار المعنوية المختصّة بالتقديم والتأخير والفصل والوصل.

النظر الرابع: فى الإشارة إلى ما تضمنه من العلوم البيانية

وحاصلها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة؛ لإيضاح المدلول عليه، ومثاله: أنك إذا أردت أنْ تصف زيدًا بالشجاعة، فتارة[1] تعبر عن ذلك بقولك: زيد كالأسد، ورأيت الأسد، وزيد أسد، فكلّها تفيد وصفه بالشجاعة تارة بطريق التشبيه، ومرّة بطريق الاستعارة، والتفرقة بين علوم المعانى وعلوم البيان ظاهرة، فإنَّ علوم المعانى مقصورة على معرفة توخى معانى النحو فى التراكيب الإسنادية، بخلاف[2]علوم البيان فإنها مقصورة على معرفة تأدية المعنى بطرق مختلفة من جهة التجوزات المجازية، فأنها مقررة عليها.

النظر الخامس: نورد فيه ما اشتمل عليه من علوم البديع

وهو علم يختصّ بالبلاغة[3] والفصاحة وتحسين الكلام بالنظم والتأليف، والتفرقة بين علوم البيان وعلوم البديع هو ما أشرنا إليه من أنَّ علم البيان يختصّ بإيراد الكلام لتأدية المعانى بطرق مختلفة، بخلاف علم البديع فإنه متعلق بالفصاحة والبلاغة كما ستراه منبهًا عليه فى مواضعه اللائقة عليه[4] بمعونة الله.

ثم إنَّ هذه العلوم الخمسة التى أشرنا إليها بعضها أخصّ من بعض، فعلم الإعراب أخصّ من علم اللغة، من جهة أنَّ الإعراب مختصّ بالتركيب، وعلم اللغة مختصّ بالمفردات، والمفرد قبل المركب، وسابق عليه.

وعلم المعانى أخصّ من علم الإعراب من جهة أنَّ علم المعانى مبنى على توخى معانى النحو فى تقديم المقدم وتأخير المؤخر فى المفاعيل والمسند إليه والمسند به.

وعلم البيان أخصّ من علم المعانى من جهة أنَّ علم البيان مختصّ بأمر زائد، وهو جريه فى المجازات الحسنة والاستعارات الرشيقة، وعلم المعانى لاتؤخذ منه هذه الفائدة، وعلم البديع أخصّ من علم البيان من جهة أنَّ علم البديع مختص بالبلاغة والفصاحة.

---

(1) فى (د) سقط: الفاء.
(2) فى (م) سقط: الباء.
(3) فى (ك) سقط حرف الجر الباء.
(4) فى (د،ك،م) به . ﴿والمناسب: به؛ لأن عليه تدل على الاستعلاء ولا معنى لدلالة الاستعلاء هنا﴾ .

وعلم البيان مقصور على المجازات من: التشبيه، والاستعارة، وعلم البديع هو الغاية القصوى في تحسين الكلام، وإيراده في القوالب البديعة، وينزل من الكلام منزلة الدهن من اللبّ، ويحلّ منه محلّ الإنسان من سواد العين، ولولاه لم ترَ لساناً يحوك الوشى من الكلام، ويصوغ الحلى، وينفث السحر مفتر الأكمام، ومن ثمة[1] ظهر إعجاز القرآن ظهور المرئى فى العيان، بيْد أنى لم أعلم أحدًا من العلماء كرع[2] فى حياضها، ولا رجل من الفضلاء شرح فكرة فى رياضها بالبحث، والتنقير لمعانيها والجدّ والتشمير فى استخراج غوامضها.

نعم قد كان من الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين- رضى الله عنه وأرضاه- شرح سماه (**حديقة الحكمة**)، ولقد أتى فيه بالعجب العجاب، ولباب الألباب فى الإناخة[3]عن مقاصدها، والكشف عن أسرارها، لكنّه لم يكشفها هذا الكشف بالاستيلاء على هذه العلوم الخمسة التى ذكرناها، واكتفى بشرح مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم من غير زيادة، وأهمل رعاية الضبط والحصر بالعقود اللائقة، والترتيبات الفائقة، وشرحه هذا دال على أنَّ له فى علم الأدب اليد البيضاء، وفى علم التواريخ النصيب الأوفى، فأما أنساب الرواة، وذكر أحوالهم، وطرائقهم، فقد أعرضنا عن ذكره؛ لأنه بمعزل عن حديث رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وهو بعلم التاريخ أليق فلا يمزج أحدهما بالآخر.

فلما سبكته بنار الفكرة فى بوتق التحقيق وضعته[4]على هذا المصاغ المعجب الأنيق سميته بـ (**كتاب الأنوار المضيئة فى شرح الأحاديث النبوية**) ليكون الاسم مطابقًا لمسماه، واللفظ موافقًا لمعناه.

وأنا أسأل الله بجلاله الذى ملأ القلوب هيبة وخشوعًا، وخضعت له الرقاب، وعنت له الوجوه سجودًا وركوعًا أنْ يجعل عنايتى فيه من أثقل ما يوضع فى ميزانى، وينفع[5]من قصده ونحاه من جميع إخوانى، ويهب لى خاتمة الخير، ويجعله خالصًا لوجهه، ومطابقًا لرضاه، إنه سميع مجيب.

---

(1) فى (د،ك،م) ثم.

(2) كرع فى الماء يكرع كرعًا و كروعًا إذا تناوله بفيه. ينظر: لسان العرب، مادة (كرع).

(3) فى (د،ك،م) الإبانة. ﴿وهى تناسب السياق﴾.

(4) فى (ك) صغته. ﴿وصغته: أنسب ليتم السجع﴾.

(5) فى (م) زيادة: به.

الحديث الأول

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[1] قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- عَلَى نَاقَتِهِ الْجَدْعَاءِ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نُشَيِّعُ مِنَ الأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُم أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ مَالاً اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَجَالَسَ أَهْلَ الفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ، وَخَالَطَ أَهْلَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّتْ نَفْسُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ**»[2] .

فنقول: الحمد لله القيوم الذى أحيا بالزهد قلوب أوليائه، ونوّر بالحكمة والموعظة الحسنة صدور أحبائه، وشرح صدورهم بنور معرفته، وأفاض عليهم أنوارًا من مشكاة لطفه ورحمته، واصطفاهم بما خولهم على غيرهم من سائر خليقته، ناجاهم فى ضمائرهم، وكلّمهم فى ذات عقولهم، حتى شربوا من صفو اليقين، وصاروا باصطفائه واختياره من عباده المخلصين.

والصلاة على المبعوث بالحكم الربانية، والمخصوص بالكرامات الإلهية محمد الأمين، وعلى آله المطهرين الهادين من الضلال، والمفرقين لأحزاب الجهال عن يمين وشمال.

واعلم أن **الخُطبة:** بضم (الفاء) هى الاسم من الاختطاب، وهى عبارة عن الكلام المذكور فى المشاهد العظيمة والمحافل الجمّة، **والخَطْبُ:** ما هال من الأمور وعظم، **والخِطْبة:** بكسر(الفاء)هى الحالة كالجلسة والركبة، ومنه خِطبة النكاح، والسنّة ألا يخطب الرجل إلا على موضع عالٍ من منبر، أو جدار، أو راحلة؛ ليكون ذلك أقرّ للسماع، متكئًا على سيف أو قوس؛ ليكون أثبت للجأش، وحذرًا من أنْ يعبث بيده فى لحيته، وتنقية أنفه.

الجذعاء:- بذال بنقطة من أعلاها- ناقة له عليه السلام، وكذلك القصواء، والعضباء، وهذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور خمسة نوضحها بمعونة الله.

---

(1) وهو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم، خادم رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وأحد المكثرين من الرواية عنه، قدم النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- المدينة، وهو ابن عشر سنين، فأتت أمه أم سليم النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-، فقالت: هذا أنس غلام يخدمك، فقبله، وقد اختلف فى سنة وفاته، فقيل: 91هـ، وقيل: 92هـ، وقيل: 93هـ. ينظر: الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق على محمد البجاوى، دار الجيل، ط1، عام 1992م، بيروت، لبنان، 1/ 126- 128 .

(2) الأربعون حديثاً السيلقية، زيد بن عبد الله الهاشمى، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1،عام 2002م، عمان، الأردن، 15 .

النظر الأول: فى بيان ما يشتمل عليه هذا الحديث من الألفاظ اللغوية

الناس: اسم عام لجميع الخلق من الإنس الرجال والنساء والعبيد، **وفيه لغتان:** ناس، وأناس، فتصغير **ناس** نويس، على ترك الاعتداد بالمحذوف، وتصغير **أناس** أنيس على الاعتداد بالمحذوف، **والموت:** نقيض الحياة، وهل يكون معنى يضاد الحياة، أويكون تفريقًا للبنية لا غير؟

فيه تردد بين العلماء، والمختار أنه تفريق للبنية؛ لأنّا لا نقول بالمعانى العرضية، **والكتب:** الجمع، ومنه قيل للخيل المجتمعة: كتيبة، **والحق:** هو الثابت، والحق القطع، والحق نقيض الباطل، **والواجب:** هو الواقع، ومنه قولهم: وجبت الشمس؛ إذا وقعت للسقوط، وقوله:﴿ **فَإِذَا وَجَبَت جُنُوبُهَا** ﴾[1] أىْ: سقطت على الأرض، وتشيع أتباعها، **والشياع:** هو الظهور، **والسَّفْر:** اسم للجمع كالصحب والركب، وليس جمعًا على الحقيقة، ولهذا فإنه يصغّر على لفظه، فيقال: سُفَير ورُكَيب، فهو بالأسماء المفردة أشبه، ويضعف قول من قال: إنه جمع؛ لأنّ (فعْلى) بسكون (العين) ليس من أوزان الجموع فى التكسير[2]، **والمسافر:** هو الذى يقطع المسافات لطلب الأرباح، وغيرها من المقاصد، **والقليل:** نقيض الكثير، **والحقير:** نقيض العظيم، **والراجع:** هو العائد إلى مكانه بعد خروجه منه، وسُمى المطر رجعًا والسحاب رجعًا؛ لأنهما يعودان إلى جهتهما الأولى بقدرة الله تعالى، وقيل لما يخرج من بطن ابن آدم: رجعًا؛ لتكرر خروجه مرة بعد أخرى.

والمباءة: (مفعلة) وهو المكان المستقر فيه، كما قال تعالى:﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ** ﴾[3]أىْ: جعلوهما مباءة ومستقرًا، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٍ** ﴾[4]، **والجدث:** القبر، ويقال: جدف بـ (الفاء) أيضاً، **والأكل** معروف، **والتراث:** ما يخلفه الميت وراءه، وأصله وراث، فأبدلت (الواو) (تاء)، كما يقال: تيفور، وهو من الوفار، وتقوى وهى من الوقاية، **والخلود:** هو الدوام المؤبد، **والنسيان:** هو الذهول والغفلة.

والواعظة: فيها وجهان:

أحدهما: أن يكون صفة، أىْ: نسينا كل حادثة واعظة لنا، وهو الأكثر الأشهر.

---

(1) سورة الحج من الآية 36.

(2) من قال أنه اسم جمع هو سيبويه، أما الأخفش فقد قال أنه جمع تكسير. ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى، تحقيق محمد نور، محمد الزفزاف، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، عام 1975، بيروت، لبنان، 2/ 203، 204.

(3) سورة الحشر من الآية 9.

(4) سورة يونس من الآية 93.

وثانيهما: أن يكون اسم فاعله بمعنى المصدر، وأراد[1] بها الوعظ كالكاذبة بمعنى الكذب، والعافية بمعنى المعافاة، والفاضلة بمعنى الفضل، وكلاهما لا غبار عليه، **والأمان:** نقيض الخوف، **والجائحة:** يتوجّه فيها المعنيان اللذان ذكرناهما فى الواعظة، **والجوائح:** هى التى تسحب ما فى يد الإنسان من أهل ومال.

الطُوبى: (فُعلى) بضم (الفاء)، وعينها (ياء) قلبت (واو)، كالكوسى من الكيس، **والشغل:** نقيض الفراغ، **والعيب:** هو الفساد والتغير، **والمكتسب من المال:** هو نقيض المال الموروث، **والمعصية:** نقيض الطاعة، وهى المخالفة للأمر والنهى، **والمجالسة:** لزوم المجلس، **والفقه:** هو الفهم لما يدقّ ويغمض من مقاصد المخاطبين، **والحكمة:** ما يمنع من الوقوع فى غير المقصود، ومنه: حكمت الدابة، وهى الحديدة المحيطة بلحيى الفرس، فإنها مانعة لها عن التقحم، وعن المخالفة لغرض الراكب، **والمخالطة:** الملابسة، وهى (مفاعلة) كالمقاتلة والمخاصمة، ولا تكون إلا بين اثنين فصاعدا، **والذِّلة:** بكسر (الفاء) هى الحالة من الضعف، وبفتحها واحدة الذلات، ويحتمل أن تكون مصدرًا مع الكسر، كقولك: نشدته نشدة، ومنه قولهم: ناقة ذلول إذا كانت لا تصعب عند حلبها، **والمسكنة:** (مفعلة) من السكون، وهى نهاية الحاجة، فكأن المحتاج لما كان ساكن الأطراف لا يستطيع حراكًا قيل له: مسكين، **وذلّ النفس:** خضوعها .

والحسن: نقيض القبيح، **والخليقة:** الطبيعة والغريزة أيضًا، **والصلاح:** نقيض الفساد، **والسريرة:** ما كان يضمره الإنسان من خير وشرّ، **والعزل:** الميل والمجانبة، **والشرّ:** نقيض الخير، وهو ما تكرهه النفوس، **والإنفاق:** نقيض الإقتار، **والفضل:** ما كان زائدًا على الحاجة فى الإنفاق والإمساك، **والوسع:** نقيض الضيق، **والاستهواء:** الغلبة يقال: استهواه النوم إذا غلبه، **والاستهواء:** الميل أيضًا، ومنه الهوى؛ لأنه يميل من جانب إلى جانب، والمعنيان حاصلان فى قوله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾[2] أىْ: غلبته ومالت به، **والعزل:** الإبعاد والانفراد، يقال: عزل الأمير وزيره إذا أبعده عن أمره وأفرده، **والسُّنّة:** المداومة على فعل الشىء، مأخوذ من سُنن الطريق، **والبدعة:** ما خالف المألوف.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه الحديث من المعانى الإعرابية

«**أىّ**» جىء بها وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام كما يُجأ بـ (الذى) وصلة إلى وصف المعارف بالجمل الاسمية والفعلية، وهو منادى مبهم، ويجوز طرح حرف النداء عنه، و«**الهاء**» للتنبيه عوضًا عمّا يستحق من الإضافة، و«**الناس**» مرفوع صفة لـ «**أىّ**»، و«**الضمة**» إعرابية، ويلزمه الرفع بكلّ حال، ولا يجوز فيه النصب على المحلّ، **والضمة** فى «**أىُّ**» **ضمة** بناء تشبه

(1) فى (ك،م) المراد.
(2) سورة الأنعام من الآية 71 .

حركة الإعراب؛ ولهذا جاز الإتباع على لفظها . هذا كله على رأى النحاة من البصريين[1]، والمختار أن «**أيا**» هى الموصولة، وهى موصولة بجملة ابتدائية حذف صدرها، و«**الناس**» مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، مثلها فى قولهم: مررت بأيهم أفضل، أىْ: بالذى هو أفضل، و«**الضمة**» فى قوله: «**أيُّها الناس**» ضمة إعراب بكل حال على هذا التأويل، وهو رأى الأخفش [2]من البصريين[3]؛ فإذا قلت: يا أيُّها الرجل، فالتقدير فيه: بالذى هو الرجل، وهذه الجملة الابتدائية موضحة لما تضمنه من الإبهام، وهو جيد لا غبار عليه.

«**كأن**»: حرف من عوامل المبتدأ والخبر تنصب المبتدأ وترفع الخبر، وهل يكون الرفع بها فى الخبر، أو يكون مرفوعًا بما كان مرفوعًا به قبل دخولها ؟

فيه تردد بين النحاة؛ والمختار أنه مرفوع بها، وهو رأى الجلّة من نحاة البصريين[4]، و«الضمير» فى قوله: «فيها» للدنيا، ويفسره شاهد الحال وإن لم يتقدم له ذكر؛ اكتفاء بالقرينة الحالية فى تفسيره، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾[5] يعنى: القرآن، وهو كثير فى كلام الفصحاء. «ما» فى قوله: «عمّا قليل» فيها وجهان: **أحدهما:** أنها زائدة مثلها فى قوله تعالى:﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ ﴾[6]، **وثانيهما:** أن تكون نكرة مبهمة غير موصولة ولا موصوفة، مثلها فى قوله: ربّما تكره النفس من الأمر، و«**قليل**» مجرور على أنه بدل منها، أو عطف بيان، و«**إلينا**» متعلق بـ «**راجعون**». «**الضمير**» فى: «**نبوئهم**»، و«**أجداثهم**» منصوبان على المفعولية لـ «**نبوئهم**»، وهو يتعدى إلى مفعولين، وهما متغايران، كقولك: أعطيت زيدًا درهمًا.

«**كأنّا مخلدون**» الضمير منصوب اسم لـ «**كأن**»، و«**مخلدون**» مرفوع على الخبرية لـ «**كأن**». قوله: «**كل واعظة**»، و«**كل جائحة**» منصوبان على المفعولية للفعل قبلهما.

---

(1) ينظر: أسرار العربية، عبد الرحمن بن أبى الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبى سعيد، تحقيق د. فخر صالح قدارة، دار الجيل، ط1، عام 1995م، بيروت، لبنان، 329.

(2) وهو سعيد بن مسعدة المجاشعى البلخى ثم البصرى المعروف بالأخفش الأوسط، نحوى عالم باللغة، والأدب، أخذ العربية عن سيبويه، توفى سنة 215هـ، وقيل: 221هـ. ينظر: معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموى، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1991م، بيروت، لبنان، 3/ 382-385. الأعلام للزركلى، 3/ 101.

(3) ينظر: أسرار العربية، 329.

(4) لأنّ إنّ وأخواتها أشبه بالفعل فى لزومه الأسماء، وعند الكوفيين هو مرتفع بما كان مرتفعًا به قبل دخول إنَّ وأخواتها. ينظر: المفصل فى صنعة الإعراب، محمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق د. على بو ملحم، مكتبة هلال، ط1، عام 1993م، بيروت، لبنان، 48.

(5) سورة القدر الآية 1.

(6) سورة النساء من الآية 155.

«**طوبى**» رفع على الابتداء، وخبره الجار والمجرور بعده، و«**الألف**» فى «**طوبى**» للتأنيث كاليسرى أو العسرى، وهى غير منصرفة، فإن كانت علمًا كما يقال: إنها اسم شجرة فى الجنة[1]، ويحمل عليه قوله تعالى:﴿ **طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ** ﴾[2] إنما لم ينصرف للعلمية والتأنيث، ولزوم التأنيث[3] كامرأة سميناها بحبلى، ولا مقال فى صحة الابتداء بها؛ لكونها علمًا، وإن كانت نكرة فامتناع صرفها للتأنيث، ولزوم التأنيث نحو: حبلى، وسكرى، وإنما جاز الابتداء بها مع كونها نكرة؛ لأنها فى التعجب، كأنه قال: ما أطيب ما أعدّ لهم، فى قوله تعالى: :﴿ **طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ** ﴾ [4]، و«**طوبى**» اسم للطيب، كما أن الكوسى اسم للكيس، وليس طوبى تأنيث الأطيب كما كانت الحسنى تأنيث الأحسن، والسوأى تأنيث الأسوأ؛ لأنّها لو كانت طوبى تأنيث الأطيب لم يجز إثباتها مجردة عن اللام أو عن الإضافة، ويجب إثباتها على أحدهما، فأما إذا كانت اسمًا فلا يراعى فيها ذلك، وأصلها طيبى، فلما سكنت (الياء) وانضم ما قبلها قلبت (واوًا) كالكوسى، يروى عيب وعيوب على الإفراد والجمع، وكلاهما حسن.

«**من**» فى قوله: «**اكتسبه من غير معصية الله**» معناها: ابتداء الغاية، **والاكتساب:** (افتعال) من الكسب، وهذا البناء دال على كثرة الاعتمال فى طلب المكتسب وتحصيله.

الرواية فى «**صلَحت سريرته**» بفتح اللام؛ فأما صلُح بضمها فإنّما هو من أفعال الغرائز، نحو: حسن وقبح، كما قال تعالى:﴿ **وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ** ﴾[5] فصلَح بالفتح يصلُح بالضم إذا كان فاعلاً للصلاح، وصلُح بالضم يصلُح بالضم إذا كان صالحًا فى نفسه.

«**من**» فى قوله: «**أنفق الفضل من ماله**» فيها وجهان:

أحدهما: أن يكون الابتداء للغاية.

وثانيهما: أن تكون للتبعيض؛ والمعنى: أنفق الفضل الذى هو بعض ماله. «**وأمسك الفضل من قوله**» فيها الوجهان اللذان ذكرناهما فى الأولى.

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى، تحقيق سامى محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، عام 1999م، الرياض، المملكة السعودية، 4/ 455.
(2) سورة الرعد من الآية 29.
(3) فى (د) سقط: ولزوم التأنيث.
(4) سورة الرعد من الآية 29.
(5) السورة نفسها من الآية 23.

قوله: «**ولم تستهوه البدعة**» هذه الجملة فى إعرابها وجهان:

أحدهما: أن تكون جملة معطوفة على الأولى، ولا محلّ لها من الإعراب، كالأولى.

وثانيهما: أن تكون الثانية فى موضع نصب على حال من الضمير، والتقدير: ووسعته السنّة غير مستهوية له البدعة، ولا غالبة له على أمره.

و«**من**» فى قوله: «**طوبى لمن ذلت نفسه**» فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون موصولة، وهو الظاهر السابق إلى الفهم، والضمير فى قوله: «**نفسه**» للربط بين الصلة والموصول.

وثانيهما: أن تكون موصوفة، والتقدير فيه: طوبى لرجل ذلّت نفسه مثل ما فى قوله: وربّ من أنضجت غيظًا صدره، أىْ: ربّ رجل أنضجت صدره غيظًا، و«**عن** » فى قوله: «**وعزل عن الناس شره**» للمجاوزة، كما تقول: رميت عن القوس، وهى أقعد مِن «**من**» هاهنا، ولهذا جاءت، و«**شرّ**» منصوب على المفعولية.

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من المقاصد المعنوية

وفيه بحثان:

البحث الأول: فى بيان الأسرار المتعلقة بالعلوم المعنوية

وهى فى الحقيقة متعلقة بأسرار التركيب، وتحوى معانى النحو فى التأليف.

قوله عليه السلام: «**أيها الناس**» إنما جاء بها من سائر حروف النداء؛ لاختصاصها بكثرة الاستعمال، وطرحها للإيجاز والاختصار.

ووسط «**هاء**» التنبيه؛ إيقاظًا للأسماع، وتحريكًا للقلوب عن غفلتها إلى سماع خطابه، وأتى بـ «**الناس**»؛ لشموله، ولم يقل: يا بنى آدم؛ لأنّ لفظة «**الناس**» أرقّ وألطف وأعظم موقعًا فى القلوب؛ لما فى لفظة الناس من الإشعار بالأنس والتقريب.

ثم لمّا فرغ من النداء أردفه بذكر «**الموت**»؛ لما كان هو الغاية، وبه يكون طىّ الأعمار، وخواتيم الأعمال.

وصدّرها بحرف التشبيه مبالغة فى الإعراض، والغفلة عن أخذ الأهبة للاستعداد، فحالهم فى الذهول عن المراد مشبه بحال من لا يخطر على باله الموت، ولا يأخذ لوقوعه أهبة، ثم شفعه بكلام آخر مصدر بالتشبيه فى الإعراض عن الحقوق اللازمة،

والتكاليف الواجبة بجال من لا حقّ لله تعالى عليه فى فعل ولا ترك، ومن لا يجب عليه واجب بالأوامر والنواهى فالوعيدات[1] الحاصلة من جهة الله تعالى.

ثم عطف عليه ذكر«**الأموات**» الذين نشاهد إدخالهم القبور، وتضمينهم إياها، فحالها فى حقّهم فى قلّة الاحتفال، وترك التيقظ واستيلاء الغفلة مشبه بجال الذين يغيبون فى طلب الأرباح يُتَرَقَّبُ وصولهم إلينا، وإقبالهم علينا.

ثم ذكر ما نفعله بـ «**الأموات**» تقريرًا لاستيلاء الغفلة، وتنبيهًا على أن الموت غير شامل لنا، ولاحق بنا من جعل القبور مباءة، ومن أكل تراثهم، وهو ما يخلفون بعدهم، كأنهم فى هذه الأحول غير لاحقين بهم؛ لعظم الانهماك فى إحراز ما خلفوه، وعظم الحرص عليه وجمعه والتهالك فى حفظه وجمعه؛ لأنه لا يفعل هذه الأمور إلا من حاله على جهة التأبيد.

فهذه جمل أربع واردة على جهة التشبيه ساقها عليه السلام مبالغة فى الوعظ، وشحذاً للعزائم، وهزًّا للأعطاف فى المسارعة إلى فعل الخير من سلوك طريق الآخرة، وإحياء القلوب بذكر الله، وأن الموت لا ينفك ذكره عن الألسنة، مقررًا فى الأفئدة لا يغفل عنه أحد على حال.

ثم عقبه بكلام كأنه مسبب عمّا ذكره أولاً بقوله: «**نسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة**»؛ لأنه لا سبب للنسيان لكل ما يتعظ به الإنسان، ويحيى قلبه، ولا سبب للغفلة عن الأمان لكلّ جائحة إلا عدم ذكر الموت ونسيانه، وأنه لا يخطر بالقلوب ساعة واحدة، ولهذا أورده من غير ذكر (الواو)؛ من أجلّ التنبيه على ما ذكرناه من التسبيب.

ثم شرع فى أسلوب آخر أورده على جهة التعجب، والإظهار لحسن الحال بمقامات الإنسان فى إصلاح نفسه، وحثًّا له على إحراز نجاته فى الآخرة، وجملتها خمسة:

المقام الأول: فى معاملة الإنسان لنفسه

وإليه الإشارة بقوله: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**»؛ لأنه مهما كان الإنسان ناظرًا فى عيب نفسه، فإنه يسلم عن آفة العجب بعمله، ويسلم عن الاشتغال بعيوب الخلق، ومتى لم يكن ناظرًا فى عيب نفسه، فإنه لا يسلم عن العجب، ويكون فارغاً للتطلع على عيوب الخلق، وفى ذلك من المفسدة فى الدّين ما لا يخفى، فإن الإنسان قد جُبل على نسيان عيب نفسه وعلى التشوق إلى إدراك عيب غيره، كما قال عليه السلام : «يرى أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عينيه»[2].

---

(1) فى (د،ك،م) الواو بدلا عن الفاء .

(2) مسند الشهاب، محمد بن سلامة القضاعى، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، مؤسسة الرسالة، ط2، عام 1986م، بيروت، لبنان، 1/ 356. بلفظ: «يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه».

المقام الثانى: فيما يتعلق بإنفاق المال

وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية الله**» اعلم أن إحراز الثواب بإنفاق المال لا بد فيه من اعتبار شرطين:

الشرط الأول: أن يكون المال مكتسبًا من وجه يحلّ، والمال إنما يحرم لأمرين:

أحدهما: أن يكون الكسب حرامًا، وهذا نحو أجرة البغى، وحلوان الكاهن، فقد نهى رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– عنهما[1] .

وثانيهما: أن يكون ذلك الأمر واجبًا، وهذا نحو أخذ المال على فعل الصلاة وسائر العبادات، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهذان وجهان يحرم المال لأجلهما .

الشرط الثانى: أن يكون إنفاقه فى وجه من وجوه القرب على الفقراء والعلماء والمساكين والجهاد فى سبيل الله، فمتى حصل فيه هذان الشرطان كان الأجر والثواب حاصلين، واعلم أن طلب الحلال من أهم الواجبات، وأقرب القربات عند الله، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : «الجهاد عشرة أجزاء: تسعة منها فى طلب الحلال، وواحد منها فى طلب العدو»[2]، وقال عليه السلام: «لا يقبل الله صدقة من غلول»[3] .

المقام الثالث: فى المجالسة

وإليه الإشارة بقوله: «**وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذلّة والمسكنة**» اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم أشار هاهنا إلى المجالسة والمخالطة؛ لما يحصل فيهما من النفع فى الدِّين والإسلام عمّا يثلمه، وخصّ المجالسة لـ «**أهل الفقه والحكمة**»، وليس المقصود هو مجرد المجالسة، فإنه لا نفع فيها، ولكن المراد ما يحصل بسببها من التفقه فى الدِّين بمجالسة أهل الفقه وهم العلماء، وأهل البصائر، والذين أحرزوا علم الكتاب والسُّنّة، وميزوا الحلال من الحرام.

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيبانى، دار قرطبة، (ت)، القاهرة ، مصر، 4/ 120 .
(2) كتاب الكسب، محمد بن الحسن الشيبانى، تحقيق د . سهيل زكار، نشر عبد الهادى حرصونى، عام 1400هـ، دمشق، سوريا، 48 .
(3) سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، (ت)، بيروت، لبنان، 1/ 63 .

وأما **الحكمة**، فهى محتملة لمعانٍ قد استعملت فيها، فقد يراد بها النبوة[1] كما قال تعالى:﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[2]، وقد يراد بها الإحاطة بمعانى كتاب الله، كما قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[3]، فالكتاب هو القرآن، والحكمة معانيه، وقد يراد بها الزهد[4]، كما قال تعالى:﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا ﴾[5]، وخصّ المخالطة لـ «**أهل الذلّة والمسكنة**»؛ لما يحصل بمخالطتهم من النفع الأخروى، بكسر هوى النفس عن جمحان الكبر ونخوة التعاظم، وخطر الكِبر، ومحبة الشرف، وبمخالطة «**أهل الذلة والمسكنة**» يزول ذلك كلّه، ويبطل أمره.

سؤال: أراه خصّ المجالسة بـ «أهل الفقه والحكمة»، وخصّ المخالطة بـ«أهل الذلّة والمسكنة»، ولم يعكس الأمر فيهما .

وجوابه: هو أن **المجالسة** إنّما تراد لأجلّ العلم والفتوى من أهلها، وذلك إنّما يكون مرّة بعد مرّة وليس يقصد بها[6] المداومة، خلاف الحاجة إلى أهل الذلّة والمسكنة، فإنما يراد على جهة الدوام لحصول النفع باستدامتها، فلأجلّ هذا خصّ **المجالسة بالفقهاء والحكماء**، وخصّ **المخالطة**؛ لعظمها فى دوام المنفعة بها بـ «**أهل الذلة والمسكنة**»، فافترقا .

المقام الرابع: فى تزكية الأخلاق

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**طوبى لمن ذلّت نفسه**»، وقد أشار عليه السلام[7] إلى صفات ثلاث:

الصفة الأولى: إذلال النفس، وانقيادها لعظمة الله، والتواضع لله ولرسوله وللأئمة والعلماء وسائر أهل التقوى.

الصفة الثانية: صلاح السريرة، وصلاحها بأن لا يكون فى قلبه غلّ، ولا حقد ولا فساد ولا دغلّ[8] .

الصفة الثالثة: أن يعزل عن الناس شرّه فى جميع الأقوال والأفعال، فلا يلحقهم من جهته أذيّة من لسانه، ولا ينالهم عقوبة من يده حتى ينال درجة الإسلام بذلك، وفى الحديث: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه »[9] .

---

(1) تفسير ابن كثير،7/ 59 .
(2) سورة ص من الآية 20 .
(3) سورة الجمعة من الآية 2 .
(4) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية، محمد بن على الشوكانى، دار الفكر، (ت)، بيروت، لبنان، 1/ 289 .
(5) سورة البقرة من الآية 269 .
(6) فى (د) يقصدها . ﴿ويقصد بها: أنسب فى السياق لاسيما أنّ الفعل يقصد يتعدى إلى مفعول واحد ﴾ .
(7) فى (د،ك،م) زيادة: هاهنا .
(8) الدغل: الفساد، وأدغل فى الأمر أدخل فيه ما يفسده ويخالفه. ينظر: لسان العرب ، مادة (دغل) .
(9) شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق محمد السعيد بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1410هـ ، بيروت، لبنان، 7/ 499 .

المقام الخامس: فى تهذيب الأخلاق وتطهيرها عن المناقص والمذام

وإليه الإشارة بقوله: «طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنّة، ولم تستهوه البدعة»، فهذه آداب أربعة نفصلها بمعونة الله.

الأدب الأول: إنفاق الفضل من المال

والفضل ما كان زائدًا على قدر الحاجة؛ كى لا ينسب إلى اللؤم والبخل، فأما ما كان محتاجًا إليه فى نفسه وولده ومن يختصّ به فلا يتوجه عليه إنفاقه، ومصداق ذلك قوله تعالى:﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[1].

الأدب الثانى: إمساك الفضل من قوله

فلا خير فى الكلام إلا إذا كان فيه رضا لله تعالى، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومصداق ذلك قوله تعالى:﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2].

الأدب الثالث: أن تكون السنَّة واسعة له فى كل ما يقول ويفعل جارية على جهة المطابقة للسنة لا خروج له عنها فى تروكه وأفعاله

ويؤيد ذلك ما روى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنَّة»[3]، وفى حديث آخر: «قليل من سنَّة خير من كثير فى بدعة»[4].

الأدب الرابع: أن لا تستهويه البدعة

وأراد أن البدعة لا تميل به عن السنّة، فيعول على البدعة، ويترك السنّة، فهذا ما أردنا ذكره فيما تضمنه كلامه من الأسرار المعنوية أوضحناه.

---

(1) سورة البقرة من الآية 219.

(2) سورة النساء من الآية 114.

(3) أصول الأحكام الجامع لأدلة الحلال والحرام، أحمد بن سليمان بن محمد، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 1/ 99.

(4) البر والصلة، الحسين بن الحسن المروزى، تحقيق د. محمد بن سعيد بخارى، دار الوطن، ط1، عام 1419هـ، الرياض، المملكة السعودية، 1/ 170.

البحث الثانى: فى بيان ما تضمنه من مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

فاعلم أن الموت لّما كان من أعظم الخطوب، وأجلّ ما يلحق الأنفس من الأخطار والكروب، وهو أفجع حادث نزل، وأكبر ما يلمّ بالإنسان من الأخطار والوجل، فهو كما ترى قد قهر العقول بوقعه وهجومه، ومن حقّ ما هو معلوم النزول إذا عظم خطره ألاّ يغفل عنه أهل العقول عن أخذ الأهبة؛ لوقوعه وحلوله، ولما تفطن عليه السلام ما عليه الخلق من كثرة الإعراض، واستيلاء الغفلة على الأفئدة، وقلّة التأهب؛ أيقظهم بالنداء، وجمع نفسه مع أمته فى الذكر، وإن كان قدره أعلى، وخلطهم فى الضمير نزولاً فى الأدب، وملاطفة فى الخطاب، وزيادة فى حسن الخلق، فقال عليه السلام: «**كأن الموت فيها على غيرنا كتب**»؛ لما رأى من قلّة الاستعداد لنزوله صار كأن النازل به الموت سوانا، والمعنى به غيرنا .

قوله عليه السلام: «**وكأن الحقّ فيها على غيرنا وجب» الحقّ:** ما أوجبه الله على عباده من الأفعال والتروك، والفعل وإن كان حقًّا من جهة الله، لكن الرسول قد خصّه الحقّ بالواجب، فقوله: «**وجب**»؛ لأن النفل غير واجب شرعًا، فلما كان من وجب عليه حقّ؛ فإنه لا محالة يتأهب لتأديته، ويستمر فى طريق حصوله، وكان فيما أوجبه الله تعالى علينا فى غاية الغفلة والإعراض، شبه حالنا بحال من لم يجب عليه واجب، وقد تقرر ببرهان العقل قبح ترك الواجبات كما تقرر فى العقول قبح فعل المقبحات.

قوله عليه السلام: «**وكأن الذى نشيع من الأموات سفر عمّا قليل إلينا راجعون**»؛ لما رأى من قلّة فزعنا عن[1] تشييع الموتى، وعدم إخطار ذلك بالبال، وترك التأهب لما يؤول إليه كنا والحال هذه كالذى يشيع المسافر الذى يرجى معاودته بالأرباح قريب، فإنه لا يكترث لفقده فى العادة لرجوى الأوبة على السرعة؛ لأنّا لو قطعنا بأنهم لا يرجعون إلى يوم التناد، وحضور الأشهاد، وأنه لا مردّ ولا رجوع، وأنّ الأمر يؤول إما إلى سعادة دائمة أو شقاوة دائمة فى نعيم سرمد أو عذاب مؤبد؛ لوقع التأهب لمثل تلك الحال ولتزودنا لمثل سفرهم.

قوله عليه السلام: «**نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم**» شبّه صلى الله عليه وآله وسلم حالنا فى أكلنا لتراثهم بعدهم وتقريرهم وتمكنهم فى قبورهم بحال من هو مخلد بعدهم؛ لأن كل من كان مخلدًا لا تنقطع حياته، فهو يفعل هذه الأفاعيل، فلو تحققنا اللحاق بهم وإنّا على سرعة الزوال من الدنيا لم تكن هذه حالنا معهم من خضم أموالهم وقضمها وضمهم فى لحودهم ودفنها .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**نسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة» الواعظة:** قد يراد بها الوعظ، ومعناها: الازدجار

---

(1) فى (د،ك،م) عند . ﴿ولعل المناسب: عند ﴾ .

عن الفعل مع خضوع وهيبة، وقد يراد بها الحادثة من القول والفعل، فالقول قوارع الوعيد، والزجر والفعل ما كان بالأمم الماضية، والقرون الخالية من المثلات العظيمة والعذابات النازلة من: المسخ، والرجفة، والصيحة، والغرق، والريح إلى غير ذلك من أنواع النكالات، فلو ذكرنا هذه القوارع لم تكن حالنا فى الغفلة عن الآخرة هكذا.

والجائحة: هى التى تسحب المال والأهل جميعًا، فلمّا أمنا من وقوعها كان ذلك سببًا للغفلة، ولو ذكرناها لكان ذكرنا لها سببًا فى التيقظ، والتحفظ عن الغفلة والسهو فيما يكون به النجاة من العذاب السرمدى والخلود الأبدى، اللهم اجعلنا ممّن اتّعظ بمواعظك وخرق قرطاس زواجر وعيدك.

قوله عليه السلام: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية الله**» واعلم أن العاقل إذا أعمل فكره فى حال نفسه، وما يعرض فيها من جهة النقص من جهة أن الخلق البشرى لا ينجو من النقصان، ويصدق ذلك ما رُوى عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «كل بنى آدم طف الصاع»[1] يشير بذلك إلى حصول النقصان، وتعذّر الكمال فيهم، ومتى اشتغل الإنسان بالنظر فى صلاح نفسه فإنه يكون له بالإشتغال فى صلاحها، وتقويم أودها مندوحة وسعة عن ذكر عيوب الناس، وعند هذا يستحق من الله تعالى رضوانه والفوز بجواره، فأراد أن المنفق فى الحلال يستحق من الله تعالى رضوانه، ويحوز أعظم الجزاء، ويفوز بالمكسب الرابح والمتجر الذى لا يقاربه خسران.

قوله عليه السلام: «**وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذلّة والمسكنة**» المعنى فى هذا أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بمجالسة الفقهاء والحكماء؛ لما يحصل فى المجالسة لهم من التفقه فى الدِّين، وإحراز السعادة الأخروية، وبما يحصل من مجالسة الحكماء من مزيد النفع بأحكام القرآن ومعانيه، وإحراز معانى السنة ودقائقها.

وأمَر أيضاً بمخالطة أهل الذلة والمسكنة؛ لما يحصل فى ذلك من تواضع؛ ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «جالسوا العلماء تعلموا، وجالسوا الحكماء ترشدوا»[2]، وفى حديث آخر: «اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين»[3]، وكان عليه السلام يحب الوقوف مع المساكين.

ولمّا قال له العظماء من قريش: جنب هؤلاء مجلسك الذين ريحهم كريح الضأن حتى نجلس معك، فوقع ذلك فى نفس

---

(1) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، مكتبة العلوم والحكم، ط2، عام 1983م، الموصل، العراق، 17/ 295. بلفظ: «وإنما أنتم بنو آدم طف الصاع».

(2) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى، تحقيق محمود عمر الدمياطى، دار الكتب العلمية، ط1، عام1998م، بيروت، لبنان، 9/ 76. بلفظ: «جالسوا العلماء، وسائلوا الكبراء، وخالطوا الحكماء».

(3) سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزوينى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر، (ت)، بيروت، لبنان، 2/ 1381. سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى السلمى، تحقيق أحمد محمود شاكر و آخرون، دار إحياء التراث العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 4/ 577.

الرسول طمعًا معهم، وكان الذين يجلس معهم هم الفقراء وأهل المسكنة والعبيد والموالى[1]، فنزلت الآية تأديبًا له، وكفًّا له عمّا هم به من اعتزالهم بقوله:﴿ **وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ** ﴾[2]، وقصة ابن أم مكتوم[3] فى (سورة عبس)، فإن الله تعالى عاتبه، وخشن له فى الحديث على الإعراض عنه؛ لما التفت إلى غيره من رؤساء قريش[4]، فما ذكرناه دال على حسن المجالسة، والمخالطة لمن ذكرناه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**طوبى لمن ذلّت نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شرّه**»، أما **ذل النفس:** فالمراد به هاهنا الانقياد لعظمة الله تعالى، والانحطاط لجلاله، وخفض الجناح للمؤمنين، وسائر أهل الصلاح والمسلمين؛ مخالفة لما عليه الجبابرة، وأهل الظلم والجور من احتقار أولياء الله والتهاون بأحوالهم، وفى الحديث: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله»[5]، وفى حديث آخر: «ما من آدمى إلا وفى رأسه حكمة بيد ملك ما تواضع إلا رفعه، وما تكبر إلا وضعه»[6].

وأما **حسن الخليقة:** فهو عبارة عن لين العريكة، ووطأت الأكناف، وذلك كلّه موجود من حسن الخلائق، وقد خصّ الله تعالى رسوله بالأخلاق الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[7].

وأما **صلاح السريرة:** فهو عبارة عن إصلاح الباطن عن الفساد، والرداءة والغدر والمكر وسائر الخلائق الرذلة، والشمائل المذمومة، فإن هذه هى أخلاق أهل الفسق والنفاق، وأخلاق الصالحين مخالفة لما ذكرناه، فإن باطنهم كظاهرهم، وفى الحديث:

---

(1) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق عبد الرزاق المهدى، دار إحياء التراث، ط1، عام 1417هـ، بيروت، لبنان، 2/ 670.

(2) سورة الكهف من الآية 28.

(3) وهو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم، ونسب إلى أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله، كان ضرير البصر، أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد غزوة بدر، واستخلفه الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم– على المدينة فى ثلاث عشرة غزوة، وقد حضر القادسية وحمل الراية، ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها، عام 23هـ، وقد اختلف فى اسمه، فأما أهل المدينة فيقولون: عبد الله، وأهل العراق يقولون: عمرو. ينظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البصرى الزهرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط1، عام 1968م، بيروت، لبنان، 4/ 205– 212. الأعلام للزركلى، 5/ 83.

(4) ينظر: جامع البيان فى تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبرى، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م، بيروت، لبنان، 9/ 87.

(5) المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق طارق عوض الله محمد، عبد المحسن إبراهيم الحسينى، دار الحرمين، عام 1415هـ، القاهرة، مصر، 5/ 140.

(6) المصنف فى الأحاديث والآثار، عبد الله بن أبى شيبة الكوفى، تحقيق كمال الحوت، مكتبة الرشد، ط1، عام 1409هـ، الرياض، المملكة السعودية، 7/ 237. بلفظ: «ما من عبد إلا وفى رأسه حكمة، فإن تواضع رفعه الله، وإن تكبر وضعه الله». المعجم الكبير، 12/ 218. بلفظ: «ما من آدمى إلا و فى رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته».

(7) سورة القلم الآية 4.

«المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم»[1]، وفى حديث آخر: «المؤمن مثل خامة الزرع»[2].

وأما **عزل الشر عن الناس:** فهو عبارة عن تجنب ما كان يضرهم باللسان وسائر الجوارح، وفى الحديث: «من ضار ضار الله به، ومن شقّ شقّ الله عليه»[3] ، وفى حديث آخر: «لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام»[4]، وفى حديث آخر: «من آذى مسلمًا فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله لعنه الله»[5]. ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا** ﴾[6].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله**»، وإنما قال الفضل من ماله؛ لأنه إذا أنفق ما فوق ذلك فإنه يضرّ بنفسه، وبمن يمونه ممّن هو تحت يده، وقد قال عليه السلام: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[7]، فإنفاق الفضل هو غاية الكياسة والفضل، وأما **إمساك الفضل من القول**، فهو ما زاد على ما يحتاج إليه فى النطق، والصمّت هو الأفضل، إلا ما كان الكلام فيه واجبًا أو مندوبًا، ولقد قال بعضهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وقال بعضهم: إذا تكلمت بالكلمة ملكتنى، وإذا سكت عنها ملكتها، وقال آخر: أنا على ما لم أقل أقدر منى على ما قلت، وقد ورد فى الشرع بالثناء على الصمت، وفى الحديث: «من صمت نجا»[8]، وفى حديث آخر: «الصمت حكم، وقليل فاعله»[9].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ووسعته السّنّة، ولم تستهوه البدعة**» **السُّنَّة:** ما واظب عليه الرسول قولاً وفعلاً، ويشتمل على الفرض والنفل، وأخذه من سُنن الطريق، وهو يكون السير فيه، وأراد أن السّنّة لم تضق عليه فيتجاوز عنها إلى البدعة، بل فيها غنية وكفاية عن غيرها، ولا شكّ أن الاستقامة على السّنّة هى استقامة على الدّين، وفى الحديث: «من رغب عن سنتى

---

(1) مسند أحمد، 2/ 394. سنن أبى داود، 4/ 251. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن على بن موسى البيهقى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة الباز، عام 1994م، مكة المكرمة، المملكة السعودية، 10/ 195. بلفظ : «المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم».

(2) صحيح مسلم، 4/ 2163. بلفظ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع».

(3) سنن الترمذى، 4/ 332، السنن الكبرى للبيهقى، 6/ 70.

(4) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس الأصبحى– رواية محمد بن الحسن– تحقيق د. تقى الدين الندوى، دار القلم، ط1، عام 1991م، دمشق، سوريا، 4/ 1078. بلفظ:«لا ضرر و لا ضرار».

(5) المعجم الصغير(الروض الدانى)، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق محمد شكور محمود الحاج، المكتب الإسلامى دار عمار، ط1، عام 1985م، بيروت، لبنان، وعمان، الأردن، 284/1. وليس فيه: «ومن آذى الله لعنه الله».

(6) سورة الأحزاب الآية 57.

(7) صحيح البخارى، 2/ 112. وتكملته: «وابدأ بمن تعول».

(8) سنن الترمذى، 4/ 660.

(9) مسند شمس الأخبار المنتقى من كلام النبى المختار، على بن حميد القرشى، مكتبة اليمن الكبرى، ط1، عام 1407هـ، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 1/ 507.

فليس مني»[1].

نعم: البدعة لها وجهان:

أحدهما: أن تكون قبيحة، وهو كل ما ضاد السّنّة، وكان ماحيًا لآثارها، ومعفيًا لرسمها، والواجب على الإمام، وعلى سائر المسلمين دفعه وكفّه، وتدخل في الأقوال والأفعال والمذاهب، وفي الحديث: «من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنًا، وإيماناً يوم القيامة»[2]، وفي حديث آخر: «إذا ظهرت البدع فلم يظهر العالم علمه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»[3].

وثانيهما: أن تكون بدعة، وليست مضادة للسّنّة، وهذا نحو ما يبتدع لأغراض حسنة، وهذا نحو الموائد والمناخل[4] والأشنان[5] والشبع، فهذه كلها محدثة بعد النبوة، لكن فيها أغراض ومقاصد، وهكذا في الملابس نحو الدرز[6] في الخياطة والكفّ[7] فإنها حادثة بعد النبوة، وما كان يعرف إلا الشلول[8] في الثياب وغير ذلك ممّا يفعل لأمور حسنة مباحة لا حرج على فاعلها.

استهواء البدعة: هو الميل إليها، والإصغاء إلى فعلها، ولقد سئل أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- عن السّنّة والبدعة والجماعة والفُرقة، فقال: السّنّة ما جاء به الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-، والبدعة ما خالفها، والجماعة والله هم أهل الحقّ وإن قلّوا، والفُرقة أهل الباطل وإن كثروا[9]. اللهم اجعلنا ممّن عمل بالسّنّة وأحياها، ومال عن البدعة، وأماتها إنك سميع

---

(1) موطأ مالك، 1/ 53. صحيح البخاري، 5/ 1949. صحيح مسلم، 2/ 1020.

(2) مسند الشهاب، 1/ 318.

(3) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، عام 1403هـ، الرياض، المملكة السعودية، 2/ 118. بلفظ: «إذا ظهرت الفتن، أو قال: البدع، وسبّ أصحابي؛ فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً».

(4) المناخل: جمع للمنخل، وهو ما ينخل به الدقيق وغيره، ويُعد أحد ما جاء من الأدوات على مفعل بالضم وبالفتح لغة فيه، وانتخل الشيء استقصى أفضله، وتنخله تخيره. ينظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، ط جديدة، عام 1995م، بيروت، لبنان مادة (نخل).

(5) الأشنان: من الحمض يغسل به الأيدي. ينظر: لسان العرب، مادة (أشن).

(6) الدرز: واحد دروز الثوب، وهو فارسي معرب. ينظر: تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، عام 2001م، بيروت، لبنان، مادة (درز).

(7) الكفّ من كففت الثوب أيْ: خطت حاشيته، وهي الخياطة الثانية بعد الشل. ينظر: لسان العرب، مادة (كفف). مختار الصحاح، مادة (كفف).

(8) الشلول: الخفيف، فشللت الثوب أيْ: خطته خياطة خفيفة. ينظر: لسان العرب، مادة (شلل).

(9) تيسير المطالب في أمالي أبي طالب، يحيى بن الحسين بن هارون، تحقيق عبد الله حمود العزي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط1، عام 2002م، عمان، الأردن، 98.

الدعاء، ومجيبه.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم البيانية

وهو نظر يختصّ الأمور المجازية، ولها مدخل عظيم فى كتاب الله والسّنّة الشريفة، ولم أعلم أن أحدًا من علماء البيان أنكر دخول المجاز فى الكتاب والسّنّة، وإنما يحكى الخلاف فى ذلك عن بعض الملاحدة من السبعية وغيرهم، واستعمال المجاز فى كتاب الله تعالى أظهر من نور الشمس، وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ **فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ** ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ **وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ** ﴾[3]، وأما **السُّنَّة:** فالمجازات فيها ظاهرة، وأحسن من غمس يده فى أصباغها، وأجال فكره فى فنونها، وغرائبها الشريف السيد (على بن ناصر)[4]، وقفنا على كتابه الملقب بـ (المجازات النبوية)[5]، فلقد أجاد فى مقاله، لكنه لم يستول على العشر من معشارها، لكنه ذكر أطرافًا منها، فقد قيل: إن أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ألف ألف حديث[6]، وقيل: تسعمائة ألف حديث كلّها مندرجة تحت أربعة أحاديث من طريق الإيجاز والاختصار، وتلك من طريق الإطناب والإسهاب، فهذا الحديث قد اشتمل على استعارات حسنة نذكرها، وجملتها خمس:

الاستعارة الأولى: قوله عليه السلام: «**أيها الناس**» إنما حذف حرف النداء على جهة المجاز بالنقصان؛ كقوله تعالى: ﴿ **وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ** ﴾[7]، واستعمل «**يا**» للقريب، وهى موضوعة لنداء البعيد على جهة التّجوز؛ لمّا كانوا بمنزلة البعيد، بالإضافة إلى الغفلة والذهول عمّا يراد بهم.

الاستعارة الثانية: العموم للخصوص بقوله: «**الناس**»؛ فإنّه عام مستعمل للخصوص؛ لأنَّ المقصود هو من يخاطبه فى ذلك

---

(1) سورة الشعراء الآية 215.

(2) سورة النحل من الآية 112.

(3) سورة الإسراء من الآية 24.

(4) وهو على بن ناصر الدين الحسينى، من أعلام القرن الخامس، ومعاصر الشريف الرضى، وهو أول من شرح نهج البلاغة، وسمى شرحه (أعلام نهج البلاغة). ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 725، 726.

(5) وكتاب المجازات النبوية منسوب للشريف الرضى وطبع تحت تأليفه. ينظر: الأعلام للزركلى، 6/ 99. ﴿ولعل على بن ناصر هو ناسخ مخطوطة المجازات النبوية﴾.

(6) رُوى: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث. ينظر: تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، دار الكتب العلمية، (ت)، بيروت، لبنان، 4/ 419.

(7) سورة يوسف من الآية 82.

المقام إطلاق السفر على جهة التجوز على الأموات، واستعارة «**عمّا قليل**» تجوز بالزيادة فى «**ما**».

الاستعارة الثالثة: إمساك الفضل من القول، وإنفاق الفضل من المال؛ إنما كان إطلاقه على جهة التجوز.

الاستعارة الرابعة: قوله: «**ووسعته السنة، ولم تستهوه البدعة**» الوسع والاستهواء؛ إنما أطلقا على جهة الاستعارة.

الاستعارة الخامسة: الذلّ فى النفس، والحسن فى الخليقة، والصلاح فى السريرة، واردة على جهة المجاز والتوسع بالاستعارة، وهكذا: **عزل الشرّ**، فإنه مجاز كما ترى، فهذه الاستعارات كلّها قد بلغت فى الوعظ كل غاية، واتسق نظامها وحسن تأليفها، وصارت معجبة لما اشتملت عليه من حسن السبك وإعجاب النظم والتأليف.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من البديع

وهو كلام يتعلق بالفصاحة والبلاغة، لا يختصّ بشىء سواهما، وجملة ما أودع فيه أصناف خمسة:

الصنف الأول: السجع[1]

ويقع على أوجه ثلاثة:

أولها: أن تتفق الكلمتان فى الوزن، وفى أعداد الحروف، وما هذا حاله يلقب بالمتوازن، ومثاله: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حسنت خليقته، وصلحت سريرته**».

وثانيها: أن تتفق الكلمتان فى الأعجاز، وتختلفا فى الوزن، ومثاله قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله»، فما هذا حاله يلقب بالمطرف.

وثالثها: أن يتفقا فى الوزن ويختلفا فى الأعجاز، ويلقب بالمتوازى، ومثاله قوله: «**نسينا كل واعظة، وأمنّا كل جائحة**».

الصنف الثانى: الطباق

وهو واقع على وجهين:

أحدهما: أن يكون الطباق لفظيًا ومعنويًا، وهذا نحو قوله: «**وسعته السُّنَّة، ولم تستهوه البدعة**».

وثانيهما: أن يكون الطباق معنويًا، ومثاله قوله: «**أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله**»، فقوله: «**أمسك**» معناه: لم

---

(1) فى (د) التسجيع.

ينفق، ومعنى الطباق: أنْ يُذكر الضدين أو النقيضين جميعًا؛ إما من جهة اللفظ والمعنى، وإما من جهة أحدهما .

الصنف الثالث: التجنيس الكامل

ومثاله قوله: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**»، وقوله: «**أنفق الفضل**»، و«**أمسك الفضل من قوله**»، فذكر العيب والعيب والفضل والفضل من باب التجنيس الكامل.

وأما التجنيس الناقص، فكقوله: «**نسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة**» .

الصنف الرابع: حسن النظم والتأليف

فأنت إذا فكرت فى مفردات هذا الحديث وجدتها مختصّة بالسلاسة، ولم تختصّ بالنقل على المسموع، ولا فيها تنافر، وإذا نظرت فى تركيب الجمل منها وجدت سبكها من أحسن سبك يشبه السلاسل الذهبية.

الصنف الخامس: حسن الإيضاح والكشف لما اشتمل عليه من المعانى المقصودة بالألفاظ المألوفة التى لم تخالطها العنجهانية[1] ولا المعنى شابه الغموض

ولقد جهل موقع البلاغة والفصاحة من زعم أن الكلام الفصيح [2]عند الجهابذة[3] من أهل هذه الصناعة ما لم يكن[4] سلسًا مألوفًا، ولهذا فإنك ترى القرآن والسّنّة الشريفة ألفاظهما فى غاية السلاسة، وحسن التأليف والرقّة والعذوبة، مع أنهما قد بلغا الغاية فى البلاغة، وفى هذا الحديث دلالة على أن ما قاله جهل بالبلاغة ومواقع الفصاحة.

---

(1) العنجهانية، والعنجهية الكِبْر والعظمة. ينظر: لسان العرب، مادة (عجه) .

(2) فى (د) زيادة : ما كان وحشيًا عربيًا بل الحق أن الكلام الفصيح.

(3) الجهبذ: بالكسر النقاد الخبير بغوامض الأمور البارع العارف بطرق النقد، وهو معرب. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدى، تحقيق د. عبد العزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، عام 1970م، الكويت، مادة (جهبذ) .

(4) فى (د،م) ما كان.

عَنْ خَلِيفَةَ بْنِ الْحُصَيْنِ[1] قَالَ: سَمِعْتُ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِى[2] قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– فِى وَفْدٍ مِنْ جَمَاعَةِ بَنِى تَمِيمٍ، فَقَالَ لِى: «**يَا قَيْسُ اغْتَسِلْ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ**»، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عِظْنَا مَوْعِظَةً نَنْتَفِعُ بِهَا، فَقَالَ عليه السلام: «**يَا قَيْسُ إِنَّ مَعَ العِزِّ ذُلاًّ، وَإِنَّ مَعَ الْحَيَاةِ مَوْتاً، وَإِنَّ مَعَ الدُّنْيَا آخِرَةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً، وَإِنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثَوَاباً، وَلِكُلِّ سَيِّئَةٍ عِقَاباً، وَإِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً، إِنَّهُ لاَ بُدَّ لَكَ يَا قَيْسُ مِنْ قَرِينٍ يُدْفَنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ، وَتُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ كَرِيماً أَكْرَمَكَ، وَإِنْ كَانَ لَئِيمًا أَسْلَمَكَ، ثُمَّ لاَ يُحْشَرُ إِلاَّ مَعَكَ، وَلاَ تُبْعَثُ إِلاَّ مَعَهُ، وَلاَ تُسْأَلُ إِلاَّ عَنْهُ، فَلاَ تَجْعَلْهُ إِلاَّ صَالِحًا، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَالِحاً لَم تَأْنَسْ إِلاَّ بِهِ، وَإِنْ كَانَ فَاحِشاً لم تَسْتَوْحِشْ إِلاَّ مِنْهُ، وَهُوَ فِعْلُكَ**»[3].

فنقول: الحمد لله الذى جعل الأعمال الصالحة ذريعة إلى إحراز الخيرات، وصيّرها وسيلة إلى البلوغ إلى نيل ثوابه والرضوان إلى أعلى الدرجات، الذى عمّ قلوب أوليائه بروحه وريحانه، وساقهم بلطائف لطفه إلى إحراز مزيد كرمه وإحسانه، و زجرهم بأنواع التخويف عن التعرض لمواقع سخطه وعصيانه، وشوقهم بآمال الرجاء إلى الفوز بجواره، وإحراز ما أعدّ لهم من مزيد امتنانه.

والصلاة على الداعى إلى الهدى، والمنقذ لمن اهتدى بهديه من الضلالة والردى، وعلى آله الطيبين سفن النجاة، والهادين إلى كل مكرمة ومنجاة.

واعلم أنَّ هذا الحديث مشتمل على النظر فى أمور خمسة، نفصلها بمعونة الله.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

فالعزّ: هو القهر والغلبة، **والموت:** نقيض الحياة، والحياة بنية ممتزجة على جهة الاعتدال، بها يكون إدراك المدركات، وعليها يتقرر أمر القدرة والعلم؛ لأنَّها مصححة لهذه الأمور كلها، والموت يزيلها ويبطلها، **والحسيب:** المحاسب، **والرقيب:** المراقب،

---

(1) وهو خليفة بن حصين بن قيس بن عاصم التميمى المنقرى البصرى، ابن أخ حكيم بن قيس بن عاصم، روى عن أبيه حصين بن قيس بن عاصم، وروى عن جده قيس بن عاصم. ينظر: تهذيب الكمال، يوسف بن الزكى عبد الرحمن أبو الحجاج المزى، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط1، عام 1980م، بيروت، لبنان، 8/ 313.

(2) وهو قيس بن عاصم بن سنان التميمى المنقرى، وفد على رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– فى وفد تميم فأسلم سنة 9 هـ، فقال الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم– : «هذا سيد أهل الوبر»، وقد كان حرّم على نفسه الخمر فى الجاهلية توفى سنة 20هـ. ينظر: الإصابة، 5/ 483. الأعلام للزركلى، 206/5. فى (د) المنقر. ﴿وهذا فيه سقط﴾.

(3) الأربعون حديثًا السيلقية، 16.

وهما مشتقان من الحفظ[1] والمراقبة، ومعنى **الاشتقاق:** أنْ تكون اللفظتان يجمعهما جامع معنوى، وكل من ألفاظ العموم، وهى تفيد الاستغراق لغة وشرعًا، **والحسنة:** مأخوذة من الحُسن، وهى موضوعة على كل ما يسرّ، **والسيئة:** مأخوذة من السوء، وهى اسم لما تنفر عنه النفوس، والمراد **بالحسنة** هاهنا: الطاعة، والمراد **بالسيئة:** المعصية، **والثواب:** اسم للمنافع التى تستحق على الطاعة، سُمى بذلك؛ لأنه يرجع على صاحبه بالمسرّة، **والعقاب:** اسم المضار التى تستحق على المعصية، وسُمى عقابًا؛ لأنه يستحق عقيب المعصية، **والأجل:** هو غاية كل شىء ونهايته، ومنه أجل المُطلّقة؛ لأنه الغاية فى التحريم حتى تحلّ للأزواج، **والكتاب:** هو العلم الكاشف على حدّ الأجل ونهايته، **والبدّ:** الفسحة والسعة، فإذا قال: لا بدّ لك من هذا؛ أىْ: لا سعة ولا منه مندوحة عن فعله، **والقرين:** ما يقرن مع غيره؛ وأصله فى الإبل يقرن الصعب مع الذلول، فلا يزال يحاذيه ويصاحبه حتى يلين مراسه وينقاد بسهولة، **والدفن:** المواراة، **الكرم:** معروف، **واللؤم:** معروف أيضاً، والمراد **بالكرم:** هاهنا المطابق للتقوى، والمراد **باللؤم:** ما يستحق عليه العقاب، **والكريمة من الإبل:** ما كانت غزيرة اللبن، **واللئيمة:** ما قلّ لبنها، وقد نُقل فى الاستعمال إلى بنى آدم، فجُعل الكريم الحسيب، واللئيم البخيل.

وفى الحديث: أنَّ الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– قال فى صفة يوسف– عليه السلام– : «هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم»[2] أراد أنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق[3] بن إبراهيم، وهؤلاء قد أكرمهم الله بالنبوة، واصطفاهم للرسالة.

الحشر: هو الجمع والسَوق؛ وفى الحديث: «يحشر الناس إلى جهة الشام حُفاة عُراة غُرْلاً[4]»[5]، **والبعث:** إخراج الشىء عن غيره، فإذا أُخرج الإنسان من قبره قيل: إنه مبعوث، **ومخرج** السؤال هو الخطاب، **والصالح:** نقيض الفاسد من كل شىء السالم من العيوب. **الفاحش:** هو القبيح، والفحش والقبح سواء، **والوحشة:** نقيض الأُنس، وهو سكون الخاطر والبال، والفعل للإنسان ما كان حاصلاً بالقدرة عند الداعية.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية

«**يا قيسُ**» منادى مقصود، و«**الضمة**» فيه ضمة بناء، ويُحمل على محلّه بالنصب، ويتبعه على لفظه، فتقول: يا زيدُ

---

(1) الحسيب مشتق من المحاسبة، ولعل القول: الحفظ من التحريف.

(2) صحيح البخارى،3/ 1237.

(3) فى (د) سقط: إسحاق.

(4) غرل: جمع أغرل أىْ: أقلف؛ فهم غير مختونين. ينظر: لسان العرب، مادة (غرل)، ومادة (قلف) .

(5) صحيح البخارى، 3/ 1271. بلفظ : «تحشرون حفاة عراة غرلاً».

الطَّويلُ والطويلَ، **والذّلّ والموت:** منصوبان بـ «**إنَّ**» المؤكدة مع منصوب، إما على الظرفية إنْ جعلناه اسمًا، وإن كان حرفًا فالفتحة فيه للبناء، وهذه المنصوبات كلها بـ «**إنَّ**».

«**بدّ**» مبنى مع«**لا**» على الفتح، وهو اسم بمعنى: لا سعة ولا مندوحة، وهو اسمها، والخبر: هو الجار والمجرور.

قوله: و«**يدفن معك وهو حىّ**» جملة ابتدائية فى موضع نصب على الحال من الضمير فى: «**يدفن**»، وقوله: «**وأنت ميت**» جملة ابتدائية منصوبة على الحال أيضاً، والرابطُ هاهنا بين الحال وصاحبه: «**الواو**»، والضمير فى: «**تدفن**»، و«**إنْ**» شرطية، وجوابه قوله: «**أكرمك**»، وهكذا قوله: «**وإن كان لئيمًا أسلمك**»، وهو من باب قولهم: أسلمته للقتل، أىْ: خليّت بينه وبين قاتله، بخلاف ما إذا قلت: أسلمته من القتل، فالمراد منعه عن القتل، كما قال تعالى: ﴿ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ ﴾[1] أىْ: من أجْل الجوع،﴿ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾[2] أىْ: من أجْل الخوف.

«**ثم لا يُحشر إلا معك**» الاستثناء مفرغ، وهكذا قوله: «**ولا تُبعث إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه**»، والتقدير: لا يُحشر مع شىء إلا معه، ولا تُبعث مع شىء إلا معه، ولا تُسأل عن شىء إلاعنه، والتفريع[3] كما ورد فى الأسماء فهو وارد فى الصفات أيضاً، **فالأسماء** كقولك: ما ضربت إلا زيدًا، **والصفة** كقولك: ما جاءنى إلا ضاحكاً، ولا مررت بزيد إلا قائمًا.

سؤال: أراه جعل العمل محشورًا مع الإنسان، وجعل الإنسان مبعوثًا مع العمل، فخالف بينهما، فما السرّ فى ذلك؟

وجوابه: هو أن معنى «**مع**» المصاحبة، فإذا حُشر الإنسان كان عمله مصاحبًا له مضافًا إليه؛ لأن المقصود هو الجزاء عليه بخلاف ما إذا حشر؛ فإنه يكون مصاحبًا لعمله؛ لأن البعث: إخراجه من قبره، فالإنسان يكون مضافًا إلى عمله لما كان العمل هو المقصود، فكأنه يُبعث فى ظِلّ عمله، كما ورد فى الحديث:«المؤمن فى ظل صدقته»[4] لمّا كانت هى المقصودة، فافترقا.

قوله: «**فلا تجعله إلا صالحًا**» جملة واردة على جهة النهى، مجزومة بـ «**لا**»، و«**صالحًا**»: منصوب على أنه مفعول ثانٍ لـ «**تجعله**»، والمفعول الأول: هو الضمير، وهو راجع إلى «**القرين**»، والجملة الشرطية فى موضع الخبر؛ لأنّ «**مع**» جوابها فى الأولى والثانية؛ لأن الفائدة لا تتمّ إلا مع ذِكر الجواب، والضمير فى قوله: «**وهو فعلك**» راجع إلى القرين فى أول الكلام، وهى جملة ابتدائية لا موضع لها من الإعراب؛ لكونها ابتدائية.

---

(1) سورة قريش من الآية 4.

(2) السورة نفسها ومن الآية نفسها.

(3) هنا المقصود التفريغ، ولعل التفريع خطأ عند النسخ.

(4) المعجم الكبير، 17/ 286. بلفظ: «وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته».

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية

وفيه بحثان:

البحث الأول: فى إيراد ما تضمنه من علوم المعانى

واعلم أنَّ هذا الحديث قد اشتمل على فنون من علم المعانى، نشير إلى كل واحد منها فى معرض التنبيهات بمعونة الله تعالى.

التنبيه الأول: التأكيد

وهو معنى فى الكلام يُذكر لإزالة الاحتمال، وقطع الشكوك، فقد صدّر عليه السلام هذه الجمل بـ «**إنّ**» المؤكدة فى صدرها؛ ليدل بها على تأكيد المعنى الذى جيء بها من أجله، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إنَّ مع العزّ ذلاً، وإنَّ مع الحياة موتاً**» إلى آخرها، ثم إنه لا يخفى على الخبير[1] موقع التأكيد من الكلام فإنه يكسبه موقعًا فى النفس، وتمكينًا فى القلوب.

التنبيه الثانى: الفصل والوصل

فالوصل: ما كان بـ «**الواو**» فى أول الجمل المؤكدة، كقوله: «**وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكلّ شىء حسيبًا، وعلى كل شىء رقيبًا**»، فـ «**الواو**» هاهنا دخلت للوصل بين الكلام الأول والآخر، وللربط بين الجمل المتعاقبة؛ لأن المعطوف والمعطوف عليه لابدّ من أنْ يكون بينهما ضرب من المقارنة والملاءمة، ولهذا قبح قولك: زيد قائم، واليهود كفار؛ لمّا لم يكن بينهما نوع من المقاربة والمناسبة، **والفصل:** إتيان الجمل من غير (واو)، وهكذا كقوله عليه السلام: «**إنه لا بدّ لك يا قيسُ من قرين**»، فجاءت هذه الجملة من غير (واو) بينهما على الفصل بينها[2] وبين الجملة السابقة، والفصل والوصل من مهمات علم المعانى.

التنبيه الثالث: الإيجاز والاختصار

ولهما فى العلوم المعنوية موقع عظيم لا يخفى على من له أدنى ذوق، فقوله: «**إن مع العزّ ذلاً**» يريد لأهل العزّ، «**وإن مع الحياة موتاً**» لأهل الحياة، «**وإن لكلّ شىء حسيبًا**» من جهة الله، «**وعلى كل شىء رقيبًا**» من الملائكة والحفظة، «**وإن لكلّ أجل كتابًا**» يحيط بجميع الحوادث، «**وإن لكلّ حسنة ثوابًا، ولكلّ سيئة عقابًا**» من عند الله جزاء على هذه الأعمال، «**فإن كان كريمًا**

---

(1) فى (د) المميز.

(2) فى (د،م) بينهما . ﴿ولعل المناسب: بينها﴾ .

أكرمك» بالثواب من الله تعالى، «**وإن كان لئيمًا أسلمك**» لعقاب الله، فهذه التعلقات كلّها محذوفة، وهى مراده، وإنما حذف على جهة الإيجاز والاختصار.

التنبيه الرابع: الحصر

وهو التردد بين النفى والإثبات، وهذا كقوله: «**لا يُحشر إلا معك، ولا تُبعث إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه**»، وكقوله: «**لم تأنس إلا به**»، و«**لم تستوحش إلا منه**»، والحصر يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون حصرًا للصفة على الموصوف، كقولك: ما كاتبًا[1] إلا زيد[2].

وثانيهما: أن يكون حصرًا للموصوف على الصفة، كقولك: ما زيد إلا كاتب[3].

التنبيه الخامس: التقديم والتأخير

ولهما دخول فى علم المعانى؛ لعظم موقعه، وهذا كتقديم خبر «**إنَّ**» على اسمها فى قوله: «**إنَّ لكل شىء حسيبًا، وعلى كل شىء رقيبًا، ولكل حسنة ثوابًا، ولكل سيئة عقابًا**»، فإن الأصل تأخيره، ولكن قُدّم[4] على جهة الاعتناء بالخبر، كقولك: قائم زيد، وكريم عمرو، فهذه التنبيهات من مقاصد علم المعانى قد اشتمل عليها الحديث.

البحث الثانى: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم التى أرادها عليه السلام

وأراد صلى الله عليه وآله وسلم أن عزّ الدنيا لا دوام له؛ لأنّ الذّلّ يتعقبه لا محالة، ولو لم يكن إلا بالموت لكان كافيًا؛ لأنّه يصير بالموت جيفة ملقاة لا حراك به، ومحكومًا عليه بعد أن كان حاكمًا ومصرَفًا مدبَرًا بعد أن كان على خلاف ذلك، فلا عزّ فى الحقيقة إلا عزّ الآخرة؛ لأنه لا ذّلّ يتعقبه ولا موت ينقصه ويكدره، فالمتوجه على كل عاقل أن يعتبر فى حال هذه الدنيا؛ ليترك المنافسة فى عزّها الزائل، وشرفها المنتقل، وظلها الزائل، فحلاوة رضاعها لا يقوم بمرارة فطامها، وسرور لياليها لا يكافئ فى غموم أيامها.

(1) السليم قول: ما كاتب إلا زيد، برفع «كاتب»؛ لأنّ «إلا» الاستثنائية أبطلت «ما» عن العمل. ينظر: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط2، عام 1985م، دمشق، سوريا، 1/ 374.
(2) فى (د،ك،م) ما زيدًا إلا كاتب. ﴿وهو غير سليم﴾.
(3) فى (د،ك،م) ما كاتب إلا زيد. ﴿وهو غير سليم﴾.
(4) فى (د) التقديم. ﴿المناسب للسياق قُدّم﴾.

«**وإنَّ مع الحياة موتًا**» أراد أن الحىّ إذا خطر بباله أنه يموت لا محالة كان ذلك أكثر داعيًا له إلى الزهد فى الدنيا، والإعراض عنها، والإقبال إلى الآخرة، والرغبة فيها إذا كانت دارًا لا يظعن عنها الساكن ولا يرحل المقيم.

«**وإنَّ لكلّ شىء حسيبًا، وعلى كل شىء رقيبًا**»، والحسيب والرقيب (فعيلان) بنيا على المبالغة، **فالحسيب:** مأخوذ من المحاسبة، **والرقيب:** من المراقبة، وهو التحفظ على الشىء، والمراد من ذلك أنه ما من شىء يفعله الإنسان فى السرّ والعلانية إلا وله محاسب من الله، وإن العبد لا يقدم على صغيرة ولا كبيرة إلا والله تعالى رقيب، والملائكة شهود، فكيف يجترئ العاقل- والحال هذه- على الإقدام على فعل المعاصى على ترك شىء من الواجبات.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن لكلّ شىء حسنة ثوابًا، ولكل سيئة عقابًا**» أراد أن الحسنة هى الطاعة، وأن السيئة هى المعصية، سُميا بذلك لمّا كان[1] يؤديان إلى ذلك، كما يُسمى العصير خمرًا؛ لمّا كان يؤدى إليه.

تنبيه: اعلم أن المتكلمين مختلفون هاهنا فى طرفين:

الطّرف الأول: فيما يستحق به الثواب والعقاب

فالذى عليه أئمة الزيدية، والجماهير من المعتزلة أنهما إنما يستحقان على الطاعة والمعصية، وأنهما أعنى الطاعة والمعصية سببان فى استحقاقه، والمحكى عن الأشعرية أن الثواب تفضل من جهة الله تعالى يؤتيه من يشاء، ويخصّه من يشاء، والعقاب وإن كان مستحقًا على المعصية، ولكنه يجوز أن يعفو عن المعاصى، وأنه لا معنى للوجوب على الله، ولايقبح من جهته قبيح، ولا يحسن من جهته حسن، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وصرحوا ببطلان الأحكام العقلية من الحسن والقبح، والوجوب، والندب، وأن مستند[2] هذه الأحكام كلها الشرع، ولا تصرف للعقل فيها، ولا قوة لنا على تحصيلها، وعلى القضاء بها، وحُكى عن الشيخ أبى القاسم الكعبى[3] شيخ معتزلة بغداد[4] أن الثواب إنما يستحق ليس على الطاعة، وإنما هو شكر للنعمة.

وأما **العقاب** فيُستحق على المعصية؛ والمختار هو ما أشار إليه الشرع من أن الطاعة سبب فى استحقاق الثواب عليها، وأن

---

(1) فى (د) كانا . ﴿ولعله الأنسب﴾ .

(2) فى (د) مسند .

(3) وهو عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى، رأس المعتزلة فى زمانه، توفى سنة 319هـ ببلخ. ينظر: لسان الميزان، أحمد ابن على بن حجر العسقلانى، تحقيق دائرة المعارف النظامية الهند، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ط3، عام 1986م، بيروت، لبنان، 3/ 255. الوافى بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، تحقيق أحمد الأرناؤوطى، تركى مصطفى، دار إحياء التراث، عام 2000م، بيروت، لبنان، 17/ 17.

(4) المعتزلة البغدادية: أصحاب بشر بن المعتمر، وهو من وجوه المتكلمين، وكان جميع معتزلة بغداد من أتباعه، ومن البغداديين عيسى بن صبيح الملقب بأبى موسى المردار، وجعفر بن مبشر، وأبو جعفر الاسكافى، وأبو الحسين الخياط، وأبو القاسم عبد الله البلخى الكعبى. ينظر: شرح نهج البلاغة، 1/ 7.

المعصية سبب فى استحقاق العقاب عليها، ويدل عليه قوله تعالى:﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1]، وقوله:﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[2]، وقوله:﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[3]، فهذه واردة كلها دالة على ما ذكرناه من الاستحقاقين.

الطّرف الثانى: فى الإحباط والتّكفير

اعلم أن الإحباط والتّكفير إنما يتصوران على قول من يقول بوجوب التوفير فى كل واحد من المستحقين الثواب والعقاب، فأما من لا يقول بالوجوب على ما[4] حكيناه عن الأشعرية، فلا وجه لجريهما بحال، فأما من قال بالوجوب لتعذر اجتماعهما، ففيه مذهبان:

المذهب الأول: إن الثواب والعقاب يتساقطان على الدوام، والغلبة للأكثر فى التوفير، وهذا هو رأى **الشيخ أبى هاشم**[5] .

والمذهب الثانى: إن الأقلّ يسقط فى جنب الأكثر، ولا يكون له حكم، وهذا هو رأى **الشيخ أبى على الجبائى**، فعلى رأى **أبى هاشم**، إذا استحق عشرين جزءًا من الثواب وعشرة أجزاء من العقاب سقط من الثواب عشرة، ووفرت عشرة، وعلى رأى **الشيخ أبى على** تسقط أجزاء العقاب، ولا يكون لها حظّ فى الإسقاط.

وإذا[6] قال: «**لكل حسنة ثوابًا، ولكل سيئة عقابًا**»، فهذا على ظاهره مقبول فى الطاعة والمعصية، والحسنة والسيئة، إلا أن يحصل على الحسنة ما يحبطها من العقاب، ويحصل على السيئة ما يُكفّرها من التوبة، وثواب أعظم منها إن قلنا بجواز ذلك.

«**وإنّ لكل أجل كتابًا**» يريد أن الله تعالى قد كتب الآجال كلها فى اللوح المحفوظ، فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وهكذا حال الأرزاق والأمطار والأقضية المتعلقة بالأوامر والنواهى، فإنها مقدرة مكتوبة، ويصدق ذلك قوله تعالى:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[7].

---

(1) سورة الزلزلة الآيتان 7، 8.
(2) سورة النساء من الآية 123.
(3) سورة الرحمن الآية 60.
(4) فى (ك،م) كما. ﴿وزيادة الكاف زيادة مخلة بالمعنى﴾.
(5) وهو عبد السلام بن أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة، ولد سنة 247هـ، وتوفى ببغداد سنة 321هـ. ينظر: الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق، المعروف بابن النديم، دار المعرفة، عام 1978م، بيروت، لبنان، 247/1. وفيات الأعيان، 3/ 183. لسان الميزان، 4/ 16.
(6) فى (ك) الفاء بدلاً عن الواو.
(7) سورة الحديد الآية 22.

قوله: «**إنه لا بدّ لك يا قيس من قرين يُدفن معك، وهو حيّ، وتُدفن معه، وأنت ميت**» يريد أن العمل لا يفارق صاحبه حيًّا ولا ميتًا، وأنه حاكم على الإنسان فى حال موته، كما أن الإنسان حاكم على العمل فى حال حياته متمكن من الزيادة، والنقصان فيه، فنسأل الله عملا مقبولاً عنده، ورضوانًا نفوز به من جهته.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فإن كان كريمًا أكرمك، وإن كان لئيمًا أسلمك**» يريد أن العمل إذا كان مقبولاً عند الله تعالى فصاحبه يكرم بالثواب والأجر من الله تعالى، وإن كان لئيمًا يعنى غير مقبول فإنه يسلمك للعذاب والسخط من الله تعالى.

قوله عليه السلام: «**ثم لا يحشر إلا معك**» يريد أنه يصاحبك فى المحشر؛ لتستحق عليه الجزاء «**ولا تبعث إلا معه**» يريد أنه مصاحب لك عند الشقاق فيترك ولدك عليك، وهذا كلّه دال على الملازمة عند الحشر والبعث.

قوله عليه السلام: «**ولا تُسأل إلا عنه**» أراد أن المقصود فى الدنيا هو إحراز الأعمال الصالحة؛ ليستحق عليها الثواب، والخلود فى الجنة، فليس فى الآخرة سؤال إلا عنها[1]، ويؤيد ذلك أن المار فى الطريق المخوفة إذا لقيه المحاربون والأكراد[2] الذين يقتعدون فى الطرقات لإخافتها فإنهم يقولون: من رفيقك؟ فإن استصحب منيع الجانب الذى له سلطان، وقهر، وقوة، فإنه يُكف عنه، ولا يعترض له إلا بخير، وإن استصحب لئيمًا نازل القدر، ركيك الهمة، لم يتمالك فى أخذه، وعند السؤال تبادر إلى الاعتصام بذكره، فهكذا حال العمل الصالح يسأل عنه؛ لينجو به عند الأهوال العظيمة.

قوله عليه السلام: «**فلا تجعله إلا صالحًا**»، فهو سبب الأُنس بالجزاء، وهو العمل المقدم ذكره، فإنه **إن** كان صالحًا، فهو سبب للأنس بالجزاء المستحق عليه، وإن كان فاحشًا لئيمًا مردودًا لم يستوحش إلا منه؛ لما يحصل عليه من الجزاء بالعقاب الذى لا وحشة أعظم منها، «**وهو فعلك**» بيان؛ لأن جميع ما تقدم من هذه الأحكام كلها متعلقها العمل.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم البيانية

اعلم أن هذا النظر مداره على معرفة الاستعارات، والتوسعات الجارية فى كلامه عليه السلام، ونحن نشير إليها، ونبين مواقعها، وجملتها أربعة مواقع:

الموقع الأول: قوله:«**إن مع العزّ ذلاً، وإن مع الحياة موتًا**»، فالمعية هاهنا استعارة حسنة؛ لأنها تقتضى المصاحبة، والمصاحبة حقيقتها إنما تستعمل فى الأجسام، وتستعمل فيما يقترنان جميعًا، ويكون حصولهما دفعة واحدة، فأما مع الافتراق فلا.

---

(1) فى (د،ك،م) عليها . ﴿ولعل الأفصح: عليها ﴾ .

(2) الأكراد: من نسل كرد بن عمرو بن مزيقياء، وبلادهم أرض فارس عراق العجم والأذربيجان والأربل، والموصل. ينظر، تاج العروس، مادة (كرد) .

الموقع الثانى: قوله: «لا بدّ لك يا قيسُ من قرين»، فإطلاق **القرين** مجاز، وقوله: «**يُدفن**» مجاز، وقوله: «**وهو حىّ**» مجاز، فهذه استعارات ثلاث.

الموقع الثالث: قوله: «**وتُدفن معه، وأنت ميت**» استعارة أيضًا، فإن **الدفن** لا يُتصور فى العمل، فإطلاق[1] الكرم واللؤم على العمل مجاز على جهة الاستعارة.

الموقع الرابع: إطلاق **الحشر والبعث على العمل** توسع، فهذه مواقع الاستعارات قد اشتمل عليها هذا الحديث، وقد وقعت هاهنا أحسن موقع، وحسنت نهاية الحسن، ولله درّ كلامه عليه السلام لقد فاق، واتسقّ فى البلاغة أىّ اتساق.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علم البديع

وجملة ما اشتمل عليه من ذلك أجناس ثلاثة:

الجنس الأول: السجع

فقوله: «**عقابًا**»، و«**كذابًا**» كلّه تسجيع، وهو من المتوازن؛ لاتفاق الأعجاز والأوزان، وقوله: «**حسيبًا**»، و«**رقيبًا**» من المتوازن أيضًا، ومن المطرّف قوله: «**عقابًا**»، و«**ثوابًا**»؛ لاختلافهما فى الأوزان دون الأعجاز.

الجنس الثانى: الطباق

فـ «**السيئة**» مع «**الحسنة**» طباق، و«**العقاب**» مع «**الثواب**» طباق، و«**الموت**»، و«**الحياة**» طباق، و«**الكرم**»، و«**اللؤم**» طباق، و«**الصلاح**»، و«**الفساد**» طباق، و«**الأنس**»، و«**الوحشة**» طباق أيضًا.

الجنس الثالث: الإيضاح للمعانى، وحسن الكشف للمقاصد

فأنت إذا أعملت الفكرة فى سياق هذا الحديث وجدته قد أحرز نهاية الوعظ، وأرشد إلى المصالح الأخروية، والآداب الدينية، ولم يألُ جهدًا فى الترغيب، والترهيب مع جزالة الألفاظ، وبلاغة المعانى.

---

(1) فى (د) الواو بدلاً عن الفاء.

الحديث الثالث

عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءَ[1] قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وآله وسلم- يوم جمعة-، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا، وَصِلُوا الَّذِى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ تُسْعَدُوا، وَأَكْثِرُوا الصَّدَقَةَ تُرْزَقُوا، وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ تُخْصَبُوا، وَانْهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ تُنْصَرُوا، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ أَكْيَسَكُمْ أَكْثَرُكُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَحْزَمَكُمْ أَحْسَنُكُم اسْتِعْدَادًا لَهُ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْ عَلاَمَاتِ الْعَقْلِ التَّجَافِى عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّزَوُّدُ لِسُكْنَى الْقُبُورِ، وَالتَّأَهُّبُ لِيَوْمِ النُّشُورِ**»[2] .

فنقول: الحمد لله المنعم، الذى رخّص بالتوبة عن المذنبين درن الأوزار، وألهمهم إلى الإنابة إليه، ومهّد لهم بكرمه ورحمته طريق الاعتذار، واصطفاهم بالمحبة وعظيم الزلفة، وأكرمهم بخضوع الندم وشرف الاستغفار، وصفى سرائرهم، وبعدهم عن مراجعة ما تابوا عنه، واستخلصهم بخالصة ذكرى الدار حتى صاروا لذلك من عباده المقربين المصطفين الأخيار، وواظبوا على فعل الطاعات، وشكر القبول آناء الليل وأطرف النهار، وقربوا إلى خالقهم نهاية القرب، وفروا إليه أىّ مهرب وفرار.

والصلاة على رسوله النبى المختار، وعلى آله الطيبين البررة الأطهار صلاة دائمة ما أظلم ليل وابتلج فجر نهار، واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور خمسة:

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

التوبة: هى الرجوع والإنابة، **والتوبة:** فى لسان حملة الشريعة، حقيقتها مركبة من وصفين:

أحدهما: الندم على القبيح لقبحه، وهو متعلق بالماضى؛ لأن حاصله الأسف وتدارك ما فات.

وثانيهما: العزم على ألاّ يعود إلى مثل ما تاب منه، ومتعلقه المستقبل، وهذان الوصفان تقوم[3] بهما حقيقة التوبة، والمختار عندنا تفصيل نشير إليه؛ وهو أن حقيقة **التوبة:** الندم، والأسف، وتدارك ما مضى، وهذا كافٍ فى تحصيل حقيقتها، ونحن وإن اعتبرنا العزم فليس لأنه جزء من حقيقتها، ولكنّ الواجب على كل أحد أن يعزم فى المستقبل من الزمان على تأدية كل واجب،

---

(1) وهو عويمر، وقيل: عامر، واختلف فى اسم أبيه، فقيل: عامر، وقيل: عبد الله، قيل: زيد، وأبوه ابن قيس بن أمية الخزعى الأنصارى، أسلم يوم بدر، تولى قضاء دمشق فى عهد عمر- رضى الله عنه- توفى فى خلافة عثمان- رضى الله عنه-. ينظر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، 3/ 1227، 1228. الإصابة فى تمييز الصحابة، 4/ 474.

(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 17.

(3) فى (ك) يقوم.

وعلى الانكفاف من كل قبيح، وهل تصحّ التوبة من قبيح دون قبيح أو لا؟

فيه خلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إن القبيح شامل لكل قبيح، فلا يصحّ الندم على قبيح دون قبيح مثله، والمختار عندنا جواز ذلك، وهو رأى الإمام (المنصور بالله)- عليه السلام- فإنه قال هاهنا فى شرحه لهذا الحديث: وعندنا بل هو إجماع الأمة أن كل من تاب من دِين النصرانية إلى دِين الجبرية[1] أن توبته صحيحة، وأنه قد خرج عن حكم النصارى إلى حكم المسلمين، وإن كان مصرًا على ذنب عظيم، بل من أئمتنا من جعله كفرًا[2]، فحصل من كلامه هذا فائدتان:

الفائدة الأولى: جواز التوبة من ذنب دون ذنب عنده، فإذا تاب عن شرب المسكر، ولم يتب عن فاحشة الزنا جاز ذلك، وكان عقابه على إتيان الفاحشة دون شرب المسكر.

الفائدة الثانية: إن ظاهر كلامه هاهنا دال على أنه لا يقول بإكفار المجبرة، كما هو المختار عندنا، ويدل على ما قلناه من كلامه أمران:

أحدهما: ما صرح به من المثال بقوله، فيمن خرج عن حكم النصارى بالتوبة عن دينهم إلى دِين الجبرية أنه خارج إلى حكم المسلمين، فسماهم مسلمين ولو كانوا كفارًا لم يطلق عليهم اسم المسلمين.

وثانيهما: أنه قال: من أئمتنا من جعله كفرًا، يعنى الجبر، فدلّ من مذهبه أنه لا يقول بإكفارهم، فهذا تصريح منه بذلك، وهم يروون عنه خلاف ذلك، ويزعمون أنه من أشدّ الناس مبالغة فى إكفار المجبرة؛ والصحيح من مذهبه ما صرح به هاهنا من عدم إكفارهم بالتأويل الذى اعتقدوه، فأما خطابهم فلا إشكال فيه، وما اخترناه فهو رأى (المؤيد بالله)[3]، وموضع الانتصار لما اخترناه قد ذكرناه فى كتابنا الملقب بكتاب (**التحقيق فى الإكفار والتفسيق**)[4]، فمن أراده فليطالعه، فإنه يجد فيه ما يشفى ويكفى.

قوله:«**قبل أن تموتوا**»، واعلم أن الناس مختلفون فى حقيقة الموت، ولهم فيه أقاويل ومذاهب كاذبة وظنون فاسدة، وجملتها أربعة:

القول الأول: إن **الموت:** هو العدم، وأنه لا نشر ولا حشر، ولا عاقبة للطاعة ولا للمعصية، وإن موت الإنسان كموت

---

(1) الجبرية: من تنفى الفعل حقيقة عن العبد، ويضيفه إلى الله تعالى، والجبرية أصناف، فمنها، الجبرية الخالصة: وهى التى تثبت للعبد فعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة: وهى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً. ينظر: الملل والنحل، 1/ 85.

(2) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 28.

(3) وهو أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين الهارونى الحسنى، مولده بآمل طبرستان سنة 333هـ، عرفه الناس عالمًا ورعًا تقيًا، توفى سنة 411هـ. ينظر: التدوين فى أخبار قزوين، عبد الكريم بن محمد الرافعى القزوينى، تحقيق عزيز الله العطارى، دار الكتب العلمية، عام 1987م، بيروت، لبنان، 2/ 167. الأعلام للزركلى، 1/ 116. معجم المؤلفين، 1/ 209. أعلام المؤلفين الزيدية، 100.

(4) وهو مجلد مخطوط فى أصول الدين، وورد باسم التحقيق فى التكفير والتفسيق. ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1126. وفى (د) سقط: فى الإكفار.

الحيوانات، وجفاف النبات، وهذا هو رأى الملاحدة، وكل من لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر.

القول الثانى: إن ابن آدم ينعدم بالموت، ولا ينعم بثواب، ولا يتألم بعقاب ما دام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر.

القول الثالث: إن الموت معنى عرضى يضاد الحياة ويزيلها، وهو بمنزلة طرو السواد على البياض.

القول الرابع: إن الموت عبارة عن تفريق البنية التى تحتاج إليها الحياة، فهذه كلّها أقاويل مضطربة، وظنون ليس لها حقيقة؛ لبطلانها وفسادها، والمختار الذى تشهد له الأدلة بالصحة، وتنطق به الآيات والأخبار أن **الموت** معناه: تغير حال، وإن الروح باقية بعد مفارقة الجسد، إما معذبة، وإما منعمة، وإن الروح عبارة عن الجملة التى يقولها أهل العدل: وهى التى لا يكون الإنسان إنساناً إلا بها، فهى الروح عندنا، وهى المثابة المعاقبة الحيّة القادرة التى يتوجه إليها المدح والذم، والمقبوضة عند الموت، ومعنى مفارقتها للجسد: انقطاع تصرفها عنه بفساده وتغيره، وانقطاعها عن تصريفه[1]، فإن الأعضاء آلات لهذه الجملة يستعملها فيبطش باليد ويسمع بالأذن ويبصر بالعين، فإذا بقى الجسم على حالة الكمال والاعتدال فهى باقية، وإذا خرج الجسم عن حدّ الاستقامة خرجت عنه، كما أن العضو إذا خدر خرج عن حدّ الاستعمال به من جملة الأعضاء، ويشهد لما قلنا من الآيات قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ** ﴾[2]، وأما **الأخبار**: فكثيرة؛ كقوله عليه السلام: «أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش»[3]، وقوله فى قتلى بدر لمّا ناداهم: «إنهم ليسمعون الكلام، ولكنهم لا يقدرون على الجواب»[4]، ولا يمكن تأويل ذلك إلا على التقرير الذى لخصناه.

والمبادرة: هى المعاجلة والمسارعة، **والوصل:** نقيض القطع، **والإكثار:** نقيض الإقلال، **والصدقة:** إعطاء المال من يستحقه، وهى منقسمة إلى: فرض، ونفل، **والرزق:** ما حازه الإنسان وتناوله من غير مانع، **وأرزاق الجنة:** ما كان من جهة الأمام، **والأمر:** هو الطلب، **والمعروف:** ما كانت العقول تشير إلى حسنه، فهو معروف، **والخصب:** نقيض الجدب، وهو ترادف الثمار وتكرر الأمطار، **والنهى:** المنع عن الشىء، **والمنكر:** ما أنكرته العقول من الأعمال، **والنصر:** نقيض الخذلان، **الكيّس من الرجال:** هو الكامل فى أموره وأحواله، **والكياسة:** الظرف فى الأمور وحسن الشمائل، **والذكر:** نقيض النسيان، **والحزم:** نقيض التوانى، **والحسن:** نقيض القبح، **والاستعداد:** أخذ الأهبة لكل ما يحاوله الإنسان من الأمور العظيمة.

---

(1) فى (د) سقط: الياء من تصريفه.

(2) سورة آل عمران الآية 169، ومن الآية 170 .

(3) صحيح مسلم، 3/ 1502 . بلفظ– من حديث طويل–: «أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش. . . ». المعجم الكبير، 9/ 183 . بزيادة نصّها: «تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى . . . .».

(4) صحيح مسلم، 4/ 2203 . بلفظ – من حديث طويل– : «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا . . .».

العلامة: الأمارة والدلالة، وأصل العلامة من علم الطريق، وهى الحجارة المنصوبة فى الطرقات، **والعقل:** عبارة عن العلوم العقلية التى يصير بها الإنسان عاقلاً على رأى الأكثر من المتكلمين، ومنهم من زعم أن العقل بنية توجب هذه العلوم، وهذا هو المختار عندنا، فبنية العقل لسائر العلوم الضرورية والعلوم النظرية، مثل بنية العين فى الإدراك التجافى، **والتجانف:** هو الازورار والميل.

الغرور: (فعول) للمبالغة فى الاغترار، ويحتمل أن يكون صفة أى الشىء الغرور، ويحتمل أن يكون مصدرًا؛ أىْ: الغرور نفسه، وكله محتمل هاهنا، **والإنابة:** الرجوع، **والتزود:** ما يستصحب فى الأسفار، **والسكنى فى القبور:** الإقامة فيها، **والتأهب:** الاستعداد، **والنشور:** هو يوم القيامة، سُمى بذلك؛ لأنه نشر للأجسام بعد طيّها؛ لأن الميت يصير مطويًا، ثم يُنشر للحشر، وهو يوم هائل؛ لما اشتمل عليه من العظائم، والأمور الهائلة الفظيعة المنكرة.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية

قوله عليه السلام: « **توبوا**» فعل أمر مبنى على ما يجزم به، و«**قبل**» منصوب على الظرفية، والجار والجرور متعلقان بـ «**توبوا**»، و«**إن**» هى المصدرية الناصبة للفعل المضارع، وهكذا قوله: «**بادروا بالأعمال**» يجرى مجرى الأول فيما ذكرناه من الإعراب.

«**وصِلوا**» أمر، والصلة والموصول فى موضع نصب على المفعولية لـ «**صِلوا**»، و«**تُسعدوا**» مجزوم؛ لكونه جوابًا للأمر؛ وأمارة جزمه حذف (نونه)، وهكذا حال الجمل بعده تجرى هذا المجرى من الأمر، وجوابه بالجزم.

«**أيها الناس**» مضى تقرير إعرابه. «**إنَّ أكيسكم**» منصوب بـ «**إنَّ**»، و«**أكثركم**» مرفوع خبر لـ «**إنّ**»، و«**ذكرًا**» منصوب على التمييز. «**وأحزمُكم**» مرفوع على أنه مبتدأ. ما بعده وهو قوله: «**أحسنكم استعدادًا له**» خبره، ويجوز نصبه عطفًا على ما قبله، وسماعنا بالرفع فيه، و«**استعدادًا**» نصب على التمييز، و«**ألا**» للتنبيه، و«**التجافى**» منصوب بـ «**إنَّ**»، وخبرها الجار والمجرور، والقياس ظهور النصب فيه، وسماعنا بإسكانه، وهو خروج عن القياس كما قيل: أعط القوس باريها، ويحتمل أن يقال: إنما لم يظهر فيه النصب؛ لأن (الياء) غير أصلية فيه[1]، وإنما هى مبدلة من (الواو)، و«**الإنابة**» منصوب عطفًا على «**التجافى**»، وهكذا «**التزود**»، و«**التأهب**» منصوبان، وخبرهما الجار والمجرور كما سلف تقريره.

---

(1) فى (د) سقط: فيه .

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من المقاصد المعنوية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فى بيان الأمورالمعنوية التى اشتمل عليها من علم المعانى

وهو مشتمل على نكت ثلاث:

النكتة[1] الأولى: الفصل والوصل

فالوصل ما كانت الجمل فيه حاصلة بـ «**الواو**» العاطفة، وهذا حاصل فى جميع الجمل كلّها التى وردت فى الحديث، فإنها جاءت وصلة بين الجملتين، وهكذا قوله: «**ألا وإنَّ**» «**الواو**» هاهنا للوصل بين «**إنَّ**»، و«**ألا**» للتنبيه، ولها موقع لطيف، وقد جاء الفصل فى قوله: «**أيها الناس إنَّ أكيسكم**» لما لم يأت بـ (الواو) عطفًا على «**أيها الناس**» فى صدر الحديث لإرادة الفصل بين الكلامين، ولم يرد الجمع بينهما إيقاظًا للأسماع، وتنبيهًا على الخروج من كلام إلى كلام آخر ليس بينه وبين الأول علقة ولا ملاءمة بحال.

النكتة الثانية: الإيجاز والاختصار

فلقد أشار عليه السلام فى هذا الحديث إلى المبالغة فى الوعظ بأوجز عبارة وأخصرها، فذكر **التوبة** وأَمَر بها لإصلاح الأعمال، وبها يكون خواتيمها، وأَمَر **بالمنافسة** فى الأعمال الصالحة؛ لأنه يكون بها النجاة، ثم أَمَر بتقوية الأسباب بين الخلق وبين الله تعالى إلى آخر كلامه.

النكتة الثالثة: الحذف والإضمار

وهذا كقوله: «**وبادروا**» أىْ: بادروا الموت، وقوله: «**قبل أن تُشغلوا**» بالموت وأهواله، وقوله: «**وصلوا الذى بينكم**» بالطاعة، وقوله: «**تُسعدوا**» بالجنة، ونحو قوله: «**تُرزقوا**» الخير، وقوله: «**تُخصبوا**» فى ثماركم، فهذه كلها حذوفات جاءت على جهة الإضمار بها، وهى مراده فى التقدير.

---

(1) النكتة: الفكرة اللطيفة المؤثرة، والمسألة العلمية الدقيقة، يتوصل إليها بدقة، وإنعام فكر. ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطابع دار المعارف، ط2، عام 1400هـ، القاهرة، مصر، مادة (نكت).

المطلب الثانى: فى بيان مقاصده التى أرادها منه

أمر بالتوبة، وظاهر الأمر للوجوب عند أئمة الزيدية، ومن تابعهم، وهو قول جمهور المعتزلة؛ والمختار عندنا أنه نصّ فى الطلب، ولا يكون للندب والوجوب إلا لدلالة شرعية، والعقل والشرع دالان على وجوب التوبة من الكبائر من فعل القبائح وترك الواجبات، والتوبة من الصغائر مستحبة من جهة العقل واجبة من جهة الشرع.

والتوبة من أقوى قواعد الدِين، ومن أهم ما يعول عليه من كان يعدّ نفسه من جملة المسلمين؛ لما فيها من دحض الأوزار وإزالة الآثام، وفى الحديث: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله»[1]، وفى حديث آخر: «إنى أستغفر الله فى اليوم سبعين مرة»[2]، فإذا كان هذا حال الحبيب المقرب فكيف حال غيره؟! وبها تحصل المحبة من الله حيث قال: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[3]، وإذا كان أكثر الخلق يعرضون نفوسهم للأخطار العظيمة التى فيها هلاك، وتعريض النفوس للجرح، والقتل لينال محبة من بعض الملوك المساكين الذين يعتريهم العجز والبخل، ثم ما أعطوه حقير فانٍ، فكيف لا يعرض الإنسان نفسه لما عند الله من الثواب الدائم والخير الجزيل بالإقبال على الأعمال الصالحة، والمبادرة إلى التوبة عند تغلب المعاصى وكثرة الذنوب، ومن لطف الله ورحمته جعل باب التوبة مفتوحًا حتى تطلع الشمس من مغربها، فالواجب على العاقل أن يصبح تائبًا ويمسى تائبًا؛ خوفاً من أن يفاجئه الموت، وهو على غير أهبة.

قوله عليه السلام: «**وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا**» اعلم أن الأفعال: هى متعلق التكليف كلها، ولها تقسيمان:

التقسيم الأول: باعتبار حكمها إلى ما للقادر عليه فعله وإلى ما ليس له فعله، فالذى ليس له فعله هو القبيح، والذى له فعله ينقسم: إلى ما يستحق الذم على تركه، وإلى ما ليس كذلك، فالذى يستحق الذم على تركه هو الواجب، والذى لا يستحق الذم على تركه ينقسم: إلى ما يترجح فعله على تركه، وإلى ما يترجح تركه على فعله، وإلى ما يستوى فيه الأمران، **فالأول:** هو المندوب، **والثانى:** هو المكروه، **والثالث:** هو المباح.

التقسيم الثانى: باعتبار محلها إلى ما يكون من أفعال القلوب وإلى ما يكون من أفعال الجوارح، فالذى يكون من أفعال الجوارح

---

(1) صحيح مسلم، 4/ 2075. بلفظ: «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة».
(2) سنن الترمذى، 5/ 383.
(3) سورة البقرة من الآية 222 .

ينقسم إلى: أفعال، وأقوال[1]، والذى يكون من أفعال القلوب، نحو الإرادة والكراهة والاعتقاد والظن، فهذه هى الأفعال التى عليها مدار التكاليف العقلية والشرعية، **فالواجب** على المكلف أنه لا بدّ له من الإحاطة بأحكام الأفعال ومعرفة وجوهها؛ ليؤدى كل فعل على ما يطابق غرض الحكيم، وما من فعل من الأفعال إلا ولله تعالى فيه حكم، كما قال تعالى: ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾[2]، وإنّما خصَّ الأعمال الصالحة؛ لأنها سالمة من التبعات المتعلقة بالأفعال القبيحة قبل أن تُشغلوا بما يعرض من الأسقام، وحوادث الأيام التى لا ينجو منها فى مجرى العادة أحد من الخلق.

وحُكى أن عبدالملك بن مروان[3] لمَّا أصابته العلّة كان يُطلُّ من الروشن[4] فيصيح بأعلى صوته: يا أهل العافية لا تغبطوا الملوك على ملكهم، فو الله ما رزق الله عبداً أجلّ من العافية، وحماه الأطباء عن شرب الماء البارد، وقالوا: إنْ شرب مات، فلما جهده العطش دعا بالماء، فمنع منه، فقال لابنته فاطمة: تسقيه فسقته فشرب فمات، فهذه نصيحة لنا من طبيب الدّين، ومعلم الخير، والهادى من الضلال صلى الله عليه وآله وسلم لا تساويها نفائس الأموال، فالواجب قبولها والمبادرة إلى امتثالها.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم:«**وصِلوا الذى بينكم وبين ربكم تُسعدوا**» أراد أن الوصلة التى بين الله تعالى وبين عبده هى الأعمال الصالحة، فمن فعلها فقد استمسك بحبل الله تعالى، واعتصم بالعروة الوثقى، **ومن** تركها وأعرض عنها فقد قطع الوصلة بينه وبين الله.

ومعنى «**تُسعدوا**»: تظفروا بالسعادة الدينية، وهى الإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر، وبالسعادة الأخروية وهى الجنة، والفوز برضوان الله تعالى وكرامته.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأكثروا الصدقة تُرزقوا**» **الصدقة** تكون على وجهين: **أحدهما**: أن تكون فرضاً وهو نحو العشر فى المعشرات، وربع العشر فى الذهب، والفضة، وأموال التجارة.

وثانيهما: أن تكون نفلاً، وهو ما يتقرب به إلى الله من جميع أنواع البر.

وقوله: «**تُرزقوا**» فيه وجهان: **أحدهما**: أن يكون هذا الرزق مخصوصًا لأجل فعل الصدقة، يوضحه قوله عليه

---

(1) فى (د،م) أقوال وأفعال.

(2) سورة القمر الآية 53 .

(3) وهو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، ولد سنة 20هـ، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ست عشرة سنة، تولى بعد أبيه سنة 65هـ، توفى بدمشق سنة 86هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 19/ 139– 141.

(4) الروشن: الكوة. ينظر: لسان العرب، مادة (رشن). القاموس المحيط، مادة (رشن) .

السلام:«استنزلوا الرزق بالصدقات»[1]، وقوله عليه السلام: «إذا املقتم فتاجروا الله بالصدقة»[2] بخلاف الرزق الذى قد حتمه الله وقدره وجعله بلغة للأجسام، فإن ذلك واجب على الله سواء حصلت الصدقة أم لا.

وثانيهما: أن يكون المراد بالرزق ما يحصل فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾[3]، وكلاهما محتمل لا غبار عليه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأمروا بالمعروف تُخصبوا**» **المعروف:** هو أنواع البِرّ من واجب ونفل، **والخصب:** إدرار الأرزاق وتتابع الثمار، وظاهر الخبر دال على أن هذا الخصب إنما حصل فى مقابلة الأمر بالمعروف؛ لأنه سبب فى ذلك، وهو غير ما ذكرناه من الخصب الذى يكون من جهة الله فإنه واجب على الله، ويحتمل أن يكون هو الرزق الواجب، لكن الغرض كثرته بسبب الأمر بالمعروف، فهو محتمل للأمرين كما ترى.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وانهوا عن المنكر تُنصروا**»، والنصر يكون على وجهين: **أحدهما:** أن يكون النصر عامًا[4] خاصًا، وأراد أنكم تنصرون على كفّ المناهى وتركها وإعدامها، وهو الظاهر من الحديث، **وثانيهما:** أن يكون النصر عامًّا على فعل المعروف، وعلى ترك المناهى أجمع، ثم إنه يفترق الحال بين المأمورات والمنهيات، فأما **المنهيات** فإن المقصود كفّها وإذهابها، ولو انتهى إلى القتل من فاعلها جاز ذلك؛ لما يظهر فيها من المفسدة الدينية، بخلاف جانب المأمورات فإن المقصود هو الإتيان بها، كالصلاة والصيام، فيؤمر صاحبها بالضرب والحبس، ولا ينتهى إلى القتل على القوى من جهة النظر، ثم إن النصر يقع من الله تعالى لأوليائه على أحد وجهين:

إما بالتقوية لقلوبهم وتضعيف قلوب أعدائهم، فيحصل قطع الدابر بجزّ الرقاب، وأخذ الأموال، وملك الرقاب والأولاد والنسوان، وهذا نصر معجل، وإما أن تحصل البلوى فتكون التخلية بينهم وبين الأولياء فى العاجل، فيحصل إلى الأولياء من الضرر بالقتل والظفر بالشهادة، ويكون فى مقابلته من الأجر وإحراز الثواب ما لا يوصف، وحتى أن الشهداء يتمنون العودة إلى الدنيا فَيُقتَلون مرّة ثانية؛ لما يرون من عظيم ما أعد الله لهم من عظيم ثوابه، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ** ﴾[5]

---

(1) شعب الإيمان، 2/ 74. بلفظ: «استنزلوا الرزق بالصدقة».

(2) المقصود الإمام على– كرم الله وجهه– لورود ذلك القول فى نهج البلاغة، الإمام على بن أبي طالب، ضبط نصه د. صبحى الصالح، دار الكتاب اللبنانى، مكتبة المدرسة، ط2، 1982م، بيروت، لبنان، 513. وفى (ك) بالصدقات بدلاً عن الصدقة. ﴿والسليم «بالصدقة»﴾.

(3) سورة مريم من الآية 62.

(4) فى (د،ك،م) سقط: النصر عامًا.

(5) سورة التوبة من الآية 52.

يعنى: إما الإزالة بقتلهم وأخذ أموالهم، وإما بالظفر بالشهادة، فهذا هو النصر العزيز والفتح المبين، والفوز الكبير، ثم إن عدوه قد حصل على العذاب المهين والخسران المبين، فإذا عرف العاقل بحقيقة النصر، وأنه كائن من عند الله لا محالة تصديقا لقوله:﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1]، فإنه يهون عليه الأمر فى استظهار المبطلين على المحقين فى دار الدنيا، وعلم أن المحقّ فى الحقيقة منصور وإن كان مقهورًا.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيها الناس**» تكرير للتنبيه، والتحفظ على الإقبال والتفطن.

«**إن أكيسكم أكثركم ذكرًا للموت**» أراد أن الكامل فى العقل من يذكر الموت ولا ينساه، ويعلم أنه هادم لكل لذّة، منغص لكلّ شهوة، مفرق بين الأحبة، فذلك يدعوه إلى فعل الطاعة، واجتناب المعصية، والمبادرة إلى فعل الخير، متوقعا لنزوله خائفًا لحلوله.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأحزمكم أحسنكم استعدادًا له**» أراد أن الأخذ بالحزم فى أمره هو الذى أجمل نفسه فى أخذ الأهبة، وحسن الاستعداد؛ لوقوع الموت وهجومه، ولا أهبة كالإسراع إلى الطاعة؛ إذ لا سبيل إلى ردّ فائت الأوقات، فإذا حضر الموت، وقد استكثر الإنسان من الأعمال الصالحة لم يجزع على فراق الدنيا، ولا آسف عليها[2].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا وإنّ من علامات العقل التجافى عن دار الغرور**» اعلم أن العقل له حقيقة وعلامة، **فحقيقته:** أنه بنية فى الإنسان يتميز بها عن سائر الحيوانات، وفى الحديث: «إن الله تعالى لما خلق العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزّتى وجلالى ما خلقت خلقًا أشرف منك، بك أُثيب، وبك أُعاقب، وبك أحاسب»[3]، وسُمى عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن الوقوع فى المكاره، وأما علامته فقد أشار عليه السلام إلى علامات أربع:

الأولى: الإعراض عن اللذّة الفانية المنقطعة، والإقبال على إحراز النعيم الدائم، ولن يكون ذلك إلا بالميل عن الدنيا، والمجانبة لها كما أشار إليه صاحب الشريعة صلوات الله عليه، وهو أحكم الحكماء، وأعلم العلماء بالمصالح الدينية كلها، والهداية إلى طريقها، وهذا كلّه إنما يحصل باستعمال العقل، وفى الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[4]، وفى حديث آخر: «يُدرك الخير كله بالعقل»[5]، وقال عليه السلام: «الناس يعملون ويُعطون أجورهم على قدر عقولهم»[1].

---

(1) سورة الروم من الآية 47 .

(2) فى (د،ك،م) عليه. ﴿وهو غير مناسب﴾.

(3) المعجم الكبير، 8/ 283 . بلفظ: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. قال: وعزّتى ما خلقت خلقًا أعجب إلىّ منك، بك أعطى، وبك الثواب، وعليك العقاب».

(4) شعب الإيمان، 4/ 157.

(5) حقائق المعرفة فى علم الكلام، أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر، تصحيح حسن يحيى اليوسفى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 67.

وأما **الثانية**: فـ «**الإنابة إلى دار الخلود**»، ومعنى **الإنابة** هاهنا: هو الإقبال على الطاعات والمواظبة على الأعمال المقبولة، والانكفاف عن مواقعة الأمور المهلكة، فبذلك يكون الإحراز لدار الخلود ودار الحيوان ودار الكرامة والرضوان لا ينفد نعيمها، ولا يظعن مقيمها، ولا ينقطع طعامها وشرابها، ف ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾[2]، زوجاتهم الحور العين، وثيابهم الحرير، وفراشهم السندس والاستبرق، وحليتهم الذهب الأحمر﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[3].

وأما **الثالثة**: فـ «**التزود لسكنى القبور**»، فاعلم أن الإنسان إذا أراد سفرًا من الأسفار فإنه يستصحب الزاد لسفره، ولا زاد لسكنى القبور إلا التقوى والأعمال التى يُرجى بها النجاة، والفوز. شُبّه خروج الإنسان من الدنيا إلى قبره بحال من يريد سفرًا من الأسفار، فكما أنه يقدم الزاد للسفر، فهكذا حال من مصيره إلى القبور فإنه يقدم الزاد لا محالة، وليس الغرض التزود من الخروج من القبور إلى العرصة، فإن الزاد قد انقطع بالموت، وإنما الغرض ما ذكرنا من التزود إلى القبور من الدنيا، ولو أراد ذلك لقال: والتزود للوقوف فى العرصة.

وأما **الرابعة**: فـ «**التأهب ليوم النشور**» أراد يوم القيامة، فإنه يوم عظيم﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4]، وفى الحديث: «إن الطير لتقذف ما فى أجوافها من هول يوم القيامة»[5]، والأهبة والعدّة سواء، ولا أهبة مثل إحراز الأعمال المرضية. اللهم اجعلنا من الفائزين برحمتك الواسعة.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم البيانية

واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على استعارات رشيقة ومجازات فائقة.

الاستعارة الأولى: قوله: «**تُوبوا إلى الله**»، فإن **التوبة** الغاية هاهنا مجاز؛ لأن الغاية هى المستقر والمنتهى، وهذا غير حاصل فى حقّ الله تعالى.

الاستعارة الثانية: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**صِلوا الذى بينكم وبين ربكم تُسعدوا**» **الصلة** توسع ومجاز، وهكذا لفظة

---

(1) شعب الإيمان، 155/4.

(2) سورة الصافات الآية 61 .

(3) سورة المطففين من الآية 26.

(4) السورة نفسها، الآية 6.

(5) مسند أبى يعلى، أحمد بن على المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ط1، عام 1984م، دمشق، سوريا، 10/ 39. بلفظ: «وإن الطير يوم القيامة لتضرب بأجنحتها، وترمى ما فى أجوافها ما لها من طلبة».

«**البين**» فإنها لا تستعمل إلا بين شيئين متقاربين فى الجهة، وهذا مستحيل فى حقّ الله.

الاستعارة الثالثة: قوله: «**أكثروا الصدقة تُرزقوا، وأُمروا بالمعروف تُخصبوا . . .**» إلى آخر الجمل، فإنها أسباب ومسببات واقعة على جهة التوسع والاستعارة، فإنها أوامر وجواباتها كالمسببات عنها؛ لأنها فى معنى الشرط والجزاء، ولهذا جاءت مجزومة وليست أسبابًا على الحقيقة؛ لأن السبب ليس مؤثرًا فى مسببه، وإنما المؤثر هو الله تعالى، فلا جرم كان إسنادها إلى مسبباتها حاصلاً على جهة المجاز.

الاستعارة الرابعة: إضافة **الدار** إلى **الخلود**، **والغرور** إنما هو على جهة المجاز؛ لأن الإضافة بمعنى اللام للملك، وليس يتصور الملك فى حق الدار، كما تقول: المال لزيد، فقد اشتمل الحديث على هذه الاستعارات التى بلغت فى الرشاقة والحسن كل غاية، وما ذاك إلا لأنه قد صار قمر البلاغة وهلال هالتها، وشمس الفصاحة، وطراز غلالتها.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عله من علوم البديع

وقد اشتمل من البديع على علوم ثلاثة:

الضرب الأول: التسجيع

وقد اختار الله لكتابه الكريم من أنواع البلاغة السجع[1]، فإنه داخل فيه كثيرا، وما ذاك إلا لأنه داخل فى البلاغة أحسن موقع، فمن المتوازن وهو اتفاق العجز والوزن، قوله: «**دار الغرور**»، و«**دار الخلود**»، و«**سُكنى القبور**»، و«**يوم النشور**»، ومن المطرف وهو اتفاق[2] الوزن والأحرف

قوله: «وأكثروا الصدقة تُرزقوا . . . ، وانهوا عنه المنكر تُنصروا».

الضرب الثانى: الطباق

فمنه قوله: «**أمروا بالمعروف**»، «**وانهوا عن المنكر**» فإنهما طباق، و«**المعروف**»، و«**المنكر**» فإنهما من الطباق.

الضرب الثالث: ما تضمنه من الفصاحة والبلاغة

فإن أعملت الفكرة فى مفرداته وجدتها أعذب شىء وأحلاه، وإن أفكرت فيما تضمنه من الجمل وجدتها مسوقة أحسن سياق، فقد

(1) فى (د،م) التسجيع.
(2) فى (د،م) الاتفاق فى.

صدّر الحديث بذكر التوبة؛ لكونها مصلحة للأعمال، وختم بذكر الموت؛ لمّا كان هو الغاية والنهاية، ووسّط بينهما ذكر الآداب الدينية والدنيوية، فحصل الحديث على تأليف عجيب وسياق رشيق.

الحديث الرابع

عَن ابْنِ عَبَّاس[1]- رَضِى الله عَنه – قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآله وَسَلَمَ- يَقُول فِى خُطْبَتِهِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَانْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لاَ يَدْرِى مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِىَ لاَ يَدْرِى مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ، فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ، وَمِنَ الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوتِ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلاَّ الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ**»[2].

فنقول: الحمد لله الواحد الصمد المحمود، الذى نزّه قلوب أهل التقوى عن الالتفات إلى مخالفة الغرض المقصود، وجعل نهايتهم وغايتهم وتعطشهم إلى الارتواء من حوض كرمه المورود، وصفّى سرائرهم عن ملاحظة عزّ جلاله، واستخلصهم للعكوف على بساط عزّه وكماله، حتى تجلّت لهم أنوار معرفته، وأشرقت فى قلوبهم شموس محبته، فلما كشفت لهم الأستار من سُبحُات[3] الجلال نُودوا من تحت الحجب وسرادقات[4] الجمال بالبشارة بما أفيض عليهم من مشكاة الأنوار، وبما فتح لهم من أبواب الكرامة، وشرح الصدور بالأسرار.

والصلاة على المخصوص بالكرامات، والمؤيد بالعصمة، والمصدق بالآيات، وعلى آله الطيبين حراس العلم ومفاتيحه، وأقمار الدّين ومصابيحه، واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور خمسة نوضحها بمعونة الله.

---

(1) وهو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين فى شعب أبى طالب قبل خروج بنى هاشم منه، وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفى الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- توفى بالطائف سنة 68هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 933، 934.

(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 18 .

(3) السبحات: عظمته ونوره. ينظر: لسان العرب، مادة (سبح).

(4) السردق: كل ما أحاط بشيء، والجمع سرادقات. ينظر: نفسه، مادة (سردق).

النظرالأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

فالمعالم: جمع لمعلم، **والعَلَم والمعلم** شىء واحد، وهو العلامة، **والنهاية:** هى غاية الشىء، **والمؤمن:** هو المصدق، **والمخافة:** (مفعلة)، وهو مكان الخوف وزمانه، وقد يراد به الخوف نفسه كالمسعاة، **والأجل:** الحدّ الذى ينتهى إليه، **والعبد:** عبارة عن ابن آدم، ولا يصدق هذا الاسم كل الصدق إلا على الله تعالى؛ لأن الكلّ عبيده يتصرف فيهم كيف شاء، وهو اسم مفرد، وهل يكون عامًا أم لا؟

فيه تردد بين الأصوليين؛ والمختار أنه إنما يكون عامًا بالقرينة، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾[1]، فإنه إنما كان عاماً لقرينة الزجر، وهكذا الخلاف فى الدينار والدرهم، والرجل والمرأة، وغير ذلك من الأسماء المفردة التى تندرج تحتها المفردات الكثيرة، **والنفس:** عبارة عن الهيئة التى لا يكون الإنسان إنسانًا إلا بها، وهى المخاطبة بالمدح والذم، والمعاقبة والمثابة، وهى الروح الذى ينزع من الإنسان، **والماضى:** هو الزمان المتقدم السالف، **والأجل:** الباقى، و[2]هو الزمان المستقبل.

والصانع والقاضى: هو الفاعل للأمور كلها، **والدنيا:** عبارة عن الدار التى نحن فيها، وسميت دنيا لدناءتها وحقارتها، تأنيث الأدنى، وقد غلب الاسم عليها دون الصفة، ولو كانت صفة محضة لم يكن بدّ من لزوم اللام أو الإضافة لها، كاليسرى والعسرى.

الشبيبة: الشباب، يبنى[3] على (فعيلة)، **والكِبَر:** الدخول فى المشيخ، **والحياة والموت** ظاهران، **والمستعتَب:** اسم مفعول بمعنى الرضا، ويحتمل أن يكون مصدرًا، وسنوضح معناه فى بيان مقاصده عليه السلام ، **والجنة:** ما أجنَ وستر، وسميت الجنة جنة؛ لالتفاف شجرها، **والنار:** معروفة، والمراد هاهنا دار[4] الآخرة، **والأخذ:** نقيض الترك.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الإعرابية

الـ «**معالم**» منصوبة بـ «**إنَّ**» قبلها، وهى غير منصرفة؛ للجمع ونهاية الجمع، وهى صيغة منتهى الجموع. «**الفاء**» فى قوله: «**فانتهوا**» يحتمل أن تكون للاستئناف، ويحتمل أن تكون للعطف على الجملة الأولى، وهو أحسن، نظيره قولك: إن الضيف قد حضر فأكرموه، وقوله: «**فانتهوا**» مبنى على ما يجزم به، **والمعالم:** جمع، و«**إلى**» متعلقه بـ «**انتهوا**»، **والمعالم:** هاهنا مجرور

---

(1) سورة العصر الآية 2.

(2) فى (د،ك) سقط الواو.

(3) فى (د) مبنى.

(4) فى (د،م) نار. ﴿والمناسب: دار؛ لأنه فى سياق الحديث عن دار الآخرة﴾ .

منصرف لأجل الإضافة، وبعض النحاة يزعم أنه غير منصرف مثل ما كان قبل الإضافة، لكن جرّ فى موضع الجر، والحقّ أنه منصرف، وإنّما لم يدخله التنوين لأجْل الإضافة[1].

«**وإنّ لكم نهاية**»، «**الواو**» فيه للعطف على الجملة الأولى المصدرة بـ «**إنّ**»، **والنهاية:** مصدر مثل البداية. «**وإن المؤمن**» جملة معطوفة على ما قبلها، و«**بين**» منصوب على الظرفية للمكان، وهى لا تستعمل إلا بين أمرين، **والمخافة:** (مفعلة) من الخوف، **والبين:** متعلق بمحذوف خبر لـ «**إنّ**».

سؤال: أراه قال فى الذى يمضى: «**ما الله صانع به**»، وقال فى الذى يكون فى المستقبل: «**قاضٍ فيه**»، فهل بينهما تفرقة[2]؟

وجوابه: أن الأمر فيه قريب، فلا تفرقة بينهما، ويوضح عدم التفرقة أنه لو عكس الأمر، فقال الماضى: «**قاضٍ فيه**»، وقال فى المستقبل: «**صانع به**» لاستقام المعنى، وفى هذا دلالة على أنه لا تفرقة بينهما.

«**أجل**» مجرور بإضافة «**بين**» إليه[3]، ولا يستعمل إلا مضافاً. «**ما**» فى قوله: «**ما الله صانع به**» استفهامية فى موضع رفع على الابتداء، والجملة الابتدائية فى قوله: «**الله صانع به**» فى موضع الخبر لـ «**ما**»، وهكذا قوله: «**ما الله قاضٍ فيه**» يجرى على ما ذكرناه، والجملة الابتدائية فى الموضعين جميعًا فى موضع نصب مفعولاً لـ «**يدرى**».

«**فليأخذ العبد**»، «**الفاء**» للاستئناف، والفعل مجزوم بـ «**اللام**»، وهو معرب، و«**العبد**» مرفوع على الفاعلية. «**من نفسه لنفسه**»، «**من**» لابتداء الغاية، و«**اللام**» دالة على الملك، وهكذا قوله: «**ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر**»، «**ومن الحياة قبل الموت**».

سؤال: أراه قال: «**ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت**»، وقال: «**ومن دنياه لآخرته**»، ولم يقل: ومن دنياه قبل آخرته، ففرق بينهما، فما السرّ فى ذلك؟

وجوابه: أن القبلية إنما تتعقل فى الأحوال المتعاقبة كالكِبَر، والموت، فأما **الدنيا والآخرة** فليسا حالين، وإنما هما مكانان، فلا تتعقل فيهما المعاقبة، فلأجل هذا فرق بينهما.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فو الذى نفس محمد بيده**» جملة قسمية، وجوابه بالجملة السلبية، بقوله: «**ما بعد الموت من مستعتب**» «**من**» زائدة لتأكيد النفى، **وأعتبه:** إذا أرضاه، **واستعتبه:** إذا طلب رضاه. قال: فاعتبوا بالصيلم أىْ: ارضوا

---

(1) ينظر: شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب، شمس الدين محمد بن عبد المنعم الجوجرى الشافعى، تحقيق نواف جزاء الحارثى، رسالة ماجستير، عمادة البحث العلمى بالجامعة الإسلامية، ط1، 2004م، المدينة المنورة، المملكة السعودية، 1/ 178، 179.

(2) فى (د،م) زيادة: أم لا.

(3) فى (د) سقط: إليه.

بالسيف.

قوله: «**وما بعد الدنيا من دار**» «**من**» زائدة للتأكيد. «**إلا الجنة أو النار**» استثناء من محلّ الجار والمجرور؛ لأن محلّه الرفع اسمًا لـ «**ما**»، و«**بعد**» منصوب على الظرفية، والله أعلم.

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من الأسرار المعنوية

وفيه بحثان:

البحث الأول: فيما تضمنه من العلوم المتعلقة بعلم المعانى

وجملة ما أودع فيه أنواع ثلاثة:

النوع الأول: التأكيد:

ولا شكّ أنه قد كرر لفظة «**إنَّ**» فى صدر هذه الجمل الثلاث على جهة التمكين فى النفوس، وإزالة اللبس، وإزالة الشكوك التى تحصل فى النفوس.

النوع الثانى: تقديم الخبر

فى قوله: «**لكم نهاية**»، وتأخيرالاسم فى هاتين الجملتين، وإنما فعل ذلك؛ من أجل الاهتمام بالخبر فى تقديمه، والقياس تأخيره، وإنما قدم لما ذكرناه.

النوع الثالث: الإيجاز والاختصار بحذف التعلقات

وهذا كقوله: «**فليأخذ العبد**»، فإنه قد حذف المفعول، وتقديره: الحق من نفسه لنفسه، فحذف، وهو مراد على جهة الإيجاز، فهذه الأمور كلّها متعلقة بعلوم المعانى.

البحث الثانى: فى بيان مقاصده عليه السلام

قوله: «إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم» فيه احتمالات أربعة:

الاحتمال الأول: أن يكون مراده عليه السلام أن يكون قوله: «**إنَّ لكم معالم**» «**وإنَّ لكم نهاية**»، أراد بالمعالم: الأرزاق

المعلومة[1] المقدرة التى قدرناها لكم، وحتمناها عليكم، «**فانتهوا إلى نهايتكم**»هذه واحرزوها واطلبوها، وإن لكم نهاية فى الآجال فانتهوا إليها لا تتقدمون عليها ولا تستأخرون[2]عنها مقدرة معلومة على حسب المصلحة.

الاحتمال الثانى: أن يكون مراده بالمعالم: التكاليف التى شرعناها لكم فى المأمورات واجبها ومندوبها، وفى المنهيات قبيحها ومكروهها فانتهوا إليها بتأديتها على الوجه الذى شُرعت عليكم، وإن لكم نهاية فى الجزاء على الأعمال حسناتها وسيئاتها فانتهوا إلى الإقدام على ذلك الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، ويصدق ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا** ﴾[3].

الاحتمال الثالث: أن يكون مراده بقوله: «**إنَّ لكم معالم**» يريد معالم التوحيد، والحكمة فانتهوا إليها بإحرازها بالأدلة والبراهين. «**وإنَّ لكم نهاية**» يريد الجنة التى ينتهى إليها أهل التقوى والصلاح، فانتهوا إليها فى الآخرة.

الاحتمال الرابع: أن يكون ذلك واردًا على جهة التهكم بهم؛ وعلى هذا يكون المراد: إنَّ لكم معالم يعنى الآمال فى الدنيا التى تؤملونها، وترجون الوصول إليها فانتهوا إليها انتهاء يورث الندم لكم، ويعقب الحسرة، وإنَّ لكم نهاية فيها فابلغوا نهاية أمركم، ولن[4] تبلغوا ذلك مبلغاً ، ولا تفوزوا بحظّ، ولا تحصلوا على طائل، فهذه الاحتمالات سائغة كما ترى، وإنما وحّد النهاية وجمع المعالم؛ لأن الاحتمالات التى ذكرناها فى المعالم دالة على الجمع كما تراها، والمعانى التى ذكرناها فى النهاية دالة على الوحدة، فلهذا طابق كل واحد منهما معناها.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن المؤمن بين مخافتين**» **الإيمان:** هو التصديق، **والمؤمن:** هو المصدّق، وهل قد نُقل أم لا؟

فيه تردد بين العلماء فى صحة النقل للألفاظ، فالأشعرية، منعوا من ذلك، والذى عليه أئمة الزيدية ومن وافقهم من شيعتهم، والمعتزلة البصرية والبغدادية[5]: إن المؤمن والكافر منقولان بالشرع إلى معانٍ أُخر غير ما دلت عليه فى اللغة، وأنَّ الذى عليه السلف

---

(1) فى (د،ك،م) العامة.

(2) فى (د) تتأخرون. ﴿ولعل المناسب: تتأخرون﴾.

(3) سورة الأنعام من الآية 160.

(4) فى (د،ك) الفاء بدلاً عن الواو.

(5) المعتزلة البغدادية: أصحاب بشر بن المعتمر الهلالى وهو من وجوه المتكلمين، وكان جميع معتزلة بغداد من أتباعه، ومن البغداديين عيسى بن صبيح الملقب بأبى موسى المردار، وجعفر بن مبشر، وأبو جعفر الاسكافى، وأبو الحسين الخياط، وأبو القاسم عبد الله البلخى الكعبى، وأهم ما يميز معتزلة بغداد القول بتفضيل الإمام على– كرم الله وجهه– على أبى بكر– رضى الله عنه–، وخالفهم فى ذلك قدماء البصريين من المعتزلة، كأبى عثمان بن عبيد، وأبى الهذيل العلاف، والنظام، والجاحظ، وهشام بن عمرو الفوطى، ويوسف بن عبد الله الشحام، فهم يفضلون أبا بكر– رضى الله عنه– على الإمام على– كرم الله وجهه–، ويجعلون ترتيب الخلفاء الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة، وتتفق الفرقتان على أنَّ بيعة أبى بكر– رضى الله عنه– بيعة صحيحة شرعية. ينظر: شرح نهج البلاغة، 1/ 7.

الصالح أنَّ الإيمان: التصديق باللسان والاعتقاد بالجنان، والعمل بالأركان.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه**» أراد أنَّ المؤمن لا يزال خائفًا حتى يلقى الله تعالى فيؤمنه[1] من خوفه، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «لا أجمع لعبدى بين أمنين، ولا أجمع له بين مخافتين، من خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة، ومن أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخرة»[2]، **فالمخافة** فى الأجل الماضى: إما على طاعاته مردودة غير مقبولة، وإما على أن معاصيه غير مغفورة؛ لعدم تقبل التوبة، والمخافة فى الأجل الباقى الذى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه، هل يوفق لخاتمة الخير[3] بالسعادة الأخروية فيكون من أهل الجنة أو تستحكم عليه الشقاوة بفعل المعصية فيكون من أهل النار؟

وفى الحديث: « إنما الأعمال بخواتيمها»[4]، وفى حديث آخر: «إن من أهل الجنة من يعمل بعمل أهل النار حتى إذا لم يبق بينه وبين النار إلا ذراع أو باع، ثم يختم له بعمل أهل الجنة فيكون من أهلها، وإن من أهل النار من يعمل بعمل أهل الجنة حتى إذا لم يكن بينه وبين الجنة إلا ذراع أو باع فيختم له بعمل أهل النار فيكون من أهل النار»[5]، فالمؤمن كما قال عليه السلام: لا يزال خائفاً فى كلتا الحالتين، فنسأل الله الأمان بالتوفيق بخواتيم الخير والظفر برضوان الله.

فأما هذيان المجبرة فى مقالتهم المنكرة، وما توهموه من قواعدهم المدعثرة[6] من أن الله تعالى خلق الطاعة فى المؤمن وخلق المعصية فى الكافر بحيث لا محيص لهما عن ذلك فإنما هذه المقالة رمى فى العماية، وخبط فى الضلالة، وباعتقادها يحصل الوقوع فى كل جهالة، ولو صحّ ما قالوه لبطل الأمر، والنهى، والمدح، والذم، والثواب، والعقاب، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقد رددنا عليهم هذه المقالة، وأنهينا القول فى إفحامهم نهايته فى الكتب الكلامية .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فليأخذ العبد من نفسه لنفسه**»، ومعنى ذلك أن كل من أخذ لنفسه من نفسه بكفّها عمّا تهوى، وقبض زمامها عمّا تريده، فقد ملكها ونجاها عن المهالك، ومن أعطى نفسه هواها، وأرخى لها زمامها أوبقها

---

(1) فى (د،ك،م) حتى يؤمنه.

(2) صحيح ابن حبان، محمد بن حبان التميمى البستى، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2، عام 1993م، بيروت، لبنان، 2/ 406. شعب الإيمان، 1/ 483. بلفظ: «لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين إذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة».

(3) فى (د،ك،م) فيختم له .

(4) صحيح البخارى، 5/ 2381.

(5) نفسه، 3/ 1174. بلفظ: «فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع؛ فيسبق عليه كتابه؛ فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة».

(6) المدعثرة: المهدومة. ينظر: لسان العرب، مادة (دعثر).

فأهلكها، ومصداق ذلك ما روى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «ألا وإن الحقّ مطايا ذلل، ركبها أهلها وقبضوا أعنتها حتى أوردتهم ظلاً ظليلاً، وإن الباطل خيل شمس ركبها أهلها وأرخوا أعنتها حتى أوردتهم النار»[1] .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن دنياه لآخرته**»، ومعنى أخذ المؤمن من دنياه لآخرته هو ما يقدم بين يديه من الإنفاقات، وإحراز الأعمال الصالحة؛ لأن هذه الدنيا سوق ربحه الجنة، وخسارته النار، ودار المستقر هى أمامنا، وقد قيل فى معنى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا** ﴾[2] بمعنى ما قدمت بين يديك منها[3]؛ لأن ما تخلفه فهو حقّ للوارث، فمن قدم بين يديه فقد عمل بالحزم وتيقظ؛ لأنه أخذ من الفانى للباقى، ومن المنقطع للدائم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن الشبيبة قبل الكِبَر**» نبّه بكلامه صلى الله عليه وآله وسلم هذا على اغتنام أيام الشبيبة وجلدها، وهى لا يمكن ردها، فليستعملها العبد فى طاعة الله تعالى، ويغتنم وفور الشباب وجلَده، فربما رام فى حال الكبر أمورًا من الطاعة من الصيام والقيام، وقد أقعده العجز عنها فيندم، ولات حين مناص ندم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن الحياة قبل الموت**»، وأراد أن الواجب على العبد أن يعمل فى الوقت الذى يعلم أن العمل فيه مقبول، والمساعى فيه مشكورة، وهى مدّة الحياة قبل نزول الموت وحلوله؛ لأن العمل ينقطع فى تلك الحال، ويستحيل ويسقط حكمه لو قدر وقوعه، وما من وقت إلا والموت مقدر حصوله لا محالة، فالواجب على العاقل أن يكون فى كل وقت على حال يرضى أن يلقى الله وهو عليها، ولا يندم على ما فات؛ لأن ذلك يكون من عزم الأمور.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فو الذى نفس محمد بيده**»، وكانت يمينه صلى الله عليه وآله وسلم هكذا؛ لأن النفوس بيد الله يقبض ما شاء ويرسل ما شاء ، كما قال تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾[4]، وربّما حلف بقوله: «لا ومقلب القلوب»[5]، **واليد:** هاهنا من الاستعارة الرائقة.

---

(1) لم يقف الباحث فيما بين يدى من مصادر إلا ما ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب- كرم الله وجهه-، ولفظه: «ألا وإن الحق مطايا ذلل ركبها أهلها وأُعطوا أزمتها فسارت بهم الهوينا حتى أتت بهم ظلاً ظليلاً» . ينظر: تيسير المطالب فى أمالى أبى طالب، 270. ﴿ ولعل هذا من خطأ الناسخ لاسيما أن المصنف يطلق قوله: (عليه السلام) على النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- والإمام على- كرم الله وجهه- فتوهم الناسخ أنه يقصد النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فنسبه الناسخ للنبى- صلى الله عليه وآله وسلم-، ويؤكده أن المصنف نسب هذا القول للإمام على- كرم الله وجهه- فى النظر الثالث: بيان المقاصد، من الحديث الثالث عشر ﴾ .

(2) سورة القصص من الآية 77.

(3) ينظر: تفسير الطبرى، 19/ 524، 525.

(4) سورة الزمر من الآية 42.

(5) سنن النسائى الكبرى، أحمد بن شعيب النسائى، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البندارى، سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1991م، بيروت، لبنان، 4/ 408.

تنبيه: واعلم أن هذا نوع من علم البيان، يقال له: التخييل، والغرض أن اليد والوجه والعين وسائر الأعضاء الواردة فى التنزيل تخيلات لهذه الأعضاء، ولقبها فى علم البيان الاستعارة التخييلية، وليس لها هناك حقائق، وإنما المقصود ما ذكرناه، فإن الله تعالى يتعالى عن المشابهة لشىء من المكونات، وعن الأعضاء والجوارح؛ ولهذا فإن البلغاء وأهل الفصاحة من العرب العاربة لم ينكروه لما قرع مسامعهم، ولا توهموا فيها حقائقها؛ لما كانت جارية على أساليبهم فى البلاغة من غير حاجة إلى التأويل الذى يذكره المتكلمون من أن اليد بمعنى القدرة، والوجه بمعنى الذات، والعين بمعنى الحفظ، فهذه تأويلات المعتزلة من أهل العدل.

فأما الأشعرية فقد زعموا أن هذه الأعضاء صفات جبرية، فهذه التأويلات ركيكة بعيدة لم يشهد لها دليل، ولا قام على صحتها برهان، وما حملهم على هذه التأويلات الباردة، إلا أنهم لم يغمسوا أكفهم فى ينابيع[1] علم البلاغة، ولا شربوا من صفوه، ولا ذاقوا طعم حلاوته.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فما بعد الموت من مستعَتَب**» فإذا[2] كان المستعتَب اسم مفعول بمعنى المصدر، فمعناه: فما بعد الموت أعتاب لأحد أىْ: رضا، وإن كان اسم مفعول على حاله، فالمعنى فيه: فما بعد الموت من يطلب أعتابه أىْ: رضاه، وكلاهما محتمل كما ترى؛ لأنه لا معذرة بعد الموت ولا توبة؛ لأنه يرفع التكاليف كلها.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**»، وكلامه عليه السلام هاهنا دال على بطلان قول من زعم أن فى الآخرة دارًا ثالثة، وهو محكى عن أصحاب الأعراف، فإنهم زعموا أن الأعراف مواضع بين الجنة والنار، ويدل على بطلان مقالتهم هو أن كلامه صلى الله عليه وآله وسلم هاهنا دائر بين النفى والإثبات، فلا واسطة بينهما، وأيضاً فإن الإجماع منعقد على ذلك؛ فلأجل هذا قضينا ببطلان مقالتهم.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البيان

وزبده الأمر فيه أنه مشتمل على مجازات:

المجاز الأول: قوله: «**إنَّ لكم معالم**»، فحقيقة[3] **المعلم:** هو الشىء المنصوب فى الطرق، وهو مجاز فى غيره.

المجاز الثانى: قوله: «**نهاية**»، فإنها غاية الشىء فى المدركات، وهى مجاز هاهنا.

المجاز الثالث: قوله: «**فليأخذ العبد لنفسه من نفسه**[1]»؛ لأن المأخوذ والمأخوذ منه لا بدّ من تغايرهما لا محالة.

---

(1) فى(د) أصابيع . ﴿ولعل الأنسب: ينابيع﴾ .

(2) فى (د،م) فإن .

(3) فى (د) سقط الفاء .

المجاز الرابع: قوله: «**ومن دنياه لآخرته**»، فإن أحدهما لا يؤخذ من الآخر.

المجاز الخامس: قوله: «**ومن الشبيبة قبل الكِبَر**» مجاز أيضاً، فانظر إلى هذه الاستعارات ما أعجبها، وأدقّ معناها، وأحسن فى الانتظام تأليفها، ومجراها.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علم البديع

فمن **السجع:** قوله: «**معالمكم**»، و«**نهايتكم**»، ومن **التجنيس:** قوله: «**من نفسه لنفسه**»، فهما من التجنيس الكامل، ومن **الطباق:** قوله: « **الشبيبة قبل الكِبَر**»، و«**الحياة**»، و«**الموت**»، ومن الطباق: «**الجنة**»، و«**النار**»، فهذه الأمور كلّها من علم البديع، فلينظر الناظر هذه الأسرار، ولا ينظرها بمؤخر عينه، فإنها لا تدرك إلا بالفكر الصافى، والنظر المتّقد.

---

(1) فى (د،م) من نفسه لنفسه. ﴿وهو السليم كما ورد فى متن الحديث﴾.

الحديث الخامس

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ[1] قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيه وَآله وَسَلَّمَ- فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: **«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلاَّ لِعَالِمٍ نَاطِقٍ، أَوْ مُسْتَمِعٍ وَاعٍ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّكُمْ فِي زَمَانِ هُدْنَةٍ، وَإِنَّ السَّيْرَ بِكُمْ سَرِيعٌ، وَقَدْ رَأَيْتُم اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ كَيْفَ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ»**، فَقَالَ لَهُ الْمِقْدَادُ[2]: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا الْهُدْنَةُ؟ فَقَالَ: **«دَارُ بَلاَءٍ وَانْقِطَاعٍ، فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُم الأُمُورُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَشَاهِدٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، هُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ إِلَى خَيْرِ سَبِيلٍ، مَنْ قَالَ بِهِ صُدِّقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ»**[3].

فنقول: الحمد لله المنعم، الذى رفع مراتب العلماء، وقرنهم فى الشهادة بالتوحيد من غير تفرقة مع الأنبياء، واصطفاهم على الخليقة، وأطلعهم على الغوامض، وعرفهم الحقيقة، حتى صاروا هداة للخلق، وأئمة لمعرفة الدّين والحقّ، ناط بآرائهم الأحكام، وميّز باستصوائهم[4] بين الحلال والحرام، عرفوا الله حقّ معرفته، فاقشعرت جلودهم من خوف سطوته، ومصداق ذلك قوله تعالى: **﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾**[5]، ثم إن مداخل عقولهم وإن غمضت، وجنود خواطرهم وإن تغلغلت، فإنها لا تقع على كنه ذاته، ولا تحيط بعشر المعشار من حقائق صفاته.

والصلاة على الخاتم للنبوة والرسالة، والمنقذ لنا من ورط العمى والضلالة، وعلى آله الطيبين أئمة الدّين والإسلام، الحامين لعروته عن أن تفصم وترام.

واعلم أن هذا الحديث على قصر حجمه وتقارب أطرافه قد بلغ كل غاية فى الوعظ، وقد اشتمل على النظر فى علوم خمسة:

---

(1) وهو سعد بن مالك بن سنان الخدرى الخزرجى الأنصارى، صحابى دوّن عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أحاديث كثيرة، وأول مشاهده الخندق، توفى بالمدينة سنة 74هـ. ينظر: الاستيعاب، 2/ 602. أسد الغابة، 2/ 432.

(2) وهو المقداد بن الأسود، نُسب إلى الأسود بن عبد يغوث الزهرى لأنه تبناه، وحالفه فى الجاهلية، وهو المقداد بن عمرو ابن ثعلبة بن مالك، من قضاعة، وقيل: من كندة، قيل: إنه من السبعة الأوائل الذين أظهروا إسلامهم، شهد بدرًا والمشاهد كلها، توفى سنة 33هـ، ودفن بالمدينة. ينظر: الاستيعاب، 4/ 1480، 1481.

(3) الأربعون حديثًا السيلقية، 18.

(4) فى (د،ك) باستصوابهم.

(5) سورة فاطر من الآية 28.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

الخير: نقيض الشرّ، **والعيش:** الحياة، **والعيش:** ما يكون قوامًا لبنى آدم.

العالم: اسم[1] على كل من أحرز علمًا من العلوم الدينية والدنيوية، كالطبّ والفلاحة والهندسة، ولكنّه لا يصدق كل الصدق إلا على من كان عالمًا بالعلوم الدينية النافعة فى الفوز بالسعادة الأخروية، كالعلم بذات الله، وصفاته، ومعرفة ما يجوز عليه، وما يجب له من الحكمة، ويستحيل عليه من صفات الذات، وفى صفات الأفعال، والعلم بما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم، وإحراز علوم الشريعة، وإحراز معانى كلام الله وكلام رسوله، وإحراز سائر العلوم العملية والعلمية، وهذا هو العالم حقًّا؛ لأن علمه ينفعه فى الآخرة ويفوز به عند الله.

الناطق: هو نقيض الساكت، وهو الذى يعبر عن الحقّ، **والمستمع:** خلاف المعرض.

الزمان: عبارة عن حركة الشمس والقمر، فهذه هى الأزمنة فيما لا يزال، وأما الأزمنة الأزلية؛ فإنما هى جارية على جهة التقدير، إذ ليس هناك حادث يعقل؛ لأن الأزمنة الأزلية يحيل وقوع الحادث فيها، وإنما الغرض أنه تعالى[2] صرف لو قدر فيه حوادث لكانت بلا نهاية، **والهدنة:** عبارة عن الوقت الذى يكون فيه داعٍ إلى الله تعالى ولا مرشد إلى الخير والدِّين، ومنه هدنة الحرب؛ لأنها مسالمة ورفع للسيف، وهى عبارة عن السكون فى جميع الأطراف، **والسير:** نقل الخُطا، **والسريع:** خلاف البطىء، **والليل:** عبارة عمّا بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، **والنهار:** عمّا بين طلوع الشمس إلى غروبها، **والبلاء:** نقيض الجدّة، **والقرب:** خلاف البعد، **والإتيان:** نقيض الذهاب، **والموعود:** كل ما تقدم من الخير بإتيانه، وكل ما وعد به صادق الوعد، فهو كائن لا محالة، وقد فسّر رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– الهدنة لمّا سأله المقداد عنها بأنها «**دار بلاء وانقطاع**»، وأراد **بالبلاء:** الامتحان بالضرّ والمشقة والانقطاع عن الخير والانفصال عنه.

اللبس: هو اختلاط الأمر بعضه ببعض، حتى لا يمكن تخليصه إلا بعناء ومشقة، **وقطع الليل:** ظلمه، الواحدة: قطعة، **والليل المظلم:** هو الحلولك سوادًا، خلاف المتمّ.

القرآن: هو عبارة عن المكتوب بين الدفتين، المنقول بالتواتر، **والقرآن** المقطوع به الذى يكفُر من ردّ آية منه هو ما جمع خصالاً ثلاثًا: **النقل** بالتواتر، وأن يكون مطابقًا لخطّ المصحف العثمانى، وأن يكون موافقًا للعربية، وسُمى قرآنًا؛ لاجتماعه، ولهذا قيل للحيض المجتمع فى الرحم قروء.

---

(1) فى (ك،م) زيادة: يقع.
(2) فى (د) نفى.

الشافع: هو السائل للخير لغيره، **والمُشفَّع:** هو الذى لا ترد شفاعته، **والشاهد:** هو خلاف الغائب، **والشاهد:** هو الذى[1] يشهد بالحقوق، **والمُصدَّق:** هو الذى يصدقه الغير ولا يكذبه، **والأمام:** نقيض الوراء، **وجعل:** فى معنى صيّر، **وقاده:** إذا أخذ بزمامه، **والخلف:** نقيض الأمام، **والسَوق:** يكون من جهة الوراء، **والنار:** معروفة، نعوذ بالله منها، وفى الحديث: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم، ولولا أنها ضربت على الماء سبع مرات»[2]، وفى الآخر:«غسلت ما استطاع آدمى أن يسعّرها»[3]، وفى حديث آخر: «إن فى جهنم ألف وادٍ، فى كل وادٍ سبعون ألف شعب، فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب، لا ينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كلّه»[4]، وقال عليه السلام: «تعوذوا بالله من جبّ الحَزن» قيل:- يا رسول الله- وما وادى الحزن، أو جبّ الحَزن؟ قال: «وادٍ فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرّة، أعدّه الله للقراء المرائين»[5]، ثم إن لها أسماءً: جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

الواضح: نقيض الخفى، **والدليل:** هو المتقدم للقوم لهداية الطريق، **والسبيل:** هى جادة الطريق، والمراد هاهنا طريق الجنة، **والعمل:** هاهنا ما يفعله ابن آدم يرجو به الخير، **والقول:** نقيض السكوت، **والصدق:** نقيض الكذب، **والحكم:** القضاء بالحق. **العدل:** نقيض الجور، **والأجر:** هو الجزاء على العمل.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الإعرابية

«**لا**» هى النافية للجنس، مبنية مع اسمها على ما ينصب به، وهى نظيرة «**إن**» فى العمل، والجار والمجرور فى موضع رفع خبر لها.

«**إلا لعالم ناطق**» استثناء مفرغ، والمستثنى منه محذوف تقديره: لا خير فى العيش لأحد إلا لعالم ناطق، مجرور على الصفة

---

(1) فى (د) النبى. ﴿وهو غير مناسب﴾.

(2) مسند إسحاق بن راهويه، إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه، تحقيق د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشى، مكتبة الإيمان، ط1، عام 1991م، المدينة المنورة، المملكة السعودية، 4/ 635. وتكملته: «ما انتفع بها بنو آدم».

(3) المجموع الحديثى والفقهى، الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2002م، عمان، الأردن، 274. بلفظ: «لولا أنها غسلت بسبعين ماء ما أطاق آدمى أن يسعّرها».

(4) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى، دار المعرفة، عام 1403هـ، بيروت، لبنان، 4/ 531. بلفظ: «إن فى جهنم سبعون ألف واد... الحديث».

(5) سنن الترمذى، 4/ 593، بلفظ: «تعوذوا بالله من جب الحَزن. قالوا: - يا رسول الله – وما جب الحَزن؟ قال: وادٍ فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة. قلنا:- يا رسول الله- ومن يدخله ؟ قال: القراء المراؤون بأعمالهم». كنز العمال، 10/ 121.

«**لعالم**»،أو «**للخير**»[1]، و«**مستمع**» اسم فاعل «**واعٍ**» مجرور صفة له.

«**أيها الناس**» مضى إعرابه. «**إنكم فى زمان هدنة**» انجرار «**هدنة**» بإضافة زمان إليها إضافة معنوية.

«**وإن السير بكم سريع**» نصب «**السير**» على اسم «**إن**»، و«**سريع**» مرفوع خبرها، والجار والمجرور فى موضع نصب مفعول للمصدر، وهو «**السير**».

«**وقد رأيتم الليل والنهار**» منصوبان على المفعولية، وهى من رؤية العين؛ لأنهما مدركان، ويحتمل أن يكون من رؤية العلم.

«**كيف**» منصوب بالفعل بعدها. «**يبليان**» مرفوع على المضارعة، وهكذا «**يقربان**»، و«**يأتيان**»، وعلامة رفعه النون، ويحتمل أن يكون «**كيف**»، وما بعدها فى موضع نصب على الحال، كأنه قال: وقد رأيتم الليل والنهار مبليين لكل جديد. «**ما**» هاهنا للاستفهام فى كلام المقداد، و«**الهدنة**» مرفوعة خبر لـ «**ما**»، وهى للابتداء.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: – جوابًا للمقداد– « **دار بلاء وانقطاع**» مرفوع على أنه خبر مبتدأ، أىْ: هى دار بلاء، أو على عطف البيان من الهدنة، أو على أنه بدل منها، فكل محتمل كما ترى.

«**فإذا التبست عليكم الأمور**» العامل فى «**إذا**» قوله: «**فعليكم بالقرآن**»؛ لأنه إغراء، والمعنى فيه الزموا، كما تقول: عليك زيدًا أىْ: الزمه، وقوله: «**كقطع الليل المظلم**» «**الكاف**» للتشبيه، وهى جارة لما بعدها، وهى فى موضع نصب على الحال من الأمور، والتقدير: مشبهة لقطع الليل.

«**فإنه شافع مشفع**» خبران لـ «**إن**»، وهكذا قوله: شاهد، مصدق خبر«**إن**» أيضًا.

«**من**» هاهنا شرطية فى موضع رفع على الابتداء، و«**أمام**» منصوب على الظرفية، وهو فى موضع المفعول الثانى، و«**الضمير**» هو المفعول الأول. «**قاده**» جواب للشرط.

«**ومن جعله خلفه**» «**من**» شرطية أيضًا مثل الأولى فى كل أحوالها، و«**إلى النار**» مفعول لـ «**ساقه**»، و«**هو أوضح دليل**» جملة ابتدائية، و«**أوضح**» أفعل التفضيل، يريد أنه بالغ فى الإيضاح، وهو مضاف إلى ما بعده، كما تقول: هو أكرم رجل. «**إلى خير سبيل**» متعلق بـ «**أوضح**»، وجاز فى (أفعل) أن يعمل فى الجار والمجرور؛ للاتساع.

«**من قال به صدق**» جملة شرطية، وما بعدهما[2] جملة[3] شرطية فى موضع رفع على الابتداء، وجواب[4] الشرط؛ لأنَّ

---

(1) فى (د،م) للتخيير. ﴿وهذا غير صحيح﴾.

(2) فى (د،ك) بعدها. ﴿ولعل المناسب للسياق: بعدها﴾.

(3) فى (د،ك) جمل. ﴿السليم: جمل؛ لأن ما بعدها ثلاث جمل﴾.

(4) فى (د،ك،م) جوابه.

الجواب محطّ الفوائد كما ترى.

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية

وفيه تقريران:

التقرير الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى

وقد تضمن معانى خمسة:

المعنى الأول: الاختصار والإيجاز فى حذف المتعلقات، كقوله: «**لا خير فى العيش**» التقدير فيه: لا خير لأحد، وقوله: «**ناطق**» أىْ: ناطق بالحقّ، أو مستمع للوعظ واعٍ له، وقوله: «**شافع**» لغيره، ومشفع فى غيره، وشاهد فى خبره مصدق على غيره، وقوله: «**من قال به صدق**» فى خبره، «**ومن عمل به أجر**» فى عمله، «**ومن حكم به عدل**» فى حكمه، فهذه المحذوفات كلّها جارية على جهة الاختصار والإيجاز.

المعنى الثانى: الحصر، فى قوله: «**لا خير فى العيش إلا لعالم**»، فإنه متردد بين النفى والإثبات، وحاصلها: حصر الموصوف على الصفة، والمعنى: إنه لا يوجد العالم والمستمع إلا ويوجد الخير فى حقهما، ويجوز وجود صفات الخير فى غيرهما، ومثاله: ما كاتب إلا زيد، فالغرض أن زيدًا محصور على الكتابة لا يوجد إلا وتوجد، ويجوز وجود الكتابة فى غير زيد.

المعنى الثالث: الشمول والإحاطة، وقد كرر «**كل**» فى مواضع ثلاثة: «**يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود**» كما ترى.

المعنى الرابع: التأكيد بـ «**إن**»، وقد كُرر فى موضعين: «**إنكم فى زمان هدنة، وإن السير بكم سريع**»، والتأكيد يزيد الكلام إيضاحًا، ويقرره فى النفوس، ويزيل عنه الشكوك والاحتمالات.

المعنى الخامس: الإبهام بالشروط المترادفة، كقوله: «**من جعله أمامه**»، «**ومن جعله خلفه**»، و«**من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل**»، فهذه الجمل الشرطية مترادفة دالة على الإبهام العام، وقد وقع هاهنا أحسن موقع؛ لما تضمنه من الحكم البديعة والآداب البالغة.

التقرير الثانى: فى بيان مقاصده عليه السلام

المراد بـ «**العيش**» هاهنا هو النفع، وإحماد العاقبة، ثم إن العالم لا يكون عالمًا حتى يحرز العلوم الدينية، ثم هو منقسم إلى:

مجتهد، وغير مجتهد؛ **فالمجتهد:** هو المفتى فى علوم الشريعة من جهة نفسه فيما يتعلق بأحكام التحليل والتحريم، فإذا حدثت له الحادثة فإنه يُعْمل رأيه فيها، ويفتى على ما ينقدح له من الأدلة والأمارات، ولا بدّ من أن يكون محرزاً لعلوم الاجتهاد، وجملتها علوم عشرة:

أولها: علوم العقل، كالحدّ، والبرهان، فلا بدّ من إحراز طرف منها؛ ليكون متمكنًا من تقرير أدلة الخطاب.

وثانيها: العلم بأصول الديانة، وهو العلم بالله تعالى وصفاته.

وثالثها: العلم بالأصول الفقهية؛ ليتمكن بذلك من تقرير الأدلة الشرعية.

ورابعها: العلم بالكتاب؛ حتى يتمكن من الاستدلال به.

وخامسها: العلم بالسنة؛ ليتمكن من الاستدلال بالأخبار النبوية.

وسادسها: العمل بالإجماعات؛ لتكون فتواه موافقة لما أفتوا به، ويحاذر من مخالفة إجماعهم.

وسابعها: العلم بطرف من أدب اللغة؛ ليتمكن من معرفة الألفاظ اللغوية.

وثامنها: العلم بطرف من علم الإعراب[1]؛ ليحرز بذلك فهم المعانى.

وتاسعها: العلم بطرف من أخبار الرواة وأحوالهم؛ ليكون متمكنًا من معرفة من يرد ويقبل من الرواة.

وعاشرها: العلم بطرف من علم الناسخ والمنسوخ؛ حتى لا يفتى بآية أو خبر منسوخين، فهذه العلوم من كان محرزاً لها أمكنه الفتوى والاجتهاد فى المسائل الشرعية.

فأما غير المجتهد فهو الذى يكون محرزاً لبعض هذه العلوم دون بعض، وهل يُعدّ مجتهدًا فيما أحرزه من العلوم وأحاط به من بعض الفنون أم لا؟

فيه تردد، والمختار أنه يكون مجتهدًا فيما أحرزه من العلوم، فإن سيبويه[2]، والخليل[3]، والكسائى[4]، والفراء[5] يجوز لهم

---

(1) فى (د،ك،م) الإعرابية.

(2) وهو عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بنى الحارث بن كعب، ولد فى إحدى قرى شيراز سنة 148هـ، وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح، أخذ النحو عن الخليل، وعمل كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله أحد، وقد كان أعلم المتقدمين، والمتأخرين بالنحو، وقد اختلف فى تاريخ وفاته، ينظر: الفهرست، 1/ 76. وفيات الأعيان، 3/ 463، 464.

(3) وهو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، ولد بالبصرة سنة 100هـ، وتوفى بها سنة 170هـ. ينظر: الفهرست،1/ 63- 65. وفيات الأعيان،2/ 244- 248.

(4) وهو على بن حمزة بن عبد الله الأسدى بالولاء، إمام فى اللغة والنحو من أهل الكوفة، وهو مؤدب الرشيد العباسى وابنه الأمين، توفى بالرى سنة 189هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 3/ 295. الأعلام للزركلى، 4/ 283.

(5) وهو يحيى بن زياد الديلمى من أعلام الكوفيين بالنحو واللغة، ولد سنة 144هـ، وتوفى سنة 207هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 176/6. الأعلام =

الاجتهاد فى علم العربية، وإن لم يمكنهم الفتوى فى علوم الشريعة، ويُعد إجماعهم فى العربية، ولا يُعد إجماعهم فى علوم الشريعة.

الناطق:[1] الذى ينشر علمه ويبينه لمن كان مستحقًا له من أهله؛ لأن الله تعالى ما أخذ على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾[3]، فدلّ ذلك على عظم المعصية بالكتمان للعلم، وفى الحديث عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «من كتم علمًا يعلمه ألجمه الله بلجام من نار»[4]، وأهله فهم الراغبون فى تحصيله، الطلاب له الذين يقصدون به وجه الله لصلاح الدين وقوة الإسلام، فأما من لا يريد به وجه الله ويريد به عرض الدنيا وزينتها، والاستظهار على أولياء الله بالحجج الباطلة والتزويرات الكاذبة فلا بأس فى منعهم، وعلى هذا يحمل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[5]، وأحقّ الخلق ببذل العلم، وإعطائه هم صفوة الله من خلقه، وهم السادة من آل محمد، والعيون من أهل بيت النبوة، فإنهم أحقّ الخلق بذلك وأولاهم به؛ لما أشار إليه الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– بقوله: «الأئمة من قريش»[6]، وقوله: «لا تخالفوهم فتضلوا، ولا تشتموهم فتكفروا»[7]، ولو لم يكن إلا قوله عليه السلام : «الأئمة من قريش» لكان كافيًا فى الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، فأما فضل العلماء فهو أظهر من نور الشمس، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[8]، فلم يجعل بينهم وبين الأنبياء درجة فى الشهادة لله بالتوحيد، وهذا هو نهاية الفضل، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ ﴾[9]، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[10]، فأحال معرفة معانى الأمثال إلى العلماء، وجعلهم عاقلين لها دون الخلق، وفى الحديث عن الرسول– صلى الله

للزركلى، 8/ 145.

(1) فى (د) زيادة: هو.

(2) سورة آل عمران من الآية 187.

(3) سورة البقرة الآية 159، ومن الآية 160.

(4) مسند أحمد، 2/ 499. المعجم الكبير، 11/ 5. بلفظ: «من كتم علمًا يعلمه جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار».

(5) الأربعون حديثًا السيلقية، 26.

(6) مسند أحمد، 129/3. سنن البيهقى الكبرى، 3/ 121. سنن النسائى الكبرى، 3/ 467.

(7) الشافى، الإمام عبد الله بن حمزة بن سليمان، مكتبة اليمن الكبرى، ط1، عام 1986م، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 16/1.

(8) سورة آل عمران من الآية 18.

(9) سورة الحشر من الآية 21.

(10) سورة العنكبوت من الآية 43.

عليه وآله وسلم-: «إذا كان يوم القيامة وضعت منابر من ذهب عليها قباب من فضة مرصعة بالدّرّ والياقوت والزمرد، جلالها السندس والاستبرق، ثم يجاء بالعلماء فيجلسون عليها، ثم ينادى الرحمن- عزّ وجلّ-: من حمل إلى أمة محمد علمًا يريد به وجه الله تعالى، إلا أتى به، اجلسوا على هذه المنابر لا خوف عليكم حتى تدخلوا الجنة»[1]، وفى حديث آخر: «من تعلم علمًا ليعلمه لم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة واحدة»[2]، وهذا هو العالم الناطق بعلمه.

وأما المستمع الواعى، فهو المتعلم الذى يحفظ ما استمع لينتفع به، وينفع به غيره، وهو لاحق بالعالم و شريك له فى الأجر، على[3] أن للعالم أجرين، والمتعلم أجر واحد، فكن عالمًا، أومتعلمًا، ولا تكن من الفريق الثالث، وفى الحديث: عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «الناس رجلان: عالم ومتعلم، ولا خير فى سائرالناس من بعد»[4]، وعن على- عليه السلام- أنه قال: «الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق،. . . لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق»[5]، فإياك أن تكون من الفريق الثالث، فإن الهلاك إليهم أسرع من السيل إلى قراره.

وقوله عليه السلام: «**إنكم فى زمان هدنة**» لا فرق بين الزمان، والعصر، والدهر، والمراد بذلك مقدار مدّة بقاء التكليف على الكافة، **والهدنة:** سكون ودِعة، وهو الوقت الذى لا يكون فيه داعٍ لله ظاهر ولا منبّه على الخير؛ المعنى اشأنوا شأن نفوسكم، وأعدوا اليقين وحسن الصبر، وتفكروا فى معانى كتاب الله تعالى، فيوشك أن تقعوا فى زمان هدنة ليس فيها للأمة راعٍ ولا لها إلى الله داعٍ، ولا حاث على الخير ظاهرة يده ولسانه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وإن السير بكم سريع**» أراد أن الإنسان يسار به إلى الله تعالى، وإن كان واقفًا فى بيته نائمًا على فراشه، ولقد أحسن من قال[6]:

وَنَحْـنُ عَلَـى الـدُّنْيَا كَرَكْـبِ سَـفِيْنَةٍ نَظُـنُّ وُقُوْفًـا وَهِـيَ مِـنْ تَحْتِنَـا تَجْـرِي[7].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد**» من خراب شبابه وتغيير صورته، وما

---

(1) تيسير المطالب، 215.

(2) كنز العمال، 10/ 70. بلفظ: «من جاءه الموت، وهو يطلب العلم يحيى به الإسلام لم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة فى الجنة».

(3) فى (د،م) خلا.

(4) المعجم الكبير للطبرانى، 10/ 201. بلفظ: «الناس رجلان عالم، ومتعلم، ولا خير فيما سواهما».

(5) نهج البلاغة، 496.

(6) البيت لأبى الحسن على بن محمد بن فهد التهامى، وهو من الشعراء المحسنين المجيدين، مولده ومنشؤه باليمن، كان معتزليًا، أقام ببغداد، وتوفى سنة 416هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 22/ 74، 75.

(7) البيت من الطويل، ونصّه: وَإنّا لَفِى الدُّنْيَا كَرَكْبِ سَفِيْنَةٍ نَظُنُّ وقُوْفًا والزَّمَانُ بنَا يَجْرِى . ينظر: ديوان التهامى، على بن محمد التهامى، شرح وتحقيق د. على نجيب عطوى، دار ومكتبة الهلال، عام 1986م، بيروت، لبنان، 486.

من جديد إلا والأيام والليالى تفنيه، «**ويأتيان بكل موعود**» فى إحضاره وتنجيزه، فهما يأتيان على كل جديد بالزوال والإبطال، وفى هذا من الألطاف الخفيّة ما لا يخفى على كل عاقل، فإنه إذا تفكر فى صيرورة أمره وما ينتهى إليه حاله زهد فى الدنيا ولم يغترّ بغرورها؛ لأنه يتحقق أنه ربّما صار بعد الصورة الحسنة والهيئة الرائقة ترابًا يطؤه من كان يأنف أن يمسّه من الهوام والأنعام وضعة الخلق، وربّما صار مرتعًا للسباع، ومسرحًا للأنعام، وربّما بنى من جسمه الأنيق جسر وحائط، فكيف يفتتن ذو عقل رشيد ؟ ! ويغتر بجثته ومصيرها إلى ما قدمنا ذكره؟ ! ولقد صدق من قال[1]:

خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـ أَرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ[2] .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ويقربان كل بعيد**» أراد أن الليل والنهار ما من أمدّ بعيد إلا وهما يوصلان إليه وإن بعدت مسافته، وطال أمده وبعدت شقته.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ويأتيان بكل موعود**»، وأعظم المواعيد هو ما وعد به الصادق الأمين من[3] حصول يوم القيامة وأهوالها وروائعها وزلزالها، والعرصة ونوائبها، والمحاسبة وعجائبها، والنار ومصائبها والجنة ومراتبها، فإن هذه أمور عظيمة هائلة لا ينبغى للعاقل أن يتغافل عنها، وليستعمل فكره فى الخلاص من شدائدها، وليجهد نفسه فى نيل فوائدها .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**دار بلاء وانقطاع**» أراد بهذا تفسيرًا لقوله: «**إنكم فى زمان هدنة**»؛ لما سأله المقداد عن الهدنة، وغرضه من ذلك أن بلوى الدنيا دائم، وانقطاعها لازم، فإن حجج الله تعالى من الأنبياء عليهم السلام، والأئمة الكرام، وأتباعهم من علماء الإسلام ربّما انقطعوا وذلوا وقتلوا فقلوا، فلم يبق منهم علم ظاهر، ولا من ينقاد لحكمه، ولا من يستبصر

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن**» أراد أن الأمور إذا صارت مختلطة، ولم يتميز الحقّ فيها عن الباطل، فإن القرآن هو المخلص عن هذه الورطة، وهو النجاة لمن تمسك به، وهو العدّة لمن لجأ إليه، فأغراهم بلزومه، وأمرهم بالاستضاء بنوره.

سؤال: ما وجه اتصال قوله: «**فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن**»، فإن قبله: «**إنكم فى زمان هدنة**»، وبينهما تنافر، ولا ملاءمة[4] بينهما .

---

(1) البيت لأبى العلاء المعرى، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى، شاعر و فيلسوف، وقد كان أعمى ولد بمعرة النعمان سنة 363هـ، وتوفى بها سنة 449هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 1/ 113، 114 . الأعلام للزركلى، 157/1 .

(2) البيت من الخفيف، وهو ثابت فى ديوان أبى العلاء المعرى والمسمى سقط الزند . ينظر: شرح سقط الزند، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى، شرح وتعليق د . ن رضا، دار ومكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 111 .

(3) فى (د،م) سقط: من.

(4) فى (د) ملازمة.

وجوابه: هو أن الهدنة لما كانت عبارة عن الأزمنة التى ينقطع فيها المذكورون بالله من الأنبياء– عليهم السلام–، وورثتهم من الأئمة الأعلام وأتباعهم من العلماء الكرام، فأشار عليه السلام بأنهم إذا عدموا فى هذه الهدنة، فإن القرآن هو الكافى فى زوال الالتباس، وكشف الكربات فى الأمور المهمات والشدائد المعضلات، فقد حصل بما ذكرناه حصول الملاءمة[1]، وزوال التنافر، والحمد لله.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فإنه شافع مشفع**» نزّله الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– منزلة الشافع، وهو السائل للخير بجلب منفعة أو دفع مضرّة، وجمعه شفعًا؛ لأنه لا تردّ شفاعته، فالقرآن جامع للأمرين جميعًا؛ لأن بتلاوته ينال الثواب الأعظم ويستحق الأجر الأكبر، وفى الحديث عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه يقال لصاحب القرآن: «اقرأ وارقى ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»[2]، وفى حديث آخر: «اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته على كل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول: الم حرف، ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف»[3] اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ** ﴾[4]، وهذا من أعلى ما تنال به الشفاعة، فلهذا سمى القرآن شافعًا، وفى الحديث: «إن أهل القرآن هم أهل الله»[5]، والمراد بذلك المتبعون له والعاملون بأحكامه، وروى عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إن أهل القرآن يوم القيامة على كثبان من مسك، لا يفزعون، ولا يهالون»[6].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وشاهد مصدق**»، فجعل عليه السلام القرآن فى حكم الشاهد لحامله بأنه عمل به، **إذا** كان عاملاً به فيستحق ما وجب من الأجر، كما يستحق الحقّ عند الشهادة، وتصديق الشاهد يكون بأمرين، **إما** بالتعديل، **وإما** بتصديق الخصم له، بكل واحد من الأمرين تثبت شهادته، وهذا حال القرآن فإنه من قام بأوامره وانقاد لأحكامه، وتوقف عند متشابهه، وعمل بمحكمه، وتفكر فى أمثاله، وقام بما يجب من إجلاله، ووقف نفسه على حلاله وحرامه، وخاف من وعيده، فهذا هو الذى يشهد له القرآن بين يدى ربه بأنه لقد قام به حقّ القيام وأدى ما يجب عليه لذى الجلال والإكرام.

---

(1) فى (د) ملازمة.

(2) مسند أحمد، 2/ 192. سنن أبى داود، 1/ 463. سنن النسائى الكبرى، 22/5.

(3) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1990م، بيروت، لبنان، 1/ 741.

(4) سورة الواقعة الآية 30.

(5) مسند أحمد، 3/ 127. سنن النسائى الكبرى، 5/ 17.

(6) المعجم الكبير للطبرانى، 12/ 433. بلفظ: «ثلاث على كثبان المسك يوم القيامة لا يهولهم الحزن، ولا يفزعون حين يفزع الناس رجل تعلم القرآن، فأقام به يطلب به وجه الله وما عنده. . . . . . .الحديث».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار**»، والمعنى فى جعله أمامه أن يقتدى بأوامره فيفعلها، وبنواهيه فيجتنبها[1]، ويرد متشابهه إلى محكمه، ويؤمن بالمنسوخ، ويعمل بالناسخ، ويتدبر أمثاله، ويتفهم مقاصده، ويستعين فى معرفة غرائبه، وإحراز عجائبه بسؤال تراجمته، وأرباب معالمه والمحيطين بمعاقده ومناظمه، هم عترة الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- والأئمة من أهل بيته الحامين لعروته عن الانفصام، والمانعين لعقوته[2] أن تهضم وترام، ومصداق ذلك ما روى عن أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- أنه قال: إن العلم الذى أنزله الله على الأنبياء من قبلكم فى عترة نبيكم، فأين يتاه بكم عن علم تنوسخ من أصلاب أصحاب السفينة هؤلاء مثلها فيكم، وهم كالكهف لأصحاب الكهف، وهم باب السلْم، فـ ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾[3]، وهم باب حطّة من دخله غفر له، خذوا عنى عن خاتم المرسلين حجة عن ذى حجة[4] قال[5] فى حجة الوداع: « إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبدًا: كتاب الله، وعترتى أهل بيتى، إن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض»[6] .

وأراد بقوله: «**من جعله خلفه ساقه إلى النار**» أن ينبذ أحكامه وراء ظهره، فلا يحلّ حلاله، ولا يحرم حرامه، ولا يقوم بفرائضه، ولا يلتزم أحكامه، ولا يتدبر معانيه، ولا يعتزل مناهيه، ولا يعدل بقسطه، ولا يفى بشرطه، فهو لا محالة يسوقه والحال هذه إلى النار، وجعل القود إلى كل خير، والسَوق إلى كل شرّ، كما قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾[7]، وكما ورد فى الخبر: «وقائد الغرّ المحجلين إلى جنات النعيم»[8]، و[9]قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**هو أوضح دليل إلى خير سبيل**»، ولا شكّ أنه كذلك، فإن الله تعالى وصفه بأنه بيان وتبيان لكل شىء، ووصفه بكونه نورًا، وهدى للناس[10]، وشفاء لما فى الصدور، وهو الذى عجز الخلق عن الإتيان بمثله، وعجب منه أهل البصائر من الجن، فقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾[11]، وأىّ هدى أهدى منه ؟! وأىّ شىء أعجب منه؟! ثم إنه على سعته وطوله

---

(1) فى (د) فيحذرها .

(2) عقا العقوة والعقاة: الساحة وما حول الدار والمحلة. ينظر: لسان العرب، مادة (عقا) .

(3) سورة البقرة من الآية 208 .

(4) تيسير المطالب، 259،260 .

(5) فى (د،ك،م) قالها .

(6) سنن الترمذى، 5/ 663 . بلفظ:« إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما» . تيسير المطالب، 260 .

(7) سورة مريم الآية 86 .

(8) المستدرك على الصحيحين، 3/ 148 . بلفظ:« قائد الغر المحجلين» .

(9) فى (د،ك،م) سقط: الواو .

(10) فى (د،ك،م) سقط: للناس .

(11) سورة الجن من الآية1، ومن الآية 2 .

وانسحاب ذيوله وتنوع فصوله فى غاية الفصاحة، ومنتهى البلاغة لا يستطيع البلغاء، ولا المصاقع الخطباء إلى الإتيان بمثل فصل من فصوله، وأقروا بالمعجز، وأفحموا بالفهاهة[1] عن معارضته، وعلموا أن البحر قد زخر فأغرقهم تياره، وأن الصباح قد انفلق فجاشت أشعته وأنواره، وهو أعظم دليل إلى كل خير، وأعظم الخيرات الجنة مع ما أختصّ به من الأسرار العجيبة والمعانى الدقيقة، لا تنقضى غرائبه، ولا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل**» أراد أن كل من كان قوله مطابقًا للقرآن فهو الصادق يقينًا؛ لأن القرآن صدق لا محالة، وما طابقه من الأقوال فهو صدق أيضاً. «**ومن عمل به أجر**» أراد ومن كان عمله مطابقًا لأوامر القرآن ونواهيه وحرامه وحلاله فقد **أجر**؛ أىْ كتب عمله؛ لكونه خارجًا بالأداء عن عهدة الأمر. «**ومن حكم به عدل**» أراد ومن كان حكمه مطابقًا للقرآن فهو عدل وحقّ؛ لأن كتاب الله تعالى هو قاعدة العدل وأساسه، وعينه، وقلبه، ورأسه، وبهجة أمره، وأنفاسه، ومصداق ذلك ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- لما أرسل معاذاً[2] إلى اليمن قال له: «بم تحكم»؟ فقال: أحكم بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد»؟ قال: بسنة رسوله، قال: «فإن لم تجد»؟ قال: أجتهد رأيى، ولا آلو احتياطاً، فقال: «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسوله»[3]، فنسأل الله أن يجعل القرآن ربيعًا لقلوبنا، وشفاء لصدورنا، ووسيلة لنا إلى نيل رضوانه، وإحرازاً لمزيد فضله وإحسانه.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البيان

وقد تضمن مجازات ستة:

المجاز الأول: قوله: «**إنكم فى زمان هدنة**»، فالهدنة هاهنا استعارة رشيقة لخلو[4] الزمان عن الدعاة إلى الله بالخير للخلق والصلاح.

المجاز الثانى: «**إن السير بكم سريع**» استعارة أيضاً، فإن «**السير**» هو نقل الأقدام.

---

(1) الفهاهة: العى. ينظر: لسان العرب، مادة (فهه).

(2) وهو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى، شهد مع الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- المشاهد كلها، بعثه قاضيًا إلى الجند باليمن، توفى بناحية الأردن فى طاعون عمواس سنة 18هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1402- 1404.

(3) مسند أحمد، 5/ 230. سنن البيهقى الكبرى، 10/ 114. بلفظ: «أن رسول الله حين بعثه إلى اليمن، فقال: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيى لا آلو. قال: فضرب رسول الله على صدرى، ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله و رسوله».

(4) فى (د،ك،م) لخلو.

المجاز الثالث: قوله: «**الليل والنهار كيف يبليان كل جديد**» أسند إليهما البلاء، والقرب، والبعد، والإتيان إلى الليل والنهار، وهذه لا يستند إليها، وإنما هى مسندة إلى الله تعالى، فما هذا حاله معدود فى المجاز المركب، ومعنى التركيب أن يسند الفعل إلى من يستحيل إسناده إليه.

المجاز الرابع: قوله فى القرآن: «**شافع مشفع وشاهد مصدق**»، وهى استعارة حسنة.

المجاز الخامس: قوله فى القرآن: «**قاده إلى الجنة**»، و«**ساقه إلى النار**» مجاز أيضاً.

المجاز السادس: قوله: «**من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل**» استعارة رشيقة أيضاً، فهذه جملة ما اشتمل عليه[1] الحديث من علم البيان.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علم البديع

وهو أمور تتعلق بعلوم البلاغة، فمن **التسجيع** قوله: «**يقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود**»، و«**يبليان كل جديد**»، ومن **الاشتقاق** قوله: «**شافع مشفع، وشاهد مصدق**» مثل قوله: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ** ﴾[2]، وقوله: ﴿ **فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾[3]، ومن **الطباق** قوله: «**الليل والنهار**»، فهذه الأمور كلها تعد طباقاً؛ لما فيها من التضاد والتناقض.

(1) فى (د،م) عليها.
(2) سورة الروم من الآية 43.
(3) السورة نفسها من الآية 30.

الحديث السادس

عَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «**لَا يُكْمِلُ عَبْدٌ الإِيمَانَ بِاللَّهِ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ، إِنَّهُ مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[2] .

فنقول: الحمد لله العلام الذى جعل الإيمان نورًا يهتدى به فى الظلمات، ووسيلة يبلغ به إلى أرفع الدرجات، وذريعة إلى نيل أعظم الكرامات، وإيضاحًا للمشكلات، وسلامة عن المهلكات، وقاعدة لجميع الأعمال الصالحات، ومعتصمًا تستنزل به الرحمة والبركات، حتى لا مطمع لأحد فى نيل تلك الخصال إلاإبإحرازه وحصوله، ولا مستروح فى إدراكها إلا بإتقانه وإحكام أصوله، جعله الله أساسًا للأعمال الصالحة، ومتجرًا يحصل به الفوز فى التجارات الرابحة، فهو العمدة فى الدّين، ورأس المعرفة واليقين.

والصلاة على النبى الكريم، الهادى إلى الطريق الواضح المستقيم، المظهر لأعلام الإسلام، والمبين للمراسيم[3]الدينية والأحكام، وعلى آله الطيبين جبال العلم الراسخة، وأطواد الحلم الشامخة، واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور خمسة:

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

الإكمال والإتمام واحد . **العبد:** هاهنا المراد به المكلف، وسُمى عبدًا؛ لأنه مذلل لله تعالى، وأصل التعبد التذلل من ذلك قولهم: طريق معبد أىْ: مذلل، فأما التعبد وهو التذلل، فهو عام فى جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد ذلّله الله بالفقر والمرض والموت، وتعزز الله بالدوام والبقاء والغنى، وكيف لا يكونون بالإضافة إليه متذللين[4]، ولطاعته ممتثلين، وإن أبق عن طاعته كل جاهل ونسى واجب حقّه كل غافل، فهو المالك لرقابنا على الحقيقة، ولا يصحّ خروجنا عن ملكه وربقة[5] رقّه فى حالة

---

(1) وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى، ولد بمكة سنة 10 ق هـ، هاجر إلى المدينة مع أبيه، وتوفى فى مكة سنة 73هـ. ينظر: الإصابة، 4/ 181– 183. الأعلام للزركلى، 4/ 108.

(2) الأربعون حديثاً السيلقية، 19.

(3) فى (د،ك) سقط الياء من: المراسيم.

(4) فى (د،ك،م) سقط التاء من: متذللين.

(5) الربق: بالكسر حبل فيه عدة عرا تشد به البهم، الواحدة من العرا ربقة، وأخرج ربقة الإسلام عن عنقه فارق الجماعة. ينظر: لسان العرب، مادة (ربق). مختار الصحاح، مادة (ربق).

من الحالات، فالحمد لله الذى جعلنا بالعبودية له معترفين، وبالملكة للرقاب، وخشوع القلب، وخضوع البصر مقرين.

الإيمان: هو التصديق. **الخصال:** جمع خصلة، وهى الطريقة والحلة[1]، ومعناها واحد. **التوكل على الله:** وإنما بدأ بذكره؛ لأنه أعلاها وأعظمها، **والتوكل فى اللغة:** هو الاعتماد على الغير، ورجل وكلة إذا كان يكل أكثر أموره على غيره، كما قيل: ضحكة ولومة لكثير الضحك واللوم كالهمزة واللمزة، وأما **التفويض:** فهو التخلية يصنع ما أراد من غير منع له ولا اعتراض عليه، واشتقاقه من قولهم: فاض الماء إذا أخذ على غير وجهه بلا حاجر له، ولا مانع يردعه، ومنه الفضاء؛ لأنه يتسع من كل جوانبه، يدخل من أىّ جوانبه شاء الداخل، **والصبر**[2]: حبس النفس على ما تكره من المشاق، وفلان قتل صبرًا إذا حبس للسيف، بحيث لا يتمكن من دفعه، وفى الحديث: نهى رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– عن صبر البهائم[3]، وهو أنها تترك عرضاً للسهام، بحيث لا يمكنها دفعها، **والبلاء:** هو المحنة والفتنة كما قال تعالى:﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾[4]، أىْ: امتحان وخبرة.

التسليم: هو الانقياد والاحتكام، يقال: فلان سلم القياد إذا انقاد للغير، وملك أمره، **والرضا:** هو نقيض السخط، **والقضاء** فى كتاب الله مقول على جهة الاشتراك بين معان ثلاثة:

أولها: الخلق، كما قال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[5].

وثانيها: بمعنى الخبر والإعلام، كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[6].

وثالثها: بمعنى الأمر والإلزام، كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[7].

الحب: نقيض البغض، ومعنى المحبة أن يمتلئ القلب بذكر المحبوب سرورًا، واللسان بذكره حلاوة، والبصر برؤيته بهجة ونورًا وحبورًا، **والمحبة** لله إما محبة لأوليائه؛ لانقطاعهم إليه، وإما محبة لطاعته، وإن كانت شاقة عليه، وهكذا حال البغض فى الله فإنه، **إما** أن يكون[8] بغضاً لأولياء الله، وإما بغضاً لطاعته وكراهة له، لا يعقل فى المحبة والبغض فى الله سوى ما ذكرناه، **والعطاء:**

---

(1) فى (د) الخلة. ﴿وهو المناسب﴾.
(2) فى (د،ك،م) زيادة: هو.
(3) صحيح مسلم، 3/ 1549. سنن ابن ماجة، 2/ 1063.
(4) سورة الدخان الآية 33.
(5) سورة فصلت، من الآية 12.
(6) سورة الإسراء، من الآية 4.
(7) سورة الإسراء، من الآية 23.
(8) فى(م) سقط: أن يكون.

نقيض المنع، والمنع هو الحرمان، ومعنى **العطاء:** هو تسليم الحقوق الواجبة إلى المستحقين من أوليائه، ومعنى **المنع لله**[1]**:** هو منع أعداء الله من إعطاء الحقوق الواجبة، فإنهم لا يستحقونها، يريد الكفار والمنافقين، فهذه جملة ما اشتمل عليه الحديث من آداب[2] اللغة.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية

«**لا**»هى النافية، والفعل مرفوع على المضارعة، و«**عبد**» مرفوع على الفاعلية للفعل السلبى، والفعل رافع للفاعل وإن كان منفيًا؛ لأن المقصود فى الإعراب إنما هو على الإسنادات اللفظية دون المعنوية، فلهذا يرفع الفعل مع كونه منفيًا، فلا فرق بين قولنا: ضرب زيد، وما ضرب زيد . فى رفع الفاعل بإسناد الفعل إليه، و«**الإيمان**» منصوب على المفعولية.

«**حتى**» فيها وجهان:

أحدهما: أن يكون الفعل منصوبًا، فعلى هذا تكون «**حتى**» بمعنى (إلى) للغاية.

وثانيهما: أن يكون الفعل مرفوعًا، وعلى هذا تكون ابتدائية فى أول الجملة مثلها فى قوله: ﴿ **حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا** ﴾[3]، وقول امرئ القيس[4]:

وَحَتّى الجِيَادُ مَا يُقَدْنَ بِأَرْسَانِ[5] .

و«**خمس**» مرفوع على أنه اسم «**كان**»، والجار والمجرور خبر له. «**التوكل على الله**» مرفوع على أنه عطف بيان أو بدل من «**خمس**»، وقوله: «**على الله**» معمول للمصدر، وهو «**التوكل**». «**والتفويض إلى الله**» مرفوع بالعطف على ما قبله، والجار والمجرور متعلق به. «**والصبر على بلاء الله**» مثله فى الرفع والتعلق. «**والتسليم لأمر الله**» مثله.

«**والرضا بقضاء الله، إنه من أحب لله**» «**الهاء**» فى «**إنه**» للشأن والقصة، و«**من**» فى موضع رفع بالابتداء، وهى شرطية، و«**أعطى لله، ومنع لله**»، فهذه كلها أفعال شرطية فى صدر«**من**».

---

(1) فى (ك) سقط: لله.

(2) فى (د،ك،م) أدب.

(3) سورة الأنعام، من الآية 34.

(4) وهو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر الكندى أشهر شعراء العرب، اشتهر بلقبه، واُختلف فى اسمه، فقيل: حندج، وقيل: مليكة، يمانى الأصل ولد بنجد سنة 130ق هـ، وتوفى سنة 80ق هـ. ينظر: بغية الطلب فى تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبى جرادة، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، ط1، عام 1988م، بيروت، لبنان، 4/ 1991، 1992 . الأعلام للزركلى، 2/ 11.

(5) البيت من الطويل، وصدر البيت: مَطَوتُ بِهِم حَتّى تَكِلَّ مَطِيُّهُم. ينظر: ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، عام 1984م، القاهرة، مصر، 93.

وقوله: «**فقد استكمل الإيمان**» هو و[1] «**الفاء**» جواب لهذه الشروط، أراد بإكمال هذه الخصال يكمل إيمانه الشرعى بما ذكرناه.

وقوله: «**فقد استكمل الإيمان**» هو جواب «**من**»، وهو خبرها، والجملة الشرطية فى موضع الخبر لـ «**إن**» كما ترى.

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من الأسرار المعنوية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى

فمنها، **التقديم والتأخير**، فى قوله: «**حتى تكون فيه خمس خصال**»، فقدّم الخبر بالظرف وأخر الاسم اهتمامًا واعتناء، ومن ذلك **الفصل والوصل** بـ (الواو) فى تعديد الصفات، **والفصل**، فى قوله: «**إنه من أحب لله**»، فأتى به من غير (واو)؛ تنبيهًا على الفصل، ومن ذلك البيان والإيضاح فى ما أجمل، فالإجمال فى قوله: «**خمس خصال**»، **والبيان:** هو ما ذكره من سرد[2] الصفات التى أوردها، ومن ذلك **التأكيد** بـ «**إن**»، فى قوله: «**إنه من أحب لله**»، ومن ذلك **الإبهام** فى خبر الشأن والضمير، فى قوله: «**إنه من أحب**»، وهكذا حال الإبهام فى«**من**»، فإن هذه الأمور التى سردناها من علم المعانى فيها أسرار ورموز تطلع الناظر على المعادن والكنوز.

المطلب الثانى: فى بيان مقاصده من الحديث

فاعلم أنه قد أشار إلى أن كمال الإيمان لا يكون إلا بإحراز هذه الخصال الخمس، **فأما** أصول الإسلام والإيمان فهى خمس أيضًا: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج إلى بيت الله الحرام[3]، وصيام شهر رمضان، ومصداق[4] كونها أصولاً قوله عليه السلام: «بنى الإسلام على خمس. . . .»[5] إلى آخرها، ونحن نشرح هذه الخصال.

---

(1) فى (د،ك،م) سقط: هو و. ﴿ولعله الأنسب﴾.

(2) فى (د،ك،م) السرد.

(3) فى (د،ك،م) سقط: الحرام.

(4) فى (د،ك،م) زيادة: ذلك.

(5) صحيح البخارى، 1/ 12. وتكملة الحديث: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

الخصلة الأولى: التوكل على الله

ويحصل المقصود بالكلام فى مقامات ثلاثة:

المقام الأول: فى بيان معنى التوكل

قال المنصور بالله– عليه السلام– : ومعنى التوكل على الله: أن تعتمد فى كلّ مهمّ عليه، وترد كل ملمّ إليه، وتضع يدك فى يديه لا ترجو لكل شديدة سواه، ولا توالى خوفاً من المشاق عداه، تؤثر إن أعطاك لترضى وليه، وتشكر إن منعك لتكبت عدوه، ولا تطلب شيئًا من رزقه بمعصيته، ولا تعصيه عزّ وعلا لرضا أحدٍ من خلقه، ولا تقصّر فى شىء من عبادته ولوازم تكليفه[1]، والمختار أن يقال فى معناه: إنه إسناد النفس إلى الله، والتحقق أنه ليس له فى الوجود سواه، والاعتماد فى كل الأمور عليه.

وأما الشيخ أبو حامد الغزالى فقد قال فى معناه: إنك تقرر فى نفسك أنه لا فاعل إلا الله، وأنه قادر على كفاية العباد، وعلى تمام العناية والرحمة بجميع[2] الأفراد والآحاد، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا منتهى علمه علم، ولا منتهى لعنايته عناية ورحمة، فهذا كلّه شرح لحقيقة التوكل بهذه العبارات الطويلة[3]، وما ذكرناه فى ماهيته كافٍ، فإن هذه الأمور كلها مندرجة تحت الأوصاف الثلاثة التى ذكرناها .

المقام الثانى: فى إيراد درجات التوكل وبيانها

اعلم أن تلك الأحوال التى شرحناها فى معناه لها بالإضافة إلى المتوكلين درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: – وهى أعلاها– أن تجرى نفسك بين يدى الله وتنزلها منزلة الميت بين يدى الغاسل له لا تصرّف لك، ولا عناية بنفسك من جهتك، وهذه لا يختصّ بها إلا الآحاد، ولا ينالها إلا الأفراد، ومن هذه حاله فإنه لا يحتاج إلى الدعاء ثقة منه بكرمه وعنايته، وأنه يعطى ابتداء أكثر مما يسأل، فكم من نعمة أعطاها من غير مسألة.

الدرجة الثانية: – وهى دونها– أن يكون حالك مع الله بمنزلة الطفل فى حقّ أمّه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد فى أحواله إلا عليها، فإن رآها تعلق فى كل حالة[4] بأثوابها ولم يتركها، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه ذكرها ونداؤها، وأول خاطر يخطر على قلبه ذكر أمه فإنها مفزعه ولجاؤه وغايته وانتهاؤه.

---

(1) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 60.
(2) فى (د) بجملة. ﴿وهو الأصح﴾ .
(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 260.
(4) فى (د) سقط: التاء من حالة.

الدرجة الثالثة: – وهى أضعفها– أن يكون حالك مع الله، والثقة بعنايته ورحمته كحال الوكيل مع موكله، فإذا كان الموكل يعلم من حال وكيله الهداية إلى تحصيل المقصود للموكل، والقدرة على تحصيل الحقّ والشفقة حتى لا يضيع له حقًا فإنه صالح للوكالة، فإن اختلّت هذه الأمور أو واحد منها لم يكن صالحًا للوكالة، مع أن الوكيل قادر على المخالفة، وهذه الدرجة هى أبعد الحالات عن التوكل.

المقام الثالث: فى ذكر كلام العلماء فى حقيقة التوكل

قال بعضهم: التوكل خلع الأرباب، وقطع الأسباب، فخلع الأرباب يشير به إلى التوحيد، وقطع الأسباب يشير به إلى الانقطاع إلى الله تعالى، وحُكى عن بعضهم أنه قال: إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها عن الربوبية[1]، وهذه إشارة إلى إصلاح الباطن فى الاعتقاد، وإصلاح الظاهر فى الأعمال كلها، وقال آخرون: التوكل هو التعلق بالله فى جميع الحالات[2]، فصار[3] صائرون إلى أن التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب[4]، وأراد بالسكون سكون القلب إلى الله تعالى، فلا يضطرب فى حال، وأراد بالاضطراب بلا سكون الفزع والتضرع إلى الله تعالى، وقال بعضهم: **التوكل:** تفويض وتسليم، فالتسليم إلى الله، والتفويض إلى قدرته ورحمته، فهذه أقاويل مشائخ الطريق وأهل التصوف فى حقيقة التوكل، وهى متقاربة، والتعويل على ما أشرنا إليه من بيان ماهيته.

الخصلة الثانية: التفويض إلى الله تعالى

اعلم أن **التفويض** نوع من أنواع التوكل، لكن التوكل أعمّ منه، فإن التوكل يدخل فى الأسفار، وأنواع المكاسب والحروب والأمراض والأدوية وتحمل الأخطار كلها، فكل هذه يدخلها التوكل، وأما **التفويض،** فهو خاص، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾[5]، فلنذكر معنى التفويض، ثم نردفه بأحوال المفوضين، ثم نذكر آداب التفويض، فهذه مقامات ثلاثة:

المقام الأول: فى معنى التفويض

وهو التخلية للغير يصنع ما أراد فى فعل أو ترك من غير مانع ولا حاجر يحجره، ولا حائل يمنعه[6]، واشتقاقه من قولهم: فاض الماء إذا أخذ على غير وجهة من غير حاجر يحجره ولا حائل يمنعه، ومعنى التفويض فى حقّ الله تعالى: أن تقرر فى نفسك أن كل ما فى يدك من مال وولد وجميع ما اشتمل عليه تصرفك فى يده وفى تصرفه، وأنه لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، وإن خالف رضاك وجانب هواك، فلا يلحقك كراهة، ولا يصيبك غضاضة[7] فى أخذه لمالك وولدك وأهلك، فهو خير من كل فائت وبقية من كل

---

(1) ينظر: شعب الإيمان، 2/ 103.

(2) نسب لأبى عبد الله القرشى. ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 264.

(3) فى (د) الواو بدلاً عن الفاء.

(4) نسب لبشر بن الحارث. ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى، دار الكتاب العربى، ط4، عام 1405هـ، بيروت، لبنان، 8/ 351.

(5) سورة غافر، من الآية 44.

(6) فى (د،ك،م) سقط: يحجره ولا حائل يمنعه.

(7) غضاضة: ذل. ينظر: لسان العرب، مادة (غضض).

هالك، فمن لم يفوض أمره إلى الله على هذه الصفة لم يكمل إيمانه كما أشار إليه عليه السلام هاهنا .

المقام الثانى: فى بيان أحوال أهل التفويض

فنقول: إنما يظهر التفويض فى سعى العبد باختياره، وسعيه إنما يكون لجلب منفعة مقصودة، أودفع مضرّة لم تنزل به أو لحفظ أمر مقصود أو لإزالة ضرر نزل به، فهذه حالات أربع نفصلها:

الحالة الأولى: أن يكون سعيه لأجل جلب منفعة هى مفقودة[1]

وهذا نحو التكسب فإنه لا يبطل التفويض إلى الله، ثم إنه واقع على أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: منها أن يسير فى الخبوت والمقاطع والمفاوز من غير زاد ثقة بالله فى تقويته على الصبر أيامًا مترادفة وأسابيع متكررة، أو يتيسر له حشيش يقتاته أو يقويه على الرضا بالموت إن لم يتيسر له شىء من ذلك، فإن الذى يحمل الزاد قد يؤخذ زاده أو يضلّ بعيره، فذلك ممكن مع الزاد كما هو ممكن مع غيره.

الوجه الثانى: أن يقعد فى بيته أو فى مسجده، لكنه فى القرى والأمصار، و[2]هذا يكون أضعف فى التفويض من الأول[3]، لكنه لا يخرج عن التفويض؛ لأنه تارك للأسباب الظاهرة معول على فضل الله، ورحمته فى تدبيره من جهة الأسباب الخفية؛ لأنه غير ناظر إلى أهل الأمصار بحال.

الوجه الثالث: أن يخرج للتكسب بحرفة أو تجارة أو غير ذلك من الأمور المباحة، فمن هذه حاله فإنه لا يخرج عن حد التفويض.

---

(1) فى (د،ك) مقصودة. ﴿وهو الأنسب﴾ .

(2) فى (د،م) الفاء بدلاً عن الواو.

(3) فى (د) من الأول فى التفويض.

الحالة الثانية: أن يكون سعيه لأجل جلب منفعة هى موجودة

وهذا نحو الادخار، ثم إن له صورًا ثلاثًا:

الصورةالأولى: أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت، فيأكل إن كان جائعًا، أو يلبس إن كان عاريًا، ويفرق الباقى فى الحال، فهذا هو الوفى[1] بموجب التفويض تحقيقًا.

الصورة الثانية: المقابلة لما قبلها فى التناقض، وهى أن يكون ادخاره لسَنة، فهذه لا محالة مخرجة له عن حدّ التوكل، فما هذا حاله ليس من حدّ التفويض؛ لأن هذا قلّة ثقة بالله- عزّ وجلّ-، وقد قيل: إنه لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة: الفأرة، والنملة، وابن آدم.

الصورة الثالثة: بين هاتين الصورتين، وهو أنه يدخر لأربعين يومًا، فما هذا حاله هل يخرجه عن حد التفويض أم لا؟

فيه تردد، فمنعه بعضهم، وجوزه آخرون، والمختار جوازه؛ لأن صاحب الشريعة- صلوات الله عليه- ادّخر قوت عياله سَنة كاملة، وهو إمام المفوضين.

الحالة الثالثة: فى دفع مضرة متوقعة غير حاصلة

واعلم أن الضرر قد يتعرض فى النفس والمال، وقد يكون معلومًا، وقد يكون مظنونًا، وقد يكون متوهمًا، وهذه أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يكون الضرر معلومًا، وهذا نحو أن يقف فى موضع الحيات والعقارب والآساد، ونحو أن يستق السمّ، وأن يلقى نفسه فى البحر وهو لا يحسن السباحة، فما هذا حاله ليس معدودًا فى التفويض أصلاً.

الوجه الثانى: أن يكون الضرر مظنونًا، وهذا نحو أن يقف تحت الجدار المائل، ونحو الوقوف فى مجارى السيول، أو فى الوادى الذى تتعهده السباع، فما هذا حالة فعله يعدّ فى التفويض للأمر إلى الله تعالى؛ لأنه ليس معلومًا.

الوجه الثالث: أن يكون الضرر متوهمًا، وهذا نحو ترك الرقية، والكيّ، فما هذا حاله معدودًا تركه فى التفويض؛ لأنه ضرر غير معلوم ولا مظنون، فاعرف تفاوت هذه الأوجه، ومراتبها، ومنزلة بعضها من بعض.

الحالة الرابعة: فى دفع المضرة المتوقعة

وهذا نحو تحمّل الأذية، واعلم أن الأسباب المزيلة للضرر المتوقع ينقسم إلى: **مقطوع**، وإلى **مظنون**، وإلى **موهوم**، فأما **المقطوع به**، فنحو شرب الماء البارد؛ فإنه يزيل ضرر العطش قطعًا، ونحو أكل الخبز فإنه يزيل ضرر الجوع، وما هذا حاله فتركه لا يعدّ من

(1) فى (د،ك،م) الوافى.

التفويض بحال، وإلى **موهوم**، وهذا نحو ترك الطيرة والرقية والكىّ، وما هذا حاله فتركه يعدّ فى التفويض؛ لأن الشرع قد ورد بتركه وإهماله، وفى الحديث: «لا عدوى ولا هامة ولا صَفَر فى الإسلام»[1]، وفى حديث آخر: «من علّق التمائم فلا تمم الله أمره»[2].

أما **المتوسط بين هاتين الدرجتين**، فهو المظنون، وهذا نحو التداوى بالأشياء الظاهرة عند الأطباء، ففعله لايناقض التفويض إلى الله تعالى، وتركه ليس محظورًا كالمعلوم الذى ذكرناه، فالرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- قد تداوى وأمر بالدواء، حيث قال: «تداووا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء»[3]، وفى حديث آخر: «ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام وهو الموت»[4].

المقام الثالث: فى آداب التفويض

اعلم أن لأهل التفويض آدابًا فى أمتعة البيت إذا خرجوا عنها، وجملتها ستة:

الأدب الأول: أن يغلق الباب، ولا يستقصى فى تكثير أسباب التحفظ، نحو إكثار الغلق والحرس، والتماس الجيران للحفظ، وحُكى عن مالك بن دينار[5] أنه كان لا يغلق بابه ولكنه يشدّه بخيط.

الأدب الثانى: أن لا يترك فى البيت متاعًا يحرص السراق على أخذه؛ إذ وضعه فى البيت يكون سببًا لهيجان رغبتهم فيه، ويحكى أن المغيرة بن شعبة[6] أهدى ركوة[7] لمالك بن دينار فردّها إليه، فقال له: لمَ رددتها ؟ فقال: أخاف أن يوسوس الشيطان إلىّ أن اللصّ يأخذها .

الأدب الثالث: أن كل ما يضطر إلى تركه فى البيت ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه، ويقول ما يأخذه السارق فهو فى حل منه.

الأدب الرابع: إذا وجد المال قد سرق فلا ينبغى منه أن يحزن بل يفرح إن أمكنه ذلك، ويقول: لولا أن الخيرة لنا فى ذلك، ثم إن لم يكن قد جعله فى سبيل الله فلا يتابع فى طلبه، ولا فى إساءة الظن بالمسلمين فى التهمة بالسرقة.

---

(1) صحيح مسلم، 4/ 1743 . بلفظ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة» . الصفر: دواب البطن . ينظر: لسان العرب، مادة (صفر) .

(2) المستدرك على الصحيحين، 4/ 240 . سنن البيهقى الكبرى، 9/ 350 . بلفظ: «من علق تميمة فلا أتمّ الله له» .

(3) مسند أحمد، 3/ 156 . بلفظ: «إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا» .

(4) المستدرك على الصحيحين، 4/ 445، بلفظ: «إن الله لم ينزل داء أو لم يخلق داء إلا أنزل أو خلق له دواء . . . .الحديث» .

(5) وهو مالك بن دينار البصرى، كان عالمًا زاهدًا ورعًا، توفى بالبصرة سنة 131هـ . ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 139، 140 . الأعلام للزركلى، 5/ 261 .

(6) وهو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى، ولد بالطائف، وأسلم قبل الحديبية، وتوفى بالكوفة سنة 50هـ . ينظر: الإصابة ، 6/ 197- 199 . الأعلام للزركلى، 7/ 277، 278 .

(7) الركوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والجمع ركوات، وركاء . ينظر: لسان العرب، مادة (ركا) .

الأدب الخامس: أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ فإن فعله يبطل تفويضه وثوابه، ففى الحديث: «من دعا على ظالم فقد انتصر»[1]، وحكى عن الربيع بن خثيم[2] أنه سُرق له فرس بعشرين ألف درهم، وكان قائمًا يصلى، فلم يقطع صلاته، ولم ينزعج لطلبه، فجاءه قوم يعزونه، فقال: أما إنى قد رأيته وهو يحله، قيل له: فما منعك أن تزجره؟ قال: كنت فى أحب إلىّ من ذلك يعنى الصلاة[3].

الأدب السادس: أن يكون مغتمًا لأجل معصية السارق بالسرقة، وليشكر الله تعالى حيث جعله مظلومًا، ولم يجعله ظالمًا، وحكى أنه سُرق على بعض الزهاد دنانير، وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه، وهو يبكى ويحزن، فقال له: أعلى الدنانير تبكى؟ فقال: لا والله، ولكن على المسكين، فإنه يُسأل يوم القيامة، ولا تكون له حجة[4]، فهذا ما أردنا ذكره فى التفويض.

الخصلة الثالثة: الصبر

فنذكر معنى الصبر، ثم نذكر مجاريه، ثم نردفه بذكر الشكر والصبر أيهما أفضل، فهذه مقامات ثلاثة نفصلها:

المقام الأول: فى بيان معنى الصبر

وهو الحبس لنفسه كما مرّ بيانه، وفى لسان حملة الشريعة: فهو حبس النفس عن المعصية، ومنعها عن الإخلال بالطاعة، وهذه الخصلة هى من أعظم خصال الدّين وأجلّها قدرًا، وأرفعها شأنًا، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[8]، وقوله تعالى لنبيه: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا

(1) سنن الترمذى، 5/ 554. بلفظ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر». وورد كاملاً فى مسند أبى يعلى، أحمد بن على المثنى الموصلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ط1، عام 1984م، دمشق، سوريا، 7/ 433.

(2) وهو الربيع بن خثيم بن عائذ أبو يزيد الثورى الكوفى، الإمام القدوة العابد، أحد الأعلام أدرك زمان النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- وأرسل عنه، قيل: توفى سنة 65هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم، مؤسسة الرسالة، ط9، عام 1413هـ، بيروت، لبنان، 4/ 258، 262.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 283.

(4) نسب لعلى بن الفضيل. ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 283.

(5) سورة البقرة من الآية 153، سورة الأنفال من الآية 46.

(6) سورة آل عمران من الآية 200.

(7) سورة الشورى الآية 43.

(8) سورة العصر الآية 3.

بِٱللَّهِ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾[2]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[3]، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن الصبر أمير جنود المؤمن»[4]، وفى حديث آخر:«الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»[5]، وعن عمر[6]: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت[7]. يريد أن كل واحد منهما يوصل صاحبه إلى الجنة.

المقام الثانى: فى ذكر مجاريه

وله مجار ثلاثة:

المجرى الأول: الصبر على الطاعة، إما على تأديتها، وتحصيلها، وإما على تحصيلها على الوجه الذى أمر بها، فكل واحد من هذين الأمرين يحتاج إلى مزيد صبر ومشقة على ذلك.

المجرى الثانى: الصبر على الانكفاف عن المعصية، فإن المعاصى ممّا تشتاقها النفوس وتميل إليها؛ لما يحصل من اللذة وموافقة الهوى، إلا أن يحصل من جهة الله عصمة فى الامتناع منها والازدجار عنها .

المجرى الثالث: الصبر على البلايا والبلوى من جهة الله تعالى تكون على وجهين:

الوجه الأول منهما: أن يكون بلا فعل واضطرار من فعله تعالى. **إما** على جهة المحنة والمضرة وهو كل ما تنفر عنه النفوس، وهذا نحو ذهاب الحواس وأنواع الآلام وضروب الأسقام، فإنها كلها حاصلة من الله على جهة الامتحان؛ لصبره، **وإما** على جهة النعمة وهو كل ما تلتذ به النفوس من الأمداد بالإمكان بالعقل، وبهذه الحواس، فإنها نعمة من جهة الله تعالى جزيلة.

الوجه الثانى: أن تكون البلوى على جهة التعبد والاختبار لحاله، ومصداق هذا التقسيم ما ورد فى الكتاب الكريم حيث قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴾[8]، فلقد أكرمك ونعمك، فكيف شكرت المكرم المنعم؟ وهل اختبرت البلية التى سماها بلوى أم جعلت الاختبار لها لعبًا منك ولهوًا وركضًا فى ميدان

---

(1) سورة النحل من الآية 127 .

(2) سورة الكهف من الآية 28 .

(3) سورة المزمل من الآية 10 .

(4) شعب الإيمان، 4/ 161 . بلفظ: «العلم خليل المؤمن، والعقل دليله، والحلم وزيره، والصبر أمير جنوده» .

(5) نفسه، 7/ 123 .

(6) وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشى العدوى، كان من أشراف قريش فى الجاهلية، شهد المشاهد كلها، بويع بعد وفاة أبى بكر- رضى الله عنه-، قتله أبو لؤلؤة سنة 23هـ، بالمدينة. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1144- 1152 .

(7) ينظر: شرح نهج البلاغة، 11/ 203 .

(8) سورة الفجر الآية 15 .

الغفلة واتباع الأهواء،[1] أين أنت عن الشكر والإيثار الذى هو تعبدك من جهة خالقك الملك الجبار﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾[2]، فليت شعرى أهانك ليزاد بإهانتك سلطاناً إلى سلطانه ويجبر بنقصك نقصًا لحقّه فى ملكه وعلو شأنه، كلا والله ليس الأمر كما زعمت، ولا الشأن كما توهمت.

المقام الثالث: فى ذكر الأفضلية بين الشكر والصبر

اختلف العلماء فى ذلك، فقال قائلون: الصبر أفضل من الشكر، وقال آخرون: الشكر أفضل من الصبر[3]، وذهب آخرون إلى أنهما سيان، وصار صائرون إلى أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال؛ والمختار عندنا أن الأفضل هو الصبر؛ لكثرة ما ورد فيه من جهة الشرع، والشكر وإن ورد فيه أخبار، لكنها بالإضافة إلى ما ورد فى الصبر حقيرة، ولو لم يكن فى الصبر إلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾[4]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل ما أوتيتم اليقين، وعزيمة الصبر»[5]، وفى حديث آخر: «يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض، فيقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر، فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تبارك وتعالى: كلا أنعمت عليه فشكر، وابتليت فصبرت، لأضعفن لك الأجر أضعاف جزاء الشاكرين»[6] .

الخصلة الرابعة: التسليم لأمر الله

«**التسليم**» مصدر سلم، وله معنيان:

أحدهما: أن يكون المراد به التمليك من قولهم: سلمت دَينه إليه إذا ملكته إياه، فالرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- خصّ المكلفين على أن يسلموا الأمر لله أىْ: يملّكوه أمرهم فى نفوسهم وأموالهم وأولادهم.

وثانيهما: أن يكون المراد به الانقياد والخضوع من قولهم: سلم له القياد، إذا خضع له، ودخل تحت حكمه.

وأما «**الأمر**» فله معنيان:

المعنى الأول: أن يكون المراد به القول، وعلى هذا يكون مراده أن الخلق يجب عليهم الانقياد لأوامر الله بالامتثال لوجوبها

---

(1) فى (د،ك،م) زيادة: إلى.

(2) سورة الفجر الآية 16.

(3) فى (د،م) سقط: من الصبر. ﴿وهو سقط مخل بالمعنى﴾ .

(4) سورة الزمر من الآية 10.

(5) إحياء علوم الدين، 4/ 136.

(6) نفسه.

وندبها، وأن يقابلوها بالإتيان بها على الوجه الذى شرعت عليه، وذلك لا يكون إلا بأن يقابل الأوامر بالامتثال والأفعال بالرضا والقبول، فلا يدع من ذلك أمرًا ممّا يعود إلى الفعل ولو كان كريهًا إلا رضيه، ولا أمرًا ممّا يعود إلى القول إلا سمعه واتبعه، فإن ورد لواجب فعله بوجوبه، وإن ورد بندب فعله امتثالاً لندبه.

المعنى الثانى: أن يراد بالأمر الشأن، فيكون المراد من التسليم الانقياد لعظمته والانحطاط لجلاله، وملاك ذلك كله وقوامه لا يستقيم إلا بالتحفظ عن ارتكاب المحظورات، ومجانبة المحذورات؛ لأنها فى الحقيقة محبطات للأعمال مهلكات للنفوس، ولقد أكرم الله هذه الأمة بخصال لم تكن لغيرها من الأمم السابقة، **أولها:** بالرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- فإنه أكرم رسول وأشرف مبعوث.

وثانيها: هذه الشريعة التى فاقت على كل الشرائع.

وثالثها: هذا القرآن، فإنه أشرف كتاب أنزل.

ورابعها: تخفيف التكاليف، فإن بنى إسرائيل كلفوا قتل نفوسهم فوضعوها على ركبهم وحزوها بالسيوف، وهذا هو البلاء المبين.

وخامسها: قصر الأعمار فى طاعة الله تعالى.

وسادسها: تخفيف الحدود، فإن بنى إسرائيل كانت الحدود فيهم مشروعة على أكثر المعاصى.

وسابعها: الستر، وكان بنو إسرائيل إذا قارف أحدهم ذنبًا أصبح مكتوبًا بين عينيه عصيت فى كذا.

وثامنها: التوبة، فإن بابها مفتوح حتى تقوم الساعة.

وتاسعها: العلامة فى يوم القيامة، فإنهم يبعثون غرًّا محجلين من آثار الوضوء، بخلاف غيرهم من الأمم.

وعاشرها: شرع الحدود فى حقّ من قارف ذنبًا بجدع الأنف وقطع الأذن، واصطلام الشفة، إلى غير ذلك من الآصار[1]، فالحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين.

الخصلة الخامسة: الرضا بقضاء الله

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمرات الجنة، وسنوضح الكلام فيها على أثر هذا بمعونة الله، وهى من أعلى درجات المقربين؛ لأن ذلك عنوان الحكمة وأسرار السعادة الأخروية، فلنذكر معنى الرضا، ثم نذكر فضيلته، فهذان مقامان:

المقام الأول: فى بيان معناه

---

(1) الآصار: المواثيق والعهود. ينظر: لسان العرب، مادة (أصر). فى (د) الأمثال.

ونريد بذلك أن يكون الإنسان منشرح الصدر، طيب النفس فى كل ما يفعله الله تعالى ويقضيه عليه، سواء كان ذلك القضاء ممّا يسر النفس أو يكرهها، وذلك أنواع ثلاثة:

أولها: الرضا بهذه الأوامر فى التكاليف الشاقة من العبادات وغيرها؛ لأن صدورها من جهة الله تعالى على جهة الاستصلاح للخلق فيها.

وثانيها: المصائب التى تصيب الخلق من الموت، وسائر ضروب الآلام والغرق، وإتلاف الزرع.

وثالثها: ما يكون مختصًا به فى نفسه من الجنون والجذام والبرص وسائر الأسقام والزمانة[1]، وغير ذلك من الأمراض فى حقّ نفسه، وفى حقّ من يوده من ولد، وقريب، وصاحب، وشفيق[2]، فإن الواجب على المكلف أن يتلقى هذه الأمور بالرضا، وحسن القبول، والثناء على فاعلها، وهذا هو اللائق بمن خصّه الله بمزيد القبول، كالأنبياء والأئمة والعلماء، فإن الله تعالى هو أعلم بالمصالح كلها، وأفعالها كلها مصالح، فلا ينكر شيء منها.

المقام الثانى: فى بيان فضيلة ذلك

قال الله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾[3]، وفى الحديث عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه سأل طائفة من أصحابه: «ما أنتم»؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: «ما علامة إيمانكم»؟ قالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: «مؤمنون ورب الكعبة»[4]، وفى حديث آخر: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان رزقه كفافاً ورضى به»[5]، وفى حديث آخر: «من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله منه بالقليل من العمل»[6]، وفى حديث آخر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اختاره، وإن رضى اصطفاه»[7]، وفى حديث آخر: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب ربكم وإلا فلا»[8]، وروى أن موسى قال:– يا رب– دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعلمه، فأوحى الله إليه: إن رضاى فى

---

(1) الزمانة: آفة فى الحيوانات، ورجل زمن أىْ: مبتلى. ينظر: لسان العرب، مادة (زمن).

(2) فى (د،م) شقيق.

(3) سورة المائدة من الآية 119، البينة من الآية 8 .

(4) المعجم الأوسط، 163/9.

(5) المستدرك على الصحيحين، 4/ 136. المعجم الكبير، 18/ 306. بلفظ: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به».

(6) شعب الإيمان، 7/ 204.

(7) إحياء علوم الدين،4/ 329.

(8) نفسه، 4/ 199.

كرهك، وأنت لا تصبر على ما تكره، قال:- يا رب- دلني عليه، قال: فإن رضائى فى رضاك بقضائى[1].

وفى حديث آخر: «من لم يرض بقضائى، ويصبر على بلائى فليتخذ ربًا سواى»[2]، وفى مناجاة موسى: أى رب أىّ خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى، قال: فأىّ الخلق أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرنى فى الأمر، فإذا قضيته له سخط قضائى[3]، وفى حديث آخر: «قدرت المقادير، ودبرت التدابير، وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا حتى يلقانى، ومن سخط فله السخط حتى يلقانى»[4]، وفى حديث آخر: عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه»[5]، ورُوى أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الجوع والفقر والقمل عشر سنين، فما أجيب إليه، ثم أوحى الله إليه: لَمَ تشكو هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك منى، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أغير خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدّل ما قدرت عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتى وجلالى لإن تخالج[6]هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة[7]، ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم أردف ذلك بخصال أربع، فقال: «**إنه من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»، ونحن نذكرها واحدة واحدة ونميز أسرارها.

الخصلة الأولى: المحبة

اعلم أن شواهد المحبة فى القرآن كما قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[8]، والمحبة كما تكون من جهة الله للعبد، فقد تكون من جهة العبد لله تعالى، فهذان مقامان:

المقام الأول: فى بيان محبة الله للعبد

---

(1) ينظر: نفسه، 4/ 345.
(2) المعجم الكبير، 22/ 320. بلفظ: «من لم يرض بقضائى، ولم يصبر على بلائى فليلتمس ربًا سواى».
(3) إحياء علوم الدين، 4/ 345.
(4) نفسه.
(5) المستدرك على الصحيحين، 1/ 671. بلفظ: «من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».
(6) فى (د،م) تلجلج. ﴿ وهو السليم كما ورد فى مصدره، إحياء علوم الدين، 4/ 346 ﴾. وتلجلج: تردد وقلق ولم يستقر. ينظر: لسان العرب، مادة (لجج).
(7) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 346.
(8) سورة المائدة من الآية 54.

اعلم أن الله إذا أحبّ عبدًا فلا بدّ لذلك من علامة، وعلامة ذلك: أن يختصّه بخصائص عشر:

الخاصة الأولى: غفران الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾[1]، وقوله تعالى لمن ادعى أنه حبيب لله: ﴿ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾[2].

الخاصة الثانية: السير للتوبة والتطهير، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾[3].

الخاصة الثالثة: التوفيق للإيمان، كما قال عليه السلام: «إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب»[4].

الخاصة الرابعة: كثرة الذكر، كما قال عليه السلام: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله»[5].

الخاصة الخامسة: قبول قوله، كما قال عليه السلام حكاية عن الله: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فأكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، إن دعانى أجبته، وإن سألنى أعطيته»[6].

الخاصة السادسة: إزالة العقوبة، كما قال عليه السلام: «إذا أحب الله عبدًا لم يضرّه ذنب»[7]، فإذا أحبه تاب عنه قبل الموت، فلم تضرّه الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضر الكفر الماضى بعد الإسلام.

الخاصة السابعة: البلوى، كما قال عليه السلام: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن أحبه الحب البليغ اقتناه» قيل: وما اقتناه؟ قال: «لم يترك له مالاً ولا أهلاً »[8].

الخاصة الثامنة: الوعظ والزجر؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا أحب الله عبدًا جعل له واعظًا من نفسه، وزاجرًا

---

(1) سورة آل عمران من الآية 31.

(2) سورة المائدة من الآية 18.

(3) سورة البقرة من الآية 222.

(4) المستدرك على الصحيحين، 4/ 182. مسند أحمد، 1/ 387. شعب الإيمان، 4/ 395. مع اختلاف مع الأخيرين فى: « . . .ولا يعطى الدين إلا من أحب. . . ».

(5) المعجم الأوسط، 5/ 140 . بلفظ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله، ومن اقتصد أغناه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله».

(6) المعجم الكبير، 8/ 221. بلفظ: « . . . لا يزال عبدى يتحبب إلى بالنوافل حتى أحبه، فأكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، . . . . فإذا دعانى أجبته، وإن سألنى أعطيته».

(7) إحياء علوم الدين، 4/ 327.

(8) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، دار الكتب العربى، بيروت، لبنان، عام 1407هـ، 2/ 291. بلفظ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا ابتلاه، وإذا ابتلاه أضناه. قيل: وما أضناه؟ قال: لا يترك له أهلاً ولا مالاً».

من قلبه يأمره وينهاه»[1].

الخاصة التاسعة: حب العبد لله؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه»[2]، فأخصّ علامته حبه لله، فإن ذلك يدل على حب الله له.

الخاصة العاشرة: الوحشة من الغير، كما قيل لعيسى- عليه السلام-: ألا تشترى حمارًا تركبه؟ فقال:أنا أعز على الله من أن يشغلنى عن نفسه بحمار[3]، فإذا لم يشغله الله بغيره ولا يحول بينه وبين ذاته فقد أحبه، ولا تحمل محبة الله للعبد إلا على ما ذكرناه من هذه المعانى لا غير.

المقام الثانى: فى بيان محبة العبد لله تعالى

واعلم أن المحبة يدّعيها كلّ أحد من غير برهان ولا علامة، ولا بدّ لها من علامة تدل على كون العبد محبًّا لله، وجملتها عشر:

العلامة الأولى: حب لقاء الله، فلا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب لقاؤه، وإذا علم أنه لا وصول له إلى ذلك إلا بالارتحال عن الدنيا، فإنه يحب الموت لا محالة؛ لقوله عليه السلام: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[4].

العلامة الثانية: أن يكون مؤثرًا ما أحبه الله على ما يحبه فى ظاهره وباطنه، فيجتنب الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، فلا يزال مواظبًا على طاعة الله متقربًا إليه بالنوافل، وطالبًا عنده المراتب العالية.

العلامة الثالثة: أن يكون مستغرقًا بذكر الله لا يفتر لسانه عنه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئًا أكثر بالضرورة ذكره، وحب ما يتعلق به، فيحب رسول الله بحبه الله، ويحب أهل بيته بحبه، كما روى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «أحبوا الله لما يغدوكم من النعم، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى»[5].

العلامة الرابعة: أن يكون أُنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى فى الخلوات، وتلاوة كتابه، ويواظب على قيام الليل، ويغتنم هدوء الليل، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فأقلّ درجات الحب أن يتلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

العلامة الخامسة: ألا يتأسف على ما يفوته ممّا سوى الله تعالى، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله

---

(1) حلية الأولياء، 99/10.

(2) موسوعة أطراف الحديث النبوى الشريف، إعداد أبى هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول، عالم التراث، ط1، عام 1989م، بيروت، لبنان،1/ 234. بلفظ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيب نفسه».

(3) إحياء علوم الدين، 329/4.

(4) مسند أحمد، 2/ 313. صحيح مسلم، 4/ 2065.

(5) المعجم الكبير، 3/ 46.

وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات، ويعظم اشتغاله[1] بالتوبة والإنابة.

العلامة السادسة: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه نعيمها، كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة، فمتى كان الحب غالبًا، فإنه[2] يقهر لا محالة ما دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته، و من كان محبوبه[3] أحب إليه من المال ترك المال فى خدمته.

العلامة السابعة: أن يكون مشفقًا على جميع عباد الله، رحيما بهم، شديدًا على جميع أعداء الله، وعلى كل من قارف شيئًا مّا يكرهه الله، كما قال تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[4]، ولا تأخذه فى الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، كما وصف الله تعالى أولياءه بقوله: «الذين تكلفوا حبى ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمى كما يغضب النمر إذا أخرد، ولا يبالون بالغضب لله تعالى بقلة الناس ولا بكثرتهم»[5].

العلامة الثامنة: أن يكون فى حبه خائفًا متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وليس الخوف يضاد الحب، بل إدراك العظمة توجب الهيبة، كما أن العلم بالجلال يوجب المحبة، فحق العبد أن يزداد فى الخوف، ولكن يزداد قربًا ومحبة، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه، فهو ملعون»[6]، وفى حديث آخر: «إنه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة سبعين مرّة فأستغفر الله تعالى»[7].

العلامة التاسعة: كتمان المحبة، واجتناب الدعوى فيها، والتوقى من إظهار ذلك؛ تعظيمًا للمحبوب وإجلالاً له، وهيبة منه أن يظهر[8] غيرة على سرّه، فإنه مهما كانت المحبة سرًّا كانت أقرب إلى الاستقامة، وأعظم خطرًا، وإظهارها يورث المقت عند العلماء بالله والمحبين له.

العلامة العاشرة: الأُنس بالله تعالى، والوحشة من غيره، كما قال عليه السلام: «من أنس بالله استوحش من غيره»[9]، وبالجملة لا بدّ للمحب من التحلى بمحاسن الأخلاق، ومكارم الشيم، وحميد الخصال، فإن ذلك كله يثمر المحبة، وما لا يثمر المحبة

---

(1) فى (د،ك،م) استعطافه.

(2) فى (د،م) فهو.

(3) فى (د،م) سقط: محبوبه. ﴿وهو سقط مخلّ بالمعنى﴾.

(4) سورة الفتح من الآية 29.

(5) إحياء علوم الدين، 4/ 334.

(6) رواه الديلمى بسند عن على مرفوعًا. ينظر: كشف الخفاء، 305/2.

(7) صحيح مسلم، 4/ 2075. بلفظ:«إنه ليغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله مائة مرّة».

(8) فى (د،م) سقط: أن يظهر.

(9) شعب الإيمان، 1/ 377. بلفظ: «طوبى لمن استوحش من الناس وأنس بربه وبكى على خطيئته».

فهو اتباع الهوى، وهو من رذائل الأخلاق.

الخصلة الثانية: البغض

اعلم أن البغض هو ضدّ المحبة ونقيضها، وقد يكون البغض من جهة الله تعالى للعبد، وقد يكون من جهة العبد لله تعالى، فهذان مقامان:

المقام الأول: فى بيان بغض الله تعالى للعبد

و[1]اعلم أن البغض هو الكراهة، والبغض من جهة الله إنما يكون مختصًا بأهل الكفر والنفاق والفسق وسائر المعاصى، وعلاماتهم على النقيض من علامة أهل المحبة، ونحن نوردها على جهة الكشف والبيان؛ ليحذر عن الوقوع فيها، وجملتها عشر:

أولها: كثرة الذنوب وترادفها ورينها[2] على القلوب واستيلاؤها على الأفئدة.

وثانيها: الخذلان عن التوبة، وإبعادهم عنها[3].

وثالثها: الاستدراج إلى فعل المعاصى، كما قال تعالى: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[4].

ورابعها: إغفال الذكر عن قلوبهم ونسيانه على ألسنتهم.

وخامسها: ردّ قوله، والإعراض عنه فى كل أحواله.

وسادسها: إنزال العقوبة الأبدية، والندامة السرمدية.

وسابعها: المعافاة لهم فى الأبدان والأمول، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا ﴾[5]، وقوله عليه السلام: «أعوذ بالله من العفر النفر الذى لا يرزأ فى أهل ولا مال»[6].

وثامنها: قساوة القلوب، فلا يقبلون على وعظ ولا تذكير، ولا يخطر لأحد منهم على بال.

---

(1) فى(د،ك،م) سقط:الواو.

(2) الرين الطَبَع والدنس والصدأ، وران الذنب على قلبه، أىْ غلب عليه وغطاه. ينظر: لسان العرب، مادة (رين).

(3) فى (د،ك،م) سقط:عنها.

(4) سورة القلم من الآية 44.

(5) سورة آل عمران من الآية 178.

(6) شعب الإيمان، 7/ 177. بلفظ: «إن أبغض عباد الله إلى الله العفريت النفريت الذى لم يرزأ فى مال ولا ولد».

وتاسعها: بغضهم لله، وفى ذلك دلالة على بغض الله لهم لا محالة.

وعاشرها: الأنس بالأشرار، ومجانبة الأبرار، كما قيل: المرء من خليله، فهذه علامات بغض الله لأهل معصيته.

المقام الثانى: فى بيان بغض العبد لله

وله علامات عشرة:

أولها: كراهة لقاء الله تعالى؛ لأن البغيض يكره لقاء من يبغضه.

وثانيها: الإيثار لما يحبه على ما يحبه الله تعالى.

وثالثها: الإعراض عن ذكر الله، فلا يتذكره بحال.

ورابعها: كراهته للخلوة بالله، ويأنس بالخلوة بغيره.

وخامسها: الأسف على ما يفوته من عرض الدنيا، فتراه منقطع القلب، منحسرًا[1] إذا فاته شىء منها، وما فاته شىء من الدين فإنه لا يحكّ فى صدره، ولا يلتفت إليه.

وسادسها: أن ينعم بالمعصية، ويواظب على فعلها، ولا تخطر له الطاعة على قلب.

وسابعها: أن يكون محبًا لما نزل بالخلق من العذاب بالمؤمنين من المشقة، ويناله بذلك مسرة وسرور.

وثامنها: أن يكون مرحًا[2] كثير النشاط، والطرب فى كل أوقاته، ليس من همّ الآخرة فى وردّ ولا صدر.

وتاسعها: البغض لأولياء الله والكراهة لهم، شديد النفار عن مخالطتهم.

وعاشرها: الأنس بأهل المعاصى الخارجين عن الدّين، فهذه هى العلامات لأهل المحبة والرضا من الأولياء، وعلامات البغض من أهل العداوة من الأشقياء.

الخصلة الثالثة: الإعطاء لله

واعلم أن الإعطاء على وجهين:

أحدهما: أنه يعلق بالمال، وهو الظاهر من إطلاق العطاء، وأراد أن من جملة كمال الإيمان وضعه فى مستحقيه من وجوه القرب والمصالح الدينية، نحو الفقراء والمساكين وصلة العلماء، وأهل الصلاح، ووضعه فى الجهادات والمساجد، وغير ذلك ممّا فيه قربة.

---

(1) فى (د) زيادة: لا ينقطع حزنه.

(2) فى (د) فرحًا.

وثانيهما: أن الغرض إعطاء التعظيم من يستحقه من أفاضل العلماء والصالحين، فإن أعطاهم ما يستحقونه من الإكرام، وإعظام الحال لأجل نطقهم بالديانة وتمسكهم بها هو من أعظم القرب عند الله كما أشار إليه جلّ جلاله بقوله: ﴿ **وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾[1].

الخصلة الرابعة: المنع لله

اعلم أن الإعطاء كما يتعلق بالوجهين اللذين ذكرناهما فالمنع كذلك، فمن منع الأموال عن[2] الوضع فى غير مستحقها من السفه والتبذير وأنواع الترفه باللذات، فقد منعها لله، وكذا حال من منع الإعظام والإكرام لغير مستحقيه من أهل الفسق والمعصية، فإن الاستخفاف بهم وطردهم وإبعادهم يستحق عليه الأجر والثواب من الله تعالى، فلأجل هذا كان المنع لله خالصًا، وهو من كمال الإيمان كما أشار إليه الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-، فهذا ما أردنا ذكره فى المقاصد التى أرادها فى حديثه، وقد أطلنا ذكره بعض الإطالة؛ لما اقتضاه الحال.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البيان

اعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على مجازات حسنة، فـ «**على**» فى «**التوكل على الله**» تعالى هاهنا مجاز، و«**إلى**» فى قوله: «**التفويض إلى الله**» مجاز أيضًا، و«**على**» فى قوله: «**الصبر على بلاء الله**»، و«**اللام**» فى قوله: «**التسليم لأمر الله**»، و«**الباء**» فى قوله: «**والرضا بقضاء الله**»، و«**اللام**» فى قوله: «**أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»، فهذه الأحرف كلّها واردة على جهة الاستعارة؛ لأن معانيها التى هى حقائق فيها غير حاصلة، فلهذا عددناها فى المجازات، وبالله التوفيق.

النظر الخامس: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع

فمن **التجنيس:** قوله فى تكرير اسم الله- جلّ جلاله-: «**على الله**»، و«**إلى الله**»، و«**على بلاء الله . . .**» إلى آخرها، فإن ذلك كلّه معدود فى الجناس، ومن **الطباق:** قوله: «**أحب لله، وأبغض لله**»، **والإعطاء والمنع**، ومن **التعديد:** قوله عليه السلام: «**التوكل على الله**»، و«**التفويض**»، و«**الصبر**»، و«**التسليم**»، و«**الرضا**»، **والإعطاء، والمنع**، فإن ذلك كله معدود فى نوع التعديد،

---

(1) سورة الحجر من الآية 88.

(2) فى (ك) من.

كما قالوا: فلان له الأمر والنهي، والحلّ والعقد، والقبض والبسط، والإيراد والإصدار، وقد نجز غرضنا فيما أردناه من هذا الحديث، وبالله التوفيق.

الحديث السابع

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ[1] قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صَلّى اللهُ عَلَيْه وَآلِه وَسَلّمَ- يَقُول: فِى خُطْبَتِهِ: **«أيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْعَبْدَ لاَ يُكْتَبُ فِى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَلاَ يَنَالُ دَرَجَةَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بَوَائِقَهُ، وَجَارُهُ بَوَادِرَهُ، وَلاَ يُعَدُّ مِن الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حِذَارًا مِمّا بِهِ الْبَأْسُ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّهُ مَنْ خَافَ الْبَيَاتَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ فِى الْمَسِيرِ وَصَلَ، وَإِنَّمَا تَعْرِفُونَ عَوَاقِبَ أَعْمَالِكُمْ لَو قَدْ طُوِيَتْ صَحَائِفُ آجَالِكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنَّ نِيَّةَ الْفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ»**[2].

فنقول: الحمد لله الرحيم، الذى جعل الإسلام قيدًا للفتك، وعلامة للأمان، ووسيلة وذريعة إلى السلامة من اليد واللسان، وصيّر الإيمان درجة، ووصلة إلى الأمن من البوائق، وسلّمًا نعرج به إلى تحصيل الحقائق، وحصّن بالتقوى عن الزيغ قلوب أوليائه، وشوقهم بلطائف نعمه وآلائه إلى النزول بساحات كرمه وفنائه، وألبسهم شعار خوفه، وأكرمهم بثوابه، وأمدهم بألطافه الخفيّة حتى حصلوا على جواره فى دار مآبه، فعند ذلك فازوا برحمته وكرامته، وسلموا على التعرض لسخطه ولأئمته،والصلاة على الهادى لكافة الخلق إلى منهاج الصواب والحقّ وعلى آله الطيبين الفائزين بكرائم الخصال، صلاة دائمة على تكرر الغدو والآصال. واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور خمسة.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

الكتابة والعبد والإسلام مضى بيانها، **اليد واللسان:** هما الجارحتان، **والنيل:** هو البلوغ، **والدرجة:** هى المرقاة إلى الأبنية العالية. **الأمان:** نقيض الخوف، **والأخ:** يطلق على ما كان من جهة النسب، وقد يُطلق على الأخوة فى الدين. **البائقة:** هو الفعلة القبيحة، **والجار:** ما قرب منزله من منزلك، **والقرب:** أربعون دارًا[3]، وفى الحديث: «الجار أربعون دارًا[4] من هنا، وأربعون دارًا[5] من هنا»[1]، أراد من

(1) وهو أبو هريرة الدوسى، صاحب رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- واختلف فى اسمه، واسم أبيه اختلافًا كثيرًا لا يحاط به؛ فقيل: عبد الله بن عامر، وقيل: برير بن عشرقة، وقيل: سكين بن دومة، وقيل: عبد الله بن عبد شمس . . . ، روى قائلاً: كنت أحمل يومًا فى كمى هرّة فرآنى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فقال لى: ماهذه؟ فقلت: هرة. فقال: يا أبا هريرة، أسلم يوم خيبر، توفى سنة 57هـ، وقيل 58هـ وقيل 59هـ. ينظر: الاستيعاب، 4/ 1768- 1770.

(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 20.

(3) فى (د) ذراعًا .

(4) فى (د) ذراعًا .

(5) فى (د) ذراعًا .

جميع الجوانب، وقد يقال للمرأة جارة أيضاً، **والبادرة:** هى السابقة من اليد والعين واللسان **والعدّ:** الحساب، فأول[2] مراتب العدد فى اللفظ: هو الواحد، وفى الفعل ثنى الخنصر، ومنه قولهم: فلان واحد عصره، أى: أنه أول ما يعدّ من الرجال، وفلان تعقد الخنصر باسمه، أى: أنه أول ما يعدّ من الفعل، **والمتقون** لغة: الذين يتقون كل محذور، ومكروه، وقد صار بالشرع: هم المتقون لفعل المعاصى وترك الطاعات.

وقوله: «**يدع**»، أىْ: يترك يستعمل مضارعه، ولا يستعمل ماضيه، وقد يستعمل الأمر منه، وهكذا ورد مثله فيما ذكرناه، **والبأس:** هو الحرب، وفى الحديث: «كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[3]، ثم استعمل فى كل ما تنفر عنه[4] النفوس وتكرهه. **الحذار:** هو المحاذرة وهى المباعدة، **والخوف:** نقيض الأمن، **والبيات:** هو الهجوم بالليل على من ليس يحذر لإيقاع المساءة به، **والإدلاج:** (افتعال)، وهو السير فى آخر الليل بالتشديد، **والتخفيف:**هو السير فى أول الليل، **والتعريس:** النزول فى آخر السير للاستراحة، **والتغوير:** نزول فى وسط النهار، **والإسكان**[5]: سير فى أول النهار، **والتأويب:** سير فى آخره، **والإسآد:** خلط الليل بالنهار فى السير، **والمسير:** هو السير، **والوصول:** هو بلوغ الغاية، **والمعرفة والعلم** شىء واحد، **وعاقبة الشىء:** ما يتعقبه، **والعمل:** ما يفعله الإنسان، **والطى:** نقيض النشر، **والصحائف:** هى التى تدون فيها الأعمال وتكتب عليها، **والأجل:** منقطع العمر، وهل يكون للواحد منا أجل واحد أو أجلان؟

فيه تردد بين العلماء، والمختار هو الوقف وتجويز[6] الأمرين، ولا يقطع بأحدهما. **النيّة والإرادة:** شىء واحد، ولا يجوز إطلاق النيّة على الله ولا العزم، وإن كانت كلّها إرادات؛ لما يحصل فى إطلاقها من إيهام الخطأ، **وخير وشرّ** من باب أفعل التفضيل، طرحت همزتهما على جهة التخفيف؛ والأصل أنهما لا ينصرفان، لكن لما ذهب وزن أفعل التفضيل منهما بطرح الهمزة انصرفا.

---

(1) المعجم الكبير، 19/ 73. بلفظ: «إنَّ أربعين دارًا جار». المطالب العالية، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق د. سعد ناصر الشترى، دار العاصمة، دار الغيث، ط1، عام 1419هـ، الرياض، المملكة السعودية، 12/ 53 . بلفظ: «حقّ الجار أربعون ذراعًا هكذا وهكذا، وهكذا وهكذا، يمينًا وشمالاً وقدمًا وخلفًا».

(2) فى (د،ك،م) الواو بدلاً عن الفاء.

(3) مسند أحمد، 1/ 156. بلفظ: «كنا إذا احمّر البأس، ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه».

(4) فى (د،ك،م) منه.

(5) فى (د) الابتكار. ﴿والسليم المناسب: الابتكار﴾. ينظر: لسان العرب، مادة (بكر).

(6) فى(د) التوقف ويجوز.

النظر الثاني: في بيان ما اشتمل عليه من المعاني الإعرابية

«**إنّ**» هاهنا للتّأكيد، و«**العبد**» منصوب بها، و«**لا**» هاهنا نافية للفعل المضارع، و«**يُكتب**[1]» مرفوع على المضارعة، و«**حتى**» هاهنا بمعنى الغاية، ولا وجه للتعليل هاهنا، و«**يسلم**» منصوب بـ (**أنْ**) مضمرة، و«**الناس**» مرفوع على الفاعلية، و«**من**» لابتداء الغاية، و«**اليد**» مجرورة بها، و«**اللسان**» عطف عليها، و«**لا ينال**» جملة ثانية سلبية، و«**ينال**» مرفوع على المضارعة، و«**درجة**» منصوب على المفعولية، و«**المؤمنين**» مجرور بإضافة **الدرجة إليهم**.

«**حتى**» هاهنا بمعنى (إلى أن) كما قلناه في الأول، و«**الأخ**» مرفوع على الفاعلية، و«**بوائق**» جمع بائقة، وهي منصوبة على المفعولية، والـ«**جار**» مرفوع عطفًاعلى«**الأخ**»، و«**البوادر**» جمع بادرة، وهي نصب على المفعولية أيضًا.

«**ولا يُعدّ من المتقين**» جملة سلبية، و«**يُعدّ**» مرفوع على المضارعة، و«**حتى**» بمعنى الغاية، و«**ما**» هاهنا موصولة في موضع المفعول لـ «**يدع**»، و«**بأس**» معمول لـ «**لا**» قبله، وهي النافية للجنس، وهو مبني معها على الفتح والجار والمجرور خبرها، و«**حذار**» منصوب على المفعول له، وأنكر الزجاج[2] المفعول له، وزعم أنه منصوب على المصدرية[3].

قوله: «**ما به البأس**»«**ما**» موصولة بالجملة الابتدائية بعدها، و«**البأس**» مرفوع على الابتداء، والجار والمجرور خبر له. «**أيها الناس**» مضى إعرابه. «**إنه**»«**إن**» للتّأكيد، والضمير للشأن والقصة.

«**من خاف البيات أدلج**» «**من**» شرطية، و«**أدلج**» هو جوابها. «**ومن أدلج**» جملة ثانية شرطية، و«**وصَل**» جوابها. و«**إنما**» للحصر. «**تعرفون**» فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه النون، و«**عواقب**» جمع عاقبة، و«**أعمالكم**» مجرور بإضافة «**عواقب**» إليه. «**لو**» حرف شرط لما مضى، وهي للسلب، فإذا اتصل بها حرف النفي فهي للإثبات، كما تقول: لو لم تقم لم أقم، فكلاهما موجود. «**نيّة المؤمن**» منصوبة بـ «**إن**»، و«**خير**» خبرها، و«**نيّة الفاسق**» يحتمل فيها النصب على العطف، والرفع على الابتداء، و«**شرّ**» خبرها، و«**من**» في قوله: «**من عمله**» لابتداء الغاية في أفعل التفضيل أينما وقع.

---

(1) في (د،م) ينال. ﴿والسليم: يُكتب﴾.

(2) وهو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد سنة 241هـ ببغداد، وتوفي فيها سنة 311هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 1/ 49. الأعلام للزركلي، 40/1.

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي،عالم الكتب، ط1، عام 1988م، بيروت، لبنان، 1/ 97.

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم المعانى

فمن ذلك: «**إنّ**» لتأكيد الجمل المترادفة، كقوله: «**إن العبد لا يُكتب**[1]»، «**إنه من خاف البيات أدلج**»، و«**إنّ نيّة المؤمن خير من عمله**»، فإن هذه إنما دخلت من أجل التأكيد، والتقرير للكلام فى النفوس، وإزالة اللبس عنه، ومن ذلك **الفصل والوصل**، **فالفصل:** ما كان من ترادف الجمل من غير (واو)، كقوله: «**إن من خاف**»، و«**إنّ نيّة المؤمن**»، **والوصل:** ما كان بـ «**الواو**»، كقوله: «**ولا يُعدّ**»، «**ولا ينال**»، ومن ذلك **التفصيل**، وهو بيان حكم المسلم، وحكم المؤمن، وحكم المتقى، فخصّ كل واحد من هؤلاء بما يليق به، وفى هذا دلالة على تفاوت هذه الرتب واختلاف أحكامها، ومن ذلك **الإبهام**، كقوله: «**من خاف البيات أدلج، ومن أدلج فى المسير وصل**»، فهذا الإبهام له موقع فى الكلام بالغ، ومن ذلك **الإيضاح للجملة**، ومثاله قوله: «**وإنما تعرفون عواقب أعمالكم**»، فإنما هذه موضوعة للحصر والبيان، كأنه قال: ما تعرفون عواقب أعمالكم إلا عند طىّ صحف الآجال؛ لأن بها تنكشف حقيقة الحال، فهذا بيان ما تضمنه الحديث من علوم المعانى.

المطلب الثانى: فى بيان مقاصده عليه السلام التى أرادها

اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أشار هاهنا إلى الخصال المحمودة التى من تخلّق بها فهو من الناجين، ومن لم تحصل فى حقّه فهو من الهالكين، ونحن نشير إلى ما ذكره، ونجعلها مراتب خمسًا:

المرتبة الأولى: فى الإسلام

فقد قال عليه السلام: «**لا يُكتب فى المسلمين حتى يسلم الناس من يده ولسانه**» أراد أنه لا يكتب فى الذكر الحكيم، ولا فى ديوان المسلمين حتى يحرز هذه الصفة من كفّ يده، ولسانه، وضرّه من جميع جوارحه، وإنما خصّ اليد واللسان؛ لأن عليهما مدار كثير من الأعمال.

أما اللسان، ففيه آفات:

الآفة الأولى: الغيبة، وهى أن تقول فى الإنسان ما يكرهه فى حال غيبته، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الغيبة أشدّ

---

(1) فى (د،ك،م) ينال. ﴿والسليم: يُكتب﴾ .

من الزنا» قيل: وكيف- يا رسول الله-؟ قال: «إن الرجل ليزنى، ثم يتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»[1]، وفى حديث آخر: «من قال فى مؤمن ما لا يعلم أقامه الله على تلّ من تلال جهنم حتى يخرج عمّا يقول، وما هو بخارج»[2].

الآفة الثانية: النميمة، وهى أشدّ من الغيبة؛ لأن بها يقع سفك الدماء، وركوب الدهماء، وهى الداء العياء، والجرح الذى لا يبرأ، وفى الحديث: «لا يدخل الجنة قتات»[3] يعنى: النمام.

وهل تكون الغيبة والنميمة فسقًا أم لا؟

فيه تردد، والمختار أنهما لا يكونان فسقًا؛ لأن الوعيد إنما ورد فيهما بخبر واحد، والفسق إنما يتقرر بطريق قاطع.

سؤال: فإذا كانا ليس فسقًا، فلأىّ شىء ورد هذا الوعيد عليهما الشديد؟ وأدنى الدرجات فى الوعيد، وفى استحقاق النار هو ملابسة الكبيرة؟!

وجوابه: هو أن الوعيد بدخول النار لم يكن بالغيبة والنميمة على الانفراد، وإنما كان بكبائر قد ارتكبوها، والغيبة والنميمة علامتان وليسا سببين فى استحقاق دخول النار، كما ورد فى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «سيكون فى آخر الزمان قوم يخضبون لحاهم حتى تكون كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة»[4]، فليس استحقاق النار بخضاب اللحاء، وإنما يكون بملابسة كبائر قد ارتكبوها، والخضاب علامة لا غير.

الآفة الثالثة: النطق بكلمة الكفر، وهو من أعظم الجرائم؛ لكونه كفرًا، ولا يجوز النطق بها[5] إلا مع الإكراه أو الحكاية لها، ولا آفة أفسد منها للدّين.

الآفة الرابعة: السعاية إلى السلاطين الجورة، وأهل الظلم بالمسلمين، فإن فيها أعظم الآثام؛ لما يحصل على المسلمين من أجلها.

الآفة الخامسة: الإغراء بين المسلمين، وإدخال الضغائن والأحقاد فيما بينهم، فإن ذلك يعظم أمره عند الله.

الآفة السادسة: انتقاص المسلمين فى أعراضهم بالقذف، والرمى بالفاحشة، فإنه جُرم عظيم عند الله، وفيه الخطر الأكبر،

---

(1) المعجم الأوسط، 6/ 348.

(2) تيسير المطالب، 551. بلفظ: «من بهت مؤمنًا أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله يوم القيامة على تلّ من نار حتّى يخرج ممّا قال فيه».

(3) صحيح مسلم، 1/ 101.

(4) سنن النسائى الكبرى، 5/ 415. بلفظ: «قوم يخضبون بهذا السواد آخر الزمان كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة».

(5) فى (د،ك،م) به. ﴿وهو غير مناسب﴾.

وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «من أربى الربا الاستطالة فى عرض مسلم بغير حقّ»[1].

الآفة السابعة: التهدد والوعيد من غير حق، فما هذا حاله يكون حرامًا، وفى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من روَّع مؤمنًا روعه الله»[2].

الآفة الثامنة: الاستحقار والاستخفاف والصغار بحقّ المسلمين، فإن هذا ذنب عظيم عند الله تعالى، وفى الحديث عن النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولا يوقر كبيرنا»[3]، ولا شكّ أن من لوازم الإيمان تعظيم حقّ أهل الدّين والمؤمنين، وفى الحديث: «من أهان لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة»[4]، وفى حديث آخر: أن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- ضرب بيده على الكعبة، وقال: «إن الله عظّمك وشرّفك، ولكن حرمة المؤمن أعظم منك عند الله»[5].

وأما اليد: فيتعلق بها آفات:

الآفة الأولى: القتل، فإنه أكبر الجرائم، وهو من أكبر الفسوق، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «من أعان على قتل مسلم ولو بنصف كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»[6]، وفى حديث آخر: «لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مسلم لعذبهم الله إلا أن يشاء»[7].

الآفة الثانية: السرقة، فإنها كبيرة من الكبائر الفسقية، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-[8] قال: «لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[9]، فهذا تصريح بالخروج عن الإسلام بالسرقة كما ترى.

الآفة الثالثة: أخذ مال المسلم من غير حقّ، فهذا أيضًا أعظم عند الله تعالى، وهو محرم عقلاً وشرعًا، قال تعالى: ﴿ **وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ** ﴾[10]، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «حرمة مال المؤمن كحرمة دمه»[11]، وفى حديث آخر: «من ظلم شبرًا من الأرض طوقه الله به إلى سبع أرضين»[1]، وفى حديث آخر: «إذا أخذ أحدكم

---

(1) مسند أحمد، 190/1. سنن أبى داود، 2/ 685. سنن البيهقى الكبرى، 10/ 241.

(2) شعب الإيمان، 7/ 496. بلفظ: «من روَّع مؤمنًا لم يؤمن الله روعته يوم القيامة ... الحديث».

(3) سنن الترمذى، 4/ 321.

(4) حلية الأولياء، 8/ 318.

(5) المعجم الأوسط، 1/ 215. بلفظ: «أنت حرام ما أعظم حرمتك، وأطيب ريحك، وأعظم حرمة عند الله منك المؤمن».

(6) سنن البيهقى الكبرى، 8/ 22. بلفظ: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقى الله يوم القيامة مكتوب على جبهته آيس من رحمة الله».

(7) نفسه. بلفظ: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى قتل مؤمن لعذبهم الله إلا أن يشاء».

(8) فى (د،م) زيادة: أنه.

(9) المعجم الكبير، 11/ 244.

(10) سورة غافر من الآية 31.

(11) مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، لبنان، مكتبة العلوم =

عصا أخيه فليردها إليه»[2].

الآفة الرابعة: الجرح والضرب وسائر الأذايا بالفعل، فإنها محرمة عند الله تعالى، وفى الحديث: «من آذى مؤمنًا فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله لعنه الله»[3]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[4]، فهذه ما يتعلق باليد واللسان.

المرتبة الثانية: الإيمان

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ولا ينال درجة المؤمنين حتى يأمن أخوه بوائقه، وجاره بوادره**» اعلم أنه لا خلاف بين من قال بصحة الأسماء الشرعية فى النقل، أن الإسلام والإيمان لا يفترقان من جهة الشرع، وأن معناهما واحد يفيد أحدهما ما يفيد الآخر.

سؤال: فإذا كان معناهما واحدًا من جهة الشرع، فلم فرق الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- بينهما فى هذه الأحكام، فقال فى المسلم: «**حتى يسلم الناس من يده ولسانه**»، وقال فى المؤمن: «**يأمن أخوه بوائقه، وجاره بوادره**»؟

وجوابه: أن معناهما وإن كان واحدًا من جهة الشرع بصحة النقل، لكن الإيمان أعلى حالاً من الإسلام؛ لأنه عليه السلام جعل التارك لأحكام الإسلام فاسقًا وخارجًا عن حدّه، فمن لا يسلم الناس من يده ولسانه فليس مسلمًا بحال، ولم يجعل التارك لأحكام الإيمان فاسقًا، ولا خارجًا عن الدّين، ولكن جعل المؤمن من أمن أخوه بوائقه، وهى الأفعال القبيحة، وجاره بوادره، وهى ما يسبق من الأفعال، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن الإسلام و الإيمان، وإن اتفقا من جهة الشرع لكن بينهما هذه المخالفة، وهو أن كل ما خالف الإسلام، فهو فسوق[5]، وما خالف الإيمان فليس فسوقًا[6]، وأن الإيمان أعلى حالاً من الإسلام؛ لما ذكرناه من مخالفة الأحكام التى أشار إليها، وإنما خصّ **الأخ بالبوائق**؛ لأنها تعرض كثيرًا فى حقّ الخلق من المعاملة والمخاصمة، وإيحار الصدور

والحكم، المدينة المنورة، المملكة السعودية، ط1، عام 1409هـ، 5/ 117. سنن الدار قطنى، على بن عمر الدار قطنى البغدادى، تحقيق عبد الله هاشم يمانى المدنى، دار المعرفة، عام 1966م، بيروت، لبنان، 3/ 26.

(1) صحيح البخارى، 2/ 866. بلفظ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين».

(2) سنن البيهقى الكبرى ، 6/ 100.

(3) المعجم الصغير، 1/ 284. ليس فيه:«ومن آذى الله فقد لعنه الله».

(4) سورة الأحزاب الآية 57.

(5) فى (د،ك،م) فسق.

(6) فى (د،ك،م) فسقا.

والإحن[1] والذحول[2]، **والجار بالبوادر**؛ لأن ذلك ربّما سنح فى حقّ الجار فى المخالطات والتزاحم على المرافق فى مجارى الأهواء، وفتح الأبواب، وغير ذلك، وفى الحديث: «العداوة فى الأهل، والحسد فى الجيران»[3]، وقد وصّى الله تعالى بالجار، فقال تعالى: ﴿ **وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾[4] يعنى: القريب النسب،﴿ **وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ** ﴾[5] أراد الملاصق فى الجيرة، فحقّه آكد، **وَٱلصَّاحِبِ**﴿ **بِٱلْجَنْبِ** ﴾[6] يعنى: الرفيق فى الطريق، وفى الحديث: «ما زال جبريل يوصينى فى الجار حتى ظننت أنه سيورثه»[7].

المرتبة الثالثة: فى التقوى

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ولا يُعدّ من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذارًا مّما**[8] **به البأس**» اعلم أن التقوى حالة عظيمة، ومرتبة عالية، وجوهر شريف، وعقد نفيس، وقد حشا الله تعالى كتابه الكريم بالثناء على المتقين وإعظامهم، **وللتقوى** حقيقة وحكم، فأما الحقيقة، فقد قيل: إنها عقد القلب، وتصميم العزم على الانكفاف عن كل محظور، وقال بعضهم: هى المحاذرة عن مواقعة المعصية وترك الطاعة، وقال بعضهم: هى هيئة راسخة توجب البُعد عن مواقعة المحظورات، وأما حكمها، فقد أشار عليه السلام إليه بقوله: «**حتى يدع ما لا بأس به حذارًا مما**[9]**به البأس**»، وأراد بهذا أن المتقى هو الذى يترك بعض المباحات حتى لا يرد على المعصية؛ ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لكلّ ملك حمى، وحمى الله محارمه، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[10]، فإذا ترك بعض المباحات كان لا محالة أبعد عن ملابسة المعاصى، والقرب منها تحفظًا منه، واحتياطًا للدّين، وإشفاقًا على نفسه عمّا يقرب من غضب الله وسخطه، وإيثارًا للحمية أو بادرة غضب أو غلبة هوى أو إعمالاً لشهوة.

المرتبة الرابعة: الصدق

---

(1) الإحن: الحقد. ينظر: لسان العرب، مادة (أحن).

(2) الذحول: جمع ذحل، وهو الثأر، وقيل: العداوة. ينظر: نفسه، مادة (ذحل).

(3) شعب الإيمان، 5/ 273. بلفظ: «العداوة فى القرابة والحسد فى الجيران».

(4) سورة النساء من الآية 36.

(5) السورة نفسها ومن الآية نفسها.

(6) السورة نفسها من الآية 36.

(7) مسند أحمد، 85/2. صحيح مسلم، 4/ 2025.

(8) فى (د،م) حذار ما.

(9) فى (د،م) حذار ما.

(10) صحيح البخارى، 1/ 28. بلفظ – من حديث طويل-: «ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه».

اعلم أن الصدق إنما يرد فى الأخبار، وهو الأشهر الأكثر؛ وفائدته ومعناه الإخبار عن الشىء على ما هو عليه، فمن كان خبره مطابقًا لمُخبَره فهو صادق، ومن كان خبره على خلاف ذلك فهو كاذب، نعم يخرج عن ذلك التعريض، فإن ظاهره يوهم الكذب، لكنه لا يكون كذبًا؛ لأن المقصود به خلاف ظاهره لغرض من الأغراض، ومصلحة من المصالح، كما يقال: إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب، كما ورد عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليس بكاذب من أصلح بين اثنين، فقال خيرًا»[1]، وقد رخّص فيه فى مواضع ثلاثة: فى الإصلاح بين الخلق، وفى حقّ من كان له زوجات، وفى مصالح الحرب، فإذا عُرف هذا، فلنذكر فضيلة الصدق، ثم نذكر مواقعه، فهذان مقامان نفصلهما:

المقام الأول: فى بيان فضيلته

قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[3]، وقال فى الصدق فى الفعل: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[4]، وأثنى الله على إبراهيم وإدريس- عليها السلام- بالصدق، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[5]، وقال: وَٱذْكُرْ﴿ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقًا، وإن الكذب ليهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكذب مجانب للإيمان»[8]، وقال: «من أراد أن يلعن نفسه فليكذب»[9]، وعن ابن عباس- رضى الله عنهما-: أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق، والحياء، وحسن الخلق، والشكر[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من عامل الله بالصدق استوحش من الناس»[11]، وعن بعضهم:

---

(1) المعجم الأوسط، 8/ 90. بلفظ: «ليس بكاذب من أصلح بين الناس، فقال خيرًا ».

(2) سورة الأحزاب من الآية 23.

(3) سورة محمد من الآية 21.

(4) سورة النساء الآيات 66 – 68.

(5) سورة مريم الآية 41.

(6) السورة نفسها الآية 56.

(7) صحيح مسلم، 4/ 2012.

(8) مسند أحمد ، 5/1. سنن البيهقى الكبرى، 10/ 196.

(9) رواه المؤلف فى كتابه : تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، أعده للطبع إسماعيل أحمد الجرافى، أشرف على الطبع والتصحيح أحمد على الهيصمى، دار الحكمة اليمانية، ط1، عام 1408هـ، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 118.

(10) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 387 .

(11) ينظر: حلية الأولياء، 347/8. ونصه: قال بشر بن الحارث: «من عامل الله بالصدق استوحش من الناس».

اجعل الصدق مطيتك، والحقّ سيفك، والله تعالى غاية مطلبك[1]، وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الكمال، فقال: «قول الحقّ، والعمل بالصدق»[2]، وسئل صلى الله عليه وآله وسلم عن الكمال، فقال: «هو قول الحق، والعمل بالصدق»[3]، عن غير ابن عباس[4].

المقام الثانى: فى بيان مواقع الصدق

الموقع الأول: الصدق باللسان، وهذا هو السابق إلى الأفهام عند إطلاق الصدق، ومتعلقه الأخبار، فإنه حقّ على كل أحد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وقد يطلق الصدق على أمور أخر على جهة المجاز.

الموقع الثانى: الصدق فى النية والإرادة، ويرجع ذلك إلى الإخلاص، فإنه متى حصلت النيّة والقصد قيل لذلك صدق، فتكون النيّة مطابقة لمنويها، والإرادة مطابقة لمرادها، فهو صدق لا محالة.

الموقع الثالث: صدق العزم، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول: إن رزقنى الله مالاً تصدقت منه أو لقيت عدوًّا فى سبيل الله قاتلت ولم أبال، فهذه العزيمة قد تصادقها[5]عزيمة صادقة، فيكون العزم صدقاً، وقد يكون فيها تردد، وضعف يضاد الصدق فى العزيمة.

الموقع الرابع: الصدق فى الوفاء بما عزم عليه: فإن النفوس قد تكون ساخية بالعزم فى الوقت؛ إذ لا مشقة فيه، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن، وهاجت الشهوات انحلّت عقد العزم وغلبت الشهوة، وبطل الوفاء بالمعزوم عليه، **فما** هذا حاله يفتقر إلى الصدق أيضاً.

الموقع الخامس: الصدق فى الأعمال، فمتى كان عمله موافقاً لرضوان الله وخالصًا لوجهه فهو صادق، وإن كان على خلاف ذلك فليس صادقاً، ومثاله: أن يقوم بين يدى الله فى الصلاة، فإذا كان خاشعًا لله قاصدًا للتواضع والعظمة لله تعالى فهو صادق فى عمله، ومتى لم يكن على هذه الصفة بل كانت صادرة على جهة الرياء والسمعة فليس صادقاً فى عمله بحال.

الموقع السادس: الصدق فى المقامات الدينية، نحو الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والمحبة والتوكل، فإن الصدق فى هذه الأعمال هو من أعلى الدرجات فى الصدق؛ لما يحصل فيها من النفع فى الدين، فهذه المواقع كلها مفتقرة إلى الصدق كما بيناه.

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 387.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) فى (د،م) سقط: عن غير ابن عباس.

(5) فى (د،ك) تصادفها. ﴿وهى أنسب فى السياق﴾.

المرتبة الخامسة: فى الإخلاص

اعلم أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره، فهو غير خالص. قال بعضهم: الإخلاص ما استتر عن الخلائق، وصفى عن العلائق، وقال بعضهم: الإخلاص: تصفية الأعمال من الكدورات، وقال بعضهم: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها، وعن بعضهم: الإخلاص أن تكون حركات العبد وسكناته لله تعالى خاصة، وعن بعضهم: الإخلاص فى العمل أن لا يريد صاحبه غرضاً فى الدارين، فهذه الأقاويل كما ترى ولا فائدة فى كثرة النقل فى ذلك، وأحسن ما قيل فى حقيقة الإخلاص: ما أشار إليه صاحب الشريعة- صلوات الله عليه- حيث قال لمّا سئل عن الإخلاص، فقال: «أن تقول ربى الله، ثم تستقم كما أمرت»[1] أىْ: لا تعبد[2] هواك، ولا نفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقم فى عبادتك كما أمرت، فقد أشار عليه السلام فى كلامه هذا إلى قطع النظر عمّا سوى الله، وهو حقيقة الإخلاص، فإذا عرفت هذا، فلنذكر فضيلة الإخلاص، ثم نذكر درجاته، فهذان مقامان:

المقام الأول: فى بيان فضيلة الإخلاص

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[6] نزل فيمن يعمل العمل لله، ويحب أن يحمد عليه، وفى الحديث: «الإخلاص سرّ من سرّى استودعته قلب من أحببته من عبادى»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: «أخلص العمل يجزك القليل منه»[8]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[9]، وفى حديث آخر: «إنما نصر الله تعالى هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم»[10]، وعن أمير المؤمنين- كرم

(1) سنن الترمذى، 4/ 607. بلفظ: «قيل: يا رسول الله حدثنى بأمر اعتصم به, قال: قل ربى الله ثم استقم».
(2) فى (د) تتبع بدلا عن:تعبد.
(3) سورة البينة من الآية 5.
(4) سورة الزمر من الآية 3.
(5) سورة النساء من الآية 146.
(6) سورة الكهف من الآية 110.
(7) إحياء علوم الدين، 4/ 376.
(8) نفسه.
(9) مسند الشهاب، 1/ 285. أما فى حلية الأولياء، 5/ 189. فبلفظ:«من أخلص لله أربعين يومًا ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه».
(10) سنن البيهقى الكبرى، 3/ 345. بلفظ: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم».

الله وجهه-: لاتهتموا بكثرة العمل ، واهتموا للقبول[1]، وعن عمر أنه قال: من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس[2]، وعن بعضهم: من صفا صفى الله له، ومن خلط خلط له[3]، وقال بعضهم: طوبى لمن صحت له خطوة لا يريد بها إلا الله، وعن بعض الزهاد: تخلص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال، وقال بعضهم: أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل، وعن بعضهم: الإخلاص تُميز الأعمال من العيوب كتميز اللبن من الفرث والدم.

المقام الثانى: فى بيان درجات الإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جليّة وبعضها خفيّة، وتتفاوت أحوالها فى الجلاء والخفاء، وجملة ما نشير إليه من ذلك درجات أربع:

الدرجة الأولى: الرياء الظاهر، وصورته فى الصلاة أن الشيطان يُدخل الآفة على المصلى بأن يقول له ويوسوس فى خاطره بأن يقول له: حسّن صوتك؛ كى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح، ولا يزدريك ولا يغتابك، فعند هذا تخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته، فهذه آفة عظيمة ينبغى التحرز منها .

الدرجة الثانية: أن يكون السالك لطريق الإخلاص قد فهم هذه الآفة، وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت، ويستمر على صلاته، لكنه يأتيه من طريق أخرى، فيقول: أنت متبوع، ومقتدى بك، ومنظور إليك، وما تفعله، فهو يؤثر عنك، ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن صلاتك بين يديه، فعساه أن يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة، فما هذا حاله من الرياء لكنه يغمض ويدق ، وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو عين الرياء ويبطل الإخلاص.

الدرجة الثالثة: وهى أدق مما قبلها، وصورتها، أن يحزن الإنسان نفسه فى ذلك ويتنبه على كيد الشيطان، ويعلم فى نفسه أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة محض الرياء، ويعلم أن صلاته إذا كانت مستوية فى الخلوة والمشاهدة فهو عين الإخلاص، ويستحيى من ربه، ومن نفسه أن يكون متخشعًا لمشاهدة الخلق تخشعًا زائدًا على عادته، فهذا أيضًا من الرياء الغامض فيحترز منه.

الدرجة الرابعة: وهى أدق وأخفى، وصورتها، أن ينظر إليه الناس، وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع من أجلهم، فإنه قد عرف أنه متفطن له، فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله وجلاله، ومن أنت واقف بين يديه، وأستحيى من

---

(1) إحياء علوم الدين، 4/ 376.

(2) نفسه، 4/ 378.

(3) نُسب لمالك بن دينار. ينظر: حلية الأولياء، 381/2.

أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر لذلك قلبه، وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهو عين المكر والخديعة، فإن خشوعه لو كان لأجل نظره إلى الجلال والعظمة لاستوى حاله فى الخلوة والملأ، فهذه كلّها يتطرق إليها الرياء، وتتفاوت درجتها كما أشرنا إليه، فيجب على السالك إحراز نفسه عنها؛ ليحصل له الإخلاص عند الله.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنه من خاف البيات أدلج**» أراد بـ «**البيات**» الذى لا يؤمن وقوعه من الجوارى الفظيعة، والموبقات العظيمة كالقتل، والموت، واجتياح الأموال، فإنه ما من عاقل إلا وجواز هجومها عليه مقرر فى عقله، ولا شكّ أن مصيبة الإنسان فى عذاب الأبد ونكال السرمد أعظم من مصيبة البيات فى قتله وسلب ماله وروعه، وأهل العقول والحزم إذا خافوا البيات ممّن يخاف جانبه سروا ليلهم، ولم يناموا على الخوف، ويذمون من غفل عن ذلك، والمخوف هين كما ترى، فما حال من خاف الأمور العظيمة والأهول الجسيمة، ثم تأخر عن الاستعداد فاللوم له أكثر والغفلة له ألزم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن أدلج فى المسير وصل**» إشارة منه عليه السلام إلى أن الحازم لا ينام على الخوف، وأنه ينال بإدلاجه فرحتين:

الفرحة الأولى: السلامة من شرّ خوف البيات المخوف.

الفرحة الثانية: الفوز بوصول الأهل والمال؛ لأنه لا أحد إلا وله فى الجنة أهل ومال، فإن لم يعمل عملاً يستحق به ذلك الأهل والمال فإنه يرثه العاملون له، ويحرمه الغافلون عنه .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**وإنما تعرفون عواقب أعمالكم لو قد طويت صحائف آجالكم**» أراد صلى الله عليه وآله وسلم بعواقب الأعمال الجزاء عليها، وهو لا يكون إلا بعد انقطاع التكليف بالموت، إما بالقتل أو بالموت حتف أنفه، فالموت أجل، والقتل أجل، والعمل أجل، فإن كان العمل خيرًا استرّ به سرورًا لا غمّ بعده أبدًا، وإن كان شرًّا اغتّم به غمًا لا سرور بعده أبدًا، والتفكر فى هذا يقطع الأنفاس، ويكثر الغمّ، ويجلب الوسواس.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيها الناس إن نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاسق شرّ من عمله**»، واعلم أن **النية**: هى الإرادة، لكن العبارات تختلف[1] بالإضافة إلى الأفعال ، فما كان منها متقدمًا على الفعل فهو عزم، وما كان منها مقارناً فهو القصد، وما كان منها يراد به العبادة فهو نية، فإذا عرفت هذا، فلنذكر حقيقة الإرادة، وبيان فضلها، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بها، وبيان كون النية جزءً من العمل، فهذه مقامات أربعة نفصلها بمعونة الله تعالى:

المقام الأول: فى بيان حقيقة النية

(1) فى (د،ك،م) زيادة:عليها .

وهى صفة للقلب، وعبارة عن ميله وكل حركة أو سكون أو غيرهما من سائر الأعمال، فإنه لا تتم إلا بأمور ثلاثة: **قدرة، وعلم، وإرادة**.

فالقدرة، تراد لتحصيل الأعمال وإيجادها، **والعلم**، يراد لإحكام الفعل المراد، **والإرادة**، تراد للبعث على الفعل وتحريك الداعية، وهل تكون زائدة على الداعية أم لا؟

فيه تردد بين المتكلمين، فمنهم من زعم أنها جنس زائد على العلم، والظن والاعتقاد، والمختار إن الإرادة هى نفس الداعية على الفعل من غير زيادة على ذلك، فهى الباعثة للقدرة على تحصيل الفعل، لكن قد يكون إيجاد الفعل بباعث واحد، وقد يكون بباعثين، كل واحد منهما مستقل، وقد يكون كل واحد منهما قاصرًا عن الانفراد، لكن حصل التأثير بالاجتماع، وقد يكون كل واحد منهما كافيًا لو انفرد بنفسه[1]، لكن الآخر ينتهض عاضدًا ومعينًا، فهذه وجوه أربعة فى بعض الإرادة على الفعل.

الوجه الأول: أن يكون الفعل الواحد حاصلاً بباعث واحد، ويتجرد، كما إذا هجم السبّع على إنسان، فإنه إذا رآه فإنه يهرب عن موضعه، ولا باعث له على الهرب إلا السبع لا غير، فهذه الإرادة خالصة، ويسمى الفعل بموجبها إخلاصًا بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنها خلت[2] عن مشاركة غيرها وممازجته.

الوجه الثانى: أن يجتمع باعثان، كل واحد منهما مستقل بالانتهاض للفعل لو انفرد، ومثاله: أن يتعاون رجلان على حمل شىء ثقيل بمقدار من القوة، وكل واحد منهما كان قادرًا على إقلاله من الإرض لو انفرد، ونحو أن يسألك رجل فقير حاجة فتقضيها لفقره ولقرابته، وعلم من حاله أنه كان يقضيها لأىّ الأمرين انفرد حتى لو كان له قريب غنى لأعطاه، ولو كان هناك[3] فقير غير قريب لأعطاه، فعلم من ذلك استقلال كل واحد منهما بتحريك الداعية للإعطاء.

الوجه الثالث: وهو أن لا يستقل كل واحد منهما لو انفرد، لكن قوى مجموعهما على تحريك الداعية، وتأثير القدرة فى الفعل، ومثاله: ما ذكرناه، وهو أن يتعاون قادران على حمل شىء ثقيل من الأرض ضعيفان، وكل واحد منهما لو استقل بالحمل لم يقدر على إقلاله، فإذا اجتمعا حصل الإقلال، ونحو أن يسأله فقير فلا يعطيه، ويسأله قريبه فلا يعطيه على الانفراد فى كل واحد منهما، فإذا اجتمع من هو قريب وفقير فأعطاه فإنا نعلم أن الداعية إنما انبعثت على تحصيل الفعل بمجموعهما لا محالة، وهذا ظاهر لا مرية فيه.

الوجه الرابع: وهو أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثانى لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير

---

(1) فى (م) لولا الآخر.

(2) فى (د،ك،م) خلصت.

(3) فى (د) سقط: هناك.

بالإعانة والتسهيل، ومثاله: أن يكون للرجل وظائف فى الصلاة فى المسجد، وعادة فى الصدقات، فاتفق إن حضر جماعة من الناس يفعلون ذلك الفعل، فكانت الصلاة والصدقة أخفّ عليه؛ بسبب مشاهدتهم، فقد كان يفعل لا محالة، لكنه مع فعلهم يكون الفعل أسهل عليه، فلهذا كان لمشاهدتهم حظّ التقوية والتيسير لا غير، فهذا ما أردنا ذكره فى ماهية الإرادة، وكيفية بعثها على الفعل لتحصل بالقدرة والعلم جميعًا.

المقام الثانى: فى بيان فضلها

وهذا كقوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[1]، والمراد به النية والإرادة معناهما واحد، كما مرّ بيانه، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾[3]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ ﴾[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرة إلى دنيا يصيبها، أوامرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[5]، وقال عليه السلام: «أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش، فربّ قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[7]، وإنما نظر إلى القلوب؛ لأنها محل النية ومظنتها.

وفى حديث آخر: لما خرج رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– إلى غزاة تبوك قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا، ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا فى ذلك وهم بالمدينة»، قالوا: كيف– يا رسول الله– وليسوا معنا؟ فقال: «حبسهم العذر فشاركونا بحسن النية»[8]، وفى حديث ابن مسعود[9]: من هاجر يبتغى شيئًا فهو

(1) سورة الكهف من الآية 28.
(2) سورة البقرة من الآية 185.
(3) سورة النساء من الآية 26.
(4) سورة الأنعام من الآية 125.
(5) صحيح مسلم، 1515/3. سنن أبى داود، 2/ 262.
(6) مسند أحمد، 1/ 397.
(7) نفسه، 2/ 284. صحيح مسلم، 1986/4.
(8) مسند أحمد، 3/ 103. صحيح البخارى، 4/ 1610. بلفظ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم». قالوا:– يا رسول الله– وهم بالمدينة. قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر».
(9) وهو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى صحابى من السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بالقرآن بمكة توفى سنة 32هـ. ينظر: الإصابة، 4/ =

له، فهاجر رجل، فتزوج امرأة منا، فكان يسمى مهاجر أم قيس[1]، وفى حديث عبادة[2] عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– : «من غزا وهو لا ينوى إلا عقالاً فله ما نوى»[3].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان قاتل على الدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية، ألا فلا تقولوا: قتل فلان فى سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[4]، وعن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[5].

المقام الثالث: فى تفضيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت إلى أقسام كثيرة: من قول وفعل وفكر وذكر وغير ذلك مّما لا يتصور إحصاؤه، فهى لا تنفك عن ثلاثة أقسام: طاعات، ومعاصى، ومباحات.

القسم الأول: الطاعات

وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها، وفى تضاعف فضلها، أما أصلها، فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى بها الرياء صارت معصية، وأما مضاعفة الفضل، فلكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة، فتكون له بكل نية ثواب؛ إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشرة أمثالها، كما ورد به الخبر، ومثاله: القعود فى المسجد فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة حتى تصير من فضائل أعمال المتقين، ويبلغ به درجات المقربين.

الفضيلة الأولى: أن ينوى أنه فى بيت الله، وأن داخله زائر لله، فيقصد به زيارة مولاه؛ رجاء لما وعد به رسوله– صلى الله عليه وآله وسلم– حيث قال: «من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى، وحقّ على المَزُور أن يكرم زواره»[6].

الفضيلة الثانية: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة، فيكون فى جملة انتظاره مصليًا؛ لما روى عن الرسول– صلى الله عليه وآله

233، 234. الأعلام للزركلى، 4/ 137.

(1) المعجم الكبير، 9/ 103.

(2) وهو عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجى الأنصارى السلمى، شهد العقبة الأولى والثانية والثالثة، شهد بدرًا، والمشاهد كلها، ثم وجهه عمر– رضى الله عنه– إلى الشام قاضيًا ومعلمًا، فأقام بحمص، ثم انتقل إلى فلسطين، وتوفى بها، ودفن بالقدس سنة 34هـ. ينظر: الاستيعاب، 2/ 807، 808.

(3) مسند أحمد، 5/ 315. بلفظ: «من غزا فى سبيل الله، وهو لا ينوى فى غزاته إلا عقالا فله ما نوى».

(4) الزهد، عبد الله بن المبارك بن واضح، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، دار الكتب العلمية، (ت)، بيروت، لبنان، وقد ورد موقوفًا على ابن مسعود، 46. أما تتمة الحديث: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل». صحيح البخارى، 1/ 58. صحيح مسلم، 3/ 1513.

(5) صحيح مسلم، 4/ 2206.

(6) المعجم الكبير، 6/ 253. بلفظ: «من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يكرم الزائر».

وسلم- أنه قال: «لا يزال العبد فى الصلاة ما دام ينتظر الصلاة»[1].

الفضيلة الثالثة: الترهب بكفّ السمع والبصر وسائر الأعضاء عن الحركات وسائر الترددات، فإن الاعتكاف كفّ، وهو فى معنى الصوم، وهو نوع ترهب، ولهذا قال عليه السلام: «الاعتكاف رهبانية أمتى»[2].

الفضيلة الرابعة: عكوف الهمّ على الله، ولزوم الفكر[3] فى الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه، وذلك كله حاصل بالاعتزال فى المسجد.

الفضيلة الخامسة: التجرد لذكر الله، والاستماع للأذكار، كما ورد عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «من راح أو غدا إلى المسجد يذكر الله كان كالمجاهد فى سبيل الله»[4].

الفضيلة السادسة: أن يقصد إفادة علم، أو أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر؛ إذ المسجد لا يخلو عمّن يسىء صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فعله، فيأمره بالمعروف، ويرشده إلى الدِّين، فيكون شريكًا معه فى خيره.

الفضيلة السابعة: أن يستفيد أخًا فى الله، فإنه غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، فالمسجد عشّ لأهل الدِّين القائمين بأمر الله.

الفضيلة الثامنة: أن يترك الذنوب حياء من الله، وتجنبًا من أن يتعاطى فى بيت الله ما يقتضى هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن على[5]- رضى الله عنه-: من أدام الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخًا مستفادًا فى الله، أو رحمة مستنزلة، أو علمًا مستطرفًا، أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء[6]، فهذه طريقة تكثير النيات.

القسم الثانى: فى المباحات

وما من شىء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالى الدرجات، فما أعظم حسرات من يغفل عنها، ويتغافل تغافل البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغى أن يستحقر الإنسان الخطرات واللحظات

---

(1) مسند أحمد، 2/ 528.

(2) إحياء علوم الدين، 4/ 371. بلفظ: «رهبانية أمتى القعود فى المساجد».

(3) فى (د،م) المسجد. ﴿وهو غير مناسب﴾.

(4) إحياء علوم الدين، 4/ 371.

(5) وهو الحسن بن على بن أبى طالب، ريحانة رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- ، وابن بنته فاطمة الزهراء، ولد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة، له صحبة ورواية عن جده وأبيه، كان يشبه النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- عابد، زاهد، عالم، فاضل، فصيح، حج خمسًا وعشرين مرة ماشيًا، توفى مسمومًا سنة 49هـ، بالمدينة. ينظر: الوافى بالوفيات، 12/ 67، 68.

(6) مسند البزار، 4/ 173. بلفظ: «من أدام الاختلاف إلى المسجد أصابه آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو علمًا مستطرفًا، أو كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى أو يدع الذنوب خشية أو حياء».

والخطوات، فكل ذلك مسؤول عنه يوم القيامة، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : «حلالها حساب وحرامها عقاب»[1]، وفى حديث معاذ بن جبل- رضى الله عنه- عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- : «إن العبد ليسأل عن كلّ شىء حتى عن كحل عينيه، وعن فتات الطينة بإصبعه، وعن لمسه ثوب أخيه»[2]، وفى حديث: «من تطيب لله جاء يوم القيامة، وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة، وريحه أنتن من الجيفة»[3].

القسم الثالث: المعاصى

وهى لا تتغير موضوعها بالنية، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأعمال بالنيات»، ويظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذى يغتاب إنسانًا تطييبًا لخاطر آخر، أو يطعم فقيرًا من مال غيره، أو يبنى مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام، ويقصد به الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر فى إخراجها عن كونها ظلمًا وعدوانًا، ومعصية بل قصده الخير، على خلاف ما يقتضى الشرع شرّ آخر، ولهذا قال بعضهم: ما عصى الله بأعظم من الجهل. قيل له: فهل تعرف شيئًا أشدّ من الجهل؟ قال: الجهل بالجهل، وهكذا فإن أفضل ما أطيع الله به العلم، ورأس العلم هو العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يعذر الجاهل عن الجهل، ولا يحلّ للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحلّ للعالم أن يسكت عن علمه»[4]، فهذا ما أردنا ذكره فى كيفية تعلق النية بالأعمال.

المقام الرابع: فى بيان قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «نية المؤمن خير من عمله»، و«نية الفاسق شرّ من عمله».

اعلم أن ظاهر هذا الخبر قد ورد ، وظاهره يقتضى بالأفضلية والترجيح، ويحتمل غيره، وفيه احتمالات خمسة:

الأول: على الأفضلية، ويكون معناه أن النية لما كانت لا يطلع عليها إلا الله، فالعمل[5] ظاهر، ولعمل السرّ فضل على عمل العلانية، وهكذا حال نية الفاسق فإنها شرّ من عمله، فإنه لما جاهر الله تعالى بها وهو المطلع عليها لا يطلع عليها أحد سواه فلا جرم ازداد الشرّ بها؛ لعدم المراقبة لله تعالى فى قلبه.

الاحتمال الثانى: أن يكون مراده أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية؛ لأن النية يستحق عليها الثواب

---

(1) تيسير المطالب، 505.

(2) تفسير القرآن العظيم، أبو حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازى، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان،(ت) 9/ 3040.

(3) مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعانى، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، المكتب الإسلامى، ط2، عام 1403هـ، بيروت، لبنان، 4/ 319.

(4) المعجم الأوسط، 5/ 298. بلفظ: «لا ينبغى للعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغى للجاهل أن يسكت على جهله».

(5) فى (د،ك،) الواو بدلاً عن الفاء.

بمجردها، والعمل إذا تجرد عن النية فلا خير فيه، ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا عمل إلا بنية»[1]، و«إنما الأعمال بالنيات»[2]، وهكذا حال الفاسق فإنه يستحق على نيته العقاب، وعمله إذا تجرد عن النية، وكان صادرًا على جهة الغفلة والذهول فإنه لا يستحق عليه عقابًا .

الاحتمال الثالث: أن لا يكون الحديث واردًا على جهة بيان الأفضلية، ولكن الغرض أن نية المؤمن خير، وهى من جملة أفعال الخير، ونية الفاسق شرّ، وهى من جملة أفعال الشرّ التى يكتسبها، فعلى التأويلين الأولين يكون الجار والمجرور متعلقين **بخير وشرّ** على جهة الأفضلية، وعلى التأويل الثالث: يكونان متعلقين بمحذوف، كأنه قال: نية المؤمن خير، وهى من عمله، ونية الفاسق شرّ، وهى من عمله، وهذا هو الذى يشير إليه المنصور بالله- عليه السلام- فى شرحه لهذا الحديث[3]، وهو قوى لا غبار عليه، خلا[4]أنه يبطل المفاضلة التى هى معلومة من ظاهر الحديث.

الاحتمال الرابع: زعم بعضهم أن مراده عليه السلام بكون النية أفضل من العمل من جهة أن النية تدوم إلى آخر العمل فى الخير والشرّ من جهة المؤمن والفاسق، والعمل لا يدوم، وهذا ضعيف، فإن النية لا تدوم، كما أن العمل لا يدوم، وأيضاً فإن حاصل هذا الاحتمال راجع إلى أن العمل الكثير خير من العمل القليل.

الاحتمال الخامس: وهو المختار عندنا، وحاصله: أن يقال: إن كل طاعة تنتظم من نية وعمل، فإن النية تكون من جملة الخيرات، وتكون من جملة الطاعات أيضاً، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أىْ لكل واحد منهما أثر فى المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فعلى هذا يكون المعنى نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارًا فى النية وفى العمل، وهما عملان من الجملة خيرهما، وهكذا الحال فى الفاسق، فإن كل معصية تنتظم من نية وعمل والنية من جملة المعاصى، كما أن العمل من جملة المعاصى، ولكن النية من جملة المعصية شرّ من العمل، أىْ لكل واحد منهما أثر فى المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل إلى تمام التقرير الذى لخصناه فى نية المؤمن، وهذا ما أردنا ذكره فى النية، وبتمامه يتم الكلام على بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم، وقد طال التقرير فيه بعض الإطالة، وما ذاك إلا لأجل ما تضمنه الحديث من هذه الأسرار والرموز، واشتمل عليه من بثّ المعانى، وإظهار الكنوز، والله أعلم بالصواب.

---

(1) سنن البيهقى الكبرى، 1/ 41. بلفظ: «لا عمل لمن لا نية له».
(2) صحيح مسلم، 3/ 1515.
(3) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 76، 77.
(4) فى (ك) حتى بدلاً عن خلا.

النظر الرابع: فى بيان ما اشتمل عليه من اللطائف البيانية

واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على استعارات رشيقة ومجازات حسنة:

الاستعارة الأولى: قوله: «**لا يكتب فى المسلمين**» ليس الغرض الكتابة فى القرطاس، وإنما الغرض أنه لا يكون من جملة المسلمين، سواء كتب أو لم يكتب.

الاستعارة الثانية: قوله: «**حتى يسلم الناس من يده ولسانه**»، فإن اليد واللسان لا يضران، وإنما تضرّ الجملة بإضافة السلامة إلى هاتين الجارحتين جارية على جهة المجاز كما ترى، كما يقال: يداك أوكتا وفوك نفخ[1].

الاستعارة الثالثة: قوله: «**ولا ينال درجة المؤمنين**» ليس هناك نيل ولا درجة محققة، وإنما الغرض الاتصاف بصفة الإيمان.

الاستعارة الرابعة: قوله: «من خاف البيات أدلج، ومن أدلج فى المسير وصل» استعارة لأخذ الحزم والأهبة، ولها توجيهان:

التوجيه الأول: أن يكون المقصود منها أن كل من خاف محذورًا فإنه يجد فى الهرب منه، ويسرع حتى يأمن من خوفه ويصل إلى مأمنه فيسكن خوفه، وهذا هو الذى أشار إليه المنصور بالله– عليه السلام– فى تقرير الاستعارة[2].

التوجيه الثانى: أن يكون المراد أن كل من خاف أن يحجزه الليل عن بلوغ مقصوده فإنه يدلج فى البكرة، فإن كل من أدلج فى أول النهار فإنه يصل إلى المقصود، ولا يحول الليل بينه وبين غرضه، وكلا التوجيهين لا غبار عليه، خلا أن قوله: «**ومن أدلج فى المسير وصل**» يريد[3] المعنى الثانى.

الاستعارة الخامسة: «**لو قد طويت صحائف آجالكم**»، فإن المقصود هو انقطاع التكليف بالموت، سواء كان هناك صحيفة أو لم يكن، فقد عرفت ما تضمنه من مجازات الاستعارة.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع

وقد اشتمل على أصناف أربعة:

الصنف الأول: الاشتقاق

كقوله: «**لا يكتب فى المسلمين حتى يسلم الناس**»، فقوله: فى المسلمين، ويسلم من باب الاشتقاق، كقوله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ**

---

(1) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان،(ت)، 2/ 320.
(2) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 75، 76.
(3) فى (د) يؤيد.

وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ﴾[1].

الصنف الثانى: التسجيع

فى قوله: «**بوائقه**»، و«**بوادره**»، فإنهما مستويان فى الوزن، وهو سجع **لا** محالة.

الصنف الثالث: التجنيس

فى قوله: «**ما لا بأس به حذار ما به البأس**»، وقوله: «**من عمله**» فى حقّ المؤمن، و«**من عمله**» فى حقّ الفاسق، فإنه جناس كما ترى.

الصنف الرابع: الطباق

وهذا كقوله: «**خير**»، و«**شرّ**»، وقوله: «**المؤمن**»، و«**الفاسق**»، فإن ما هذا حاله معدود فى الطباق؛ **لأن** حاصل الطباق: ذكر النقيضين والضدين، كما مرّ بيانه.

---

(1) سورة الروم من الآية 43.

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «**مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ كَفَاهُ اللهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ فِيهَا، وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهَا، وَمَنْ حَاوَلَ أَمْراً بِمَعْصِيَةِ اللهِ كَانَ أَبْعَدَ لَهُ مِمَّا رَجَا، وَأَقْرَبَ لَهُ مِمَّا اتَّقَى، وَمَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِي اللهِ عَادَ حَامِدُهُ ذَامًّا، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ شَرَّهُمْ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ كَفَاهُ اللهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَحْسَنَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ**»[1].

فنقول: الحمد لله المحسن الذى قصّ أجنحة عقول أوليائه المتقين عن التعلق بسواه، وقصر طوائش مرامى سهام خواطرهم عن التطلع إلى الاهتداء بغير هداه، وقطع مواد قلوبهم عن التعلق بغيره، وأوقعهم على خوفه وتقواه، حتى لا مطمع لهم فى المخالفة فيما قسم لهم مّما أعطاهم من فضله وقضاه، فهو القائم على كل نفس بما كسبت، والرقيب على كل جارحة بما اجترحت، والمطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، والمحاسب لكل نفس بما أحضرت، ويعلم ما قدمت وما أخرت.

فسبحان من عمّت نعمته كافة[2] العباد، وشملت واستغرقت رحمته الخلائق وغمرت، فمن أجلّ نفحات جوده اتسعت القلوب للإيمان، وانشرحت، وبجوده[3] تقيدت الجوارح بالطاعات وتأدبت، وبحسن هدايته تجلّت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصره انقطعت مكائد الشيطان واندفعت.

والصلاة على المبعوث بجوامع الخيرات، والدافع ببرهانه جيش الأضاليل والشبهات، وعلى آله الطيبين أفضل الصلوات القامعين بهديهم رؤوس شياطين الضلالات، واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور خمسة نفصلها بمعونة الله.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الألفاظ اللغوية

فالانقطاع: (انفعال) من القطع، وهو صرم الرجاء والأمل، **والكفاية:** هو دفع كل مخوف، **والمؤنة:** هى الثقل والكلفة، **والاتكال:** هو تفويض الأمر إلى الغير، **والمحاولة**[4]: (مفاعلة)، وهى نوع من المعالجة، وإعمال الحيلة فى تحصيل الأغراض، **والمعصية:**

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية. 21.

(2) فى (د،ك،م) كل.

(3) فى (ك،م) ومنّه وبتوفيقه.

(4) فى (د) المحاول. ﴿وهو غير مناسب﴾ .

نقيض الطاعة، **والبعد:** نقيض القرب، **والرجاء:** هو الأمل، **والاتقاء:** محاذرة وقوع المكروه، **والطلب:** هو التماس الأمر بما يمكن تحصيله، **والمحامد:** ما يحمد عليه الإنسان، **والذم:** هو النقص، **والإرضاء:** نقيض الإسخاط، وهما عبارتان عمّا يلائم النفوس وتكرهها، **والإحسان:** نقيض الإساءة، **والسريرة:** باطنة الإنسان ودخيلة قلبه، **والعلانية:** هى الحالة الظاهرة من ابن آدم، **والعمل:** ما يتعاطاه الإنسان ويشغل[1] به حواسه وجوارحه، **والدنيا:** ما نحن فيه، **والآخرة:** ما بعد الموت.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من ا لعلوم الإعرابية

«**من**» هاهنا شرطية فى موضع رفع على الابتداء، والخبر جوابها؛ لأن به تتم الفائدة، ويحتمل أن تكون موصولة، لكن الأجود كونها[2] شرطية؛ لأنها لو كانت موصولة لزم فى خبرها (الفاء)، كقولك: الذى يأتينى فله درهم، و«**كلّ**» منصوب على المفعولية لـ «**كفاه**»، وانجرار «**مؤنة**» بالإضافة لما قبلها إليها، و«**إلى**» متعلق بما قبله تعلق المفاعيل.

«**ومن انقطع إلى الدنيا**» جملة شرطية أيضاً مثل الأولى، والضمير فى قوله: «**فيها**» راجع إلى «**الدنيا**»، وهكذا قوله: «**إليها**» راجع إلى «**الدنيا**» أيضاً.

«**ومن حاول**» «**من**» شرطية أيضاً. «**الباء**» فى قوله: «**بمعصية الله**» يحتمل أن تكون للحال، أىْ: عاصيًا لله، كما يقال: دخل عليه بثياب السفر، أىْ: مصاحبًا، ويحتمل أن تكون للآلة، كما تقول: نجرت بالقدوم[3]، وكتبت بالقلم، الضمير فى «**كان**» راجع إلى «**الأمر**»، أىْ: كان ذلك الأمر، و«**أبعد**» خبرها منصوب، «**وأقرب**» عطف عليه بالنصب، و«**مِن**» متعلقة بـ «**أقرب**»، و«**أبعد**»، وجاز على جهة الاتساع من جهة أن أفعل التفضيل لا تعمل إلا فى الجار والمجرور، ومعنى «**من**» ابتداء الغاية فى كل أفعل للتفضيل.

«**ومن طلب**» جملة شرطية أيضاً، و«**المحامد**» جمع محمدة، وهو قياس، أعنى (مفاعل)؛ لـ (مفعلة) فى التكسير، و«**عاد**» من أخوات (كان) فى رفع الاسم ونصب الخبر بعدها، وهو بمعنى: رجع. «**ومن أرضى**» جملة شرطية، والضمير فى «**وكله**» منصوب على المفعولية راجع إلى «**من**» على لفظها فى الإفراد، والضمير فى «**كفاه**» راجع إليها أيضاً، و«**الشرّ**» منصوب على المفعولية لـ «**كفى**»، و«**بين**» منصوب على الظرفية فى المكان، ولا يستعمل إلا بين اثنين، **إما** حقيقة، **وإما** مجازاً، و«**اللام**» فى قوله: «**لآخرته**» «**اللام**» هاهنا للتعليل، كقولك: جئتك للدرهم والدينار.

---

(1) فى (د) يشتغل.

(2) فى (د) أن تكون.

(3) القدُّوم: التى ينحت بها. ينظر: لسان العرب، مادة (قدم).

قوله: «**أصلح**»، و«**أحسن**» فعلان منقولان بالهمزة للتعدية من: حسن وصلح اللازمين. «**ما**» فى قوله:«**فيما بينه، وبين الله**»، و«**فيما بينه وبين الناس**» موصولة بالظرف بعدها، وهو الظاهر منها، ويحتمل أن يكون نكرة موصوفة بالظرف بعدها، كأنه قال: فى شىء بينه وبين الله، وفى شىء بينه، وبين الناس.

النظر الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم المعنوية

وفيه مقصدان:

المقصد الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى

فمن **الإبهام**، قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الجمل المترادفة المصدرة بـ «**من**»، فإنها واردة على جهة الإبهام، وله موقع حسن يعرفه من له أدنى ذوق، ومن **الشمول**، قوله: «**كفاه الله كل مؤنة**»، ويرد فى الإيجاب والنفى، فإذا قلت: جاءنى كل القوم، كان مفيدًا للإحاطة والشمول، وإذا ورد فى النفى كان حسنًا، فإذا قلت: ما جاءنى كل القوم، وجاءك بعضهم، كان متناقضاً، وإذا قلت: ما كل القوم جاءنى، وجاءك بعضهم لم يكن متناقضاً، ومن **الفصل**، قوله: و«من انقطع إلى الله كفاه الله»؛ **لأنه** وارد من غير (واو)، ومن **الوصل**، قوله: «**ومن انقطع إلى الدنيا . . .**» إلى آخر الجمل الشرطية، فإنها واردة مع «**الواو**»، وهو وصل بين هذه الجمل المترادفة.

المقصد الثانى: فى بيان مراده صلى الله عليه وآله وسلم من كلامه

فقوله: «**من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة فيها**»، وأراد أن كل من ألقى أمره إلى الله، وعظم رجاؤه فيه، وكانت وسائله متعلقة به؛ فإنه يكفيه جميع مؤن الدنيا ومشاقها، وذلك يكون بأمرين: **إما** بالتمكين من المنافع، **وإما** بدفع المكاره عنه كلّها، وعند ذلك لا يبقى على العبد مشقة، ويكون فرحًا مسرورًا جذلاً محبورًا، فإن كل مأمول سواه ربّما خاب فيه الأمل، إما لعجزه عن إعطاء المأمول، وإما لبخله به، أو توهم الحاجة إليه إلى غير ذلك من صوارف العاجزين، وهو عزّ سلطانه بخلاف ذلك كلّه، فإنه الغنى الذى تستحيل عليه الحاجة، والقاهر الذى لا يعجزه شىء، والجواد الذى لا يفرّ ملكه المنع، ولا ينقصه الإعطاء، وهو على ما يشاء قدير.

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الله– عزّ وجلّ–: لو أن أولكم وآخركم، وحيّكم وميّتكم، وذكركم وأنثاكم، اجتمعوا فسأل كل سائل ما بلغت إليه أمنيته، وأعطى كل سائل ما سأل، ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو كان

أحدكم على شفة البحر فغمس فيه إبرة، ثم انتزعها»[1]، وفى كلام لعلى- عليه السلام- أنه قال: لو وهب ما ضحكت عنه أصداف البحار من سبائك العقيان، وفلز اللجين ما نقص فى ملكه شىء[2]، فهذا لعمر الله هو الجود الذى لا يساجل والاقتدار الذى لا يقابل.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها**»، ومعنى ذلك أن كل من جعل الدنيا همّه وأمله، وجعل لها سعيه وعمله، فإن الله تعالى لعظيم حكمته يكله إليها على معنى أنه لا يعطى خيرًا سواها، وقد علم العالمون قلّة بقائها وسرعة فنائها، فمن وكّل إليها فقد وكّل إلى غير كافٍ، وإنما وكّل إليها؛ لأنه لم يعمل للآخرة فيستحق ثوابها، وينعم بحورها وقبابها ولذاتها وبرد شرابها، فكيف يستحق ذلك، وقد جعل همّه جمع حطامها، واغتر بزخارفها، وتدنس بآثامها؟! فليس يبلغ من مطالبها نهاية، ولا يزال فى كدّه وكدحه فى نَصب شديد حتّى ينزله به ما كان يفرّ منه ويحيد، فيندم حيث لا ناصر يمنعه، ولا عذر ينفعه، فبعدًا وسحقًا لأصحاب السعير، وكيف لا يكون كذلك وقد أخرب ما عمر الله من آخرته الباقية، وعمر ما أخرب الله من الدنيا الفانية!! ولقد كان يكفيه من الدنيا اليسير إذا تحقق الأمر ونظر بعين البصيرة، واستعمل بعقله مواد التفكير، وروى أن سعدًا[3] دخل على سلمان[4] فى مرضه وهو يبكى، فقال: يا أبا عبدالله أبشر ما هذا البكاء، تقدم على رسول الله، وهو عنك راضٍ، فقال سلمان: يا سعد سمعت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «من سرّه أن يلحقنى فليكن زاده من الدنيا كزاد الراكب»[5]، ألا ترى إلى ما جمعنا من هذه الأساود فبيع كل ما كان فى بيته فبلغ ثمانية وعشرين درهمًا[6].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن حاول أمرًا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا، وأقرب**[7] **مما اتقى**» أراد أن كل من يتعاطى أمرًا، ويأتى عليه فى التحصيل من جميع جهاته بالمعصية، فإنه يصل إلى خصلتين:

---

(1) مسند أحمد، 5/ 154. بلفظ: «ولو أن أولكم وآخركم، وحيّكم وميّتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا، فسألنى كل سائل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل منهم ما سأل ما نقصنى كما لو أن أحدكم مرّ بشفة البحر فغمس فيه إبرة، ثم انتزعها».

(2) نهج البلاغة، 124. بلفظ: «وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين والعقيان . . . ما أثر ذلك فى جوده». الفلز: اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة، اللجين: النحاس الأبيض، العقيان: الذهب الخالص. ينظر: شرح نهج البلاغة، 6/ 402.

(3) وهو سعد بن أبى وقاص، واسم أبيه: وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف، كان سابع من أسلم، توفى سنة 55هـ، وقيل 58هـ، ودفن بالبقيع. ينظر: الاستيعاب، 2/ 606- 608.

(4) وهو سلمان الفارسى، أصله فارسى، كان يطلب دّين الله فدان بالنصرانية، وقرأ الكتب، وصبر على مشقات نالته حتى أفضى إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وأول مشاهده الخندق، وهو من أشار بحفره، توفى فى خلافة عثمان رضى الله عنه. ينظر: الاستيعاب، 2/ 634- 636.

(5) سنن ابن ماجة، 2/ 1374.

(6) نفسه.

(7) سقط: له. ﴿وقد ورد فى متن الحديث﴾.

الخصلة الأولى: أن يكون فى غاية البعد مما كان راجيًا لحصوله لا يناله أبدًا .

الخصلة الثانية: أن يكون فى غاية القرب لما كان يخاف ويحذر لا محالة؛ والغرض أن المعصية هى السبب فى حصول الأمرين جميعًا، فلا يدرك غرضه، ولا ينال مطلوبه، وسواء كانت المعصية فعلاً أو تركًا، وبعد الرجاء إنما يكون عن ثواب الله ورضوانه، والقرب الذى يتقى إنما هو عذاب الله وسخطه .

سؤال: ترى كثيرًا يتوصل بالمعاصى فيحصل مراده، ويتوفر له ما رجاه، فكيف قال عليه السلام: «**كان أبعد له ممّا رجا، وأقرب ممّا اتقى**» ؟

وجوابه: أن مراده عليه السلام هو ما يرجو من ثواب الله، ويخافه من عقابه، فالغرض بذلك منافع الآخرة ومضارها دون ما يتعلق بمنافع الدنيا ومضارها .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن طلب محامد الناس بمعاصى الله عاد حامده منهم**[1] **ذامًّا**»، وأراد أن الأغلب فيمن يطلب محامد الناس التى هى الثناء منهم والمدح لهم بمعاصى الله سبحانه، وتوصل إلى ذلك بمعاصى الله، أن حامده منهم يكون ذامًا له فى الدنيا، ويؤيد ذلك ما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كل صداقة فى غير الله فآخرها عداوة»[2]، وفى حديث آخر: «من أعان ظالمًا أغرى به»[3]، وقال تعالى: ﴿ **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾[4]، فهذا محمول على الأكثر، والأغلب، وذلك مشاهد، وأما فى الآخرة فعلى العموم، ولا بدّ أن يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض، كما حكى الله تعالى: ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ** ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا** ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا** ﴾[7].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن أرضى الناس بسخط الله وكّله الله إليهم**»، والمعنى: فى هذا هو أن العبد إذا علم أن لا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع، وأن بيده الإعطاء والمنع والقبض والبسط والردّ والقبول والأمر والنهى، وأنه لا مردّ لأمره ولا معقب

---

(1) لم يرد فى متن الحديث: منهم.
(2) لم يقف الباحث فيما بين يديه من المصادر والمراجع على أصل لهذا الحديث.
(3) تاريخ مدينة دمشق، على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر، تحقيق على شيرى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عام 1998م، بيروت، لبنان، 4/ 34. بلفظ: «من أعان ظالمًا سلطه الله عليه» .
(4) سورة المائدة من الآية 14 .
(5) سورة البقرة الآية 166 .
(6) سورة الأعراف من الآية 38 .
(7) سورة العنكبوت من الآية 25 .

لحكمه، ثم مع ذلك إذا وكّل أمره إلى من ليس هذه صفته كيف يقرّ ناظره، ويسلو خاطره وهو موكول إلى من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فكيف يرضى عاقل أن يصرف أمره إليه، وأن يمسى ويصبح متوكلاً عليه ! ! كلا وحاشا .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرّهم**»، وهذا على النقيض ممّا قبله، وهو أحقّ الأمرين بالعاقل المميز، وأحمدهما عاقبة، وأدخلهما فى العقل من جهة أن الخالق أحقّ بالإرضاء من المخلوق والمالك من المملوك، ومن أرضى المملوك بسخط المالك فقد عكس الأمر ورمى نفسه فى المهالك، ومن أرضى المالك بسخط المملوك فقد وضع الشىء فى موضعه، وقد قال بعض الحكماء: إذا خالطت ملكًا حازمًا فأرضه بسخط الحاشية، وإذا صحبت ملكًا أحمق فأسخطه برضى حاشيته، والحازم هو العالم بوجود المنافع وأسباب المضار، الذى لايمنعه التوانى عن أخذ أهبة الاستعداد، فإذا كان الله تعالى هو العالم لذاته والقادر لذاته الذى يستحيل عليه الغفلة والنسيان والعجز، وهو الذى لا ينجى من غضبه إلا رضاه، ولا من معصيته إلا مغفرته، وكل الخلق عبيده، والدار داره، فكيف يرضى العبد عبدًا مثله بسخط مولاهما ؟ ! هذا ممّا لا يقبله عقل سليم، وكفاية شرهم تكون بأحد أمرين، إما بصرفهم ودفع ضررهم عنه كيف شاء، وعلى أىّ وجه شاء، وإما بأن يعزّه ويحميه بألطافه الخفيّة عن كل مكروه تصله من جهتهم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن أحسن فيما بينه، وبين الله كفاه الله فيما بينه، وبين الناس**» اعلم أن الإحسان الذى فيما بينه وبين الله هو أن يعامل الله تعالى معاملة المحسنين فى إصلاح ظاهره وباطنه، وإخلاص العمل لوجهه، وإيثار رضاه على رضا الناس[1] نفسه، فهؤلاء هم المحسنون حقًّا الذين لا تضيع أجورهم، ولا تحرج فى موقف الحساب صدورهم، ويكون لهم الأمن يوم الفزع الأكبر، **وكفاية الله له فيما بينه وبين الناس:** هو أن يصرف عنه شرّهم، إما بكفهم عنه، وإما بأن يجعل له عزًّا وحماية من مكرهم، فإذا كان أحد الأمرين جعل الله الكفاية لا محالة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن أصلح**[2] **سريرته أصلح الله علانيته**» اعلم أن صلاح السريرة هو أن يلطف به الله بالألطاف الخفية، فيطهر قلبه من جميع القبائح المفسدة للقلب، نحو الغلّ، والحقد، والحسد، والخداع، والمكر، وسائر الأوصاف الذميمة فى القلوب التى لا يطلع عليها إلا الله تعالى، فإذا صلح القلب صلح سائر الأعمال، وإذا خبث القلب خبثت سائر الأعمال، وأما إصلاح العلانية، فبأن يطهر الله جوارحه عن الأفعال القبيحة من الظلم والكذب وسائر الأعمال الخبيثة، فإذا صلحت الأسرار والعلانية فإن الله يجعل له لسان صدق فى الآخرين، ويجرى الله له ذكرًا حسنًا على ألسنة الذاكرين، وينشر له ثناء جميلاً فى الغابرين.

---

(1) فى (د،ك،م) سقط: الناس. ﴿وهو مناسب. أما لفظه: نفسه، فلا تناسب السياق﴾ .

(2) فى متن الحديث: أحسن.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه**» اعلم أن المراد من عمل الآخرة هو الأعمال الصالحة الخالصة لوجهه التى يلقى بها ربه، كالقادم من سفر إلى أهله جذلا مسرورًا فرحًا محبورًا قد جعل الله من خلفه نورًا ومن بين يديه نورًا، والمراد بكفاية الدنيا هو أن يخفف عنه ما بين يديه من مؤن الدنيا ويكرّه إليه قبيحها، ويحبب إليه حسنها، ويزهده فى حلالها، وينفره من[1] حرامها حتى تستريح جوارحه من همها ونكدها .

النظر الرابع: فى بيان ما تضمنه من علوم البيان

وقد اشتمل على مجازات:

المجاز الأول: الانقطاع، فإنه استعارة ومبالغة أخذه من انقطاع الحبل، وهو أصل فيه، والانقطاع إلى الدنيا مجاز أيضًا .

المجاز الثانى: «**إلى**»، فإن الغاية[2] واردة على جهة الاستعارة.

المجاز الثالث: «**وكّله الله إليها**»، فإنه مجاز لا محالة.

المجاز الرابع: «**الباء**»، فى قوله: «**بمعصية الله**»، فإن حقيقتها للإلصاق، والإلصاق هاهنا، و«**الباء**» فى قوله: «**بمعاصى الله**» مجاز أيضًا .

المجاز الخامس: قوله: **البعد والقرب**، فإنهما مجازان أيضًا[3]، واستعمال **البين** هاهنا مجاز أيضًا، **وصلاح العلانية، وحسن السريرة** مجازان أيضًا، **وكفاية أمر الدنيا** مجاز أيضًا، فهذه المجازات كلّها، وقعت هاهنا أحسن موقع؛ لما تفيده من البلاغة والصلاحية وحسن السبك.

النظر الخامس: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع

وقد اشتمل على أجناس ثلاثة:

الجنس الأول: الطباق

وهذا كقوله: «**أقرب مما اتقى**»، و«**أبعد مما رجا**»، ونحو قوله: «**عاد حامده منهم ذامًا**»، فإن **الحمد والذم** يكونان طباقًا، **والرضا والسخط** فإنهما طباق.

---

(1) فى(د،ك،م)عن .

(2) فى (د،ك،م) زيادة: هاهنا .

(3) فى (د،م) زيادة: لأن الحقيقة فيهما إنما تستعمل فى الجهة هاهنا والسخط والرضا مجازان أيضًا . ﴿ وهو مناسب ﴾ .

الجنس الثانى: الجناس

كقوله: «**من انقطع إلى الله**»، وقوله: «**ومن انقطع إلى الدنيا**»، فإن تكرير الانقطاع جناس.

الجنس الثالث: السجع

وهذا كقوله: «**رجا**»، و«**اتقى**»، فإنهما من التسجيع، فإن هذه الأمور تُعدّ من علم البديع، وهو كلام يتعلق بتحسين الكلام فيما يتعلق بالبلاغة، ومحاسن الفصاحة، هذا كلّه من غير ما تضمنه الحديث من حسن التأليف، ورشاقة الرصف، وبلاغة المعانى، وفصاحة الألفاظ، فإن هذا يُعدّ من البديع، كما أشرنا إليه، والله أعلم .

الحديث التاسع

عَنِ ابْنِ عُمَرَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- : «**رَحِمَ اللهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ، إِنَّ اللِّسَانَ أَمْلَكُ شَيْءٍ لِلإِنْسَانِ، أَلاَ وَإِنَّ كَلاَمَ الْعَبْدِ كُلَّهُ عَلَيْهِ، إِلاَّ ذِكْرًا لِلَّهِ، أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ إِصْلاحًا بَيْنَ مُؤْمِنِينَ**»، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ:- يَا رَسُولَ اللَّهِ- أَنُؤَاخَذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، فَمَنْ أَرَادَ السَلاَمَةَ فَلْيَحْفَظْ مَا جَرَى بِهِ لِسَانُهُ، وَلْيَحْرُسْ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ جَنَانُهُ، وَلْيُحْسِنْ عَمَلَهُ، وَلْيَقْصُرْ أَمَلَهُ**»[1]، ثُمَّ لَمْ تَمْضِ أَيَامٌ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة : ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[2].

فنقول: الحمد لله الحميد المجيد الذى أنطق الألسنة بأسرار التوحيد فأفصحت له بحقائق المعرفة، وصرّحت له بأنواع التمجيد، الذى لم يقدر لانتهاء عزّته وكمال عظمته قدرًا، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام، ومرامى سهام الأفهام على حمى جلالته مجرى، وترك قلوب الطالبين فى بيداء كبريائه والهة حسرى، فكلما اهتزت لطلب مرادها ردها سبحات الجلال ناكصة قسرى[3]، ونوديت من سرادقات[4] الجلال وحجرات القدس: ارجعى فقد حاولت أمرًا إمرًا، فسبحان الذى لم يجعل فى قلوب العارفين من مخالفة تقديسه طيًّا ولا نشرًا، ونزّه ألسنتهم عن أن تفوه بالنطق باللغو والكذب، وأن تقول هجرًا، فلطائف نعمه وفواضل أياديه لم تزل على خلقه جارية تترى، وفائضة على العالمين فى كل الأحوال نفعًا وضرًّا وعسرًا ويسرًا.

والصلاة على من هو مفتاح الأنوار الإلهية، ومبدأ الاستبصار فى اللطائف الدينية، وخاتم لمنقطع التكاليف الشرعية، وعلى آله الطيبين جبال العلم الراسخة، ومثاقيل الحلم الراجحة، صلاة دائمة إلى يوم الدين، واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور ثلاثة.

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية،22.

(2) سورة النساء من الآية 114.

(3) فى (د،ك) حسرى. ﴿ولعله الأنسب﴾.

(4) السردق: ما أحاط بالشىء والجمع سرادقات. ينظر: لسان العرب، مادة (سردق).

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الأدبية[1]

وفيه بحثان:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

الرحمة من الله: هى الملاحظة بالألطاف الخفيّة للعبد، وبالإحسان من جهته وتوفير الثوابات العظيمة، ومن العباد الشفقة والمحبة، واسم **الله** تعالى مختلف فيه: فمنهم من زعم أنه اسم سريانى، وذهب الأكثر إلى كونه عربيًا، فإذا كان عربيًّا، فهل يكون جامدًا أو مشتقًا ؟

فمنهم من ذهب إلى أنه جنس لا اشتقاق له، والأكثر ذهبوا إلى كونه[2] مشتقًا، ثم اختلفوا فى وجه اشتقاقه: فزعم بعضهم أنه[3] من قولنا: أله إلى تحيّر؛ لأنّ العقول تحيرت فى كنّه ذاته وفى معقول حقيقته، ومنهم من قال: إن اشتقاقه من قولهم: أله إذا احتجب؛ لأن الله تعالى محتجب عن إدراك العيون، وعن تصوير الأوهام، وعن إحاطة الأفهام[4]، والمختار عندنا أنه مشتق، وعلى كلا الوجهين فى الاشتقاق، هل يكون لقبًا أو لا؟

فيه تردد، والحقّ أنه اسم جنس فى معنى اللقب، فبما فيه من الجنسية لا يجوز تغيره بالبدل إلى غيره، كلفظ الرجل والسواد، وبما فيه من اللقب لا يجوز فيه الاشتراك، كما لا يجوز فى الألقاب كزيد وعمرو، وقد رمزنا إلى أسرار هذه المسألة فى أسماء الله تعالى من كتاب (**الشامل**)[5] فى المباحث الكلامية، ورددنا على الفلاسفة مقالتهم.

---

(1) ابتداً من الحديث التاسع خرج المصنف عن إطار المنهج الذى نظّر له فى المقدمة، والذى التزمه فى شرح الأحاديث الثمانية الأولى، أما المنهج المتبع عند تناوله للحديث التاسع إلى نهاية الجزء الأول بالشرح والتفصيل؛ فيتمثل فى:

النظر الأول فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الأدبية، وفيه مبحثان: الأول فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية. الثانى فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية.

النظر الثانى فى بيان ما اشتمل عليه من علوم المعانى والبيان والبديع، وفيه ثلاثة مطالب: الأول فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى. الثانى فى بيان موقعه من علوم البيان. الثالث فى بيان ما احتوى عليه من علم البديع.

النظر الثالث فى الإشارة إلى مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم.

يبرز من هذا أنَّ المصنف وإنْ عدل عن المنهج الذى قرره فى المقدمة لكنه لم يسقط فى منهجه الجديد أىّ نظر وإنما أعاد ترتيب الأنظار ليس إلا، ولهذا العدول تفصيل فى المبحث الثانى: منهجه، من الفصل الثانى: الأنوار المضيئة.

(2) فى (د) أنه.

(3) فى (م) زيادة: مشتق.

(4) ينظر: الديباج الوضى، 1/ 116.

(5) وهو الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينية، فى (علم الكلام) مخطوطة فى أربعة مجلدات، نسخة بالمكتبة الغربية للجامع الكبير بصنعاء، وأخرى بمكتبة المصطفى بمركز بدر العلمى بصنعاء. ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1129.

الكلام اللغوى: ما تركب من حرفين فصاعدًا وينطلق على المفيد وغير المفيد، **والكلام الاصطلاحى:** هو المركب من كلمتين أسندت أحداهما إلى الأخرى إسنادًا له إفادة، فهذا هو المعول[1] فى اصطلاح[2] النحاة، **والغنم:** أحد فوائد الأموال، **والغنيمة:** ما أخذت[3] من الأمول بالقتل أو إيجاف العدو بالخيل والركاب، **والفىء:** ما أخذ من الأموال من غير إيجاف خيل ولا ركاب، ولهذا قال عليه السلام: «الصوم فى الشتاء الغنيمة الباردة»[4] استعارة من الغنيمة التى لم يصلوا فيها حرّ القتال؛ لقصر اليوم وسهولة صومه، **والسكوت:** نقيض الكلام، **والسلامة:** هى المعافاة من كل سوء، **واللسان:** هو العضو الذى جعله الله آلة للكلام، **والأملك:** هو الأغلب والأحق، وفى الحديث: «ملاك الدّين الورع، وملاك العمل خواتمه»[5]، **والأمر:** صيغة تقتضى الطلب للفعل على جهة الإنشاء، **والنهى:** صيغة تقتضى المنع من الفعل على جهة الإنشاء، **والمعروف:** ما عرفته العقول لحسنه وزيادته، **والمنكر:** ما أنكرته العقول، وتقضى بقبحه، **والإصلاح:** نقيض الإفساد، **والمؤاخذة:** (مفاعلة) من الأخذ، **والكبّ:** إلقاء الشىء على وجهه، **والمناخر:** هى الأنوف، وهى أعزّ ما فى الإنسان وأشرف، **والحصائد:** جمع حصيدة، وهى طرف اللسان ومستدقه، **والحصدة:** حدّ السيف، **والحفظ:** نقيض الضياع، **والحراسة:** نقيض الإهمال، **والانطواء:** هو التضمن، **والجَنان:** هو القلب، سمى جَنَانًا؛ لاستتاره بالجوانح، **والإحسان:** نقيض الإساءة، **والإحسان:** هاهنا إصلاح العمل وإخلاصه، **وعمل العبد:** ما يتعلق بالقلب والجوارح من الأفعال. **والتقصير:** نقيض الاستطالة، **والنجوى فى الآية:** هو الكلام الخفى، ويحتمل أن يراد به المراجعة فى الأمور كلها، **والصدقة:** الإعطاء، **والإصلاح:** نقيض الإفساد، فهذا ما يتعلق بمعانى الألفاظ اللغوية، والله أعلم بالصواب.

البحث الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية

فقوله: «**رحم الله**» جملة فعلية لا موضع لها من الإعراب؛ لأنه لم يسبقها كلام قبلها، و«**عبدًا**» منصوب على المفعولية لـ «**رحم**»، «**أو سكت**» معطوف على قوله، «**تكلم فغنم**»؛ لأنها كلها أفعال ماضية، وقوله: «**تكلم**» فى موضع الصفة لـ «**عبد**»، وقوله: «**فسلم**» عطف على «**تكلم**»، و«**الفاء**» للعطف المرتب المعقب، و«**أو**» للشك والتخيير.

«**إنّ اللسان أملك**»، فـ «**إنّ**»مؤكدة رافعة للأخبار وناصبة لأسمائها، و«**شىء**» مجرور بإضافة «**أملك**» إليه، و«**اللام**» فى قوله: «**للإنسان**» متعلقة بـ «**أملك**»، ويغتفر إعمال (أفعل) فى الجار والمجرور؛ لكثرته وسعته، ولا يعمل رفعًا ولا نصبًا فى المفاعيل

---

(1) فى (د،ك،م) المقول.

(2) فى (د،م) مصطلح.

(3) فى (د،ك،م) أخذ .

(4) مسند أحمد، 4/ 335.

(5) مسند الشهاب، 1/ 59. بلفظ: « فضل العلم أفضل من العبادة، وملاك الدين الورع» .

لضعفه عن العمل فيها، وينصب التمييز؛ لأنه فى معنى المجرور.

«**ألا**» حرف للتنبيه، و«**إنَّ**» مؤكدة ناصبة لما بعدها، و«**كلام**» مضاف إلى ما بعده، و«**كله**» منصوب على التوكيد يفيد الشمول والإحاطة، و«**عليه**» فى موضع رفع خبر؛ لـ «**إن**»، «**إلا ذكرًا**» منصوب على الاستثناء من الموجب، وما بعده من هذه المنصوبات عطف عليه، والجار والمجرور فى قوله: «**بمعروف**»، و«**عن منكر**» متعلقان بالمصدرين قبلهما.

قوله: «**وهل**» فى جواب[1] معاذ استفهام فى معنى التقرير. «**يُكبّ**» فعل مضارع مرفوع بالمضارعة. «**الناس**» منصوب على المفعولية. «**على مناخرهم**» جار ومجرور، يتعلقان بـ «**يُكبّ**». «**إلا حصائد**» مرفوع على الفاعلية لـ «**يُكبّ**» استثناء مفرغ عن الفاعلية، كقولك: ما قام إلا زيد. «**الفاء**» فى قوله: «**فمَن**» للاستئناف، ويحتمل أن تكون عاطفة لجملة على جملة قبلها، و«**مَن**» شرطية فى موضع رفع على الابتداء، و«**السلامة**» نصب على المفعولية لـ «**أراد**»، والخبر جوابها؛ لأنه تتم به الفائدة، وهو قوله: «**فليحفظ ما جرى به لسانه**»، و«**لسانه**» مرفوع على الفاعلية لـ «**جرى**»، والجار والمجرور فى «**به**» يتعلق بـ «**جرى**»، و«**ما**» موصولة، وصلتها جملة فعلية بعدها والعائد الضمير فى قوله: «**به**»، و«**اللام**» لام الأمر، والفعل مجزوم به، ولـ «**يحرس**» أيضًا جملة فعلية معطوفة على ما قبلها.

وقوله: «**ما انطوى**»«**ما**» موصولة، و«**جَنانه**» مرفوع على الفاعلية، والعائد الضمير فى «**عليه**». «**ولْيُحسن عمله**» جملة فعلية مجزومة بلام الأمر، و«**عمله**» منصوب على المفعولية «**ولْيُقصر أمله**» مثله فى العطف والإعراب، و(لام الأمر) فى هذه الأفعال الرواية فيها بالسكون على البناء نزلت مع (الواو) للاتصال بمنزلة تاء كَتْف[2] فى التخفيف بالسكون، كما قال تعالى: ﴿ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾[3] بالسكون، ويجوز فيها الكسر على أصل التقاء الساكنين؛ لأن (الواو) فى الأصل جىء بها ساكنة، و(اللام) ساكنة فلا جرم حركت (اللام) لما ذكرناه، وهذا كله تعسف، والأحسن أن يقال: إنما حركت بالكسر؛ لأنها فى الأصل مكسورة، فبقيت كسرتها مع حروف العطف على أصلها، وإن سكنت فعلى التشبيه عند اتصال (الواو)، و(الفاء) بتأكيد، وقد جاءت عليه القراءتان فى﴿ لِيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾[4]، فهما لغتان كما ترى، وأفصحهما السكون؛ لما فيه من الخفّة، ثم إن هذه الآية نزلت مطابقة لما قرره من كلامه هاهنا.

---

(1) فى (د) زيادة: كلام.
(2) فى (ك،م) تأكيد. ﴿وهو الأنسب﴾.
(3) سورة الحج من الآية 29 .
(4) السورة نفسها ومن الآية نفسها.

فقوله تعالى:﴿ لَّا خَيْرَ ﴾[1] مبنى مع لا على الفتح، والجار والمجرور فى قوله:﴿ فِي كَثِيرٍ ﴾[2] فى موضع رفع خبر «**لا**»، وقوله:﴿ إِلَّا مَنْ ﴾[3] فإنها موصولة، والظاهر من أمرها، ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة بما بعدها من الجمل، وفى إعرابها وجهان:

أحدهما: أن تكون مرفوعة على الخبرية، كقولك: لا رجل فى الدار إلا زيد، **وثانيهما:** أن تكون منصوبة على الاستثناء المنقطع مقدرة بـ (لكن)، كأنه قال: لا خير فى كثير لكن من أمر بصدقة ففيه الخير، وإذا كانت فى موضع رفع فلا بدّ من تقدير محذوف مضافًا إليها، كأنه قال: لا خير فى كثير إلا خير من أمر بمعروف، ويجوز أن تكون خبرًا لقوله: لا خير على المبالغة، كما فى قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾[4].

سؤال: قال فى الخبر: «أو إصلاح بين مؤمنين»، وقال فى الآية: ﴿ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[5]، فأيهما يكون أبلغ؟

وجوابه: إن الذى فى الآية عام، والذى فى الخبر خاص، والعموم هاهنا أوقع وأكثر فائدة وأعظم نفعًا وجدوى، فللّه درّ التنزيل، فما أحسن معانيه وأكثر فوائده، وأوقعه فى البلاغة، ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[6].

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم المعانى والبيان

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى

وإنما تظهر فائدتها بتتبع ألفاظ الحديث، فصدّر الحديث بلفظ الدعاء ملاحظة[7] وتقريبًا، وجاء فيها بلفظ الماضى على جهة العبودية؛ لما فيه من إفادة التواضع، وكأنه فرغ من الرحمة وحصلت لا محالة، وأتى بلفظ العبودية لما فيه من إفادة التواضع، فيكون ذلك أسرع فى قبول الدعاء وأقرب للإجابة، ثم إنه أشار إلى خصلتين نافعتين تحصل بهما السلامة، وهو الكلام الذى يغنم به الخير فى الأمور الواجبة والمستحبة، والسكوت الذى فيه السلامة عن جميع التبعات.

---

(1) سورة النساء من الآية 114.
(2) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(3) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(4) سورة البقرة من الآية 177.
(5) سورة النساء من الآية 114.
(6) سورة فصلت من الآية 42.
(7) فى (د،م) ملاطفة.

وعن بعضهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، ثم إنه أردفه بالتأكيد الوارد على جهة التعليل؛ لأن الغنيمة فى الكلام، والسلامة فى السكوت إنما كان من أجل كون اللسان أملك ما يكون للإنسان؛ لأنه أسهل الجوارح فى العمل ولا تلحقه كلالة ولا ملل، بخلاف أعمال الجوارح فإنها تلحق بها السآمة والملالة، ثم عقبه بذكر حرف التنبيه إيقاظًا للأسماع، وحثًا على الإصغاء، وتحفظًا من الغفلة، فقال: «**ألا وإن كلام العبد كله عليه**» إلا ما استثناه من هذه الخصال المحمودة، ثم إن معاذاً لما رأى شدة الوعيد فى الكلام بما لا يعنى سأل الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– فائدة، فقال: «أنؤاخذ بما نتكلم به»؟ فأجابه الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– بالشِدة فى ذلك، وأورده مورد الاستفهام، والغرض منه التقرير، فقال: «**وهل يُكبّ الناس على مناخرهم**»، وهذه حالة أعظم ما يكون من الألم، فالكبّ أولاً وهو جمع أطراف الإنسان، ثم الإلقاء على المناخر التى هى أعزّ الأعضاء وأشرفها، ثم النار، فانظر إلى ما تضمنه من المبالغة بما يحصل من الكلام من الوعيد الشديد، ثم أردفه بالدواء، والإشارة إلى ما تكون به السلامة، فقال: «**فمن أراد السلامة**» مّما ذكرناه، وأشار إلى خصال أربع: حفظ اللسان عن الرفث والكذب، وحراسة القلب عن الاعتقادات الخبيثة، والإرادات القبيحة، وحسن العمل تنزيهه عمّا يشوبه من الرياء والعجب وغير ذلك من الآفات المحبطة للأعمال، وتقصير الأمل؛ لأن به يزكو العمل ويصلح حاله، ثم لما كان صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن الهوى أنزلت الآية تصديقًا لكلامه، وتقريرًا لما قاله من الحكمة بكلامه هذا، فالكتاب والسّنّة متطابقان فى المعانى، ويتواردان على المقاصد الحسنة.

المطلب الثانى: فى بيان موقعه من علوم البيان

وتقريره يكون بإظهار ما تضمنه من الاستعارات الرشيقة والمجازات الرقيقة:

فالمجاز الأول: قوله: «**غنِم**» فالغرض **بالغنم** لما يحصل من الثواب بالكلام والأجر، وحقيقة الغنيمة ما ذكرناه.

المجاز الثانى: السلامة بالسكوت، فظاهره أن السلامة بالسكوت، فإيراد «**الفاء**» دلالة على أن السكوت سبب السلامة، وليس الأمر كذلك، فإن السكوت ربّما كان فيه العطب والهلاك.

المجاز الثالث: قوله: «**اللسان أملك شىء للإنسان**»، والمجاز فيه توجيهان:

التوجيه الأول: أن يكون المقصود أن اللسان أعظم ما يملكه الواحد منا ويقدر عليه؛ لأنه ينطق به كيف شاء من مليح، وقبيح، وردّ، وقبول، وأمر، ونهى، فالإنسان أقدر ما يكون عليه يصرفه كيف أراد.

التوجيه الثانى: عكس هذا، وهو أن يكون المراد[1] يملك الإنسان، ويحكم عليه بما يقوله وينطق به، ومصداق هذا قوله

(1) فى (د،م) زيادة: أن اللسان.

صلى الله عليه وآله وسلم: «المسؤول حرّ حتى يعد»[1] أراد أن وعده يدخله فى الرقّ، فكلا التوجهين لا غبار عليه، ومّما يؤيد ما ذكرناه من توجيه المجاز على التوجهين ما قاله بعض الحكماء: إذا تكلمت بالكلمة ملكتنى، وإذا سكت عنها ملكتها، وفى هذا دلالة على أن اللسان يملك الإنسان، ويملكه الإنسان على التقرير الذى لخصناه.

المجاز الرابع: إطلاق العموم فى «**كل**»، والمراد به الخصوص، وقوله: «**عليه**» هو مجاز؛ لأن العلو حقيقة لا وجه له هاهنا.

المجاز الخامس: قوله: **المعروف والمنكر** فإنهما مجازان، فإن المراد **بالمعروف** ما طابق العقل والشرع، والمراد **بالمنكر** ما كان مخالفًا للعقل والشرع، فوضعهما مخالف لمفهومهما، فلا جرم كانا مجازين.

المجاز السادس: مجاز الإفراد، وهو قوله: «**حصائد ألسنتهم**»، وله توجيهان:

التوجيه الأول: أن حصيدة اللسان مستدق طرفه، وهى مستعارة من حصيدة السيف، وهى حدّه، فلما كان الكلام يجرح ويؤلم لاجرم استعير له، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ **سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾[2]، وقول من قال:

وَكَلْمُ السَّيْفِ تَدْمِلُهُ فَيَبْرَى ... وَكَلْمُ الدَّهَر مَا جَرَحَ اللِّسَانُ[3].

التوجيه الثانى: أن المراد بحصائد الألسنة ثمارها، فهذا[4] هو الذى ذكره المنصور بالله، وقال: إن هذا من جملة الاستعارة الفصيحة، وهو جعل الكلام زرعًا للسان[5]، وهذا فإن كان محتملاً لكنه مجاز بعيد، والمجاز البعيد مع المجاز القريب كالمجاز مع الحقيقة، فلأجل هذا كان حملة ما ذكرناه أليق وأحسن.

المجاز السابع: مجاز التركيب، وهو إسناد **الكبّ** إلى **الحصائد**، فليس مضافًا إليها إلا على جهة المجاز لا غير، فصار مركبًا كما ترى، وهكذا إضافة الأفعال المذكورة إلى **اللسان والجنان**، فإنهما مجازات مركبة؛ لأنها غير فاعلة على الحقيقة، وإنما الفاعل هو الجملة، وهو محتمل لمجازات أكثر ممّا ذكرناه، ولكن ما ذكرناه يدل على ما لم نذكره.

المطلب الثالث: فى بيان ما احتوى عليه من علم البديع

---

(1) ورد للإمام على كرم الله وجهه. ينظر: نهج البلاغة، 534.

(2) سورة الأحزاب من الآية 19.

(3) البيت من الوافر، وقد ورد ولم ينسب لقائل معين، ونصّه:

وَجُرْحُ السّيْفِ يَدْمِلُهُ فَيَبْرَا ... وَيَبْقى الدّهَرَ مَا جَرَحَ اللّسَانُ.

ينظر: البيان والتبيين، 1/ 167. لسان العرب، مادة (دمل). ملامح يونانية فى الأدب العربى، د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، عام 1977م، بيروت، لبنان، 139.

(4) فى (د،م) الواو بدلاً عن الفاء.

(5) ينظر: حديقة الحكمة النبوية، 92.

وقد اشتمل على أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: التسجيع

وهذا كقوله: «**تكلم فغنم، أو سكت فسلم**»، وقوله: «**إن اللسان أملك شىء للإنسان**».

الصنف الثانى: الطباق

وهذا كقوله: « **تكلم**»، و«**سكت**»، فإنهما طباق، **والأمر**، **والنهى** طباق، **والمعروف**، **والمنكر** طباق.

الصنف الثالث: الاقتباس

وهو إيراد الآية مقررة لما قبلها، **والاقتباس:** هو إيراد الكتاب الكريم والسنّة الشريف فى أول الكلام وآخره ووسطه مطابقًا لمعانيها، فإذا ورد فى الخطب والأمثلة والكتب على جهة التقرير والتأييد سُمى ذلك اقتباسًا للوجه الذى أشرنا إليه.

النظر الثالث: فى الإشارة إلى مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

أراد بالكلام الذى يغنم هو قراءة كتاب الله تعالى، ودراسة السنّة الشريفة، وذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد والتمجيد، وذكر الملائكة والأنبياء والأئمة والصالحين بالثناء والإجلال والتعظيم والأمر بالطاعة والنهى عن المعاصى مع القول بالحقّ فى جميع ما افترض الله على عباده، فأما الكلام فيما يعينه[1] من معاملة دنياه، وتحصيل أسباب المعاش ومكاسب الحلال، فهو يكون على أوجه ثلاثة:

أولها: أن يكون واجبًا، وهو الكلام فى إصلاح حاله وحال من يمونه من الزوجات والأولاد الصغار والعبيد والإماء.

وثانيها: أن يكون مندوبًا، وهو ما كان الكلام فيه قربة فى تحصيله.

وثالثها: أن يكون مباحًا، وهو كل ما كان الكلام فيه خاليًا عن الوجهين الأولين، وقد يكون الكلام فيه محظورًا، وهو إذا أريد به المكاثرة والرياء والسمعة، فلا يخلو الكلام عمّا ذكرناه فى هذه الأوجه والصمت عن أكثر الكلام أفضل، ومصداق ذلك قوله عليه السلام: «من صمت نجا »[2]، وفى حديث آخر: «الصمت حكم وقليل فاعله»[3].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن اللسان أملك شىء للإنسان**» أراد أنه[4] أعظم أعضاء ابن آدم، وهو السفير للقلب،

---

(1) فى (ك) يعنيه.
(2) سنن الترمذى، 4/ 660.
(3) مسند شمس الأخبار، 1/ 507.
(4) فى (د،م) به.

وبه تقع المحاورات، والمجادلات والوعظ والطرب واللهو والأمر والنهى والوعد والوعيد والغيبة والنميمة والتهدد والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فخطره واسع، وحواشيه كثيرة، وقد قيل: رُب قول أنفذ من صول، وسُمى الكلام كلامًا؛ لأنه يكْلم القلوب أىْ: يجرحها بوقعه، ورُب كلمة تنبت[1] مجدًا طويلاً، ورُب كلمة أورثت ذلاً طويلاً، وربّما قيل: المرء مخبوء تحت لسانه، وهو أطيب الأشياء إذا طاب، وأخبثها إذا خبث.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا وإن كلام العبد كله عليه إلا ذكرًا لله، أو أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو إصلاحًا بين مؤمنين**»، فالمعنى أن ما عدا هذه الأمور الأربعة فإن العبد مؤآخذ به، ومكتوب عليه، **وأما** هذه فهى مكتوبة له؛ لأنها لا تنفك عن الوجوب، والندب، وكلاهما يقصد للثواب، ونحن نشير إلى فضل هذه الأنواع الأربعة.

النوع الأول: منها ذكر الله تعالى، فإنه أصل الإيمان وقاعدته، وقد قال تعالى: ﴿ **فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ** ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ** ﴾[3]، وقال تعالى:﴿ **أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ** ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ **فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ** ﴾[5]، ﴿ **وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ** ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على فضل الذكر، وقال عليه السلام: «من قعد فى مصلاه الذى صلى فيه الفجر يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس كان له من الأجر كالحاج إلى بيت الله»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ أفضل منه»[8].

النوع الثانى: الأمر بالمعروف، وهو من جملة الواجبات على الكفاية، والأمر بالواجب واجب وبالنفل نفل؛ لأن الأمر لا يكون أعلى حالاً من المأمور به، فإن أخلّوا بما أمروا به من هذه الواجبات على الكفاية، فهل يعمهم الإثم والحرج أم لا؟

فيه تردد، والمختار أنه إنما يلزم الحرج من يتصور منه القيام بذلك المأمور به دون غيره، فيخرج عن هذا النساء والشيوخ والضعفاء الذين لا قدرة لهم ولا حيلة، ويدخل من عداهم فى الإثم إذا تركوا.

---

(1) فى (ك) بنت.
(2) سورة البقرة من الآية 152.
(3) سورة العنكبوت من الآية 45.
(4) سورة الرعد من الآية 28.
(5) سورة البقرة من الآية 239.
(6) السورة نفسها من الآية 198.
(7) تيسير المطالب، 474.
(8) صحيح مسلم، 4/ 2067. بلفظ: «يقول الله: أنا عند ظن عبدى وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه».

النوع الثالث: النهى عن المقبحات، وهو أيضاً من الواجبات على الكفاية، لكن المأمورات تخالف المنهيات، و[1]المقصود فى المأمورات الإتيان بها على الوجه الذى يخرج به عن عهدة الأمر بالحبس والضرب دون القتل، بخلاف المنهيات فإن المقصود منها هو الانكفاف عن ملابسة المنهى عنه، ولو أدّى إلى القتل جاز ذلك، وهذه التفرقة أمر شرعى.

النوع الرابع: الإصلاح بين الخلق فيما يجرى بينهم من المشاجرات، فإن هذه الأمور الثلاثة كلّها واجبة على الكفاية.

تنبيه: واعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هما من أجلّ قواعد الدّين، وعليهما استدارت رحى الإسلام، وجرت الأحكام الشرعية على أتمّ نظام، وقوضت قواعد الكفر بعد رسوخها، وكسرت أنف النفاق بعد شموخها، وزلزلت بنيانه، وتضعضعت أركانه، وقد نوّه الله بقوم ضيعوه، وأهملوه، فقال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[2]، وأعظم هذه القواعد جرياناً، وأجزلها ثوابًا، وأرفعها شأنًا الجهاد، فإن فيه رفع شنار الدّين وظهور مناره، وبه محو الكفر وتعفيه آثاره.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فمن أراد السلامة فليحفظ ما جرى به لسانه**[3]» أراد **بالسلامة** عمّا تقدم من الوعيد، فإن كل من أرسل لسانه كبّه الله على منخريه فى النار، **وحراسة** اللسان هو أن لا يخرج منه ما يكون عليه فيه تبعة، ولا يسكت عما يكون واجبًا عليه، فالكلام فى الحقّ خير من السكوت، والسكوت عن الباطل خير من الكلام.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**وليحرس ما انطوى عليه جنانه**»، وأراد بالحراسة هو أن لا يدع شيئًا من الباطل يدخله ويلج فيه، وينزّهه عن سائر الاعتقادات القبيحة، والإرادات الخبيثة، والعزوم السيئة، والظنون الكاذبة، فإن هذه الأمور كلها محلّها الجنان، وهو سلطان الجوارح وأميرها، وبإصلاحه يستقيم أمرها ويتسق تدبيرها، وفى الحديث: «حراسة العمل أشدّ من العمل»[4]، وفى حديث آخر: «إن فى ابن آدم بضعة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهى القلب»[5]، فالواجب على العاقل حراسة قلبه بلبه، واستصغار فعله، واستكثار ذنبه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وليُحسن عمله، وليُقصر أمله**» **تحسين العمل:** إخلاصه لوجه الله تعالى عن الرياء

---

(1) فى (د،ك،م) الفاء بدلاً عن الواو.

(2) سورة المائدة من الآية 79.

(3) فى (د،ك،م) زيادة: وليحرس ما انطوى عليه جنانه.

(4) شعب الإيمان، 5/ 328. بلفظ: «الإبقاء على العمل أشد من العمل».

(5) صحيح البخارى، 1/ 28 . صحيح مسلم، 3/ 1219. بلفظ: «وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

والعُجب وسائر الآفات المحبطة للأعمال، **وتقصير الأمل:** أصل لكل نجاة، وسبب لكل سعادة[1]، وبه تحصل تزكية الأعمال، والإيصال إلى كل غاية من الآمال، وفى الحديث: «من كان يأمل أن يعيش غدًا فإنه يأمل أن يعيش أبدًا، ومن كان يأمل أن يعيش أبدًا فإنه يقسو قلبه»[2]، فرحم الله امرأ جعل أمله خلف ظهره، وأجلّه بين عينيه، فبادر هجومه، وحاذر لزومه قبل أن يضرب على الأعناق بخيط الخناق.

قاعدة: وبها يتم الكلام فى أسرار هذا الحديث: اعلم أنه عليه السلام قد أشار فى هذا الكلام إلى حفظ اللسان وحراسة القلب، وذلك نوع من المحاسبة والمراقبة، فلنذكر ما يتعلق بهما، وذلك يشتمل على طرفين:

الطرف الأول: فى المراقبة

واعلم أن حقيقة **المراقبة**، هى ملاحظة الرقيب، وانصراف الهمة إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقبه ويراعى جانبه، ونعنى بهذه المراقبة حالة للقلب تثمر المعرفة، وتثمر أعمالاً فى الجوارح والقلوب، أما حالة **القلب**، فهى مراعاة الرقيب واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، فإذا حصلت هذه الحالة أثمرت المعرفة بأن الله يطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، فهذا هو مرادنا بالمراقبة، فإذا عرفت هذا، فلنذكر فضلها، ثم نردفه بذكر درجاتها، فهذان تقريران:

التقرير الأول: فى بيان فضلها

فقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ** ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ **أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ** ﴾[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه يراك»[6]، وقال: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ** ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ** ﴾[8]، وعن بعض مشائخ الطريق أنه قال: المراقبة مراعاة السرّ لملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة، وعن بعضهم: اجعل مراقبتك لمن لا يغيب

---

(1) فى (د،ك،م) مسعاة.

(2) تيسير المطالب، 577.

(3) سورة النساء من الآية 1.

(4) سورة العلق الآية 14.

(5) سورة الرعد من الآية 33 .

(6) حلية الأولياء، 8/ 202 .

(7) سورة المؤمنون الآية 57.

(8) سورة البينة من الآية 8.

عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عليك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه، وسُئل بعضهم عن معنى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾[1]، فقال: ذلك لمن راقب ربَّه- جلّ وعزّ-، وحاسب نفسه، وتزود لمعاده، وعن بعضهم: يقول الله تعالى: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا همّوا بالمعاصى ذكروا عظمتى[2] فراقبونى، والذين انثنت أصلابهم من خشيتى، وعزّتى وجلالى، إنى لأهمّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب، وعن بعضهم: عليك بالمراقبة ممّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممّن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة

التقرير الثانى: فى بيان درجاتها، ولها درجتان:

الدرجة الأولى: درجة المراقبة للمتورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله عليهم على ظواهرهم وبواطنهم، وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة، وقد غلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن ملابسة ما كانوا يفتضحون به فى القيامة؛ لأنهم يرون الله تعالى مطلعًا على قلوبهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة بحال.

الدرجة الثانية: درجة المقربين من الصديقين، وهى مراقبة الإجلال والتعظيم، وهى أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الحال ومنكسرًا تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى ما وراءه، وهذه حالة من قد صار همّه همًّا واحدًا، فكفاه الله سائر الهموم، ومن نال هذه الدرجة، فقد غفل عن الخلق نهاية الغفلة، واشتغل بنفسه حتى لا يخطر بباله شىء سوى الله عزّ وعلا.

الطرف الثانى: فى بيان المحاسبة

ونذكر فضلها، ونذكر توبيخ النفس، **أما** فضلها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾[5]، وقال عليه السلام، وقد سأله رجل أن يوصيه، فقال له: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدًا فأمضه، وإن كان

(1) السورة نفسها ومن الآية نفسها .
(2) فى (د) غضبى.
(3) سورة الحشر من الآية 18 .
(4) سورة التكوير الآية 14 .
(5) سورة الانفطار الآية 5 .

غنيًا فاته عنه»[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾[2]، فهذه الآيات والأخبار كلها التى تلوناها دالة على فضل المحاسبة؛ لما فيها من النفع فى الدين والسلامة فى الآخرة.

وأما توبيخها على تقصيرها، فكل من حاسب نفسه عن مقارفة المعاصى، وارتكاب التقصير فى حقّ الله تعالى، فلا ينبغى أن يهملها، فإنه إن أهلمها سهل عليه ارتكاب المعاصى، وأنست النفس بها، وعسر فطامها عنها وإن كان ذلك سببًا لهلاكها، بل ينبغى أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة حراما ينبغى أن يعاقبها بالجوع، وإذا نظر إلى محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر، وهكذا يفعل فى المعاقبة لكل طرف من أطرافه بمنعها عن شهواتها، وقد حُكى عن بعض الزهاد: أنه نظر يومًا إلى امرأة، فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول عمره، فكان لا يشرب إلا الماء الحار؛ عقوبة لنفسه[3]، وعن بعضهم: أنه نظر امرأة فرفع كفّه، ولطم عينه فخرجت[4]، وحُكى عن بعضهم: أنه مرّ بغرفة، فسأل عنها، متى بنيت؟ فقال لنفسه: تسألين عمّا لا يعنيك، وعاقب نفسه بصوم سنة كاملة، فهذه جملة ما أردنا ذكره من المراقبة والمحاسبة؛ لما كان الحديث متضمنًا لهما بظاهره، وهما يحتملان كلامًا أكثر مّما ذكرناه، لكن ما أوردنا ذكره كافٍ فى مقدار غرضنا.

---

(1) أخرجه هناد عن ابن مسعود. كنز العمال، 15/ 335.

(2) سورة الأعراف الآية 201.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 406.

(4) ينظر: نفسه، 4/ 406.

الحديث العاشر

عَن أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِى[1] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلّى اللهُ عَلَيْه وَآلِه وَسَلّمَ- : «**لاَ تَسُبُّوا الدُّنْيَا فَنِعْمَتْ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ، إِنَّهُ إذا قَالَ الْعَبْدُ: لَعَنَ اللَّهُ الدُّنْيَا، قَالَت الدُّنْيَا: لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ**»[2] .

قَالَ السَّيِدِ الشَّرِيفِ[3]: فَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى بَعْضُهُمْ، فَقَالَ:

يَقُولُــــــونَ الزَّمَــــــانُ بِــــــهِ فَـــــسَادٌ وَهُـــمْ فَـــسَدُوا وَمَـــا فَـــسَدَ الزَّمَـــانُ[4] .

فنقول: الحمد لله المسبح بصفات[5] الجدّ والجلال، المقدس بأنواع التمجيد، والبعيد[6] عن مضاهاة الأمثال، المنزّه عن مشاكلة المقادير والأشكال، الموصوف بالعزّة والكبرياء والجبروت وشدّة المحال، الخالق للإنسان من الطين اللازب والصلصال، والمكمل لصورته فى أحسن تقويم، وأتمّ اعتدال، العاصم لقلبه بنور الهداية عن اقتحام ورط الضلال، المستحق للعبادة، والقيام بالخدمة من عباده بالغدو والآصال، الذى جعل الدنيا متجرًا لعباده[7] بالأعمال الصالحة، ومعبرًا للوصول إلى إحراز التجارات الرابحة، ثم كحل بصائر المخلصين من عباده بأنوار توفيقه، فأبصروا ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال، ثم انكشف لهم باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزى، وضربت فى قالب النكال، وتلفعت بجلبابها؛ لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، ونصبت حبائلها فى مدارج الرجال، فهى تقتنصهم بضروب حبائل المكر والاغتيال، فلما انكشفت للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها، فتركوا التفاخر فيها، والتكثر[8] بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم

---

(1) وهو عبد الله بن قيس بن سليم، من قحطان، وُلد بزبيد، وأسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة، وعاد والرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- بخيبر، توفى سنة 44هـ. ينظر: الاستيعاب، 4/ 1762، 1762. الأعلام للزركلى، 4/ 114.

(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 23.

(3) وهو الشريف الرضى محمد بن الحسين بن موسى الكاظم، أشعر الطالبيين، مولده سنة 359هـ ببغداد، ووفاته فيها سنة 406هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 414 . الأعلام للزركلى، 6/ 99.

(4) البيت من الرمل، ونُسب هذا البيت لأبى مياس الشاعر. ينظر: العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى، دار إحياء التراث العربى، ط3، عام 1999م، بيروت، لبنان، 2/ 176. ولم يقف الباحث له على ترجمة فيما بين يديه من المصادر والمراجع. وفى (د) سقط: قَالَ السَّيِدِ الشَّرِيفِ: فَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى بَعْضُهُمْ، فَقَالَ:

يَقُولُــــونَ الزَّمَــــانُ بِــــهِ فَـــسَادٌ وَهُـــمْ فَـــسَدُوا وَمَـــا فَـــسَدَ الزَّمَـــانُ.

(5) فى (د) بصفة.

(6) فى (د) التعبد .

(7) فى (د،ك،م) لأوليائه.

(8) فى (د) التكاثر.

على تركها غاية الإقبال، واثقين بما يحصل بتركها من نعيم ووصال ليس دونه فصال.

والصلاة على المخصوص بأحسن الفضائل، والمبعوث خاتمًا لجميع الرسائل، وعلى آله الطيبين الموضحين لأحكام الدّين، والسالكين مسلك الإيضاح لسنن المرسلين، واعلم أن هذا الحديث على اختصاره، وتقاصر حجمه، وأطرافه مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة:

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

فالسبّ: هو الذمّ، والقول الشنيع، **والدنيا:** هى أوقات التكليف، **ونِعم:** من أفعال المدح، **والمطيّة:** ما يركب ظهره من البهائم، **والظهر:** مطاة، هذا فى أصل اللغة، ثم صار فى عرف اللغة: عبارة عمّا يركب من الإبل، حتى لايقال للفرس مطيّة، كما كان فى الأصل الدابة اسم لكل ما يدبّ، حتى الذبابة، ثم تعورف فيه على ذوات الأربع من البهائم عليها يبلغ الخير، **والشر والخير:** نقيضان، **والخير:** ما طابق النفوس، **والشرّ:** ما نافرها. **اللعن:** هو البعد من كل شىء، ثم صار فى الشرع: إبعاد عن الرحمة والمغفرة، **والمعصية:** هى المخالفة. **البلوغ:** هو الوصول إلى الغرض، **والنجاة:** هى السلامة والبعد عن الشرّ. **المؤمن:** قد فسرناه فيما مضى وذكرنا معناه اللغوى والشرعى.

المطلب الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم الإعرابية

فـ «**لا**» هاهنا للنهى، والفعل[1] مجزوم بها وعلامة جزمه طرح نون الإعراب، و«**الواو**» هى الفاعلة، والضمير يفسره شاهد الحال، وحاله الخطاب.

«**الدنيا**» منصوب على المفعولية، والجملة الفعلية لا موضع لها من الإعراب؛ لأنها مصدرة لا شىء فيها من العوامل، ومن حقّ المعمول أن يكون متأخرًا على عامله.

«**نعم**» فعل غير متصرف دال على المدح، وإنما ترك تصرفه إيذانًا بكونه موضوعًا للإنشاء فى المدح وليس خبرًا؛ لأنه غير محتمل للصدق والكذب، فلا جرم كان موضوعًا للإنشاء، كالأمر والنهى، و«**مطية**» مرفوع على الفاعلية لـ «**نِعم**»، و«**التاء**» للتأنيث؛ لأن

---

(1) المراد هو الفعل: تسبوا.

موضوعها على الفعلية، ولا بدّ لها من فاعل، ومخصوص بالمدح، ففاعلها هو ما ذكرناه، ولا بدّ فى فاعلها من أن يكون باللام أو مضافاً إلى ما فيه اللام، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: نعم مطية المؤمن هى، كما حذف فى قوله تعالى فى قصة أيوب: ﴿ **نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ** ﴾[1] أىْ: نعم العبد هو، وقد يحذف الفاعل كما فى قوله تعالى: ﴿ **فَنِعِمَّا هِيَ** ﴾[2] أىْ: فنعم الصدقة هى، ولا يحذف الفاعل إلا إذا كان هناك تمييز يفسره، كقوله: نعم رجلاً زيد .

«**عليها يبلغ الخير**» جملة فعلية، والفاعل مضمر، و«**الخير**» مفعول، والجار والمجرور فى موضع المفعول. «**وبها ينجو من الشرّ**» جملة فعلية ثانية، و«**مِن**» لابتداء الغاية، ولا موضع لهذه الجمل من الإعراب، ويحتمل أن تكون منصوبة على الحال من «**مطية المؤمن**»، كقولك: نعم الرجل زيد يفعل الخير ويترك الشر، وكقولك: نعم الرجل قائمًا زيد .

«**إنه إذا قال العبد**»، الضمير فى «**إنَّ**» للشأن، والجملة الشرطية بـ «**إذا**» هى المفسرة له، وهو فى موضع نصب بـ «**إنَّ**»، والجملة فى موضع رفع خبر لـ «**إنَّ**». «**العبد**» مرفوع على الفاعلية لـ «**قال**»، واسم «**الله**» مرفوع على الفاعلية[3]. «**الدنيا**» منصوبة على المفعولية.

«**قالت الدنيا**» جواب الشرط فى «**إذا**»، وهو العامل فيها «**أعصى**»[4] هو أفعل التفضيل، كقولك: زيد أفضلنا، وهو فى موضع نصب على المفعولية، والجار والمجرور نصب بـ «**أعصانا**».

فأما البيت الذى أنشده **الشريف**، فلنذكر إعرابه، وموضع الشاهد منه، أما إعرابه، **فيقولون:** فعل مرفوع على المضارعة، **والزمان:** مرفوع على الابتداء، **وبه فساد:** جملة ابتدائية، وإنما ابتدأ بالنكرة؛ لما تقدم خبرها، كقولك: فى يدى سيف، **وهم فسدوا:** جملة ابتدائية، **والواو:** هى الفاعلة، وقوله: **وما فسد الزمان:** جملة سلبية لا موضع لها من الإعراب، ويحتمل أن تكون منصوبة على الحال كقولك: جاء زيد والشمس طالعة، **والواو:** كافية عن الضمير، وأما موضع الشاهد منه، فإنما أورده تصديق لمقصود الحديث ومطابقة لمعناه، وكان عليه السلام يعجب بالأشعار الدالة على التوحيد، كقول لبيد[5]:

---

(1) سورة ص من الآية 30.

(2) سورة البقرة من الآية 271.

(3) فى (د) سقط: لـ «قال»، واسم «الله» مرفوع على الفاعلية.

(4) فى (د) أعصانا .

(5) وهو لبيد بن ربيعة العامرى، أبو عقيل، قدم على النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– سنة وفد قومه بنو جعفر بن كلاب، فأسلم وحسن إسلامه، وهو من أهل عالية نجد، كان أحد الشعراء الفرسان فى الجاهلية، وأحد شعراء المعلقات السبع، سكن الكوفة، وتوفى سنة 41هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1335 . معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين، عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 1421هـ، عمان، الأردن، 357 .

أَلاكُــلُّ شِــــىْءٍ مَــــا خَـــلا اللهَ بَاطِــــلُ[1]

وقال: «إن من الشعر لحكمة وبيانًا»[2].

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم المعانى والبيان والبديع

ويتضمن مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: فى تقرير ما تضمنه من العلوم المعنوية

صدّر الحديث بالنهى عن السبّ للدنيا، وأردفه بالمدح على جهة التعليل، كأنه قال: **لا** تسبوها؛ **لأنها** نعم المطية للمؤمن، **والمطية**: ما يُمتطى ظهره للركوب، ثم عقبه بـ «**على**» دلالة على الاستعلاء، وقدمه على العامل على جهة الاهتمام، **وبلوغ الخير**: هو الجنة، و«**بها**» أيضًا مقدم على عامله للاهتمام أيضًا، و«**الخير**» هو الجنة؛ إذ لا خير أعظم من خير الآخرة وهو الجنة، ولا شرّ أعظم من شرّ الآخرة وهو النار.

«**إن العبد**» جملة مؤكدة واردة على جهة الفصل من غير (واو)، وقوله: «**لعن الله**» هى الجملة المقولة، وقوله أيضًا: «**قالت: لعن الله**» هى الجملة المقولة أيضًا، وأفعل التفضيل يرد على وجهين:

أحدهما: أن يكون واردًا على جهة المشاركة، وهو الأكثر المطرد فى استعماله، كقولك: زيد أفضل من عمرو.

وثانيهما: أن يرد على الانفراد دون الاشتراك، كقولك: العسل أحلى من الخلّ، ليس الغرض أنهما اشتركا فى الحلاوة، وزاد عليه العسل، ولكن الغرض انفراد العسل بالحلاوة واستبداده بها، فإذا تمّ ذلك، فقوله: «**أعصانا لربه**»، إنما هو دال على الانفراد دون المشاركة، وليس يتعقل من جهة الدنيا عصيان، وإنما الغرض ما قلناه من الانفراد، كأنه قال: لعن الله العاصى منهما، ومنه قوله عليه السلام: «ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ، وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة أساوؤكم أخلاقًا الثرثارون والمتفيهقون»[3]، فأراد المختصين بالبغض، والبعد دون المشاركة.

---

(1) البيت من الطويل، وعجزه: وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ. ينظر: شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى، حققه وقدم له د. إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، عام 1962م، الكويت، 256.

(2) سنن ابن ماجة، 2/ 1235. بلفظ: «إن من الشعر لحكمة».

(3) مسند أحمد، 4/ 193. بلفظ: «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى فى الآخرة مجالس محاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى فى الآخرة مساوئكم أخلاقًا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون».

المبحث الثانى: فى بيان ما تضمنه من علوم البيان

وهو مشتمل على مجازات:

المجاز الأول: منها «**مطية المؤمن**» استعارة للدنيا، فإنا راكبون لها، وهى تسير بنا، ولو كنا واقفين كما تسير المطية.

المجاز الثانى: قوله: «**عليها**»، فإن «**على**» للاستعلاء، وهو من باب توشيح الاستعارة، فلما ذكر **المطية**، وهى ممّا يعلى ذكر الحرف الدال على الاستعلاء، فصار توشيحًا، كما قال تعالى: ﴿ **ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ** ﴾[1]، فلما ذكر **الشراء** أردفه **بالربح** توشيحًا.

المجاز الثالث: قوله: «**بها**»، فإن «**الباء**»، إنما حقيقتها للإلصاق، ولا إلصاق هاهنا، وإنما هو مجاز.

المجاز الرابع: قوله: «**قالت الدنيا: لعن الله**»، فإن مقالتها إنما كان بلسان الحال، وهو مجاز[2]، نظيره ما يحكى عن العرب: قال الجدار للوتد لم تشقنى؟ فقال: سلْ من يدقنى[3]، فكلّه إنما هو بلسان الحال كما قررناه.

المبحث الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع

وقد اشتمل على: الطباق، وهو ذكر الخير والشر، وهذا الحديث على تقارب أطرافه وقلة ألفاظه قد اشتمل على البلاغة التامة، وقد ذكرنا من قبل أن الاقتباس من علم البديع، وكما يرد فى الآيات القرآنية، وفى الأخبار الشريفة النبوية فقد يكون واردًا فى الأبيات الشعرية، فإذا ورد البيت الشعرى مطابقًا للكلام موافقا لمعناه كما ورد هذا البيت الذى أورده الشريف على جهة المطابقة لما دل عليه الحديث، فإنه لا محالة معدود فى الاقتباس.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده عليه السلام

فإنما نهى عن سبّ الدنيا لأمرين:

أما **أولاً**، فلأنها لا تستحق سبًّا ولا لعنًا، فإنه لا جرم لها، وإنما الجرم لما[4] خرج عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله

---

(1) سورة البقرة من الآية 16.

(2) فى (د،ك،م) زيادة: الواو.

(3) إحياء علوم الدين، 1/ 103.

(4) فى (د،ك،م) لمن. ﴿وهو المناسب﴾.

بالكفر والفسوق، وحاد الله ورسوله، وأما **ثانيًا:** فلأنه لا ثمرة لسبّها، ولا فائدة فيه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فنعمت مطيّة المؤمن عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشرّ**»، والمعنى فى هذه الاستعارة البليغة، أنَّا على ظهرالدنيا مستقرين عليها كاستقرار الراكب على المطيّة، وهى الراحلة، فصارت قاعدة لمهادنا، وحاملة لأثقالنا، ومقرًّا للأحياء والأموات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾[1] أراد أنها تكفت الأحياء فى البيوت والأموات فى القبور، فنحن مستقرون على ظهرها حتى نلقى ربنا نياما وأيقاظًا وناسين وحفّاظًا، فخاسر ورابح، وصالح وطالح، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[2]، فإن جعلنا بضاعتنا إلى سوق الآخرة التقوى كثرت أرباحنا، وظهر فلاحنا وعظم نجاحنا، وإن كانت بضاعتنا، والعياذ بالله النيات الفاسدة، والآمال الكاسدة عظم الخسار، وظهر البوار، وكثر التبار، وضلت الحيل، وانقطع الأمل، ولات حين مناص، ولا رجوع ولا خلاص، فنسأل الله توفيقًا يقودنا إلى رضوانه، ونفوز بجواره فى جنانه.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليها يبلغ الخير**» أراد بالخير هاهنا الجنة، وأراد بالشرّ هو النار، وهذه صفة المؤمن حقًّا، فإنها دار تجارته، ومحلّ بضاعته[3].

سؤال: أراه فصل بين الحرفين، فعدّى «**يبلغ**» بـ «**على**»، وعدّى «**ينجو**» بـ «**الباء**»، وما السرّ فى ذلك؟

وجوابه: هو أن بلوغ الخير إنما كان بالإسلام والإيمان وسائر الأعمال الصالحة، وهذه عالية على كل شىء، كما قال عليه السلام: «الإسلام يعلو ولا يُعلى»[4]؛ لأنه إنما يصل إلى الجنة بما ذكرناه، والمعاصى دنية[5]، وإنما ينجو من النار بسببها فهو الانكفاف عن المعاصى، وليس هناك ما يوجب العلو، فلا جرم فصل بين الحرفين إشارة إلى ما قلناه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن العبد إذا قال: لعن الله الدنيا. قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه**»، واعلم أن ذم الدنيا يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون مكروهًا، وهذا نحو أن تذم الدنيا على أنها لولاها لما عصينا الله تعالى ولا أغضبناه؛ لأن زينتها وزخرفها هو الذى حملنا على ذلك وافتتنا بها، فهذا لا محالة يكره ويكون مذمومًا من الله تعالى بلسان المقال، ومن الدنيا بلسان

---

(1) سورة المرسلات الآيتان 25، 26.

(2) سورة التغابن من الآية 2.

(3) فى (د،ك،م) طاعته.

(4) صحيح البخارى، 1/ 454.

(5) فى (د،ك،م) سقط: والمعاصى دنية.

الحال، ويؤيده ما روى أنّ عليًا- عليه السلام- سمع رجلاً يذم الدنيا، فقال له: يا هذا أنت المجترم على الدنيا أم هى المجترمة عليك؟! أغرتك بمصارع آبائك على الدنيا أو بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ ![1] فما هذا حاله يذم ولا يحمد.

وثانيهما: أن يكون ذمّها على غير هذا الوجه على معنى أن أيامها منقطعة، ولذاتها فانية، وهذا قد أشار الله إليه تعالى بقوله: ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ﴾[5].

وقوله: «**لعن الله أعصانا لربه**» فيه غاية الإنصاف؛ لأن كل من عصى فهو مستحق للعقاب من جهة الله تعالى، واللعن والطرد كما قال حسان بن ثابت[6] فى جوابه لابن الزبعرى[7] لما هجا رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ   فَشَرُّكُما لِخَيرِكُمَا الفِداءُ[8].

فقال أهل البلاغة: أنصف بيت قالته العرب بيت حسان هذا[9]، وهكذا مقال[10] الدنيا بلسان الحال، فيه غاية الإنصاف لمن لعن الدنيا، ولو قالت الدنيا: لعن الله من لعننى لكان ذلك جزافًا لا وجه له، فلما قالت هذه المقالة عرف بها مقصد الإنصاف، فهذا ما أردنا ذكره فى شرح هذا الحديث الذى كانت ألفاظه قليلة، ومعانيه كثيرة غزيرة، كما ترى، ونختم الكلام فى هذا الحديث بذكر ماهية الزهد، وفضله، ودرجاته، فهذه مقامات ثلاثة:

المقام الأول: فى بيان ماهية الزهد

---

(1) تيسير المطالب، 507.

(2) سورة العنكبوت من الآية 64.

(3) سورة التوبة من الآية 38.

(4) سورة الحديد من الآية 20.

(5) سورة الكهف من الآية 45.

(6) وهو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجى الأنصارى، شاعر الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- وأحد المخضرمين، لم يشهد مع الرسول مشهدًا، توفى بالمدينة سنة 54هـ. ينظر: الإصابة، 2/ 62- 64. الأعلام للزركلى، 2/ 175، 176 .

(7) وهو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمى القرشى، كان من أشعر قريش، وكان شديدًا على المسلمين، ولما فتح الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- مكة هرب إلى نجران، ثم عاد إلى مكة وأسلم. ينظر: الإصابة، 4/ 87.

(8) البيت من الوافر، والبيت ثابت فى ديوان حسان بن ثابت. ينظر: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، وضعه وضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقى، دار الكتاب العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 61.

(9) ينظر: الوافى بالوفيات، 11/ 273.

(10) فى (د،ك،م) مقالة.

واعلم أن الزهد مقام شريف، وهو من أعظم مقامات السالكين طريق الآخرة، وتنتظم ماهيته ببيان أمور ثلاثة: **الحال، والعلم، والعمل**، أما **الحال**، فنعنى به ما يسمى زهدًا، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شىء إلى غيره فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدًا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة، وعلى هذا يكون كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضًا زاهد فى الآخرة، ولكنه لا يسمى زاهدًا؛ لأن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد على من يزهد فى الدنيا، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن الزهد عبارة عن رغبة العبد عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، وعن غير الله عدولاً إلى الله، وهذه هى الدرجة العليا، ولا بدّ فى الزهد من اعتبار شرطين:

أحدهما: أن يكون المرغوب إليه أحبّ من المرغوب عنه حتى يقال: إنه إذا تركه كان زاهدًا، فلا يكون الزهد فى الدنيا حتى تكون الآخرة أحبّ إليه من الدنيا .

وثانيهما: أن يكون المرغوب عنه مقدورًا عليه، فمن ترك الدنيا لعجزه عن تحصيلها لم تقل إنه زاهد، ولهذا قيل لبعض الصالحين: يا زاهد، فقال: إنى لست زاهدًا، وإنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز حيث جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا فبماذا أزهد ؟ !

وأما **العلم** الذى يبيّن هذه الحال، فهو العلم بكون المتروك حقيرًا، بالإضافة إلى المأخوذ ، وكل من عرف أن ما عند الله باقٍ، وأن الآخرة خير وأبقى، فليس يحتاج من العلم بالزهد إلا إلى هذا القدر، فإذا علم ذلك فقد أحرز ما يشترط من العلم بالزهد، وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما بضعف[1] علمه وثقته، وإما لأجل استيلاء الشهوة فى الحال عليه، وكونه مقهورًا فى يد الشيطان، وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله: ﴿ **قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ** ﴾[2]، وإلى نفاسة الآخرة بقوله: ﴿ **وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ** ﴾[3] .

وأما **العمل** الصادر عن حال الزهد، فهو ترك وأخذ، فالترك للأدنى، وهى الدنيا، وأخذ الآخرة بالزهد يوجب ترك الدنيا بأسرها وعلائقها، وفقد ما بها، ويدخل حبّ الآخرة فى قلبة، فإذا وفى بالأمرين كليهما الأخذ والترك، فقد أحرز الزهد، واستبشر بالبيع الذى باع به .

المقام الثانى: فى بيان فضيلة الزهد

---

(1) فى(د،ك) لضعف.
(2) سورة النساء من الآية 77.
(3) سورة آل عمران من الآية 198.

فقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[3] جاء فى تفسيره على الزهد فى الدنيا، وقال تعالى: ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[4] قيل: معناه أيهم أزهد فى الدنيا[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أصبح وهمّه الدنيا شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له همّه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا رأيتم العبد قد أعطى صمتًا وزهدًا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يُلقّى الحكمة»[7]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[8]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا»[9]، وعن بعض الصحابة- رضى الله عنهم- قال: قلنا:- يا رسول الله- أىّ الناس خير؟ قال: «كل مخموم القلب، صدوق اللسان» قلنا:- يا رسول الله- وما مخموم القلب؟ قال: «التقى النقى الذى لا غلّ فيه لا غشّ ولا بغى ولا حسد». قيل:- يا رسول الله- فمن على إثره؟ قال: «الذى يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة»[10]، ومفهومه أن شرّ الناس من يحب الدنيا، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الزهد فى الدنيا والورع يجولان فى القلب كل ليلة فإن صادفا قلبًا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا»[11]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «استحيوا من الله حقّ الحياء» قالوا: إنا لنستحيى،

---

(1) سورة الشورى الآية 20.
(2) سورة طه من الآية 131.
(3) سورة القصص من الآية 54.
(4) سورة الكهف من الآية 7.
(5) ينظر: المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأندلسى، تحقيق عبد السلام عبد الشافعى محمد، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1993م، بيروت، لبنان، 3/ 496.
(6) المعجم الكبير، 5/ 143. بلفظ : «من كانت نيته الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل فقره . . . الحديث».
(7) نفسه، 22/ 392. بلفظ:«إذا رأيتم الرجل المؤمن قد أعطى زهدًا فى الدنيا ،وقلّة منطق فاقتربوا منه، فإنه يلقى الحكمة».
(8) سورة البقرة من الآية 269.
(9) سنن ابن ماجة، 2/ 1373. بلفظ: «ازهد فى الدنيا يحبك الله».
(10) حلية الأولياء، 183/1. بلفظ: «قيل لرسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم - : أىّ الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان. قالوا: صدوق اللسان نعرفه. فما مخموم القلب؟ قال: هو التقى النقى لا أثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد. قالوا: فمن يليه- يا رسول الله - ؟ قال: الذى يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة».
(11) إحياء علوم الدين، 4/ 220.

قال: «تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون»[1]، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله عزّ وجلّ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه، وأنطق بها لسانه، وعرفه داء الدنيا ودواؤها، وأخرجه منها سالمًا إلى دار السلام»[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث: همّ لا يفارق قلبه أبدًا، وفقر لا يستغنى أبدًا، وحرص لا يشبع معه أبدًا»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يستكمل عبد الإيمان فى قلبه حتى أن يكون لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتّى يكون قلّة الشىء أحب إليه من كثرته»[4].

وقال عيسى– عليه السلام–: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها، وقيل له:– يا نبى الله– لو أمرتنا أن نبنى بيتًا نعبد الله فيه، فقال: اذهبوا فابنوا بيتًا على الماء، فقالوا: كيف يستقم بناؤه على الماء؟ فقال: كيف تستقيم عبادة على حب الدنيا؟ ![5] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيرًا زهّده فى الدنيا، ورغّبه فى الآخرة، وبصّره عيوب نفسه»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد عمّا فى أيدى الناس يحبك الناس»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «من أراد أن يؤتيه الله علمًا بغير تعلم، وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا»[8]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف النار لها عن الشهوات، ومن خاف الموت ترك اللذات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات»[9]، ولنقتصر على القدر فى فضيلة الزهد، ففيه كفاية فى مقدار غرضنا، والله أعلم بالصواب.

القسم[10] الثالث: فى بيان درجات الزهد

اعلم أن درجات الزهد منقسمة إلى ما يكون بالإضافة إلى الزهد نفسه، وإلى ما يكون بالإضافة إلى المرغوب فيه، وإلى

---

(1) المعجم الكبير، 25/ 172. بلفظ:«يا أيها الناس أما تستحيون. قالوا: ممَ ذاك– يا رسول الله– ؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تعمرون».

(2) شعب الإيمان، 7/ 346. بلفظ: «من زهد فى الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه، وأطلق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه منها سالمًا مسلمًا إلى دار السلام».

(3) إحياء علوم الدين، 4/ 223.

(4) نفسه. بلفظ: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتّى يكون قلته أحب إليه من كثرته».

(5) نفسه، 4/ 223.

(6) شعب الإيمان، 7/ 347. بلفظ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل فيه ثلاث خلال: فقهه فى الدين، وزهّده فى الدنيا، وبصّره عيوب نفسه».

(7) المعجم الكبير، 6/ 193.

(8) شعب الإيمان، 7/ 360. بلفظ: «ألا إنه من رغب فى الدنيا، وقصر أمله فيها أعطاه الله علمًا بغير تعلم، وهدى بغير هداية».

(9) نفسه، 7/ 370.

(10) فى (د،م) المقام. ﴿وهو الصحيح حيث سبق فى خاتمة الزهد أن ذكر المقام الأول فى بيان ماهية الزهد ثم المقام الثانى فى بيان فضيلة الزهد، وهذا هو المقام الثالث فى بيان درجات الزهد﴾.

المرغوب عنه، فهذه ثلاثة أقسام نشير إلى ما يختص كل واحد منها .

القسم الأول: فى بيان درجات الزهد فى نفسه

اعلم أن الزهد فى نفسه يتفاوت بحسب قوته وضعفه إلى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: منها أن يكون زاهدًا فى الدنيا ، وهو فى غاية الشهوة لها ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها تائقة، ولكنه يجاهد نفسه ويكفها ، وهذا ليس زاهدًا على الحقيقة، وإنما هو متزهد ، وهذا مبدأ الزهد فى حقّ من يريد الوصول إلى الزهد حقيقة، فالزاهد قد عزم وجرّد نفسه على ترك الدنيا ، والمتزهد على خطر فى معالجة نفسه، فإنه ربّما غلبته نفسه، وجذبته شهوته، فيعود إلى الدنيا لا محالة.

الدرجة الثانية: الذى يترك الدنيا طوعًا لاستحقارها ، وهو أنها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذى يترك درهمًا لأجل حصول درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك، فهذا الزاهد يرى لا محالة زهده، ويلتفت إليه، فيكاد أن يكون معجبا بنفسه وبزهده، ويظن فى نفسه أنه قد ترك شيئًا له قدر، وخطر لما هو أعظم منه قدرًا، فهذا لا محالة نقصًا فى هذه الدرجة.

الدرجة الثالثة: أن يزهد طوعًا ، ويزهد فى نفسه فى الدنيا ، فلا يرى زهده شيئًا؛ إذ لا يرى أنه ترك شيئًا له خطر وقدر؛ إذ عرف أن الدنيا ليس شيئًا فيستحق الزهد ، كمن يترك بعرة ويأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة على حال، ولا يرى نفسه تاركة لشىء، ولا الدنيا بالإضافة إلى الله وإحراز نعيم الآخرة أخسّ من البعرة، بالإضافة إلى الجوهرة، فهذا هو الكمال فى الزهد ، ومثل هذا الزاهد آمن مِن خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك البعرة بالإضافة إلى الجوهرة آمن من طلب الإقالة فيها .

القسم الثالث[1]: بالإضافة إلى المرغوب فيه

وذلك أيضًا يكون على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى:– أدناها– وهو أن يكون المرغوب فيه السلامة من النار والنجاة منها ، وسائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب، وسائر أهوال القيامة، فهذا لا محالة زهد الخائفين، وكان هؤلاء راضون بالإعدام؛ لأن الخائف يرضى بالإعدام لأجل الخلاص.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة فى الوصول إلى ثواب الله ونعيمه، وإلى اللذات الموعود بها فى الجنة من الحور، والقصور، وغيرها من الملاذ العظيمة، فما هذا حاله زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الآلام[2]، بل طمعوا

(1) هذا هو القسم الثانى كما ذكر المصنف فى درجات الزهد حيث جعله ثانيًا .

(2) فى (د،ك،م) الألم.

فى وجود دائم على نعيم قائم لا آخر له ولا انقضاء لوجوده.

الدرجة الثالثة:- وهى العليا- لا يكون للزاهد رغبة إلا فى الله تعالى ولقائه، ولا يلتفت قلبه إلى شىء من الآلام ليتخلص عنها، ولا إلى اللذات ليحصل عليها ويظفر بها، بل[1] مستغرق الهمّ بالله، وهو الذى أصبح، وهمّه همّ واحد، فما هذا حاله يقال له زهد المحبين، وهم العارفون؛ لأنه لا يحب الله إلا من عرفه، فهذه الدرجة هى أنفس الدرجات وأعلاها، والله الموفق.

القسم الثالث: بالإضافة إلى المرغوب عنه

اعلم أن الله تعالى قد ذكر فى كتابه الكريم الأشياء المحبوبة إلى الخلق؛ ليحصل الزهد فيها، فذكر فى آية أمورًا سبعة، فقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2]، ثم رده فى آية أخرى إلى خمسة، فقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾[3]، ثم ردّه فى موضع آخر إلى اثنين، فقال: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[4]، ثم ردّ الكلّ إلى واحد فى موضع آخر، فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[5]، فالهوى يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا، فينبغى أن يكون الزهد حاصلاً فيه، فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الزهد بالإضافة إلى ترك الأشياء كلّها على مراتب أربع:

المرتبة الأولى: الزهد فى المحظورات عن الوقوع فيها، وهذا لا محالة أولى درجات الزهد؛ لأن خلاف ذلك يؤدى إلى الوقوع فى المحظورات الشرعية.

المرتبة الثانية: الزهد عن الوقوع فى الأمور المتشابهة التى لا يؤمن ضررها شرعًا، فما هذا حاله نوع من الزهد دون الأولى.

المرتبة الثالثة: الزهد عن الحلال حذرًا عن الوقوع فى الحرام، وهذه أيضًا أعلى مما قبلها كما ترى.

المرتبة الرابعة: الإعراض عن كل شىء مما سوى الله تعالى، وهذه هى أعلى المراتب، وأفضلها، وأولاها.

ولنشر إلى ما ذكره الزّهاد فى ضبط الزهد: قال بعضهم: الزهد: هو القناعة، وهذه إشارة إلى الزهد فى المال خاصة، وقال آخرون: الزهد قصر الأمل، وهذه إشارة إلى ترك جميع المشتهيات التى تميل إليها النفوس، وإن كل من طال أمله كثرت رغبته فى الدنيا كلها،

---

(1) فى (ك،م) زيادة:هو.
(2) سورة آل عمران من الآية 14.
(3) سورة الحديد من الآية 20.
(4) سورة الأنعام من الآية 32.
(5) سورة النازعات الآية 40.

وقال بعضهم: الزهد: هو ترك المضمون، وهذا[1] إشارة إلى الرزق، وقال بعضهم: اتباع العلم ولزوم السّنّة، فهذه الأقاويل كلّها دالة على حدّ ما يجده كلّ واحد من نفسه من الزهد، والمختار من هذه الأحاديث كلّها ما قاله بعض الزهاد، وهو أجمع ما قيل في الزهد، أن يقال: هو ترك كل شيء يشغلك عن الله- عزّ وجلّ- وهذا جامع لجميع مقاصد الزهد كلّها؛ لأن كل من كان مشغولاً قلبه بالله عزّ[2] سلطانه، فهو معرض عمّا سواه، والله الموفق للصواب.

(1) في (د،م) هذه.

(2) في (د) عن بدلاً من: بالله عزّ.

الحديث الحادى عشر

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ– رضى الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ– صلى الله عليه وآله وسلم– : «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ، فَإِنَّكُمْ إِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِى ضِيقٍ وَسَّعَهُ عَلَيْكُمْ فَرَضِيتُمْ بِهِ فَأُجِرْتُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِى غِنَى بَغَّضَهُ إِلَيْكُمْ فَجُدْتُمْ بِهِ فَأُثِبْتُمْ، فَإِنَّ الْمَنَايَا قَاطِعَاتُ الآمَالِ، وَاللَّيَالِى مُدْنِيَاتُ الآجَالِ، وَإِنَّ الْمَرءَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ، يَوْمٌ قَدْ مَضَى أُحْصِىَ فِيه عَمَلُهُ فَخُتِمَ عَلَيْهِ، وَيَوْمٌ قَدْ بَقِىَ لاَ يَدْرِى لَعَلَّهُ لاَ يَصِلُ إِلَيْهِ، إِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ وَحُلُولِ رَمْسِهِ يَرَى جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ، وَقِلَّةَ غَنَاء مَا خَلَّفَ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، أَوْ مِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ**»[1].

فنقول: الحمد لله القاهر الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة[2]، وأرغم به أنوف الملوك الغابرة، الذى[3] لم تزل قلوبهم عن ذكر[4] الموت معرضة نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فإذا هم فى الحافرة، فنقلوا من سعة القصور إلى ضيق القبور، ومن ضياء المجالس، ونورها إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الخود[5] والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ومن التنعم بلذيذ الطعام والشراب، ومن الاتكاء على الأرائك، ونفيس الثياب إلى توسد الأحجار واللبن والتمرغ بالتراب، ومن أُنس العشيرة والإخوان إلى وحشة الوحدة ومفارقة الجيران، فانظر هل وجدوا من[6] الموت حصنًا رفيعًا ؟! أو اتخذوا من دونه حجابًا منيعًا ؟! وهل حاولوا من دونه حرزاً ؟! وأبصر هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا[7] ؟!

فسبحان من تفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق الدوام والبقاء، وأذلّ أصناف الخلائق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصًا للأتقياء، وموعدًا فى حقهم باللقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء، وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم النداء، فله الإنعام بالنعم الظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر فى السماوات والأرض، وله الحمد فى الأولى والآخرة.

والصلاة والسلام على المؤيد بالمعجزات الظاهرة، والمرفود بالآيات الباهرة، وعلى آله الطيبين أهل الإحسانات الغامرة[8]،

---

(1) الأربعون حديثا السيلقية،23.
(2) فى (د) الأقاصرة.
(3) فى (د) الذين.
(4) فى (د) سقط: ذكر.
(5) الخود: الفتاة الحسنة الخَلق الشابة، وقيل: الجارية الناعمة. ينظر: لسان العرب، مادة (خود).
(6) فى (ك،م) عن بدلاً عن من.
(7) الركز: الصوت. ينظر: لسان العرب، مادة (ركز).
(8) فى (م) العامرة.

والأحساب الفاخرة، واعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة نوضحها بمعونة الله تعالى.

النظر الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم الأدبية

وفيه مقصدان، نفصلهما بمعونة الله.

المقصد الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

فالإكثار: الزيادة، وهى نقيض الإقلال، **والذكر**: نقيض النسيان، **والهادم**: المخرب، **والهدم**: الخراب، **واللذّة**: كل ما يلائم المزاج، **والضيق**: نقيض السعة، **والرضا**: نقيض الغضب، **والأجر**: ما كان فى مقابلة العمل. **المرء** فى اللغة: موضوع للذكر والأنثى، واللام فيه للجنس، وهى تفيد العموم والاستغراق كالرجل والمرأة والدينار والدرهم، وهل يفيدان الاستغراق بمطلقهما أو بقرينة؟ فيه تردد بين الأصوليين ذكرناه فى الكتب الأصولية.

والأيام ثلاثة: يوم نحن فيه، ويوم خلفناه، ويوم أمامنا، فيومنا الذى نحن فيه هواليوم الثالث، وهو اليوم الذى لم يذكره صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن غرضه إنما هو ذكر الماضى والمستقبل دون الحال، فلهذا قال: «**المرء بين يومين**»، فالأمس ماضٍ معدوم ذاهب، فذهاب[1] الماضى أُحصى فيه العمل، وبعدم الباقى لم يمدد العاقل إليه الأمل، **والإحصاء**: هو الاستقصاء، وهو استيعاب الأمر حفظًا وتدبيرًا، والمراد هاهنا الحفظ، **والختم**: هو العلامة فى الأصل، فلما كان إلصاق الكتاب بالشمع وغيره علمًا للمنع عن فضه وقراءته قيل: إنه مختوم، **والختم على الأفواه**: هو إلصاق الشفاه بعضها ببعض، والباقى نقيض المنقضى، ولعل من الألفاظ الترجى، والمرجو لا يقطع بوصوله، **والوصول**: بلوغ الأمل المترجى، **والمنايا**: جمع منية، وهى فراق الروح للجسد بأى وجه كان، **والقطع**: نقيض الوصل، **والآمال**: جمع أمل، وهو ما يرجى وصوله فى المستقبل، وأصل الأمل القصد، فلما كان الخير المرجو يقصد إليه سمى أملاً، **والليالى**: هى زوجات الأيام، وأولادهما هى المصائب الحادثة فيهما، **والمدنيات**: المقربات، **والآجال**: هاهنا هى الأوقات لفراق الأرواح للأجساد.

المرء: اسم يقع على الذكر والأنثى، واللام فيه للاستغراق، وخصّ الذكور هاهنا والمراد الرجال والنساء، إنما كان ذلك على جهة التغليب للذكور على الإناث، **العبد**: هو الإنسان، وهو المذلل لربه بالعجز والحدوث والخضوع، **الخروج**: هاهنا نقيض الدخول.

---

(1) فى (د) فبذهاب.

سؤال: أراه قال فى أول كلامه: «**إنّ المرء بين يومين**»، فصدّره بذكر المرء، وقال فى آخر الكلام: «**إن العبد عند خروج نفسه**»، وصدّره بذكر العبد، فهل[1] هناك تفرقة بين الأمرين؟

وجوابه: هو أن ما ذكره من تقسيم الأيام ليس فيه خضوع ولا ذلّة، وإنّما هو أمر محقق لا ينفك منه أحد من الخلق، فلهذا صدّره بذكر «**المرء**» وهو الإنسان بخلاف ما ذكره آخرًا من خروج النفس وحلول الرمس، فإن فيه خضوعًا وذلّة وتواضعًا وامتهانًا بنزع الروح، ودفنها فى القبور وإلقائها جيفة لا حراك لها، وهذا نهاية الذلّ والصغار، فلا جرم صدّر الكلام بذكر العبد إشارة إلى ما قلناه، **والنفس:** هى الروح، وقد أسلفنا ذكر تقرير الكلام فيه، وقد تطلق النفس على ذات الإنسان، وتطلق على الدم، كما قال بعض الشعراء[2]:

تَسِيْلُ عَلَىْ حَدّ السّيُوفِ نُفُوسُنَاْ   وَلَيْسَ عَلَىْ غَيْرِ السُّيُوفِ تَسِيْلُ[3].

وتقول الفقهاء: كلما ليس له نفْس سائلة فهو طاهر يريدون دمًا سائلاً، **والحلول:** نقيض الرحيل، **والرمس:** القبر، وسُمى رمسًا؛ لأنّه يُرمس فيه الإنسان الميت، يعنى: يُغيب ويُغطى ويُوارى كما يرمس الواحد منا فى الماء، وهو محلّه حتى يرحل عنه إلى موقف الحساب.

الرؤية والإدراك والمشاهدة معناها واحد، **والجزاء** فى اللغة: هو العوض، والمراد به هاهنا الثواب، **والقلّة** :هى الحقارة، **والسَّلف:** القرض، **والغَناء:** بفتح (الفاء) هوالنفع الذى ترتفع به الحاجة، **والمخلَّف:** هو ما كان بعد الموت، **الباطل:** نقيض الحق، **والحق:** هو اللازم الثابت، **والمنع:** نقيض الإعطاء.

المقصد الثانى: فى بيان ما تضمنه من المعانى الإعرابية

قوله: «**أكثروا**» أمر بالإكثار، وهو الازدياد، و«**الواو**» ضمير هو الفاعل، و«**هادم**» اسم فاعل مضاف إلى مفعوله، «**ذِكر**»هو منصوب على المفعولية لـ «**أكثروا**»، و«**هادم**» مجرور بإضافة «**ذِكر**» إليه، فإن كان للماضى فالإضافة فيه معنوية مفيدة للتعريف، وإن كان للمستقبل فالإضافة فيه لفظية منفصلة. «**فإنكم**» «**الفاء**» للاستئناف، و«**إنَّ**» مؤكدة، والضمير منصوب بها، و«**إن**» شرطية، والضمير لـ «**هادم**».

---

(1) فى (د،ك،م) الواو بدلاً عن الفاء.

(2) القائل: السموأل بن غريض بن عادياء، شاعر جاهلى حكيم، سكن خيبر، وكان ينتقل بينها وبين حصن له بتيماء اسمه الأبلق، يضرب به المثل فى الوفاء، توفى عام 64ق هـ. ينظر: الأغانى، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد المروانى الأصبهانى، تحقيق سمير جابر، ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان،22/ 122. معجم المؤلفين، 4/ 280.

(3) البيت من الطويل، ونصّه: تَسِيلُ عَلَى حَدّ الظِبَاتِ نُفُوسُنا وَلَيسَتْ عَلَى شَيءٍ سِواه تَسِيلُ. ينظر: ديوان السموأل، تحقيق وشرح د. واضح الصمد، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان، 72. الظبات: جمع الظبة، وهو حد السيف. ينظر: لسان العرب، مادة (ظبا).

«**فى ضيق**» جار ومجرور فى موضع المفعول. «**وسعه عليكم**» جواب للشرط، والجملة الشرطية فى موضع الخبر؛ لأنّ «**الفاء**» فى «**فرضيتم به**»، وفى «**فأُجُرتم**» للعطف على ماقبله، « **وإن ذكرتموه**» جملة شرطية ثانية، «**فى غنى**»هو مقصور، وهو ضدّ الفقر، «**بغضه**» جواب الشرط، والجملتان الفعليتّان بعده عطف على ما قبلهما .

«**فإن المنايا قاطعات**» رفع ونصب بـ «**إنّ**» اسم، وخبر «**قاطعات**» اسم فاعل مضاف إلى مفعوله كراكب فرسٍ، ويحتمل أن يكون للماضى والمستقبل، فإن كان للماضى أفاد التعريف بالإضافة، وإن كان للمستقبل لم يفد التعريف.

«**والليالى مُدنيات الآجال**» يحتمل أن تكون «**الواو**» للعطف على ما قبله للرفع[1] والنصب على عمل «**إنّ**» ويحتمل أن تكون «**الواو**» للاستئناف، فتكون جملة ابتدائية، فيقطعها عمّا قبلها، أو يكون عطف جملة على جملة قبلها، ويحتمل أن تكون «**المنايا**» عطف على محل «**إن**» بعد تمام الخبر، وما قلنا فى «**قاطعات**» من الاحتمال فى اسم الفاعل فهو بعينه حاصل فى «**مدنيات**»؛ لأنه اسم فاعل من الفعل المزيد من أدنى يدنى فهو دانٍ[2]، و«**القاطعات**»، و«**المدنيات**» جمع لقاطعة ومدنية على السلامة من باب جمع الصفة فى المؤنث.

«**وإن المرء بين يومين**» «**بين**» منصوب على الظرفية فى المكان، و«**يومين**» مجرور بإضافته إليهما، ولا يستعمل إلا مضافاً . «**يوم**» مجرور على البدلية أو عطف على البيان من يومين؛ لأنه بيان له. «قد» للتوقع، ومنه: قد قامت الصلاة، أو التقرير كوقوعه هاهنا .

«**مضى**»، و«**أُحصى**» جملتّان فعليتّان فى موضع جرّ على الصفة لـ «**يوم**»، وعمله مرفوع فاعل لـ «**أُحصى**» على أنه فاعل لما لم يسم فاعله، قائم مقام فاعله الحقيقى المحذوف، و«**ختم عليه**» جملة فعلية عطف على قلناه، و«**يوم**» مجرور على ما قبله. «**لا يدرى لعله لا يصل إليه**» جملة فعلية فى موضع جرّ على الصفة لـ «**يوم**» .

سؤال: كيف قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**والليالى مُدنيات للآجال**»، والأيام مثلها فى إدناء الأجل، فلمَ خصّها بالذكر، وما السرُّ فى ذلك؟

وجوابه: أن الأيام كالليالى فى تقريب الآجال وإدنائها؛ لأنهما المتكرران[3]، والمدنيان، والمكوران؛ وإنّما خصّ الليالى بالإدناء للآجال لمّا كان أكثر ما يكون قطع الآجال والموت حاصله بالليالى، فلا جرم خصّها بذلك.

«**إنّ العبد عند خروج نفسه**» «**العبد**» منصوب بـ «**إنّ**»، و«**عند**» منصوب على الظرفية، وهو فى موضع رفع خبر لـ

---

(1) فى (د،ك،م) بالرفع .
(2) فى (د،م) مدن. ﴿ولعل السليم: مدنٍ﴾ .
(3) فى (ك) المتكوّران.

«**إنّ**»، ولا يستعمل «**عند**» إلا مضافاً، **والخروج والحلول:** مصدران مضافان إلى ما بعدهما .

«**يرى جزاء ما أسلف**» جملة فعيلة فى موضع نصب على الحال، **والقلّة:** مصدر مضاف إلى ما بعده، وما فى قوله: «**ما أسلف**، . . . **وما خلّف**» موصولة بالجملة الفعلية، ولعله الضمير منصوب بـ «**لعل**»، «**من باطل**» «**من**» هاهنا لابتداء الغاية، «**أو من حقّ منعه**» مثلها لابتداء الغاية.

النظر الثانى: فى بيان ما تضمنه[1] من العلوم فى البلاغة

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من علوم المعانى

وقد اشتمل على الإيضاح كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أُجرتم**»، و«**أُثبتم**»، فإن ما هذا حاله إيضاح فى الكلام وعلى التأكيد، كقوله: «**إن العبد**»، وقوله: «**إن المرء بين يومين**»، وعلى الفصل والوصل ؛ فالفصل فى قوله: «**إن العبد عند خروج نفسه**»؛ لكون «**إن**» جاءت من غير (واو)، والوصل فى قوله: «**وإن المرء بين يومين**»، فما هذا حاله يكون[2] وصل بـ (الواو)، وعلى الإبهام فى قوله: «**إن ذكرتموه فى ضيق**»، و«**إن ذكرتموه فى غنى**»، فما هذا حاله معدود فى الإبهام، وعلى الترجى فى قوله: «**لعله لا يصل إليه**»، وفى نحو قوله: «**ولعله من باطل جمعه**»، فهذا الترجى له موقع عظيم فى الكلام، ويستعمل فى التوقع للأمور المكروهة، كقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[3]، وفى التوقع للأمور المحبوبة، كقوله: لعلّ أباك يقدم، وعلى التقديم والتأخير فى المعمولات، كقوله: «**أُحصى فيه عمله**»، فإن الجار والمجرور[4] قُدّما على الفاعل وأخر عنهما، وقوله: «**من باطل جمعه، أو من حقّ منعه**»، فالجار والمجرور قُدّما هاهنا على عاملهما من أجل الاهتمام بهذه المتعلقات، ولأجل المواظبة على السجع بقوله: «**منعه**»، و«**جمعه**»، فهذه الأمور كلها متعلقة بعلوم المعانى.

المطلب الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البيان

وحاصله كلام فى الأسرار المجازية التى أشار إليها فى كلامه هذا .

---

(1) فى (د،ك،م) اشتمل عليه.
(2) فى (د،ك،م) سقط: يكون.
(3) سورة الشورى من الآية 17 .
(4) فى (ك،م) زيادة: قد .

المجاز الأول: قوله: «**هادم اللذات**»، فإن الهدم إنما يستعمل فى الأبنية، وهو هاهنا مجاز.

المجاز الثانى: قوله: «**وسّعه عليكم**» يعنى: الضيق، فإن الضيق والسعة إنما يستعملان فى الأبنية والبيوت.

المجاز الثالث: قوله: «**المنايا قاطعات الآمال، والليالى مدنيات الآجال**»، فإن القطع والإدناء مجاز فى إضافته إلى الأيام، والليالى، والمنايا، وهو من المجاز المركب؛ لأنّ الإسناد حاصل إلى ما لا يسند إليه من جهة الحقيقة.

المجاز الرابع: قوله: «**بين يومين**»، فإن **البين** إنما يستعمل فى الأمور المتحيزة فى الأمكنة والأجساد.

المجاز الخامس: قوله: «**فختم**» إنّما يُستعمل فى الأجسام التى يستقر عليها الختم، ويتمكن منها.

المجاز السادس: قوله: «**من باطل جمعه**»، فإن الأمور الباطلة **لا** يجتمع منها شىء.

المطلب الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع

وقد اشتمل على:

الطباق، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **الضيق**، **والسعة**، وهكذا قوله: «**بين يومين**» باقٍ، وماضٍ؛ فإنه طباق، وقوله: «**من باطل جمعه**»، و«**حقّ منعه**»؛ فإنه من الطباق أيضاً، وهكذا قوله: «**ما أسلف**»، و«**ما خلّف**»؛ فإنهما من الطباق أيضاً، وعلى المبالغة فى حُسن الوعظ والتذكير فإنه صدّره بذكر الموت، وعقبه بـ «**إن المنايا قاطعات للآمال**»، و«**مدنيات للآجال**»، وأردفه بذكر اليومين الماضى والباقى، وتفصيل حال ابن آدم بينهما ممّا يحصل من عمله، ثم عقبه بذكر خروج النفس، وما يحصل عند ذلك من الأسف، والندم، وذكر حال ما جمعه من الأموال والنفائس وجهات تحصيلها، وفى ذلك من المبالغة فى الاتعاظ لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

أراد هاهنا أنّه لا يعلم شىء أهدم من الموت لعامر اللذات، ولا أنغص للشهوات، ولا أقطع للأمنيات منه، وكيف لا يكون كذلك؟! وكم من مسرور قد هُدم سروره بالأحزان، وملتذٍّ قد نغصّ لذّته بالأشجان، فأصبح بعد الضحك باكيًا وبعد السرور والطرب شاكيًا، وكم فى ذلك من شاهد ظاهر ومثل سائر، ولنذكر فى ذلك قصتين تكونان للقلوب معتبرًا، وعن الرغبة فى الدنيا موعظة ومزدجرًا.

القصة الأولى:

محكيّة عن صاحب الخورنق[1]، فإنها عبرة، وصدق محقق، وذلك أنّه كان من الملوك الغابرة فمدّ بصره فى ناحية المغرب حتى انقطع فى رؤية[2] الأنهار والبساتين والأشجار وأنواع الثمار، **فقال:** لمن هذا الذى أرى؟ **فقالوا:** لك– أبيت اللعن–، فالتفت إلى ناحية المشرق فمدّ بصره حتى انقطع فى رؤية الخيل والإبل والبقر والغنم وسائر أنواع الحيوانات، **فقال:** لمن هذا الذى أرى؟ **فقالوا:** لك– أبيت اللعن–، **فقال:** هل تعلمون أحدًا أُوتى مثل الذى أنت فيه[3] ما أوتيت؟ **فقال** له رجل من الزهاد الذين هم حُجّة الله على كل أمة: أيها الملك– أبيت اللعن–، هل هذا الملك الذى أنت فيه وصل إليك من غيرك أم أنت فيه لابث؟ ثم نزل[4]، **فقال:** بل وصل إلىّ من آبائى ماتوا، فورثت بعدهم ملكهم، **فقال له:** هل تأمن أن يصيبك ما أصابهم؟ **فقال:** هو واقع لا محالة، **فقال:** ما أراك فى شىء، **فقال له:** فما المخرج؟ **قال:** أحد أمرين: إما أن تعمل فى هذا الملك بطاعة الله تعالى فتُنصف المظلوم من الظالم، وتُحسن العلم فى الرّعية، وإما أن تعتزل الدنيا، وتنقطع إلى الله تعالى ليورثك ملكًا لا يبلى، **فقال له:** أنظرنى فى هذه الليلة حتى أنظر فى أمرى، فإن عزمت على الوقوف فى ملكى كنت وزيرًا لا تُعصى، وإن انقطعت إلى ربّى كنت صاحبًا لا تُقلى، فأمسى ليلته مفكرًا[5]، فلما كان آخر الليل أخذ ثيابًا من صوف، وفزع إلى الله تعالى، فلما فتح الباب وجد صاحبه ينتظره،

---

(1) وهو النعمان بن امرئ القيس اللخمى، ملك الحيرة قبل الفرس ويعرف بالأعور السائح، صاحب قصر الخورنق، زهد عند اكتهاله، واستعاض عن رداء الملك بقباء النسك، وانصرف سائحًا فى البلاد؛ فانقطع خبره، وذلك نحو 198ق هـ. ينظر: تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبرى، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1407هـ، بيروت، لبنان، 1/ 404. الأعلام للزركلى، 8/ 35.

(2) فى (د،ك،م) رؤيته. ﴿ولعل المناسب: رؤية﴾.

(3) فى (د،ك،م) سقط: الذى أنت فيه.

(4) فى (د،ك،م) لم تزل. ﴿ويناسب السياق: لم تزل﴾.

(5) فى (د) متفكرًا.

فقال له: ما أجمعت عليه؟ **فقال:** على ما ترى، **فقال:** وُفقت، ثم ساحا فى الأرض[1].

القصة الثانية:

محكية عن الوليد بن يزيد[2]، وكان جبارًا مترفًا باللذات وأنواع الطرب، فقال يومًا لجلسائه: يزعم الناس أنّ مَلكًا ما تمّ له سرور يوم قط، **قالوا:** كذلك روى، **فقال** متأليًا[3] بوقاحته على كل ملك غير ملكه فهو باطل، وكل سلطان دون سلطانه فهو زائل، والله لأستكملن لذّة يومى هذا، ثم أخذ جارية يقال لها حبابة، وكانت قد اشتريت له بمال جسيم لم يُرَ مثله، ودخل بستانًا فى جانب دار الخلافة، فيه أنواع الأشجار والثمار والأزهار[4]، وأخذ غلامًا لطيفًا يصلح للخدمة من أظرف الغلمان وأكيسهم، ثم قال لحاجبه: اطوِ عنى جميع الأخبار، ولو أُخِذ نصف المملكة، وأخذ جميع ما يحتاج إليه فى يومه ذلك من أنواع الطيبات، وطروف اللذات، ودخل إلى مجلس فى بستانه، فلمّا استقرّ به المجلس، وهى تُضاحكه وتُغنيه وتُملح فى عينيه حتى أخذت بشغاف قلبه، إذ دعا **الوليد** برمان مقشر فى جام جوهر، فجاء به الغلام فأخذت منه حبّة فطرحتها فى فيها، وضحكت فشرقت[5] بها فماتت، فقلّبها فصاح وأعول، فما لبث أن خرج إليهم مكشوف الرأس ينتف شعره، ويُخمش وجهه باكى العين حزين القلب، فلم يقبرها ثلاثة أيام حتى اجتمعت إليه بنو أمية، **وقالوا:** هذه سبّة[6] **لا** تنسى، فدخل عليه مسلمة بن عبدالله[7]، فقال له: ما أنت وحبس هذه الجيفة، أما علمت أن فى حبسها عار الأبد، فدفنها وحزن عليها حزنًا شديدًا[8].

فقد ظهر لك بما ذكرنا مصداق كلام الصادق المصدق من كون الموت هادمًا لكل لذّة، قاطعًا لكل أمنية، وفى حديث آخر:

---

(1) ينظر: البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى، تحقيق على شيرى، دار إحياء التراث العربى، ط1، عام 1988م، بيروت، لبنان، 2/ 230.

(2) وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، تولى سنة 125هـ، فمكث سنة وثلاثة أشهر، ونقم عليه الناس للهوه وشرب الخمر، فبايعوا سرًا يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وقتل سنة 126هـ. ينظر: تاريخ الطبرى، 4/ 222، 235. سير أعلام النبلاء، 5/ 370- 373. الأعلام للزركلى، 8/ 123.

(3) المتألى: الذى يحكم على الله. ينظر: لسان العرب، مادة (ألا).

(4) فى (د) الأنهار.

(5) فى (د،ك،م) شرغت. ﴿ولعل السليم: شرقت﴾، فشرق فلان بريقه، ويقال: أخذته شرقة فكاد يموت. ينظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، تحقيق د. مهدى المخزومى، د. إبراهيم السامرائى، دار ومكتبة الهلال، (ت)، بيروت، لبنان، مادة (شرق).

(6) فى (د،م) سنّة. ﴿والسليم: سبة﴾.

(7) المقصود مسلمة بن عبد الملك، وهذا تحريف. ينظر: تاريخ مدينة دمشق، 69/ 90- 92. وهو مسلمة بن عبد الملك بن مروان كان قائد الجيوش، ويلقب بالجرادة الصفراء، توفى سنة 120هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، 5/ 241.

(8) هذه القصة تنسب ليزيد بن عبد الملك بن مروان، المولود سنة 71هـ، وقد تولى سنة 101هـ، وتوفى سنة 105هـ. ينظر: تاريخ الطبرى، 4/ 110، 111. الأغانى، 15/ 140. الأعلام للزركلى، 8/185.

«أكثروا من ذكر هادم اللذّات، وكونوا من الله على حذر»[1].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَإِنَّكُمْ إِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِى ضِيقٍ وَسَّعَهُ عَلَيْكُمْ فَرَضِيتُمْ بِهِ فَأُجِرْتُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِى غِنَى بَغَّضَهُ إِلَيْكُمْ فَجُدْتُمْ بِهِ فَأُثِبْتُمْ**» أراد بما ذكره أن خير الدنيا وشرها حاصلان فى السعة والضيق اللذين امتحنا الله بهما فى قوله:﴿ **وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾[2]، فالضيق واقع بالامتحانات والبلايا من الأمراض والعلل والأسقام ومحن التكاليف كالجهاد والخوف والفقر وغير ذلك من البلوى، والسعة واقعة فى الغنى والرفاهية بالأرزاق والمواد بالخيرات والمنافع، وكأن الموت يأتى على ذلك فيرفع مشقة التكليف المكروه؛ إما إلى ما هو أشدّ منه من العذاب الأليم والخطب الجسيم، وإما إلى ما ينسيه ويصغره من الثواب الجزيل والملك العظيم، فمن فكر فى نزول الموت وهو ضيق بأحد الأمور التى قدمنا ذكرها وسعه عليه بسرعة[3] الزوال، ووشيك الانتقال، وعلم أن المنقطعات من المصائب فى حكم المعدومات عند أهل التحقيق، فلم يرفع لها رأسًا فاستصغر خطرها ورضى بها فيؤجر عند ذلك أجرًا بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[4] ، وإن ذكر الموت وهو فى غنى بكثرة الأموال وسعة الحال بغض ذلك الغنى إليه بأحد أمرين لا بدّ من وقوعهما: إما بذكر فراق الأهل والمال ووحشة المقدم[5] وهول المآل، وإما باجتياح ذلك الأهل والمال وانتزاعه منه، فيبقى لذلك كئيبًا حزينًا كأنه ما غُنى ساعة واحدة بأهل ولا مال، فكأن لم يكن الأهل، ولم يكن المال، فحينئذ يفرح العاقل المتوسم بتقديم الأهل والمال وتخفيف باهظ الأثقال من دار الهوان إلى دار القرار.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَإِنَّ الْمَنَايَا قَاطِعَاتُ الآمَالِ، وَاللَّيَالِى مُدْنِيَاتُ الآجَالِ**» أراد بما ذكره أن المنايا يقطعن كل أمل مرجو، وأن الليالى يقربن كلّ أجلّ، وهذا ظاهر لا شكّ فيه، فكم من أمل قطعته المنايا؟! وكم من أجل بعيد أدنته الليالى فصار الأمل بعيدًا قاصيًا والأجل قريبًا دانيًا، فأوشك بموصول عضّته أفواه المنايا أن ينقطع، وبعيد جعلت الليالى له مطية أن يصل، والحازم، والحال هذه من جعل الأمل خلفه والأجل أمامه فحاذر لزامه، وأجال فى مكاسب الخيرات سهامه ففاز بالسلامة، ونجا من الحسرة والندامة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم :«**وَإِنَّ الْمَرءَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ، يَوْمٌ قَدْ مَضَى أُحْصِىَ فِيه عَمَلُهُ فَخُتِمَ عَلَيْهِ، وَيَوْمٌ قَدْ بَقِىَ لاَ يَدْرِى**

---

(1) مسند الشهاب، 1/ 392. بلفظ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، فإنه لايكون فى كثير إلا قلّله، ولا فى قليل إلا كثّره».

(2) سورة الأنبياء من الآية 35.

(3) فى (م) سقط الباء.

(4) سورة الزمر من الآية 10.

(5) فى (د) المقام. ﴿والأنسب: المقام﴾.

لَعَلَّهُ لاَ يَصِلُ إِلَيْهِ» اعلم أنّا قد ذكرنا فيما سبق أن الأيام ثلاثة: اليوم الماضى، واليوم المستقبل، واليوم الذى نحن فيه، وأن الأيام منقسمة باعتبار الأزمنة الثلاثة: الماضى، والمستقبل، والحال، وإنما لم يذكر عليه السلام الحال مع أنه هو الأصل؛ لأنه هو الذى نشأ عنه الماضى، وتفرع عنه المستقبل لأمرين: أما أولاً، فلأنّه زمن يسير غير مستقر، فلا يكاد يتحقق ، وأما ثانيًا، فلأنّ غرضه صلى الله عليه وآله وسلم ما قد تقضى فختم عليه، وهو الماضى وما لا يدرى لعله لا يصل إليه، وهذا إنما يكون فى المستقبل لا غير.

ومن النحاة من زعم إنكار الحال وليس شيئًا[1]، فإنه الأصل، ,وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ** ﴾[2] حيث قال: ﴿ **لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ** ﴾[3]، وقد استقصينا الكلام فى هذه المسألة فى كتابنا (**الأزهار فى علم الإعراب**)[4]، فاليوم الماضى: هو الذى قد ختم فيه العمل، وأراد **بالختم:** هو الفصل بين عمل كل يوم، وكل ليلة بعلامات حتى يحاسب على عمل كل يوم، وكل ليلة، فيكون ذلك دالاً على غاية الحصر والإحصاء، وإنّما خصّ الأيام بالذكر مع أن الليالى من أوقات المكلفين والتكليف، ويمكن وقوع الأعمال فيها من جهة أن أكثر الأعمال الخير والشر إنما تقع فى الأيام دون الليالى، فلا جرم خصها بالذكر، واليوم الباقى هو المستقبل فإنه على غير حقيقة من الوصول إليه، فالمعنى بكلامه هذا هو التنبيه على تعجيل فعل الخير وتجديد التوبة؛ لأنّها أصل لكلّ خير، وفقدها سبب لكلّ خسران؛ لأنّ يومنا الماضى قد ختم علينا عملنا فيه، ويومنا الباقى لسنا على يقين من البلوغ إليه. فالواجب الفزع فى وقتنا هذا الذى نحن فيه وليس فى أيدينا على الحقيقة سواه بإبطال ما تقدم فى يومنا الماضى بالتوبة، والاستدراك، وترك التسويف للفعل فى يومنا الآتى الذى يجوز أن يخترمنا الموت دونه، ويحصل علينا الهلاك فيطمع فى الفكاك ولات حين فكاك، فيا أيها المغرور، وكلنا ذلك المغرور ما غرك بربك حتى اجترأت على عظيم ذنبك؟ ! .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**وَإِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ، وَحُلُولِ رَمْسِهِ يَرَى جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ وَقِلَّةَ غَنَاء مَا خَلَّفَ**»، ومعنى كلامه هذا هو أن العبد إذا خرجت نفسه بالموت، ودخل فى قبره حتى يصيح صائح البعث فيرتحل عنه إلى الموقف، فإنه لا محالة فى تلك الحال يشاهد جزاء أفعاله فى أيام حياته، ويشاهد أيضاً قلة النفع فيما خلفه بعد وفاته، فالمخلف لا

---

(1) ينظر: الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر،(ت)، دمشق، سوريا، 1/ 252- 258.

(2) سورة مريم من الآية 64.

(3) السورة نفسها ومن الآية نفسها.

(4) الأزهار الصافية فى شرح مقدمة الكافية، وورد بعنوان الأنهار الصافية فى شرح مقدمة الكافية، فى مجلدين. ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1125. وقد قدم الجزء الأول رسالة دكتوراة مقدمة من محمد على سالم العطاونة إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، عام 1982م، والجزء الثانى رسالة دكتوراة مقدمة من عبد الحميد مصطفى السيد إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، عام 1982م، بعنوان (الأنهار الصافية فى شرح المقدمة الكافية) .

محالة حساب وعناء، والمقدم ثواب وغناء.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَلَعَلَّهُ منْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، أَوْ مِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ**» اعلم أن «**أو**» هاهنا: تحتمل أن تكون واردة للشكّ؛ لأنّ أحوال الناس تختلف فى ذلك، ويحتمل أن تكون للتخيير؛ لأنّ جمع المال لا ينفك عن أحد الأمرين، ومعنى ذلك هو أن جامع المال لا ينفك عن حالين: إما من باطل نحو تحصيل المال من الظلم، والغدر، وسائر المداخل القبيحة، وإما من حقّ منعه بأن يكون مستحقًا عليه، نحو قضاء الدَّين[1]، وردّ الودائع، فيا جامع المال من الوجوه الباطلة لمن تجمعه فى دار الزوال؟! هل تجمعه لنفسك؟ فقد علمت وشيك الارتحال، وتحققت سرعة الانتقال، أم لولدك؟ فما ينفعك وأنت فى العذاب والنكال؟! ويا مانع الحق من أهله ما دهاك، وما الذى دعاك إلى الإنكار[2] بما عليك، والنكوص عن الاعتراف بما عندك من الحق ولديك؟!

ولنختم هذا الحديث بما يلائمه ويتعلق به من ذكر الأمل والحثّ على تقصيره، ويشتمل على مقامات أربعة:

المقام الأول: فى فضيلة قصر الأمل

قال صلى الله عليه وآله وسلم لعبدالله بن عمر: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإن أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وأعدد نفسك فى الموتى، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك- يا عبدالله- لا تدرى ما اسمك غدًا»[3]، وفى حديث آخر أن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- اطلّع على الناس، فقال: «يا أيها الناس أما تستحيون»؟ فقالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: «تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون»[4]، وفى حديث آخر: روى أبو سعيد الخدرى أنّ أسامة بن زيد[5] شرى وليدة من زيد بن ثابت[6] إلى شهر بمائة دنيار، فسمعت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل، فوالذى نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى، ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت

---

(1) فى (د،م) الديون.

(2) فى (د) الإفكار. ﴿وهذا ليس سليمًا﴾.

(3) المعجم الكبير، 12/ 417.

(4) نفسه، 25/ 172.

(5) هو أسامة بن زيد بن الحارثة بن شرحبيل، اختلف فى سِنّه يوم مات النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فقيل: ابن عشرين، وقيل: ابن ثمانى عشرة، سكن وادى القرى بعد وفاة النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- ثم عاد إلى المدينة فتوفى بالجرف سنة 54هـ. ينظر: الاستيعاب، 1/ 75- 77.

(6) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى، كان يوم قدم الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- المدينة ابن إحدى عشرة سنة، لم يشهد بدرًا لصغر سِنه، كان أحد فقهاء الصحابة الجلة، وقد أمره أبو بكر- رضى الله عنه- بجمع القرآن فى الصحف، توفى سنة 56هـ. ينظر: نفسه، 2/ 537- 539.

أنى لا أسيغها حتى أغصّ بها من الموت»، ثم قال: «يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا نفوسكم فى الموتى، فوالذى نفسى بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»[1]، وعن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه كان يخرج ليهريق الماء فيمسح بالتراب، فقال له ابن عباس: يا رسول الله إن الماء منك لقريب، فقال: «وما يدرينى لعلى لا أبلغه»[2]، وفى حديث أنس بن مالك عن النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «يكبر ابن آدم ويشب معه اثنان: الحرص، وطول الأمل»[3]، وقال عليه السلام: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل»[4]، وفى حديث آخر قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أكلكم يحب أن يدخل الجنة»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، فقال: «قصروا فى الأمل، وثبتوا آجالكم بين أعيانكم، واستحيوا من الله حق الحياء»[5]، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى دعائه: «اللهم إنى أعوذ بك من ذنب يمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل»[6].

المقام الثانى: فى بيان السبب فى طول الأمل

اعلم أن طول الأمل هو الغالب على أكثر الخلق، والمستولى على الأفئدة، إلا على من وفقه الله، وله سببان:

السبب الأول: حبّ الدنيا، فإن الإنسان إذا أنس بها، واستعمل شهواتها وانهمك فى لذاتها، والتبس فى[7] علائقها فإنه يثقل مفارقتها على قلبه، فعند ذلك يمتنع قلبه عن الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن قلبه وأزاله عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا، فلا يزال يتوهمه، ويقدّره فى نفسه، ويقدّر توابع البقاء، وما يحتاج إليه من أهل ومال ودار وأصدقاء ودواب، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، موقوفًا عليه، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه، وإن خطر له فى بعض الأحوال من الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف قلبه، ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك فاصبر حتى تكبر ثم تتوب، فإذا كبر قال له: إذا كنت شيخًا، فإذا صار شيخًا قال إلى: أن تفرغ من عمارة هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من قهر هذا العدو، فلا يزال يسوف، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه، فيطول

(1) حلية الأولياء، 6/ 91. شعب الإيمان، 7/ 355.
(2) الزهد، لابن المبارك، 99.
(3) صحيح البخارى، 5/ 2360. بلفظ: «يكبر ابن آدم، ويكبر معه اثنان: حب المال، وطول العمر».
(4) قصر الأمل، أبو بكر عبد الله بن أبى الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط2، عام 1997م، بيروت، لبنان، 36.
(5) إحياء علوم الدين، 4/ 454.
(6) قصر الأمل، لابن أبى الدنيا، 48.
(7) فى (د،ك،م) سقط: فى، و زيادة: الباء.

عند ذلك حزنه. وأكثر أهل النار صياحهم من (سوف) يقولون: وا حزنا من سوف.

السبب الثانى: الجهل، فهو أن الإنسان قد يُعوّل على عصارة شبابه وحداثة سِنه، فيستبعد الموت مع الشباب ولا يتفكر المسكين أن مشائخ بلده لو عدوا لكانوا أقلّ من عشر رجال البلد، وإنّما قلوا؛ لأنّ الموت فى الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشباب[1]، وقد يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدرى أن ذلك غير بعيد، فإذا كان ذلك غير بعيد فالموت فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنّما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكّر العاقل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من الشباب والمشيب والكهولة، ومن صيف وشتاء وخريف وربيع، ومن ليل ونهار لعظم استشعاره للموت واشتغل بأخذ الأهبة له، ولكنه جهل بهذه الأمور مع حبّ الدنيا، وهما اللذان دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب.

المقام الثالث: فى بيان دفع الأمل وعلاجه

واعلم أنّ علاجه إنّما يكون بدفع أسبابه، وهما السببان اللذان ذكرناهما: حبّ الدنيا، والجهل، والتفكر، فهذه علاجات أربعة:

العلاج الأول: فى إزالة حب الدنيا عن قلبه، وهو عسير صعب؛ لأنه الداء العضال، والذى يستولى على أفئدة العقلاء فضلاً عن الجهال، ولا علاج فى دفعه إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب، وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حبّ الدنيا وزال، وإن حبّ الحظير[2]هو الذى يمحو عن القلب حبّ الحقير، وإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة فإنه يستنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها، وإن أُعطى ملك الأرض من المشرق والمغرب فكيف وليس لكل عبد من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص، فأنّى له أن يفرح بها أو يترشح فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة.

العلاج الثانى: تقرير الموت فى قلبه، وهذا نحو أن ينظر إلى من مات من الأقران والأشكال فإنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا لنزوله فيه، فأما من كان مستعدًا فقد فاز فوزاً عظيمًا، وأما من كان مغرورًا بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبينًا.

العلاج الثالث: أن ينظر الإنسان فى كل ساعة فى أطرافه وأعضائه، وليتدبر فيها كيف تأكلها الهوام والدود فى قبره فتبدأ بحدقته اليمين أولاً ثم باليسرى ثانيًا، ثم سائر جسده فلا يبقى على يديه شىء إلا وهو طعمة للدود، وما له من نفسه إلا العمل

---

(1) فى (ك،م) شاب، وفى (د) سقط.

(2) الحظر: الحجر والمنع، والحظير الممنوع. ينظر: لسان العرب، مادة (حظر).

الصالح والعلم النافع، و[1] يتفكر فيما يستورده من عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، ومن الحشر والنشر وأهوال يوم القيامة وغير ذلك من الأمور الهائلة التى تدعوه إلى قصر الأمل وأخذ أهبة الاستعداد .

العلاج الرابع: بدفع الجهل، و[2]دفعه إنّما يكون بالتفكر الصافى من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة من القلوب الطاهرة، فهذه العلاجات كلها بها تندفع أسباب طول الأمل، فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده التاركين لها .

المقام الرابع: فى بيان مراتب الناس فى طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس يتفاوتون فى ذلك، فمنهم من يأمل البقاء ويحب ذلك أبدًا، كما قال تعالى: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾[3]، ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم، وهو أقصى العمر الذى شاهده وراءه، وهذا هو الذى يحبّ الدنيا حبًّا شديدًا . قال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– : «الشيخ شاب فى حبّ طلب الدنيا، وإن التفت ترقوتاه من الكِبَر، إلا الذين آمنوا وقليل ماهم»[4]، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراْه، ولا يقدّر لنفسه وجودًا فى عام قابل، ولكن هو[5] يستعد للصيف للشتاء وللشتاء للصيف، فإذا جمع ما يكفيه لسَنَة اشتغل بالعبادة، ومنهم من يأمل مدّة الشتاء أو الصيف لا غير ولا يدخر للصيف ثياب الشتاء، ولا فى الشتاء ثياب الصيف، ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعد إلا لنهاره ، وأما الغد فلا يعدّ له شيئًا ، ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة واحدة، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح»[6]، ومنهم من لا يقدّر البقاء ساعة واحدة، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا هو الذى يصلى صلاة مودع، وفيه ما ورد عن معاذ لما سأله رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– عن صفة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أن لا أتبعها أخرى[7]، فهذه مراتب الناس فى الأمل، ولكل درجات عند الله تعالى، فليس من أمله مقصور على أسبوع كمن أمله مقصور على شهر، بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله تعالى، فكل من يدعى أنه قصير الأمل فربما كان كاذبًا، وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب عينيه لا يغفل عنه ساعة واحدة، ويكون مستعدًا لنزوله،

---

(1) فى (د،ك،م) زيادة: كذلك.
(2) فى (د،ك،م) الفاء بدلاً عن الواو.
(3) سورة البقرة من الآية 96 .
(4) مسند أحمد ، 2/ 358، سنن الترمذى، 4/ 570 . بلفظ: «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: طول الحياة، وكثرة المال» . إحياء علوم الدين،458/4 .
(5) فى (د،م) هذا بدلاً عن: هو.
(6) المعجم الكبير، 12/ 417 .
(7) حلية الأولياء، 1/ 242 .

ويبادر[1] الأعمال الصالحة قبل أن يحال بينه وبينها بالموت.

(1) في (د،ك،م) ليبادر.

الحديث الثانى عشر

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ لَنْ يَعْدُوَ امْرُأً مَا كُتِبَ لَهُ، فَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ، وَإِنَّ الْعُمْرَ مَحْدُودٌ لَنْ يَتَجَاوَزَ أَحَدٌ مَا قُدِّرَ لَهُ، فَبَادِرُوا قَبْلَ نَفَادِ الأَجَلِ، وَالأَعْمَالُ مَحْصِيَّةٌ**– قال السيد[1]: الوُجه مُحْصاة– **لَنْ يُهْمَلَ مِنْهَا صَغِيرَةٌ وَلاَ كَبِيرَةٌ، فَأَكْثِرُوا مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ فِى الْقُنُوعِ لَسَعَةً، وَإِنَّ فِى الاقْتِصَادِ لَبُلْغَةً، وَإِنَّ فِى الزُّهْدِ لَرَاحَةً، وَلِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءٌ وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ**»[2] .

فنقول: الحمد لله المنعم المتفضل الذى ضمن لجميع الحيوانات أرزاقها، وتكفّل لها بكرمه، ولطفه مصالحها، وقدر أقواتها، المدبر الملك[3] والملكوت، المتفرد بالعزّة والجبروت، الرافع للسماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد، الذى صرف أعين ذوى العقول عن الإحاطة بجلاله، وكفّ أناسى أبصارهم عن التطلع، والاستيلاء على حقيقة كماله، الذى لا مدبر للخلق سواه، ولا نتوكل ولا نعبد إلا إياه، علمنا بأنه الواحد الصمد الإله ، وتحققنا بأن جميع أصناف[4] الخَلْق عباد أمثالهم، لا يبتغى من عندهم الرزق، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، فلما تحقق أهل البصائر أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا على الله حقّ توكله،﴿ **وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾[5] ،﴿ **فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ** ﴾[6]، ورضوان ، وقنعوا واطمأنت قلوبهم إلى ما قسمه لهم الرحمن.

والصلاة على القامع للأباطيل، والهادى إلى الدّين الحنيف، والماحى لجميع الأضاليل، وعلى آله الطيبين الأعلام الطاهرين البررة الكرام، واعلم أن هذا الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور ثلاثة:

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه بحثان:

---

(1) المقصود هو الشريف الرضى. ينظر: متن الحديث العاشر.

(2) الأربعون حديثًا السيلقية،24.

(3) فى (د،ك،م) للملك.

(4) فى (د) سقط: أصناف.

(5) سورة آل عمران من الآية 173.

(6) السورة نفسها من الآية 174.

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

الرزق: ما ينتفع به العباد، ويجوز لهم تناوله، وليس لأحد منعه، **والقسمة:** توفير النصيب والإجزاء، **التعدى:** المجاوزة، **والإجمال:** التساهل والأخذ باليسر.

الطلب: التحصيل للشىء، **العمر:** هو أيام حياة الإنسان، **الحدّ:** المقدار. **المجاوزة:** ما زاد على المقدار المحدود، **والمبادرة:** المعاجلة. **النَّفاد:** الزوال والانقطاع، **والعمل:** ما يفعله الإنسان وتتعلق به قدرته. **الإحصاء:** هو الإحراز. **الإهمال:** هو التضييع. **الصغيرة من الأعمال:** ما لا يعرج عليه ولا يكون له قدر، **والكبيرة:** ما كان وراء ذلك كله بالإضافة إلى وضع اللغة، وأما **الصغيرة** فى الشرع، فهى كلما كان عقابها مكفرًا فى جنب ثواب صاحبها، وأما **الكبيرة**، فهى كلما كان ثواب صاحبها محبطًا فى مقابلة عقابها، **وتنقسم الكبائر إلى** ما يكون مشروعًا فيها الحدود، كالزنا والسرقة وشرب المسكر،وإلى ما لا يكون كذلك، وهو نحو الفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم ظلمًا، فإن الوعيد حاصل فى حق هاتين المعصيتين من غير حدود عليهما .

وتنقسم الصغيرة إلى مُحققة، ومقدرة؛ فالمحققة فى حقّ المؤمن فإن ثوابه المحقق مكفر لعقابها، والمقدرة فى حقّ الكافر فإن عقابها إنما ينحبط[1] فى مقابلة ثوابه لو كان له ثواب، وهكذا حال الكبيرة فإنها تكون محققة ومقدرة؛ فالمحققة فى حقّ المؤمن إذا فسق فإنها محبطة لثوابه الحاصل قبل الفسق، **والمقدرة** تكون[2] فى حقّ الكافر فإنّها محبطة لثوابه إذا كان له ثواب مستحق تقديرًا؛ لأن ثوابه قد سقط وحبط بكفره، **والإكثار:** نقيض الإقلال، **والصالح:** نقيض الفاسد، **والعمل:** ما يضاف إلى الإنسان من أفعال القلوب والجوارح.

القنوع والقناعة مصدران لـقنع[3]، فالقنوع كالدخول، والقناعة مثال الزهادة، وهما مصدران فى الثلاثى، **والسعة:** نقيض الضيق، **والاقتصاد:** هو الاكتفاء بالقليل عن الكثير، **والزهد:** الامتناع من الشىء، **والراحة:** نقيض التعب، **والجزاء:** ما كان فى مقابلة العمل، **والآتى:** نقيض الماضى، **والقريب:** نقيض البعيد، والله أعلم.

البحث الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم الإعرابية

«**إنَّ**»هاهنا مؤكدة، و«**الرزق**» منصوب؛ لأنّه اسمها، و«**مقسوم**» مرفوع على أنه خبرها، و«**لن**» حرف[4] لتأكيد ما تعطيه

---

(1) فى (د) يحبط. ﴿ولعل المناسب فى السياق: يحبط﴾.

(2) فى (د) سقط: تكون.

(3) فى (ك) لتقنع. ﴿والسليم: قنع﴾.

(4) فى (د،ك) سقط: حرف. وفى (د،م) زيادة: محذوف. وفى (ك) زيادة: حذف.

«**لا**» من نفى المستقبل، فإنهما جميعًا – أعنى لا، ولن– موضوعان لنفى الفعل المستقبل[1]، خلا أن «**لن**» أقعد منها؛ لأنها تفيد المبالغة، فى النفى كما قال تعالى: ﴿ **لَن تَرَىٰنِى** ﴾[2] مبالغة فى نفى الرؤية عنه[3].

«**يعدو**» منصوب بـ «**لن**»، و«**امرأً**» منصوب على المفعولية، و«**ما**» موصولة فى موضع رفع على الفاعلية لـ «**يعدو**»، ويحتمل أن تكون مصدرية، والأول أظهر، والجار والمجرور فى موضع المفعول، و«**الهاء**» هى العائدة من الصلة على الموصول. «**الفاء**» فى «**فأجملوا**» للاستئناف، وهو فعل أمر مبنى على السكون فى الفعل المفرد، وهو هاهنا مبنى على ما يجزم به، وهو حذف النون، والجار والمجرور فى موضع نصب على المفعولية.

«**الفاء**» فى قوله: «**فبادروا**» للعطف جملة على جملة قبلها، وهى قوله: «**فأجملوا**» فإنهما جملتان للأمر مشتركتان فى كونهما للإنشاء، فلا جرم حسن العطف لأحداهما على الأخرى، ويحتمل أن تكون[4] للاستئناف أيضاً، و«**قبل**» منصوب على الظرفية للزمان، وهو مضاف إلى ما بعده، و«**نفاد**» مجرور بإضافة ما قبله إليه، و«**الأجل**» مجرور بإضافة المصدر وهو« **نفاد**» إليه. «**والأعمال محصية**» جملة ابتدائية مرفوعة، وهى فى موضع نصب على الحال من الضمير فى «**بادروا**» كقولك: سرنا والشمس طالعة، و«**الواو**» هاهنا: سادة مسد الضمير، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب منقطعة عمّا قبلها، معطية فائدة جديدة.

قال السيد– رضى الله عنه–: «**الوجه محصاة**»، والأمر كما قال؛ لأن القياس المطّرد فى التصريف أن (الواو)، و(الياء) إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفين، كقولك: غزا ورمى فى الأفعال، وعصا ورحى فى الأسماء، لكنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء به على الأصل منبهًا به على أن الأعلال فى الأفعال أصل[5]، وهو من الأسماء دخيل[6]، وإنّما أعلّت الأسماء بالقلب لّما كانت ضاربة بعرق فى الأفعال بالاشتقاق منها، فلأجل هذا كان «**محصاة**» هو الوجه لجريانه على قواعد التصريف بالقلب، وجاء «**محصية**» منبهًا على ما ذكرناه من أن الإعلال دخيل فى الأسماء[7] كما ذكرناه.

---

(1) فى (د) سقط: فإنهما جميعًا– أعنى لا، ولن– موضوعان لنفى الفعل المستقبل.
(2) سورة الأعراف من الآية 143.
(3) فى (د) سقط: عنه.
(4) فى (د،م) زيادة: الفاء.
(5) فى (د،ك،م) الإعلال فى الأفعال دخيل. والسليم: الإعلال فى الأفعال أصل. ينظر: حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، محمد بن على الصبان، مكتبة الإيمان،(ت)، المنصورة، مصر، 4/ 473.
(6) فى (د،ك،م) الإعلال فى الأسماء أصل. والسليم: الإعلال فى الأسماء دخيل. ينظر: نفسه، 4/ 473.
(7) فى (د) فى الأفعال. ﴿وهو غير سليم﴾.

«**لن يهمل**»: منصوب بـ «**لن**». «**منها**» جار ومجرور فى موضع المفعول، و«**صغيرة**» و«**كبيرة**» مرفوعان لقيامهما مقام الفاعل، و«**من**» لابتداء الغاية، ويحتمل أن تكون للتبعيض. «**فأكثروا**» جملة أمرية إنشائية معطوفة على ما قبلها من قوله: «**أجملوا**»، و«**بادروا**» فكلها جمل متساوية.

«**من صالح العمل**» جار ومجرور متعلق بـ «**أكثروا**» فى موضع المفعول له، و«**صالح العمل**» اسم فاعل مضاف إلى فاعله وهو «**العمل**»، وأسماء الفاعل إذا كانت غير متعدية فإنها تنزل منزلة الصفة المشبهة باسم الفاعل فى جواز إضافتها إلى فاعلها، كقولك: حسن الوجه، ولا يجوز ذلك إذا كانت متعدية، فلا يجوز أن يقال: ضارب زيد عمرًا؛ لأنّه يكون إضافة الشىء إلى نفسه.

«**أيها الناس**» مضى تقرير إعرابه. «**إن فى القنوع لسعة**» جملة مؤكدة بـ «**إن**» تامة باسمها وخبرها، و«**اللام**» فى قوله «**لسعة**» هى (لام) الابتداء جاءت مؤكدة أيضًا كتأكيد «**إن**» خلا أنّها أخّرت لأجل دخول «**إن**» مخافة اجتماع مؤكدين، فلا جرم أخرت إلى الخبر، والجار والمجرور فى موضع رفع على الخبر لـ «**إن**». «**وإن فى الاقتصاد لبلغة**» مثل الجمل الأولى فى الإعراب والتأكيد، وهكذا قوله: «**وإن فى الزهد لراحة**» كلها جمل مترادفة دالة على ما ذكرناه من الإعراب. «**ولكل عمل جزاء**»جملة ابتدائية مقدم خبرها عليها. «**وكل آت قريب**» جملة ابتدائية، ولا موضع لهاتين الجملتين من الإعراب؛ لأنهما فى حكم المبتدأ بهما لم يتقدمهما عامل، فيكون لهما محل من الإعراب كما ترى، و«**آت**» اسم منقوص كقاضٍ، وهو اسم فاعل من الإتيان، حذفت ياؤه على جهة التخفيف؛ لما ثقل عليها الرفع والجر، وهذه الكسرة فيه من أجل التقاء الساكنين، وقد ذكرنا وجه تعليله وطريقه فى كتابنا (**الحاصر فى علم الإعراب**)[1]، والحمد لله، و«**كل**» من ألفاظ العموم الشاملة؛ لما يندرج تحتها المستغرقة له لا يخرج عنها شىء إلا بدليل خاصٍ دالٍ على الإخراج، وهذه هى فائدة العموم والاستغراق.

النظر الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم فى البلاغة

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما يشتمل عليه من العلوم المعنوية

وله مواقع أربعة[2]:

---

(1) وهو الحاصر فى شرح مقدمة طاهر، مجلد (فى النحو)، وورد باسم الحاصر لفوائد مقدمة طاهر. ينظر: أعلام المؤلفين الزيدية، 1127. قُدم رسالة ماجستير مقدمة من زكريا محمد حسن على إلى كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام1994م، القاهرة، مصر، بالعنوان الأخير.

(2) فى (د،ك،م) سقط: أربعة.

الموقع الأول: الجمل المؤكدة بـ «**إنّ**»، فى قوله: «**إنّ الرزق. . .** »، و«**إنّ فى القنوع لسعة . . .**» إلى آخر الجمل، فهذه جمل جاءت على جهة التأكيد مصدرة بـ «**إنّ**».

الموقع الثانى: الجمل الإنشائية، فى نحو قوله: «**أجملوا**»، و«**بادروا**»، و«**أكثروا**»، فهذه جمل أيضًا واردة على جهة الإنشاء دالة على الزجر والمبالغة فى الوعظ.

الموقع الثالث: تقديم الأخبار على الأسماء، فى نحو قوله: «**إنّ فى القنوع لسعة، وإنّ فى الاقتصاد، وإنّ فى الزهد**»، وإنّما قدم على جهة العناية بذكره والاهتمام بحاله.

الموقع الرابع: الفصل والوصل، فالفصل فى قوله: « **إن الرزق مقسوم**»، فإن الجملة آتية من غير (واو) وهو فصل، والجملة الثانية مصدرة بـ «**إن**» مع (الواو) لأجل الوصل بها، فهذه كلها أسرار متعلقة بعلوم المعانى، وقد أشرنا إليها على جهة الاختصار فيها.

المطلب الثانى: فى بيان ما تضمنه من علوم البيان

وهو مشتمل على استعارات، ومجازات نوضحها بمعونة الله:

المجاز الأول: مركب، وهو إسناد الفعل، وهو قوله: «**يعدو**» إلى «**الرزق**» وليس «**الرزق**» فاعلاً على الحقيقة إنما هو مجاز لا غير.

سؤال: معنى «**يعدو**» يجاوز، والواحد منا كما لا يجاوز رزقه، فرزقه أيضًا لا يجاوزه، فكل واحد منهما يصلح أن يكون فاعلاً للمجاوزة، فأراه خصّ «**الرزق**» بكونه فاعلاً ولم يعكس الأمر.

وجوابه: هو أنّ كل واحد منهما يصلح أن يكون فاعلاً كما ذكرت، لكنّه إنما خصّ «**الرزق**» بكونه فاعلاً لمّا كان الكلام موجهًا إلى «**الرزق**»، فلهذا كانت «**ما**» موصولة فى موضع رفع على الفاعلية لـ «**يعدو**»، والضمير عائد من الصلة.

المجاز الثانى: اللامان فى نحو[1] قوله: «**كتب له**»، و«**قدر له**» إنما حصلا على جهة المجاز؛ لأنهما حقيقة للملك ولا ملك هاهنا، فلهذا كانا مجازين.

المجاز الثالث: قوله: «**محصية**»؛ فإنه وارد على جهة المجاز، بالإضافة إلى ما اطرد فى الاستعمال من إعلاله، فصار مجازاً بالإضافة إلى الاستعمال المطرد.

---

(1) فى (د،م) سقط: نحو.

المجاز الرابع: قوله: «**فى القنوع**» وقوله: «**فى الاقتصاد**» و«**فى الزهد**» فإن «**فى**» هاهنا واردة على جهة المجاز؛ لأنها للمكان والظرفية، وليس هاهنا حقيقة للظرفية.

المجاز الخامس: قوله: «**لكل عمل جزاء**» فإن العموم هاهنا يُراد به الخصوص؛ لأن المباحات من جملة الأعمال، وليس عليها جزاء، فلهذا كان العموم واردًا على جهة المجاز والاستعارة.

المجاز السادس: قوله: «**وكل آت قريب**» إنما ورد على جهة الاستعارة، فإن يوم القيامة آت وهو بعيد؛ لأنّ لكلامه هذا من يوم تكلم به سبعمائة سنة، فما هذا حاله وارد على جهة الاستعارة، فهذا ما أردنا ذكره مما تضمنه من علوم البيان.

المطلب الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع

وجملة ما تضمنه من ذلك ممّا يكون متعلقًا بعلوم البلاغة، فمن ذلك: **التسجيع**، فى قوله: «**الرزق مقسوم**»، و«**العمر محدود**» فقد استويا فى الأوزان لآخر الكلم، ومن **الطباق**، قوله: «**صغيرة ولا كبيرة**»، ومن **التجنيس**، قوله: «**إنّ فى القنوع**...، **وإنّ فى الاقتصاد**» مكرران فى أوائل الجمل المؤكدة بها تجنيس لا محالة، وهكذا قوله فى قوله: «**كتب له**، ... **وقُدر له**» تجنيس أيضًا.

سؤال: أراه رفع **أحدًا** فى قوله: «**لن يتجاوز أحد ما قدر له**»، ونصب «**امرأً**»، وكل واحد منهما يصلح أن يكون فاعلاً ومفعولاً فى الحالين جميعًا، فما وجه التفرقة بينهما؟

وجوابه: إن التفرقة بينهما ظاهرة، فإن المقصود فى الأول الرزق، فلهذا رفعه، والمقصود هاهنا أن الواحد منا لا يتجاوز العمر الذى قدر له، فلهذا افترقا.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده فى كلامه هذا[1]

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ** ...، **فَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ**». اعلم أن الله تعالى لم يخلق أحدًا إلا وقد جعل له رزقاً يعيش به، ويصلح به نفسه كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾[2]، ثم جعلهم فى الرزق على مراتب؛ لما يعلم فى من المصلحة، فمنهم الموسع عليه فى رزقه، ومنهم المقتّر عليه فى رزقه فضيق عليه، ومنهم من هو متوسط بين الأمرين، رزقه يكون كفافاً من غير سعة لا تضييق، وقد أشار تعالى إلى ما ذكرناه بقوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ**

---

(1) فى (د) سقط: هذا.

(2) سورة هود من الآية 6.

﴾[1]، وقال:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾[2]، والرزق من جملة المصالح الغيبية التى لا يعلمها إلا الله، وهو المستأثر بعلمها والاستصلاح بها، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: « الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك »[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله»[4]، وقال عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا»[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص، ولا يردّه كراهة كاره»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»[7]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[8]، وهذه الآيات التى تلوناها، والأخبار التى رويناها كلها دالة على أن الله تعالى ضامن للرزق متكفل به، وأنه مفروغ منه، وسبق به علمه وخطّه فى لوحه المحفوظ، وأخبر به فى كتابه، وعلى لسان رسوله الصادق أنّه لا يزاد فيه ولا ينقص، ولا يتأخر عن صاحبه، ولا يقدر أحد على جلبه، ولا على منعه، وإذا كان الأمر كما قلناه من حال الأرزاق من كونها مضمونة وواصلة لا محالة، فينبغى الإجمال فى الطلب كما أشار إليه عليه السلام بقوله: «**أجملوا فى الطلب**»، وأراد اطلبوها برفق وسهولة من غير إلحاف فى السؤال، ولكن بالتعريض فى المقال وترك الكد الذى يؤدى إلى الإهمال والإخلال بالمفروضات فى مستقبل الأحوال وشغل النفس، وإلحاحها بسؤال الرجال، فما هذا حاله يكون فى الدِّين نقصًا وحطًّا من جانب المروءة، وعلى الرزق، وحرصًا، وقلّة ثقة بالله تعالى.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَإِنَّ الْعُمْرَ مَحْدُودٌ لَنْ يَتَجَاوَزَ أَحَدٌ مَا قُدِّرَ لَهُ، فَبَادِرُوا قَبْلَ نَفَادِ الأَجَلِ**» أراد أن الله تعالى تولى قسمة الآجال وطولها وقصرها وقدمها وآخرها، وجعل الموت غايتها وقصاراها ومزيل[9] أمرها ومنتهاها، وهو الجائح لأسطانها[10]، والقاطع لمرائر أقرانها، ودلّ كلامه صلى الله عليه وآله وسلم أن الأعمار محدودة حدّها علامُها على وجوه علم

---

(1) سورة النحل من الآية 71.

(2) سورة الإسراء من الآية 30.

(3) ورد أن الإمام علي– كرم الله وجهه– كتب إلى ابنه الحسن كتابًا، ومنه: «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك». ينظر: نهج البلاغة، 404. كنز العمال، 16/ 75.

(4) القضاء والقدر، أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى، تحقيق محمد عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان، ط1، عام 2000م، الرياض، المملكة السعودية، 210.

(5) المستدرك على الصحيحين، 4/ 354.

(6) حلية الأولياء، 5/ 106، شعب الإيمان، 1/ 221.

(7) مسند الشهاب، 1/ 341. بلفظ: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم».

(8) سورة الطلاق الآيتان 2، 3.

(9) فى (ك،م) موئل.

(10) الساطن: الخبيث. ينظر: لسان العرب، مادة (سطن).

حسنها من تطويل وتقصير على قدر مقدور، وحدّ محدود، وأن أحدًا من الخلق لا يمكنه تجاوز ما قدر له منها من تطويل طويلها وتقصير قصيرها وتقديم مقدمها وتأخير مؤخرها، ثم لمّا كان الأمر فيها كما أشار إليه أمر بالمبادرة قبل انقطاع الآجال ونفادها، فإنه لا سبيل لأحد إلى ردها ولا وسيلة لمخلوق إلى مجاوزة قصدها .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والأَعْمَالُ مُحْصَاةٌ**[1] **لَنْ يُهْمَلَ مِنْهَا صَغِيرَةٌ ولا كَبِيرَةٌ**» أراد صلى الله عليه وآله وسلم بالأعمال أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فإنها محفوظة محصورة بالكتابة في الصحف وشهادة الملائكة، وتحفظهم عليها، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾[2]، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة، كما قال تعالى: ﴿ **مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾[3] .

سؤال: ذكر أنّ «**الرزق مقسوم**»، و«**العمر محدود**»، وأردفه بقوله: «**والأعمال محصاة**[4]»، وليس له بالأول تعلق، فكاد أن يكون بينهما تنافر، فكيف الملاءمة بينهما ؟

وجوابه: أن الملاءمة حاصلة، وبيانه هو أنه عليه السلام لمّا ذكر الرزق، وعطف عليه العمر وأنهما محدودان معلومان ذكر على إثرهما الأعمال؛ لأنّ العمر إذا كان ممتدًا بإدرار الرزق، فالضرورة قاضية بأنه لا بدّ هناك من عمل من أعمال القلب، وأعمال الجوارح؛ لأنّه يستحيل في العبد أن يخلو من الفعل، فلهذا عقبه بذكره لمّا كان لا ينفك عنه بحال لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة أتى بـ «**لن**» لما كانت دالة على الاستغراق في النفي عن الإهمال، وقد أشار إلى هذا جلّ وعزّ كما قال: ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾[5] أيْ: مكتوب محفوظ.

واعلم أن المعاصي منقسمة إلى صغائر وكبائر كما أشار إليه الشرع، والصغيرة قد ذكرناها، وهل تكون معلومة أم لا ؟

فيه تردد بين المتكلمين، ومنعوا من الإعلام بها قبل فعلها، وجوزوا تعريفها بعد فعلها، والمختار جواز الإعلام بها قبل فعلها في حقّ من يؤمن من جهته عدم الإغراء، كما جاز تعريفه ببقائه مدة من العمر كثيرة[6]، وأما الكبائر، فهي موكلة إلى تعريف الشرع،

---

(1) لفظ الحديث: «والأعمال محصية» .
(2) سورة الانفطار الآيات 10– 12 .
(3) سورة الكهف من الآية 49 .
(4) لفظ الحديث: «والأعمال محصية» .
(5) سورة القمر الآيتان 52، 53 .
(6) في (د،ك،م) كبيرة.

وأما الطاعات فهى تنقسم أيضاً إلى كبائر وصغائر، ولا يعلم من الطاعات كبيرة إلا التوبة فإنها مكفرة لجميع العقاب الحاصل بالكبائر ومزيلة له، وهل تكون مزيلة للعقاب بنفسها أو بالثواب المستحق عليها ؟

فيه تردد بين المتكلمين، والمختار أنها مزيلة للعقاب بنفسها؛ لأن الأدلة الشرعية دالة على محوها للذنوب من غير واسطة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَأَكْثِرُوا مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ**» أمر بالإكثار من الأعمال الصالحة التى لا يشوبها شائب من جهة الرياء والسمعة والعمل لغير الله تعالى، وأعظم الأعمال الصالحة هو التوبة فإنها تمحو الذنوب وتغسلها وتدحضها، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ **ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾[2]، وفى الحديث: «أنى أتوب فى اليوم مائة مرّة»[3]، وفى حديث آخر: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله»[4] – بالغين المنقطوطة، والإغانة التغطية[5]، وأقلّ ما يفعلها الخادم[6] اليقظ فى أول يومه لما مضى فى ليله وفى أول ليله لما مضى فى يومه، فلا يمسى إلا تائبًا ولا يصبح إلا تائبًا، وعندها تنمو الأفعال،و تصلح الأعمال، ويرجى ما يحصل من الله تعالى من عظيم الآمال، اللهم اجعلنا ممّن تاب إليك وأناب، والفزع إلى التوبة هو دأب الأنبياء والأئمة من أهل البيت وأهل الصلاح– رضى الله عنهم–؛ لما تضمنته من إزالة الذنوب؛ ولما فيها من تعظيم الخالق، وخضوع المخلوق بالاعتراف بعظمته، والخوف من سطوته، فمن ألزمها نفسه فى معظم أوقاته فقد وفق للخيرات وفاز، ومن أعرض عنها فقد خسر وخاب، وفى الحديث: «يغفر الله للعالم أربعين ذنبًا قبل أن يغفر للجاهل ذنبًا واحدًا»[7]، وما ذاك إلا لأن العالم بعلمه يعرف أحكام الأفعال، ويتحقق عظمة الله تعالى وجلال كبريائه، فبوقعها على وجه يليق بالجلال والكبرياء.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ فِى الْقُنُوعِ لَسَعَةً، وَإِنَّ فِى الإِقْتِصَادِ لَبُلْغَة، وَإِنَّ فِى الزُّهْدِ لَرَاحَةً، وَلِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءٌ وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ**» اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أتى فى هذا بحكم خمس نوضحها بمعونة الله تعالى:

الحكمة الأولى: قوله: «**فى القنوع لسعة**»، وأراد أن كل من قنع بالقليل فى هذه الدنيا حصل له عوضان[8]:

---

(1) سورة نوح من الآية 10.
(2) سورة التحريم الآية 8.
(3) صحيح مسلم، 4/ 2075.
(4) نفسه.
(5) غين على قلبه غطى عليه. ينظر: لسان العرب، مادة (غين).
(6) فى (ك،م) الحازم. ﴿ولعل المناسب فى السياق: الحازم﴾.
(7) مسند الشهاب، 2/ 241.
(8) فى (د،م) عرضان.

أحدهما: أنه يفضى به القنوع إلى السعة فى الآخرة ونعيمها الواسع، **وثانيهما:** إن القنوع بالحلال وإن قلّ فيه سعة وغنية عن الحرام وإن كثر، وقد قال بعض أهل الصلاح: أدنى ما فى الدنيا يكفيك، فإن لم يكفك فليس ما فيها يكفيك، فطالب الكثير لا ينتهى إلى غاية؛ لأن الاحتواء على ما فى الدنيا كلّه مستحيل، وتحمله لو اتفق ثقيل، ومرعاه وخيم وبيل، ومتاع الغرور قليل، وليس إلى نيل الخلود سبيل.

الحكمة الثانية: قوله: «**إن فى الاقتصاد لبلغة**» اعلم أن الاقتصاد أصل قوى من أصول السلامة؛ لأن فيه النجاة من المهالك، وبالتمسك به يكون النجاة من جميع الشرور لكلّ سالك؛ لأن أهل التوسع فى الدنيا ربّما أفضت بهم السعة إلى ضيق الحساب، والوقوع فى ورط العذاب، وخير الزاد ما بلغ إلى الآخرة، وما زاد فوق ذلك فهو حسرة وندامة وحساب وعسرة وغرامة، ولقد صدق من قال: ما زاد فوق الزاد خلف ضائعًا فى حادث أو وارث أو عار.

الحكمة الثالثة: الزهد، فأما الزهد فهو تاج الإسلام، وعروة الإيمان، وعنوان السلامة، ورأس الدّين، وفيه نجاة العباد فى يوم التناد من جميع التبعات، وبه تزكو الأعمال الصالحات، ومن وفّقه الله للزهد فى الدنيا فقد خصّه بالكرامة، وأراد له السلامة، وهو الذى اختص به الأنبياء- عليهم السلام-، وتفاضل فيه أهل الصلاح والعبادة، وهو أحد الأوصاف فى الإمامة التى هى خلافة النبوة، فانظر إلى حاله ما أعلاه، وإلى قدره ما أسناه، وفيه راحة القلب والجوارح كما أشار إليه الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- هاهنا، ويؤيد ذلك ما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن لله خواص يسكنهم الرفيع من الجنان، كانوا أعقل الناس» قلنا:- يا رسول الله-، وكيف كانوا أعقل الناس؟ قال: «كانت همتهم المسابقة إلى ربهم والمسارعة إلى ما يرضيه، وزهدوا فى الدنيا وفضولها ورياشها ونعيمها، وهانت عليهم فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً»[1].

الحكمة الرابعة: قوله: «**لكل عمل جزاء**» اعلم أن الأعمال التى تجازى عليها نوعان:

فالنوع الأول: ما كان من قبل[2] الواجبات وترك المقبحات، وما كان من قبيل المندوبات وترك المكروهات، فما[3] هذا حاله يستحق عليه الثواب.

والنوع الثانى: يستحق عليه العقاب، وهو كل ما كان من فعل المقبحات وترك الواجبات، فإن ما هذا حاله يستحق عليه

(1) تيسير المطالب، 498. بلفظ: «إن لله خواص يسكنهم الرفيع من الجنة كانوا أعقل الناس» قلنا يا رسول الله، وكيف كانوا أعقل الناس؟ قال: «كانت نهمتهم المسابقة إلى ربهم، والمسارعة إلى ما يرضيه، وزهدوا فى الدنيا وفضولها ورياستها ونعيمها، وهانت عليهم فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً».

(2) فى (د،م) قبيل. ﴿ولعل المناسب للسياق: قبيل﴾.

(3) فى (ك،م) فإن ما.

العقاب من الله تعالى.

فأما **المباحات**، فليس يستحق عليها[1] ثواب ولا عقاب، وإنّما هو من قبيل ما يستوى فعله وتركه عند الله، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا** ﴾[2]، إلى غير[3] ذلك من الآيات الدالة على الاستحقاقات من ثواب أو[4] عقاب، و[5]هذا العموم شامل لكل عمل، إلا ما خصّ دلالة.

الحكمة الخامسة: قوله: «**وكل آت قريب**»، فهذا العموم شامل لكل ما ينتظر وقوعه فى المستقبل، فإنه وإن تباعد حصوله فهو قريب بالإضافة إلى تقريب الليالى والأيام، وما كان الموعود به عظيم من العقاب على المعصية، وكان الوعد عظيمًا أيضًا من الثواب وخاف أحدهما ورجا الآخر، فإنه يكون إلى الاجتهاد فيما هو بصدده من الأعمال الصالحة والانكفاف عن الأمور القبيحة، فمن كانت هذه حاله فقد فاز بالحظ الأوفر واختص بالنصيب الوافى، وأحرز القدح الأقمر ممّا[6] يكون فيه رضا لله تعالى وفوز بعظيم ثوابه، ولنختم كلامنا فى هذا الحديث بما يتلوه[7]، ويتعلق بأسراره، فنذكر علامات الزهد، ثم نردفه بالكلام فى تقسيم الزهد، ثم بالكلام فى كيفية استعمال الزهد، فهذه مقامات ثلاثة:

المقام الأول: فى بيان علامات الزهد

اعلم أنّه قد يُظن أن الزهد هو ترك المال، ولبس الصوف، وليس الأمر كما توهموه، فإن ترك المال وإظهار البعد منه سهل على كل من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهبانية ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام، ولازموا ديرًا لا باب له، وغرضهم بذلك معرفة الناس[8] حالهم ونظرهم إليهم، وإظهار المدح لهم بذلك، وهكذا الحال فى لبس الصوف، فإن قومًا ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون على الناس بذلك ليهدى إليهم مثل لباسهم، فهؤلاء ليسوا من الزهد فى وردّ ولا صدر، وإنما الزهد الذى يراد به وجه الله تعالى هو الذى يظهر عليه علامات أربع:

العلامة الأولى: أن لا يعرج بموجود من الدنيا، ولا يحزن على مفقود منها كما أشار إليه تعالى: ﴿ **لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا**

---

(1) فى (د) عليه.
(2) سورة الأنعام من الآية 160.
(3) فى (د) سقط: غير.
(4) فى (د) الواو بدلاً عن أو.
(5) فى (د،م) الفاء بدلاً عن الواو.
(6) فى (د) فيما.
(7) فى (د،ك،م) يليق به.
(8) فى (د،م) سقط:الناس.

﴿فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1] بل ينبغى أن يحزن لوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوى عنده مادحه وذامه:

فالأول: علامة الزهد فى الجاه، **والثانى:** علامة الزهد فى المال، فكلّ من اشتغل بنفسه شغل عن الناس. وهذا مقام العاملين، ومن شغل بربه شغل عن نفسه، وهذا مقام العارفين.

العلامة الثالثة: أن يكون أُنسه بالله، فلا يأنس بأحد غيره، وأن يكون الغالب على قلبه حلاوة الطاعة؛ إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة؛ إما محبة الدنيا، وإما محبة الله تعالى، وهما فى القلب كالماء والهواء فى الإبريق، فالماء إذا دخل خرج الهواء، ولا يجتمعان أبدًا، فكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولهذا قيل لبعض الزهاد: إلى ماذا أفضى بكم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله[2].

العلامة الرابعة: أن يستوى عنده الغنى والفقر، والعزّ والذلّ، والمدح والذم، وكلّ ذلك إنما كان من أجل أُنسه بالله واطراحه لما عداه. قال بعض الزهاد: الزهد عزف النفس عن الدنيا بلا تكلف. وقال آخر: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا رياء، وقول بلا طمع، وعزّ بلا رئاسة، وقال آخر: جعل الله الشرّ فى بيت، وجعل مفتاحه حبّ الدنيا، وجعل الخير فى بيت وجعل مفتاحه حبّ الزهد.

المقام الثانى: فى تقسيم الزهد

وينقسم إلى: فرض، ونفل، وسلامة، فالفرض، فهو الزهد فى الحرام؛ لأنّ ترك الحرام فرض على كل مسلم، وفى ذلك إحراز العدالة، وأما الفضل[3]، فهو الزهد فى الحلال؛ لأن خلاف ذلك لا يضرّ فى الدِّين، ويكون سالمًا بتركه، وأما السلامة، فهو الزهد فى ترك الشهوات، ولهذا قيل لمالك بن أنس[4]: ما الزهد؟ قال: التقوى، ودرجات الزهد متقاربة بعضها أرفع من بعض، ومن أقصى مراتب الزهد ما يُحكى عن عيسى– عليه السلام– أنه توسد يومًا حجرًا فى نومه، فقال له إبليس: أما كنت تركت الدنيا، فقال له: فما الذى بدأ لك منى؟ وما الذى تجدد؟ قال له: توسدت الحجر وتنعمت برفع رأسك عن الأرض فى النوم، فرمى بالحجر وقال:

---

(1) سورة الحديد من الآية 23.

(2) ينظر: إحياء علوم الدين، 2/ 227.

(3) فى (د) النفل. ﴿وهو الأنسب حيث ذكره المؤلف عند تقسيم الزهد﴾.

(4) وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى المدنى، الفقية إمام دار الهجرة، قال البخارى: أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع، توفى سنة 76هـ. ينظر: تقريب التهذيب، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، ط1، 1986م، دمشق، سوريا، 1/ 156.

خذها فقد تركتها لك[1]، وروى عن يحيى بن زكريا– عليه السلام– أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده فسألته أمه أن يلبس مكانها جبّة من صوف ففعل، فأوحى الله إليه:– يا يحيى– آثرت عليّ الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان[2]، ويُحكى أن عيسى– عليه السلام– جلس فى ظل حائط لإنسان، فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتنى أنت وإنما أقامنى الذى لم يرض لى أن أتنعم بظل الحائط[3].

المقام الثالث: فى كيفية استعمال الزهد فيما هو من ضرورات الحياة

اعلم أن كل ما كان الناس منهمكين فيه فهو ينقسم[4] إلى: **فضيلة**[5]، **ومُهم**، **فالفضيلة**[6]: الخيل المسوّمة مثلاً، فإن الإنسان يقتنيها، وهو قادر على المشى، وأما **المهم**: فالأكل والشرب، ولا حاجة بنا إلى تفصيل أصناف الفضلات، فإن ذلك يعسر ولا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضرورى، والمهم أيضًا يتطرق إليه فضلات فى مقداره، وجنسه، وأوقاته، فلا بد من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة: المطعم، والملبس، والمسكن، والنكاح، والأثاث، والمال.

المهم الأول: المطعم، ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم به صلبه، وأقلّ درجات الزهد الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدته، وخوف المرض، وله جنس، ومقدار ووقت نفصلها، أما **جنسه:** فالبُرّ أعلاه، والأوسط الشعير والذرة، وأدناه النخالة، وأما قدره فأقله نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ، هذا كله فى اليوم والليلة لمن أراد التزهد، وأما وقته فأدناه فى اليوم والليلة أكلتان، وأوسطه فى اليوم أكلتان، وأعلاه أن يطوى اليومين فلا يأكل فيهما شيئًا بعد الرياضة، فاما تركه دفعة واحدة فذلك مما يشق فعله.

المهم الثانى: الملبس، وأقلّ درجاته فى الزهد ما يدفع الحرّ والبرد، ويستر العورة وهو كساء يتغطى به ، وأوسطه قميص وقلنسوة، وأعلاه قميص وقلنسوة وسراويل ونعل، فما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز لحدّ الزهد، وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه، بل يلزمه القعود فى البيت، فإذا كان له اثنان من ذلك فهو خارج عن حدّ الزهد، وأما **جنسه،** فأقلّه المسوح الخشن، وأوسطه الصوف الخشن، وأعلاه القطن الغليظ، وأما **وقته،** فأقصاه ما يستره سنة، وأقله ما يبقى أسبوعًا، وأوسطه ما يبقى شهرًا، وطلب ما يبقى فوق السنة خروج إلى طول الأمل، فهو مضاد للزهد، ولقد كان رسول الله– صلى الله

---

(1) إحياء علوم الدين، 34/3.
(2) نفسه، 4/ 229.
(3) نفسه.
(4) فى (د،م) منقسم.
(5) فى (د) فضلة. ﴿ولعل المناسب: فضلة﴾ .
(6) فى (د،م) فالفضلة.

عليه وآله وسلم- يحب الاقتصاد فى الأمور كلّها، وربما شرع لأمّته ما شرع[1]، وكان اشترى ثوبًا بأربع دراهم[2]، وكان يساوى عشرة، وكان إزاره أربعة أذرع ونصف[3]، واشترى سراويل بأربعة دراهم[4]، وفى الحديث: كان قميص رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- كأنه قميص زيات من الدرن[5]، ولبس رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يومًا حلة سيراء من سندس قيمتها مائتا درهم أهداها له المقوقس ملك الاسكندرية، ثم نزعها ووهبها لرجل من المشركين فى مكة[6]، ثم حرم الديباج، ولبس يومًا خاتمًا من ذهب ثم نزعه، وحرم لبسه على الرجال[7].

المهم الثالث: المسكن، وأعلى الزهد فيه أن لا يطلب موضعًا يسكنه لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصّفّة، **وأوسطها** أن يطلب موضعًا يسكنه من خوص أو سعف، **وأدناه** أن يُطلب حجر مبنية باللبن إما شراء أو إجارة، فإن كان قدر سعته على قدر حاجته من غير زيادة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهاد، فإن طلب السعة بكثرة الأزقة والزينة بالجصّ وارتفاع الأبنية وزينتها، فهو خارج عن حدّ الزهد لا محالة، ولقد توفى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، قال عبدالله بن عمر: مرّ رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن نعالج خصًّا لنا، فقال: «ما هذا»؟ فقلنا: خصّ قد وهى، فقال: «أرى الأمر أعجل من ذلك»[8].

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه درجات أعلاها حال عيسى- عليه السلام-؛ إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز، فرأى يومًا إنسانًا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب بكفه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة، **وأوسطها** أن يكون له أثاث بقدر الحاجة، لكن ينبغى أن تكون الآلة الواحدة تصلح لحوائج كثيرة، كالقصعة فإنها للشرب والعجين والغسل، والوضوء وغير ذلك، **وأدناها**[9] أن تكون له آلة بعدد كل حاجة، فإن زاد فى العدد فهو خارج عن حدّ الزهد والعبادة، وطلب الفضلات التى لا يحتاج إليها، ولينظر الزاهد إلى سيرة رسول الله- صلى الله عليه وآله

---

(1) فى (ك) يشرع.

(2) إحياء علوم الدين، 4/ 232.

(3) نفسه، 4/ 232.

(4) مسند أبى يعلى، 11/ 24.

(5) إحياء علوم الدين، 4/ 232. والزيات: الذى يبيع الزيت. ينظر: لسان العرب، مادة (زيت). والدرن: الوسخ. ينظر: نفسه، مادة (درن).

(6) إحياء علوم الدين، 4/ 232.

(7) صحيح البخارى، 5/ 2202.

(8) سنن ابن ماجة، 2/ 1393. سنن الترمذى، 4/ 568.

(9) فى (د) أعلاها.

وسلم- وسيرة أصحابه، فلقد كانوا فى غاية الزهد، قالت عائشة[1]- رضى الله عنها-: كان ضجاع الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف[2].

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد فى أصله، ولا فى كثرته، ولقد كان أزهد الصحابة، وأعلاهم فى الزهد هو على بن أبى طالب فقد كان معه أربع زوجات وبضع عشرة سرية، والمختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، وإن كان الشبق شاغلاً له فقد يكون واجبًا إذا كان لا يأمن على نفسه، وإن كان أجمع على المواظبة على العبادات فهو مستحب فى حقّه، وإن كان غير ذلك فهو مباح فى حقّه، فإذا كان الأمر كذلك فمن كان لا يشغله كثرة النسوة، ولا يشغل[3] قلبه بإصلاحهن، والإنفاق عليهن فلا معنى لزهده فى ذلك حذرًا من مجرد لذّة الجماع والنظر إليهن، ولكن أنّى يكون ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الخلق يشغلهم كثرة النسوان، فالأحسن أن يراعى فى ذلك قلبه ويعمل على ما يكون فيه موافقة لإصلاح حال الآخرة من حاله.

المهم السادس: ما يكون وصْلة إلى هذه الأمور الخمسة، وهو المال، فهو ضرورى فى إصلاح المعيشة، أعنى القليل، فإن كان الرجل كسوبًا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك التكسب،[4]هذا شرط الزهد، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سَنة، فقد خرج عن حد عادة الزهادة، ونعنى بخروجه عن حد الزهد أن كل ما وعد الله به الزاهدين فى الدارالآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضولات والكثرة، فهذا ما أردنا ذكره فيما ينبغى للزاهد استعماله من هذه المهمات على جهة الاختصار، وقد قال بعض الزهاد: الزاهد الذى يصدق فى زهده قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، والدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكره، والقرآن حديثه، والرّبّ أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره و الجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل جيشه، والعقل دليله و العبادة حرفته و الجنة مبلغه، والله أعلم.

---

(1) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة بن عامر- رضى الله عنهما-، تزوجها النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهى ابنة ست سنين، وبنى بها وهى ابنة تسع سنين، توفيت سنة 57هـ، وقيل: 58هـ، ودفنت بالبقيع. ينظر: طبقات ابن سعد، 8/ 58- 77. الاستيعاب، 4/ 1881، 1885.

(2) سنن أبى داود، 4/ 71.

(3) فى (ك،م) يشتغل.

(4) فى (د) زيادة: الواو.

الحديث الثالث عشر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ أَوْ مَوَاعِظِهِ: **«أَمَا رَأَيتُ الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، وَالْمُزْعَجِينَ بَعْدَ الطُّمَأْنِينَةِ، الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَجَنَحُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ، حَتَّى أَتَتْهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ، فَلاَ مَا كَانُوا أَمَّلُوا أَدْرَكُوا، وَلاَ إِلَى مَا فَاتَهُمْ رَجَعُوا، قَدِمُوا عَلَى مَا عَمِلُوا، وَنَدِمُوا عَلَى مَا خَلَّفُوا، وَلَنْ يُغْنِيَ النَّدَمُ، وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً قَدَّمَ خَيْراً، وَأَنْفَقَ قَصْداً، وَقَالَ صِدْقاً، وَمَلَكَ دَوَاعِي شَهْوَتِهِ وَلَمْ تَمْلِكْهُ، وَعَصَى أَمْرَ نَفْسِهِ فَلَمْ تُهْلِكْهُ»**[1].

فنقول: الحمد لله المنتقم، القاهر الذى أهلك العصاة بسيف القهر والانتقام، ومحا آثارهم، وقطع دابرهم بالسَّحْب[2]، والاصطلام[3]، خالفوه فأهلكهم، وعصوه فأبادهم، وحادوه فدمدم عليهم، وللكافرين أمثالها، أعرضوا عن الألطاف الخفيّة حين أقبلت، وجنحوا إلى الشهوات حتى غطت على قلوبهم وأغفلت، استمالهم الشيطان بالمكر والخديعة، واستولى عليهم الخذلان حتى تعلقوا بسراب بقيعة، وأعرضوا عن داعى الهدى، وأجابوا ناعق الشيطان والهوى، فأعقبهم الإعراض والخسران والندامة، فخابوا وخسروا واستحقوا من الله العذاب والملامة، فبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون.

والصلاة على المبعوث بأحسن المعانى وأبلغ الحقائق، والمخصوص من الله تعالى بأحسن الشمائل، والطرائق أُرسل إلى الأسود والأحمر وإلى كافة الخلائق، وعلى آله الطيبين الأطهار الصادقين الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، واعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا الحديث مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة نفصلها بمعونة الله.

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 25.

(2) السحب: جرّك الشيء على وجه الأرض كالثوب. ينظر: لسان العرب، مادة (سحب).

(3) الاصطلام: إذا أبيد قوم من أصلهم. ينظر: نفسه، مادة (صلم).

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه بحثان:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

الرؤية: أصلها الإدراك، وقد تكون بمعنى العلم، **والمأخوذ:** هو المبطوش به، **والغِرَّة:** أن يفاجأ الإنسان الأمر، وهو على غير أهبة ولا استعداد، يقال: جاءهم الأمر فجأة، وفى الحديث أن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- غزا بنى المصطلق وهم غارُّون[1] على مناهلهم فأخذ الأموال، وسبى الذرارى، واصطفى جويرية[2] لنفسه من السبايا[3].

الإزعاج: هو الإخراج بعنف عن الأمر المسكون إليه بشدة فى الإخراج، ولا يكون الإزعاج إلا كذلك، **والطمأنينة:** هى السكون والدعة، يقال: اطمأن إلى الأمر، إذا سكن إليه، ويقال: فيه الطمأنينة[4]. **الإقامة:** نقيض الانتقال، **والشبهات:** الأمور الملتبسة بالحق المزورات عليه، وسميت شبهات؛ لأنها تشبه الحق. **الآتى:** هو الواصل، **والغادى:** هو الذاهب، **والرُسُل:** هاهنا هم الملائكة المقربون الناصحون المتحابون الذين جرى عذاب الأمم العاتية، والقرون الخالية على أيديهم سلام الله ورضوانه على أرواحهم المكرمة.

القدم[5]: هو الورود على المحبوب، يقال: قدمت[6] خير مقدم. **الجنوح:** الميل إلى الشى، **والشهوات:** جمع شهوة، وهى كل ما يلتذّ به الإنسان ويلائمه، **والأعمال والأفعال:** أمر واحد، وهو ما يقع من العبد بحسب الداعية، **والتَقدمة:** هى السابقة، **والنّدم:** هو الأسف على ما فات، وللخلف[7] ما كان من وراء الإنسان. **الإِغناء:** هو الكفاية، لا فرق بين قولهم: أغنانى وكفانى، **والقلم:** ما

---

(1) غارون: غافلون. ينظر: تاج العروس، مادة (غرر).

(2) وهى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، من بنى المصطلق من خزاعة، تزوجها مسافع بن صفوان، فقُتل يوم المريسيع، وكانت فى سهم ثابت بن قيس الأنصارى، وكاتبها على تسع أوراق، فأدى النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- عنها، وتزوجها، توفيت بالمدينة سنة خمسين للهجرة، وقيل: سنة ست وخمسين. ينظر: طبقات ابن سعد، 8/ 116- 120.

(3) ينظر: السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، ط1، عام 1411هـ، بيروت، لبنان، 4/ 252.

(4) فى (د،ك،م) زيادة: أيضاً.

(5) فى (ك،م) القدوم. ﴿المناسب: القدوم﴾.

(6) فى (د) قدم.

(7) فى (ك،م) المخلف.

تقع به الكتابة، وقد أقسم الله به حيث قال: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[1]، **وجفاف القلم**: إذا فرغ الكاتب من الكتابة. **الرحمة من الله**: هى الرضا والغفران، **والإنفاق**: هو العطاء[2]، **والإحسان والقصد**: هو الإنفاق على خلاف التبذير والتقتير، **والصدق**: نقيض الكذب، **والملك**: هو التصرف فى الأمر تصرفاً عامًا، ويقال للعجين مملوك؛ لأنه يتصرف فى عجنه تصرفاً بالغاً، ويقال للعبد: مملوك أيضًا؛ لما كان يتصرف عن أمر سيده، **ودواعى الشهوة**: هنّ المؤديات إليها، وأعظمها النظر وتوابعه من الأفكار المؤدية إلى الملاذ المُوقعة فى العظائم والعذابات الدائمة. **الشهوة**: هى ملاءمة المزاج عند إدراك المُشتهى، **والمعصية**: نقيض الطاعة، **والنَّفْس**: هى الأمارة بالسوء، **والهلاك**: نقيض السلامة.

البحث الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم الإعرابية

ف «**أما**» هاهنا هى[3] للتنبيه، و«**رأيت**» «**التاء**» فيه للخطاب للواحد، ولها فى الاحتمال وجهان:

أحدهما: أنها تكون بمعنى المشاهدة، والإدراك فتكون على هذه متعدية إلى مفعول واحد، وهو «**المأخوذين**»، والجار والمجرور على هذا فى موضع نصب على الحال، أو يكونان فى موضع مفعول متعلقين بالرؤية.

وثانيهما: أن تكون الرؤية بمعنى العلم، فتكون متعدية إلى مفعولين؛ الأول: «**المأخوذين**»، والثانى: الجار والمجرور أىْ: المأخوذين الحاصلين على غِرَّة، و«**المزعجين**» منصوب بالعطف على الوجهين جميعًا اللذين ذكرناهما فى المأخوذين. «**بعد الطمأنينة**» مضاف، ومضاف إليه، و«**بعد**» منصوب على الظرفية. «**الذين أقاموا على الشبهات**» فى موضع نصب على الصفة لـ «**مأخوذين**»، و«**المزعجين**». «**وجنحوا إلى الشهوات**» عطف على قوله: «**أقاموا**»، **والجنوح**: الميل.

«**حتى أتتهم رُسُل ربهم**» «**حتى**» هاهنا ابتدائية ليس فيها معنى التعليل. «**رسل ربهم**» مرفوع على الفاعلية. «**فلا ما كانوا أملوا**» «**لا**» هاهنا نافية، و«**ما**» موصولة فى موضع رفع بـ «**لا**» على أنه مبتدأ، وصلتها الجملة الفعلية بعدها، وهى: «**كانوا**»، وقوله: «**أملوا**» جملة فعلية فى موضع خبر لـ «**كان**»، ف «**أدركوا**» جملة فعلية فى موضع الخبر لـ «**لا**»؛ إما على أن ما بعدها جملة ابتدائية، وإما على أنها بمعنى (ليس)، فتكون الجملة فى موضع نصب خبرًا لها، ويُحتمل أن تكون «**ما**» موصولة فى صدر«**لا**» منصوبة بـ «**أدركوا**»، وهو الظاهر لأن الفعل لم يشتغل بالضمير،وإذا كان مرفوعًا فلا بدّ من تقدير ضمير فى «**أدركوا**» راجع إلى المبتدأ، ولا بدّ من تقدير ضمير فى «**أملوا**» يرجع إلى اسم (كان) ليستوفى كلّ واحد ما يستحقه، و«**الواو**» فى «**أملوا**»،

---

(1) سورة القلم الآية 1.

(2) فى (د) الإعطاء. ﴿وهو المناسب﴾.

(3) فى (د،م) زيادة: التى.

و«**أدركوا**» ضميران للفاعل يرجعان إلى «**المأخوذين**».

«**ولا إلى ما**[1] **فاتهم رجعوا**» هذه الجملة السلبية معطوفة على ما قبلها، و«**ما**» موصولة بالفعل بعدها، و«**رجعوا**» معطوف على ما قبله، و«**إلى**» متعلقة بـ «**رجعوا**». «**قدّموا**» جملة فعلية. «**على ما عملوا**» «**ما**» موصولة، ويحتمل أن تكون مصدرية، فعلى الأول تقديره: على الذى عملوه، والعائد محذوف، و[2]على أنها مصدرية لا تفتقر إلى عائد، والجار والمجرور فى موضع نصب على المفعولية. «**وندموا**» جملة فعلية عطف على ما قبلها. «**على ما خلفوا**» جار ومجرور، و«**ما**» فيها الوجهان اللذان ذكرناهما فى قوله: «**قدموا على ما عملوا**»، والموصولة هاهنا أظهر من المصدرية.

«**ولن**» للنفى المستغرق. «**يغنى الندم**» جملة فعلية سلبية. «**وقد جفّ القلم**» جملة فعلية فى موضع نصب على الحال، و«**الواو**» هاهنا كافية عن الضمير، و«**قد**» هاهنا هى المصححة لكون الجملة حالاً؛ لأنك لا تقول: جاءنى زيد ضحك، وإنما تقول: قد ضحك؛ ليستقيم كونها حالاً.

«**فرحم الله امرأ**» «**الفاء**»هاهنا للاستئناف، ويحتمل أن تكون عاطفة لما بعدها على ما قبلها، و«**رحم**» جملة من فعل وفاعل ومفعول. «**قدم خيرًا**» جملة أيضاً من فعل وفاعل ومفعول، والفاعل مضمر، و«**خيرًا**» منصوب على المفعولية. «**وأنفق قصدًا**» جملة فعلية أيضاً. و«**قصدًا**» مفعول له. «**وملك دواعى شهوته**» جملة فعلية أيضاً، و«**دواعى**» جمع داعية كضوارب فى جمع ضاربة، و«**شهوته**» مجرور بإضافة ما قبله إليه. «**ولم تملكه**» جملة فعلية سلبية معطوفة على ما قبلها، وهو قوله: «**ملك**»، «**وعصى أمر نفسه**» جملة فعلية معطوفة على قوله: «**عصى**»، «**وتملكه**»، و«**تهلكه**» فعلان مجزومان بـ «**لم**» النافية، وهى موضوعة لنفى الفعل الماضى.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم فى البلاغة

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

وقد تضمن هذا الحديث معانى:

المعنى الأول: قوله: «**رأيت**» الخطاب بـ «**التاء**» فيه وجهان:

---

(1) فى (د،ك،م) الذين بدلاً عن ما. ﴿ولعل السليم: ما﴾.

(2) فى (د) سقط: الواو.

أحدهما: أن يكون خطابًا لمن يكالمه صلى الله عليه وآله وسلم على جهة الإفراد، وهذا هو الظاهر من حاله.

وثانيهما: أن يكون ذلك واردًا على جهة المثل من غير أن يكون خطابًا لواحد، بل كما يكون خطابًا لواحد، و[1]هو خطاب لاثنين وثلاثة وما فوق ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ** ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾[3]، وغير ذلك فهو محتمل للوجهين جميعًا أن يكون خطابًا للرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يكون جاريًا على جهة المثل، وهذا هو الأحسن، فإن مثل ذلك يقال للواحد والاثنين والجماعة، وفى هذا دلالة على أنه لم يقصد به الخطاب إذن لوجب المطابقة فى الخطاب، ولوجب اختلاف حاله بالإضافة إلى المخاطبين.

المعنى الثانى: قوله، فى الفصل والوصل، فإن «**الواو**» فى قوله: «[4] **والمزُعَجين بعد الطمأنينة**» إنما جىء بها من أجل الوصل دلالة على المغايرة بين «**المأخوذين**»، و«**المزعجين**»؛ لأن «**الواو**» دالة على المخالفة بين الصنفين، وجاء بقوله: «**الذين أقاموا على الشبهات**» من غير «**واو**» للدلالة على الفصل، وأن إقامتهم على الشبهات وصف شامل للصنفين جميعًا، فانظروا إلى سرّ كلامه صلى الله عليه وآله وسلم فى الفصل والوصل ما أحسن مغزاه وأجمع للفوائد معناه!

المعنى الثالث: الإبهام بـ «**ما**» الموصولة فى قوله: «**فلا كانوا ما أملوا**»، وقوله: «**ولا ما فاتهم**»، وقوله: «**قدموا على ما عملوا**»، وقوله: «**ندموا على ما خلفوا**»، وهذه مواقع أربعة فى: «**ما**»؛ دلالة على الإبهام فيما تناولته، ولم يخصّ شيئًا من شىء، فقد وقع هاهنا أحسن موقع؛ لما تضمنته من الإبهام الدال على المبالغة فيما اندرج تحته.

المعنى الرابع: تصدير الكلام بالتنبيه إيقاظًا للأفئدة، وخرقًا لقراطيس الأسماع لتحقق الموعظة، وتَرْك الابتداء فى هذه الخطبة بالتوحيد وذكر التحميد[5] فى أولها، وما ذاك إلا لأجل العناية بالمقصود بالموعظة، وهزّ الأعطاف إلى الإصغاء إليها، وتحريك القلوب إلى قبولها.

المعنى الخامس: الإيجاز والاختصار، ولقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الخطبة إلى المعانى الجمّة والنّكت المتكاثرة بأوجز عبارة وأخصرها، فأدى الأمانة وبالغ فى النصيحة لمن عقل وتدبّر[6]، واستعمل عقله وتفكر وبالغ فى العظة فى كل

---

(1) فى (د،ك،م) الفاء بدلاً عن الواو.

(2) سورة الفجر من الآية 6.

(3) سورة الفرقان من الآية 45.

(4) فى (د،م) زيادة: والمأخوذين على الغرة. ﴿وليست من الوصل فى شىء؛ لذا هى زيادة غير مناسبة﴾.

(5) فى (د) الحمد. ﴿ولعل المناسب فى السياق: التحميد﴾.

(6) فى (ك) تبدر. ﴿والمناسب فى السياق: تدبر﴾.

جهة نافعة، وحذر عن كلّ غفلة مهلكة، وكم من آية يمرون عليها، وهم عنها معرضون، ولله در كلامه صلى الله عليه وآله وسلم ما أسلسها على الألسنة، وأجمعها للمعانى، وأحواها للمقاصد وأحلاها، فلا تمل على تكرر الأيام والأزمنة.

المطلب الثانى: فى بيان ما تضمنه من الأسرار البيانية المتعلقة بالمجازات العالية والاستعارات الرائقة

وقد اشتمل على مجازات ستة:

المجاز الأول: قوله: «**أما رأيت المأخوذين على الغِرَّة**»، فإن ما هذا حاله من أحسن الاستعارات، وأعظمها فى البلاغة، وأوقعها فى الدلالة على أنهم أخرجوا من الدنيا وهم على غير أهبة ولا أخذ عدّة، فجاءهم الموت فجأة، فيجمع هذه المعانى وغيرها.

قوله: «**المأخوذين على الغِرَّة**»، ولو أتى بالحقائق لم يعط هذا المعنى، فهذه هى فائدة المجازات، فإن قولك: رأيت الأسد، أدخل فى إفادة الشجاعة من قولك: رأيت الشجاع، وما ذاك إلا من جهة[1] استعمال المجاز الدّال على المبالغة.

المجاز الثانى: قوله: «**المزْعجين بعد الطمأنينة**» هى استعارة رشيقة[2] لما تضمنته من الإسراع والمعاجلة والقلق فى سرعة الأخذ بعد التمكن والاستقرار، وهو ألّم ما يكون للنفوس وأبلغ فى المشقة.

المجاز الثالث: قوله: «**أقاموا على الشبهات**» استعارة لتمكنهم منها، واستغراق أعمارهم على الإكباب عليها، والاستمرار على فعلها.

المجاز الرابع: قوله: «**وجنحوا إلى الشهوات**» استعارة أيضًا لميلهم إليها وإصغائهم إلى شغل قلوبهم وحواسهم بها، ومنه جناح الطائر؛ لأنه يميل به إلى كل جهة فى طيرانه.

المجاز الخامس: قوله: «**وقد جفّ القلم**» فجفاف القلم استعارة للفراغ من كتابة الأعمال والختم عليها، وليس الغرض الجفاف حقيقة فإنه بعد الموت قد بطل كلّ شىء وفرغ من الأعمال كلها ومن قبول التوبة وبطلان الندم، فوضع جفاف القلم للدلالة على الفراغ من كل شىء، وهو أحسن مجاز كما ترى.

المجاز السادس: قوله: «**وملك دواعى شهوته، ولم تملكه**» الملك هاهنا من أحسن الاستعارات، وأراد أن الإنسان إذا كان مقتدرًا على كفّ الدواعى عن الشهوات وقدر عليها نهاية القدرة، فقد حصل له النجاة، وقوله: «**ولم تملكه**» لأنها إذا ملكته أوقعته فى المهاوى وأوبقته فى المهالك، فانظر إلى قوله: «**ملك دواعى شهوته، ولم تملكه**»، وكان قوله: «**وملك دواعى شهوته**» كافيًا

---

(1) فى (د،م) أجل.

(2) فى (ك) مشتقة. ﴿وهذا غير سليم﴾، وفى (د،م) زيادة: أيضًا.

عن قوله: «**ولم تملكه**»؛ لأنه إذا ملكها لم تملكه، ولكنه أورده على جهة التأكيد والحصر، كما يقال: فلانٌ قائم غير قاعد، وهذا الكلام حسن غير قبيح، وهو من علوم المعانى، وليس من علوم البيان، ولكن أحوج لما ذكرناه[1] ذكر المجاز فى الملك.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وعصى أمر نفسه فلم تهلكه**» **العصيان** هاهنا مجاز؛ لعدم المغايرة بين العاصى والمعصى؛ لأنّ الإنسان لا يعصى نفسه، وقوله: «**فلم تهلكه**» بالانقياد؛ لأن المساعدة للهوى فيه هلاك النفوس وإتلافها.

سؤال: أراه صدّر الجملة السلبية الأولى بـ «**الواو**» فقال: «**ولم تملكه**»، وصدّر الثانية بـ «**الفاء**» فقال: «**فلم تهلكه**» فهل هناك تفرقة بينهما؟

وجوابه: أن قوله: «**ولم تملكه**» إنما وردت على جهة التأكيد لما قبلها، فلهذا وردت بـ «**الواو**» إشعارًا بالحال المؤكدة، بخلاف الثانية فإنها واردة على جهة الإشعار بكونها عاطفة لما بعدها على جهة التعقيب، وفيها إشعار بأن عدم الهلاك مسبب عن عصيان الهوى، فلا جرم افترقا.

المطلب الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع

وهو مشتمل على نكت خمس:

النكتة الأولى: التسجيع[2]، فقوله: «**الشبهات**» مع «**الشهوات**» سجع، وقوله: «**أدركوا**» مع قوله: «**رجعوا**» سجع أيضًا، وقوله: «**عملوا**» مع قوله: «**ندموا**» سجع، وهكذا قوله: «**الندم**» مع قوله: «**جف القلم**».

النكتة الثانية: الطباق أيضًا، وهو ذكر النقيضين، فإن قوله: **الإزعاج، والطمأنينة** طباق، **والإقامة والجنوح** طباق أيضًا.

النكتة الثالثة: الفصاحة فى الألفاظ، فإنك إذا فكرت فى مفردات هذا الحديث وجدتها فى غاية ما يكون من الرقّة والسلاسة والخفّة على الأسماع لم تختصّ بالنزول، فيكون فيها ركّة وثقل ولأدخلت فى الغرابة، فيكون فيها عنجهانية[3] وتقعر.

النكتة الرابعة: البلاغة فى المعانى، فإنك إذا نظرت فيما اشتمل عليه من المعانى رأيتها قد بلغت كل غاية فى حسن الوعظ وتحريك الدواعى إلى إصلاح حال الآخرة والنجاة من المهالك.

النكتة الخامسة: حسن التأليف وجودة السبك، فإنه ابتدأ بذكر الموتى ثم ذكر حالهم فى الدنيا من الإقامة على الشبهة والجنوح إلى الشهوة، ثم أردفه بحالهم فى الآخرة بقوله: «**قدموا على ما عملوا**» وحقق حالهم فيها من الندامة والأسف على ما

---

(1) فى (ك،م) إلى ذكره بدلاً عن: لما ذكرناه.

(2) فى (ك) السجع.

(3) عنجهانية: الكِبْر، والعظمة، والخشونة. ينظر: لسان العرب، مادة (عجه).

فات، وانقطاع أملهم بجفاف الأقلام، وطى الأعمال، وانقطاع الأعمار، إلى غير ذلك من البلاغة الرائقة التى تضمنها، وهى غير خافية على من له أدنى ذوق وظفر من علوم البلاغة بحظ وافر.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

وأراد التخويف من عاقبة الاغترار والمحاذرة، وهى من جملة النعم عند ذوى البصائر، ومصداق ذلك هو أن كل من أخافك حتى يوقعك فى الأمن أنصح لك ممن أمنك حتى يوقعك فى المخوف، وقد رأينا المأخوذين على الغرة، وشاهدنا أحوالهم، والسعيد من وُعظ بغيره، والشقىّ من وُعظ به غيره، فنسأل الله بصيرة فى الدنيا نافعة، وموعظة تنفع فى الآخرة ناجعة، وأىّ عذر لنا فى الاغترار، وقد وعظنا بغيرنا إن كنا متعظين، وذكرتنا القوارع إن كنا متذكرين، فكم من مأخوذ على فجأة ونحن ناظرون لم ينفعه مما نزل به مال ولا بنون، ولا دفعت عنه ما ألّم به عشيرته الأقربون، بل حملوه ثقل أوزاره، وأزعجوه عن داره وقراره، وأشخصوه عن جميع مستروحاته فى ثياب رثة وزينة حقيرة ودلوه فى حفرة قعيرة، فهالوا عليه التراب، وأسلموه إلى الوحشة والضيق والعذاب، وأىّ واعظة أبلغ من هذه وأنجع وألّم للقلوب والأفئدة، وأوجع وأبلغ فى الموعظة للمهتدين وأنفع، فيا أيها المغرور انجِ نفسك من حبالة الاغترار، ولذ بكنف خالقك، وراحمك العزيز الجبار، فالتزم بعرا رحمته المتينة واجعلها لك عن بحار الضلال سفينة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والمزعجين بعد الطمأنينة**»، وعنى[1] بذلك أنّا قد رأينا المزعجين بعد الرفاهية والسرور والاطمئنان فى الدور المزخرفة والقصور كيف حملوا على أعواد المنايا فوضعوا فى القبور ذات الوحشة والظلمة والبلايا، فإن تفكرت فى ملوك الإسلام كأرباب الدولتين من بنى أمية وبنى العباس فى دولتهم القاهرة وعزتهم الفاخرة، ونخوتهم العالية، وسطوتهم العاتية، فهل ترى لهم من باقية، فعطلت منهم البلاد؛ لمّا أكثروا فيها الفساد[2]، حتى لقد رُوى أنه يخطب لكل واحد منهم على ثمانين ألف منبر على رؤوس الأشهاد، وإن فكرت فى ملوك الجاهلية، فكم من واعظة جليلة!! فأين الأكاسرة والقياصرة والتبابعة والفراعنة والعمالقة؟! أين من بنى وشيّد وزخرف ونجد؟! لقد طحنت منهم المنون بكلكلها، وقطع دابرهم فأضحت قبورهم عامرة، وقصورهم خاوية داثرة،﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[3].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَجَنَحُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ**» المعنى فى ذلك أنه صلى الله عليه

---

(1) فى (د) أراد.

(2) من أرباب هاتين الدولتين من خدم الأمة، وأعزّ مجدها، وحضارتها.

(3) سورة الأحقاف من الآية 25.

وآله وسلم حذّر عن الإقامة على الشبهة والاستمرار عليها، وهى الأمور المزورة التى تلتبس بالحق وليست حقًا فيعظم بها فساد الدين ويلتبس بها أمره، والشهوات لها معنيان:

أحدهما: أن يراد بها الميل إلى المشتهيات المحظورات من جميع الملاذ، **وثانيهما:** أن يراد بها حبائل الشيطان وغروراته الكاذبة، فسماها شهوات لما كانت الشهوات تدعو إليها وتوقع فيها .

ولنورد هاهنا كلامين هما خليقان بما نحن فيه:

الكلام الأول: عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «إن الله تعالى لمّا خلق الجنة قال:- يا جبريل- اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فيها، فقال:- يا رب- وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، فقال:- يا جبريل- اذهب فانظر إليها، فنظر إليها، فقال:- يا رب- وعزتك وجلالك لا دخلها إلا من رحمته، ثم خلق الله النار، فقال:- يا جبريل- اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال:- يا رب- وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد فدخلها، ثم حفها بالشهوات، فقال:- يا جبريل- اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال:- يا رب- وعزتك وجلالك لا نجا منها أحد إلا من رحمته»[1] .

الكلام الثانى: ما روى عن أمير المؤمنين- كرم الله جهه- [2]: الحق لو أخلص لم يخف على ذى حجا، والباطل لو أخلص لم يخف على ذى حجا، ولكن يؤخذ من هذا ضغث[3]، ومن هذا ضغث، فيمزجان فيمتزجان . . . ، ألا وإن الباطل خيل شُمّس ركبها أهلها، وأرخوا أعنتها حتى أوردتهم النار، وإن الحق مطايا ذلل ركبها أهلها، وأرخوا أعنتها حتى أوردتهم ظلاً ظليلا[4] . فهذان الكلامان فيهما موعظة لمن اهتدى وتبصرة لمن خشى واتقى.

ثم أجلْ فكرك فى المغترين بالله، فمن عابد وثن، وخاضع لصنم، ومكبّ على عبادة نور، أو نار، ثم انظر فى أهل الكتب المنزلة من اليهود والنصارى وغيرهم من الملل الكفرية، ثم تفكر فى أهل القبلة، وأهل الشهادتين، ممّن ظلم وبغى وتكبر واختال فى غيّه، ومن الظلم والبغى استكبر، فما كان السبب فى الغيّ والشقاوة إلا إيثار الشهوة أو إعمال الشبهة، فنعوذ بالله من استيلاء الشبهات على القلوب، وإيثار الشهوات فى معصية علام الغيوب.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**حَتَّى أَتَتْهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ، فَلاَ مَا كَانُوا أَمَّلُوا أَدْرَكُوا، وَلاَ إِلَى مَا فَاتَهُمْ رَجَعُوا**» الرسل من الله هم ملائكة العذاب يأتونهم بالويل المعجل فى الدنيا، كما فعل بالأمم الماضية والقرون الخالية، ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ**

---

(1) ينظر: مسند أحمد، 2/ 332.

(2) فى (م) زيادة: قال.

(3) الضغث: كل مجموع مقبوض عليه بجمع الكفّ. ينظر: لسان العرب، مادة (ضغث) .

(4) ينظر: تيسير المطالب، 270.

﴿ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾[1]كما حكى الله تعالى فى كتابه الكريم، ومرّة بقطع الدابر؛ إما باقتلاع الديار والمساكن، كما فعل بقوم لوط، وإما بإرسال الحجارة من سجيل، إلى غير ذلك من أنواع العذاب، وضروب النكالات، وأما فى حال الوفاة فيضربون وجوههم، كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾[2] فبعد الموت، وانقضاء آثارهم من الدنيا، وملاقاة العذاب، فلا ما أملوا أدركوا من التنعم باللذات المحظورة فى مستقبل أعمارهم أدركوه، وحصلوا عليه لأجل[3] حيلولة الموت بينهم وبين ذلك، ولا إلى ما فاتهم من جميع ما تركوه وراء ظهورهم رجعوا إليه وانتفعوا به، فانظر فى حال المغترين بالأهواء كيف غرقوا فى بحار الاغترار، فافتتنوا[4] بعاجل الدنيا وحطامها، واغتروا بطول الأعمار، فيالها من حسرة تذيب الفؤاد، وتقطع نياط القلوب، وتخرج الأكباد.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قَدِمُوا عَلَى مَا عَمِلُوا، وَنَدِمُوا عَلَىَ مَا خَلَّفُوا**»إنما أبهم الأمر فيما قدموا عليه مبالغة فى حقّه؛ ليكون ذلك أبلغ فى الحسرة، وأدخل فى الندامة، والمقصود أنهم قدموا على أعمال قبيحة، وفضائح شنيعة منكرة شهد عليهم بها الملائكة الكرام الموكلون بحفظها على ممر الليالى والأيام، وندموا على ما خلفوا، أصابتهم الحسرة وتقطعت أفئدتهم ندامة على ما تركوه وراء ظهورهم، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[5]، فانظر إلى عواقب الإنفاق ما أحمدها، وإلى سوابق التقديم ما أسعدها، وإياك والميل إلى التخليف والاغترار بطول الأمل والتسويف.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَلَنْ يُغْنِىَ النَّدَمُ، وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ**» أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن الندم غير نافع، والتحسر غير مجدٍ بعد نزول الموت؛ لأن الإنسان فى تلك الحالة لا يتمكن من إصلاح فاسد، ولا تقويم معوج من العمل مائل خاصة بعد جفاف القلم، والأخذ بالكظم[6]، فهناك يعلل الإنسان نفسه بالندامة التى هى غير نافعة، والحسرة التى هى غير مانعة ولا دافعة، وأراد بجفاف الأقلام فراغ الملائكة الكرام الحفظة عن الكتابة للأعمال والختم عليها، فلا يزاد على حسنة ولا ينقص عن سيئة.

---

(1) سورة العنكبوت من الآية 40.
(2) سورة الأنفال من الآية 50.
(3) فى (ك،م) لأن.
(4) فى (ك) الواو بدلاً عن الفاء.
(5) سورة الأنعام من الآية 94.
(6) كظم الرجل غيظه: إذا ردّه، وحبسه. ينظر: لسان العرب، مادة (كظم).

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً قَدَّمَ خَيْراً، وَأَنْفَقَ قَصْداً، وَقَالَ صِدْقاً**»، وهذا منه صلى الله عليه وآله وسلم دعاء بالرحمة، ودعاؤه غير مردود لمن قدّم ماله بين يديه؛ لأنّه لا محالة عن قريب يصير[1] إليه وما خلّفه، فهو حسرة وندامة عليه. «**وأنفق قصدًا**» أراد إنفاقًا يأجُرُه الله تعالى عليه من غير إسراف ولا تقتير. «**وقال صدقًا**» يعني: نزّه لسانه عن الكذب، واعلم أنه عليه السلام قد أشار هاهنا إلى خصال من الخير ثلاث نورد ما ورد فيها من الفضل:

الخصلة الأولى: تقديم الخير[2] أمامه ليوم فاقته وحاجته، فإن ميدانه لواسع، وإنه لصاحبه لمعين نافع، وفي الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما من يوم طلعت شمسه إلا وكّل بجنبيها ملكان يناديان: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى، ولا غابت شمس إلا وكّلَ بجنبيها ملكان يناديان: اللهم أعط كلّ منفق خلفًا، وأعط كل ممسك تلفًا»[3]، وتقديم الخير هو الأعمال الصالحة، وفي حديث آخر: «إن لله ملكًا ينادي كل يوم: يا طالب الخير أكثر، ويا طالب الشرّ أقصر»[4]، وفي حديث آخر: «إن للإنسان أخلاء ثلاثة: فأما خليل فيقول: ما أنفقت فلك وما خلفت فليس لك، فذلك ماله، وأما خليل فيقول: أنا معك، فإذا متّ ودخلت قبرك تركتك ورجعت عنك، فذلك أهله وحشمه، وأما خليل فيقول: أنا معك حيث دخلت وخرجت، فذلك عمله، ويقول: وإن كنت أهون الثلاثة عليك»[5].

الخصلة الثانية: الصدق، اعلم أن الصدق هو حلية اللسان، وزين الإنسان، وتاج الشرف وترجمانه، وغاية السؤدد والكرم للطبع، وعنوان الكرم، ومفتاح باب الجنة، وفي الصدقة توقير الصغير، وفي الكذب تحقير الكبير، وفي الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البِرّ يهد ى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[6]، وفي حديث آخر: «ثلاث من علامات النفاق: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[7].

الخصلة الثالثة: الإنفاق بالقصد، ويريد بالقصد العدل، فإذا كان الإنفاق جاريًا من غير تبذير، ولا تقتير فهو القصد المحمود،

---

(1) في (د) يصل.
(2) في (د،ك،م) الخيرات.
(3) شعب الإيمان، 3/ 233.
(4) كنز العمال، 14/ 80. بلفظ: «يا طالب الخير أقبل، ويا طالب الشر أقصر».
(5) ينظر: تيسير المطالب، 433.
(6) سنن البيهقي الكبرى، 10/ 195.
(7) صحيح البخاري، 1/ 21. بلفظ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1]، ثم إن المنفق لا يخلو حاله، إما أن يكون موسرًا، أو معسرًا، فإن كان الغالب من حاله اليسار فإنه يستحب له الإنفاق، وقد يجب فى حال على الأقارب والزوجات وأولاده الصغار، وإن كان معسرًا نظرة، فإن كان إذا تصدق بما فى يده لا يتكفف الناس ولا يسألهم، فإنه يستحب له الإنفاق، ويكون من المؤثرين على أنفسهم، وإن كان إذا تصدق بما فى يده تكفف الناس فإنه يكره له الإنفاق؛ لأن السؤال والتكفف محظوران، فهذه الخصال كلها محمودة على الوجه الذى ذكرناه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَمَلَكَ دَوَاعِى شَهْوَتِهِ، وَلَمْ تَمْلِكْهُ، وَعَصَى أَمْرَ نَفْسِهِ فَلَمْ تُهْلِكْهُ**» أراد أن كلّ من ملك دواعى الشهوة، وحكم عليها وقهرها، فقد استمسك بالعروة الوثقى من السلامة، ولم يكن سلطان الشهوة غالبًا عليه، فقد فاز كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

«**وعصى أمر نفسه**» بالمخالفة لهواها فلم تهلكه بما تدعو إليه، فأما من أجاب ناعق الهوى، وجذبه الشيطان بزمام الردى، وكانت الشهوة هى الغالبة لعقله، موطئًا بقدمها مقهورًا تحت أسرها، فهذا هو الذى غلب عليه الشقاء بفعله، واستولى عليه الردى، وأجلب عليه إبليس بخيله ورجله.

تنبيه: نجعله خاتمًا لأسرار هذا الحديث التى ذكرناها، واعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أشار فيه إلى التفكر بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «**أما رأيت المأخوذين على الغرة، والمزعجين بعد الطمأنينة**»، والتفكر أصل من قواعد الإيمان، وركن من أركانه، فلنذكر ماهية التفكر، وثمرته، وفضيلته، ثم نردفه بمجارى الفكر، فهذه مقامات أربعة نفصلها بمعونة الله تعالى وحسن توفيقه، ونذكر أسرارًا بديعة.

المقام الأول: فى بيان ماهية التفكر وحقيقته

واعلم أن **التفكر**: هو إحضار القلب فى معرفة أحوال الآخرة؛ اعلم أن حقيقة الفكر إنما تحصل بتفصيل نورده، وهو أن كل من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى من الدنيا بالإيثار، فله إلى ذلك طريقان:

الطريق الأول: أن يسمع من غيره أن الآخرة أحق بالإيثار فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيقبل بقلبه إلى إيثار الآخرة؛ اعتمادًا على مجرد قوله، وهذا يسمى تقليدًا ولا يسمى معرفة.

الطريق الثانى: أن يعرف أن الإبقاء أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المقدمتين نتيجة ثالثة عنهما،

(1) سورة البقرة من الآية 219.

(2) سورة النازعات الآيتان 40، 41 .

وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمقدمتين السابقتين، فإحضار المقدمتين السابقتين فى القلب؛ ليتوصل بهما إلى النتيجة، وما هذا حاله يسمى تفكرًا ونظرًا وتأملاً وتدبرًا، وهى عبارات مختلفة مترادفة على معنى واحد، وهكذا[1] حال الاعتبار والتذكر فإنهما يفيدان معنى واحدًا؛ فإنها تتوارد على معنى واحد، ولكن باعتبارات مختلفة، كما أن السيف والصارم والمهند يدلّ على حقيقة السيف باعتبارات مختلفة، فالصارم دال على السيف من جهة أنه قاطع، والمهند دال عليه من جهة نسبته إلى الهند[2]، والسيف دال عليها بمطلقه من غير إشعار بهذه المعانى، فهكذا حال الاعتبار، فإنه يطلق على المقدمتين من جهة أنه يعبر بهما إلى معرفة النتيجة، فإن لم يقع العبور بهما ولم يكن إلا الوقوف على المقدمتين لا غير فإنه يطلق عليهما اسم التذكر دون الاعتبار.

وأما النظر والتفكر فإنهما يطلقان من جهة أن المقصود بهما طلب النتيجة، فمن لم يطلب النتيجة فإنه لا يقال له ناظر ولا متفكر، فهذه هى التفرقة بين هذه الإطلاقات بهذه الألفاظ، فإذا حصلت العلوم فى القلب ورتبت على ترتيب مخصوص فإنها تثمر العلوم بالمعلومات النظرية، ولا يزال يثمر النتائج باعتبار ترتيبها إلى غير غاية.

المقام الثانى: فى بيان ثمرة الفكر

اعلم أن العلوم والأحوال والأعمال هى ثمرات الأفكار، فإذا حصل الفكر حصل العلم، وإذا حصل العلم تغير حال القلب بالتنبه والذكر، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل[3] تابع للحال، والحال تابع للعلم، والعلم تابع للفكر، والنظر والفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وبهذا يظهر لك فضيلة التفكر، كما ورد فى الخبر: «فكر ساعة خير من عبادة سَنَة»[4]، وهو أفضل من الذكر، فإن التفكر ذكر القلب، وذكر القلوب أفضل من عمل الجوارح، وإذا أردت أن تعرف الحال بالفكر فإنما يكون بالمثال الذى أوردناه من أمر الآخرة، فإن الفكر يعرّفنا إلى[5] أن الآخرة أحقّ بالإيثار من الدنيا، فإذا رسخت هذه المقدمة يقينًا فى قلوبنا، فإن القلوب تتغير بالرغبة إلى الآخرة والزهد فى الدنيا، فهذا ما عنيناه بالحال؛ إذ كان حال القلب قبل العلم بهذه المقدمة هو حبّ العاجلة، والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلّة الرغبة فيها، وبهذه المقدمة تغير حال القلب، وتبدلت إرادته ورغبته، ثم أثمر تغير الإرادة بغير أعمال الجوارح فى اطّراح الدنيا، والإقبال على أعمال الجوارح، فهذه خمس مراتب:

---

(1) فى(د) وهذا.

(2) سيف مهند: إذا عمل ببلاد الهند، والمهند: السيف المطبوع من حديد الهند. ينظر: لسان العرب، مادة (هند).

(3) فى (د) الواو بدلاً عن الفاء.

(4) العظمة، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهانى، تحقيق رضاء الله محمد إدريس المباركفورى، دار العاصمة، ط1، عام 1408هـ، الرياض، المملكة السعودية، 1/ 300. بلفظ: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة».

(5) فى (ك) سقط: إلى.

الأولى: التذكر، وهو إحضار المقدمتين فى القلب.

الثانية: ترتيب هذه المقدمات فى القلب.

الثالثة: حصول العلم المطلوب.

الرابعة: تغير حال القلب بسبب حصول المعرفة.

الخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما تجدد له من الحال، فمتى حصلت هذه المراتب على ما ذكرناه من هذه الكيفية، فقد صحّ لك بما ذكرناه هاهنا ظهور ثمرة الفكر.

المقام الثالث: فى بيان فضيلة الفكر

اعلم أن الله تعالى قد أمر العباد بالفكر والتدبر، وأثنى على المتفكرين بقوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا فى أفعال الله، ولا تفكروا فى ذاته، فإنكم لا تقدرون قدره»[3]، وعن النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه خرج على قوم ذات يوم، وهم يتفكرون، فقال: «ما بالكم لا تتكلمون»؟ فقالوا: نتفكر فى خلق الله- عزّ وجلّ-، فقال: «كذلك فافعلوا تفكروا فى خلقه، ولا تفكروا فى ذاته، فإن وراء هذا المغرب أرضًا نورها بياضها، أو قال: بياضها نورها فيها خلق لله لم يعصوا الله طرفة عين»، قالوا:- يا رسول الله- فأين الشيطان منهم؟ قال: «لا يدرون أخلق الشيطان أم لا». قالوا: من ولد آدم؟ قال: «لا يدرون خلق آدم أم لا»[4]، وعن عبدالله بن عمر قال: قلت لعائشة- رضى الله عنها-: أخبرينا بأعجب شىء رأيتيه من رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، قال: فبكت، وقالت: كل أمر رسول الله كان عجبًا، أتانى فى ليلتى حتى مسّ جلده جلدى، ثم قال: «ذرينى أعبد ربى عزّ وجلّ»، فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلى، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه، حتى جاء بلال[5] يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة: ﴿

---

(1) سورة آل عمران من الآية 191.

(2) سورة الأعراف من الآية 185.

(3) كنز العمال، 3/ 47. بلفظ: «تفكروا فى الخلق، ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره».

(4) إحياء علوم الدين، 4/ 424.

(5) وهو بلال بن رباح، مؤذن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- سابع سبعة أظهروا إسلامهم، فعذبه المشركون حتى اشتراه أبو بكر- رضى الله عنه- وأعتقه، شهد المشاهد كلها، توفى سنة 20هـ، وقيل: 21هـ. ينظر: الاستيعاب، 1/ 178، 179.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[2]، وعن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول- الله صلى الله عليه وآله وسلم-: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة». قالوا:- يا رسول الله- وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر فى المصحف، والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه»[3]، وقيل: فى تفسير قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[4] قال: أمنعهم عن التفكر فى أمرى[5]، وعن ابن عباس- رضى الله عنهما- أنه قال: التفكر فى الخير يدعو[6] إلى العمل به، والندم على الشرّ يدعو إلى تركه[7]، وروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه: إنى لست أقبل كلام كل حكيم، ولكن أنظر إلى همّه وهواه، فإذا كان همه وهواه لى جعلت صمته تفكرًا وكلامه حمدًا، وإن لم يتكلم[8].

المقام الرابع: فى ذكر مجارى التفكر[9]

واعلم أن مجارى التفكر واسعة، وطرقه كثيرة، وليس يخلو حاله؛ إما أن يكون فى أمور الدين، أو فى غيره، ولا حاجة بنا إلى ذكره، وإنما المهم ما يتعلق بأمر الدّين، وما عداه خارج عن مقصدنا، ثم لا يخلو حاله؛ إما أن يكون تفكرًا فى جلال الله وعظمته وكبريائه، وإما أن يكون مختصًا بالعبد، فهذان قسمان نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما، ونبدأ بالأعظم منهما، وهو ما يختصّ العظمة الإلهية، وهو إما أن يكون نظرًا فى الذات، أو الصفات.

القسم الأول: فى التفكر فى جلال الله وكبريائه

والفكر إما أن يكون فى ذاته، أو فى صفاته، فهذان مقامان:

المقام الأول: التفكر[10] فى الذات

واعلم أن الفكر فى الذات قد ورد الشرع بالمنع منه، حيث قيل: تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى ذاته[1]، وذلك أن

---

(1) سورة آل عمران الآية 190.
(2) ينظر: صحيح ابن حبان، 2/ 386.
(3) شعب الإيمان، 2/ 408.
(4) سورة الأعراف من الآية 146.
(5) ينظر: (تفسير الطبرى) جامع البيان فى تأويل القرآن، 13/ 112، 113.
(6) فى (د) يدل.
(7) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 425.
(8) ينظر: نفسه.
(9) فى (د،م) الفكر. ﴿السليم: الفكر؛ لأن المصنف عندما عدد المقامات مجملة سماه الفكر﴾.
(10) فى (د،م) الفكر. ﴿السليم الفكر للعلة الآنف ذكرها﴾.

العقول قاصرة فلا يطيق على ذلك إلا العلماء الراسخون، ثم إنهم لا يطيقون على الوصول إلى العلم بكنه الحقيقة لذاته؛ لأن أفكارهم بالإضافة إلى جلال الله وعظيم كبريائه، كحال أبصار الخفافيش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنها لا تطيقه البتّة بل تكفّ أبصارها، ولا تقدر على الظهور نهارًا، وتبرز ليلاً، وأحوال العلماء الذين رسخت أقدامهم في العلم في ذات الله تعالى كحال الإنسان في نظره إلى قرص الشمس، فإنه لا يقدر بصره على التحقق إليها، ولو نظر إليها لحظة واحدة[2] فلا يقدر على الإدامة، ويخشى على بصره لو أدام النظر إليها، فهكذا النظر في ذات الله تورث الحيرة والدهشة، واضطراب العقل والصواب أن لا يتعرض للفكر في ذات الله تعالى، فإن الإيغال لا تحتمله العقول، ولا تصبر عليه، ولا تزداد معه إلا ضعفًا وتلاشيًا، بل القدر الذي صرح به العلماء كافٍ من غير زيادة، وهو أن الله تعالى ذات مقدسة بالصفات الحسنى، كالقادرية والعالمية[3] وغيرها من سائر الصفات الإلهية منزّه عن الأمكنة والجهات، وأنه ليس داخلاً في العالم ولا خارجًا عنه[4]، ولا هو منفصل عنه، وقد تحيّر فيه عقول أقوام حتى أنكروه ولم يطيقوا على معرفته، وضعفت طائفة أخرى لمّا قيل لهم: إنه تعالى منزّه عن سائر الأعضاء، وأن يكون جسمًا له مقدار وحجم، فأنكروا هذا، وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله تعالى، حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف لبطيخ هندي لا وجود له وليس وصفًا لذات الله تعالى، فظن[5] الأحمق أن الجلالة والعظمة والكبرياء إنما تكون في هذه الأعضاء، وانقداح هذا الوهم من جهة أن الإنسان لا يعرف إلا نفسه، فكلّ ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه، وهذا كله من ضعف العقل وتحكيم الخيال واستيلاء الوهم، فإن الإنسان ظلوم جهول[6] كفّار للنعم، ولهذا أوحى الله سبحانه إلى بعض أنبيائه: لا تخبر عبادي بصفاتي فينكرون[7]، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون[8]، ولمّا كان النظر في ذات الله تعالى ليس له غاية اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق، إن لا يتعرض لمجاري الفكر فيها، فإنه لا سبيل إلى الوصول لأحد إلى العلم بكنه الذات، وقد ذكرنا هذه المسألة في الكتب الكلامية وذكرنا فيها خلاف العلماء، وأن العلم بكنه الذات، وإن كان ممكنًا لكنه ليس واقعًا لأحد من البشر، فلا جرم عدلنا إلى النظر في مصنوعاته ومكوناته.

المقام الثاني: وهو التفكر في أفعاله وعجائب مصنوعاته

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 434.

(2) في (د،ك) سقط: واحدة.

(3) في (د) العلمية.

(4) في (ك) منه.

(5) في (د) الواو بدلاً عن الفاء.

(6) في (د،ك) جهول ظلوم. ﴿وهذا المناسب، لأن الظلم نتيجة للجهل﴾.

(7) في (د) سقط: فينكرون.

(8) إحياء علوم الدين، 4/ 434.

من جميع المكونات وبدائع الأمر فى المخلوقات، فإنها دالة على جلاله وكبريائه وتقدسه عن مشابهة الممكنات وتعاليه عن مماثلة المبتدعات، وكما هى دالة على ذلك فهى دالة أيضاً على كمال علمه وظهور حكمته، وعلى نفاذ حكمه ومشيئته وقدرته، فإذا كنّا لا نقدر على التفكر فى الذات كما شرحنا فنحن قادرون على التفكر فى آثارها، وهى المخلوقات، كما أنّا لا نقدر على التحديق إلى قرص الشمس، ونحن قادرن على التحديق إلى نورها على الأرض، وجميع ما فى الأرض من المكونات آثار قدرة الله تعالى، فهكذا حال الأفعال تكون واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل، ولا يبهرنا نور الذات لما تباعدنا عنها بوساطة الأفعال، وبهذا يظهر السرّ فى قوله عليه السلام: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته»[1]، فإن كلّ من فكّر فى الذات ألحد، ومن طال فكره فى الأفعال وحّد .

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن المكونات من هذه المخلوقات المتعلقة بقدرة الله تعالى فيها من العجائب والغرائب ما يظهر بها حكمة الله تعالى وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن؛ لأنه: ﴿ **لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى** ﴾[2]، ولكنّا نشير إلى جُمل تكون مثالاً لما نريده، فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى **ما لا يُعرف أصلها، فلا يمكنا التفكر فيها**، كما قال تعالى: ﴿ **سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[3]، وإلى **ما يعرف أصلها وجملتها، ولا تعرف تفاصيلها**، فلا يمكننا الوقوف على تفاصيلها، وهى منقسمة إلى **ما أدركناه بحسن البصر**، وإلى **ما لا ندركه بحسن البصر**، أما الذى لا ندركه بالبصر، فالملائكة والجن والنار والجنة والشياطين والعرش والكرسى وغيرها، ومجال التفكر فيها مما يغمض ويدقّ، فلنعد إلى الأقرب إلى الأفهام، وهى المدركات بحسن البصر، وذلك هى السماوات السبع والأرضون وما بينهما، فالسماوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ يدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها و رعودها وبروقها وصواعقها وشهبها وعواصف ريحها، فهذه هى الأجناس المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أقسام[4] وأنواع، وكل نوع يتشعب إلى أصناف، ولا نهاية لانشعاب ذلك، وانقسامها فى اختلاف صفاتها وهيأتها ومعانيها الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك للفكر فيه مجال، فلا يتحرك دورة فى السماوات والأرض من جماد وسفن ونبات وفلك وكوكب إلا والله تعالى المحرك لها، وفى حركتها حكمة، أوحكمتان،أوألف

---

(1) كنز العمال، 3/ 47.
(2) سورة الكهف من الآية 109.
(3) سورة يس الآية 36.
(4) فى (د) أجناس.

حكمة، وشيء بلا نهاية ولا غاية، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودالة[1] على جلاله وكبريائه، وقد ورد القرآن بالتفكر في هذه الآيات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]، ولنذكر أبهر الآيات، وأدلها على الحكمة، وأفوقها فى الإتقان والصنعة، ونكتفى بها عمّا سواها، وبالله التوفيق، وهى خلقه الإنسان، ونذكر بعض ما اشتمل عليه من عجيب الصنع وعظيم الإتقان، فمن الآيات الباهرة الإنسان المخلوق، وقد أشار الله تعالى فى خلقة الإنسان إلى سبعة أطوار:

أولها: خلقه من التراب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[3].

وثانيها: خلقه من الطين، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾[4].

وثالثها: من الصلصال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[5].

ورابعها: من الطين اللازب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾[6].

وخامسها: النطفة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[7].

وسادسها: العلقة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾[8].

وسابعها: المضغة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾[9]، ثم من بعد ذلك إنشاء العظام واللحم، وجعله فى أتمّ صورة، وأحسن تقويم، من العظام والأعصاب، والعروق والأوتار واللحم والشحم وغير ذلك من العجائب الدالة على حكمة الله تعالى، وبديع قدرته التى لو استغرقنا الأعمار ما وقعنا منها على عُشر العشير من معشارها فضلاً عن استقصائها، والإحاطة بها، فلا يطلع عليها إلا خلاقها[10] وعلامها، فسبحان من نفذت فى الأشياء حكمته، ووسعها فى الإيجاد، والإتقان علمه وقدرته، وفيما ذكرناه كفاية فيما نريد من التنبيه فى التفكر فى الآيات بمعونة الله تعالى.

---

(1) فى (د،م) دلالة.
(2) سورة آل عمران الآية 190.
(3) سورة الروم من الآية 20.
(4) سورة الأنعام من الآية 2.
(5) سورة الرحمن الآية 14.
(6) سورة الصافات من الآية 11.
(7) سورة الإنسان من الآية 2.
(8) سورة المؤمنون من الآية 14.
(9) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(10) فى (د،ك،م) خالقها.

القسم الثانى: فى التفكر فى صفات العبد وأفعاله ، ثم كل واحد من الصفات والأفعال الظاهرة والصفات الباطنة تنقسم إلى **محمود ومذموم** فى الأفعال، وإلى **مهلكات ومنجيات** فى الصفات، فهذه أنواع أربعة نذكر ما يتعلق بكل واحد منها:

النوع الأول منها : الطاعات، فينظر أولاً فى الفرائض المكتوبة فى أن العبد كيف يؤديها ، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير فيها ؟ ! وكيف يجْبُر نقصانها بكثرة النوافل، ثم نرجع فى التفكر إلى عضو عضو، فيفكر فى الأفعال التى تتعلق بها ممَّا يحبه الله تعالى ويريده، فنقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر فى ملكوت السماوات والأرض عبرة، ويستعمل فى طاعة الله تعالى، ثم ينظر فى كتاب الله وسُنَّة رسوله- صلى الله عليه وآله وسلم-، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسُنَّة، فلمَ لا أفعله؟ ! وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين الكرامة والتعظيم، فأدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين المقت والسخط، فأزجره بذلك، فلمَ لا أفعله؟ ! وهكذا يقول فى سمعه ولسانه وسائر جوارحه فإنه يمكنه أن يستعملها فى الطاعات، ثم يتفكر فيما رغبه فى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر فى إخلاص النية، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله، فعليه إعمال فكره فيما يورده ويصدره.

النوع الثانى: المعاصى، فإنه ينبغى للعبد فى صبيحة كل يوم أن يحاسب نفسه، هل هو فى الحال ملابس لمعصية لربه فيتركها أو لابسها بالأمس فيتداركها بالتوبة والندم، أوهو متعرض لها فى نهاره، فيستعد للاحتراز والتباعد عنها، ثم ينظر فى اللسان، ويقول: إنه متعرض للغيبة والنميمة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء[1] والمماراة والممازحة، والمجون، والخوض فيما لا يعنى، إلى غير ذلك من المكاره، فيقرر أولاً فى نفسه أنها مكروهة عند الله، ويتفكر فى شواهد القرآن والسُنَّة على شدّة العذاب فيها، ثم يتفكر فى أحواله كيف يكون متعرضاً لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر فى أحواله كيف يحترز عنها ويتحقق أنه لا يتم ذلك إلا بالاعتزال والانفراد، وألاّ يجالس إلا صالحًا تقيًا يقتبس منه الهداية، وينكر عليه مهمًّا همّ بفعلها ، وهكذا يتفكر فى سمعه أنه يصغى به إلى الغيبة والكذب وحصول الكلام واللهو والبدعة،وهكذا يفعل فى كل أحواله بالتعهد لها عن الاحتراز عن كل معصية، فمهما حصل الفكر حصلت المعرفة الحقيقية بهذه الأحوال، واشتغل بالمراقبة لله طول نهاره حتى يحفظ جميع أعضائه عن المعصية.

النوع الثالث: المحاذرة عن الصفات المهلكة التى محلّها القلب، فيعرفها ليكون مجانبًا لها بلطف الله، وجملتها عشرة: البخل والكِبْر والعُجب والرياء والحسد والغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحبّ المال، وحبّ الجاه، فينبغى للعاقل أن يكون متحرزاً عن هذه الصفات المذمومة المبعدة له عن الله تعالى، والمقربة إلى سخطه، وليتفقد نفسه، فإن ظنّ أن قلبه متنزّه عنها حمد الله تعالى، وأثنى عليه فى توفيقه للبراءة عنها ، ويمتحن نفسه بالعلامات الدالة على البراءة، فإن النفس أبدًا تَعِد بالخير من عندها

---

(1) فى (د،ك،م) الاستهواء . ﴿ولعل المناسب: الاستهزاء ﴾ .

وتكذب، وإن وجد نفسه متلوثة بشىء منها، فإنه يحتال فى كيفية الخروج عنها بكل حيلة يجدها، فليقرر فى نفسه معصية الله تعالى بملابستها واستحقاقه للذم واللوم من عنده، ثم العقوبة الأبدية فى الآخرة، أعاذنا الله منها، فإن رأى فى نفسه عُجبًا بالعمل، فليتفكر، ويقول: ما عملى وما وزنه عند الله تعالى؟ فإن أدنى نعمة من نعمه، وهو إدخال الماء وإخراجه على حدّ العافية والسلامة لا يعدل فى مقابلته عمل، ثم إن العمل إنما كان بيدى، وقدرتى وجارحتى، وكل هذه الأمور منّة من الله تعالى، ونعمة من جهته، فأى عمل فى الحقيقة أُكافئ به نعمة الله تعالى، وفضله علىّ، وإن أحسّ من نفسه بالكِبر قرر على نفسه ابتداء خلقه، وأن أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، ويحمل فيما بين ذلك عذره، فكيف وقد جرى فى موضع الحيض مرتين، وعلى الجملة فكل من غلبت عليه هذه الصفات المذمومة أو أكثرها فهو أشبه ما يكون بالبهائم والسباع، وكل من تنزّه عنها كان مشبهًا للملائكة والأنبياء، فليختر الإنسان أى الصنفين يكون مشبهًا له.

النوع الرابع: الاجتهاد فى الاتصاف بالصفات المحمودة التى تكون فيها النجاة، ويرجى بها السلامة، وجملتها عشرة: التوبة، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرضا[1]، والزهد فى الدنيا، والإخلاص فى الأعمال، وحسن الخُلق مع الخَلق، وحبّ الله تعالى، والخشوع لجلاله وعظمته، فهذه العشر كلها تكون وسيلة إلى النجاة، وسببًا فيها، فإذا أنصف[2] بواحدة منها، وهى التوبة والندم على القبائح إن فعلها حمد الله وأثنى عليه فى التوفيق للاختصاص بها، وسأل الله تعالى التوفيق؛ لتحصل الباقية، فهذه صفة أهل التقوى المختصين بالله الباذلين نفوسهم فى حقّ الله، فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى به إيماننا ليوم الحساب، إذ لو رآنا السّلف الصالحون لقالوا: قطعًا هؤلاء لا يؤمنون بيوم القيامة، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار، فإن كل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشهوات والحرام، وترك المعاصى، ونحن منهمكون فيها، وأن طلب الجنة بتكثير النوافل والطاعات الموفقة، ونحن مقصرون بالفرائض منها، فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا ما يقوى به حرصنا فى الدنيا والتكالب عليها، وعند هذا يجترئ الناظرون إلينا على معاصى الله بسببنا، ويقولون: لو كان هذا مذمومًا لكان العلماء أحقّ باجتنابه، فليتنا كنّا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا، فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو بالغنا فى الفكرة والتدبر وكثرة التأمل، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا، ويصلح بنا، ويوفقنا للتوبة المقبولة، والندم البالغ على ما أسلفنا من الذنوب قبل أن يتوفانا إنه هو الكريم المنعم الرحيم، وقد نجز غرضنا من التنبيه على مجارى فكرة العبد فى أفعاله المحمودة والمذمومة، وفى صفاته المكروهة والمحبوبة عند الله تعالى.

---

(1) فى (د) الرجاء. ﴿ولعل المناسب فى السياق: الرجاء﴾.

(2) فى (ك) اتصف. ﴿ولعل المناسب فى السياق: اتصف﴾.

الحديث الرابع عشر

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ- رَضِىَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وآله وسلم- : «**أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا، وَلاَ تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ، وَلاَ تُعَاقِبُوا ظَالِمًا فَيَبْطُلَ فَضْلُكُمْ، وَلاَ تُرَاؤُوا النَّاسَ فَيَحْبَطَ عَمَلُكُمْ، وَلاَ تَمْنَعُوا الْمَوْجُودَ فَيَقِلَّ خَيْرُكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ الأَشْيَاءَ ثَلاَثَةٌ: أَمْرٌ اسْتَبَانَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعُوهُ، وَأَمْرٌ اسْتَبَانَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَأَمْرٌ اخْتُلِفَ عَلَيكُمْ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ، أَيُّهَا النَّاسُ: أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَمْرَيْنِ خَفِيفَيْنِ مُؤْنَتُهُمَا عَظِيمٌ أَجْرُهُمَا لَمْ يَلْقَ اللَّهَ بِمِثْلِهِمَا، الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ**»[1].

فنقول: الحمد لله المنعم المحسن الذى أفاض على المخلصين أنوار هدايته، ونوّر أفئدة أوليائه المتقين بما أعطاهم من الحكمة فى بداية الأمر ونهايته، وشرح صدورهم بالتقوى، وأراح قلوبهم بما أنعم عليهم من الزهد فى الدنيا، زهرت مصابيح الهدى فى صدورهم، واشتعلت نيران الخوف فى قلوبهم، فهو المرجو لطفه وثوابه، والمخوف مكره وعقابه، الذى خصّ جميع أوليائه بروح رجائه، حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه، والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه، وضرب بسياط التخويف، وزجر التعنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته، وصدّهم عن التعرض للأئمة، والاستهداف لسخطه ونقمته، قودًا لأصناف الخلائق بسلاسل القهر والعنف، وجدّ بالهم[2] بأزمة الرفق واللطف إلى جنته، فأورثهم ذلك الفوز برضوان الله، وجزيل كرامته، واستحقوا من الله نيل ثوابه وعظيم رحمته ورأفته. والصلاة والسلام على الموضح لأعلام الإسلام، والهادى إلى الدِّين الحنيف وإلى دار السلام، وعلى آله الطيبين أعلام الهدى، والداعين للخلق إلى مسالك التقوى، واعلم أن هذا الحديث مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة، نوضحها بمعونة الله تعالى.

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 26.

(2) فى (د،ك) وجذبًا لهم. ﴿ولعله المناسب فى السياق﴾.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه بحثان:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

فالإعطاء: نقيض المنع، **والحكمة**: هى العلم النافع، وهو علم القرآن وتفصيل معانيه، وتفسيرمُجمله، والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه، ومُحكمه، ومتشابهه، وعامه، وخاصه، وجمله[1]، ومبينه، وناسخه، ومنسوخه، والفهم لامثاله وقصصه وأخباره، و[2]هذا عندنا هو رأس الحكمة، ومفتاح الرحمة مع احتمالها لمعانٍ – أعنى الحكمة–، قد رمزنا إليها من قبل، **وأهل الرجل**: هم أولى الناس به، وأقربهم إليه.

الظلم: وضع الشىء فى غير موضعه لغة، ثم تُعورف فى لسان حملة الشريعة أنه الضرر العارى عن جلب منفعة أو دفع مضرّة تزيد عليه من غير استحقاق، فما هذا حاله من الضرر، و[3]هو يكون ظلمًا، **والمنع**: نقيض الإعطاء، **وظلمها**: وضعها فى غير أهلها، **والمعاقبة**: (مفاعلة) من العقاب، **والعقاب** فى اللغة: اتباع الشىء بالشىء من جنسه إذا كان شاقًا، وهو مُبقى على أصله، **والظالم**: فاعل الظلم لغة وشرعًا، **والبطلان**: هو الذهاب والهلاك، **والفضل**: الشرف والثواب.

الرياء: أصله كل ما كان لا حقيقة له تعلم مأخوذ من التخيل لرؤية الأبصار، وقد صار فى لسان حملة الشريعة مفيدًا لما يعمل من جنس الأعمال الصالحة، ولا يُقصد به وجه الله، وإنما يراد به ما يظهر للناس، ولقد صدق فيه من قال:

ثُــوْبُ الرّيَـــاءِ يَــشِفُّ عَمَّــا تَحْتَــهُ   فَـــإذَا ارْتَــدَيْتَ بـِــهِ فَإِنَّـــكَ عَــارِيْ[4].

الحبط: هو الهلاك، وأصله من البعير يأكل من الربيع فوق ما يحتمله فيموت حبطًا[5] يقال: حبط البعير إذا هلك من البطنة. **المنع**: مضى تفسيره، **والموجود**: نقيض المعدوم، **والإقلال**: نقيض الإكثار، **والخير** هاهنا فيه وجهان:

أحدهما: أن يريد به عدم الثواب، وذهابه، وهذا إنما يكون من منع الواجبات المستحقة كالزكوات والأعشار، فالمنع من

---

(1) فى (د) سقط: والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه ومُحكمه ومتشابهه وعامه وخاصه وجمله. ﴿وهو سقط مخلّ بالمعنى، ولعل سبب السقط هو توهم الناسخ أنه نسخ الساقط عند تكرر لفظة: مجمله، فى المقطع﴾.

(2) فى (د،ك) الفاء بدلاً عن الواو.

(3) فى (د،ك) الفاء بدلاً عن الواو.

(4) البيت للتهامى، وهو من الكامل، ونصّ عجز البيت: فَإِذَا الْتَحَفْتَ بِهِ فَإِنَكَ عَارِ. ينظر: ديوان التهامى، 469.

(5) فى (د) زيادة: الواو.

هذا الخير يكون محظورًا يعاقب عليه، ويستحق حرمان الثواب لا محالة.

وثانيهما: أن يراد بالموجود ما يتعلق بباب الفضل والإحسان من صدقات النفل، **والتفضل والمواساة:** من إعطاء السائل، وبذل النائل، وفكّ العانى، وإطعام الجائع. **الأشياء:** هى جمع شىء، وهو لفظ يفيد العموم والاستغراق لكلّ ما يندرج تحته مّما يسمى شيئًا، **والأمر:** يقع على كلّ مفهوم فى الموجود، وهو أعمّ من قولنا: شىء، فإن اسم الشىء إنما يطلق على ما كان مستقلاً بنفسه من الذوات الموجودة، والمتصورة المعدومة فى الذهن دون الأحكام والصفات، فلا يقال لها شىء بخلاف اسم الأمر، فإنه مقول عليها لا محالة، **والاستبانة:** هى الظهور والوضوح، **والرشد:** نقيض الغى، **والرشد:** الإصابة أيضًا، **والاتباع:** هو اللحاق، **والغىّ:** نقيض الهدى، **والاجتناب:** هو العدول عن الشىء، والإعراض عنه، **والاختلاف:** نقيض الاتفاق، **والردّ:** هو الرجوع، فصارت لفظة الأمر مشتركة بين معانٍ كثيرة من هذه الثلاثة وغيرها، كما أشار إليه صلى الله عليه وآله وسلم هاهنا. **الإنباء:** هو الإعلام، **والإخبار:**[1]هو تعريف الغير بحقيقة الأمر، **والخفيف:** نقيض الثقيل، **والمؤنة:** الثقل، **والعظيم:** نقيض الحقير، **واللقاء:** هو المواجهة، **والمثلان:** هما المتشابهان. **الصمت:** نقيض الكلام، **وحُسن الخلق:** نقيض المساءة فيه.

البحث الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم الإعرابية

ف «**لا**» هاهنا للنهى، و«**تعطوا**» مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف النون، و«**الواو**» هى الفاعلة، و«**الحكمة**» منصوبة على المفعولية، و«**غير**» هاهنا موضوعة للاستثناء المفرغ، وهو[2] المفعول الثانى لـ «**تعطوا**»[3]؛ لأنه يتعدى إلى اثنين، والتقدير: لا تعطوا الحكمة إلا أهلها. «**فتظلموها**» «**الفاء**» هاهنا ناصبة فى جواب النهى، والفعل منصوب بإضمار «**أن**»، و«**الفاء**» دالة عليها وعوض عنها، و«**الهاء**» منصوبة بالمفعولية بالفعل المتصل بها. «**ولا تمنعوها**» «**الواو**» هاهنا عاطفة للجلمة الثانية المنهية على الجملة الأولى، و«**لا**» للنهى كالأولى، والفعل مجزوم وعلامة جزمة حذف النون منها، و«**الهاء**» مفعول أول، و«**أهلها**» منصوب؛ لأنه المفعول الثانى؛ لأن المنع يتعدى إلى مفعولين، كقولك: منعت زيدًا حقه.

«**فتظلموهم**» «**الفاء**» هاهنا[4] ناصبة للفعل فى جواب النهى، وعلامة نصبه حذف النون، كما فى غيره. «**ولا تعاقبوا ظالمًا**» جملة منهية مجزومة بـ «**لا**»، و«**الواو**» عاطفة لها على ما قبلها، و«**الواو**» فاعلة لما اتصل من الأفعال، و«**ظالمًا**» منصوب

---

(1) فى (د،ك) زيادة: الواو.
(2) فى (د) هى.
(3) فى (د،ك) لأعطى.
(4) فى (د،ك) سقط: هاهنا.

على المفعولية. «**فيبطل**» منصوب فى جواب النهى وعلامة نصبه الفتحة فى اللام، **والفضل:** مرفوع على الفاعلية لـ «**يبطل**». «**ولا تمنعوا الموجود**» جملة منهية، و«**الموجود**» منصوب على المفعولية. «**فيقلّ**» منصوب بـ «**الفاء**»على إضمار «**أن**»، و«**خيركم**» مرفوع على الفاعلية، وهذه الجمل كلها جمل إنشائية، ولا تحتمل صدقًا ولا كذبًا، ولا محل لها من الإعراب؛ لأن الإعراب فى الجمل إنما يكون فى الجمل الخبرية؛ لاحتمالها للصدق والكذب، ووقوعها موقع المفردات، فلا جرم كان لها الإعراب، بخلاف هذه.

«**أيها الناس**» مضى إعرابه. «**إن الأشياء ثلاثة**»، فـ «**إن**» للتأكيد، وهى ناصبة للأشياء، ورافعة **للثلاثة** على الاسمية والخبرية لها . «**أمر**» مرفوع على أنه عطف بيان على ثلاثة، أو بدل منها، فكلا الوجهين لا غبار عليه، ورفعه على الابتداء يضعف؛ لكونه نكرة، و«**السين**» فى «**استبان**» للطلب، وهو من البيان، و«**رشده**» مرفوع على الفاعلية، «**فاتبعوه**» «**الفاء**» للعطف، و«**الواو**» فاعلة، و«**الهاء**» ضمير فى موضع نصب على المفعولية. «**وأمر استبان غيه فاجتنبوه**» مثل الجملة الأولى فى الفاعلية والمفعولية من غير مخالفة، و«**أمر**» مرفوع على العطف على ما قبله. «**اختلف عليكم**» جملة خبرية فى موضع رفع صفة لـ «**أمر**». «**فردّوه**» جملة إنشائية أمرية، و«**الفاء**» للعطف على ما قبلها، و«**الهاء**» ضمير فى موضع رفع[1]المفعول.

«**إلى الله**» فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون فى موضع نصب بالمفعولية؛ لتعلقه بـ «**ردّوا**»، **وثانيهما**: أن يكون فى موضع نصب على الحال، أى: ردوه صائرًا إلى الله. «**ألا**» هاهنا للتنبيه، و«**أنبئكم**» فعل مضارع، و«**الكاف**» ضمير فى موضع المفعول الأول، وهو من الأفعال المتعدية إلى ثلاثة، فـ «**الكاف**» هى الأول، و«**الباء**» مزيدة فى موضع النصب كما زيدت «**الباء**» فى مقام الرفع فى قوله: «**كفى بالله**»، والمفعولان الثانيان هما: قوله: «**أمرين خفيفين**[2]»، كقولك: مررت برجل حسن وجهه، و«**عظيم**» مجرور على الصفة لـ «**أمرين**»، و«**أجرهما**» مرفوع على الفاعلية للصفة فى قولك: **عظيم**، «**لم**» حرف جزم، و«**يلق**» مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف الألف، من قولك: يلقى، **واسم الله:** مرفوع على الفاعلية قائم مقام الفاعل؛ لأنه اسم ما لم يُسم فاعله.

«**الصمت**» مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أىْ: هو الصمت. «**وحسن الخلق**» عطف عليه، ولو جرى على عطف البيان، والبدلية من «**أمرين**» لكان وجهًا، لكنه أعرض عن الإتباع، ورفعهما على الابتداء المحذوف وهما خبران.

سؤال: القياس فى الصفة المشبهة إذا رفعت الظاهر أن تكون مفردة لا يجوز تثنيتها ولا جمعها؛ لأنها بمنزلة الفعل فى الرفع، فلهذا وجب إفرادها، **وخفيفتان** رافعتان[3] **للمؤنة**، وهى مثناة، فما وجه ذلك؟ وما السرّ فيه؟ ولهذا فإنه لا يجوز: مررت برجلين

---

(1) فى (د،ك) سقط: رفع. ﴿وهو السليم﴾.

(2) فى (د) زيادة: مؤنتهما، ومؤنتهما: مرفوع على الفاعلية للصفة المشبهة وهى قوله: خفيفين . ﴿وهى زيادة مناسبة وسليمة﴾.

(3) المناسب: خفيفان مرفوعان.

حسنين وجوههما ولا برجال حسنين وجوههم؛ لما ذكرناه؟!

وجوابه: من وجهين:

أحدهما: أنّا لا نسلم رفع **المؤنة بخفيفتين**[1]، وإنما هى مرفوعة على أنها مبتدأ وخبره محذوف تقديره: بأمرين خفيفين مؤنتهما خفيفة، فتكون الخفّة شاملة للأمرين مطلقًا، **والمؤنة** مطلقة، وفيه من المبالغة فى الوصف فى الخفة ما لا يخفى.

وثانيهما: أنّا نسلم أن **المؤنة** مرفوعة **بخفيفين**، وإنما جاء مثنى منبهًا على الأصل؛ لأنه فى الأصل اسم، وكان يجب فيه المطابقة لموصوفه[2] فى التثنية، لكنه جاء مرفوعًا[3] تشبيهًا له بالفعل، فجاءت مثنية[4] مع كونه رافعًا تنبيهًا على ماله بحكم الأصالة كما جاء القود والصيد على الصحة فى الإعلال تنبيها على أن الإعلال ليس أصلاً فى الأسماء، وإنما هو بالمشابهة للفعل، كما أن الإعراب أصل فى الأسماء، والإعراب فى الأفعال بالمشابهة ليعطى كل شىء ما يستحقه بالأصالة، فهذا كلام فيما يحتمله الحديث من علوم الإعراب.

النظر الثانى: فى بيان ما تضمنه من علوم البلاغة

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

وهو مشتمل على معانٍ أربعة:

المعنى الأول: الفصل والوصل، فالفصل فى قوله: «**لا تعطوا**»، وقوله: «**إن الأشياء ثلاثة**»، وقوله: «**ألا أنبئكم**» فإن هذه الجمل جاءت من غير (واو) دالة على الفصل، وأما الوصل، ففى سائر الجمل كلّها، فإنها جاءت بـ «**الواو**»، ومُؤذنة بالوصل بين الجمل والملاءمة بينها.

المعنى الثانى: الجمل الإنشائية المنهيّة، فإنها جاءت مُؤذنة بالآداب الحسنة منبهة[5] على جهة الترادف والتساوق يتلو بعضها بعضاً، والجمل الخبرية جاءت دالة على الآداب الحسنة منبهة عليها ومتضمنة للأوامر الإنشائية، كقوله: «**اتبعوه**»، و«**اجتنبوه**»، فقد

---

(1) المناسب: بخفيفين.

(2) فى (د) الموصوفة.

(3) فى (د) مفردًا. ﴿وهو غير مناسب﴾.

(4) فى (د) تثنيته.

(5) فى (ك) سقط: منبهة.

وقعت هاهنا أحسن موقع؛ لاشتمالها على الأوامر الإنشائية، والمناهى الإنشائية، والأخبار الصادقة الدالة على الحكم النافعة.

المعنى الثالث: الإضمار والإظهار، فالإظهار: فى قوله: «**الحكمة**»، فإنها اسم ظاهر، والإضمار: ما فى قوله: «**تظلموها**»، و«**تمنعوها**»، و«**أهلها**» فإنها كلّها ضمائر دالة على رجوعها إلى «**الحكمة**»، وهكذا قوله: «**أمر**» فإنه اسم ظاهر، وقد رجعت هذه الضمائر فى قوله: «**اتبعوه**»، و«**اجتنبوه**»، وفى قوله: «**رُدُّوه إلى الله**»، وقد عرفت ما فى الإظهار والإضمار من مواقع علم المعانى، فإن الإظهار دال على الإيضاح، والإضمار دال على الاختصار والإيجاز، وهما فى علوم المعانى والبيان فى أرفع قدر ومحل ومكان.

المطلب الثانى: فيما اشتمل عليه من علوم البيان

وقد تضمن أنواعًا من المجازات الرشيقة والاستعارات الفائقة، وهى سبع:

الاستعارة الأولى: قوله: «**لا تعطوا الحكمة**»، فالإعطاء هاهنا استعارة حسنة؛ لأن حقيقة الإعطاء المناولة، وهذا لا يتعقل فى الحكمة، فلهذا كانت مجازاً.

الاستعارة الثانية: وصف الحكمة بكونها مظلومة مجاز واستعارة؛ لأن الظلم هو الضرر الخالى عن النفع، وهذا لا يتأتى فى حقّ الحكمة، فإطلاق الظلم عليها يكون مجازاً بالإضافة إلى العرف الشرعى فى الظلم.

الاستعارة الثالثة: ظلم الأهل، حيث قال: «**فتظلموهم**» فإنه مجاز واستعارة كما ذكرناه فى وصف الحكمة بالظلم، فهما مجازان لا محالة.

الاستعارة الرابعة: قوله: «**فيحبط عملكم**» الغرض هاهنا بالإحباط إبطال الأعمال الصالحة بارتكاب الكبائر، **والحبط**: هو داء[1] يصيب الإبل من أجل الامتلاء، وهو هاهنا مجاز بالإضافة إلى الوضع اللغوى.

الاستعارة الخامسة: **استبانة الرشد**، فإنه مجاز؛ لأن **الاستبانة**: هى الوضوح، ووصف الأمر بالوضوح مجاز لا محالة.

الاستعارة السادسة: **وصف الأمر بالغىّ**، مجاز أيضاً، فإن **الغىّ**: نقيض الهدى، وهو مجاز لا محالة، والغياية والغيايات هى الحجاب على الشمس عن الاستنارة، فوصف الأمر **بالغىّ** مجاز فى جمعه، فنُقل من هذا المعنى إلى ما يناقض الهدى، وذكر (المنصور بالله)– عليه السلام– أن الغىّ مأخوذ من قولهم: غوى الفصيل[2] إذا زاد رضاعه فوق الحدّ، فيهلك أو يقارب الهلاك[3].

---

(1) فى (د) أذى.

(2) الفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه. ينظر: لسان العرب، مادة (فصل).

(3) ينظر: حديقة الحكمة، 134.

وليس الأمر كذلك، فإن **الغيّ**: مخالف للغَوى من جهة لفظه ومعناه، أما لفظه: فلأن (**لام**) الغيّ وعينه (يا آن) من باب حيى، بخلاف غوى فإن عينه (واو)، ولامه (ياء)، وأما من جهة معناه، فلأن **الغيّ**: هو التغطية عن الهداية، ومنه الغياية والغيايات، وأما **الغوىّ**: فهو بشم[1] الفصيل من كثرة اللبن، فهما مفترقان كما ترى.

المطلب الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع

وقد اشتمل على أجناس ثلاثة:

الجنس الأول: منها التسجيع

وهذا كقوله: «فيحبط عملكم»، وقوله: «يقِل خيركم»، وقوله: «اجتنبوه»، و«اتبعوه» فإنه كله سجع.

الجنس الثانى: الطباق

وهذا كقوله: الغى والرشد، فإنهما طباق، ونحو قوله: «**اتبعوه**»، و«**اجتنبوه**».

الجنس الثالث: التجنيس

وهذا كقوله:«**تظلموها**»، و«**تظلموهم**» فإنه جناس، ونحو قوله: «**أهلِها**»، و«**أهلَها**»، فإنه جناس كامل، وقوله: «**استبان رشده**»، وقوله: «**استبان غيّه**»، فإن قوله: «**استبان**» دفعتين جناس كامل، وكقوله:« **أمْرٌ**»؛ فإنه كرره مرارًا ثلاثًا، وكلّه من الجناس الكامل، فهذه الأمور كلها معدودة من علم البديع، وهو كما ذكرنا متعلق بعلوم البلاغة والفصاحة وتحسين الكلام بجودة النظم وحسن السبك كما قررناه من قبل.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم التى أرادها من هذا الحديث

أراد بما أشار إليه هو أن إعطاء الحكمة غير أهلها يكون ظلمًا لها، ومنعها من أهلها يكون ظلمًا لهم؛ لأنها إذا أُعطيت غير أهلها فقد وُضعت فى غير موضعها، وأُحلت فى غير محلها، فلا جرم كان ظلمًا لها، وإذا مُنعت من أهلها فقد ظلموا بالعُدول بها عنهم، فهى لا تنفك عن الظلم فى الوجهين جميعًا، فقد أشار عليه السلام فى كلامه هذا إلى أن الحكمة لها أهل يستحقونها، فلا ينبغى وضعها فى غير أهلها، كمن يعلق الدرّ بالخنازير[2]، واعلم أنه عليه السلام قد ضمن هذا الحديث آدابًا وإرشادات وحِكمًا،

---

(1) البشم: تخمة على الدسم. ينظر: لسان العرب، مادة (بشم).

(2) فى (د،ك) سقط حرف الجر الباء.

ونحن نشير إلى تفصيل كل واحد من هذه، ونجعل لكل واحد منها مقامًا يحتوى على أسراره.

المقام الأول: فى بيان الآداب التى أشار إليها

وجملتها خمسة:

الأدب الأول: منها قوله: «**لَا تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا**» اعلم أن الحكمة عبارة عن إحراز علوم القرآن والسُّنّة النافعة، وإحراز علم طريق الآخرة، وغير ذلك من سائر العلوم الدينية، فما هذا حاله من العلوم لا يصلح وضعه فى غير موضعه، ويجب إعطاؤه أهله إذا طلبوه، ويؤيد ما ذكرناه ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن لله فى الأرضين أهلين: أهل القرآن منهم»[1]، وأهل الحكمة، وهم المتبعون لأوامر الشريعة الملتزمون لأحكامها، المحللون حلالها، والمحرمون حرامها، الجاعلون الوقوف عند ملتبسها رسوخًا فى العلم دون التقحم على سددها المرتجة، والتعدّى على حدودها المضروبة، الذين جعلوا العلم سببًا للقول، وأساسًا للعمل، فأما أهل الزيغ، والعناد، والقلوب الخالية من خوف الله، والمائلين عن طريق الرشاد، فهم أعداء الحكمة فضلاً عن أن يكونوا أهلاً لها، وكيف وقد كرعوا[2] فى حياض الضلالة، وارتووا من آجن[3] الجهالة، ويحكى عن مالك بن أنس بن مالك[4] أنه قال: رويت عن رجال الأحاديث بعدد أساطين هذا المسجد، فما استجيز أن أروى عنهم حديثًا واحدًا ، قالوا: فتتهمهم. قال: لا، ولو وشروا بالمناشير ما كذب منهم أحد على رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- ولكن لم يكونوا أهلاً لهذا الشأن، فانظر إلى تحرّزه، وعظم بصيرته، واتقاد قريحته فى ذلك، وفى هذا دلالة على أن الحكمة تحتاج إلى أهلية تختص بها، فإذا جاوزنا بها غيرهم كنا ظالمين لها؛ لمّا وضعناها فى غير محلها ومكانها .

الأدب الثانى: قوله: «**وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ**»؛ لأنّا إذا منعناها أهلها المستحقين لها لقبولهم لها، وانتفاعهم بها، ونفعهم لغيرهم من المسترشدين لغرائب فوائدها كنا قد ظلمناهم ظلمًا عظيمًا، وارتكبنا فى حقهم حوبًا جسيمًا، ويؤيد ذلك ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم، فقولوا لهم مرحبًا بوصية رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وأقنوهم» . قلت: وما أقنوهم؟ قال: «علّموهم»[5]، والذى أوصى بهم رسول الله-

---

(1) تيسير المطالب، 242 . بلفظ: «إن لله أهلين من الناس: أهل القرآن أهل الله عزّ وجلّ» .

(2) كرع فى الماء أىْ تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفه ولا إناء . ينظر: لسان العرب، مادة (كرع) .

(3) الآجن: الماء المتغير طعمه ولونه. ينظر: نفسه، مادة (أجن) .

(4) وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى المدنى، الفقية إمام دار الهجرة، قال البخارى: أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع، توفى سنة 76هـ. ينظر: تقريب التهذيب، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، ط1، 1986م، دمشق، سوريا، 1/ 156.

(5) تيسير المطالب، 206 .

صلى الله عليه وآله وسلم- هم الطالبون للعلم الراغبون فيه، العاملون بأحكامه، فأما من خالف هذه الصفة فالأخبار النبوية دالة على منعهم، والإبعاد عنهم؛ لما روى أنس بن مالك عن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب»[1]، فهذا منه صلى الله عليه وآله وسلم تنبيه على قبح وضع الحكمة فى غير أهلها، وقد روى عن أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- أنه قال لكميل بن زياد[2]: يا كميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عنى ما أقول لك: الناس ثلاثة : فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، . . . لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق[3] .

الأدب الثالث: قوله: «وَلاَ تُعَاقِبُوا ظَالِماً فَيَبْطُلَ فَضْلُكُمْ، وَلاَ تُرَاؤُوا النَّاسَ فَيَحْبَطَ عَمَلُكُمْ» نهى عليه السلام عن معاقبة الظالم، وأخبر أن ذلك يبطل الفضل، وله تأويلان:

التأويل الأول منهما: أنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن معاقبة الظالم، وأخبر أن ذلك يبطل الفضل إذا كانت العقوبة ظلمًا مثل ظلمه، وفى ذلك بطلان الفضل؛ لأنه لا يحل لأحد ظلم أحد من الناس، ويؤيد ذلك ما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[4] .

التأويل الثانى: أن يكون المراد أن العفو عن الظلم فيه أجر كبير وثواب خطير[5]، وأن فى مقابلة ذلك العفو من الفضل ما لا يعلم تفاصيله إلا الله، فإذا استنصف المظلوم من الظالم بطل ذلك الفضل الذى كان يقع فى المعلوم فى مقابلة العفو، ويؤيد هذا التأويل ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «ثلاث من أخلاق أهل الجنة: العفو عمّن ظلمك، والإعطاء لمن حرمك، والإحسان إلى من أساء إليك»[6]، وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما عفا رجل عن مظلمة ظُلِمها إلا زاده الله بها عزًّا، فاعفوا يزدكم الله عزًّا»[7] .

الأدب الرابع: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَلاَ تُرَاؤُوا النَّاسَ فَيَحْبَطَ عَمَلُكُمْ**» اعلم أن الرياء معصية من كلّ وجه،

---

(1) سنن ابن ماجة، 1/ 81.

(2) وهو كميل بن زياد بن نهيك، ويقال: ابن عبد الله النخعى، التابعى الشهير، توفى سنة82هـ، قتله الحجاج، وهو شيخ كبير. ينظر: الإصابة، 5/ 653.

(3) ينظر: نهج البلاغة، 496.

(4) مسند أحمد، 3/ 414.

(5) خطير: له قدر. ينظر: مختار الصحاح، مادة (خطر).

(6) سنن البيهقى الكبرى، 10/ 235. بلفظ: «ألا أدلكم على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ تعفو عمّن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك».

(7) مسند أحمد، 2/ 235، بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال، ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله عزّا». مسند الشهاب، 2/ 29.

وظاهر الخبر دال على كونه كبيرة؛ لأنه لا يحبط العمل إلا الكبائر، وقد ورد الوعيد عليه بقوله تعالى: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[2]، ثم قال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾[3]، وهو من جملة الخصال المهلكة، وإذا كان كبيرًا لظاهر الخبر كما قررناه، فهل يكون فسقًا عندنا وعند الله أو لا يكون فسقًا إلا عند الله؟

فيه تردد، فإن قلنا: إنه فسق[4] عند الله لا غيره ؛ فلأن الفسق إنما يتقرر بدليل مقطوع به، وهذا الخبر ليس متواترًا، فلا يقطع بصحته، وهذا هو المختار؛ لأن الإجماع منعقد على أن طريق الإكفار والتفسيق إنما يكون قاطعًا لا محالة، والإحباط هو الإبطال؛ لأن ثواب صاحب الكبيرة يبطل لا محالة على معنى أنه لا يوفر ثوابه؛ لأن الثواب والعقاب لا يجتمعان لتضادهما، وإذا بطل توفيره ثوابًا فيجب سقوط مثله فى الأجزاء من العقاب على القول بالموازنة، وهو المذهب القوى والمنهاج المستقيم السوى.

الأدب الخامس: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلَا تَمْنَعُوا الْمَوْجُودَ فَيَقِلَّ خَيْرُكُمْ»، الخير: هاهنا له تأويلان نذكرهما:

التأويل الأول: أن يكون مراده بالموجود الحق الواجب كالزكوات والأعشار، فمنع ما هذا حاله يكون لا محالة محظورًا لا يحل، **وقلة الخير:** هاهنا عدم الثواب، وعلى هذا لا يحل للمسلم أن يمنع الموجود من الحقوق الواجبة؛ لأنه يفوت على نفسه بذلك ثوابًا عظيمًا، ويجلب لها عذابًا أليمًا، ويؤيد ذلك ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن الله تعالى فرض للفقير فى مال الغنى فى كل مائتى درهم خمسة دراهم، فمن منعهم من ذلك فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، ولعنة الملائكة، والناس أجمعين»[5]، ولا أقلّ خيرًا ممّن هذا حاله.

التأويل الثانى: أن يكون المراد بالموجود ما يتعلق بالإحسانات والتفضلات من صدقات النفل، وبذل المعروف، والبذل التى تكون[6] من مكارم الأخلاق ومحامد الشيم، وعلى هذا يكون الخير ما يقع فى مقابلة ذلك من الثواب، وقلّة الخير هى عدم الثواب، فإن اكتساب الخير، ومتاجرة الرّب بالإحسان إلى المؤمنين خاصة، وسائر الخلق عامة من أخلاق الأنبياء، وسيرة الأوصياء، فلا ينبغى لمسلم أن يضيع نصيبه[7] من هذا الخير، ويؤيد ذلك ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «ما من

---

(1) سورة النساء من الآية 142.
(2) سورة الماعون الآيتان 4، 5. وفى (د،ك) سقط الآية رقم 5.
(3) سورة الماعون الآية 6.
(4) فى (د) سقط: إنه فسق.
(5) تيسير المطالب، 360.
(6) فى (د) الذى يكون . ﴿وهو المناسب فى السياق﴾ .
(7) فى (د،ك) نفسه.

مؤمن أتاه أخوه المؤمن يسأله حاجة، وهو يقدر على قضائها فردّه عنها، إلا قال الله تعالى يوم القيامة: أتاك عبدى المؤمن فى دار الدنيا يسألك حاجة قد ملكتك قضاها، فرددته عنها لا قضيت لك اليوم حاجة»[1]، فهذا الخبر كما ترى لا يعمل به إلا من نور الله قلبه بالتقوى، ونزع عن صدره حب الدنيا، وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ارحموا حاجة الغنى»، فقام رجل فقال:- يا رسول الله-، وما حاجة الغنى؟ قال: «الموسر يحتاج فصدقة الدرهم عليه بمنزلة سبعين ألفًا»[2]، فمن ضيّع على نفسه شيئًا من هذه المداخل الحسنة فقد ضيّع على نفسه خيرًا كثيرًا.

المقام الثانى: فى بيان الإرشادات[3] إلى المصالح الدينية

وهو قوله:«الأشياء ثلاثة» اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أشار هاهنا إلى أساس الدِّين وقوامه، وإن كلّ أمر فله طرفان واضحان فى الحُكم، والذى يقع فيه الاشتباه هى الواسطة فلا جرم كان الأمر فيه على ثلاث مراتب نشير إليها:

المرتبة الأولى: ما كان رشده واضحًا والحق فيه بيّن[4]، وما هذا حاله فإنه يتبع ويجوز فعله، ويُحمد صاحبه على التلّبس به، سواء كان ذلك من باب العبادات، أوالعادات، أوالمعاملات، فما كانت الطرق فى حقه وصحته واضحة عن علم ومعرفة، فهو الذى استبان رشده وخيره، وكونه رشدًا إنما يدرك بالعلم القاطع والبصيرة النافذة بما يدل عليه العقل، ويرشد إليه الشرع، فكل ما كان بهذه الصفة فهو الحق الذى لا معدل عنه، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن الله لا ينتزع العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم، بقبض العلماء، كلما ذهب عالم ذهب بما معه حتى إذا لم يبق بيننا عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[5].

المرتبة الثانية: ما يقابل الأولى على نعت المناقضة، وهو الأمر الذى استبان غيّه، وهو الطرف الثانى، وما كان هذا حاله فالحكم فيه التجنب والترك، وهذا يعلم قبحه تارة بأدلة العقل، وتارة بأدلة الشرع، وفى الحديث: «من باع واشترى بغير فقه، فقد ارتطم فى الربا، ثم ارتطم»[6].

المرتبة الثالثة: وهى الوسطى مّما تقدم، وهو كل أمر ملتبس، وحكم ما هذا حاله الرد إلى الله تعالى، والرد يكون له

---

(1) تيسير المطالب، 446.

(2) نفسه، 359. كنز العمال، 6/ 189.

(3) فى (د) الإرادات.

(4) فى (د،ك) مبين.

(5) صحيح مسلم، 4/ 2059. بلفظ: «إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعًا، ولكن يقبض العلماء، فيرفع العلم معهم، ويبقى فى الناس رؤساءً جهالاً يفتونهم بغير علم فيَضلون ويُضلون».

(6) المجموع الحديثى والفقهى، 177. بلفظ: «إن من باع، واشترى، ولم يسأل عن حلال، ولا حرام ارتطم فى الربا، ثم ارتطم».

مستندان:

المستند الأول: إلى الله تعالى، والعرض إلى كتابه، وإلى سنّة رسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- فما حكم به القرآن والسنّة فهو الحق الواضح والطريق المستقيم اللائح.

المستند الثاني: إلى ولاة الأمر، وهم عترة الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- فإنهم معدن العلم ونصابه وتراجمته وأربابه، فإن بهم حل مشكله، وفتح مقفله، وقد جعلهم الله الحفظة على حكمه والأمنة على وحيه، حيث قال عليه السلام: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتى أهل بيتى»[1]، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[2]، وقد فسره الأئمة من العترة بأنهم المرادون بالآية[3]، فإنهم المستنبطون الراسخون فى العلم فإن حصل إيضاحه من هذه الطرق، وإلا وجب الوقف فيه، والوقف فيه لا يخلّ بشىء من أمور الدين، ويؤيد ما ذكرناه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك مشتبهات»[4]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[5]، وقوله عليه السلام: «المؤمنون وقافون عند الشبهات»[6]، ومع الوقف[7] فالسلامة فى الدّين ظاهرة، ومع الإقدام من غير بصيرة فيه معظم الخطر فى الدين.

تنبيه: اعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم من تقسيم الأمر إلى هذه الأقسام الثلاثة قد بلغ فى الاختصار والإيجاز كل غاية، حتى إن جميع ما أُثر عنه من الأحاديث الكثيرة، والروايات البالغة قد أخذت منها، واندرجت تحتها، فقد أخذ عليه السلام بطرفى البلاغة، فتارة بالتطويل والإسهاب فى شرح مواقع التحليل، والتحريم، والإطناب فى ذلك بإيراد التفاصيل البالغة، وتارة بالإيجاز البالغ والاختصار الكلّى، كما ورد فى هذا الحديث فإنه قد تضمن المعانى الكثيرة، والنكت الغزيرة فى أوجز عبارة وأخصرها.

---

(1) مسند أحمد، 3/17. المعجم الكبير، 5/ 154.

(2) سورة النساء من الآية 83.

(3) ينظر: المصابيح الساطعة الأنوار تفسير أهل البيت، القاسم بن إبراهيم، محمد بن القاسم، الإمام الهادى يحيى بن الحسين، جمع وتأليف عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الشرفى، تحقيق محمد قاسم الهاشمى، عبد السلام عباس الوجيه، إشراف صلاح بن محمد الهاشمى، مكتبة التراث الإسلامى، ط1، عام 1998م، صعدة، الجمهورية اليمنية، 1/ 74.

(4) سنن البيهقى الكبرى، 5/ 335.

(5) مسند أحمد، 1/ 200.

(6) الانتصار، 3/ 32.

(7) فى (د) الوقوف.

المقام الثالث: فى بيان الحكم التى أوردها فى هذا الحديث

وقد ضمنه حكمتين:

الحكمة الأولى: الصمت[1]

فلنذكر فضيلة الصمت، ثم نردفه بذكر آفات اللسان، فهذان تقريران نفصلهما بمعونة الله تعالى.

التقرير الأول: فى بيان فضيلة الصمت

اعلم أن اللسان من جملة نعم الله العظيمة، ولطائف صنعته القويمة، فإنه على صغر حجمه وعظيم طاعته وجرمه، فمن أطلق عذبة اللسان، وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان، واضطره إلى البوار، وساقه إلى شفا جرف هار فانهار، وخطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فمن أجل ذلك مدح الشرع الصمت وحثّ عليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من صمت نجا»[2]، وقال أيضاً: «الصمت حكم، وقليل فاعله»[3]، أىْ: هو حكمة وحزم.

وروى عبدالله بن سفيان[4] عن أبيه[5] قال: قلت:- يا رسول الله- أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسأل أحدًا بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومى بيده إلى لسانه[6]، وقال عقبة بن عامر[7]: قلت:- يا رسول الله- ما النجاة؟ قال: «املك عليك لسانك، واشتغل بعيبك، وابكِ على خطيئتك»[8]، وقال سهل بن سعد الساعدى[9]: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «من يتوكل لى ما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة»[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من وُقِىَ شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وُقِىّ»[11]، **والقبقب**: البطن، **والذبذب**: الفرج، **واللقلق**: اللسان، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق.

---

(1) فى (د) سقط: الصمت.
(2) مسند أحمد، 2/ 159.
(3) شعب الإيمان، 4/ 264.
(4) وهو عبد الله بن سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفى الطائفى، قال النسائى: ثقة. ينظر: تقريب التهذيب، 1/ 306.
(5) وهو سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفى الطائفى، صحابى، كان عامل عمر على الطائف. ينظر: نفسه، 1/ 244.
(6) مسند أحمد، 3/ 413.
(7) وهو عقبة بن عامر الجهنى، سكن مصر، وكان واليًا عليها فى عهد معاوية، توفى سنة 58هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1073.
(8) المعجم الكبير، 17/ 270. بلفظ: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك».
(9) وهو سهل بن سعد بن مالك الساعدى الأنصارى، توفى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وسهل ابن خمس عشر سنة، وتوفى سنة 88هـ، وقيل: 91هـ، وكان آخر من بقى من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ينظر: الاستيعاب، 2/ 664، 665.
(10) مسند أحمد، 5/ 333.
(11) شعب الإيمان، 4/ 361.

وسئل رسول- الله صلى الله عليه وآله وسلم- عن أكثر ما يُدخل الجنة، فقال: «تقوى الله، وحُسن الخلق»[1]، وسئل عن أكثر ما يُدخل النار، فقال: «الأجوفان: الفم، والفرج»[2]، فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفة اللسان؛ لأنه محله، ويحتمل أن يراد به البطن؛ لأنه مدخله، وقال معاذ: قلت:- يا رسول الله- أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «ثكلتك أمك- يا ابن جبل-، وهل يُكبّ الناس يوم القيامة على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم»[3]، وقال عبدالله الثقفى: قلت:- يا رسول الله- حدثنى بأمر أعتصم به، قال: «قل ربى الله ثم استقم» قال: قلت:- يا رسول الله- ما أخوف ما تخاف علىّ؟ فأخذ بلسانه فقال: «هذا»[4].

ورُوى أن معاذاً قال:- يا رسول الله- أىّ الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- لسانه ثم وضع عليه إصبعه[5]، وقال أنس بن مالك: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن أخوه بوائقه»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت»[7]، وعن سعيد بن جبير[8] يرفعه إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تناشد اللسان بأن تقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[9].

وروى أبو بكر[10]- رضى الله عنه- أن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «ليس شىء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدّته»[11]، وعن ابن مسعود- رضى الله عنه- أنه قال: قال رسول- الله صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن أكثر خطايا ابن آدم فى

---

(1) مسند أحمد، 2/ 442.

(2) نفسه.

(3) نفسه، 5/ 231.

(4) مسند أحمد، 3/ 413.

(5) المعجم الكبير، 20/ 64.

(6) مسند أحمد، 3/ 198.

(7) المعجم الأوسط، 2/ 264.

(8) وهو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى بالولاء، كوفى، أحد أعلام التابعين، عالم، ورع، قتله الحجاج سنة 95هـ، وقيل: 94هـ، ودفن بواسط. ينظر: وفيات الأعيان، 2/ 371- 373.

(9) مسند أحمد، 3/ 95.

(10) وهو عبد الله بن أبى قحافة- رضى الله عنه- كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة، واسم أبيه أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو التميمى القرشى، وهو أول من أسلم من الرجال، رافق الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- فى هجرته إلى المدينة، بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فى سقيفة بنى ساعدة، ومكث فى خلافته سنتين وثلاثة أشهر، توفى سنة 13هـ، ودفن بجوار الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- بالمدينة. ينظر: الاستيعاب، 3/ 963- 977.

(11) الفصل للوصل المدرج، أحمد بن على بن ثابت البغدادى، تحقيق محمد مطر الزهرانى، دار الهجرة، ط1، عام 1418هـ، الرياض، المملكة السعودية،1/ 202. أما شعب الإيمان، 4/ 244، فبلفظ: «ليس شىء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان على حدته». الذرب الحادّ. ينظر: =

لسانه»[1]، وقال ابن عمر قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «من كفّ لسانه ستر الله عورته، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره»[2].

وروى معاذ- رضى الله عنه- قال:- يا رسول الله- أوصنى. قال: «اعبد الله كأنك تراه، وأعدد نفسك فى الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله»، وأشار بيده إلى لسانه[3]، وعن صفوان بن سليم[4] قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ألا أخبركم بأيسر العبادة، وأهونها على البدن. الصمت، وحُسن الخلق»[5].

وقال أبو هريرة قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا، أو ليصمت»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله امرؤ فيما يقول»[7].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا رأيتم المؤمن صموتًا وقورًا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة»[8]، وعن عيسى- عليه السلام- أنه قال: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى الفرار من الناس[9]، فما ذكرناه دال على فضل الصمت وعلوه.

التقرير الثانى: فى بيان آفات اللسان

اعلم أن الكلام أربعة أقسام: فقسم منه هو ضرر محض، والواجب السكوت عنه، وقسم فيه ضرر ونفع، فإنه يجب السكوت عنه؛ لأن نفعه لا يقوم بما فيه من ضرر، وقسم لا ضرر فيه ولا نفع، وما هذا حاله فهو فضول لا حاجة إلى الاشتغال به، وقسم هو نفع محض، فقد ظهر لك سقوط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع، وهذا الربع فيه أخطار كثيرة وآفات عظيمة، وجملة ما

لسان العرب، مادة (ذرب).

(1) المعجم الكبير، 10/ 197. شعب الإيمان، 4/ 240.

(2) الصمت وآداب اللسان، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا القرشى البغدادى، تحقيق أبى إسحاق الحوينى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1410هـ، بيروت، لبنان، 55.

(3) الصمت وآداب اللسان، 56.

(4) وهو صفوان بن سليم المدنى، أبو عبد الله، وقيل: أبو الحارث القرشى الزهرى، كان ثقة كثير الحديث عابدًا، توفى سنة 132هـ. ينظر: تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى، دار الفكر، ط1، عام 1984م، بيروت، لبنان، 4/ 373، 374.

(5) الصمت وآداب اللسان، 58.

(6) صحيح مسلم، 1/ 68.

(7) شعب الإيمان ، 4/ 265. بلفظ: «إن الله عزّ وجل عند لسان كل قائل فلينظر عبد ماذا يقول».

(8) سنن ابن ماجة، 2/ 1373. بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدًا فى الدنيا، وقلة منطق؛ فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة». إحياء علوم الدين، 3/ 110.

(9) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 110.

نشير إليه من آفات اللسان عشر:

الآفة الأولى: الغيبة

ولا بدّ فيها من بيان أمور خمسة:

أولها: معناها، وهى أن تذكر أخاك بما يكرهه، لو بلغه سواء كان ذلك نقصاناً فى **بدنه**، نحو أن تقول: هو أعور أو أحول أو قصير أو أسود، ممّا يكرهه أو يكون ذلك نقصانًا فى **نسبه**، نحو أن تقول: أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خبيث أو اسكافى، أو فى **خُلقه**، نحو أن تقول: هو شديد الغضب، أو بخيل، أو جبان، أو فى **أفعاله**، نحو أن يقول: هو سارق، أو كذاب، أو خائن، أو يكون فى **أفعاله الدنيوية**، نحو أن تقول: إنه قليل أدب يتهاون الناس به، أو أنه كثير الأكل، كثير الجماع، فإن هذه الأمور كلها معدودة فى الغيبة؛ لما كانت مكروهة لمن قيلت فيه.

وثانيها: ما ورد فيها من الوعيد الشديد من شواهد الشرع، كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله»[2]، فالغيبة تتناول هذه الأمور الثلاثة، وقال أبو هريرة: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً»[3].

وعن جابر[4] وأبى سعيد قالا: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إياكم، والغيبة فإن الغيبة أشدّ من الزنا، إن الرجل قد يزنى فيتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»[5]، وقال أنس: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «مررت ليلة أُسرى بى، فرأيت أقوامًا يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت:– يا جبريل– من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس، ويقعون فى أعراضهم»[6]، وقال البراء[7]: خطبنا رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– حتى أسمع العواتق[1] فى بيوتهن، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه،

---

(1) سورة الحجرات من الآية 12.

(2) صحيح مسلم، 4/ 1986. بلفظ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

(3) نفسه. بلفظ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً».

(4) وهو جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد بن عدى الأنصارى السلمى، أحد الستة الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى. ينظر: الإصابة، 1/ 433.

(5) المعجم الأوسط، 6/ 348.

(6) الصمت وآداب اللسان، 119.

(7) وهو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجى الأنصارى، قال البراء: اُستصغرت أنا وابن عمر يوم بدر فلم نشهدها، وقد أجازه الرسول– صلى الله =

ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه الله فى جوف بيته»[2].

وقال أنس: خطبنا رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فذكر الربا، وعظّم شأنه، فقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ستة وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم»[3]، وفيها أخبار كثيرة دالة على غضب الله، وسخطه لكل من اغتاب.

وثالثها: العلاج الذى يمنع اللسان من الغيبة، وذلك[4] يكون على وجهين: إما على الجملة، وإما على التفصيل، أما **الجملة**، فهو أن يحقق فى نفسه تعرضه لسخط الله، وغضبه بالغيبة لأجل هذه الأخبار التى رويناها، فهو مع ذلك يتعرض لمقت الله، ومشبه عنده بأكل الميتة، وفى الحديث عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «ما ذئبان ضاريان فى زريبة أحدكم بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد»[5]، وفى حديث آخر: «ما النار إلى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد»[6]، وأما **التفصيل**، فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلّة بقطع سببها ، وسنوضح الكلام فى ذكر الأسباب الباعثة على الغيبة[7]، فإذا ذكرناها فطريق علاج الغيبة إنما هو بدفعها .

ورابعها: ذكر الأسباب الباعثة على الغيبة، وجملتها ستة:

السبب الأول: شفاء[8] الغيظ، وهو أن يجرى من جهة الغير سبب يحمل على الغضب عليه، فإذا هاج غضبه تشفى بذكر مساوئه، ويسبق اللسان إليها بالطبع.

السبب الثانى: موافقة الأقران، ومجاملة أهل العشرة له، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بالوقوع فى أعراض الناس، فيرى أنه لو أنكر عليهم استثقلوه ونفروا عنه.

عليه وآله وسلم- يوم الخندق؛ وهو ابن خمس عشرة سنة، نزل الكوفة، وتوفى بها أيام مصعب بن الزبير. ينظر: طبقات ابن سعد، 4/ 364، 367، 368.

(1) العواتق: جمع العاتق، وهى الجارية التى قد أدركت، وبلغت، فخدرت فى بيت أهلها، ولم تتزوج، سميت بذلك لأنها عتقت عن خدمة أبويها، ولم يملكها زوج. ينظر: لسان العرب، مادة (عتق).

(2) شعب الإيمان، 7/ 108.

(3) الصمت وآداب اللسان، 124.

(4) فى (ك) وقد.

(5) الديباج الوضى، 2/ 641. بلفظ: «ما ذئبان ضاريان فى زريبة أحدكم بأسرع من الحسد فى حسنات العبد».

(6) إحياء علوم الدين، 3/ 148.

(7) فى (د) سقط: فإن علاج العلة بقطع سببها، وسنوضح الكلام فى ذكر الأسباب الباعثة على الغيبة.

(8) فى (ك) يشفى.

السبب الثالث: أن ينسب إليه شيء فيريد أن يتبرأ منه بذكر الذى فعله، وكان يمكنه أن يبرئ نفسه ولا يذكر غيره.

السبب الرابع: الحسد، وهو أن يريد زوال نعمة الغير، فلا يمكنه ذلك ولا يجد إليه سبيلاً إلا بالقدح فيه وذكر مساوئه؛ لأنه يثقل عليه سماع ثناء الناس عليه، ويكره إكرامهم له.

السبب الخامس: اللعب والهزل والمطايبة وتمضية الوقت بالضحك، فيذكر غيره بما يضحك الناس على جهة المحاكاة.

السبب السادس: الاستهزاء والتسخر استحقارًا له، فإن ذلك قد يجرى فى الغيبة ومنشؤه الكِبْر واستصغار المستهزأ به، وهذه هى الأسباب الغالبة على الغيبة، وطريق علاجها بدفع هذه الأسباب، وذكر خوف الله، وملازمة التقوى فى عباده.

وخامسها: كفارة الغيبة

واعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما مضى من فعله ليخرج من حق الله ولائمته، ثم يستحل من المغتاب، فيحله فيخرج عن مظلمته، وينبغى أن يستحل منه وهو حزين القلب، متأسف نادم على ما فعله من ذلك، وحُكى عن الحسن البصرى أنه قال: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال[1]، وعن بعض السلف: أنه قال: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير، وعن بعضهم أنه قال فى التوبة عن الغيبة، فقال: تمشى إلى صاحبك وتقول: كذبت فيما قلت، وظلمت وأسأت، فإن شئت[2] أخذت فبحقك، وإن شئت عفوت. وهذا هو الأقرب، وهل يجب على من قطع عرضه أن يحلل[3] المغتاب؟

فيه تردد: والمختار أنه لا شيء عليه؛ لأنه تبرع، والتبرع[4] لا يجب، ولكنه يستحب؛ لما فيه من العفو والصفح، فالواجب على المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه، والتودد إليه، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، وإذا لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة عند الله تعالى يمحو[5] بها بعض ذنوبه فى القيامة.

الآفة الثانية: النميمة

فنذكر معناها، وما ورد من الوعيد فيها، وما ينبغى لمن بلغته النميمة أن يفعل، فهذه فوائد ثلاث:

الفائدةالأولى: فى معنى النميمة، والباعث عليها

أما **معناها**، فإنما تطلق على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان يتكلم فيك بكذا وكذا، وحاصلها: إفشاء

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 153.

(2) فى (د) سقط:شئت.

(3) فى (د) يحلله.

(4) فى (د) زيادة: فعل.

(5) فى (د،ك) زيادة: الله.

السرّ، وهتك الستر عمّا يكره كشفه، سواء كان يكرهه المنقول إليه أو المنقول عنه، بل كلما رآه الإنسان من أحوال الناس فينبغى أن يسكت عنه إلا أن يكون فى حكايته فائدة لمسلم، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له أو دفع معصية، كما لو رأى قومًا مجتمعين[1] ليشرب[2] المسكر، فعليه أن يشيع أمرهم لينفروا عنه، وأما الباعث على النميمة، فهو إما إرادة السوء بالمحكى عنه، وإظهار الحب للمحكى له، وإما الفرح[3] بالحديث أو الخوض فى الفضلات التى لا فائدة فيها ولا جدوى لها.

الفائدة الثانية: فى بيان ما يجب على من بلغته النميمة

فكل من بلغت إليه النميمة وقيل[4] له: إن فلانًا قال فيك: كذا وكذا وفعل فيك كذا وكذا، أو يدبر فى فساد أمرك، أو هو فى ممالاة عدوك أو فى تقبيح حالك أو ما يجرى مجرى ذلك، فعليه مراعاة ستة آداب:

الأدب الأول: منها أن لا يصدقه فيما يقوله؛ لأن النمام فاسق، وهو مردود الشهادة؛ لقوله تعالى: **يَـٰٓأَيُّهَا﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ﴾**[5].

الأدب الثانى: أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبحه[6] إليه أفعاله، قال الله تعالى: **﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾**[7].

الأدب الثالث: أن يبغضه فى الله، فإنه بغيض عند الله، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الأدب الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب الشرّ؛ لقوله تعالى: **﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾**[8].

الأدب الخامس: أن لا يحملك ما حُكى لك عنه على التجسس والبحث؛ لتحقق ذلك؛ لقوله تعالى: **﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ**

(1) فى (د) يجتمعون.
(2) فى (د،ك) لشرب.
(3) فى (د) التفرح.
(4) فى (د) فلت.
(5) سورة الحجرات الآية 6.
(6) فى (ك) يقبح.
(7) سورة لقمان من الآية 17.
(8) سورة الحجرات من الآية 12.

﴾[1].

الأدب السادس: أن لا ترضَ لنفسك ما نهيت النمام عنه، فلا تحكى نميمة وتقول: فلان قد حكى كذا وكذا، فتكون نمامًا ومغتابًا، وتكون قد أتيت بما عنه نهيت، ورُوى عن عمر بن عبدالعزيز[2]- رضى الله عنه- أنه دخل إليه رجل فذكر عنده عن رجل شيئًا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا فى أمرك، فإن كنت كاذبًا كنت من أهل هذه الآية: ﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ ﴾[3]، وإن كنت صادقًا كنت من أهل هذه الآية﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾[4]، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو- يا أمير المؤمنين- ولا أعود أبدًا، وقال الحسن: من نمّ إليك نمّ عليك[5].

الفائدة الثالثة: فى بيان ما ورد من الوعيد على النمام من ذمة واستحقاقه للذم واللائمة والعقوبة

قال الله تعالى: ﴿ وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[6] قيل: هو النمام[7]. قال تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾[8] إلى قوله: ﴿ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾[9]، والزنيم: هو الدعى[10]. قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾[11]، وهى أم جميل امرأة أبى لهب، كانت نمامة حمالة للحديث[12]، وقال تعالى: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾[13]. قيل: كانت امرأة لوط تخبرهم بالضيفان، وكانت امرأة نوح تخبرهم أنه مجنون[14]، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة قتات»[1]

---

(1) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(2) وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان من الخلفاء الراشدين، ولد سنة 63هـ، بالمدينة، وتولى إمرتها فى عهد الوليد، بويع بالخلافة سنة 99هـ، وتوفى سنة 101هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، 5/ 114- 141. الأعلام للزركلى، 5/ 50.
(3) السورة الحجرات من الآية 6.
(4) سورة القلم الآية 11.
(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 156.
(6) سورة الهمزة الآية 1.
(7) ينظر: تفسير الطبرى، 24/ 596.
(8) سورة القلم الآية 11.
(9) السورة نفسها الآية 13.
(10) ينظر: تفسير الطبرى، 23/ 538.
(11) سورة المسد الآية 4.
(12) ينظر: تفسير الطبرى، 24/ 678.
(13) سورة التحريم من الآية 10.
(14) ينظر: تفسير الطبرى، 23/ 497.

قتات»[1] أيْ: نمّام، وفى حديث آخر: «لا يدخل الجنة نمّام»[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أحبكم إلىَّ أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، وأبغضكم إلى المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبرآء العثرات»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بشراركم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، المفرقون بين الإخوان، الباغون للبرآء العيب»[4]، وقال عليه السلام: «من أشاد على مسلم كلمة يشينه بها بغير حق شانه الله فى النار يوم القيامة»[5]، وروى أبو الدرداء قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- : «أيما رجل أشاع على رجل كلمة، وهو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقًّا على الله تعالى أن يشنيه بها يوم القيامة فى النار»[6]، وقال أبو هريرة قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- : «من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار»[7]، وقال عليه السلام: «إن ثلث عذاب القبر من النميمة»[8]، وروى ابن عمر عن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «لمّا خلق الله الجنة قال: تكلمى، فقالت: سعد من دخلنى، فقال الجبار- جلّ جلاله-: وعزّتى وجلالى لا يسكن فيك مدمن خمر، ولا مُصر على الزنا ولا قتّات، وهو النمام، ولا ديوث، ولا قاطع رحم»[9]، **والديوث:** هو الذى يحصل على نسائه، وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط، فاستسقى لهم موسى مرات فما أجيب، فأوحى الله إليه: إنى لا أستجيب لك ولا لمن معك، وفيكم نمام. قال: يا رب من هو حتى أخرجه من بيننا؟ قال:- يا موسى- أنهاكم عن النميمة وأكون نمامًا[10]، وعلى الجملة فالنمام لا ينفك عن الكذب والغيبة والنميمة والغدر والخيانة والغلّ والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة، وهو من الساعين فى قطع ما أمر الله به أن يوصل.

---

(1) صحيح مسلم، 1/ 101.

(2) نفسه.

(3) الصمت وآداب اللسان، 154.

(4) مسند أحمد، 6/ 459.

(5) شعب الإيمان، 7/ 107.

(6) مجمع الزوائد، 4/ 201. بلفظ: «أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة، وهو منها برىء سبّه بها فى الدنيا كان حقًّا على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار».

(7) مسند أحمد، 2/ 509.

(8) إثبات عذاب القبر، أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق د. شرف محمود القضاة، دار الفرقان، ط2، عام 1405هـ، عمان، الأردن، 136. بلفظ: «عذاب القبر ثلاثة لثلاث ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول».

(9) كنز العمال، 1/ 238. بلفظ: «قالت: سعد من دخلنى. قال الله- عزّ وجلّ-: بعزّتى حلفت، وبعلوى على خلقى لا يدخلك مُصرّ على الزنا، ولا مدمن خمر، ولا قتّات وهم النمام».

(10) ينظر: إحياء علوم الدين، 1/ 307.

الآفة الثالثة: الكذب فى الأقوال

وهو من قبائح الأفعال والذنوب، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم، والكذب فإنه مع الفجور، وهما فى النار»[2]، وروى أبو أمامة[3] عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «الكذب باب من أبواب النفاق»[4]، وقال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك مصدق، وأنت له كاذب»[5]، وعن ابن مسعود– رضى الله عنه– قال: قال: رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[6].

وقال عليه السلام: «الكذب ينقص الرزق»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن التجّار هم الفجار، فقيل له:– يا رسول الله– أليس الله قد أحلّ البيع»؟ قال: «بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون»[8]، وقال عليه السلام: «ثلاثة لا ينظرالله إليهم ولا يكلمهم يوم القيامة: المنّان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف، والمسبل إزاره خيلاء»[9]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك منه القوم، ويل له، وويل له»[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت كأنّ رجلاً جاءنى فقال لى: قمْ، فقمت معه، فإذا برجلين، أحدهما قائم، والآخر جالس بيد القائم كلوب[11] من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله فيجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه، فإذا مدّه رجع الآخر كما كان، فقلت للذى أقامنى: ما هذا؟ قال: هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة»[12]، والكذب[13] أضعف ما يكون، وأسخف[1] للهمة.

---

(1) سورة الزمر من الآية 60.
(2) صحيح ابن حبان، 13/ 43.
(3) وهو صدى بن عجلان بن وهب الباهلى، كان ممن روى عن النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– سكن الشام، ويعدّ آخر من توفى من الصحابة بالشام، توفى بحمص سنة 81هـ. ينظر: الاستيعاب، 2/ 736.
(4) كنز العمال، 3/ 248.
(5) شعب الإيمان، 4/ 209.
(6) نفسه، 4/ 200.
(7) إحياء علوم الدين، 3/ 134. كنز العمال، 3/ 249.
(8) مسند أحمد، 3/ 428.
(9) صحيح مسلم، 1/ 102. بلفظ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة؛ المنان الذى لا يعطى شيئًا إلا منّة، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره».
(10) مسند أحمد، 5/5.
(11) الكلوب: حديدة معطوفة كالخطاف. ينظر: لسان العرب، مادة (كلب).
(12) صحيح البخارى، 1/ 466.
(13) فى (ك) الكذاب.

الآفة الرابعة: الفحش والسبّ والأذية وبذاءة اللسان

وما هذا حاله فالنهى عنه شديد وصاحبه مذموم، ومصدره الخبث واللؤم، قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[2]، ونهى رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– عن أن تُسبّ قتلى بدر من المشركين، وقال: «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون، وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء شؤم، ولؤم»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذىء»[4] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها»[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يسعون بين الحميم والجحيم، يدعون بالويل والثبور رجل يسيل فوه دمًا وقيحًا، فيقال له: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى، فقال: إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «– يا عائشة– لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصيَّاح فى الأسواق»[8]، وقال عليه السلام: «إن الفحش، والتفحش ليسا من الإسلام فى شىء، وإن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم أخلاقًا»[9] .

وأما معناه وحقيقته، فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، ويجرى ذلك فى ألفاظ النكاح، وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيها، وأهل الصلاح يتحامون من التعرض لها، بل يكفون[10]عنها[11] يدلون عليها بالرموز، ويذكرون ما يقاربها ويتعلق بها .

قال ابن عباس: إن الله حيّ كريم يعفو ويكنى، كنى باللمس عن الجماع، وهكذا بالمسّ والمسيس عن الوقاع[12]، وهكذا

---

(1) فى (د) أضعف.
(2) مسند أحمد، 2/ 159 .
(3) الصمت وآداب اللسان، 183 .
(4) سنن الترمذى، 4/ 350 .
(5) الصمت وآداب اللسان، 184 .
(6) المعجم الكبير، 7/ 310 .
(7) المعجم الأوسط، 1/ 107 .
(8) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار البشائر الإسلامية، ط3، عام 1989م، بيروت، لبنان، 116 .
(9) مسند أحمد، 5/ 89 .
(10) فى (د،ك) يكنون. ﴿وهو المناسب فى السياق﴾ .
(11) فى (د) زيادة: الواو.
(12) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 122 .

حال الدخول، فإنها عبارات جميلة، وإعراض عن ذكر المستكره المسترذل، فينبغى الإعراض عما هذا حاله.

الآفة الخامسة: المراء والمجادلة بالباطل

وذلك منهى عنه، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعدًا فتخلفه»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته، ولا تؤمن فتنته»[2]، وقال عليه السلام: «من ترك المراء، وهو محقّ بنى الله له بيتًا فى أعلى الجنة، ومن ترك المراء، وهو مبطل بنى الله له بيتًا فى ربض[3] الجنة»[4]، وعن أم سلمة[5]، قالت: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن أول ما عهد إلىّ ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان، وشرب الخمر ملاحاة الرجال»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء، وإن كان محقًّا»[7].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ستّ من كن فيه فقد بلغ حقيقة الإيمان: الصيام فى الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف، وتعجيل الصلاة فى اليوم الدجن[8]، والصبر على المصيبات، وإسباغ الوضوء على المكاره، وترك المراء، وهو صادق»[9]، وقال عمر بن عبدالعزيز: من جعل دِينه عرضة للخصومات أكثر التنقل[10]، وقال عليه السلام: «من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه كثر سقمه، ومن ساء خلقه عذّب نفسه»[11]، وقال عمر- رضى الله عنه-: لا تعلم العلم لثلاث، ولا تتركه لثلاث، فلا تعلمه لتباهى به العلماء، ولتمارى به، ولترائى به، ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه[12]، وقال

---

(1) سنن الترمذى، 4/ 359.

(2) المعجم الكبير،- من حديث طويل، دون قوله: «لا تفهم حكمته»-، 8/ 152. إحياء علوم الدين، 3/ 116.

(3) الربض: وسط الشىء. ينظر: لسان العرب، مادة (ربض).

(4) إحياء علوم الدين، 1/ 47.

(5) وهى هند بنت أبى أمية- المعروفة بزاد الراكب- القرشية المخزومية، تزوجها النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فى السنة الرابعة للهجرة، كانت قبله عليه السلام عند أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى، هاجرت إلى الحبشة، ويقولون: هى أول ظعينة دخلت المدينة، توفيت سنة 62هـ. ينظر: الاستيعاب، 4/ 1939. الأعلام للزركلى، 8/ 97.

(6) المعجم الكبير، 23/ 250.

(7) الصمت وآداب اللسان، 105.

(8) الدجن: المطر الكثير. ينظر: لسان العرب، مادة (دجن).

(9) إحياء علوم الدين، 3/ 117.

(10) موطأ مالك، 3/ 402.

(11) شعب الإيمان، 6/ 342. من دون قوله: «من كثر كذبه ذهب جماله».

(12) ورد القول لنبى الله لقمان عليه السلام. ينظر: سنن الدارمى، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، تحقيق فواز أحمد، خالد السبع العلمى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1407هـ، بيروت، لبنان، 1/ 117.

بعضهم: إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته[1].

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء

وما هذا حاله، فهو محرم مهما كان مؤذيًا، قال الله تعالى: ﴿ **لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ** ﴾[2]، ومعنى **السخرية**: الاستهزاء والاستحقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة بالقول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يكن غيبة.

وقال ابن عباس– رضى الله عنه– فى قول الله تعالى: ﴿ **يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا** ﴾[3]. **الصغيرة**: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، **والكبيرة**: القهقهة بذلك[4]، وهو إشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم والذنوب، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة، فيقال: هلم هلم، فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال له: هلم هلم فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه، ولا يزال كذلك، حتى إن الرجل ليفتح له الباب، فيقال: هلم هلم فما يأتيه»[5]، وقال معاذ بن جبل – رضى الله عنه– قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله»[6]، وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير، والضحك منه استهانة واستحقارًا واستصغارًا له، وقد نبّه الله على ذلك بقوله: ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ** ﴾[7].

الآفة السابعة: المواعيد الكاذبة

فإن اللسان سابق[8] إلى الوعد، ثم إن النفس لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفًا، وذلك مكروه من أمارات النفاق، وقد قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «من علامات المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن

(1) القائل بلال بن سعد، قال الأوزاعى: سمعه منه. ينظر: حلية الأولياء، 5/ 228.
(2) سورة الحجرات من الآية 11.
(3) سورة الكهف من الآية 49.
(4) ينظر: تفسير القرطبى، محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الشعب،(ت)، القاهرة، مصر، 10/ 419.
(5) شعب الإيمان، 5/ 310.
(6) سنن الترمذى، 4/ 661.
(7) سورة الحجرات من الآية 11.
(8) فى (د) سباق.

خان»[1]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «العدة عطية»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الوأى[4] مثل الدَّين وأفضل»[5]، **الوأى:** الوعد، وأثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل- عليه السلام- فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾[6]، فيقال: إنه وعد إنساناً فى موضع فلم يرجع، فبقى اثنين وعشرين يومًا فى انتظاره[7]، وعن عبدالله بن أبى الحمساء[8] قال: بايعت النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- فوعدته أنى آتيه فى مكانه، فنسيت يومى والغد، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه، فقال: «يا فتى شققت علىّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك»[9]، وكان الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- إذا وعد وعدًا قال: «عسى»[10]، وكان ابن مسعود- رضى الله عنه- إذا وعد وعدًا قال: إن شاء الله، وهو الأولى[11]، ثم إذا فهم مع ذلك الحزم[12] فى الوعد فلا بد من الوفاء، إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازمًا على أن لا يفى فهذا هو النفاق، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الخلف أن يعد الرجل وفى نيته أن يفى، وإذا وعد الرجل الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه»[13].

الآفة الثامنة: اللعن لحيوان أو جماد أو لإنسان

وذلك مذموم، قال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- : «المؤمن ليس بلعان، ولا طعان»[14]، وقال عليه السلام: «لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بجهنم»[15]، وقال حذيفة[1]: ما تلاعن قوم قط إلا حقّ عليهم القول[2].

---

(1) صحيح البخارى، 1/ 21. بلفظ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».
(2) سورة المائدة من الآية 1.
(3) مسند الشهاب، 1/ 39.
(4) الوأى: الوعد. ينظر: لسان العرب، مادة (وأى).
(5) الصمت وآداب اللسان، 230.
(6) سورة مريم من الآية 54.
(7) إحياء علوم الدين، 3/ 132.
(8) وهو عبد الله بن أبى الحمساء العامرى من عامر بن صعصعة، قيل: عداده من البصريين، وقيل: سكن مكة، له صحبة. ينظر: أسد الغابة، عز الدين بن الأثير على بن محمد الجزرى، تحقيق عادل أحمد الرفاعى، دار إحياء التراث العربى، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان، 3/ 219. فى (د) الحيساء، وفى (ك) الخنساء.
(9) سنن أبى داود، 4/ 299. بزيادة: «ببيع قبل أن يبعث».
(10) إحياء علوم الدين، 3/ 133.
(11) إحياء علوم الدين، 3/ 133.
(12) فى (د) الجرم. ﴿ولعله الأنسب﴾.
(13) سنن أبى داود، 4/ 299. الجامع لأخلاق الراوى، 2/ 60.
(14) مسند أحمد، 1/ 404.
(15) سنن أبى داود، 4/ 277. بلفظ: « لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضب الله، ولا بالنار».

وقال عمران بن حصين[3]: بينا رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فى بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خذوا ما عليها فاعروها فإنها ملعونة»[4] قال: فكأنى أرى تلك الناقة تمشى بين الناس لا يعرض لها أحد، وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت: لعن الله أعصانا لربه[5]، وعن عائشة- رضى الله عنها- قالت: سمع رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه، فالتفت إليه فقال: «-يا أبا بكر- ألعانين وصديقين، كلا ورب الكعبة ألعانين وصديقين، كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثًا»، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه، وجاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال: لا أعود[6]، والصفات المقتضية للعن ثلاث: الكفر، والفسق، والبدعة، واللعن فى كل واحد منها على ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف العام، كقوله: لعنة الله على الكفرة والفسقة وأهل البدعة.

الثانية: اللعن بوصف أخصّ منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس.

الثالثة: اللعن على الشخص المعين، كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، ورُوى أن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- كان يلعن فى قنوته الذين قتلوا أصحاب بئر معونة شهرًا[7]، فنزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[8].

الآفة التاسعة: الخصومة

وهى أيضاً مذمومة، وهى وراء المراء والجدال، فالمراء: طعن فى كلام الغير لإظهار خلل فيه، والجدال: عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب، وأما الخصومة، فهى لحاح فى الكلام ليستوفى بها مالاً أو حقًّا مقصودًا، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً. والمراء لا يكون إلا اعتراضاً على كلام سابق.

---

(1) وهو حذيفة بن اليمان، واسم اليمان حسيل، حليف الأنصار، من كبار الصحابة، وكان يُعرف بصاحب سرّ الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- شهد نهاوند، وحمل الراية بعد استشهاد النعمان بن مقرن، توفى سنة 36هـ. ينظر: الاستيعاب، 1/ 334، 335.

(2) شعب الإيمان، 4/ 295.

(3) وهو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعى، أسلم يوم خيبر، كان من فضلاء الصحابة، وفقهائها، سكن البصرة، وتوفى بها سنة 52هـ. ينظر:الاستيعاب، 3/ 1208.

(4) صحيح مسلم، 4/ 2004. بلفظ: «خذوا ما عليها، ودعوها؛ فإنها ملعونة».

(5) إحياء علوم الدين، 3/ 123.

(6) إحياء علوم الدين 123/3. .

(7) سنن البيهقى الكبرى، 2/ 199.

(8) سورة آل عمران من الآية 128.

قالت عائشة- رضى الله عنها-: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم»[1]، وقال أبو هريرة: «من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع»[2]، وقال بعض العلماء: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين، ويقال: ما خاصم قط ورع فى الدّين[3]، وما ذكرناه من النهى عن الخصومة فإنما يتناول المخاصمة بالباطل، والذى يخاصم بغير الحق، فأما من له حق فلا بد له من الخصومة ليحصل على حقه، وإنما المقصود هو ما ذكرناه من الخصومات المحظورة التى لا فائدة لها ولا جدوى لها، والخصومة هى مبدأ لكل شرّ، وهكذا حال الجدال والمراء، فينبغى أن لا يفتح بابها إلا لضرورة، وإذا دعت الضرورة إليها فينبغى أن يتحفظ عن هذه الغوائل، ويحرس لسانه وقلبه عن تبعات الخصومة من الغلّ والحقد، وأقلّ ما يحصل من تبعات الخصومة هو فوات الكلم الطيب، وما ورد فيه من الثناء على صاحبه، وقد قال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[4]، وقال ابن عباس: من سلّم عليك من خلق الله فسلّم، ولو كان مجوسيًا[5]، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[6]، وقال أيضًا: لو قال لى فرعون خيرًا لرددت عليه[7]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن فى الجنة لغرفًا يرى باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام»[8]، وروى أن عيسى- صلوات الله عليه- مرَّ به خنزير فقال: مرّ بسلام، فقالوا:- يا روح الله- تقول هذا للخنزير؟! فقال: أكره أن أعود لسانى الشرّ[9]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «الكلمة الطيبة صدقة»[10]، و[11]هذا كله فى فضل الكلام الطيب، وتضاده الخصومة والمراء واللحاح والجدال، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب، المنغص للعيش، المهيج للغضب، الموغر للصدور.

الآفة العاشرة: فضول الكلام، وإيراد الكلام فيما لا يعنى

---

(1) صحيح البخارى، 2/ 867.
(2) الصمت وآداب اللسان، 113.
(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 119.
(4) سورة البقرة من الآية 83.
(5) مسند أبى يعلى، 3/ 100.
(6) سورة النساء من الآية 86.
(7) إحياء علوم الدين، 3/ 120.
(8) صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابورى، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمى، المكتب الإسلامى، عام 1970م، بيروت، لبنان، 3/ 306. مع اختلاف فى: «وألين الكلام».
(9) إحياء علوم الدين، 3/ 120.
(10) صحيح البخارى، 3/ 1090.
(11) فى (د،ك) الفاء بدلاً عن الواو.

وغير ذلك من التقعر، والتشدق، وإظهار الفصاحة والتصنع فيه، وغير ذلك من الآفات العارضة فيه، واعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها، من الغيبة والنميمة، والكذب، والمراء، والنفاق، وغير ذلك، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً، فإنك متى تكلمت فيما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه فأنت به مضيع زمانك، وأنت محاسب على عمل لسانك، ومستبدل[1] الأدنى بالذى هو خير؛ لأنك لو صرفت كلامك إلى التفكر ربما انفتح لك من نفحات رحمة الله تعالى ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته لكان خيرًا لك، فكم من كلمة يبنى بها لصاحبها قصر فى الجنة، وكم من كلمة يهوى بها صاحبها فى النار، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن كلامه ذكر، وصمته فكر، ونظره عبرة»[2]، وقال عليه السلام : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3]، واعلم أن فضول الكلام لا تنحصر، بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى، حيث قال: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله»[5]، فانظر كيف عكس الناس الأمر فيه، فأمسكوا الفضل من المال وأطلقوا الفضل من الكلام، فهذا ما أردنا ذكره من المهم من آفات اللسان، ووراء ما ذكرناه أمور غير هذه، كالإفراط فى الشعر، والغناء، والمزاح، وغير ذلك فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وهى مندرجة تحت فضول الكلام الذى أوردناه، وبتمامه يتم الكلام فى الحكمة التى أشار إليها الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-، وهى حكمة الصمت.

الحكمة الثانية: حسن الخلق

واعلم أن الأخلاق الحسنة هى صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدِّين، وهو ثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين، والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة[6]، والمخازى الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة من رضا رب العالمين المنخرطة بصاحبها فى سلك الشيطان اللعين، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الملك المنان، فنذكر الكلام أولاً فى ماهية حسن الخلق وسوء الخلق، ثم نذكر فضيلته، ثم نذكر علامات حسن الخلق وضده، ثم نذكر الأسباب التى يُنال بها حسن الخلق، فهذه مراتب أربع نذكر ما يتعلق

---

(1) فى (ك) تستّبدل. وفى (د) زيادة: الذى هو.

(2) إحياء علوم الدين، 3/ 112.

(3) سنن الترمذى، 4/ 558.

(4) سورة النساء من الآية 114.

(5) حلية الأولياء، 3/ 203.

(6) فى (د،ك) الدافعة. ﴿والمناسب: الدامغة﴾.

لكل واحدة منها بمعونة الله تعالى.

المرتبة الأولى: فى بيان ماهية حسن الخلق وسوء الخلق

[1]اعلم أن العلماء قد ذكروا فى ذلك أقوالاً كثيرة، كلها تعرض للثمرة دون المعنى، فقال بعضهم: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى، وكفّ الأذى[2]، وقال آخرون: هو أن لا تخاصم أحدًا ولا يخاصم[3] أحد من شدة معرفة الله تعالى، وصار صائرون إلى أنه: كفّ الأذى، واحتمال المؤن، وحُكى عن بعضهم فى حسن الخلق أن يكون من الناس قريبًا وفيما بينهم غريبًا، وعن بعضهم: إرضاء الخلق فى السراء والضراء، وعن بعضهم : الخلق الحسن أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه، وحُكى عن أمير المؤمنين أنه قال: حسن الخلق ثلاث: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسيع على العيال[4]، وعن بعضهم: هو أن لا يكون بك هِمّة إلى غير الله تعالى، وعن آخرين: هو أن لا تتهم مولاك فى الرزق، وتثق به، وتسكن إليه، وتصدق بالوفاء بما ضمن لك[5]، وتطيعه، فهذه الأقاويل كلها إنما هى تعرض لفوائد الخلق الحسن وثمراته، لا لبيان ماهيته وإظهار حقيقته، واعلم أن الإنسان مركب من الخَلْق والخُلق: فالخَلق هو هذه الصورة المكرمة التى أشار إليه الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾[6] أراد بها الصورة المركبة على[7] التقويم الحسن المعجب، وأما **الخُلق الحسن**، فهو عبارة عن هيئة راسخة تصدر عنها الأفعال المحمودة بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكرة ورؤية، فمتى كانت الهيئة صادرة عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا سميت هذه الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كانت الصادرة عنها الأفعال المذمومة عقلاً وشرعًا فهى الخلق السىء، وإنما قلنا بأنها هيئة راسخة؛ لأن من يصدر عنه السخاء والجود فى بذل المال على الندور لحالة عارضة، فإنه لا يقال: إن خلقه السخاء والجود مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ وتسهيل، إنما شرطنا أن تكون الأفعال صادرة عنه بسهولة وتيسير من غير تكلف؛ لأن من تكلف بذل المال، والسكوت عند الغضب لجهد ومشقة، فإنه لا يقال: خلقه السخاء والحلم، فههنا أمور أربعة: **أولها**: فعل الجميل والقبيح، **وثانيها**: القدرة عليهما[8]، **وثالثها**: المعرفة بهما، **ورابعها**: هيئة النفس التى تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسر عليها أحد الأمرين، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فربّ شخص خلقه

---

(1) فى (د) زيادة الواو.
(2) القائل: الحسن البصرى. ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 52، 53.
(3) فى (ك) يخاصمك.
(4) إحياء علوم الدين، 3/ 53. فى (د) سقط: على العيال.
(5) فى (د) سقط: لك.
(6) سورة التين الآية 4.
(7) فى (د،ك) زيادة: هذا.
(8) فى (د) عليها. ﴿ولعل المناسب: عليهما﴾.

السخاء، ولم يبذل درهمًا واحدًا، إما لفقد المال، وإما لعارض، ورب شخص يكون خلقه البخل وهو يبذل المال، إما لباعث، وإما للرياء والسمعة، فالرسوخ فى النفس هو الأصل: إما إلى الفعل الجميل فيكون خلقًا حسنًا، وإما إلى فعل القبيح، فيكون خلقًا سيئًا، فهذا شرح ماهيتهما .

المرتبة الثانية: فى فضيلة الخلق الحسن ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وخيرته على خلقه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] قالت عائشة- رضى الله عنها-: كان رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- خلقه القرآن[2]، وسأله صلى الله عليه وآله وسلم رجل عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[3]، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم مفسرًا لها: «هو أن تصل من قطعك، وتُعطى من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك، وتُحسن إلى من أساء إليك»[4]، وقال عليه السلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أثقل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن»[6] .

وجاء رجل إلى الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- من بين يديه، فقال:- يا رسول الله- ما الدّين؟ قال: «حُسن الخلق»، ثم أتاه من قبل يمينه فقال: ما الدّين؟ قال: «حُسن الخلق»، ثم أتاه من قبل شماله فقال له: ما الدّين؟ قال: «حُسن الخلق»، ثم أتاه من تلقاء وجهه فقال: ما الدّين؟ قال: «حُسن الخلق»، ثم أتاه من ورائه فقال: ما الدّين؟ فالتفت إليه فقال: «أما تفقه هو أن لا تغضب»[7]، وقيل:- يا رسول الله- ما الشؤم؟ قال: «سوء الخلق»[8] .

وقال رجل:- يا رسول الله- أوصنى، فقال: «اتق الله حيث كنت»، قال: زدنى. قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»، قال: زدنى، قال: «خالق الناس بخلق حسن»[9]، وسئل رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: أىّ الأعمال أفضل؟ فقال:

---

(1) سورة القلم الآية 4 .
(2) مسند أحمد، 6/ 91 .
(3) سورة الأعراف الآية 199 .
(4) ينظر: الكشاف للزمخشرى، 179/2 .
(5) سنن البيهقى الكبرى، 10/ 191 . ويبدأ الحديث بـ «إنما» .
(6) صحيح ابن حبان، 2/ 230 .
(7) تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر بن الحجاج المروزى، تحقيق د . عبد الرحمن عبد الجبار، مكتبة الدار، ط1، عام 1406هـ، المدينة، المملكة السعودية، 2/ 864 .
(8) سنن أبى داود، 4/ 341 .
(9) مسند أحمد، 5/ 236 .

«حسن الخلق»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما حسن الله خَلْق امرئ وخُلقه فتطعمه النار»[2]، وقيل لرسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : إن فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها، فقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لا خير فيها هى من أهل النار»[3]، وقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– يقول: «أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق السخاء، ولمّا خلق الله– عزّ وجلّ– الإيمان قال: اللهم قونى، فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولمّا خلق الله الكفر قال: اللهم قونى فقواه بالبخل وسوء الخلق»[4].

وقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : «إن الله استخلص هذا الدّين لنفسه، ولا يصلح لدينكم هذا إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما»[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «حسن الخلق خلق الله الأعظم»[6]، وقيل:– يا رسول الله– أىّ المؤمنين أفضل إيمانًا ؟ قال: «أحسنهم خلقًا»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه، وحسن الخلق»[8]، وقال عليه السلام : «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[9]، وعن جرير بن عبدالله[10] قال لى رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إنك امرؤ قد حسن الله خَلقك فأحسن خُلقك»[11]، وعن البراء بن عازب[12] : كان رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا[13].

---

(1) المعجم الكبير، 1/ 180.

(2) المعجم الأوسط، 7/ 37.

(3) المستدرك على الصحيحين، 4/ 184.

(4) إحياء علوم الدين، 3/ 50.

(5) المعجم الكبير، 18/ 159.

(6) المعجم الأوسط، 8/ 184.

(7) سنن ابن ماجة، 2/ 1423.

(8) مصنف ابن أبى شيبة، عبد الله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط1، عام 1409هـ، الرياض، المملكة السعودية، 5/ 212.

(9) مسند عبد بن حميد، عبد بن حميد بن نصر الكسى، تحقيق صبحى البدرى، محمود الصعيدى، مكتبة السنة، ط1، عام 1988م، القاهرة، مصر، 255.

(10) وهو جرير بن عبد الله البجلى، أسلم فى السنة التى قبض فيها النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– نزل الكوفة، وتوفى بالسراة فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة، وذلك بعد ولاية زياد بن أبيه بسنتين ونصف. ينظر: طبقات ابن سعد، 6/ 22.

(11) المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها، محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى، تحقيق أحمد محمد السلقى الأصبهانى، دار الفكر، عام 1986م، دمشق، سوريا، 27.

(12) وهو البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الخزرجى الأنصارى، كان ممّن استصغرهم رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– يوم بدر، شهد الخندق، وشهد مع على– كرم الله وجهه– الجمل وصفين والنهروان، ثم نزل الكوفة، وتوفى بها أيام مصعب بن الزبير. ينظر: الاستيعاب، 1/ 155– 157.

(13) إحياء علوم الدين، 3/ 50.

وعن أبى مسعود البدرى[1]: كان رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– يدعو: «اللهم كما حسنت خَلقى فحسن خُلُقى»[2]، وعن ابن عمر، كان رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– يكثر الدعاء يقول: «اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق»[3]، وعن أبى هريرة عن النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»[4]، وعن أسامة بن شريك[5] قال: شهدتُ الأعراب يسألون رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–، يقولون: ما خير ما أعطى العبد ؟ قال: «حسن الخلق»[6] .

قال عليه السلام: «ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتدنَّ بشىء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصى الله، أو حلم يكف به السفيه، أو خلق يعيش به فى الناس»[7]، وكان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم فى افتتاح الصلاة: «اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت»[8]، وقال أنس بن مالك: بينا نحن مع رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– إذ قال: «إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد»[9]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبى ذر[10]: يا أبا ذر: «لا عقل كالتدبير، ولا حسب كحسن الخلق»[11]، وعن أنس بن مالك قالت أم حبيبة[12]:– يا رسول الله– أرأيت المرأة ربّما يكون لها زوجان فى الدنيا وتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما ؟ قال: «لأحسنهما خلقًا كان عندها فى الدنيا؛– يا أم حبيبة– ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[13] .

---

(1) وهو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجى البدرى الأنصارى، صحابى شهد العقبة، استخلفه على– كرم الله وجهه– على الكوفة لما سار إلى صفين، توفى سنة 40هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1074، 1075. الأعلام للزركلى، 4/ 240، 241.

(2) صحيح ابن حبان، 3/ 239. بلفظ: «اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى».

(3) ينظر: مجمع الزوائد، 10/ 173.

(4) صحيح ابن حبان، 2/ 233.

(5) وهو أسامة بن شريك الذبيانى، له صحبة ورواية، روى له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى، توفى فى حدود السبعين للهجرة. ينظر: الوافى بالوفيات، 8/ 243.

(6) سنن البيهقى الكبرى، 10/ 246.

(7) المعجم الكبير، 23/ 307.

(8) مسند أحمد، 1/ 102.

(9) المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق،31.

(10) اختلف فى اسم أبى ذر، والأصح: جندب بن جنادة الغفارى، من كبار الصحابة، خامس من أسلم، توفى بالربذة سنة 31هـ، وقيل: 32هـ. ينظر: الاستيعاب، 4/ 1652– 1655.

(11) سنن ابن ماجة، 2/ 1410.

(12) وهى رملة بنت أبى سفيان بن حرب، تزوجت عبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة فى الهجرة الثانية وتنصَّر زوجها، فتزوجها النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– توفيت سنة 44هـ. ينظر: طبقات ابن سعد، 8/ 96– 100.

(13) المعجم الكبير، 23/ 222.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المسلم المسدد ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»[1]، وفى رواية أخرى: «درجة الظمآن القائم»[2]، وقال عبدالرحمن بن سمرة[3]: كنّا عند الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: «إنى رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب، فجاء حسن الخلق فأدخله على الله»[4]، وقال أنس بن مالك، قال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة»[5].

ورُوى أن عمر استأذن على الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب، ودخل عمر ورسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك، بأبى وأمى أنت- يا رسول الله- ممَّ تضحك؟ فقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب». قال عمر: فأنت كنت أحق أن يهبن- يا رسول الله-، ثم أقبل عليهن عمر فقال: أىّ عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-؟ قلن: نعم، أنت أغلظ، وأفظّ من رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، فقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إيهًا يابن الخطاب ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك غير فجك»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سوء الخلق ذنب لا يغفر»[7]، وقال عليه السلام: «إن العبد ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك فى جهنم»[8]، وللخلق الحسن فضل عظيم، ونقتصر منه على هذا القدر.

المرتبة الثالثة: فى علامات حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين، وهى بجملتها ثمرة الخلق،

---

(1) مسند أحمد، 6/ 133. بلفظ: «إن الرجل ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم».

(2) إحياء علوم الدين، 3/ 51.

(3) وهو عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس بن مناف القرشى العبشمى، أسلم يوم فتح مكة، توفى سنة 51هـ. ينظر: الاستيعاب، 2/ 835.

(4) إحياء علوم الدين، 3/ 51.

(5) المعجم الكبير، 1/ 260.

(6) صحيح البخارى، 3/ 1199.

(7) المعجم الصغير(الروض الدانى)، 1/ 333. بلفظ: «ما من شىء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق، فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد فى شر منه».

(8) المعجم الكبير، 1/ 260.

وسوء[1] الخلق، ونحن نورد جملة من ذلك، ليعلم به حسن الخلق وحده، فقد قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[2] . . . إلى قوله تعالى: ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾[4] . . . إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[5]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[6] . . .إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾[7]، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾[8] . . . إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقْد جميعها علامة لسوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده.

ووصف الرسول– الله صلى الله عليه وآله وسلم– المؤمنين بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[9]، وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[10]، وذكر أن صفات الإيمان هى حسن الخلق، فقال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[11]، وقال عليه السلام: «إذا رأيتم المؤمن صموتًا وقورًا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة»[12]، وقال: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن»[13]، وقال: «لا يحل لمؤمن أن يشد إلى أخيه بنظرة تؤذيه»[14]، وقال: «لا

---

(1) فى (د) حسن. ﴿والمناسب: حسن﴾.
(2) سورة المؤمنون الآيتان 1، 2.
(3) السورة نفسها من الآية 10.
(4) سورة التوبة من الآية 112.
(5) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(6) سورة الأنفال من الآية 2.
(7) السورة نفسها من الآية 4، 74. ﴿وأراد المصنف الإشارة إلى الآية 4 ويُستبعد أن يكون المراد الآية 74 لورود آيات فى غير المؤمنين بينها وبين الآية 2﴾.
(8) سورة الفرقان من الآية 63.
(9) صحيح البخارى، 1/ 14. بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».
(10) نفسه، 5/ 2240. وفى (د) سقط: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».
(11) سنن أبى داود، 4/ 220.
(12) سنن ابن ماجة، 2/ 1373. بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدًا فى الدنيا، وقلة منطق؛ فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة». إحياء علوم الدين، 3/ 110.
(13) المعجم الأوسط، 7/ 193.
(14) الزهد لابن المبارك، 240.

يحل لمسلم أن يروع مسلمًا»[1].

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق، فقال: أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، قليل الفساد، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرّ، وصول، وقور، صبور، رضىّ، شكور، حليم، رفيق، عفيف، شفيق، لا لعان، ولا سباب، ولا نمام، ولا مغتاب، ولا عجول، ولا حقود، ولا بخيل، ولا حسود، هشاش، بشاش، يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويرضى لله، ويغضب لله، فهذا هو حسن الخلق.

وأما سوء الخلق، فقد سئل عليه السلام عن علامات المؤمن والمنافق، فقال: «إن المؤمن همته فى الصلاة والصيام والعبادة، والمنافق همه الطعام والشراب كالبهيمة»[2]، وقال بعضهم: المؤمن مشغول بالفكر والعمل، والمنافق مشغول بالحرص والعمل[3]، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق راجٍ لكل أحد إلا لله[4]، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله تعالى، والمؤمن يقدم ماله دون دِينه، والمنافق يقدم دِينه دون ماله، والمؤمن يخشى ويتقى، والمنافق يسىء ويضحك، والمؤمن يحب الوحدة والخلاء، والمنافق يحب الخلطة والملأ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرئاسة فيفسد، وأحق ما يمتحن به الخلق الصبر على الأذى، واحتمال الجفاء، ومن شكا من سوء خلق غيره فدل على سوء خلق نفسه؛ لأن من حسن الخلق احتمال الأذى.

وقد رُوى أن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- كان يمشى ومعه أنس بن مالك فأدركه أعرابى فجذبه جذبًا شديدًا، وكان عليه بُرد نجرانى غليظ الحاشية. قال أنس: حتى نظرت إلى عنق رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه، ثم قال :- يا محمد- مُرْ لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه رسول الله، فضحك، ثم أمر بعطائه[5]، ولمّا أكثر الكفار عليه الأذى قال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[6]، فلهذا قال الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[7].

---

(1) مسند أحمد، 5/ 362.
(2) إحياء علوم الدين، 3/ 70.
(3) فى (د،ك) الأمل. ﴿ولعل الأنسب: الأمل﴾.
(4) فى (د،ك) الله.
(5) صحيح البخارى، 3/ 1148.
(6) نفسه، 3/ 1282.
(7) سورة القلم الآية 4.

ورُوى أن على بن موسى الرضا[1] كان يميل خَلقه إلى الخُضرة والسواد لما كانت أمه جارية سوداء، وكان فى نيسابور[2] على باب داره حمام، وكان إذا دخل الحمام فُرِغ له، فدخل ذات يوم، فأطبق الحمامى باب الحمام ومضى إلى بعض حوائجه فقدم إنسان رستاقى إلى باب الحمام، ودخل ونزع ثيابه فدخل الحمام، فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدم الحمام، فقال: قم، فاحمل إلىّ الماء، فقام على بن موسى، وامتثل جميع ما كان يأمره، فرجع الحمامى، فرأى ثياب الرستاقى، وسمع كلامه مع على بن موسى، وسأل عن الحمامى، فخاف وهرب، وخلاهما، فلما خرج على بن موسى وسأل عنه، فقيل: إن الحمامى خاف وهرب، فقال: لا ينبغى له أن يهرب، إنما الذنب على من وضع ماءه فى أمة سوداء[3] . هذا ما أردنا ذكره فى هذا المقالات.

المرتبة الرابعة: فى بيان الأسباب التى ينال بها حسن الخلق

قد أشرنا فيما سبق إلى أن حسن الخلق حقيقة آيلة إلى هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال المحمودة بسهولة، وهذه الهيئة لها حالتان[4]:

[5]**الأولى:** أن يكون حاصله بجود إلهى، وكمال من جهة الله تعالى، بحيث يخلق الإنسان، ويولد كامل العقل، حسن الخلق، قد كفى غلبة سلطان الشهوة، بل خلقنا منقادين للعقل والشرع، فيصير عالمًا بغير معلم، وأديبًا بغير مؤدب، وهذا كعيسى- صلوات الله عليه-، ويحيى بن زكريا، وهكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم.

الحالة الثانية: أن تحصل هذه الهيئة بالاكتساب والرياضة والمجاهدة، فرُبّ صبى يخلق صادق اللهجة، سخيًّا، جريًّا، وربّما خلق بخلاف ذلك، فيحصل ذلك بالتعود ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق، ونعنى بالتعود: هو حمل النفس على هذه الأخلاق التى يقتضيها الخلق المطلوب، فمن أراد مثلاً أن يحصل له خلق الجود، فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يواظب عليه تكلفًا مجاهدًا لنفسه حتى يصير ذلك له طبعًا، ويتيسر عليه فعله فيصير جوادًا، وهكذا من أراد خلق التواضع، وقد غلب عليه التكبر، فطريقه أن يواظب على تعاطى أفعال المتواضعين مدة مديدة، وهو فيها يجاهد نفسه، ويتكلف حتى يصير ذلك

---

(1) وهو على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على، ثامن الأئمة عند الإمامية، كان سيد بنى هاشم فى زمانه، ولد بالمدينة، أحبّه المأمون فعهد إليه بالخلافة من بعده، توفى فى حياة المأمون بطوس، فدفنه إلى جانب أبيه الرشيد سنة 203هـ ينظر: الوافى بالوفيات، 22/ 154. الأعلام للزركلى، 5/ 26.

(2) نيسابور من بلاد خراسان، فتحها عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان- رضى الله عنه- وذلك سنة ثلاثين للهجرة. ينظر: الروض المعطار فى خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميرى، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، عام 1980م، بيروت، لبنان، 588.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 71.

(4) فى (د،ك) زيادة: فى الحصول.

(5) فى (د،ك) زيادة: الحالة.

كله[1] خلقًا وطبعًا، ويتيسر له جميع الأفعال المحمودة شرعًا بهذا الطريق الذى أشرنا إليها، وقد تمّ غرضنا من شرح الحديث الذى أشار فيه النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– إلى هذه الأسرار اللطيفة، والحمد لله رب العالمين.

(1) فى (د،ك) له.

الحديث الخامس عشر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- خُطْبَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ منها الْقُلُوبُ، فَكَانَ مِمَّا حَفِظْتُ مِنْهَا: «**أيُّهَا النَّاسُ إنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ، وَزهَدَ عَنْ غُنْيَةٍ، وَأنصَفَ عَنْ قُوَّةٍ، وَحَلُمَ عَنْ قُدْرَةٍ، ألَا وَإنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عَبْدٌ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا الْكَفَافَ، وَصَاحَبَ فِيهَا الْعَفَافَ، وَتَزَوَّدَ لِلرَّحِيلِ، وَتَأَهَّبَ لِلْمَسِيرِ، ألَا وَإنَّ أَعْقَلَ النَّاسِ عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ فَأَطَاعَهُ، وَعَرَفَ عَدوَّهُ فَعَصَاهُ، وَعَرَفَ دَارَ إقَامَتِهِ فَأَصْلَحَهَا، وَعَلِمَ سُرْعَةَ رِحْلَتِهِ فَتَزَوَّدَ لَهَا، ألَا وَإنَّ خَيْرَ الزَّادِ مَا صَحِبَهُ التَّقْوَى، وَخَيْرَ الْعَمَلِ مَا تَقَدَّمَتْهُ النِّيَّةُ، وَأَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَخْوَفُهُمْ مِنْهُ**»[1].

فنقول: الحمد لله العلام الحكيم، الذى تتحير دون إدراك معرفته القلوب والخواطر، وتدهش فى مبادئ إشراق نوره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكونات الضمائر، المستغنى فى تدبير ملكه عن الوزير والمشاور، الذى صرف الأمور بتدبيره، وعدل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره، وزيّن صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وفوض[2] فعل الطاعات إلى اجتهاد العبد وتشميره ، واستحثه على تأديتها بتخويفه وتحذيره، وسهل على خواص عباده الانكفاف عن المعاصى بتوفيقه وتيسيره، ولطف لهم بأنواع الألطاف الإلهية فى الانقياد لأمره بتسهيل عسيره، وامتن عليهم بما عرضهم له من الدرجات العالية من عظيم الثواب وخطيره، ففازوا بجواره فى حظائر قدسه، ونجوا ممّا أعدّ لأعدائه من أليم عذابه وسعيره.

والصلاة على محمد نبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره، الذى لاحت أنوار النبوة، وإشراق الرسالة من أساريره، وانكشفت حقيقة الحق من مخائله وتباشيره، وعلى آله الطيبين الذين أظهروا وجه الإسلام عن ظلمة الكفر وحندسه ودياجيره، وحسموا سواد الباطل فلم يتدنسوا بشىء من قليله وكثيره.

واعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم يشتمل على النظر فى أمور ثلاثة، تأتى على المقصود من عجائبه وأسراره.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه مطلبان:

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 26.

(2) فى (د،م) فرض. ﴿ولعل المناسب: فوض﴾ .

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

فالأفضل: هو الأشرف والأعلى، **والتواضع**: هو نقيض الترفع والتكبر، **والرفعة**: هى العلو والشرف، **والزهد فى الدنيا**: هو نقيض الرغبة فيها، **والإنصاف**: هو الانقياد للحقوق طوعًا، **والقوة**: هى نقيض الضعف، **والحلم**: نقيض السّفه والخفّة، وهو صبر مخصوص فى مقابلة سفه السفهاء وبغى البُطر[1]، **والقدرة**: هى التمكن من الفعل.

العفاف والكفاف؛ فأما **العفاف**: فهو التحفظ عن الأمر الذى يخاف بمواقعته مواقعة القبيح، يقال: عَفَّ يعف إذا ملك نفسه، وأكثر ما يستعمل مجازاً على وجه الاستعارة فى الإزار[2]، وأما **الكفاف**: فهو عبارة عن القدر المساوى للحاجة وسدّ الفاقة من غير زيادة، **والمصاحبة**: الملازمة، وسُمى الصاحب صاحبًا لملازمته لمن صاحبه، **والتزود**: رمّ الزاد وإصلاحه للسفر، وسُمى المزود مزودًا؛ لأنّ زاد المسافر يكون فيه، **والرحيل** نقيض الحلول، **والتأهب**: إعداد الأهبة، وهى الزانة والعدة، واشتقاقه من الإهاب، وهى شىء من الجلود يترك فيه الإنسان ما يحتاج إليه فى السفر، **والجلد**: إهاب ما لم يدبغ، فإذا دبغ فهو أديم.

الأعقل: الزائد على الناس فى العقل والتمييز، **والعبد**: هو المملوك الذليل الخاضع، واشتقاقه من قولهم: طريق معبد أىْ: مذلل بالسلوك كثيرًا، **والمعرفة**: نقيض الجهل، **والطاعة**: نقيض المعصية، **والعدو**: هو الجانب، ومنه العدوة، وهى جانب الوادى؛ لأن العدوين كل واحد منهما فى جانب عن صاحبه.

المعرفة: نقيض الإنكار. **الدار**: هى المحاط عليها بالسور والأبنية، **والإقامة**: نقيض الرحلة، **والرحلة**: نقيض الإقامة، **والتزود** أهبة[3] الزاد وإصلاح حاله. **الزاد**: ما يأخذه المسافر ويستصحبه لسفره، **وخيار الشىء**: أقصاه وأعلاه، **والمصاحبة**: المقارنة، **والتقوى**: هى الوقاية، **وخير العمل**: أفضله وأعلاه[4]. **المتقدم**: هو السابق، **والنية**: هى الإرادة المقارنة للفعل، وهى المخالفة للعزم لما كان سابقًا للفعل. **ذرفان العيون**: هو سيلانها بالدموع، **ووجل القلوب**: هو خوفها ورعبها، وهذا كله من كلام ابن عمر، وليس من كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

المطلب الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الإعرابية

فقوله: «**إنّ أفضل الناس**» فـ «**أفضل**» منصوب بـ «**إنَّ**» المؤكدة، و«**الناس**» مجرور بإضافة أفعل التفضيل، وله فى

---

(1) فى (ك،م) البطراء.

(2) فى (د) الإزراء. ﴿والمناسب: الإزار﴾.

(3) فى (ك،م) تهيئة. ﴿ولعله الأنسب﴾.

(4) فى (د) سقط: والمصاحبة: المقارنة، والتقوى: هى الوقاية، وخير العمل أفضله وأعلاه. ﴿وهو سقط مخلّ ولعل سبب السقط تكرر لفظه: أعلاه، مما يوهم أنه تم نسخه﴾.

الاستعمال وجوه ثلاثة: إما الإضافة كما ورد هاهنا، والإضافة فيه لفظية، كإضافة الصفة المشبهة فى نحو قولك: مررت برجل طاهر الذيل، وعفيف اليد، وتحتمل أن تكون معنوية؛ لأنها تفيد التخصيص كقولك: غلام رجل؛ لأنَّ أفعل التفضيل غير عامل فى معمول لا رفعًا ولا نصبًا، بخلاف الصفة المشبهة، فهى عاملة للرفع فى فاعلها[1]، والنصب فى شبه المفعول، فلا جرم كانت إضافة معنوية، فافترقا، وإما بـ (اللام) فى[2] قولك: مررت بالأفضل والأكرم، وإما بـ (من) فى نحو قولك: مررت برجل أفضل منك، فهذه كلها استعمالات أفعل التفضيل، لا يخرج عنها بحال.

«**من**» فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون موصولة فى موضع رفع خبرًا لـ «**إنَّ**».

وثانيهما: أن تكون نكرة موصوفة بالجملة الفعلية بعدها، كأنه قال: أفضل الناس رجل تواضع عن رفعة، الجار والمجرور متعلق بالفعل قبله، و«**عن**» هاهنا وقعت أحسن موقع للمجاوزة، فأراد من جاوز الرفعة وأعرض عنها، و«**زهد**» جملة فعلية، و«**عن غنية**» هى للمجاوزة أيضاً، وقوله: «**غنية**» و«**رفعة**» مصدران من الفعل الثلاثى، وهكذا قوله: «**أنصف عن قوة**» أىْ: جاوز القوة وانحط عنها، و«**حلم عن قدرة**» فهى كلها مصادر للثلاثى، ومصادر الفعل كثيرة واسعة، وقد ضبطها (الزمخشرى)[3] مفصلة باثنين وثلاثين بناءً، وزاد غير (سيبويه) ثلاثة أبنية[4]، وطريقها السماع اللغوى.

«**ألا**» هاهنا للتنبيه. «**إن**»[5] حرف مؤكد يعمل النصب فى أفعل، و«**عبد**» مرفوع على الخبرية؛ لـ «**إن**»، وقوله: «**عبد**» يؤكد أحد الاحتمالين اللذين ذكرناهما فى «**من**»، وهو أن تكون نكرة كما ورد فى الثانية. «**أخذ**» جملة فعلية. «**من**» هاهنا لابتداء الغاية، ويحتمل أن تكون «**من**» للتبعيض، و«**الدنيا**» (فعلى)، قد استعملت استعمال الأسماء، وخرجت عن أن يكون مقصودًا بها الصفات، كالفضلى، ولهذا جاءت بغير (لام) ولا إضافة، لما جرت مجرى الأسماء، وخرجت عن استعمال الصفات.

«**الكفاف**» مصدر منصوب على المفعولية؛ لقوله: «**أخذ**»؛ لكونه متعديًا إلى مأخوذ، «**وصاحب فيها العفاف**» جملة فعلية معطوفة على ما قبلها، و«**العفاف**» منصوب على المفعولية، و«**فيها**» جار ومجرور فى موضع نصب على الحال من «**العفاف**»، كأنه قال: وصاحب العفاف مستقرًا فيها، ويحتمل أن يكون فى موضع المفعول من غير تقدير الحال، كأنه قال: وصاحبها

(1) فى (د،م) عاملها.

(2) فى (د،م) زيادة:نحو.

(3) وهو محمود بن عمر بن أحمد الزمخشرى، كان إمامًا فى التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم، كبير الفضل، ولد بزمخشر من أعمال خوارزم، سنة 468هـ، وتوفى سنة 538هـ. ينظر: معجم الأدباء، 5/ 489، 490.

(4) ينظر: المفصل فى صنعة الإعراب، 275.

(5) فى (د،ك) سقط: إن.

العفاف. «**وتزود للرحيل**» جملة فعلية ماضية، والضمير فيها راجع إلى «**عبد**». «**اللام**» فى قوله «**للرحيل**» لام التعليل، أىْ: تزود من أجل الرحيل، ويجب إظهار (اللام) مع الأسماء، كقولك: جئتك للدينار والدرهم، وهكذا قوله: «**وتأهب للمسير**» جملة فعلية، واللام للتعليل، أى: تأهب من أجل المسير[1].

«**ألا**» هاهنا للتنبيه، «**وإنّ أعقل الناس**»[2] اسمها منصوب بها. «**عبد**» مرفوع على أنه خبر لـ «**إن**». «**عرف ربه**» جملة فعلية، و«**دار**» منصوب بالمفعولية، وهو مضاف إلى إقامته المضاف إلى الضمير. «**فأصلحها**» جملة فعلية. و«**الهاء**» فى موضع المفعول المنصوب، والضمير للدار، «**وعلم سرعة رحلته**» جملة فعلية، و«**سرعة**» منصوب على المفعولية لـ «**علم**» الذى بمعنى عرف، فلا يكون له إلا مفعول واحد، و«**الرحلة**» مجرور بإضافة سرعة أيضاً، وهو مضاف إلى ضمير، «**فتزود**» جملة فعلية ماضية، و«**اللام**» فى «**لها**» للتعليل، أىْ: تزود من أجلها.

«**ألا وإنّ خير الزاد**» «**ألا**» حرف للتنبيه، و«**إنّ**» للتأكيد، و«**خير**» منصوب بـ «**إن**»، وأصلها أخير من أفعل التفضيل، لكن الهمزة طرحت للتخفيف. «**ما صحبه التقوى**» «**ما**» هاهنا موصولة بالفعل بعدها، والضمير فى صحبه للزاد، و«**التقوى**» مرفوعة على الفاعلية لـ «**صحبه**». «**وخير العمل ما تقدمته النية**» جملة ابتدائية، و«**ما**» موصولة فى موضع خبر المبتدأ مرفوعة، أىْ: وخير العمل الذى تقدمه النية، وقد تمت بجميع تعلقاتها فى الصلة، والعائد. قوله: «**وأعلى الناس منزلة**» «**أعلى**» فى موضع رفع، و«**الناس**» مجرور بإضافة أفعل التفضيل. «**أخوفهم منه**» أفعل تفضيل مرفوع على أنه خبر مبتدأ، و«**منه**» جار ومجرور، و«**من**» لابتداء الغاية كما مر فى غير موضع، وهى قياس فى أفعل التفضيل، أعنى من أنها لابتداء الغاية، فهذا منتهى علم الإعراب.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم فى البلاغة

وفيه مباحث ثلاثة:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

وقد اشتمل من لطائف علم المعانى على أسرار، ونكت نوضحها بمعونة الله تعالى:

السرّ الأول: تصدير هذه الجمل الوعظية بالتنبيه فى أولها[3]، وما ذاك إلا من أجل إيقاظ القلوب عن غفلتها، والحثّ على

(1) فى(د،م) السير.

(2) فى (د،ك) زيادة: إن مع. ﴿وبهذه الزيادة لا يستقيم معنى الجملة﴾.

(3) فى (د،م) أوائلها.

إصغاء الأسماع عن إعراضها، فقال فى أول كل جملة «**ألا**» تنويهًا بالذكر، وإشادة[1] لأمره.

السرّ الثانى: أنه ضمّ إلى التنبيه حرف التأكيد بـ «**إن**»، فقال: «**ألا وإن**»،و كل واحد من هذين الحرفين له موقع عظيم فى الكلام، فكيف بهما إذا اجتمعا فهما مشعران بالزجر البالغ مع ما تضمناه من رشاقة السياق وحسن التأليف.

السرّ الثالث: الفصل والوصل، فإنهما من علم المعانى لفى أرفع المكان الرفيع العالى، فالفصل فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيها الناس إن أفضل الناس**»، فإنه جامع حرف التنبيه السابق[2]، وهو (هاء) التنبيه من غير (واو) دلالة على الفصل والوصل جاء فى باقى الجمل بذكر (الواو)، وهو علامة الوصل، وأمارته.

السرّ الرابع: بيان موقع المجاوزة فى هذه الجمل، فإن هذا الحرف وهو قوله: «**من تواضع عن رفعة**» وسائر الجمل المصدرة بـ «**عن**»، فإن لها هاهنا موقعًا عظيمًا، ودخولاً فى المعنى، فإن سائر حروف الجر لا تقوم مقامها، ولا تؤدى معناها، فإن **التواضع** إنما يكون له موقع ومحل إذا جاء عن رفعة وانحط عنها، وهكذا حال **الحلم**[3]، إنما يكون له خطر إذا صدر عن قدرة، فأما العاجز فلا وجه لحلمه؛ لأن العجز يقعده عمّا أراد، وهكذا حال الزهد إنما يكون له ثمرة إذا كان متمكنا من الغنى ويتركه زهدًا، فأما من كان فقيرًا فلا معنى لزهده، ولهذا قيل لبعضهم: أنت زاهد، فقال: ما أنا بزاهد، وإنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز، جاءته الدنيا صاغرة فتركها[4]، وهكذا حال من أنصف عن قوة، فإنه إذا أنصف من نفسه بأخذ الحق، وهو قوى على خلافه من أخذ الباطل كان الإنصاف له ثمرة وموقع، فهذه المعانى إنما تحصل بوقوع هذا الحرف وتوسطه دون غيره، فلهذا أورده.

السرّ الخامس: اللامات، فى قوله: «**تزود للرحيل، وتأهب للمسير**» هما واردان على جهة التعليل، وباعثان عليه، فإنه لا داعى إلى التزود إلا الرحيل، ولا باعث على التأهب إلا المسير، فهما كما ترى فى الدلالة على ما ذكرناه.

سؤال: أراه صدّر هذه الجمل الدالة على التواضع والزهد والإنصاف والحلم والكفاف والعفاف والتزود وأخذ الأهبة بذكر الأفضلية، وصدّر الجمل الدالة على طاعة الله تعالى، ومعصية الشيطان بذكر العقل، وذكر الزاد بالخير، وصدّر ذكر الله بخوف العلو، فهل هناك تفرقة بين هذه المعانى فى الاختصاص بهذا التصدير المخصوص أم لا؟

وجوابه: أن كلام صاحب الشريعة- صلوات الله عليه- لا يخلو عن سرّ، ومصلحة، فإنه المحيط بحقائقها، والمستولى على أسرارها ودقائقها، والجاذب لها بزمامها، والقائد لها برسنها وخطامها، وإنما صدّر هذه الخصال الشريفة كالتواضع والزهد

---

(1) فى (ك) إشارة.
(2) فى (د،م) زيادة: له.
(3) فى (د) سقط: الحلم.
(4) مسند أحمد، 5/ 249.

والإنصاف والحلم والكفاف والعفاف؛ لما فى إحرازها من علو المراتب، وإحراز المناقب، وهى غاية الفضل، وفيها نهاية الشرف، فلهذا خصّها بالفضل؛ لتضمنها له واختصاصها به، وصدّر الطاعة لله تعالى، والمعصية للشيطان بذكر العقل؛ لما كان العاقل من يحيى[1] نفسه بإحراز الطاعة، والانكفاف عن المعاصى، وعرف ما يستحقه الرّب من الانقياد، ويستحقه العدو من الإبعاد، فهذا هو العاقل حقيقة، فلهذا خصّه بتصدير العقل؛ لما فيه من مطابقة أحكام العقل، وصدّر التقوى بصفة الخير؛ لأنه لا خير كالتقوى، أوهى قاعدة الإعمال كلها، وبها تنصلح القصود الصالحة، وعليها مدار الخير كله، فلهذا خصّها بالخير، وإنما خصّ العلو بالخوف؛ لأن الملائكة والأنبياء– صلوات الله عليهم– ما علت مراتبهم، ولا ارتفعت أقدارهم عند الله تعالى إلا لخوفهم، ولهذا فإنهم أعظم الخلق خوفاً لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾[3]، وبعد خوفهم خوف الأنبياء، وهكذا حال العلماء والأمثل فالأمثل، فخوف الله على قدر معرفته، فمن عرف الله حق معرفته وما اختص به من الجلال والكبرياء والعظمة والجبروت فخوفه يكون على قدر ذلك، وفى الحديث: «إن بعض الملائكة المخصوصين بعظم الخلق ليتضاءل من خشية الله تعالى حتى يصير كالعصفور الصغير خوفاً من الله تعالى»[4]، وإجلالاً لعظمته وكبريائه، فلأجل هذا وصف الخائفين بعلو المنزلة عند الله تعالى وسموالدرجة من أجل ذلك.

البحث الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البيان

وقاعدتها وموضوعها هو الاستعمالات المجازية فى أثناء الكلام ومجاريه، وقد تضمن هذا الحديث استعارات بالغة.

الاستعارة الأولى: ذكر التواضع والرفعة، فإنهما هاهنا جاريان على جهة المجاز والاستعارة، وقد حصل التجوز هاهنا فى الاسم والفعل والحرف، فـ «**تواضع**» مجاز، و«**عن**» مجاز، **والرفعة:** مجاز لاستعمال كل واحد من هذه الألفاظ فى غير معناها[5] وموضعه، فلهذا قضينا بكونها مجازات.

الاستعارة الثانية: قوله: «**عن غنية، . . . وعن قوة، . . . وعن قدرة**»، فإن استعمال الحرف الذى هو «**عن**» إنما هو على جهة المجاز؛ لأن المجاوزة هاهنا لا حقيقة لها؛ لأن هذه الأمور لا تعقل فيها المجاوزة.

---

(1) فى (د،ك،م) الحى.

(2) سورة النحل من الآية 50.

(3) سورة الرعد من الآية 13.

(4) تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، 388.

(5) فى (د) سقط: معناها.

الاستعارة الثالثة: قوله: **أخذ منها الكفاف، وصاحب فيها العفاف،** فإن الاسم والفعل والحرف مجازات كلها فى الاستعمال، فـ «**أخذ**» مجاز، والمأخوذ مجاز قوله: «**تزود للرحيل، وتأهب للمسير**» فإنها مجازات أيضًا فى أسمائها وأفعالها وحروفها، وكلامنا هذا إنما يدريه[1] من ضرب فى صناعة المعانى والبيان بعرق، وفاز منها بحظ وافر، وعضّ عليه بضرس قاطع، وغمس يده فى أصباغها، واطلع على معاطفها وأرفاعها.

الاستعارة الخامسة[2]: قوله: «**سرعة رحلته**»، «**فتزود لها**» كلها مجازات عالية، وإنما عظم كلامه صلى الله عليه وآله وسلم، وأناف[3] على كلام البلغاء؛ لما تضمنه من استعمال المجازات والتوسع فى الاستعارات، فلهذا فاق فى حلبة السباق.

البحث الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع

وهو علم يعرف به تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة فيه، وقد تضمن هذا الحديث أساليب فيه نوضحها بلطف الله حسن توفيقه.

الأسلوب الأول: مراعاة السجع، بقوله: «**غنية**»، و«**قوة**»، و«**قدرة**»، و«**رفعة**» كلها سجع؛ لأجل المطابقة فى الأعجاز، وهكذا قوله: «**العفاف**»، و«**الكفاف**»، فإنهما كلاهما سجع أيضًا، وهكذا قوله: «**تزود لها**»، و«**أصلحها**» من السجع[4] الحسن.

الأسلوب الثانى: من كلامه التجنيس، فقوله: «**أفضل**»، و«**أفضل**» من التجنيس، وقوله: «**إنِّ**»، و«**إنَّ**» من الجناس، وهكذا قوله: «**أعلى**»، و«**أعقل**» من التجنيس الناقص، فأما «**أفضل**» و«**أفضل**» من التجنيس الكامل كما ترى.

الأسلوب الثالث: الطباق، وهو تقابل الضدين والنقيضين، فقوله: «**التواضع**» مع ذكر **الرفعة** طباق، وهكذا قوله: «**زهد عن غنية**» طباق معنوى، وقوله: «**أنصف عن قوة**» طباق فى المعنى أيضًا، وقوله: **الطاعة والمعصية**، فإنهما طباق، وقوله: «**ربه**»، و«**عدوه**» فإنهما معدودان فى الطباق المعنوى.

الأسلوب الرابع: لزوم ما لا يلزم، وهو أن يلتزم الناثر والناظم يضيقان على أنفسهما فى التزامه بأن يكون آخر الكلمتين يتفقان فى حرفين أو ثلاثة، ومثاله: قوله عليه السلام: «**العفاف**»، و«**الكفاف**»، فإنهما متفقان فى أحرف ثلاثة، وهذا لا يلزم ، ومنه قوله

---

(1) فى (د) يدر به. ﴿وهذا غير سليم نحويًا﴾ .

(2) لعله سهو عند النسخ، والمناسب: الاستعارة الرابعة.

(3) أناف الشىء على غير: ارتفع. ينظر: لسان العرب، مادة (نوف) .

(4) فى (د،م) التسجيع.

تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾[1]، وقوله: ﴿ٱلْخُنَّسِ﴾[2]، و﴿ ٱلْكُنَّسِ ﴾[3] وقوله:﴿ تَقْهَرْ ﴾[4]، و﴿ تَنْهَرْ ﴾[5] فى سورة الضحى، إلى غير ذلك، فهذا الحديث قد تضمن هذه الأساليب الرائقة مع ما اشتمل عليه من حسن البلاغة، وحسن النظم، ورشاقة التأليف، بحيث لا يدانيه كلام، ولايقبض له أحد بزمام.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده التى أرادها، وشرح أسرارها التى أشار إليها وقصدها

واعلم أن كلامه صلى الله عليه وآله وسلم مشتمل على فصول خمسة:

الفصل الأول منها : فى بيان ذم الكبر، ومحمود التواضع

وقد أشار إليهما بقوله: «**إنَّ أفضل الناس من تواضع عن رفعة**»، فإذا ذكر **التواضع**، فلا بدّ من ذكر ضده[6]، ونقيضه؛ لتظهر نفاسة أحدهما وخساسة الآخر، فلنبدأ بذكر الكِبْر، فإنه أخطر ما يكون على الدين، وأسوأ ما يكون فى الأخلاق، فهذه خصال نوضح الكلام فيها باختصار.

الخصلة الأولى: فى ذكر الكِبْر

اعلم أن حقيقة **الكِبْر** منقسمة إلى باطن وظاهر، **فالباطن:** هو خلق فى النفس، **والظاهر:** هو أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكِبْر بالخلق الباطن أحقّ، فأما الأعمال الظاهرة، فإنها ثمرات لذلك الخلق الباطن وموجبات عنه، ولهذا فإنه إذا ظهر على الجوارح يقال: فلان متكبر، وإذا لم يظهر يقال:[7] فى نفسه كِبْر؛ فالأصل هو الخلق الذى هو كامن فى النفس وحاصل فيها، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فى رتبة عالية، فإذن لا بدَّ فى الكبر من الاختصاص بأمور ثلاثة: أن يرى لنفسه مرتبة عالية، وأن يرى لغيره مرتبة نازلة، وأن يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فمتى حصلت هذه الأمور الثلاثة حصلت فيه حقيقة الكِبْر، وكان مختصًّا بخلقه، وعند هذا ينتفخ سحره، فيحصل فى قلبه هزّة، واعتقاد، وفرح، وعزّة فى النفس من أجل ذلك، وينفخ الشيطان فى

---

(1) سورة الطور الآيتان 1، 2.
(2) سورة التكوير من الآية 15.
(3) السورة نفسها من الآية 16.
(4) سورة الضحى من الآية 9.
(5) السورة نفسها من الآية 10.
(6) فى (ك،م) حده.
(7) فى (د،م) زيادة: فلان.

منخره، ويهيجه على العلو والتعاظم، وفيه الهلاك، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[1] يشير به إلى ما قررناه، فإذا عرفت هذا، فلنذكر ذمّ الكِبْر، ثم نذكر أسبابه، ثم نردفه بذكر درجاته، ثم نذكر على إثر ذلك كيفية دفعه والخلاص منه. فهذه مقامات أربعة هى كافية فى بيان مقصودنا على جهة الاختصار.

المقام الأول: فى بيان ما أثر عن صاحب الشريعة صلوات الله عليه فى مذمة الكبر

وقد ذمه الله تعالى فى مواضع من كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كِبر، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان»[5]، وقال تعالى[6]: «الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى أحدهما ألقيته فى جهنم»[7]، وعن ابن عمر: أنه سمع رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– يقول: «من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبّه الله على وجهه فى النار»[8]، وقال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه فى الكبر حتى يكتب فى الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب»[9]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بئس العبد عبد تجبّر واعتدى، و نسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تخيّل واختال ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد سها ولها ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبتدأ والمنتهى»[10]، وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل لرسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «ما أعظم كبر فلان، فقال: أليس بعده الموت»؟ ![11] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يخرج من النار عنق له أذنان يسمعان وعينان

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 338.
(2) سورة غافر من الآية 35.
(3) سورة الأعراف من الآية 146.
(4) سورة إبراهيم الآية 15.
(5) مسند أحمد، 1/ 399.
(6) فى الحديث القدسى.
(7) سنن أبى داود، 4/ 59.
(8) شعب الإيمان، 6/ 280.
(9) سنن الترمذى، 4/ 362. دون ذكر: «الكبر».
(10) نفسه، 4/ 362.
(11) التواضع والخمول، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا القرشى البغدادى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام1989م، بيروت، لبنان، 255.

يبصران، ولسان ينطق يقول، وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين»[1].

وقال سليمان بن داود- عليه السلام- يومًا للجن والإنس والطير والبهائم: اخرجوا فخرجوا فى مائتى ألف من الإنس،و مائتى ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات، ثم خفض حتى مست قدماه البحر، فسمع صوتًا يقول: لو كان فى قلب صاحبكم مثقال حبة من كبر لخسفت به أبعد ممّا رفعته[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرًّا فى مثل صور الرجال، يعلوهم كل شىء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن فى جهنم، ثم يسقون من طينة الخبال[3]، وهى عصارة أهل النار»[4]، وقال عليه السلام: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيمة فى صورة الذرّ، يطأهم الناس؛ لهوانهم على الله»[5]، وعن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن فى جهنم واديًا يقال له هبهب، حقّ على الله أن يسكنه كل جبار»[6] اللهم أعذنا من الكبر.

المقام الثانى: فى ذكر أسباب الكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، واعتقد أن لها صفة من صفات الكمال، ومجامع ذلك يرجع إلى أسباب سبعة:

السبب الأول: العلم

وأسرع ما يكون الكبر إلى العلماء؛ ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : «آفة العلم الخيلاء»[7]، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزّ العلم، ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه، ويستحقر الناس فى نفسه ويستحقرهم وينظر فى نفسه إليهم نظرة البهائم.

السبب الثانى: العمل والعبادة

وهم لا يخلون عن رذيلة العزّ، والكبر، واستمالة القلوب إلى الزهاد والعباد، فيحملون الناس على توقيرهم، وتعظيمهم،

---

(1) المعجم الأوسط، 1/ 103. بلفظ: «يخرج عنق من النار لها لسان تتكلم به، وعينان تبصر بهما، فتقول: إنى أمرت بكل جبار عنيد، وبمن دعا مع الله إلهًا آخر، ومن قتل نفسًا بغير حقّ».

(2) إحياء علوم الدين، 3/ 337.

(3) الخبال: فى الأصل الفساد، وطينة الخبال: ما سال من جلود أهل النار. ينظر: لسان العرب، مادة (خبل).

(4) مسند أحمد، 2/ 179. بلفظ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم يقال له بولس فتعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار».

(5) إحياء علوم الدين، 3/ 338.

(6) سنن الدارمى، 2/ 427.

(7) إحياء علوم الدين، 2/ 237.

وقضاء حوائجهم، ويرون أن لهم مزيّة على الخلق، وأن الناس هالكون، ويرون أنفسهم ناجين وهم الهالكون حقيقة بالكبر؛ لما رُوى عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– قال: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم»[1] .

السبب الثالث: الأصل والحسب

فالذى يكون له نسب شريف فإنه يستحقر الخلق ممّن لم يختصّ بذلك النسب، وإن كان أرفع منه علمًا وعملاً، وقد يتكبر بعضهم، فيرى أن الناس كلهم له عبيد وموالى، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وربّما يقول: أنا فلان بن فلان، ومن أنت؟ ومن أبوك؟، وهذا عرق دقيق لا يكاد يَسلم منه أهل الأحساب الفاخرة، وقد رُوى عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «ليدعنَّ أقوام التفاخر بآبائهم، وقد صاروا فحمًا فى جهنم، أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان[2] التى تدوف بآنافها القذر»[3] .

السبب الرابع: التفاخر بالجمال

وربما يجرى ذلك فى الرجال والنساء، والأغلب جريه فى حق النساء، فيدعوه[4] إلى الثلب، والبغض، والغيبة، وذكر عيوب الخلق، وهذا كله منشؤه الكبر؛ لأنه لا يكاد أحد يعيب أحدًا بما فيه مثله، وإنما يعيبه بما هو سالم عنه، ويتكبر عليه بذلك.

السبب الخامس: الكبر بالمال

وهذا جار فى الملوك بالخزائن، وبالتجار فى بضائعهم، وبين أهل التجمل بالخيول، والملابس، وامتداد الأموال، ويستحقرون من لم يكن على مثل حالهم من الفقراء، ويتكبرون عليهم بما فى أيديهم.

السبب السادس: التكبر بالقوة وشدة البطش على الضعفاء وأهل المرض والفاقة

فيستحقرون من كان مخالفًا لهم فى تلك الصفة، ولا يرون له قدرًا .

السبب السابع: التكبر بكثرة الأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين والحفدة

ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود، وبين العلماء فى تكثير التلامذة، فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيحصل الكبر[5] بتلك الخصلة على من ليس له تلك الخصلة ولمن هو زائد فيها على من هو ناقص عنها .

---

(1) صحيح مسلم، 4/ 2024.

(2) الجعلان: جمع الجُعَل، وهى دابة سوداء من دواب الأرض. ينظر: تهذيب اللغة، مادة (جعل) .

(3) سنن أبى داود، 4/ 331. بلفظ: «ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن» .

(4) فى (د،م) سقط: الهاء .

(5) فى (د،م) التكبر.

المقام الثالث: في ذكر درجات الكبر

اعلم أن الإنسان خلق ظلومًا جهولاً، فتارة يتكبر على الله الذي خلقه وصوره، وتارة على الأنبياء، وتارة على سائر الخلق، فهذه أقسام ثلاثة نذكر ما يتعلق بكل واحد منها بمعونة الله تعالى:

الأول: التكبر على الله– جلّ جلاله–، وذلك هو أعظم أنواع الكبر، ولا محرك له إلا الجهل المحض، والطغيان، مثل ما كان من النمرود بن كنعان، كان يحدث نفسه بحرب ملك السماء، ومثل ما حكى عن فرعون من ادعاء الربوبية؛ لتكبره، حيث قال: أنا ربكم الأعلى، وكل من استنكف أن يكون عبدًا لله تعالى، ومثل ما كان من إبليس، فإنه أول ما تردى برداء الكبر، حيث امتنع من السجود لآدم، واعتلّ بما يدل على الكبر حيث قال: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1] .

القسم الثاني: التكبر على الرسل، لما تعززوا بأنفسهم، وترفعوا عن الانقياد للأنبياء مثل سائر الخلق، وصرحوا بذلك،﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[2]، ﴿ قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[3]، وقالوا: وَلَئِنْ﴿ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[4]، وقالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾[5]، وقالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾[6]، وقال فرعون: ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[7]، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[8]، فقد استكبروا على الله وعلى رسوله. قال وهب: قال له موسى: آمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان، فقال له هامان: بينما أنت ربّ تُعبد إذ صرت عبدًا تَعبد، فاستنكف عن عبودية الله، وعن إتباع موسى، واستكبر[9]، وقالت قريش: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[10]، وهما الوليد بن المغيرة[1]، وعروة بن مسعود[2] الثقفي[3] .

---

(1) سورة الأعراف من الآية 12، ص من الآية 76.
(2) سورة المؤمنون من الآية 47.
(3) سورة إبراهيم من الآية 10.
(4) سورة المؤمنون الآية 34.
(5) سورة الفرقان من الآية 21.
(6) سورة الأنعام من الآية 8.
(7) سورة الزخرف من الآية 53.
(8) سورة القصص من الآية 39.
(9) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 346.
(10) سورة الزخرف من الآية 31.

القسم الثالث: الكبر[4]على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع[5]، ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم، فهذا، وإن كان عظيمًا، لكنه دون الأولين، وهو أيضاً عظيم عند الله تعالى، فالخلق كلهم عباد الله، وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد عصى الله وتضمخ برذيلة الكبر؛ لأنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ونواهيه، ورُوى أن رجلاً قال له رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال له الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– : «لا استطعت»، فما منعه إلا تكبره وأنف عن القبول، فما رفعها بعد ذلك[6]، أيْ: أنها اعتلت، فهذه درجات الكبر قد أوضحناها، وبعضها أعظم من بعض، لكنها كلها قد اشتركت فى التعاظم والعلو وحصول المقت من الله تعالى عليه.

المقام الرابع: فى إزالته وكيفية العلاج فى دفعه

اعلم أن الكِبْر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شىء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمنى، ولكنه يزول بالعلاج، وعلاجه يكون بأمور تزيله، وجملتها ثلاثة:

المزيل الأول: علمى

وحاصله أن يعرف نفسه ويعرف ربه، فإنه يكفيه ذلك فى إزالة الكبر، أما **معرفة ربه**، فإنه إذا عرف الله تعالى، وما يليق به من العظمة والكبرياء فإنه يتحقق لا محالة أن الكبرياء لا يليق إلا بالله، وعظمته وجلاله، وأما **معرفة نفسه**، فهو إذا عرف أنه أذلّ من كل ذليل، وأقلّ من كل قليل، فإنه[7] لا يليق به إلا الذلة والمهانة والتواضع، ويكفيه فى ذلك أن يعرف آية من كتاب الله تعالى، فإن فى القرآن علم الأولين والآخرين، وقد قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ

---

(1) وهو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، من زعماء قريش فى الجاهلية، كانت قريش تكسو الكعبة عامًا، والوليد يكسوها عامًا وحده، أدرك الإسلام، وهو هرم فعاداه وقاومه، توفى فى السنة الأولى للهجرة. ينظر: الكامل فى التاريخ، ابن الأثير على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى، تحقيق عبد الله القاضى، دار الكتب العلمية، ط2، عام 1415هـ، بيروت، لبنان، 1/ 26. الأعلام للزركلى، 8/ 122.

(2) وهو عروة بن مسعود بن معتب الثقفى، كان غائبًا عندما حاصر النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– الطائف، فلما قدم أسلم، وذلك فى السنة التاسعة للهجرة، وعاد إلى قومه يدعوهم فقتلوه. ينظر: طبقات ابن سعد، 5/ 503، 504.

(3) ينظر: تفسير الطبرى (جامع البيان)، 21/ 593.

(4) فى (د،م) التكبر.

(5) فى (د،م) زيادة: عليهم.

(6) صحيح مسلم، 3/ 1599.

(7) فى (د،ك،م) الواو بدلاً عن الفاء.

خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[1]، فقد أشار بالآية إلى أول خلقة الإنسان، وإلى آخرها وإلى وسطها، أما **أولها**، فهو التراب، والطين، والصلصال، وأما **وسطها**، فالنطفة، والعلقة، والمضغة، وأما **آخرها**، فالموت بأن يكون جيفة، ويدفن، ثم ينشر، ثم يحشر، ثم يصير[2] إلى النعيم المقيم، وإما إلى السعير والجحيم، وهذه الأطوار كلها دالة على استحقاره وامتهانه، فكيف يتكبر من هذه حاله؟!

المنزل الثانى: عملى

وتقريره يكون بالتواضع لعظمة الله، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق أهل التواضع، كما حكيناه عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- وهو القدوة، حتى لقد روى أنه كان يأكل على الأرض، ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد»[3]، وقيل لسليمان- عليه السلام-: ألا تلبس ثوبًا جديدًا؟ فقال: إنما أنا عبد، فإذا أعتقت لبست[4]، أراد العتق من النار فى الآخرة، فهذا هو العلاج العملى فى إزالة الكِبْر.

المنزل الثالث: وهو العلاج بإزالة تلك الأسباب التى ذكرناها، الموجبة لحصول الكبر وتيسيره

ولا يزال يسعى فى محوها عن قلبه، وإزالتها عن خاطره، ثم إنه لا يكتفى بالاجتهاد فى العلاج بما ذكرناه من الإزالة والتحويل إلا بأن يمتحن نفسه بالامتحانات التى يدرك بها التواضع، فإن النفس قد تعد صاحبها بما يكون فيه التواضع، وهى كاذبة، فيمتحنها بإجابة دعوة الفقير وتحمل الأشياء الحقيرة من السوق، وحاجة أصحابه، وأن يلبس الثياب المرقوعة، ويلابس شيئًا من أعمال بيته، فإذا وجد نفسه قابلة لذلك فقد برأ نفسه من الكبر، وإن وجدها نافرة عن ذلك عالجها، وسأل الله الإعانة على دفع هذه الخصلة الموجبة للتعرض لسخطه وغضبه. اللهم وفقنا حتى ننال درجة التواضع لعظمتك.

الخصلة الثانية: فى ذكر التواضع، وما ينبغى من فعله

واعلم أن حقيقة التواضع تظهر بتقسيم نورده، وهو أنه ينقسم إلى: ظاهر، وخفىّ، **فالخفىّ:** ما كان حاصلاً فى القلب، وهو خلق فى النفس، وهو الأصل فى الأعمال الظاهرة، فإذا حصل فى قلبه[5] انكسار ومعرفة بجال خالقه وحاله فى نفسه، وإلى ما يؤول إليه، فقد حصل له عمل القلب، وأما **الظاهر:** فهو أن يتعاطى أعمال أهل التواضع، ويلابسها ويباشرها، فإذا عرفت ماهية

---

(1) سورة عبس الآيات 17- 22.

(2) فى (د،ك،م) زيادة: إما.

(3) شعب الإيمان، 5/ 107.

(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 360.

(5) فى (د،ك،م) قلبك.

التواضع بما ذكرناه فلنذكر فضيلته، ثم نردفه بذكر أخلاق المتواضعين، فهذان مقامان يكفيان فى مرادنا من التواضع.

المقام الأول: فى بيان فضيلة التواضع

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾[1] أراد المتواضعين، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[2] أىْ: يمشون مشية المتواضعين، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما زاد الله بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد إلا رفعه الله»[3]، وقال عليه السلام: «ما من آدمى إلا وفى رأسه حكمة بيد ملك، ما تواضع إلا رفعه الله، وما تكبر إلا وضعه»[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة، وأنفق مالاً من غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى»[6]، وأوحى الله إلى موسى- عليه السلام-: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى، ولم يتعظم على خلقى، وألزم قلبه خوفى، وقطع النهار بذكرى، وكفّ نفسه عن الشهوات من أجلى[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا هدى الله عبدًا للإسلام، وحسن صورته، وجعله فى موضع غير شائن له، ورزقه مع ذلك تواضعًا، فذلك من صفوة الله»[8]، وقال عليه السلام: «أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب: الصمت، وهو أول العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد فى الدنيا»[9].

وروى ابن عباس- رضى الله عنه- عن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا رحمكم الله»[10]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلة وصغار»[11]، وقال عليه السلام يومًا لأصحابه: «مالى لا أرى عليكم حلاوة

---

(1) سورة الحج من الآية 34.
(2) سورة الفرقان من الآية 63.
(3) سنن البيهقى الكبرى، 4/ 187.
(4) المعجم الكبير، 12/ 218. بلفظ: «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته».
(5) ينظر: سنن البيهقى الكبرى، 4/ 182.
(6) أخرجه ابن أبى الدنيا فى اليقين. ينظر: كنز العمال، 3/ 41.
(7) إحياء علوم الدين، 3/ 341.
(8) التواضع والخمول، 157.
(9) نفسه، 166.
(10) إحياء علوم الدين، 3/ 182. فى (د) سقط الحديث.
(11) نفسه، 3/ 341.

العبادة». قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: «التواضع»[1]، ولنكتف بهذا القدر من التواضع، فإن إحرازه فيه شرف الدنيا والآخرة.

المقام الثانى: فى بيان أخلاق المتواضعين

ونحصره إجمالاً وتفصيلاً، فهذان طرفان:

الطرف الأول: إجمالى[2]

فمجامع الأخلاق فى التواضع هو الأخذ بسيرة رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فبه يقتدى، ومنه ينبغى أن يتعلم، ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يلابس فى بيته بعض الخدم، كان يعلف الناقة، ويعقل البعير، ويقيم البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيا، ويشترى الثوب من السوق، ويصافح الغنى والفقير والصغير والكبير، ويسلم مبتدئًا على كل من استقبله من صغير أو كبير أو حر أو عبد من أهل الصلاة، يجيب من دعاه، وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دُعى إليه ولو كان حشفاً من التمر، هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، متواضع من غير مذلة، جواد من غير سرف، رحيم بكل ذى قربى، رقيق القلب، دائم الإطراق، لم يبشم قط من شبع، ولا مد يده قط إلى طمع، فما نقل من أحواله صلى الله عليه وآله وسلم يجمع[3] جملة من أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليكن مقتديًا به، ومن رأى نفسه فوق محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- ولم يرض لنفسه بما رضى هو به، فما أشد جهله وحمقه! فلقد كان أعظم خلق الله منصبًا فى الدين والدنيا، فلا عزّ ولا رفعة إلا فى الاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم.

الطرف الثانى: على جهة التفصيل

اعلم أن خلق التواضع يظهر فى شمائل الرجل فى أحواله، وأقواله وأعماله وفى قيامه وقعوده، وفى مشيته وحركاته وسكناته، ونحن نشير إلى جملة من آداب المتواضعين:

الأدب الأول: أن يكره قيام الناس بين يديه ومشيهم[4] خلفه وقدامه، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أراد أن

---

(1) نفسه.

(2) فى (ك،م) سقط: الياء.

(3) فى (د) سقط: يجمع.

(4) فى (د) مشيتهم.

ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام»[1].

الأدب الثانى: أن يزور المرضى، ويسير خلف الجنازة، ويمشى وحده، ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يمشى مع أصحابه فيأمرهم بالتقدم، ويمشى فى الغمار[2].

الأدب الثالث: أن يجلس بقرب أهل الفقر والمسكنة، قال أنس بن مالك: لقد رأيت الوليدة من ولائد أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فلا ينزع يدها حتى تذهب حيث شاءت[3].

الأدب الرابع: أن يجالس المرضى والمعلولين، ولقد دخل رجل على رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وعليه جدرى قد نقش جلده، وعنده أصحابه يأكلون، فما جلس عند رجل إلا قام من جنبه، فأجلسه رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- بجنبه[4].

الأدب الخامس: أن يكون متعاطيًا لشغل فى بيته، ولقد كان الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- يتعاطى الأعمال فى إصلاح بيته، كما حكيناه أولاً.

الأدب السادس: أن يأخذ متاعه من السوق، ويحمله كما كان رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يفعل ذلك[5]، وقال على- رضى الله عنه-: لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله[6].

الأدب السابع: أن يكون لباسه أقرب إلى الخشونة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «البذاذة من الإيمان»[7]، **والبذاذة:** هى الدون من اللباس، وقال عليه السلام: «من ترك زينة لله، ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله، وابتغاء وجهه، كان حقًّا على الله أن يدخر له عبقرى الجنة»[8]، وهذا القدر كافٍ.

الخصلة الثالثة: الزهد فى الدنيا

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 354.
(2) نفسه، والغمار: الماء الكثير. ينظر: لسان العرب، مادة (غمر).
(3) مسند أحمد، 3/ 174.
(4) إحياء علوم الدين، 3/ 355.
(5) نفسه.
(6) نفسه.
(7) سنن أبى داود، 4/ 75.
(8) حلية الأولياء، 8/ 44.

وإليه الإشارة بقوله: «**وزهد عن غنية**»، وقد أسلفنا فى خاتمة الحديث العاشر كلامًا فى الزهد يطلع على الأسرار والنهايات نافعًا، والذى نريده هاهنا هو الكلام فى ذمّ المال، وكراهية حبه، قال الله تعالى: **﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَـٰلَهُمۡ فِيهَا ﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾**[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حبُّ المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب»[5]، وقال عليه السلام: «ما ذئبان ضاريان فى زريبة غنم بأكثر فسادًا فيها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم»[6]، وقال عليه السلام: «هلك الأكثرون مالا إلا من قال به من عباد الله هكذا وهكذا، وقليل ما هم»[7]، وقال النبى– صلى الله عليه وآله وسلم– لما قيل له: أىّ أمتك أشر؟ قال: «الأغنياء»[8].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سيأتى بعدى قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها، وينكحون المنعمات وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون فرة الخيل وألوانها لهم، بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها إلهًا دون إلههم وربًّا دون ربهم، إلى أمرهم ينتهون وهواهم يتبعون، فعزيمة من محمد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم، وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يتبع جنائزهم، ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك، فقد أعان على هدم الإسلام»[9]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه، وهو لا يشعر»[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «يا ابن آدم تقول: مالى مالى وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[11]، وقال رجل:– يا رسول الله– ما لى لا أحب الموت؟ فقال: «هل معك

---

(1) سورة المنافقون من الآية 9.

(2) سورة التغابن من الآية 15.

(3) سورة هود من الآية 15.

(4) سورة التكاثر الآيتان 1، 2.

(5) إحياء علوم الدين، 3/ 159.

(6) المستدرك على الصحيحين، 3/ 474. بلفظ: «ما ذئبان عاديان أصابا فريسة غنم أضاعها ربها بأفسد فيها من حب المال والشرف».

(7) مسند أحمد، 2/ 309. بلفظ:– من حديث طويل– «هلك المكثرون إلا من قال هكذا، وهكذا ... الحديث».

(8) إحياء علوم الدين، 3/ 232.

(9) إحياء علوم الدين، 3/ 232.

(10) نفسه.

(11) صحيح مسلم، 4/ 2273.

مال»؟ قال: نعم- يا رسول الله-، قال: «قدّم مالك أمامك، فإن قلب المؤمن مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحقه، وإن خلّفه أحب أن يتخلف معه»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه وهو ماله، والثانى: يتبعه إلى قبره وهو أهله، والذى يتبعه إلى محشره هو عمله »[2]، وقال الحواريون لعيسى- عليه السلام-: مالك تمشى على الماء، ونحن لا نقدر على ذلك؟! فقال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ فقالوا: حسنة، فقال: لكنهما عندى والمدرّ سواء[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا»[4].

الخصلة الرابعة: الحلم

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**وحلم عن قدرة**»، اعلم أن الحلم نقيض الغضب؛ لأن أحدهما محمود والآخر مذموم، فنذكر فضيلة الحلم، ثم نذكر ذم الغضب، فهذان طرفان، نفصلهما بمعونة الله:

الطرف الأول: [5] **إظهار فضيلة الحلم**

واعلم أن الحلم دلالة على كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوة الغضب وخضوعه للعقل، وابتداؤه يكون بكظم الغيظ تكلفاً، وهى خصلة شريفة، وقد أثنى الله على إبراهيم- عليه السلام- بقوله: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ** ﴾[6]، وفضلها ظاهر، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرّ الخير يعطه، ومن يتوق الشرّ يوقه»[7] أشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم، وقال أبو هريرة: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «اطلبوا العلم، واطلبوا معه السكينة والحلم، لينوا لمن تعلمون، ولمن تعلمتم منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم»[8].

وكان من دعاء رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «اللهم اغننى بالعلم، وزينى بالحلم، وأكرمنى بالتقوى، وجملنى

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 232.

(2) صحيح البخارى، 5/ 2388. بلفظ: «يتبع الميت ثلاثة: فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله». تيسير المطالب، 433. بلفظ: «للإنسان أخلاء ثلاثة: فأما خليل فيقول: ما أنفقت فلك، وما أمسكت فليس لك فذاك ماله، وأما خليل يقول: أنا معك فإذا أتيت باب الملك تركتك ورجعت فذاك أهله، وحشمه، وأما خليل فيقول: أنا معك حيث دخلت وحيث خرجت فذاك عمله ويقول: وإن كنت لأهون الثلاثة عليك».

(3) إحياء علوم الدين، 3/ 233.

(4) سنن الترمذى، 4/ 565. بلفظ: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا».

(5) فى (د،م) زيادة: فى.

(6) سورة هود الآية 75.

(7) المعجم الأوسط، 3/ 118.

(8) رواه الديلمى. ينظر: كنز العمال، 10/ 104.

بالعافية»[1] . قال أبو هريرة: قال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ابتغوا الرفعة عند الله» قالوا: وما هى- يا رسول الله- ؟ قال: «تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك»[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرجل ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم، وإنه ليكتب جبارًا، وما يملك إلا أهل بيته»[3]، وعن الحسن البصرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾[4] قال: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا[5]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- : «إن الله يحب الحليم الحيى المتعفف، ويبغض الفاحش البذى السائل الملحف الغبى»[6]، وقيل: فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾[7] أىْ: حلماء علماء[8] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، وإياكم، وهيشات[9] الأسواق»[10]، وعن على- عليه السلام-: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك[11] ويعظم حلمك، وأن تباهى الناس بعبادة ربك، فإذا أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله[12]، وقال بعض أهل الصلاح: اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم، وعن بعضهم: دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر[13]، وسبّ رجل ابن عباس، فلما فرغ قال:- يا عكرمة[14]- هل للرجل من حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحيا[15]، وعن على بن الحسين[1] أنه سبّه

---

(1) رواه ابن النجار عن ابن عمر. ينظر: نفسه، 2/ 81.

(2) مكارم الأخلاق، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا القرشى البغدادى، تحقيق مجدى السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، عام 1990م، القاهرة، مصر، 23.

(3) المعجم الأوسط، 6/ 232.

(4) سورة الفرقان من الآية 63.

(5) ينظر: تفسير الطبرى، 19/ 294.

(6) المعجم الكبير، 22/ 413. دون ذكر:«الغبى».

(7) سورة آل عمران من الآية 79.

(8) ينظر: تفسير الطبرى، 6/ 540.

(9) هيشات: جمع هيشة، وهى الجماعة. ينظر: لسان العرب، مادة (هيش).

(10) المستدرك على الصحيحين، 2/ 10.

(11) فى (د،م) عملك. ﴿لعله خطأ عند النسخ﴾.

(12) نهج البلاغة، 484.

(13) القائل: أكثم بن صيفى. ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 178.

(14) وهو عكرمة بن عبد الله المدنى، مولى عبد الله بن عباس- رضى الله عنه- تابعى، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازى، توفى بالمدينة سنة 105هـ. ينظر: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، محمد بن أحمد بن عثمان المعروف بالذهبى، تحقيق على محمد البجاوى، دار المعرفة، ط1، عام 1963م، بيروت، لبنان، 3/ 93- 96. الأعلام للزركلى، 4/ 244.

(15) إحياء علوم الدين، 3/ 178.

رجل فرمى إليه خميصة[2] كانت عليه، وأمر له بمائة درهم[3].

وقال رجل لجعفر بن محمد الصادق[4]: قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال: أنه ذلّ، فقال له جعفر الصادق: إنما الذليل الظالم[5]، وفي هذا كفاية.

الطرف الثاني: في بيان ذم الغضب

اعلم أن الغضب شعلة نار من نار الله الموقدة، خلا أنها لا تطلع على الأفئدة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكان[6] الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الغضب ليوقد في فؤاد ابن آدم النار، ألا ترونه إذا غضب كيف تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه»[7]، وهو خلق مذموم، قال الله تعالى: ﴿ **إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[8] ذمّ الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنعم الله عليهم من السكينة، وروى أبو هريرة أن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– قال له رجل: مرني– يا رسول الله– بعمل، وأقلل، قال: «لا تغضب»، ثم أعاد عليه، قال: «لا تغضب»[9]، وقال ابن عمر لرسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– قل لي قولاً وأقلل، لعلي أعقله، فقال: «لا تغضب»، فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إليّ «لا تغضب»[10]، وعن عبدالله بن عمرو[11] أنه سأل رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم ماذا يبعدني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب»[12]، وقال ابن مسعود، قال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «ما تعدون الصرعة فيكم»؟ قلنا:

---

(1) وهو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان مع أبيه في كربلاء، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وكان مريضاً نائمًا على الفراش فلم يقتل، وهو عالم ثقة مأمون كثير الحديث ورع، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز. ينظر: طبقات ابن سعد، 5/ 211– 222.

(2) الخميصة: كساء أسود من خزّ أو صوف معلم. ينظر: لسان العرب، مادة (خمص).

(3) إحياء علوم الدين، 3/ 178.

(4) وهو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الإمام العلم المدني، ولد سنة 80هـ، قال أبو حنيفة: ما رأيت أفقه منه، روى له مسلم وأبو داود وابن ماجة، توفي سنة 148هـ، ودفن بالبقيع. ينظر: الوافي بالوفيات، 11/ 98، 99.

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 178، 179.

(6) في (د،م) استكنان.

(7) مسند شمس الأخبار، 1/ 481.

(8) سورة الفتح من الآية 26.

(9) صحيح البخاري، 5/ 2267.

(10) مسند أحمد، 2، 362.

(11) وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي، صحابي، أسلم قبل أبيه، توفي سنة 65هـ. ينظر: الإصابة، 4/ 192، 193. الأعلام للزركلي، 4/ 111.

(12) التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق مصطفى أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، عام =

الذى لا يصرعه الرجال، قال: «ليس ذلك، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»[1]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[2]، وقال ابن عمر قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «من كفّ غضبه ستر الله عورته»[3]، وقال سليمان بن داود- عليه السلام-: يا بنى إياك، والغضب، فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الحليم من الرجال[4]، وعن عكرمة فى قوله تعالى: **وَسَيِّدًا﴿ وَحَصُورًا ﴾**[5] قال: السيد الذى لا يغلبه الغضب[6] .

قال أبو الدرداء: قلت- يا رسول الله- دلنى على عمل يدخلنى الجنة، قال: «لا تغضب»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل »[8]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم»[9]، وقال رجل لرسول الله: أىّ شىء أشد ؟ قال: «غضب الله» . قال: فما يبعدنى من غضب الله؟ قال: «لا تغضب»[10]، وعن بعض الرهبان أنه سأل إبليس، فقال له: أىّ أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدّة، فإن الرجل إذا كان حديدًا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة[11] .

وعن إبليس: أنه قال: كيف يغلبنى ابن آدم؟ ! وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه، وإذا غضب طرت حتى أكون فوق رأسه[12]، وقال الصادق عليه السلام: الغضب مفتاح كل شرّ[13] .

الخصلة الخامسة: الإنصاف

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأنصف عن قوة**» اعلم أن **الإنصاف** هو الانقياد لإيفاء الحقوق طوعًا،

1387هـ، الدار البيضاء، المغرب، 7/ 251. وفى (د) سقط: الحديث.

(1) مصنف ابن أبى شيبة، 5/ 216.

(2) صحيح البخارى، 5/ 2267.

(3) المعجم الأوسط، 6/ 140.

(4) إحياء علوم الدين، 3/ 165.

(5) سورة آل عمران من الآية 39.

(6) ينظر: تفسير الطبرى، 6/ 376.

(7) المعجم الأوسط، 3/ 25.

(8) شعب الإيمان، 6/ 311.

(9) إحياء علوم الدين، 3/ 165.

(10) نفسه.

(11) نفسه، 3/ 32.

(12) شعب الإيمان، 6/ 311.

(13) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادى، تحقيق شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط7، 1997م، بيروت، لبنان، 1/ 145.

والإنصاف حسن من كل أحد كبيرًا كان أو صغيرًا، ولا يختلف العقلاء فى ذلك، وإنما تقع المزية العظيمة إذا كان من قوى يتمكن من الامتناع، فعند هذا يكون الإنصاف من جهته أوقع وأبلغ، والإنصاف يعتوره طرفان، فإذا منع الحق فهو البخل، وقد قدمنا ذمه، والشواهد الشرعية على ذمه، وإن أعطى الحق فهو السخاء، فلنذكر فضلية السخاء .

واعلم أن المال إذا كان مفقودًا، فينبغى أن يكون حال العبد القناعة، وقلّة الحرص، وإن كان موجودًا فينبغى أن يكون حاله الإيثار، والسخاء، واصطناع المعروف، والتباعد من الشحّ والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «السخاء شجرة من أشجار الجنة، أغصانها متدلية فى الأرض، من أخذ منها غصنا قاده ذلك الغصن إلى الجنة»[1]، وروى جابر، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «قال جبريل، قال الله تعالى: إن هذا دين أرتضيه لنفسى، ولن يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه»[2]، وعن عائشة– رضى الله عنها– قالت: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : «ما جبل الله وليًا إلا على السخاء، وحسن الخلق»[3]، وعن جابر قال: قيل لرسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: أىّ الإيمان أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة»[4] .

قال عبدالله بن عمر: «خلقان يحبهما الله تعالى، وخلقان يبغضهما الله تعالى– عزّ وجلّ–؛ فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء، وأما اللذان يبغضهما الله– عزّ وجلّ–، فهما البخل، وسوء الخلق»، هكذا قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[5] .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «تجافوا عن ذنب السخى فإن الله تعالى آخذ بيده كلما عثر أقاله[6]»[7]، وقالت عائشة: قال رسول الله– صلى الله عليه و آله وسلم–: «الجنة دار الأسخياء»[8]، وقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إن السخاء قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار»[9] .

---

(1) شعب الإيمان، 7/ 435 .
(2) نفسه، 7/ 432 .
(3) أخرجه الديلمى . ينظر: كنز العمال، 6/ 168 .
(4) مسند أحمد، 4/ 385 .
(5) إحياء علوم الدين، 3/ 244 .
(6) فى (د،م) سقط: أقاله، وفى (ك) أقامه . ﴿والسليم: أقامه﴾ .
(7) المعجم الأوسط، 6/ 33 . دون ذكر: «أقاله» .
(8) مسند الشهاب، 1/ 101 .
(9) سنن الترمذى، 4/ 342 .

ورُوى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: لا تقتل السامرى فإنه سخى[1]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «أهون الناس عذابًا يوم القيامة عبد الله بن جدعان[2]» قالوا: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: «كان يطعم الطعام»[3]، وحُكى أن يهوديًا كان له على رسول الله دَين، فجاء يطالبه قبل حلول أجله، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لنا بقية يومنا»، فقال اليهودى: إنكم يا بنى هاشم قوم مطل، فقام عمر فأغلظ عليه وتهدده، فنهاه الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- عن ذلك، ثم قال لعمر: «نحن إلى غير ذلك منك أحوج»، قال: إلى ماذا يا رسول الله؟ قال: «إلى أن تأمرنا بحسن القضاء، وتأمره بحسن الاقتضاء، اذهب معه إلى صدقة بنى زريق فأعطه دينه، وزده كذا وكذا»[4]، فسار اليهودى غير بعيد، ثم رجع فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله مالى إلى دينى من حاجة، ولكن وجدنا صفتك فى كتابنا، هكذا، فما غادر من أمرك شيئًا.

وعن أمير المؤمنين- كرم الله وجهه-، أنه وجد درعًا له مع نصرانى فعرفها، فقال عليه السلام: الدرع درعى لم أبع، ولم أهب، فقال النصرانى: الدرع درعى، وما أنت عندى بكاذب، فترافعا إلى شريح[5] قاضيه، فقال أمير المؤمنين: لو كان خصمى إسلاميًّا لجلست معه، ثم ادعى عليه الدرع وأنكر النصرانى، فقال شريح: هل من بينة يا أمير المؤمنين؟ فقال: أحسنت والله يا شريح، فقال: لا، فقال: الدرع درعه، فأخذها النصرانى فمشى غير بعيد، ثم رجع، فقال: أمير المؤمنين يمشى إلى قاضيه، وقاضيه يقضى بالحق، هذه والله أحكام الأنبياء، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، هى والله درعك- يا أمير المؤمنين- تبعت الجيش، وأنت صادر إلى صفين فجررتها من بعيرك الأورق، قال: أما إذا أسلمت فهى لك، ثم حمله على فرس من أفراسه فرزق الشهادة يوم النهروان[6]، فهذا منتهى الإنصاف وغاية الحلم الذى يفضى إلى كل خير فى الدين والدنيا، وقد نجز غرضنا من بيان الفصل الأول بمعونة الله تعالى.

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 246.

(2) وهو عبد الله بن جدعان التيمى القرشى، أدرك النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- قبل البعثة، كان جوادًا يصل الرحم ويطعم المسكين. ينظر: الأغانى، 8/ 340. الأعلام للزركلى، 4/ 76.

(3) ينظر: المراسيل لأبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، عام 1408هـ، بيروت، لبنان، 143.

(4) المستدرك على الصحيحين، 2/ 37. دون ذكر: «صدقة بنى زريق».

(5) وهو شريح بن الحارث الكندى، القاضى، يُعد من كبار التابعين، كان قاضيًا لعمر- رضى الله عنه- على الكوفة ثم لعثمان- رضى الله عنه-، ثم لعلى- رضى الله عنه-، وكان أعلم الناس بالقضاء، فكان ذا فطنة، توفى سنة 87هـ. ينظر: الاستيعاب، 2/ 701، 702.

(6) ينظر: سنن البيهقى الكبرى، 10/ 136.

الفصل الثانى: فى بيان ذم الدنيا

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن أفضل الناس عبد أخذ من الدنيا الكفاف، وصاحب فيها العفاف، وتزود للرحيل، وتأهب للمسير**».

واعلم أن كلامه عليه السلام قد اشتمل على خصلتين:

الخصلة الأولى: فى بيان ذم الدنيا، وما ينبغى للمؤمن منها

وقد ذمها الله تعالى فى كتابه الكريم فى غير آية، فقال تعالى: ﴿ **وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ** ﴾[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لمّا مرّ بشاة ميتة، فقال: «ترون هذه الشاة هينة على صاحبها» قالوا: نعم، فقال: «والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله– عزّ وجلّ– من هذه على صاحبها»[5].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله»[7]، وقال عليه السلام: «من أحب دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[8]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[9]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور»[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا حلوة خضرة، والله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[11]، وقال صلى الله عليه وآله و سلم: «إن بنى إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا، ومهدت تاهوا فى الحلية والنساء والطيب

---

(1) سورة العنكبوت من الآية 64.
(2) سورة آل عمران من الآية 185، الحديد من الآية 20.
(3) سورة الحديد من الآية 20.
(4) سورة الكهف من الآية 45.
(5) المستدرك على الصحيحين، 4/ 341. وورد أنه مرّ بشاة شائلة برجلها.
(6) صحيح مسلم، 4/ 2272.
(7) حلية الأولياء، 3/ 157.
(8) مسند أحمد، 4/ 412.
(9) شعب الإيمان، 7/ 338. بلفظ: «حب الدينار رأس كل خطيئة».
(10) مصنف ابن أبى شيبة، 7/ 82.
(11) صحيح مسلم، 4/ 2098.

والثياب»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له»[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أمسى وأصبح والآخرة أكبر همّه جعل الغنى فى قلبه، وجمع له من أمره، ولم يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، ومن أمسى وأصبح وهمّه الدنيا، جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له»[3]، فمن نظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، ولم تطمح نفسه[4] إلى زينتها، ولم يغتر بزخرفها، واكتفى منها باليسير، وجعل زاده فيها كزاد الراكب فإنه الناجى من هول الحساب وغمّه، وقال لقمان: الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشودها[5]الإيمان بالله، وشراعها التوكل على الله، لعلك ناجٍ، وما أظنك بناجٍ إلا برحمة الله تعالى.

الخصلة الثانية: التزود والتأهب

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وتزود للرحيل، وتأهب للمسير**». اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أشار هاهنا إلى ما يفعل فى الدنيا للآخرة من التزود والتأهب، فصار هاهنا أقسام ثلاثة:

القسم الأول: منها ما يفعل فى الدنيا، والمقصود به الآخرة، وهذا نحو العلم والعمل، فالعلم هو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بشريعة رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- والعمل هو العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، فما هذا حاله لا يعد من الدنيا المذمومة، بل يكون معدودًا من الآخرة.

القسم الثانى: وهو المقابل للأول على قصد المناقضة، فهو كل ما فيه حظّ عاجل، ولا ثمرة له فى الآخرة أصلاً، وهذا نحو التلذذ بالمعاصى، والتنعم بالمباحات الزائدة، على قدر الضرورة، والحاجة الداخلة فى جملة الرفاهية، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والجوارى والقصور والدور ورفيع الثياب ولذيذ الأطعمة، فحظّ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة.

القسم الثالث: ما هو متوسط بين الطرفين، فكل حظّ فى العاجل معين على أعمال الآخرة، كقدر القوت من الطعام، والقميص الواحد من الثياب، وكل ما لا بد منه ليتأتى من الإنسان البقاء، والصحة التى يتوصل بها إلى العلم والعمل، فليس معدودًا

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 202، 203.

(2) شعب الإيمان، 7/ 375.

(3) تيسير المطالب، 509.

(4) فى (د،ك،م) عينه.

(5) فى (د،ك،م) حشوها.

من أمور الدنيا، ولا يصير به من أبناء الدنيا، وإن كان المقصود به الحظ العاجل من الدنيا دون الاستعانة على التقوى، فهو من أعمال الدنيا، وصاحبه معدود من أبناء الدنيا، فقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم بكلامه هذا إلى ما أشرنا من هذا التقسيم.

الفصل الثالث: فى بيان من يستحق الطاعة والمعصية

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا وإنّ أعقل الناس عبد عرف ربه فأطاعه، وعرف عدوه فعصاه**».

وأراد صلى الله عليه وآله وسلم أن الزائد على الناس فى العقل من استعمل عقله فى نجاة نفسه، وفكاك رقبته وخلاصها، فإن الدار فى الحقيقة هى دار الآخرة؛ لأنّ دارنا طريق إليها، وليست بدار؛ لأنها تزول على القرب، وقد صدق من قال فيها:

فَلَيْسَ لِعَيْشِنَا هَذَا هَنَاءٌ   وَلَيْسَتْ دَارُنَا الدُّنْيَا بِدَارِ[1].

وإنما يطلق عليها اسم الدار بقرينة الإضافة، فيقال: دار الزوال، ودار الضلال، ودار الهلاك، ودار الغرور، إلى غير ذلك من الألقاب الصادقة عليها، فأما الآخرة فهى دار القرار، ودار المقامة، ودار الحيوان لأهل الطاعة، ودار القرار، ودار العذاب، ودار الخسران للعصاة، وكلا الدارين دائمة، وأهلها فيها دائمون، وأهل النعيم فى نعيمهم لا يسأمون، وأهل العذاب فى عذابهم لا يرحمون، فإذا كانت دار الإقامة إحدى هذين الدارين، وكانت الرحلة إليها سريعة، وكان الزاد ليس إلا العمل الصالح، وكان ممّن تأخر عن إصلاح دار إقامته فإنما يؤتى من قبل نفسه، وأسكن دار العذاب الأليم مهاده الجحيم، وشرابه الحميم، وطعامه الزقوم، وفاكهته السموم، وكان من لم يتزود لرحلته، وأزعج بغير زاد ولم يمهد للمعاد، فأىّ عذر لمن اغتر بما هذا حاله؟! وبأىّ شىء يواسى نفسه؟! ألم ينظر إلى الداخلين فى الدنيا من بطون أمهاتم يدخلونها بغير شىء، والخارجين عنها بالموت يخرجون بغير شىء أصلاً، والمتمتعين بين هاتين الحالتين من الملوك فمن دونهم، كأنهم أضغاث أحلام، وزيادتهم إلى نقصان، وربحهم إلى خسران، آخر صحتهم سقم، وغاية ملكهم عدم، ومنتهى حياتهم الموت، وقصار أمورهم كلها البطلان والفوت، فهذه حاله حتى يدعى إلى الحكم العدل، فيوقف بين يديه حسيرًا لا يملك نقيرًا، ولا قطميرًا، قد جمع كثيرًا، وخرج فقيرًا ﴿ **ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ** ﴾[2].

---

(1) البيت من الوافر، ونُسب لعمران بن حطان، ونصّه: وَلَيْسَ لِعَيْشِنَا هَذَا مُهَاهٌ وَلَيْسَتْ دَارُنَا هَاتَا بِدَارِ. ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيدة، تحقيق عبد الحميد هنداوى، دار الكتب العلمية، ط1، عام 2000م، بيروت، لبنان، 4/ 113. شعر الخوارج، إحسان عباس، دار الثقافة، ط3، عام 1974م، بيروت، لبنان، 153. وهو عمران بن حطان بن ظبيان بن لواذن السدوسى، تابعى مشهور، من رؤوس الخوارج، توفى سنة 84هـ. ينظر: الإصابة، 5/ 302- 305.

(2) سورة الأنعام من الآية 62.

الفصل الرابع: فى بيان خيرالزاد وخيرالعمل

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا وإنَّ خير الزاد ما صحبه التقوى، وخير العمل ما تقدمته النية**»، واعلم أن ما كان ليس لوجه الله خالصًا فهو للدنيا، وما كان لله خالصًا فهو للآخرة، فصارت الأشياء واقعة على أوجه ثلاثة:

أولها: أمر لا يتصور أن يكون لله بحال، فهذا هو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات، وأنواع التنعمات بالمباحات، فهذه الدنيا المذمومة صورة ومعنى.

وثانيها: أمر صورته لله تعالى، ويمكن أن يجعل لغير الله، وهذا نحو الذكر والفكر، والكفّ عن المحرمات، فهذه الأمور إذا جرت سرًّا، والباعث عليها أمر الله، ورجاء اليوم الآخر فهى لله وليست للدنيا، وإن كان الغرض منها خلاف وجه الله، وعَرَض حقير من الدنيا، فهى للدنيا، وليست لله تعالى.

وثالثها: أمر صورته لحظّ النفس، ويمكن أن يجعل معناه لله، وهذا نحو الأكل والشرب، وكل ما يرتبط به البقاء والدوام، فإن قصد به حظ النفس فهو من الدنيا، وإن قصد به الاستعانة على التقوى فهو لله وللآخرة، وإن كان صورته صورة الدنيا، ويؤيد ذلك ما روى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «من طلب الدنيا حلالاً مكاثرًا مفاخرًا لقى الله، وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافًا عن المسألة، وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»[1]، فانظر كيف اختلف ذلك بالقصود والإرادات، والمعنى فى ذلك أن الواجب على العاقل الاستعداد، وأخذ الأهبة، واتخاذ التقوى صاحبًا فى جميع الأعمال؛ لينجو من الأهوال، وأن يقدم النية على العمل، ليقع خالصًا لوجه الله، فالأعمال إنما تزكو بحسب النيات الصالحة؛ ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا عمل إلا بنية»[2]، و«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[3]، وقد قدّمنا فى النية كلامًا شافيًا نرجو أن ينفع الله من أراده بخير، ووفقه لحسن البصيرة، ولفعل الأعمال المقبولة.

الفصل الخامس: فى بيان حكم الخوف من الله تعالى

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأعلى الناس منزلة عند الله أخوفهم منه**» اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب، واحتراقه بسبب توقع مكروه فى المستقبل، ومحصول ما ذكرناه فى ماهية الخوف ينتظم من **علم، وحال، وعمل**، فأما **العلم**، فهو إحراز المعرفة بالله، وبصفاته اللائقة به، وعلو جلاله، وعظيم سلطانه، وعلى قدر حاله فى المعرفة يكون خوفه وقوته، فأخوف الناس لله أعرفهم

---

(1) مسند عبد حميد، 1/ 418.

(2) تيسير المطالب، 242.

(3) صحيح البخارى، 1/ 3.

بنفسه وبربه، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أخوفكم لله»[2]، وأما **الحال**، فإذا كملت المعرفة أورثت[3] حال الخوف، واحتراق القلب، ثم تفيض تلك الحرقة على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات، أما على **البدن:** فبالنحول[4]، والاصفرار، والغشية، وشدّة البكاء، وأما على **الجوارح**، فبكفها عن المعاصى، وبقيدها بالطاعات، تلافيًا لما فرّط، واستعدادًا فى المستقبل، وأما فى **الصفات**، فإنها تقمع الشهوات، وتكدّر اللذات، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة.

وأما **العمل**، فأقلّ ما يظهر أمر[5] الخوف فيه من الأعمال يمنع المحظورات، ويُسمى بذلك ورعًا، فإن زاد قوة وكفّ عمّا يتطرق إليه إمكان التحريم، فكفّ عمّا لا يتيقن تحريمه سمى تقوى، فإن زاد قوة وترك ما لا شك فى حلّه سمى صديقًا، فهذا ما أردنا ذكره فى ماهية الخوف، فإذا عرفت هذا، فلنذكر فضيلة الخوف، ثم نذكر درجاته، فهذان مقامان نذكر ما يختصّ كل واحد منهما، وبالله التوفيق.

المقام الأول: فى بيان فضيلة الخوف

واعلم أنها من طرق ثلاث:

الطريقة الأولى: من جهة الكتاب الكريم، وجملة ما نورده آيات أربع:

الآية الأولى: دالة على الهدى والرحمة، كقوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[6].

الآية الثانية: دالة على الخشية والعلم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾[7].

الآية الثالثة: دالة على الرضوان، كقوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[8].

الآية الرابعة: الثناء والمدح كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(1) سورة فاطر من الآية 28.
(2) مسند أحمد، 5/ 434. بلفظ: «أنا أتقاكم لله».
(3) فى (د) أورثته.
(4) فى (ك) سقط: الفاء والباء.
(5) فى (ك) أثر.
(6) سورة الأعراف من الآية 154.
(7) سورة فاطر من الآية 28.
(8) سورة البينة من الآية 8.
(9) سورة المؤمنون الآية 57.

﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[1]، فهذه الآيات كلها دالة على فضيلة الخوف وعلو درجة الخائفين[2] عند الله تعالى.

الطريقة الثانية: من جهة الأخبار الواردة، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين، فإذا أمِننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة»[3]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من خاف الله خافه كل شىء، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شىء»[4]، وقالت عائشة- رضى الله عنها-: قلت: يا رسول الله ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[5]، الرجل يسرق، ويزنى، قال: «لا، بل الرجل يصوم ويتصدق ويصلى، ويخاف أن لا يقبل منه»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من رجل يخرج من عينيه دموع إن كانت مثل رأس ذباب من خشية الله- عزّ وجلّ- ثم يصيب شيئًا من حرّ وجهه إلا حرمه الله على النار»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع»[8]، وقال عقبة بن عامر: ما النجاة- يا رسول الله-؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[9]، وقالت عائشة: قلت:- يا رسول الله- يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب، قال: «نعم، من ذكر ذنوبه فبكى»[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله، أو قطرة دم أهريقت فى سبيل الله»[11]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم ارزقنى عينين هطالتين تسقيان القلب بذروف الدموع من خشيتك قبل أن يصير الدمع دمًا، والأضراس جمرًا»[12]، ونقتصر على هذا القدر من الأخبار، فإن فيها كثرة وسعة، وفيما أوردناه كفاية فى مقدار غرضنا.

الطريقة الثالثة: من جهة الاعتبار، فسبيله أن تعلم أن فضيلة الشىء بقدر عنايته فى الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى؛ إذ

---

(1) السورة نفسها من الآية 60.
(2) فى (د،ك،م) درجته.
(3) شعب الإيمان، 1/ 482.
(4) إحياء علوم الدين، 4/ 162.
(5) سورة المؤمنون من الآية 60.
(6) مسند أحمد، 6/ 205.
(7) سنن ابن ماجة، 2/ 1404.
(8) مسند أحمد، 2/ 505.
(9) سنن الترمذى، 4/ 605.
(10) إحياء علوم الدين، 4/ 163.
(11) سنن الترمذى، 4/ 190.
(12) حلية الأولياء، 2/ 196، 197.

لا متصور[1] سوى السعادة الأخروية، ولا سعادة للعبد إلا فى لقاء مولاه والقرب منه، فكل ما أعان عليه فله فضيلة، فلا تحصل السعادة إلا بالطاعة والانكفاف عن المعصية، وهما لا يحصلان إلا بالخوف ، فكيف[2] لا يكون الخوف أهلاً لكل فضيلة، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى يتقرب بها إلى الله زلفى.

المقام الثانى: فى بيان درجات الخوف

وهو منقسم إلى: **القوى**، **والضعيف**، **والمتوسط** ، **فالضعيف**، ما كان حصوله على وجه الندرة وليس حاثًّا على العمل، وهذا كالذى يصيب عند حدوث المعصية من البكاء والانزعاج والفشل، ثم يرجع إلى ما كان عليه من الغفلة والإكباب على شغل الدنيا، وأما **القوى**، فهو الذى يخرج عن حدّ الاعتدال، ويورث القنوط، واليأس عن الرحمة الواسعة، وهذا كضرب الدابة بما يكسر عظامها، ويزيل لحمها، فما هذا حاله مذموم يوجب بطلان العمل، وأما **المتوسط**، فهو المحمود، وهو الذى يحمل على العمل، ويحمل على إشعال نار الخوف فى القلوب، فهذه درجات الخوف بالإضافة إلى الخائفين، وقد نجز غرضنا من هذا الحديث، وبالله التوفيق.

---

(1) فى (د،ك،م) يتصور.

(2) فى (ك،م) وكيف.

الحديث السادس عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وسَلَّمَ-: «**إِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا مِنْ شُبْهَةٍ فِي الدِّينِ ارْتَكَبُوهَا، أَوْ شَهْوَةٍ لِلَذَّةٍ آثَرُوهَا، أَوْغَضْبَةٍ لِحَمِيَّةٍ أَعْمَلُوهَا، فَإِذَا لاحَتْ لَكُمْ شُبْهَةٌ فَاجْلُوهَا بِالْيَقِينِ، وَإِذَا عَرَضَتْ لَكُمْ شَهْوَةٌ فَاقْمَعُوهَا بِالزُّهْدِ، وَإِذَا عَنَتْ لَكُمْ غَضْبَةٌ فَادْرَؤُوهَا بِالْعَفْوِ، إِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَيَقُومُ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾**[1]»[2].

فنقول: الحمد لله الواحد المتفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه، المستحق للتحميد والتمجيد[3]، والتقديس والتسبيح والتنزيه القائم بالعدل والحكمة فى كل ما يبرمه، ويقضيه، المتطول بالفضل والإنعام فى كل ما يجود به على خلقه ويسديه، المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومصادره ومجاريه، المنعم عليه بما يريد[4] على مهمات مقاصده وحوائجه، والمكمل لأماناته، فهو الذى يرشده ويهديه، ويوفقه للطاعات، ثم بألطافه الخفيّة يرتضيه، ويجتبيه عمّا يهلكه فى دينه، ويحميه حتى تضيق مجارى الشيطان ومداخله، وجميع دواعيه، ويكسر عنه سطوة الهوى، ونزوغ النفس التى تعاديه، كل ذلك من أجل أن يمتحنه الله بضروب المحن ويبتليه، فينظر كيف يؤثر مراد مولاه على مراده وينتحيه؟! وكيف يواظب على امتثال أوامره ونواهيه، ويحافظ على الاهتمام بطاعته وينزجر عن معاصيه؟!

والصلاة على المخصوص بالعصمة والتنزيه، والمتوج بتاج الكرامة التى ظهرت عليه، وفيه صلاة تزلفه عنده وتحظيه، وترفع منزلته ومكانه وتعليه، وعلى آله الأبرار من عترته وأقربيه.

واعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا الحديث مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من الأمور الأدبية

وفيه مطلبان:

---

(1) سورة الشورى من الآية 40.
(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 27.
(3) فى (د،ك،م) للتمجيد والتحميد.
(4) فى (د) يزيد. ﴿ولعله المناسب﴾.

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

أراد بقوله: «**يؤتى الناس**» أىْ: يهلكون كما يقول صاحب الغزو: أتينا من كذا، قال الله تعالى: **فَأَتَى ﴿ ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾**[1]، ويقول القائل: أتينا من كذا وكذا، إذا نزل بهم مكروه، وأكثر ما يستعمل فى المكروه، وقد يستعمل على الندرة فى المحبوب.

«**إحدى**» لغة فى الواحدة، **والشبهة:** ما كان يلتبس فى الحق ويشبهه وليس منه. **الدين:** ما يذهب إليه الإنسان ويعمل به ويعتقده، ومنه دين اليهودية والنصرانية، ودين الإسلام، فهو خير الأديان وأعدلها، وهو المذهب أيضاً . **الارتكاب:** (افتعال) من قولهم: ركب فلان هذا الأمر، إذا فعله ولابسه، ويقال: ركب فلان هجاج، أىْ: الباطل، وكل ما لابس من الأمور الهائلة فقد ركبه، **والشهوة:** ميل الطبع إلى ما يوافق الأمزجة، **واللذة:** إدراك الملائم، والمتكلمون يزعمون أنهما معنيان من المعانى التى لا تكون إلا فى الحىّ، كالقدرة والعلم، ولسنا ممّن يقول بالمعانى والإيثار تقديم فعل مع الحاجة إلى ذلك، وقد يقع فى الأمور المحمودة، ويقع فى الأمور المذمومة، وكله إيثار على ما تدعو إليه الحاجة، **والغضبة:** واحدة الغضبات؛ وهو الغيظ والحنق، وقد يكون محمودًا إذا كان الغضب لله تعالى وللدين، وكان رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– إذا استحلت المحارم غضب حتى يرى لوجه ظللاً ويتمعر وجهه[2]، وإذا استبشر كان وجهه قطعة قمر، فإن كان الغضب للحمية والأنفة، و[3]هو مذموم، **والحمية:** هى الكِبْر. قال الله تعالى : ﴿ **إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ** ﴾[4]، وهى سفه الحق واستصغار الخلق، **وإعمال الحمية:** اشتغال الجوارح بها[5]، ومنه: إعمال الرأى لاشتغال الفكرة فيه[6] .

لاح الشىء: إذا كان يبدو فى العيون مرة بعد مرة، كما يلوح البرق والسيف، وهكذا حال الشبهة؛ لأنها لا تستقر فى أذهان أهل النظر الثاقب، والفكر الموفق، **والجلاء:** هو إذهاب الصدى عن الأشياء الصقيلة كالمرآة والسيف، **واليقين:** هو التحقق، فالشبهة تجلى باليقين كما تجلو المداوس[7] السيوف عن صدئها، **والعارض:** هو الطارئ الذى لا استقامة له، وقد يقع فى الأمور المحمودة والمذمومة، وهو أقرب شىء إلى الزوال، **والقمع:** هو كفّ الهامة من كل شىء حتى ينقمع ويتكتم، كما يفعل بالقنفذ فإنه

---

(1) سورة النحل من الآية 26.

(2) يتمعّر وجهه: يتغير وتعلوه الصفرة بسبب الغضب. ينظر: لسان العرب، مادة (معر) .

(3) فى (د،م) الفاء بدلاً عن الواو. ﴿ولعله المناسب﴾ .

(4) سورة الفتح من الآية 26.

(5) فى (د،م) لها . ﴿بها: تفيد وجود أمر آخر تشتغل به الجوارح، أما لها: تفيد التفرد، فالجوارح مسخرة لها فقط، لذا كان الأخير أبلغ﴾ .

(6) فى (د،م) به.

(7) المداوس: جمع مدوس، والمدوس خشبة يشدّ عليها مِسَنٌّ يصقل بها السيف حتى يجلوه. ينظر: لسان العرب، مادة (دوس) .

يقمع حتى يتحجر فى بيته، ومنه المقمعة التى يقمع بها الرأس، **والزهد:** الرغبة عن الشىء وإهماله وتركه، فقمع الشهوة يكون بالإعراض عنها، وتركها زهدًا فيها ، ومعنى **عنت:** اعترضت، ومنه: عنان السماء، وهو الجو الذى بين السماء والأرض؛ لأنه معترض بينهما، ومنه عنان الفرس؛ لأنه يعترض للفرس دون مرادها، **والغضبة:** واحدة الغضبات، وهى المرة كالضربة والأكلة، **والدرّ:** هو الدفع، **والعفو:** هو ترك المناقشة على الفعل والمعاقبة عليه.

المنادى: هو الذى يرفع صوته بإشادة الأمور المهمة، والإعلام بها، **ويوم القيامة:** هو اليوم الذى يقوم فيه الأشهاد، ويقوم الناس لرب العالمين، **والأجر:** هو الثواب؛ لأنه فى مقابلة العمل، **والعافون:** جمع عافٍ، وهم الذين يسقطون حقوقهم صبرًا واحتسابًا لله تعالى، فهذا ما أردنا ذكره من تقرير الألفاظ اللغوية التى تضمنها هذا الحديث على انفرادها .

المطلب الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من المعانى الإعرابية

«**إنما**» هاهنا واردة على جهة الحصر، وهى متضمنة للنفى والإثبات، كأنه قال: ما يؤتى الناس إلا من إحدى ثلاث، و«**يؤتى**» فعل مضارع مبنى لما[1] يسم فاعله، وفاعله محذوف، و«**الناس**» مرفوع على الفاعلية قائم مقام الفاعل الحقيقى.

«**من**» دالة على التبعيض، ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية. «**إحدى**» الهمزة فيه بدل من الواو المكسورة، وهو قياس فى حقها كإسادة وإقادة، وقرأ سعيد بن جبير[2]: من إعاء أخيه[3]، وأصله وحدى، و«**الألف**» للتأنيث، وهو مجرور بـ «**من**»، ومضاف إلى «**ثلاث**»، و«**إحدى**» جارية على القياس فى التذكير والتأنيث، فيقال للذكر: أحد، وللمؤنثة: إحدى، ويقال فى لغة ثانية: الواحدة والواحد على جهة الإشتقاق من الفعل، و«**ثلاث**» للعدد ينعكس الأمر فيه فيأتى للمذكر بالتاء، فيقال: ثلاثة رجال وأربعة غلمان، ويقال: ثلاث نسوة، وأربع جوارى[4]، وهو مجرور بالإضافة لما قبله إليه، وقياس «**ثلاث**» إذا كان بغير(ألف)، و(لام) أن لا يستعمل إلا مضافًا فى تمييزه، وقد جاء: ثلاثة أثوابًا على النصب، وهو قليل جدًا، وأقلّ منه فى الاستعمال ما ورد من قولهم: الثلاثة الأثواب، والخمسة الدراهم. «**إما**» للعطف، ولا تستعمل إلا مكررة، كقوله تعالى:

---

(1) فى (د،ك،م) زيادة: لم. ﴿وهى زيادة مناسبة﴾ .

(2) وهو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى بالولاء، كوفى وأحد أعلام التابعين، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس، قتله الحجاج سنة 95هـ، وقيل: 94هـ بواسط، ودفن بها . ينظر: وفيات الأعيان، 2/ 371– 373.

(3) ينظر: الكشاف عن غامض حقائق التنزيل للزمخشرى، 2/ 463.

(4) يجوز الوقف فى المنقوص المنون بالرفع والجر على الياء، وبذلك وقف ابن كثير، والأفصح الوقف عليه رفعًا وجرًا بالحذف. ينظر: شرح قطر الندى، وبل الصدى، 436.

﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾[1]، ولا تستعمل للعطف إلا مكسورة الهمزة، فـ (أما) مفتوحة الهمزة، فإنما تستعمل للتفصيل، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾[2]، وقد تقوم مقامها فى التكرار، أو كما ورد هاهنا فى الحديث؛ لاشتراكهما فى العطف، و«من» هاهنا لابتداء الغاية، ويحتمل أن تكون للتبعيض، والابتداء بها أظهر، وهى متعلقة بـ «يؤتى» فى صدر الكلام.

الشبهة: اسم للمصدر، والمصدر هو التشبيه، و«**فى الدين**» جار ومجرور متعلق بما فى الشبهة من رائحة الفعل. «**ارتكبوها**» جملة من فعل وفاعل ومفعول، فـ «**الواو**» هو الفاعل، و«**الهاء**» ضمير المفعول، والجملة الفعلية فى موضع جر صفة للشبهة، كأنه قال: شبهة مرتكبة، «**أو**» للعطف على «**شبهة**» سادة مسد «**إما**» حيث كانت لا تستعمل إلا مكررة، و«**شهوة**» مجرور بالعطف على ما قبلها، و«**للذة**» جار ومجرور متعلق **بالشهوة**، وهو اسم فيه رائحة الفعل، و«**آثروها**» جملة من فعل وفاعل ومفعول، والجملة فى موضع جر صفة، إما لـ «**شهوة**»، وإما «**للذة**»، فكلاهما محتمل.

«**أو غضبة**» «**أو**» هاهنا عاطفة كالتى قبلها، **والغضبة:** مصدر من المصادر المتصلة بالتاء دلالة على الوحدة، كالضربة والأكلة. «**لحمية**» جار ومجرور، و«**اللام**» متعلقة بالمصدر المؤنث. «**أعملوها**» جملة فعلية فى موضع الصفة، إما «**لحمية**»، وإما «**لغضبة**»، والظاهر أنها «**لحمية**»؛ لقرب المجاورة له؛ لأن الصفة لا يفصل بينها وبين موصوفها (اللام) فى «**لحمية**»، و«**اللام**» فى «**للذة**» فيهما معنى التعليل، والمعنى: أن الشهوة من أجل اللذة والحمية من أجل الغضب، فإذا فيها معنى الشرط، وهى تفيد التوقيت.

«**لاحت لكم شبهة**» جملة فعلية. «**فاجلوها**» «**الفاء**» جوابها، أعنى «**إذا**»؛ لأنها تفيد الشرطية. «**باليقين**» جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و«**الباء**» فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون مشعرة بالحال، كأنه قال: فاجلوها متيقنين، **وثانيهما:** أن تكون للآلة، كأنه جعل اليقين آلة للدفع، كما تقول: كتبت بالقلم. «**وإذا عرضت لكم شهوة**» جملة فعلية. «**فاقمعوها**» «**الفاء**» جواب «**إذا**». «**بالزهد**» جار ومجرور فيه الوجهان اللذان ذكرناهما فى قوله: «**باليقين**». «**وإذا عنَّت لكم غضبة**» جملة فعلية أيضاً. «**فادرؤوها بالعفو**» «**الباء**» هاهنا فيها الوجهان اللذان ذكرناهما فيما قبله. «**إنه**» «**الهاء**» للشأن، والقصة، و«**ينادى**» جملة فعلية مفسرة للشأن، وهو فعل مضارع معرب بالرفع، لكنه فيه مقدر لأجل ثقله على حرف العلة، وهو الياء المكسور ما قبلها، و«**منادٍ**» مرفوع على الفاعلية، وهو اسم

---

(1) سورة مريم من الآية 75.
(2) سورة الضحى الآيتان 9، 10.

منقصوص كقاضٍ، والتنوين فيه للعوض عن حذف الحركة المقدرة الإعرابية.

«**يوم القيامة**» منصوب على الظرفية، وهو متعلق بـ «**ينادى**»، وإنما أعلّ الاسم بطرح الياء فى «**منادٍ**»، ولم يعلّ الفعل فى «**ينادى**» بطرح الياء منه من أجل التنوين الذى حصل به الثقل، وليس التنوين حاصلاً فى الفعل، فافترقا.

«**من له على الله أجر**» «**من**» هاهنا شرطية، والجملة بعدها جملة ابتدائية، وإنما جاز الابتداء بالنكرة؛ لما تقدم خبرها عليها، و«**على الله**» جار ومجرور صفة[1] للمصدر، وهو «**أجر**»[2]. «**فليقم**» «**الفاء**» جواب «**من**» «**فيقوم**» جملة فعلية مضارعة مرفوعة للابتداء، ولا يجوز فيه النصب؛ إذ لا موجب لنصبه هاهنا، و«**اللام**» فى قوله: «**فليقم**» للأمر، والفعل مجزوم بها وعلامة جزمه حذف الحركة الإعرابية، وكان طرح الواو من أجل التقاء الساكنين، و«**العافون**» مرفوع على الفاعلية وعلامة رفعه الواو؛ لأنه من جمع السلامة، كـ (المسلمون)، و(لامه) محذوفة لأجل الإعلال، وأصله: العافيون، و«**عن الناس**» جار ومجرور يتعلقان بـ «**العافون**» لأجل كونه مشتقًا من الفعل، فعمل[3] فى الفعل لأجل الاشتقاق، والآية الشريفة: ﴿ **فَمَنْ** ﴾[4] فيها شرطية، و﴿ **عَفَا وَأَصْلَحَ** ﴾[5] فعلان شرطان، وقوله تعالى: **فَأَجْرُهُۥ**﴿ **عَلَى ٱللَّهِ** ﴾[6] جملة ابتدائية، والفاء جواب الشرط، و﴿ **عَلَى ٱللَّهِ** ﴾[7] جار ومجرور يتعلق بالمصدر وهو الأجر، **والحمية والغضبة:** مصدران على القلّة، فوجه القلّة فى الغضبة من أجل حرف التأنيث، وهو دليل القلّة للمرة الواحدة فى المصادر، و(فعيلة) و(فعيل) قليلان فى المصادر أيضاً، ولا يرد (فعيل) إلا فى الأصوات، كالزئير والنئيم والنهيم، و(فعيله) أقل منه، والله أعلم.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البلاغة

وفيه مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

ويشتمل على معانٍ خمسة:

---

(1) فى (د،م) صلة.
(2) فى (د) سقط: وهو أجر.
(3) فى (د) فيعمل.
(4) سورة الشورى من الآية 40.
(5) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(6) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(7) السورة نفسها ومن الآية نفسها.

المعنى الأول: الحصر، فى قوله: «**إنما يؤتى الناس من إحدى ثلاث**»، وهى أعنى «**إنما**» ترد فى الأمور الواضحة، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ** ﴾[1]، وقوله: ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ** ﴾[2]، فالأمر واضح فى هذه الأمور الثلاثة، فهذه هى المهمات من الخصال المهلكة، والمعاصى المورطة.

المعنى الثانى: التفصيل، فى هذه الخصال الثلاث، فإنه إنما يرد من أجل الكشف، والبيان، والتنبيه على هذه الأمور الخطيرة فى الدين المفسدة له.

المعنى الثالث: أنه أردف كل واحد من هذه الخصال المهلكة ما يكون ماحيًا لآثارها، مزيلاً لأحكامها، فوقعت هذه الجمل أحسن موقع؛ لما فيها من الملاءمة والمناسبة لما قبلها.

المعنى الرابع: الإبهام فى ضمير الشأن، والقصة، فى قوله: «إنه ينادى منادٍ يوم القيامة[3]»، فإن فيه من الفخامة ما لا يخفى.

المعنى الخامس: «**إذا**»، فإنها إنما تقع فى الأمور الواضحة دون «إن»[4] الشرطية، فلما كانت هذه الخصال **لا** يخفى ضررها صدر الكلام فيها بـ «**إذا**» لتدل على الوضوح[5] فيها[6]، كما يقال: إذا طلعت الشمس، **ولا** يقال: إن طلعت الشمس.

البحث الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم البيانية

وقد اشتمل من المجازات الرشيقة، والاستعارات الحسنة على أمور ثلاثة عشر:

المجاز الأول: الإتيان هاهنا هو عمل القبيح[7] فى الدنيا، وظاهر الخبر دال على أنها حاصلة فى الآخرة، وليس الأمر هكذا، وإنما جعل المسبب، وهو العذاب حاصلاً فى يوم القيامة، فلهذا قال: «**يؤتى . . . يوم القيامة**»، **والإتيان**: هو فى الدنيا، فهذا مجاز **لا** محالة وضع المسبب مكان السبب.

المجاز الثانى: قوله: «**ارتكبوها**» مجاز مأخوذ من ركوب الدابة، وهو الاستعلاء عليها، فشبه ما يحصل من صاحب الشبهة من الإصغاء إليها والإحكام لها كأنه راكب لها.

---

(1) سورة طه من الآية 98.
(2) سورة الرعد من الآية 7 .
(3) فى (د) سقط: يوم القيامة.
(4) فى (د) سقط: إن.
(5) فى (د) الوضوع. ﴿والسليم: الوضوح﴾ .
(6) فى (د) فهمًا .
(7) فى (د،ك،م) القبائح.

المجاز الثالث: قوله: «**أو شهوة للذة آثروها**» الظاهر من الخطاب أنها هى المؤثرة فى الهلاك، وليس الأمر كذلك، فإن المؤثر والسبب فى الإهلاك إنما هو فعل المعصية، والانهماك فيها، بخلاف الشهوة واللذة، فصار مجازاً من هذا الوجه.

المجاز الرابع: «**أوغضبة لحمية أعملوها**» هو كما ذكرناه من قبل من أن الظاهر فى الكلام من الغضبة والحمية هما المؤثران فى الإهلاك مجاز، والحقيقة ما ذكرناه.

المجاز الخامس: قوله: «**فإذا لاحت لكم**» مجاز من جهة أن اللوح إنما يستعمل فى المرآة، والسيف حقيقة، وهاهنا استعارة.

المجاز السادس: قوله: **الجلاء**، فإنها تستعمل فى صدأ السيف والمرآة، وهو هاهنا وارد على جهة المجاز لا غير.

المجاز السابع: **عروض الشهوة؛ العروض**، إنما يستعمل حقيقة فى الأمور الطارئة المنتقلة.

المجاز الثامن: قوله: «**فاقمعوها**»؛ لأن القمع هو ضرب الهامة، وهو هاهنا مجاز وارد على جهة الاستعارة.

المجاز التاسع: قوله: «**إذا عنت لكم غضبة**» مجاز هاهنا؛ **لأن العنن:** هو الظهور، **والغضبة** ليست ظاهرة.

المجاز العاشر: قوله: «**فادرؤوها بالعفو**» مجاز أيضاً؛ **لأن الدرء** إنما يستعمل فيما يندفع بالإحساس، وليس **الغضب** مدركاً، فلهذا كان مجازاً.

المجاز الحادى عشر: «**الباء**» فى قوله: «**باليقين**»، و«**بالزهد**»، و«**بالعفو**» واردة على جهة المجاز؛ لأنها هاهنا تفيد الآلة، وليس هاهنا تعقل الآلة، فلهذا كانت مجازاً.

المجاز الثانى عشر: لمّا استعار **اللوح** فى **الشبهة** عقبه **بالجلاء** توشيحًا للاستعارة، ولمّا استعار **عروض الشبهة** عقبه **بالقمع** توشيحًا أيضًا، ولمّا استعار **العنن** عقبه **بالدرء** توشيحًا، كما قال تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾[1] على جهة الاستعارة، ثم عقبه بذكر **الربح** توشيحًا لهذه الاستعارة.

المجاز الثالث عشر: إسناد اللوح إلى الشبهة، وإسناد العروض إلى الشهوة، وإسناد **العنن** إلى **الغضبة** من باب المجاز المركب من جهة أن إسنادها إلى هذه الأفعال ليس حقيقة، ولنقتصر على ما ذكرناه ففيه كفاية.

البحث الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع

وقد تضمن أساليب من علوم البلاغة والفصاحة:

الأسلوب الأول: التسجيع، وهذا كقوله: «**ارتكبوها**»، و«**آثروها**»، و«**أعملوها**»، فإنه كله من السجع، وهكذا قوله:

(1) سورة البقرة من الآية 16.

«**العفو**» مع قوله: «**الزهد**» سجع أيضًا.

الأسلوب الثانى: الطباق، وهذا نحو ذكر **الشبهة مع اليقين**، فإنه طباق معنوى؛ لأن **الشبهة** تورث **الشكّ**، ولو ذكر **الشكّ** لكان طباقًا لفظيًا.

الأسلوب الثالث: الفصاحة اللفظية، وأنت إذا جرّدت الفكرة[1] فى مفردات هذا الحديث وجدتها فى غاية الخفّة والسلاسة، ليس فيها ثقل، ولا فى تركيب الحروف تنافر، وإذا نظرت أيضًا فى تأليف هذه المفردات وجدتها فى غاية الحسن والرشاقة.

الأسلوب الرابع: الاقتباس، وهو إيراد الآية على ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة، وخدعة من الشيطان، وما هذا حاله، فهو من علم البديع، يقال له الاقتباس، وله موقع عظيم وفائدة حسنة.

الأسلوب الخامس: البلاغة المعنوية، وأنت إذا فكرت فى سياق هذا الحديث، وما تضمنه من المعانى البالغة فى الوعظ والدالة على الزجر ما فيه كفاية[2] من الوعظ لمن اتّعظ، وبلاغ لمن ازدجر، ولنقتصر على ما أوردناه، ففيه كفاية لمن كان له أدنى ذوق فى علوم البلاغة.

النظر الثالث: فى بيان مقاصد صلى الله عليه وآله وسلم فيما أورده فى هذا الكلام

اعلم أن الغرور أصل كل ضلالة، وكل جهالة، وقبل الخوض فيما نريده نذكر معناه، **والغرور:** هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير فى العاجل، أو فى الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطؤون فيه، فأكثر الناس إذن مغرور، وإن اختلفت أصناف غرورهم، واختلف درجاتها، حتى كان غرور بعضهم أظهر من بعض، وأظهرها، وأشدها غرور الكفار على فرقهم، وغرور العصاة والفساق، فهذا تقرير ماهية الغرور، فإذا عرفت هذا، فلنذكر أسباب الغرور، ثم نذكر علاجه، ثم نردفه بذم الغرور، ونذكر أصناف المغترين، فهذه مقامات أربعة نذكرها بمعونة الله تعالى.

المقام الأول: فى بيان أسباب الغرور

وقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى أسباب ثلاثة:

---

(1) فى (د) سقط: الفكرة.
(2) فى (ك) الكفاية.

السبب الأول منها: الشبهة فى الدِّين

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث: إما من شبهة فى الدِّين ارتكبوها**»، واعلم أن الشبهة لها مدخل عظيم فى فساد الدين، ولها تأثير فى هدمه، وبطلانه إلا على من تجنبها وبعُد عنها، ولها مداخل، وأعظمها ثلاثة:

المدخل الأول: فى الديانات، فإن الناس من أهل الأهواء، والفرق الضالة قد اعتقدوا فيها اعتقادات خاطئة من جهات متفرقة، ولها جهات أربع:

الجهة الأولى: ما يتعلق بالذات، فإن من الناس من زعم قدم العالم، وأبطل الصانع رأسًا، وزعموا أن هذا التغير إنما كان بتفاعل من جهة الأرض والماء والنار والهواء من غير أن يكون هناك مدبّر لها، وهذا محكىّ عن المعطلة، وآخرون أثبتوا مؤثرًا، وزعموا أنه موجب بذاته غير مختار كما هو محكىّ عن جلّ[1] الفلاسفة فإنهم زعموا أنه موجب بالذات غير فاعل بالاختيار، وأن هذه التأثيرات موجبة عن ذاته بواسطة العقول السماوية، والنفوس الفلكية إلى هذيان قد قررناه عليهم فى الكتب الكلامية، ورددنا عليهم هذه الجهالة، وزيفنا ما اعتقدوه من هذه الضلالة، والأقوال المزورة والاعتقادات المنكرة.

الجهة الثانية: ما يتعلق بصفاته، ومنهم من نفى صفاته جلّ جلاله، كما هو محكىّ عن الملاحدة، ومنهم من أثبتها، وزعم أنها معانٍ قائمة بأنفسها، كما هو محكىّ عن بعض فرق المجبرة, وبعضهم أثبت الأحوال كما هو محكى عن جلّة المعتزلة، ومنهم من أثبت المعانى، والصفات جميعًا، كما هو محكى عمن أثبت العلة والمعلول، كما هو محكى عن بعض الأشعرية أيضاً.

الجهة الثالثة: ما يتعلق بالأفعال، وهذا نحو من أنكر أفعال العباد، وأضافها إلى الله تعالى كما هو محكىّ عن المجبرة، فإنهم متفقون على أن العبد غير مستقل بالإيجاد، وأنه مضاف إلى قدرة الله تعالى، وأثبتوا للعبد تعلقات غير الإيجاد، و[2]هى مضافة إلى قدرة العبد على تفاصيل لهم أودعناها الكتب العقلية.

الجهة الرابعة: أحكام الأفعال، وهذا نحو اختلاف الأمة فى الإرجاء، فهو[3] خلاف فى فساق أهل الصلاة هل يتناولهم الوعيد أم لا؟

فمنهم من زعم أن الوعيد لا يتناولهم، وأنهم يدخلون الجنة، ومنهم من ذهب إلى أنهم يدخلون النار، ولكنهم يخرجون منها،

---

(1) فى (د،ك،م) كل. ﴿والأنسب: جل﴾.

(2) فى (د) سقط: الواو.

(3) فى (د) وهو.

ومنهم من توقف فى حالهم، وهؤلاء هم فرق الإرجاء، والمرجئة[1] الخلص هم الذين زعموا أنهم لا يدخلون النار بحال، فهذه الجهات كلها قد دخلت عليهم الشبهة فى جميع هذه الاعتقادات الحائدة عن الصواب ومنبعها، كلها الشبهة فى الأمور الإلهية.

المدخل الثانى:[2] **الشبهة فى المكاسب الحرامية**، وهذا نحو كسب البغايا، وهنّ الزوانى الذى هو ثمن فروجهن، ونحو حلوان الكهان[3]، وهو ما يأخذونه على الكهانة والتنجيم، ونحو ما يأخذه المغنون على أجرة الغناء، فإن هذه المداخل كلها حرام من جهة الشرع، وهى محظورة، فالأموال المأخوذة عليها تكون محظورة لا محالة، وغير ذلك من المكاسب التى قد ورد[4] الشرع على حظرها، فإذا وردت على ما هذا حاله من تحليل هذه الأشياء كان خطأً، وقبحيًا لا محالة، وعلى المكلف إعمال نظره، وفكرته فى البعد عن هذه الشبهة التى تؤدى إلى إباحة هذه الأموال المحظورة.

المدخل الثالث: فى الشبهة فى المعاوضات، وهذا نحو ثمن الكلب، والخنزير، والميتة، ونحو أنواع الربويات فى الفضل والنسيئة[5]، فإن هذه الأمور قد حرّمها الشرع وحظرها، فكل شبهة واردة على تحليلها فهى من الشُّبه التى يجب دفعها، ولا يعول عليها؛ لأن تحريمها قد تقرر من جهة الشرع بلا إشكال.

السبب الثانى: الشهوة

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**أو شهوة للذة آثروها**» اعلم أن أكثر ما يستولى على الخلق فى الإيثار هو الشهوة، فإن لها ملكاً عظيمًا عليهم، وهى التى فيها يكون هلاك الأكثر، إلا من عصمه الله، وجبلت القلوب على حبّ العاجل، ولا عاجل أعظم من حكم الشهوات، ولهذا فإن من غلب حكم عقله على هواه، وشهوته كان مشبهًا للملائكة والأنبياء، ومن غلب هواه، وشهوته على عقله فصار[6] العقل موطئًا بأقدامها، فهو شبيه بالسباع الضارية، وجملة الأمور التى تغلب على العقول شهواتها ما ذكره الله فى كتابه الكريم، وهى قوله: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ** ﴾[7]، وهكذا أنواع المأكولات

---

(1) المرجئة: سميت بذلك لتركهم القطع بوعيد الفساق، وذلك جامع مذهبهم، والإرجاء فى أصل اللغة التأخير. ينظر: المنية والأمل فى شرح الملل والنحل، 27– 121.

(2) فى (د،ك) زيادة: فى.

(3) فى (ك،م) الكاهن.

(4) فى (د،ك،م) دل.

(5) النسيئة: التأخير، والربا فى النسيئة هى البيع إلى أجل معلوم يريد أن بيع الربويات بالتأخير من غير تقابض، وإن كان من غير زيادة. ينظر: لسان العرب، مادة (نسأ).

(6) فى (د) وصار.

(7) سورة آل عمران من الآية 14.

الطيبة، والمشروبات الهنيئة، والملبوسات الحسنة الرقيقة المعجبة التى تروق الناظر، ويستلذ بها الخاطر، فالشبهات تستولى على هذه الشهوات، وتدخلها، وتكون غالبة للنفوس، ولا تبالى بملابسة الشبهة إيثارًا للشهوة، وغلبتها عليها، والخلاص عنها أسهل على من وفقه الله تعالى.

السبب الثالث: الغضبة

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أو غضبة لحمية أعملوها**» قد ذكرنا فيما سبق الكلام فى ماهية الغضب وذمّه، فأغنى عن الإعادة، ثم إن الناس بالإضافة إلى الغضب على درجات ثلاث: إما **إفراط**، أو **تفريط**، أو **اعتدال**، أما **الإفراط**، فنحو أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج الإنسان عن سياسة العقل والدين، ويخرج بالحدّة عن طاعتهما، ولا يبقى للمرء معهما بصيرة، ولا نظر ولا فكر ولا اختيار، بل يصير فى صورة المضطر، وأما **التفريط**، فهو أن تفقد هذه القوة وتضعف، وذلك مذموم، وهو الذى يقال فيه: إنه لا حمية له، ولا أنفة، ولهذا قال بعضهم: من استغضب فلم يغضب فإنما هو حمار، وأما **الاعتدال**، فهو أن يكون ساكن المزاج، فإذا حصلت أسباب الغضب فإنه يحرك قوة الغضب، ولهذا وصف الله سبحانه الصحابة بالشدة والحمية، فقال: ﴿ **أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ** ﴾[1]، وقال الله للرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾[2]، و[3]إذا تقررت هذه القاعدة فالذى نذكر هاهنا هو الكلام فى الأسباب المهيجة للغضب، ثم نردفه بالكلام فى فضيلة كظم الغيظ، فهذان مقامان:

المقام الأول: فى بيان الأسباب المهيجة للغضب

اعلم أن السبب فى هيجان الغضب إنما هو من ضعف العقل، ولهذا فإنه إلى المريض أسرع منه إلى الصحيح، والمرأة أسرع غضبًا من الرجل، والصبى أسرع غضبًا من الشاب، والشاب أسرع غضبًا من الكهل، والكهل أسرع غضبًا من الشيخ[4]، وصاحب الخلق الرذل، والخلائق السيئة أسرع غضبًا من صاحب الفضائل، فجملة الأسباب المهيجة للغضب هو الزهو والعُجب والفخر والمزاح والهزل والتعيير والمماراة والمضارة والغدر وشدّة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه كلها أخلاق رديئة مذمومة عقلاً وشرعًا، ولهذا قال يحيى لعيسى- عليه السلام-: أىّ شىء أشد؟ قال: غضب الله، قال: فما يقرب من غضب الله؟ قال: أن

---

(1) سورة الفتح من الآية 29.
(2) سورة التوبة من الآية 73، والتحريم من الآية 9.
(3) فى (د) الفاء بدلاً عن الواو.
(4) فى (د،م) سقط: والكهل أسرع غضبًا من الشيخ.

تغضب، قال: فما يبدى الغضب، وما يسببه؟ قال له عيسى- عليه السلام-: الكبر والفخر والتعزز والحميّة[1]، ومن أعظم البواعث على الغضب تسمية الجهال الغضب شجاعة ورجلة وعزّة نفس وكِبر همّة ويلقبونه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، بل هو فى الحقيقة مرض قلب، ونقصان عقل، وهو دلالة على ضعف النفس ونقصانها .

المقام الثانى: فى بيان فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ ﴾[2] فى معرض المدح لهم، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كفّ غيظه كفّ الله عنه عذابه، ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره، ومن خزن لسانه ستر الله عورته»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أشدكم من ملك نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا بعد القدرة»[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كظم غيظه، وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا، وإيماناً يوم القيامة»[5]، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما جرع عبد جرعتين أفضل من جرعة غيظ تلقاها بحلم، أو جرعة مصيبة تلقاها بصبر جميل»[6] .

وقال ابن عباس، قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- : «إنَّ لجهنم بابًا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعاصى الله تعالى، ما من جرعة أحبّ إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، وما كظمها عبد إلا ملأ الله جوفه أمنًا وإيمانًا»[7]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كظم غيظًا، وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يخيره من أىّ الحور شاء»[8]، وقال لقمان: يا بنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفعك معيشتك[9]، وعن عمر: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير الأمر ما ترون[10]، وقال رجل لعمر: والله ما تقضى بالعدل، ولا تعطى بالجزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه، فقال له رجل :- يا أمير المؤمنين- ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 172 .

(2) سورة آل عمران من الآية 134 .

(3) مسند أبى يعلى، 7/ 302 .

(4) إحياء علوم الدين، 3/ 175 .

(5) نفسه.

(6) مصنف ابن أبى شيبة، 7/ 88 . بلفظ: «ما من جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة محزنة ردها صاحبها بحسن صبر وعزاء، أو جرعة غيظ كظم عليها» .

(7) شعب الإيمان، 6/ 320، إحياء علوم الدين، 3/ 175 .

(8) سنن أبى داود، 4/ 248 .

(9) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 176 .

(10) نفسه.

ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1]، فقال عمر: صدقت، فكأنما كانت نارًا فأطفئت[2]، وقال بعض الزهاد: ثلاث من من كن فيه استكمل الإيمان بالله: إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل[3]، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، ,وإذا قدر لم يتناول ما ليس له[4]، وجاء رجل إلى سلمان[5] فقال: أوصنى- يا أبا عبدالله-، فقال له: لا تغضب، قال: لا أقدر . قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك[6]، وفيه فضل عظيم، ونكتفى بهذا القدر فى إظهار فضيلة كظم الغيظ، وهو من أشرف الشمائل، وأزكى الخلائق عند الله.

المقام الثانى: من (النظر الثالث) فى مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم: فى بيان علاج هذه الأسباب المهلكة وإزالتها

وهى ثلاثة:

العلاج الأول: فى إزالة الشبهة ودفعها، وقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى علاجها بقوله: «**فأجلوها باليقين**»، واعلم أن علاج ما ورد من الشبه من تلك المداخل التى ذكرناها إنما يكون بالنظر المحقق، والفكر الموفق، وإيراد البراهين الباهرة، والأدلة القاهرة، والاستعانة بأهل الصلاح والمعرفة، وإيضاح ما وقعت فيه الشبهة بالأنظار الصافية عن كدورة[7] التمويه بالعبارات المهذبة، وترتيب العلوم المحققة، ومن ثمة[8] يظهر فضل العلماء، وتحمد آثار أهل البصائر، والفضلاء؛ لما يحصل بهم من النفع فى الدين، ويحصل بجميد سعيهم من جلاء الشبهة بأنوار اليقين؛ ومصداق ذلك ما رُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[9]، وقال عليه السلام: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء»[11]، وقال عليه السلام: «مداد العلماء يعدل دم الشهداء»[12]، وما ذاك إلا لأن العلماء يستنقذون الخلق من ورطات الضلال، وحيرة الجهل بعلومهم وحسن بصائرهم النافذة، والعباد وأهل الجهاد

---

(1) سورة الأعراف الآية 199 .
(2) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 176 .
(3) فى (د) الباطل.
(4) القائل: محمد بن كعب. ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 176 .
(5) المقصود: سلمان الفارسى رضى الله عنه.
(6) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 176 .
(7) فى (د) كدور.
(8) فى (د،ك،م) ثم.
(9) سنن أبى داود، 3/ 317.
(10) سنن ابن ماجة، 1/ 81.
(11) مسند الشهاب ، 2/ 103 .
(12) العلل المتناهية، عبد الرحمن بن على بن الجوزى، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1403هـ، بيروت، لبنان، 1/ 80 . بلفظ: «لو وزن مداد العلماء، ودم الشهداء لرجح مداد العلماء» . وبلفظ آخر: «وزن حبر العلماء بدم الشهداء فرجح عليهم» .

يوشك أن يقعوا فى شبهة فإذا هم فى بحار الهلكة يغوصون، وفى أمواج الفتن، والحيرة يخبطون، فنسأل الله علمًا نافعًا يرشدنا إلى الفوز برضوانه، ويحظينا بإحراز جواره، ومزيد إحسانه، فما المفزع إلا إليه، ولا الطمع إلا فى كرمه.

العلاج الثانى: فى كسر سورة الشهوات، وذلك إنما يكون بالزهد، كما أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك بقوله: «**فاقمعوها بالزهد**» قد قررنا فيما سبق فى الزهد معانٍ شافية فى فضله ودرجاته، فأغنى عن الإعادة، والذى نذكره هاهنا هو العلاج بالزهد فى كسر الشهوات، وأصل **الزهد**، هو التفكر فى أمور الآخرة، والمعاد الأخروى، والحشر، والنشر، والحساب وتصور الموت، وأحواله، وما بعده من الأخطار، والأهوال من ظلمة اللحد، وتغير الأجساد، وفساد الألوان، وتنكر الجوارح عن عاداتها المألوفة، وتصاريفها النافعة المعروفة؛ ويؤيد ذلك ما رُوى عن على بن الحسين- رضى الله عنه- أن امرأة قالت له: ما أحسن عينيك! قال: هما أسرع شىء إلى البلاء منى، فلو رأيتهما بعد ثلاث، وقد سالتا على خدى، فإذا كان القلب مستشعرًا لخوف الله تعالى مشفقًا من نزول الموت به، فعند هذا يكون العبد على وجل شديد، وخوف عظيم، فيقوم بالأعمال الصالحة والكف عن المحارم، وقاعدة الأمر، وإصلاحه هو بالزهد فى الدنيا، فرحم الله امرأ نظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وبسط إليها كف الاضطرار، وأخذ منها أخذ العليل النبيه من الدواء الكريه، ولم يبسط [1] إلى محرمها يدًا، ولا يملأ من حطامها، فما وجعل لنفسه من نفسه رقيبًا، ومنها عليها حافظًا وحسيبًا.

العلاج الثالث: فى بيان ما يزيل الغضب، وإنما يكسر نخوته بالعفو، كما أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله: «**فادرؤوها بالعفو**».

اعلم أن من الناس من زعم أن الغضب لا يقبل العلاج، ولا يزول بالكلية، ومنهم من زعم أنه يمكن محوه وإزالته، وهذا هو المختار؛ لأن الإنسان لا ينفك عن الغضب والغيظ؛ لأنه لا يزال يوافقه شىء ويخالفه آخر، فإذا حصل ما يخالف هواه غضب، وإذا حصل ما يوافقه أحبه، فلنذكر علاجه بالإزالة، ثم نردفه بذكر فضيلة العفو. فهذا تقريران:

التقرير الأول: فى بيان ما يزيله

وله مزيلان: **علم وعمل**، فأما المزيل **الأول العلمى**؛ فهو أمور خمسة:

أولها :أن يتفكر فى الأخبار التى سنوردها فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، ويرغب فى ثوابه فيمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفىء غيظه، ورُوى أن عمر بن عبدالعزيز أمر بضرب رجل ثم قرأ: ﴿

(1) فى (د) ينبسط.

﴿ وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ ﴾[1]، فقال لغلامه: خلّ عنه[2].

وثانيها: أن يُخوّف نفسه بعقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله أعظم من قدرتى على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبى عليه لم آمن أن يمضى الله علىّ غضبه يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة: اذكرنى عند أن تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق[3].

وثالثها: أن يقرر فى نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو فى مقابلته والسعى فى هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا إذا كان لا يخاف من الآخرة.

ورابعها: أن يتفكر فى قبح صورته عند غضبه، ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضارى، والسبع العادى، فأما الحليم الهادى التارك للغضب، فإنه يشبه الملائكة والأنبياء والعلماء والحكماء وأهل الرجاحة.

وخامسها: أن يتفكر[4] فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد أن يكون له سبب، وهذا نحو أن يصور له الشيطان، ويقول له: إن هذا منك عجز وذلة ومهانة وصغر فى نفسك، وتصير به حقيرًا بين الناس وفى أعين الخلق ، فإذا أحسّ بهذا فليقل لنفسه: ما أعجب أمرك يا نفس! تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزى يوم القيمة، والافتضاح بين يدى الله إذا أخذ فمدّ[5] بيدك وانتقم منك، فهذه الأمور كلها يعالج بها الغضب ويصغر حاله، وأعظم ما يعالج به الغضب كما أشار إليه الشرع هو العفو، ولكن هذه أمور جامعة يزال بها .

المزيل الثانى: فى بيان علاجه العملى، وهو أن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أمر رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– أن يقال عند الغيظ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد أو قاعد فليقم»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد، فإنما الغضب من النار»[7]، وفى حديث آخر عن ابن عباس– رضى الله عنه–: «إذا غضبت فاسكت»[8]، وقال أبو سعيد الخدرى، قال النبى– صلى الله عليه وآله

---

(1) سورة آل عمران من الآية 134.
(2) إحياء علوم الدين، 3/ 173.
(3) ورد فى الإنجيل. ينظر: حلية الأولياء، 3/ 65.
(4) فى (د) سقط: أن يتفكر. ﴿وقد ورد السقط فى الأربع المزيلات السابقة لهذا المزيل﴾.
(5) فى (د) هذا بدلاً عن فمد. ﴿وهو غير مناسب فى السياق﴾.
(6) مسند أحمد، 5/ 152. دون ذكر: «أو قاعد فليقم».
(7) نفسه. بلفظ: « إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».
(8) نفسه، 1/ 283.

وسلم: «ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن وجد من ذلك شيئًا فليلصق خدّه بالأرض»[1]، وقال عليه السلام: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء»[2]، وقال بعض الزهاد: إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك، وإلى الأرض تحتك، ثم أعظم خالقها[3]، وغضب المهدى[4] يومًا على رجل، فقال: تبيت فى الغضب، ولا تغضبن لله بأشد من غضبه لنفسه، فقال: خلوا سبيله[5].

التقرير الثانى: فى بيان فضيلة العفو

اعلم أن العفو معناه أن يستحق حقًّا فيسقطه ويبرى عنه من قصاص أوغرامة، وهو فى نفسه مغاير للحكم وكظم الغيظ، فلهذا أفردناه بالذكر من أجل ذلك، فإن الله تعالى قال: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾[6] الآية، وقال: وَأَن﴿ تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[7]، وقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم-: «ثلاث والذى نفسى بيده إن كنت لحالفًا عليهن، ما نقصت صدقة من مال، فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزًّا يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»[8]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبد إلا عزًّا، فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة، فتصدقوا يرحمكم الله»[9]، وقالت عائشة: ما رأيت رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– منتصرًا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله، فإذا انتهك من محارم الله شىء كان أشدهم فى ذلك غضبًا، وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثمًا[10].

وقال عقبة بن عامر: لقيت رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– يومًا فبدرته فأخذت بيده، أو بدرنى فأخذ بيدى، وقال:

---

(1) المستدرك على الصحيحين، 4/ 551.
(2) مسند أحمد، 4/ 226.
(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 175.
(4) المهدى هو محمد بن عبد الله بن المنصور، ثالث خلفاء بنى العباس، ولد بإيذخ من قرى سمرقند سنة 127هـ، وكان جوادًا مليح الشكل، توفى سنة 169هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 3/ 244، 245.
(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 175.
(6) سورة الأعراف من الآية 199.
(7) سورة البقرة من الآية 237.
(8) مسند أحمد، 1/ 193.
(9) إحياء علوم الدين، 3/ 182.
(10) الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، محمد بن عيسى الترمذى، تحقيق سيد عباس الجليمى، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، عام 1412هـ، بيروت، لبنان، 288.

«– يا عقبة– ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[1]، وقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : «قال موسى: – يا رب– أىّ عبادك أعزّ عليك؟ قال: الذى إذا قدر عفا»[2]، وقالت عائشة: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»[3]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : «إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ من تحت العرش: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم، فليعف بعضكم عن بعض»[4]، وعن أبى هريرة: أن رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– لمّا فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة، وأخذ بعضادتى الباب، فقال: «ما تقولون، وما تظنون»؟ فقالوا: نقول: أخ وابن عمّ حليم كريم، فقالوا ذلك ثلاثًا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أقول كما قال يوسف: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[5]» قال: فخرجوا فكأنما نشروا من القبور، فدخلوا فى الإسلام[6]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إذا وقف العباد نادى منادٍ ليقم من له أجر على الله فيدخل الجنة» قيل: من ذا الذى أجره على الله؟ قال: «العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفًا، فدخلوها بغير حساب»[7]، وفيه فضل كبير، ونقتصر على هذاالقدر ففيه كفاية.

المقام الثالث: فى بيان ذمّ الغرور بالشبهات

وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[8]، وقال تعالى: وَلَٰكِنَّكُمۡ﴿ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[9]، فهذه الآيات كافية فى ذمّ الاغترار بالشبهات الباطلة، والأمانى الكاذبة، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حبذا نوم الأكياس، واقتصادهم كيف يعيبون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى، ويقين أفضل من ملء الأرض ذهبًا من المغترين»[10]، وقال صلى

(1) المعجم الكبير، 17/ 269.
(2) صحيح ابن حبان، 14/ 101.
(3) سنن الترمذى، 5/ 554.
(4) إحياء علوم الدين، 3/ 182.
(5) سورة يوسف الآية 92.
(6) سنن البيهقى الكبرى، 9/ 118.
(7) حلية الأولياء، 6/ 187.
(8) سورة لقمان من الآية 33، وفاطر من الآية 5.
(9) سورة الحديد من الآية 14.
(10) حلية الأولياء، 1/ 211. بلفظ: قال أبو الدرداء: «يا حبذا نوم الأكياس، وإفطارهم كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامهم، ومثقال ذرة من بر صاحب تقوى ويقين أعظم، وأفضل، وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين».

الله عليه وآله وسلم: «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»[1]، فكل ما ورد فى فضل العلم، وذم الجهل فهو بعينه دال على ذم الغرور والاغترار؛ لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل؛ لأن الجهل هو اعتقاد الشىء على خلاف ما هو عليه، فإذن كل غرور جهل، وليس كل جهل غرور، فالجهل أعم لا محالة كما ترى.

وأعظم أنواع الغرور غرور الكفار الجاحدين، فإنهم أوردوا تزويرًا وشبهة على أنفسهم، قالوا: الدنيا يقين، والآخرة شكّ، واليقين خير من الشك، أما قولهم: الآخرة شكّ؛ فهو خطأ بالبرهان العقلى، وهو أن الأعمال لا بدّ لها من جزاء دائم لا آخر له غير منقطع، وهذا لا يكون إلا فى الدار الآخرة التى لا انقطاع لنعيمها، ولا زوال لأجرها وثوابها، وأما البرهان الشرعى؛ فهو ما ورد على ألسنة الأنبياء- صلوات الله عليهم- من القطع بأمور الآخرة، وهو معلوم من دين الأنبياء عليهم السلام، وجاء به القرآن الكريم، فقد بطل بما ذكرناه، قولهم: إن الآخرة شكّ، فإنها من المقطوعات المعلومة علمًا ويقينًا.

وأما قولهم: إن اليقين خير من الشكّ، فهذا صحيح إذا استويا، وبيان ذلك أن التاجر على يقين من التعب، وهو على شكّ من الربح، والمنفعة فى اجتهاده على يقين، وهو فى طلب المقصود على شكّ، وكذلك فإن الحزم هو دأب العقلاء بالاتفاق، فإنهم على يقين منه، ومن المخوف على شك، وكذلك المريض هو على يقين من ألم الدواء وشربه، وهو من الشفاء على شكّ، وهكذا حال طالب العلم فإنه على يقين من التعب فى طلبه، وهو على شكّ فى إدراكه، ولهذا قال أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- لبعض الملاحدة المنكرين للمعاد الأخروى: إن كنت صادقًا فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كنت كاذبًا فقد تخلصنا وهلكت[2]، فحصل من هذا بطلان هذه المقالة وتزييفها.

المقام الرابع: فى بيان أصناف المغرورين الذين ظواهرهم جميلة وسرائرهم مدخولة

فأما الكفار والفساق فقد ظهر هلاكهم وغرورهم، فلا مقال فى هلاكهم، وبعدهم عن الله تعالى، ولكن الشأن فى غيرهم من[3] يظهر الأعمال الحسنة، ويبطن الأعمال السيئة، وهم أصناف:

الصنف الأول: علماء السوء الذين اتخذوا العلم ذريعة إلى حطام الدنيا، وخالطوا أرباب الظلم، وسهلوا عليهم الحال فى ظلمهم.

الصنف الثانى: القضاة، وهم الذين توصلوا إلى الدنيا بفضل الخصومات من غير بصيرة، وحكموا بغير الحق فضلوا وأضلوا.

---

(1) سنن الترمذى، 4/ 638.
(2) إحياء علوم الدين، 3/ 381.
(3) فى(د) ممن.

الصنف الثالث: العبّاد من غير بصيرة، فربّما حكى عن بعضهم أنهم أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالنوافل، والفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، وربّما غلب عليهم الوسواس فى الوضوء، وفى نيّة الصلاة، إلى غير ذلك من البدع والضلالات.

الصنف الرابع: المتصوفة، وهم الذين استحكم عليهم الغرور فى هذا الزمان خاصة، فمنهم من طوى بساط التكليف، ورفضوا الفصل بين الحلال والحرام، واعتمدوا على الإباحة، ومنهم من زعم أن الناس ما أمروا إلا بالتطهير عن الشهوات، وعن حبّ الدنيا[1]، ولبسوا المرقعات، وحطوا عن أنفسهم أعمال الجوارح كلّها، وفيهم فرق كثيرة مشغلون بالجهالات، وركوب الحماقة فى اللبس والهيئة، يزعمون بذلك التشبه بالجنيد[2]، والشبلى[3]، وأبى يزيد البسطامى[4]، ومعروف الكرخى[5]، وغيرهم من السالكين لطريق الآخرة، وهيهات ثم هيهات لا تقاس الملائكة بالحدادين بجال.

الصنف الخامس: أرباب الأموال، وفيهم من يشغل[6] نفسه بعمارة المساجد للرياء، والمباهاة، وعمارة الرباطات، والقناطر، والخانكات[7]، ولا غرض لهم إلا الذكر والثناء، ومنهم من يتعمد الإنفاق على من ينشر الذكر، ويفشى المعروف، ويكرهون التصدّق فى السرّ، ومنهم من يبخل بالمال، ويشتغل بالصلاة والعبادة، وكان إنفاقه خيرٌ[8] من احتكاره على أهله، وبذله على من يستحقه، فهذه جملة فيمن اغترّ بما ذكرناه، والسالم من هذه المهالك والناجى منها من سلك منهاج التقوى، وسأل الله توفيقًا فيبعده[9] عن هذه الأخطار، والاغترار بهذه المساوئ، ولهذا أُورد[10] عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»[11]، فنعوذ بالله

---

(1) فى (د) عن لبس الديباج.

(2) وهو الجنيد بن محمد الجنيد الخزاز القواريرى، الزاهد المتصوف، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق، فريد عصره، وشيخ وقته، توفى سنة 297هـ، وقيل: 298هـ، ببغداد. ينظر: وفيات الأعيان، 1/ 373، 374.

(3) أبو بكر الشبلى،وهو دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، أصله من خراسان، وهو بغدادى المولد، والمنشأ، كان صوفيًا جليل القدر مالكى المذهب، صحب الجنيد، توفى سنة 334هـ ببغداد. ينظر: نفسه، 2/ 273- 276.

(4) وهو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على البسطامى، الزاهد المشهور، كان جَدّه مجوسيًا ثم أسلم، توفى سنة 261هـ، وقيل: 264هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 2/ 531.

(5) وهو معروف بن فيروز الكرخى، أبو محفوظ، وقيل: الفيروزان، أحد أعلام الزهاد المتصوفين، من موالى على بن موسى الرضا، وأسلم على يديه، ولد فى كرخ بغداد، ونشأ ببغداد، وتوفى سنة 200هـ، وقيل: 201هـ، وقيل: 204هـ، ببغداد. ينظر: نفسه، 5/ 231- 233.

(6) فى (ك) شغل.

(7) الخانكات: مدارس لطلب العلم. ينظر: تفسير القرطبى، 12/ 221.

(8) خير هنا خبر لكان لذا تكتب: خيرًا.

(9) فى (د،ك) سقط: الفاء.

(10) فى (د،ك) ورد.

(11) لم يقف الباحث فيما بين يديه من المصادر والمراجع على أصل لهذا الحديث.

من زيغ القلوب بعد الهدى، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء، ونسأله خاتمة الخير، فإن الأعمال بخواتيمها .

الحديث السابع عشر

عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ– صلى الله عليه وآله وسلم–: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تُؤْتَى كُلَّ يَوْمٍ بِرِزْقِكَ وَأَنْتَ تَحْزَنُ، وَيَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عُمُرِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ، أَنْتَ فِيمَا يَكْفِيكَ تَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ، لاَ بِقَلِيلٍ تَقْنَعُ، وَلاَ مِنْ كَثِيرٍ تَشْبَعُ»**[1].

فنقول: الحمد لله الكبير الذى تتحيّر دون إدراكه القلوب والخواطر، وتدهش فى مبادئ إشراق أنواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغنى فى تدبير ملكه عن المشير والمؤازر، الذى خلق بقدرته الخلق، ووسّع عليهم بفضله أنواع الرزق، وأفاض على العالمين أنواع الأرزاق، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال فى حالتى الإقتار والإنفاق، وردّدهم فيها بين العسر واليسر، والغنى والفقر، والطمع واليأس، والثروة والإفلاس، والعجز والاستطاعة، والحرص والقناعة، والبخل والجود، والفرح بالموجود، والأسف على المفقود، والاختصاص والإيثار، والتوسيع فى حالتى الإيسار والإعسار، وطورى الإقبال والإدبار، والتبذير والتقتير، والرضا باليسير، واستحقار الكثير، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وهو الرحيم القدير، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلاً، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً، واتخذ الدنيا ذخيرة لأعماله، وجعل الآخرة وسيلة إلى ثواب الله، وجزيل عطائه، ونواله.

والصلاة على الجامع لشمل الدين، والخاتم لشرائع المسلمين، القاطع لدابر الملحدين، والماحى لآثار المردة المعتدين، وعلى آله الطيبين المتكفلين للدين الحنيف بالإيضاح والتبيين، واعلم أن هذا الحديث مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة نوضحها بمعونة الله تعالى.

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 28.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه بحثان:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

الابن: مقول على كل من ولده آدم، **وآدم:** هو أبو البشر، وعن ابن عباس- رضى الله عنه- أنه إنّما سُمى آدم؛ لأنّ الله تعالى خلقه من أديم الأرض[1]، وكان قبل نزوله إلى الأرض، وإهباطه إليها تعبده الجن والشياطين والملائكة، وقيل: إنَّ جسمه كان يميل إلى الأدمة، وهى الخضرة، وهى الغالبة فى أولاده، وفى صفة عيسى- عليه السلام- أنه كان آدم طويلاً كأنه من رجال شنوءة[2]، وقد خاطب الله الخلق بخطابين عامين، فتارة بقوله: يا أيها الناس، وتارة بقوله: يا بنى آدم، والخطاب الخاص بقوله: أيها المؤمنون، ويا أيها الذين آمنوا، فأما **الابن:** فهو كل مولود على الفراش، وكان النكاح فى زمن الجاهلية قبل الإسلام على ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن المرأة إذا طهرت من الحيض، ودخل عليها الرجال، فحملت من وطئهم فإنهم يجمعون لها عند الولادة، فتلحق الولد بواحد منهم ويستلحقه، ويكون ولدًا له، ولا يمتنع من ذلك الإلحاق.

الحالة الثانية: أن الرجال يدخلون عليها بعد طهرها من حيضها، فإذا حملت جمعوا لها فتنظر أيهم أشبه بالمولود، فإذا قالت: هذا أشبه بك يا فلان فيكون ولدًا لك، فحينئذ يكون ولدًا له .

الحالة الثالثة: أنها إذا ولدت ولدًا بعد دخول الرجال عليها، ولم تلحقه بأحد منهم فعند هذا تحضر القافة: وهم قوم من بنى مدلج فيلحقونه بمن رأوه أقرب شبهًا به، فيلحق به من غير مناكرة منه فى ذلك، فهكذا[3] كان حال الأنكحة فى الجاهلية، حتى جاء الله بالإسلام، وكرمنا بهذه الشريعة المطهرة على هذه الصفة، كما قال عليه السلام: «خُلقت من نكاح لا من سفاح»[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كل نكاح لا يحضره خمسة فهو باطل: الشاهدان، والزوجان، والولى»[5]، ثم المولد من غير رشده غير لاحق بالواطئ شرعًا، سواء كان ذكرًا أو أنثى؛ لأنه وإن خلق من مَائه فليس مولودًا على فراشه، وقد قال عليه السلام: «الولد

---

(1) المستدرك على الصحيحين، 2/ 412.

(2) ورد أنها صفة موسى. ينظر: صحيح البخارى، 3/ 1182.

(3) فى (د) فهذا.

(4) مصنف عبد الرزاق، 7/ 303. بلفظ: «أخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح».

(5) لم يقف الباحث فيما بين يديه من المصادر والمراجع على أصل لهذا الحديث.

للفرش وللعاهر الحجر»[1]، فإن كانت أنثى، فهل يجوز للواطئ نكاحها أم لا ؟

فيه تردد بين العلماء؛ لأنها مخلوقة من مائه، ولا يلحق نسبها به؛ والمختار أنه جائز، ولكن يكره، وزعمت الملاحدة من الباطنية أن آدم– عليه السلام– هو أول الأدوار الجسمانية، وأن دوره قد انتهى إلى نوح– عليه السلام–، ونوح انتهى دوره إلى إبراهيم، إلى أن تنتهى الأدوار سبعة إلى هذيانات زخرفوها، وركاكات قد نمّقوها، يستدرجون بها العوام، ويستنزلون بها الخلق، وقد أنهينا عليهم الردّ نهايته فى كتاب (**المشكاة**)[2]، وفى كتاب (**الإفحام**)[3]، وهم أدخل الفرق مكيدة على الإسلام، وأخفاهم غدرًا ومكرًا، وهم ملاحدة الاعتقادات، وقد تضمخوا برذائل الفلسفة، ولم يدركوها على دقتها وفسادها، ولكن تعلقوا منها بجبالات باطلة، وخيالات كاذبة، فالله لهم بالمرصاد فيما كادوا به الدين، وهدموا به قواعد الإسلام، وهذا عارض فى الكلام.

قوله: «**تؤتى كل يوم**» يوصل إليك الرزق ما كان منتفعًا به، والأغلب فى إطلاقه على ما يكون قوامًا للأجسام، وممسكًا للأرواح من جميع الحيوانات كلها، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾[4].

الحُزن: هو تألم القلب بالأسف على ما فات، **والنقصان:** نقيض الزيادة، **والعمر:** مدّة حياة الإنسان، **والفرح:** نقيض الغمّ، **والكفاية:** هى مساواة المنفعة لقدر الحاجة، **والكفّ:** هو الدفع، فكأن الكفاية هى الدافعة لمضرة الحاجة، **والطلب:** هو البحث عن الشىء بتعب وعناية؛ لأن الإنسان لا يطلب الموجود؛ لأن تحصيل الحاصل محال، وإنما يطلق على ما يكون فى تحصيله بعض تكلف، ولهذا فإنه لا يقال لما بين يديك طلبته، **والطغيان:** هو مجاوزة الحدّ، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ** ﴾[5]؛ لأن الماء فى تلك الحالة زاد على الحدّ، وتجاوز الغاية، فقد قيل: إن طغيانه أنه زاد على رؤوس الجبال الشامخة خمسة عشر ذراعًا[6]، وقيل: إنه كاد أن يناطح الكواكب من علوه وارتفاعه، وهو اللائق بشدّة الغضب والأسف، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[7]. **القليل:** نقيض الكثير، **والقناعة:** نقيض الضراعة، كالزهادة والدراية بالتاء فى استعماله، **والشبع:** نقيض الجوع.

---

(1) صحيح البخارى، 6/ 2499.

(2) وهو مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار، حققه د. محمد السيد الجليندى، منشورات دار الفكر الحديث، عام1969م، القاهرة، مصر.

(3) وهو الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، حققه فيصل بدير عون، راجعه د. على سامى النشار، منشأة المعارف، عام1971م، الإسكندرية، مصر.

(4) سورة هود من الآية 6.

(5) سورة الحاقة الآية 11.

(6) ينظر: تفسير الطبرى، 23/ 577.

(7) سورة الزخرف الآية 55.

البحث الثانى: فى بيان ما يشتمل[1] عليه من العلوم الإعرابية

فقوله: «**يا ابن آدم**» فنصب «**ابن**» على النداء فى المضاف، وهو من جملة المفاعيل المنصوبة بالفعل اللازم إضماره، و«**آدم**» فى موضع جر بالإضافة لكنه غير منصرف؛ للعلمية والوزن إذا قلنا إنه[2] مشتق كما ذكرناه من الأدمة، فأما إذا قلنا بأنه غير مشتق فيحتمل أن يكون أعجميًا، فلا يكون منصرفًا لأسباب ثلاثة: العلمية والعجمة والزنة.

«**تؤتى**» فعل ما لم يسم فاعله، وفاعله مضمر يفسره «**ابن آدم**»، وهو فعل مضارع مرفوع على المضارعة، و(لامه) (ياء) قلبت (ألفًا)؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها. «**كل يوم**» منصوب على الظرفية، و«**يوم**» مجرور بإضافة «**كل**» إليه، و«**كل**» هذه مما لا يستعمل إلا مضافًا إلى ما بعده، فإن قطع عن الإضافة فى بعض مواقعه عوض عن مضافه التنوين، واستعماله مضافًا ومقطوعًا عن الإضافة بعوض التنوين وارد فى فصيح الكلام، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ** ﴾[3]،﴿ **وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ** ﴾[4]. «**برزقك**» جار ومجرور فى موضع المفعول، كقولك: مررت بزيد، ولا يحتمل الحال، ولا يحتمل الآلة. «**وأنت تحزن**» جملة ابتدائية فى موضع الحال من الضمير فى «**تؤتى**»، و«**الواو**» سادة مسد الضمير العائد إلى ذى الحال، وهو جملة **كبرى وصغرى**، **فالكبرى**: هى مجموع المبتدأ والخبر؛ لأن مجموع الخبرين من المبتدأ والخبر هى الجملة الكبرى؛ لاشتمالها على الاسمية والفعلية،

والجملة الصغرى: هى الجملة الخبرية؛ لأنه جملة فعلية لا غير، وقد اجتمع فى العائد إلى ذى الحال رابطان: **أحدهما**: الواو، **والثانى**: الضمير فى «**تحزن**»، لكنهما لا يجتمعان فى الفصيح من الكلام، وأحدهما مغنٍ عن الآخر، لكن الذى حسن منه هاهنا أن الضمير كما يعود على ذى الحال فهو عائد على المبتدأ من خبره، «**وينقص**» «**الواو**» للعطف على «**تؤتى**»، وهو فعل ما لم يسم فاعله، وهو فعل مضارع مرفوع على المضارعة، و«**فيه**» ضمير قائم مقام الفاعل المحذوف منه. «**كل يوم**» منصوب على الظرفية ، وجر «**يوم**» بالإضافة. «**من عمرك**» جار ومجرور، و«**من**» لابتداء الغاية، ويحتمل أن تكون دالة على التبعيض. «**وأنت تفرح**» جملة ابتدائية فى موضع الحال من الضمير فى «**ينقص**»، وقد اجتمع فيها الضمير و«**الواو**» كما قررناه فى الجملة الأولى. «**أنت**» مبتدأ من ضمائر[5] الخطاب. «**فيما يكفيك**» جار ومجرور فى موضع الخبر، «**ما**» فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون موصولة، وهو الظاهر من حالها، والعائد الضمير المرفوع فى «**يكفيك**»، **وثانيهما**: أن تكون مصدرية،

---

(1) فى (د) اشتمل.
(2) فى (د،ك،م) بكونه.
(3) سورة يس من الآية 32.
(4) سورة هود من الآية 111.
(5) فى (د،م) دلائل.

أىْ: فى **كفايتك**، ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة، أىْ: فى شىء هو كافٍ لك، و«**الكاف**» فى موضع المفعول منصوبة[1] على الحال من الضمير فى«**يكفيك**» . «**ما**» فيها الأوجه الثلاثة التى ذكرناها .

«**فيما يكفيك**»، و«**يطغيك**» جملة فعلية. «**لا**» نافية. «**بقليل**» جار ومجرور متعلق بالفعل الواقع بعده، و«**تقنع**» جملة فعلية مضارعة. «**ولا من كثير**» «**لا**» هاهنا نافية . «**من كثير**» جار ومجرور يتعلق بما بعده من الفعل، و«**الباء**» هاهنا للإلصاق فى قوله: «**لا بقليل**»، فهذا ما أردنا ذكره فيما يتعلق به من الأمور الإعرابية والمقاصد النحوية.

النظر الثانى: فى بيان ما تضمنه من علوم البلاغة

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

وقد تضمن تنبيهات نوضحها بمعونة الله.

التنبيه الأول: تصدير الكلام بالنداء، فى قوله: «**يا ابن آدم**»، وإنّما صدّر؛ لما فيه من الإيقاظ للأسماع، وأتى بـ «**يا**» التى للبعيد؛ لما هم عليه من الغفلة عمّا يراد بهم، فنزلوا منزلة البعيد لذلك.

التنبيه الثانى: الشمول فى كل ما تضمنه، قوله: **كل يوم فى زيادة الرزق ونقصان العمر**، فإن الشمول معنى مقصود؛ لاندراج المفردات تحته، واشتماله عليها، فلا يخرج عنها شىء إلا بدليل واضح، وهو وارد فى كلام الله تعالى، وفى كلام الفصحاء، كما قال تعالى: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾[2]، و﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[3] .

التنبيه الثالث: الجمل الحالية، فى نحو قوله: «**وأنت تحزن**» بـ «**الواو**»، فإنه يكسب الكلام ديباجة، ويعطيه فى المذاق حلاوة، كأنه قال: تؤتى برزقك فى حال حزنك، وينقص من عمرك فى حال فرحك، وهى واردة فى كتاب الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِ ﴾[4] على من قرأها بتخفيف النون، ونحو قوله تعالى: ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[5]، وهو كثير.

---

(1) فى (د،م) زيادة: و«يطلب ما يطغيك» جملة معطوفة على ما قبلها من الأفعال، ويحتمل أن تكون منصوبة.
(2) سورة الإسراء من الآية 20.
(3) سورة النور من الآية 41.
(4) سورة يونس من الآية 89.
(5) سورة آل عمران من الآية 102.

التنبيه الرابع: الإبهام، فى قوله: «**ما يكفيك**»، و«**ما يطغيك**»، فإن الإبهام له موقع بالغ فى الكلام، ويزيده رونقًا وطلاوة، ويكسبه فخامة، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ** ﴾[1]، وإنما أبهمه للدلالة على التحقير، أوعلى التفخيم لشأنه، فإن حملناه على التحقير[2]، فكأنه قال: ألقِ العويد الصغير الذى بيدك يفعل بقدرة الله تعالى ما تراه من إبطال ما جاؤوا به من السحّر العظيم، وإن حملناه على التفخيم، فكأنه قال: وألقِ هذا الأمر الهائل الذى بيدك الذى قد صار آية ومعجزة لك، كسائر معجزاتك الباهرة، ودلائلك الظاهرة.

التنبيه الخامس: التقديم والتأخير، فإنهما من مهمات علوم المعانى، وإنما حسن ذلك لأغراض جمّة، ومقاصد عظيمة، ومثاله: تقديم الجار والمجرور فى قوله: «**لا بقليل**»، وقوله: «**ولا بكثير**»، فقدم على العامل فيه، وكان من حقه التأخير؛ لكونه بمنزلة المفعول، وإنما قدمه لأجل الاهتمام بحاله كما قدم المفعول الصريح على عامله فى قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[3]، فهذه العلوم كلّها مختصّة بعلوم المعانى، ومتعلقة به، فانظر إلى هذا الحديث مع تقارب أطرافه، وقصر حجمه، وقلّة ألفاظه كيف اشتمل على هذه الأسرار البديعة، والمعانى المعجبة، وما هذا حاله فليس بدعًا من كلامه؛ لأن الله تعالى قد خصّه بما لم يخصّ غيره من فصاحة المنطق وذلاقة اللسان كما ترى.

المطلب الثالث: فى بيان ما تضمنه من علوم البديع[4]

وقد اشتمل على أساليب نقررها:

الأسلوب الأول: التسجيع، وهذا حاصل فى قوله: «**يطغيك**»، و«**يكفيك**» وقوله: «**تقنع**»، و«**تشبع**»؛ والغرض بالسجع تحريك الخواطر، إلى قوله[5]، وإصغاء الآذان إلى سماعه، فإن الكلام مهما كان مزدوج الإعجاز متشابهة أواخر الكلم منه، فإنه يقع موقعًا عظيمًا فى القلوب، وتتلقاه الأفئدة بالقبول.

الأسلوب الثانى: التجنيس، وهذا كقوله «**كلُّ يوم**»، و«**كل يوم**»، وقوله: «**أنت**»، و«**أنت**» وهكذا فى قوله: «**فيما يكفيك**»، و«**ما يطغيك**»، فإن ما هذا حاله معدود فى الجناس، ومعناه: استواء الكلمتين، وأكثر ما يرد فى الألفاظ المشتركة،

---

(1) سورة طه من الآية 69.

(2) فى (د) التصغير.

(3) سورة الفاتحة الآية 5.

(4) فى (د،م) البيان. ﴿والسليم البديع، كما هو ظاهر فى شرح هذا المطلب، وقد سقط من الأربع النسخ المطلب الثانى المختص بعلم البيان، وما يؤكد أنه سقط عند النَسخ وليس متروكًا من قبل المؤلف؛ أنه ذكر المطلب الأول المختص بعلم المعانى، والمطلب الثالث المختص بعلم البديع، ولو تركه المؤلف لخصّ علم البديع بالقول أنه المطلب الثانى، فضلاً عن قوله أن فى علوم البلاغة ثلاثة مطالب تخصّ هذا الحديث﴾.

(5) فى (د) قبوله.

كقولهم: ما ملأ الراحة من استوطن الراحة، وهو من الجناس الكامل.

الأسلوب الثالث: الطباق، وهذا نحو قوله: «**قليل**»، و«**كثير**» فإنه طباق لفظى ومعنوى، فأما قوله: «**يكفيك**»، و«**يطغيك**»، فإنه معدود فى الطباق المعنوى؛ لأن الغرض بقوله: «**يطغيك**» أىْ: لا يكفيك، وهكذا قوله: «**تحزن**»، و«**تفرح**»، فإنهما طباق لا محالة، والغرض من الطباق: هو تقابل النقيضين من جهة اللفظ والمعنى، أو من جهة أحدهما، فهذه الأساليب كلها دالة على البلاغة الرائقة واللطائف البديعة.

الأسلوب الرابع: فى الفصاحة اللفظية، فإنك إذا فكّرت فى مفردات هذا الحديث وجدت ألفاظه فصيحة ليس فيها شىء من التعقيد، ولا من الحروف الثقيلة، وإذا فكّرت فى تأليف كلمات الحديث وجدتها قد ألفت على أعجب تأليف، وأحسن ترتيب، وسيقت أحسن سياق.

الأسلوب الخامس: فى البلاغة المعنوية، فإنك إذا نظرت فى إفادته لما أفاده من المعانى الوعظية، والحكم النافعة المرشدة إلى آداب الدين والدنيا، والنافعة لأهلها فى الآخرة والأولى.

النظر الثالث:فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم التى ضمنها إياه

وقد اشتمل على حكم نذكرها:

الحكمة الأولى: بيان حال الرزق

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن**» أراد صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى هو الذى يرزق ابن آدم ورزقه لا ينقطع عنه، وإن أحدًا لا يقدر أن يحجر عنه شعيرة من رزقه قد قدّرها الله له، ولا يوصل إليه شعيرة لم يقدّرها له، فهو إذا كان من الموقنين[1]، وعقل ما ذكرناه وفهمه، ثم إنه سبحانه أخبر عنه بأنه من شؤم الرأى، وضعف الحظّ فى غاية الحزن والأسف على ما لم يقسمه الله تعالى، ولا يقدره له من مال، أو ولد، فأساس الرزق كلّه المال، فلنذكر آفات المال، وفوائده، ثم نردفه بذكر الإيثار، والوظائف التى على الإنسان فى ماله، فهذه مقامات أربعة، هى وافية بهذه الحكمة التى أشار إليها صاحب الشريعة صلوات الله عليه.

المقام الأول: فى بيان فوائد المال

---

(1) فى (ك،م) الموفقين.

وهى منقسمة إلى: دينية، ودنيوية، فأما الدنيوية، فلا حاجة بنا إلى ذكرها، فإن معرفتها ظاهرة بين الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا إلى طلبها، وأما الدينية، فهى المقصودة النافعة، وجملة ما نذكره من ذلك فوائد ثلاث:

الفائدة الأولى: أن ينفقه على نفسه، إما فى عبادة، أو فى الاستعانة على العبادة؛ أما العبادة، فهذا كالاستعانة على الجهاد، والحجّ، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات، والفقير محروم من فضلهما، وأما فيما يقويه على العبادة، وذلك هو المطعم والملبس والمسكن، والنكاح، وغير ذلك من ضرورات المعيشة، فإن هذه الأمور لا بد منها، وهى إذا لم تكن متيسرة كان القلب مشغولاً بتحصيلها وتدبير أحوالها، فلا يتفرغ للعبادة، ولا للنظر فى أمور دينه.

الفائدة الثانية: ما يصرفه إلى الناس، وذلك يكون على أربعة أوجه:

أولها: الصدقة، فلا يخفى فضلها وثوابها، وإنها لتطفئ غضب الرّبّ، وتقى ميتة السوء، وفضائلها ظاهرة.

وثانيها: المروءة، ونعنى بذلك صرف المال فى الضيافات والهدايا والإعانات، وغير ذلك، وما يجرى مجرى ذلك من محامد الشيم وشرف الخصال، فإن هذا لا يسمى صدقة؛ لأن الصدقة ما كان على الفقراء، وسائر المحتاجين، وهذا من اصطناعات المعروف، وهو ما يعظم به الثواب والأجر عند الله.

وثالثها: وقاية العرض، ونعنى به بذل المال لدفع[1] هجو الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، ودفع شرورهم، ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كل مداراة صدقة»[2]، وفى حديث آخر: «ما وقى المرء عرضه، فهو له صدقة»[3].

ورابعها: الاستخدام، فإن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقات عباداته، وتعذّر عليه سلوك طريق الآخرة، فبذل المال لما ذكرناه يكون من المقاصد الدينية أيضاً.

الفائدة الثالثة: ما يصرف فى القربات العامة، نحو بناء المساجد والخانكات، وتكفين الموتى، وإصلاح الطرقات، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة بالخيرات، وهى من الأمور المؤبدة بعد الموت المستجلبة بركة دعاء الصالحين إلى أوقات متمادية، وناهيك بما هذا حاله خير فى الآخرة، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع سائر عمله إلا ثلاثة: ولد صالح يدعو له، وعلم ينتفع به، وصدقة تجرى»[4]، فهذه جملة فوائد المال الدينية التى يقصد بها وجه الله تعالى.

المقام الثانى: فى ذكر آفات المال

---

(1) فى (د) ليدفع.

(2) المعجم الأوسط، 1/ 146. بلفظ: «مداراة الناس صدقة».

(3) المستدرك على الصحيحين، 2/ 57. بلفظ: «ما وقى به المرء عرضه كتب له صدقة».

(4) صحيح مسلم، 3/ 1255.

وهى منقسمة إلى: دينية، ودنيوية، فأما الدنيوية، فلا حاجة إلى ذكرها، وأما الدينية، فهى ثلاث:

الآفة الأولى: تحريك النفوس إلى المعاصى، فإن الشهوات متقاضية فى كل وقت وحين، ولكن العجز مانع عن المعصية، ومن العصمة أن لا يكون قادرًا، فإذا كان الإنسان آيسًا بالعجز عن بلوغ المعصية لم يتحرك داعيه إليها، فإذا كان مستشعرًا للقدرة انبعثت الداعية، وتحركت الخواطر، والمال نوع من القدرة يحرك دواعى الفجور، وارتكاب المناهى، فإذا اقتحم ما اشتهاه هلك، وإن صبر نفسه على الانكفاف نجا.

الآفة الثانية: أنه يجر إلى التنعم بالمباحات، وهذا أقلّ الدرجات، فمتى لم يقدر صاحب المال على تناول خبز الشعير، ولبس الثوب الخشن، وترك لذائذ الأطعمة والأشربة، كما كان سليمان بن داود– عليه السلام– فى ملكه فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا فيصير النعيم مألوفًا محبوبًا لا يصبر عنه، ويجرّه البعض منه إلى البعض، وإذا اشتدّ أنسه به، فربّما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقتحم الشبهات، ويخوض فى المداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة؛ لينتظم له أمر دنياه، ويسهل عليه تنعمه، ويعرض له فى ذلك الحسد والحقد والرياء والكبر والغيبة والنميمة وسائر المعاصى، وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى زيادته وحفظه.

الآفة الثالثة: وهى التى لا ينفك عنها أحد ممن له مال، وهى أن يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله، وكل ما شغل العبد عن ذكر الله فهو خسران، وهذا هو الداء العضال، والذى يستولى على الأفاضل فضلاً عن الجهال، فإن أصل العبادات ومخها وسرّها ذكر الله تعالى، والفكر فى جلاله وعظمته، ويستدعى ذلك قلبًا فارغًا، وصاحب المال مشغول بحفظه، وتدبير زيادته، فهذه جملة الآفات التى تعرض فى الأموال سوى ما يقاسيه أرباب الأموال من الخوف والغمّ والهمّ والامتهان لقدره وحاله.

المقام الثالث: فى بيان الإيثار، وإظهار فضيلته

اعلم أن السخاء والبخل كل واحد منهما ينقسم إلى درجات، فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه، وإنما السخاء عبارة عن بذل المال الذى لا يحتاج إليه، وكما أن السخاء قد ينتهى إلى أن يسخو على غيره مع الاحتياج، فالبخل قد ينتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فانظر ما بين الرجلين، فإن هذه الأخلاق، أعنى السخاء والبخل والجود والكرم عطايا يضعها الله حيث شاء، وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة حيث قال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أيما رجل اشتهى شهوته، وآثر بها على نفسه غفر الله له»[2]، وقالت

(1) سورة الحشر من الآية 9.

(2) إحياء علوم الدين، 3/ 257.

عائشة- رضى الله عنها-: ما شبع رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكنّا كنّا نؤثر على أنفسنا[1]، ونزل برسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- ضيف، فلم يجد عند أهله شيئًا، فدخل عليه رجل من الأنصار، فذهب به إلى أهله فوضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمدّ يده إلى الطعام كأنه يأكل، وهو لا يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد عجب الله من صنيعكم إلى ضيفكم»[2]، ونزلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[3]، فالسخاء خلق من أخلاق الله- عزّ وجلّ- والإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك من دأب الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- حتى سماه الله عظيمًا، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4].

وقال سهل بن عبدالله[5]، قال موسى: يا ربّ أرنى بعض درجات محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة، فضلته بها عليك، وعلى جميع خلقى قال: فكشف له عن ملكوت السماء فنظر إلى منزلة كادت تعلق نفسه من أنوارها، وقربها من الله- عزّ وجلّ-، فقال:- يا ربّ- بماذا بلغت به هذه الكرامة؟ قال: خلق قد خصصته به من بينهم، وهو الإيثار- يا موسى- لا يأتينى أحد قد عمل به منهم وقتًا من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتى حيث يشاء[6].

وبات أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- على فراش رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل- عليهما السلام-، أنى قد آخيت بينكما فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختارا كلاهما الحياة وأحباها، فأوحى الله- عزّ وجلّ- إليهما، أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه وبين نبيى محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، أهبطا إلى الأرض فأحفظاه من عدوه، فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبريل- عليه السلام- ينادى: بخ بخ من مثلك يا ابن أبى طالب يباهى الله بك الملائكة[7]، وأنزل الله- عزّ وجلّ- فيه: ﴿ وَمِنَ

(1) شعب الإيمان، 5/ 25.
(2) مسند أبى يعلى، 11/ 30.
(3) سورة الحشر من الآية 9.
(4) سورة القلم الآية 4.
(5) وهو سهل بن عبد الله التسترى الصوفى، صالح مشهور، لم يكن له فى وقته نظير فى الورع، ولد سنة 200هـ، وقيل: 201هـ، سكن البصرة زمانًا، وعبادان مدة، توفى سنة 283هـ، وقيل: 273هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 16/ 11، 12.
(6) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 257، 258.
(7) نفسه، 3/ 258.

ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]، وقال حذيفة العدوى[2]: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لى ومعى شىء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلىّ أىْ: نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمى أن أنطلق به إليه، فجئته، فإذا هو هشام، فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه، فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات[3]، وقال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث[4] فإنه أتاه رجل فى مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه فأعطاه إياه واستعار ثوبًا فمات فيه[5]، فهذه الأخبار كلها دالة على حسن الإيثار وفضله.

المقام الرابع: فى بيان مجموع الوظائف التى على العباد فى أموالهم

اعلم أن المال خير من وجه، وشر من وجه، ثم إنه لا يخلو عن هذا الشر إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الوظيفة الأولى: أن تعرف المقصود بالمال، وأنه لأىّ شىء خلق المال، ولأىّ شىء تحتاج إليه، ولا تحفظ منه إلا قدر الحاجة، ولا تبذله لمن لا يستحقه، ولا تحجره عمّن يكون مستحقًّا له.

الوظيفة الثانية: أن يراعى فى المال جهاته التى يدخل منها، فيجتنب الحرام، والذى يكون الغالب عليه الحرام كمال السلاطين، وأهل الربا، وأهل المداخل الخبيثة، ويجتنب المداخل المكروهة القادحة فى المروءة، كالهدايا التى فيها شىء من الرشوة، والسؤالات التى فيها الذلّ، وهتك المروءة، وغير ذلك.

الوظيفة الثالثة: فى بيان المقدار الذى يكتسبه، فلا يستكثر منه، ولا يستقل، بل يحرز القدر الواجب ومعياره الحاجة، فلا بدّ من مسكن، وملبس، ومطعم، ولكل واحد من هذه درجات أعلى، وأدنى، ووسط، وما دام مائلاً إلى جانب القلّة، ومقربًا من حدّ الضرورة كان محقًّا، وقرنه بجملة المحقين، وإن جاوز وقع فى بحر عميق لا منتهى لقعره.

الوظيفة الرابعة: يراعى جهة الإخراج، ويقصد فى الإنفاق، غير مبذر، ولا مقتر، فيضع ما اكتسبه من حلّه فى حقّه وأهله،

---

(1) سورة البقرة الآية 207.

(2) وردت هذه القصة لأبى جهم بن حذيفة العدوى، وهو عامر بن حذيفة بن غانم القرشى العدوى، وقيل: اسمه عبيد، أسلم يوم الفتح، كان عالمًا بالنسب، وأحد من دفن عثمان– رضى الله عنه–، قيل: توفى فى آخر عهد معاوية. ينظر: شعب الإيمان، 3/ 260. الوافى بالوفيات، 16/ 329، 330.

(3) ينظر: شعب الإيمان، 3/ 260. إحياء علوم الدين، 3/ 258. وهشام، هو ابن العاص أخو عمرو.

(4) وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن، أبو نصر الحافى المروزى البغدادى، العالم المحدث الزاهد، ولد سنة 152هـ، وسكن بغداد، وتوفى سنة 227هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، 10/ 469– 476.

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 258.

ولا يضعه فى غير حقّه، فإن الإثم حاصل فى الأخذ من غير حقّه، والوضع فى غير أهله سواء.

الوظيفة الخامسة: أن يصلح نيته فى الأخذ والترك والإمساك، وأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك من هذا عفّة واستحقارًا له، فإذا فعل ذلك لم يضرّه وجود المال، ولهذا فإنه يروى عن أمير المؤمنين- كرم الله وجهه-: لو أن رجلاً أخذ جميع ما فى الأرض، وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع، ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد[1]. فاجتهد فى أن تكون حركاتك، وسكناتك مقصورة على العبادة، أو ما يكون إعانة على العبادة[2] تنج مع الناجين، وقد نجز غرضنا ممّا نريده من معنى قوله عليه السلام: «**تؤتى برزقك وأنت تحزن**».

الحكمة الثانية: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وينقص كل يوم من عمرك وأنت تفرح»

أراد عليه السلام أن العبد مهما عمر فهو نقصان من أجله بذهاب الليالى والأيام، وهو فارح بالبقاء؛ لأنه فى الحقيقة هدم لعمره وزوال لأيامه، فهذا من أعجب العجائب أنه ينقص بطول الحياة، وهو يفرح. وقد صدق من قال:

يَسُرُّ المَرْءَ مَا ذَهَبَ اللَيَالِي   وَكَانَ ذَهَابُهُنَّ لَهُ ذَهَابَا[3].

فحاصل هذه الحكمة بيان حال الأجل، وهدمه للعمر، فلنذكر فضل ذكر الموت، ثم نذكر بعده فضيلة قصر الأمل، ثم نردفه بذكر السبب فى طول الأمل، فهذه مقامات ثلاثة.

المقام الأول: فى بيان فضل ذكر الموت

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»[4] أراد أىْ نغصوا به اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتصلون إلى الله تعالى، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا»[5]، وقالت: عائشة- رضى الله عنها-:- يا رسول الله- هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة»[6]، وقيل: خمسًا وعشرين مرة، وإنما سبب هذه الفضيلة كلها هو أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور بتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت يدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «تحفة المؤمن

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 264.

(2) فى (د،م) سقط: أو ما يكون إعانة على العبادة

(3) البيت من الوافر، ولم ينسب لقائل معين. ينظر: شرح قطر الندى وبلّ الصدى، 56.

(4) سنن الترمذى، 4/ 639.

(5) شعب الإيمان، 7/ 353.

(6) إحياء علوم الدين، 4/ 450.

الموت»[1]، وإنما قال هذا؛ لأنّ الدنيا سجن المؤمن؛ إذ لا يزال فيها فى عناء، ومكابدة الشدائد، ومقاساة الأهوال فى رياضة نفسه، ومدافعة شهواته، فالموت إطلاقه منها، والإطلاق تحفته.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الموت كفارة لكل مسلم»[2]، وأراد بهذا الحديث: المسلم حقًا الذى يسلم المسلمون من يده ولسانه، ومرّ صلى الله عليه وآله وسلم بمجلس، وقد استعلى فيه الضحك، فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات»، فقالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: «الموت»[3]، وقال أنس بن مالك: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «كفى بالموت واعظًا»[4].

وخرج رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- إلى المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فقال: «اذكروا الموت، فوالذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا»[5]، وذُكر عند رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف كان ذكر صاحبكم للموت»؟ فقالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، فقال: «إن صاحبكم ليس هنالك»[6]، وقال ابن عمر: أتيت النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس، وأكرم الناس- يا رسول الله-؟ فقال: «أكثركم ذكرا للموت، وأشدهم استعدادًا له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة»[7]، وعن الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لأحد فرحًا[8]، وقال الربيع: ما غائب ينتظر المؤمن خير له من الموت[9]، وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه فقال: يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار يتمنى فيها الموت لا يجده[10].

وكان ابن سيرين[11]إذا ذُكر الموت عنده مات كل عضو منه[1]، وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون

---

(1) مسند الشهاب، 1/ 120.
(2) شعب الإيمان، 7/ 171.
(3) إحياء علوم الدين، 4/ 450.
(4) شعب الإيمان، 7/ 353.
(5) مسند أحمد، 2/ 312. دون ذكر: «اذكروا الموت». وفى (د) سقط: «فو الذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا»، وذُكر عند رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف كان ذكر صاحبكم للموت»؟
(6) مصنف ابن أبى شيبة، 7/ 78. مع اختلاف: «فقال: ما هو كما تذكرون».
(7) المعجم الصغير، 2/ 189.
(8) ينظر: حلية الأولياء، 2/ 149.
(9) ينظر: مصنف ابن أبى شيبة، 7/ 145.
(10) إحياء علوم الدين، 4/ 451.
(11) وهو أبو بكر محمد بن سيرين البصرى، الأنصارى بالولاء، أحد الفقهاء بالبصرة، وتابعى من أشراف الكتاب، ولد بالبصرة لسنتين بقيتا من خلافة عثمان- رضى الله عنه-، وتوفى بالبصرة سنة 110هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 181، 182.

الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة، وقال كعب: من ذكر الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها[2] .

المقام الثانى: فى بيان فضل قصر الأمل

قال صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عمر– رضى الله عنه–: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، وأعدد نفسك فى الموتى، فإنك لا تدرى ما اسمك غدًا»[3]، وعن أمير المؤمنين– كرم الله وجهه– عن الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: «إن أشدّ ما أخاف عليكم خصلتين اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى، فإنه ليعدل عن الحق، وأما طول الأمل، فإنه الحبّ للدنيا، ألا وإن الله يعطى الدنيا من يحب ويبغض، ولا يعطى الآخرة إلا من يحب، وإذا أحبّ الله عبدًا أعطاه الإيمان، ألا وإن للدنيا أبناء، وللدين أبناء، فكونوا من أبناء الدين، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا إن الآخرة قد تجملت مقبلة، ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب، وإنكم يوشك أن تكونوا فى يوم حساب ليس فيه عمل»[4] .

ورُوى أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودًا بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «هل تدرون ما هذا»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم! قال:«هذا الإنسان، وهذا الأجل، وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم، ويختلجه الأجل دون الأمل»[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يكبر ابن آدم ويشب معه اثنان: الحرص وطول الأمل»[6] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل وطول الأمل»[7]، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى دعائه: «اللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل»[8]، وقال بعض الزهاد: لو أمّلت أن أعيش شهرًا لرأيتنى قد أتيت أمرًا[9] عظيمًا، وكيف أؤمل

---

(1) إحياء علوم الدين، 4/ 451.
(2) نفسه.
(3) المعجم الكبير، 12/ 417.
(4) قصر الأمل لابن أبى الدنيا، 26، 27.
(5) مسند أحمد، 3/ 17.
(6) صحيح البخارى، 5/ 2360. بلفظ: «يكبر ابن آدم، ويكبر معه اثنان: حب المال، وطول العمر».
(7) قصر الأمل لابن أبى الدنيا، 36.
(8) نفسه، 48.
(9) فى (د،ك) سقط: أمرًا.

ذلك، وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل وساعات النهار[1]، وقيل للحسن البصرى:- يا أبا سعيد- ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك[2].

وقال عمر بن عبدالعزيز فى خطبة خطبها: إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمل فتقسوا قلوبكم، وكتب رجل إلى أخٍ له، فقال: أما بعد، فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن فى أضغاث أحلام، والسلام[3]، وكتب رجل إلى أخيه فقال له: إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص منه فى كل يوم نصيب، وللبلاء فى جسمه دبيب، فبادروا قبل أن ينادى بالرحيل، والسلام[4]، وهذا القدر كافٍ.

المقام الثالث: فى بيان سبب طول الأمل

اعلم أن طول الأمل له سببان:

السبب الأول منهما: حبّ الدنيا

فالرجل إذا أنس بالدنيا وشهواتها ولذاتها[5] تشبث بعلائقها، ثقل عليه مفارقتها فامتنع قلبه عن الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، فإن كل من كره الموت دفعه عن نفسه بالأمل، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا، فلا يزال يتوهمه، ويقدره فى نفسه، ويقدر توابع البقاء، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه.

السبب الثانى: الجهل

وهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر أن الموت حادث فى كل ساعة، ومتوقع حصوله فى كل وقت، ولو تفكّر العاقل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص لا فى شتاء، ولا فى صيف، ولا فى ربيع، ولا فى خريف ولا ليل ولا نهار ولا شباب ولا كهولة، ولكن الجهل بهذه الأمور دعاه إلى طول الأمل، وإلى الغفلة عن تقرير الموت القريب، فيطول عند ذلك حزنه، وأكثر أهل النار صياحهم من سوف، يقولون: واحزناه من سوف، والمسوف المسكين ينقطع تسويفه، فهذا أبدًا يظن أن

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 454.
(2) حلية الأولياء، 6/ 270.
(3) إحياء علوم الدين، 4/ 455.
(4) إحياء علوم الدين، 4/ 455.
(5) فى (د،م) سقط: لذاتها.

الموت يكون بين يديه، ولا يقدر نزوله به، ووقوعه فيه، وهو أبدًا يظن أنه مشيع للجنازة[1]، ولا يقدر أن يشيع جنازته؛ لأن هذا قد تكرر عليه ألفه، وهو مشاهد موت غيره، وأما موته نفسه فلم يألفه، ولا يتصور أن يألفه، فإنه لم يقع، وإذا وقع فإنما يقع دفعة واحدة، ولا يقع بعدها، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بدّ أن تحمل جنازته ويدفن فى قبره، ولعل اللبن الذى[2] يغطى بها قبره قد هيأت له، وفرغ منها، وهو لا يدرى، فتسويفه جهل محضٌ، فقد عرفت بما ذكرناه أن سبب طول الأمل هو ما ذكرناه.

الحكمة الثالثة: الكفاية

وإليها الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنت فيما يكفيك تطلب ما يطغيك**» أراد أن ابن آدم فى كفاية من أمره، وغنية من حاله فى مطعمه وملبسه ومأكله، والقليل فيه خفّة المؤنة، وأقلّ تبعة، وفيه بلاغ إلى الآخرة، وكيف لا والعبد فى سير مجدّ إلى هول عظيم! ! وبين يديه قائد حثيث، وخلفه سائق عنيف، ولا يدرى كيف يكون مصرعه؟ ! وأين يقع مضجعه؟ ! فأىّ وجه فى جمع الأموال وادخارها وحفظ النفائس واحتكارها، وكان ما هو كائن قد كان، وبما يتوقع ويحصل قد ظهر وبان وأعجب من هذا العامر ما لا يسكن، والجامع لما لا يأكل، فـ «ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى»[3]، وأدنى ما فى الدنيا يكفى، فإن لم يكف فليس ما فيها يكفى.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أصبح آمنًا فى سربه، معافى فى جسمه معه قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ولو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[5]، ولا شك أن الطالب فوق الكفاية متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وكيف يسعى لذلك عاقل، أو يكدح له كادح أو عامل، والله تعالى يقول: ﴿ **وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ** ﴾[6]، ولو أعطاهم فوق ما تقتضيه المصلحة لبغوا وطغوا، ومعنى **البغى:** طلبهم ما ليس يصلح لهم، فيتحصل من مجموع ما ذكرناه أن العبد فى غاية الكفاية من الله تعالى من صحة فى جسمه، وعافية فى بدنه وكمال فى عقله، وتمكين فى حاله، وإسباغ فى رزقه وقوة فى أمره وجمال فى حاله، وأن الله تعالى قد كفاه جميع مهماته فى الدين والدنيا، فلهذا قال عليه السلام: «**أنت فيما يكفيك**» إشارة إلى ما قلناه.

---

(1) فى (د،ك،م) يشيع الجنازة.

(2) فى (د،م) التى.

(3) وهو حديث نبوى. مسند أحمد، 5/ 197.

(4) حلية الأولياء، 5/ 249.

(5) المعجم الكبير، 11/ 180.

(6) سورة الشورى من الآية 27.

الحكمة الرابعة: طلب الطغيان من العبد

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وتطلب ما يطغيك**» اعلم أن الطغيان هو تجاوز الحد فى كل شىء، كما قال تعالى فى صفة فرعون: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[1] أىْ: تجاوز الحدّ فى المعصية والمخالفة والتكبر والحماقة، وكيف وقد قال اللص: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2]، وأىّ حماقة أعظم من حماقة هذا؟! وأىّ تجاهل أكثر مما قال؟! فنعوذ بالله من غلبة القساوة على القلوب، واستحواذ الشيطان، واستيلائه، واعلم أن سبب الطغيان هو ملامسة الكبائر، والإقدام على المعاصى المهلكة، وهى أمور عشرة:

أولها: البخل، وهو من الخصال الرديئة، والعظائم الموبقة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والشحّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم فسفكوها، ودعاهم فاستحلوا محارمهم، ودعاهم فقطعوا أرحامهم»[3].

وثانيها: الكِبر، فإنه خصلة مهلكة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبّة من كِبْر»[4].

وثالثها: العُجب، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ممَّا هو أكبر من ذلك، العجب العجب»[5].

ورابعها: الرياء، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يقول للملائكة: إن هذا لم يردنى بعمله، فاجعلوه فى سجين[6]»[7].

وخامسها: الحسد، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[8].

وسادسها: شدّة الغضب، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الغضب، فإنه يوقد فى فؤاد ابن آدم

---

(1) سورة طه من الآية 24، 43، النازعات من الآية 17.
(2) سورة النازعات الآية 24.
(3) شعب الإيمان، 7/ 424.
(4) مسند أحمد، 1/ 399.
(5) شعب الإيمان، 5/ 453.
(6) فى سجين: فى حبس لخساسة المنزلة عند الله– عزّ وجلّ–، وقيل: فى حَجَر تحت الأرض السابعة. ينظر: لسان العرب، مادة (سجن).
(7) الزهد لابن المبارك، 153. بلفظ: «إن عبدى هذا لم يخلص لى، ولم يخلص عمله؛ فاجعله فى سجين».
(8) سنن أبى داود، 4/ 276.

النار»[1].

وسابعها: حب المال، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حُبُّ المال والشرف ينبتّان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[2].

وثامنها: حبّ الجاه، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «حُبُّ المال والجاه ينبتّان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[3].

وتاسعها: الشّره في الطعام، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه»[4].

وعاشرها: الشّره في الوقاع، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما خلفت على أمتي أضرّ من النساء»[5]، وفي حديث آخر: «النساء حبائل الشيطان»[6]، فالطغيان يقود إلى هذه المعاصي، فينبغي للعاقل أن يحترز[7] من الطغيان؛ لأنه سبب فيها . والله أعلم بالصواب.

الحكمة الخامسة: القناعة والشبع

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع**» أراد صلى الله عليه وآله وسلم أن ابن آدم لا يقنعه قليل الدنيا والكثير لا يشبعه منها،ولقد رأينا ذلك عياناً وشاهدناه من أخلاق أهل الجمع والادخار ظهورًا وبياناً ولو لم يكن من الأعاجيب، إلا قصة ثعلبة بن حاطب[8] جاء إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- بمثل نواة من ذهب، فقال:- يا رسول الله- ادع الله ليرزقني مالاً، فدعا له الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-، فشرى بذلك المال الذي جاء به أغنامًا، فبلغت مبلغاً عظيمًا، فجاءه المصدق يأخذ صدقتها، فقال: هذه أخت الجزية، فارتدّ عن الإسلام، وكفر ونافق، كما حكى الله تعالى عنه[9] في قوله: ﴿وَمِنْهُم

---

(1) ينظر: مسند شمس الأخبار، 1/ 481.

(2) إحياء علوم الدين، 3/ 159.

(3) موسوعة أطراف الحديث النبوي، 4/ 519.

(4) المستدرك على الصحيحين، 4/ 367.

(5) صحيح البخاري، 5/ 1959. بلفظ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

(6) مسند الشهاب، 1/ 66.

(7) في (د،م) الاحتراز.

(8) وهو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد، شهد بدرًا، وهو مانع الصدقة، توفي في خلافة عمر- رضي الله عنه-، وقيل: في خلافة عثمان- رضي الله عنه-. ينظر: الاستيعاب، 1/ 209، 210.

(9) ينظر: تفسير الطبري، 4/ 370، 371.

﴿ مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1] الآية إلى أن قال: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[2]، ولم يكن سبب الشقاوة إلا ما كان من تمكين المال؛ لأن القليل إنما يجدى، وينفع مع الزهد، والإعراض عن الدنيا، فأما مع تهور النفس، وانفتاح الأجواف للدنيا فالقليل لا يقع موقعًا، ولا يجدى نفعًا، وهكذا حال الكثير، فإنه إنما ينفع إذا لم يكن هناك حرص وطمع، فأما إذا وجد هاتان الآفتان أو أحدهما، فالكثير على كثرته لا يبل بلالاً، ولا يقع موقعًا .

واعلم أن المال له آفات وغوائل إلا على من وفقه الله، وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده صفة الغنى، وهما حالتان يحصل فيهما الاختبار، فحالة عدمه الامتحان فيه بالصبر على مرارة الفقر، وحال وجوده الامتحان فيه يحصل ببذله، وإنفاقه، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سيأتى بعدى قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها، وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب، ويركبون فرة الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا، يغدون ويروحون إليها، اتخذوها إلهًا دون إلههم، وربًّا دون ربهم، إلى أمرهم ينتهون، وهواهم يتبعون؛ فعزيمة من محمد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم، وخلف خلفكم ألا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام»[3] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ جيفة، وهو لا يشعر»[4]، وروى أن رجلاً نال من عرض أبى الدرداء سوءًا، فقال: اللهم من فعل بى سوءًا فأصح جسمه، وأطل عمره، وأكثر ماله[5]، فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم، وطول العمر؛ لأن ذلك يؤدى إلى الطغيان لا محالة.

ورُوى عن أمير المؤمنين أنه وضع درهمًا على كفه، ثم قال: أما إنك مالم تخرج عنى لم تنفعنى[6]، وقيل: إن أول ما ضرب من الدراهم والدنانير رفعهما إبليس، ثم وضعهما على جبهته، ثم قبّلهما، وقال: من أحبكما فهو عبدى حقًّا[7]، وقال بعض الزهاد: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه، فقيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حلّه، ووضعه فى

(1) سورة التوبة من الآية 75.
(2) السورة نفسها من الآية 77.
(3) إحياء علوم الدين، 3/ 232.
(4) ينظر: مجمع الزوائد، 10/ 254.
(5) إحياء علوم الدين، 3/ 233.
(6) نفسه.
(7) نفسه.

حقّه[1]، وقال بعض الزهاد: إن الدينار والدرهم أزمة المنافقين يقادون بهما إلى النار[2].

وقال العلاء بن زياد[3]: مُثلت لى الدنيا، وعليها من كل زينة، فقلت: أعوذ بالله من شرك، قالت: فابغض الدينار والدرهم تكفَ شرى[4]؛ وذلك لأن الدينار والدرهم هما الدنيا كلها؛ إذ يوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما فقد صبر عن الدنيا، وروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبدالعزيز عند موته، فقال:- يا أمير المؤمنين- صنعت صنعًا لم يصنعه أحد قبلك، تركت ولدًا وليس لهم دينار ولا درهم، وعنده ثلاثة عشر رجلاً من الولد، فقال عمر لهم: أقعدونى، فأقعدوه، فقال: أما قولك: إنى لم أدع لهم دينارًا ولا درهمًا، فإنى لم أمنعهم حقًّا لهم ولم أعطهم حقًّا لغيرهم، وإنما ولدى أحد رجلين: إما مطيع لله فالله كافيه، والله يتولى الصالحين، وإما عاصٍ فلا أبالى على ما وقع[5].

ورُوى أن محمد بن كعب القرظى[6] أصاب مالاً كثيرًا، فقيل له: لو ادخرته لولدك من بعدك، فقال: لا، ولكنى أدخره لنفسى عند ربى، وأدخر لولدى ربى[7]، ورُوى أن رجلاً قال لأبى عبد رب[8]: يا أخى لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير، فأخرج أبو عبد رب مائة ألف درهم جعلها لله تعالى وتقرب بها إليه[9]. اللهم اجعلنا ممن يرغب فيما عندك من مدخور الأجر وعظيم الثواب.

---

(1) القائل: يحيى بن معاذ. ينظر: نفسه.

(2) القائل: سمط بن عجلان. ينظر: نفسه.

(3) وهو العلاء بن زياد بن مطر بن شريح العدوى، ثقة عابد قدوة، توفى فى ولاية الحجاج على العراق. ينظر: طبقات ابن سعد، 7/ 217.

(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 233، 234.

(5) إحياء علوم الدين، 3/ 234.

(6) وهو محمد بن كعب القرظى، حليف الأنصار، تابعى مشهور، ولد فى آخر خلافة على- كرم الله وجهه- سنة 40هـ، وتوفى سنة 108هـ، وقيل: 120هـ. ينظر: الإصابة، 6/ 345.

(7) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 234.

(8) وهو أبو عبد رب الدمشقى، الزاهد، اختلف فى اسمه، فقيل: عبد الجبار بن عبيد الله، وقيل: عبد الرحمن بن أبى عبدالله، كان روميًا فأسلم، توفى سنة 112هـ. ينظر: تهذيب الكمال، 34/ 36- 38.

(9) إحياء علوم الدين، 3/ 234.

الحديث الثامن عشر

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وآله وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسٌ إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَايَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ :«**رَجُلانِ مِنْ أُمَّتِى جَثَيَا بَيْنَ يَدَىْ رَبِّى، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ خُذْ لِى مَظْلَمَتِى مِنْ أَخِى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا بَقِىَ مِنْ حَسَنَاتِى شَىْءٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِى، وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ- صلى الله عليه وآله وسلم-، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَيَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ بِحَقِّهِ: ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ إِلَى الْجِنَانِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَى مَا أَعْجَبَهُ مِنَ الْحَبْرَةِ وَالنِّعْمَةِ فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا يَا رَبِّ؟ فَقَالَ: لِمَنْ أَعْطَانِى ثَمَنَهُ، فَقَالَ: وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ يَا رَبِّ؟ قَالَ: أَنْتَ ، قَالَ: وَبِمَاذَا ؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّى قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قَالَ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخِلْهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾[1]»[2] .**

فنقول: الحمد لله الحميد المجيد، الذى جعل العفو ذريعة لنا إلى نيل إحسانه، وصيَّره وسيلة للوصول إلى فيضان جوده وأفضاله، ومزيد طوله وامتنانه. نحمده على ذلك حمدّ الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيته إقرار الصادقين، ونذعن له بالعبودية إذعان المخلصين، ونخافه ونحذر من سطوته حذر المتقين، ونخضع لجلال عزته وجلاله خضوع المستغفرين، إذ كان هو غاية رغبة الراغبين، ونهاية المطلب لجميع الطالبين، ونشهد أن لا إله إلا هو رب العالمين، وخالق السماوات وما بينهما من السبع الأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين، أن يعبدوه وحده لا شريك له عبادة الخاشعين، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[3]،﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾[4] الواضح المبين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والمتعالى بكبريائه عن مقالة الجاحدين، والمقصود بصمديته لحوائج السائلين، بحيث لا يشغله سمع عن سمع، ولا حاجة عن حاجة من مطالب الطالبين الراجين، والصلاة على المبعوث من عند ربه بالأمور الإلهية، والمخصوص من جهته بالحكم والآداب الربانية، وعلى آله الطيبين من العترة الطاهرة الزكية الكرام البررة الراضية المرضيّة، واعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا الحديث، مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة:

---

(1) سورة الأنفال من الآية 1.
(2) الأربعون حديثًا السيلقية، 29.
(3) سورة البينة من الآية 5.
(4) سورة الزمر من الآية 3.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

«**بينا**»، و«**بينما**» لغتان، وهما الأكثر والأشهر فيه، وقد سمعت فيه الإضافة إلى ما بعده، وهو قليل، والرواية فى الحديث بالجر فى رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–، و«**الرسول**» هو المؤدى للرسالة عن ربه، ويفترق الحال بين النبى والرسول، **فالرسول: لا يكون إلا** متحمل[1] الرسالة إلى الخلق، وإبلاغ الشريعة، **والنبى:** قد يكون لمن أرسل إلى نفسه، وأرسل إلى غيره.

«**ذات يوم**» هو نفس اليوم، ولكنه استعمل مضافًا لسرّ نذكره فى المعانى الإعرابية. **الجلوس:** نقيض القيام. **الرؤية:** هاهنا من رؤية العين، **والضحك:** معروف، وهو فى الإنسان خاصة، **والبدوّ:** هو الظهور، **والثنايا:** وهو أدنى ضحكه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو تقلص الشفه لا غير عن الثنايا، وبعده ضحكه الذى تبدو أنيابه، وبعده ضحكه الذى تبدو نواجذه، وهو آخر ضحكه فى الاستغراق والإعجاب, ولم يقهقه، **والنواجذ:** هو الأرحاء.

الجثو فى الإنسان على ركبتيه كما يبرك البعير، خلا أن الركبتين من البعير فى اليدين، وهما من الإنسان فى الرجلين، وهو يراد للخضوع والتذلل لله تعالى؛ لكونه أهلاً لذلك من الخلق. **اليدان:** هاهنا استعارة فى حقّ الله تعالى؛ إذ تستحيل عليه اليد بمعنى الجارحة؛ لأنه تعالى منزّه عن الأعضاء والجوارح وعن مشابهة الممكنات، كما قال تعالى: ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾[2]، ومثل هذا يجوز إطلاقه عمّن ثبت عصمته كالقديم جلّ جلاله، ورسوله– صلى الله عليه وآله وسلم– لما ثبتت عصمتهما عن قصد القبيح، وعن إيهام الخطأ، فأما غيرهما فلا يجوز إطلاق ما يوهم[3] إلا بإذن شرعى، ولا يجوز إطلاقه بطريق القياس، فيقال: إذا جاز إطلاق اليد والعين جاز إطلاق الرأس واللسان؛ لأن الأقيسة هاهنا متعذرة؛ لكونه أمرًا علميًا، والقياس مورده الظن، فإذن لا بدّ فى هذه الإطلاقات التى توهم الخطأ من توقيف وإذن سمعى فى جوازها وصحتها، فصارت الأوصاف جارية على ثلاثة أوجه:

أحدها: يجوز إطلاقه على الله لحصول معناه فى حقّه كالقادر والعالم والحى.

وثانيها: لا يجوز إطلاقه لاستحالة معناه فى حقّه، كالمشتهى والنافر والملتذّ.

---

(1) فى (د،ك) يتحمل. ﴿ و لعل الأنسب: متحمل ﴾.

(2) سورة المائدة من الآية 64.

(3) فى (د،ك،م) زيادة: الخطأ.

وثالثها: يجوز إطلاقه ممّن عُلمت حكمته، وثبتت عصمته كاليد والوجه والساق، فأما غيره فلا يجوز إطلاقه من جهته؛ لأنه لا يؤمن أن يقصد المعنى المستحيل، وهذا شيء عارض أحوج إلى ذكره استعارة لفظ اليد في حقّ الله تعالى. **الأحد**: بمعنى الواحد. **الأخذ**: هو التناول للشيء. **المَظلمة**: هي الظلامة[1] سماعنا فيها بالكسر في (لامها)، وهو خارج عن القياس؛ لأن المصادر التي تتصل بها الميم والهاء إنما تأتي من فَعَل بالفتح يفعِل بالكسر، و[2]الفتح في (عينها)، والزمان والمكان يأتيان بالكسر، وجاءت بالكسر على مخالفة قياسها، كما جاءت المقبُرة بالضم على خلاف قياسها وقياسها الفتح، فالمضرَب من ضرب يضرب بفتح (عينه) في المصدر، ويكسر للزمان والمكان، **والرّب**: هنا هو المالك، و«**خذ لي**» بمعنى أنصف لي وأنصفني، **والأخذ**: نقيض الإعطاء، ومعنى أعط أخاك: ناوله، **والإعطاء**: هو المناولة، **الحسنة**: ما يكون في مقابلة الأعمال الصالحة من الجزاء وهي عبارة عن المنفعة، وتارة تكون ثوابًا، ومرّة تكون فضلاً، **والأوزار** و[3]**الآثام** وهي الأثقال، وقيل لها أوزار؛ لأنها تثقل الظهر، **وفيضان العين**[4]: سكبها للدموع، واغرورقت العين إذا امتلأت دمعًا ولم تسكب، **والعين**: هاهنا هي الجارحة المبصرة.

ذلك ليوم: يوم القيامة. «**الجنان**» جمع جنة، وهو ما كان ملتف الشجر، سميت جنة؛ لأنها تجن ما فيها أيْ: تغطيه. «**الحبرة**» هي السرور والفرح، و«**النعمة**» هي اللذة والتفكه والنظارة، ومنه قولهم: غصن ناعم أي نظير. **الثمن**: هو المقابل للمبيع في المعاوضة. **العفو**: هو إسقاط العقوبة، وأصله من المكان العافي الذي لا أثر فيه للرعي، وباقي ألفاظ الحديث ظاهرة جليّة، ولا حاجة بنا إلى تفسيرها، وما أخللنا به من المباحث اللغوية، فلعله يوجد في المباحث الإعرابية؛ لأنهما يجمعهما جامع واحد وهو إصلاح الألفاظ، والمعاني من جهة اللغة[5].

المطلب الثاني: في بيان ما اشتمل عليه من العلوم الإعرابية

قوله: «**بينا**» هو منصوب على الظرفية في اللغتين اللتين ذكرناهما، و«**الألف**» عوض عمّا كان تستحقه «**بين**» من الإضافة كما كان التنوين عوضاً عمّا يستحقه ما لزم الإضافة، نحو قولك: كل وبعض، وكذلك[6] (**ما**) فإنها عوض أيضاً في اللغة الثانية. هذا كله إذا كان **الرسول**: مرفوعًا، فأما إذا كان مجرورًا كما هو السماع، فإن «**الألف**» لا تكون عوضاً، وإنما نشأت عن الفتحة لا

---

(1) في (د،م) زيادة: الواو.

(2) في (د،م) الفاء بدلاً عن الواو.

(3) في (د،م) سقط: الواو. ﴿والمناسب في السياق سقوطها﴾.

(4) في (د،م) سقط: العين. ﴿وهو سقط مخلّ بالمعنى﴾.

(5) في (د،م) زيادة: والنحو.

(6) في (د،م) وهكذا.

غير.

«**رسول الله**» مبتدأ، و«**جالس**» خبره، وأكثر ما يقع فى جواب (بينا، وبينما، إذ، وإذا)، وقد يأتى جوابه بغيرهما، و«**ذات يوم**» مضاف ومضاف إليه، و«**ذات**» منصوب على الظرفية، والعامل فيه جالس، و«**ذات يوم**» عبارتان عن معنى واحد، وإنما جاز إضافة أحدهما إلى الآخر؛ لأن قوله: «**ذات**» المقصود بها المدلول، و«**يوم**» أريد به اللفظ، فلما تغايرا جاز إضافة أحدهما إلى الآخر؛ لأن إضافة الشىء إلى نفسه محال، كالحبس والمنع، والأسد والليث، وقد تقرر تغايرهما من الوجه الذى ذكرناه.

قوله: «**إذ رأيناه**» جواب «**بينا**»، والعامل فى «**بينا**» «**رأيناه**»؛ لكونه ظرفاً **للرؤية**، والعامل فى: **إذ هو جالس** أيضاً **الرؤية** هاهنا من رؤية العين، و«**النون**» فاعله، **والضمير**: مفعول **للرؤية**، و«**ضحك**» جملة فعلية ماضية، وهل تكون حالاً من الضمير فى «**رأيناه**»، وهو **للرسول**، أىْ: رأيناه ضاحكًا، هذا فيه نظر، والقوى جُوز كونها حالية، وإن كانت خالية عن (قد) لكنها مقدرة فيها، أىْ: قد ضحك، وقد ورد الحال فى الجملة الماضية من غير (قد)، وأنشد النحاة[1]:

كَمَـــا انْــتَفَضَ العَـــصْفُوْرُ بَلَّلَـــهُ القَطْــرُ[2].

أىْ: مبللاً له. «**حتى**» هاهنا للابتداء، وبعدها الجملة الماضية، و«**بدت**» فعل ماضٍ. «**ثناياه**» فاعله، ويحتمل أن تكون «**حتى**» للغاية، ولو وليها الفعل الماضى؛ لأن التقدير: ضحك إلى أن بدت ثناياه، ويحتمل أن تكون الجملة فى موضع نصب على الحال، ويكون حالاً بعد حال، أىْ: رأيناه ضاحكًا بادية ثناياه، فأحد الحالين صفة لحاله، وهو ضاحك، والثانية حال سببية؛ لأنها للإثبات، كما يقال: مررت بزيد قائمًا خارجة جاريته، «**فقيل**» «**الفاء**» للاستئناف، ويحتمل أن تكون عاطفة لجملة على جملة، و«**قيل**» مبنى لما لم يسم فاعله، والفاعل فيه محذوف، ويقام مقام الفاعل، إما المصدر، وإما الجار والمجرور بعده.

«**ممَّ تضحك**»؟ «**من**» هاهنا هى الجارة، وهى لابتداء الغاية، و«**ما**» هى الاستفهامية، طرح ألفها قياس عند اتصال الجار بها، و«**تضحك**» فعل مضارع معرب بالرفع، والجار والمجرور متعلق به، وقدّم عليه لأجل الاستفهام.

«**يا رسولَ الله**» منصوب على النداء المضاف، وهو منصوب بكل حال لأجل إعرابه. «**قال**» فعل ماضٍ جواب

---

(1) نُسب لأبى صخر الهذلى. ينظر: شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة المدنى، ط1، عام 1965م، القاهرة، مصر، 2/ 957. وهو أبو صخر عبد الله بن سلمة السهمى الهذلى، من بنى هذيل، شاعر من شعراء العصر الأموى، كان مواليًا لبنى أمية، وله فى عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز مدائح، حبسه ابن الزبير، توفى سنة 80هـ. ينظر: الأغانى، 24/ 98-110.

(2) البيت من الطويل، وشطر البيت: إِذَا ذُكِرَتْ يَرْتَاحُ قَلْبِى لِذِكْرِهَا. ينظر: شرح أشعار الهذليين، 2/ 957. أما شطر البيت: وَإِنِّىْ لَتَعْرُوْنِي لِذِكْرَاكِ هَزَّةٌ. فقد ورد منسوبًا لأبِى صخر الهذلى. ينظر: الأَغانى، 5/ 200. والبيت ثابت فى ديوان مجنون ليلى، ونصّه: وَإِنِّى لَتَعْرُونى لِذِكْرَاكِ هَزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ العَصْفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ. ينظر: ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق د. عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، 1962م، القاهرة، مصر، 130.

للاستفهام. «**رجلان**» مرفوعان على الابتداء، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لمّا كانت موصوفة بالجار والمجرور بعدها، و«**جثيا**» هو الخبر، وفى «**جثيا**» لغتان: جثيا، وجثوا بالواو، والياء جميعًا لغتان فيه. «**بين يدى ربى**» «**بين**» منصوب على الظرفية. «**يدى**» مجرور بالإضافة. «**ربى**» مجرور بإضافة ما قبله إليه، وهو مضاف إلى الياء بعده للنفس. «**فقال**»«**الفاء**» للعطف «**قال**» على «**قال**» قبله. «**أحدهما**» مرفوع على الفاعلية. «**يا رب**» منادى مضاف، وفيه لغات: يا ربى، ويا ربِّ بالكسر، ويا ربَّ بالفتح، ويا ربُّ بالضم، ويا ربا، ويا رباه.

«**خذ لى**» فعل أمر مبنى على ما يجزم به وهو السكون. «**لى**» جار ومجرور فى موضع المفعول بـ «**خذ**»، و«**المظلمة**» منصوب على المفعولية بـ «**خذ**»؛ لأنه يتعدى. «**ما بقى من**» جار ومجرور، و«**من**» لابتداء الغاية، كما تقول: خرجت من الدار. «**قال الله تعالى**» فعل وفاعل جملة فعلية لا محل لها من الإعراب؛ لكونها مستأنفة، ولهذا جاءت بغير فاء؛ لأنها غير معطوفة على ما قبلها. «**أعط**» فعل أمر. «**أخاك**» مفعول لـ «**أعط**». «**مظلمته**» مفعول ثانٍ لـ «**أعط**». «**فقال: يا رب**» عطف على الأول بـ «**الفاء**». «**ما بقى**» «**ما**» نافية، و«**بقى**» فعل ماضٍ. و«**من حسناتى**» جار ومجرور، و«**من**» لابتداء الغاية أو للتبعيض، و«**شىء**» مرفوع على الفاعلية. «**فقال**» عطف على ما قبله بـ «**الفاء**».

«**يا رب**» منادى مضاف إلى «**الياء**»، واللغات فيه كما سبق تقريره من قبل. «**فليحمل**» «الفاء» للعطف. و«**اللام**» للأمر، والفعل مجزوم بـ «**اللام**»، و«**يحمل**» فعل مضارع . «**من أوزارى**» جار ومجرور، و«**من**» للتبعيض، و«**أوزارى**» جمع وزر، من باب جموع القلة.

«**وفاضت**» «**الواو**» عاطفة، أو للاستئناف، و«**فاضت عينا**» فعل وفاعل، و«**التاء**» للتأنيث، و«**رسول**» مجرور بإضافة «**عينا**» إليه، وهو مثنى، وعلامة رفعه الألف، وحذف النون إنما كان من أجل الإضافة، «**ثم قال**» عطف على ما قبله بـ «**ثم**»، وفيه دلالة على الترتيب والمهلة. «**ثم قال**» جملة فعلية.

«**إن ذلك اليوم**» «**إن**» تكسر بعد القول؛ لأنه من مواضع الجملة. «**ذلك**» اسم للإشارة إلى البعيد، و«**اليوم**» منصوب على الصفة لاسم الإشارة. «**ليوم**» هو الخبر لـ «**ليوم**» الأول، وهو مرفوع على الخبرية، ولهذا جاء منكَّرًا، و«**اللام**» فيه للابتداء، «**يحتاج**» جملة فعلية، و«**الناس**» مرفوع على الفاعلية، وهو مرفوع بالمضارعة.

«**إلى أن يحمل**» جار ومجرور، و«**أن**» هى المصدرية فى الأفعال، والفعل منصوب بها، والجار والمجرور يتعلقان بـ «**يحتاج**»، و«**يحمل**» فعل ما لم يسم فاعله، و«**عنهم**» جار ومجرور فى موضع الفاعل، و«**من أوزارهم**» جار ومجرور فى موضع المفعول. «**ثم قال**» جملة فعلية معطوفة على ما قبلها، واسم «**الله**» فاعل للقول «**للطالب بحقه**» جار ومجرور يتعلقان بالقول، و«**بحقه**» جار

وجرور يتعلقان بـ «**الطالب**»؛ لكونه اسمًا للفاعل. «**ارفع بصرك**» فعل أمر مبنى على الوقف، و«**بصرك**» منصوب على المفعولية. «**فانظر إلى الجنان**» فعل أمر مبنى على ما يجزم به، وهو السكون، و«**إلى الجنان**» جار ومجرور يتعلقان بـ «**انظر**»، «**فرفع رأسه**» عطف على الجملة الأمرية الإنشائية، والجامع بينهما كونهما جملتين: أحدهما[1] إنشائية، والأخرى خبرية. «**فرأى ما أعجبه**» جملة فعلية خبرية، و«**ما**» موصولة[2]، و«**أعجبه**» صلة لها، والضمير راجع إلى «**ما**» عائدًا من الصلة على[3] الموصول.

«**من الحبرة والنعمة**» جار ومجرر، و«**ما**» استفهامية، و«**ذا**» اسم للإشارة فى موضع رفع بالابتداء، والجار والمجرور قبله خبر له، وهذه (الألف) للاستفهام، يصيبها القلب والحذف، فأما القلب فتقلب (هاء) عند الوقف، كقوله: بمه وعمه ولمه، والحذف فى حال الوصل مع حروف الجر، كقولهم: فيمَ، وبِمَ، وعمَّ، ولِمَ ، فقال :«**لمن هذا**» جملة فعلية معطوفة على ما قبلها، والجار والمجرور يتعلقان بـ «**قال**».

«**يا رب**» مضى إعرابه. «**فقال: لمن أعطانى ثمنه**»«**من**» فى قوله: «**لمن أعطانى**» موصولة، و«**من**» فى قوله: «**لمن هذا**» استفهامية، وكلاهما مجرور بـ«**اللام**»، و«**أعطانى ثمنه**» جملة فعلية، والفاعل مضمر، ولـ «**أعطانى**» مفعولان : أحدهما: «**الياء**» قبلها نون الوقاية، والآخر «**ثمنه**»، وهو منصوب على المفعولية

«**قال: ومن يملك ذلك**»؟ «**مَن**» هاهنا استفهامية فى موضع رفع على الابتداء، و«**يملك**» جملة فعلية خبر «**من**»، و«**ذلك**» منصوب على المفعولية . «**قال: أنت**»: ضمير مرفوع منفصل على الابتداء، وخبره محذوف: أنت تملكه، أو على الفاعلية لفعل مضمر تقديره: تملكه أنت، فكلاهما تقديره ممكن كما ترى. «**قال: بماذا**» جملة ابتدائية. «**قال: بعفوك**»، العامل فى «**بعفوك**» فعل[4] مضمر، أىْ: تملكه بعفوك عن أخيك. «**قال: يا رب**» منادى. «**فإنى قد عفوت عنه**» جملة مؤكدة بـ «**إن**»، و«**الياء**» منصوبة بـ «**إن**»، و«**قد عفوت**» خبرها. «**قال: خذ**» فعل أمر مبنى على الوقف، «**بيد أخيك**» جار ومجرور. «**فأدخله**» جملة أمرية إنشائية، والضمير مفعول. «**الجنة**» منصوبة على المفعولية. «**فاتقوا الله**» جملة إنشائية أمرية **بالتقوى**. «**وأصلحوا**» جملة أيضا إنشائية. «**ذات بينكم**» اسم مضاف إلى «**البين**»، و«**البين**» مضاف إلى الضمير، وهذا ما أردنا ذكره فيما يتعلق بالعلوم الأدبية لغتها وإعرابها، وبالله التوفيق.

---

(1) المناسب للسياق: إحداهما.

(2) فى (د) سقط: خبرية وما موصولة.

(3) فى (د) إلى.

(4) فى (د،م) لفعل.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم فى البلاغة

وفيه مباحث ثلاثة:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

«**بينا**» هو من كلام أبى هريرة، ولكنّه مشتمل على حكاية الحال فلا جرم شرحناه.

سؤال: «**بين**» لا يستعمل إلا فى شيئين أو أكثر من ذلك، فكيف تقدير الشيئين هاهنا حتى يثمر استعماله على وضعه؟

وجوابه: أن الأمر فيه كما ذكرت من أنه لا يستعمل إلا بين شيئين، والتقدير فيه هاهنا: بين أوقات جلوس رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- إذ رأيناه ضاحكاً، وقد يكون التعدد مقدرًا، كما فى قوله تعالى: ﴿ **عَوَانٌۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ** ﴾[1] أراد بين المذكور أولاً فى الآية، وهو البكر والفارض. قال رؤبة[2]:

فِيْهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ   كَأَنَّهُ فِيْ الجِسْمِ تَوْلِيْعُ البَهَقْ[3].

وكان القياس فى الضمير أن يكون مثنى، أىْ: كأنهما، ولكنه أراد المذكور أولاً فأفرده؛ تعويلاً على المعنى، ثم[4] قد تضمن من علوم المعانى أمورًا ننبه عليها:

التنبيه الأول: الاستفهام، فى قوله: «**ممَّ تضحك يا رسول الله**»؟ فإن له موقعًا فى الكلام يدل على الاستعلام والاستخبار ويستدعى جوابًا فقوله: «**ممَّ تضحك يا رسول الله**؟»، هو استفهام عن جرى الضحك لأىّ شىء[5] كان، فأجاب الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- بقوله: «**رجلان من أمتى جثيا بين يدى ربى**»، وحكى القصة بتمامها.

التنبيه الثانى: حكاية المحاورة بينهما فى السؤال والجواب، فقال أحدهما سائلاً: «**يا رب خذلى مظلمتى من أخى**»، فقال المسؤول مجيبًا، وهو الله- جلّ جلاله-: «**أعط أخاك مظلمته**»، فأجابه بالأمر بالخروج عن مظلمته، فقال الظالم: «**يا رب ما بقى**

---

(1) سورة البقرة من الآية68.

(2) وهو رؤبة بن العجاج، واسم العجاج عبد الله التميمى السعدى، من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، كان أكثر مقامة بالبصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتّجون بشعره، توفى سنة 145هـ. ينظر: الأغانى، 20/ 359- 366. معجم الأدباء، 3/ 341.

(3) البيت من الرجز، ونصّه: فِيْهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ   كَأَنَّهَا فِيْ الجِلْدِ تَوْلِيْعُ البَهَقْ. ينظر: ديوان رؤبة بن العجاج، تصحيح وترتيب وليم بن الورد البروسى، دار الآفاق الجديدة، ط2، عام 1980م، بيروت، لبنان، 104. والبلق: سواد وبياض، وتوليع: تلميع مستطيل، والبهق: بياض دون البرص. ينظر: لسان العرب، مادة (بلق، ولع، بهق).

(4) فى (د،م) زيادة: إنه.

(5) فى (د) سقط: شىء.

من حسناتى شىء»، فقال المظلوم: «**يا رب فليحمل من أوزارى**»؛ لأن المقصود المقاصة، فإذا لم يحصل إعطاء الحق فليحصل ما يقوم مقامة من حمل الأوزار.

التنبيه الثالث: فيضان الدموع من عينى رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– فيه دلالة بالغة على التحفظ على الأعمال، وعلى عظم الانتصاف، وعلى الإحصاء للأعمال كلها، وعلى عظم ذلك اليوم الذى يقاص الله تعالى فيه بين الخلائق، ولهذا قال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم – فيه ما قال من تعظيم شأنه وعلو أمره.

التنبيه الرابع: قوله: «ثم قال الله تعالى» للمظلوم، وهو الطالب بحقّه على جهة الموعظة، والإرشاد إلى العفو، وحسن الصفح عن الحقوق: «ارفع بصرك فانظر إلى الجنان، فرفع رأسه فرأى ما أعجبه من الحبرة والنعمة»، فقال المظلوم: «لمن هذا يا رب؟ فقال الله تعالى: لمن أعطانى ثمنه» ترغيبًا فى الثواب، وتأكيدًا فى الاستحقاق، فقال المظلوم: «ومن يملك ذلك؟» إعظامًا للأمر فى استحقاق العظيم على الحقير، وتعجبًا من نيل ذلك، فقال الله تعالى مجيبًا له: «أنت»، بمعنى أنك الذى تستحق ذلك كله، فقال المظلوم متعجبًا: «بماذا؟» وقع هذا الإعطاء على عظمة[1] التمكين على كثرته، فقال الله تعالى مجيبًا فى: إن هذا ما كان إلا «بعفوك عن أخيك»، فـ «قال: يا رب فإنى قد عفوت عنه»؛ لأجل ما كان من إعظام الثواب والأجر، ثم قال الله تعالى للمظلوم تعجبًا من عفوه، وإكرامًا له: «خذ بيد أخيك فأدخله الجنة» إنعامًا عليهما وإكرامًا لهما بالعطاء العظيم والرحمة الواسعة.

فأما المظلوم فإنما كان ذلك من العفو الذى فعله لأخيه، وأما الظالم فإنما كان ذلك فى حقه من أجل شكر نعمة الله تعالى على ما وفق الظالم من العفو وعلى شكر نعمة المظلوم على عفوه، وسيأتى لهذا مزيد تقرير فى النظر الثالث إذا تكلمنا فى مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم.

التنبيه الخامس: إيراد الآية عقيب هذا الكلام للدلالة على إصلاح الحال، وإصلاح ذات البين، وأن التقوى إنما تكمل بالإصلاح، وتحسين الأحوال، فإن ذلك أصل فى الدين.

البحث الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم البيانية

وهو[2] يختصّ المحاسن المجازية والاستعارات.

الاستعارة الأولى: استعمال لفظة «**البين**» من غير تعدد بين اثنين فصاعدا إنما كان على جهة المجاز، كما أوضحناه من التقدير.

---

(1) فى (د،م) عظمه. وزيادة: الواو.

(2) فى (د،م) زيادة: نظر.

المجاز الثانى: حكاية الحال الواقعة من الظالم والمظلوم، ومن الله تعالى، فيحتمل أن تكون واردة[1] على جهة التحقيق، وأنما جرى قد وقع لا محالة، وهذا هو الظاهر من حالها، ويحتمل أن يكون ذلك واردًا على جهة التمثيل وحكاية حال، وهذا وارد كثيرًا، ويؤيد ذلك مثالان:

المثال الأول: قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «اطلعت على أهل الجنة فوجدت أكثرها الفقراء، واطلعت على النار فوجدت أكثرها النساء والعبيد»[2]، فيحتمل أن يكون هذا على جهة التحقيق، ويحتمل أن يكون واردًا على جهة التمثيل والتقدير كما ترى.

المثال الثانى: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «دخلت الجنة فإذا أنا بجارية لعساء، فقلت : لمن هذه؟ قيل لى: لزيد بن حارثة[3]»[4]، وفى حديث آخر: «لعمر»[5]، وفى حديث آخر: «دخلت الجنة فإذا أنا بجارية، فقلت: لمن هذه؟ فقيل لى: لبلال»[6]، وفى حديث آخر: «دخلت الجنة فإذا أنا ببلال فيها، فقلت: بأىّ شىء كان ذلك- يا بلال- من الأعمال»؟ فقال: لا شىء- يا رسول الله-، إلا ما أحدثت وضوءًا إلا وصليت عقيبه ركعتين[7]، فهذه الأخبار كلها محتملة لما ذكرناه.

المجاز الثالث: إسناد الفيضان إلى العين، فى قوله: «**وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**»، والبدو إلى الثنايا فى قوله: «**حتى بدت ثناياه**»، فإن الإسناد مجاز كما ترى، والإنسان هو الفاعل لذلك، وهكذا ما وقع من الحديث من إسناد الأفعال إلى من يستحيل إسنادها إليه فى الظاهر، فلأجل هذا حكمنا بكون الإسناد مجازاً، وهذا هو الإسناد المركب فى لسان علماء البيان، وهو كثير الورود فى الكتاب الكريم وفى السُّنة الشريفة، وفى فصيح الكلام منثورة ومنظومة.

المجاز الرابع: قوله: «**ومن يملك ذلك؟ قال: أنت، قال: وبماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك**»، فالملك بالعفو مجاز؛ لأنه إنما يملكه بقدرة الله تعالى لا بعفوه.

---

(1) فى (ك) سقط: واردة.

(2) صحيح مسلم، 4/ 2096. دون ذكر: «العبيد».

(3) وهو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى، مولى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- اشتراه حكيم بن حزام لخديجة- رضى الله عنها- فوهبته للرسول- صلى الله عليه وآله وسلم - فتبناه حتى كان يُسمى زيد بن محمد حتى نزلت آية ادعوهم لآبائهم، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، استشهد فى غزوة مؤتة فى السنة الثامنة للهجرة. ينظر: الاستيعاب، 2/ 542- 546.

(4) الآحاد والمثانى، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيبانى، تحقيق د. باسم فيصل الجوابرة، دار الراية، ط1، عام 1991م، الرياض، المملكة السعودية، 1/ 198. دون ذكر: «لعساء».

(5) ينظر: مسند أحمد، 3/ 372.

(6) ينظر: نفسه. وورد فيه: «أنه رأى بلال فى الجنة».

(7) نفسه، 5/ 354.

المجاز الخامس: قوله: «**ارفع طرفك إلى الجنان، فرآها، قال: لمن هذا؟ فقال الله تعالى: لمن أعطانى ثمنه**»، فالثمن هاهنا مجاز واستعارة حسنة، وليس هناك ثمن ولا مبيع، وإنما وردت هذه المجازات على جهة تحسين الكلام لما يقع فيها من الرونق والطلاوة.

البحث الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع

وقد اشتمل على أساليب عجيبة، ونكت غريبة، نفصلها بمعونة الله.

النكتة الأولى: حكاية الحال الفعلية، وإليه الإشارة بقوله «**بينا رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم – ذات يوم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه**»، ومن أحسن ما قيل فى حكاية الفعلية قول البحترى[1]:

سُلِبُوا وَأَشْرَقَتِ الدِّماءُ عَلَيْهِمُ ... مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسْلَبُوا[2].

وقول المتنبى[3]:

يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهْوَ مُجَرَّدٌ ... مِنْ غِمْدِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يُغْمَدِ[4].

وقول أبى تمام[5]:

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ أَعلامِهِ ضُحىً ... بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ.
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا ... مَعَ الجَيْشِ إلا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ[6].

فانظر على حسن ما وصف من حكاية الحال كأنه مشاهد لها، وكأنها حاصلة[7] كما قال.

---

(1) وهو الوليد بن عبيد الله البحترى الطائى، كان أديبًا فصيحًا بليغًا شاعرًا مجيدًا، كان بعض أهل عصره يقدمونه على أبى تمام، ولد بمنبج من أعمال حلب، وبها نشأ، وله تصرف حسن فى ضروب الشعر سوى الهجاء، فإنه لم يحسنه، توفى بمنبج سنة 184هـ. ينظر: مهجم الأدباء، 570، 571.

(2) البيت من الكامل. ينظر: ديوان البحترى، ضبطه وعلق حواشيه عطية سيد، المكتبة الجامعة، عام 1911م، بيروت، لبنان، 2/ 684.

(3) وهو أبو الطيب المتنبى، أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفى الكوفى الكندى، أحد مفاخر الأدب العربى، اشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، ولد بالكوفة فى محلة تسمى كندة سنة 303هـ، ونشأ بالشام، وتنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية، قال الشعر صبيًا، تنبأ فى بادية السماوة، فسُجن حتى تاب، قتل بالنعمانية سنة 354هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 1/ 120– 123.

(4) البيت من الكامل، ونصّ عجز البيت: مِن غِمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُو مُغْمَدُ. ينظر: ديوان أبى الطيب المتنبى، تحقيق بدر الدين حاضرى محمد حماقى، دار الشرق العربى، ط3، عام 1995م، بيروت، لبنان، 83. وفى (ك) فَكَأَنَّمَا هُو مُغمَدُ. النجيع: دم الجوف. ينظر: لسان العرب، مادة (نجع).

(5) وهو حبيب بن أوس الطائى، ولد فى قرية جاسم بسوريا سنة 188هـ، شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعانى، استقدمه المعتصم، وقدمه على الشعراء، توفى سنة 231هـ. ينظر: الأغانى، 16/ 414– 423. الأعلام للزركلى، 2/ 165.

(6) البيتان من الطويل. ينظر: ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر، المجلد الثالث، 282.

(7) فى (د،ك،م) كأنه حاصل.

النكتة الثانية: حكاية الحال القولية، وإليها الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**رجلان من أمتى جثيا بين يدى ربى، فقال أحدهما: يا رب خذ لى مظلمتى من أخى، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته** . . . .» إلى آخر الحكاية، والتفرقة بينهما، وإن كانا جميعًا من حكاية الأفعال هو أن **الأولى:** حكاية فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، **والثانية:** حكاية فعل غيره، وهما الرجلان اللذان وقفا بين يدى الله تعالى، ومن هذا قول جرير[1]:

إذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيْمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا[2].

ومنه قول المتنبى:

وَمِنَ الخَيْرِ بُطءُ سَيْبِكَ عَنِّى أَسْرَعُ السُّحْبِ فِى المَسِيْرِ الجَهَامُ[3].

النكتة الثالثة: المحاورة، وهو الكلام[4] بين العبد وربه، وإليه الإشارة بقوله: «**رجلان جثيا بين يدى ربى، فقال أحدهما: خذ لى**»، فقال الله للظالم: «**أعط أخاك حقه**. . .» إلى آخر المحاورة التى حكاها صلى الله عليه وآله وسلم فى كلامه، وهذه المحاورة، وترداد الخطاب بين المتحاورين تكسب الكلام بلاغة، وتعطيه فصاحة لا يكون حاصلاً من دونها، وأعظم شاهد على ذلك ما قاله أبو نواس[5]:

قَالَ لِى يَوْمًا سُلَيْمَانُ وَبَعْضُ القَوْلِ أَشْنَعْ.
قَالَ صِفْنِىْ وَعَلِيًّا أَيْنَا أَتْقَى وَأَوْرَعْ.
قُلْتُ إِنِّى إِنْ أَقُلْ مَا فِيْكُمَا بِالحَقِّ تَجْزَعْ.
قَالَ كَلَّا قُلْتُ مَهْلاً قَالَ قُلْ لِى قُلْتُ فَاسْمَعْ.
قَالَ صِفْهُ قُلْتُ يُعْطِى قَالَ صِفْنِىْ قُلْتُ تَمْنَعْ[6].

---

(1) وهو جرير بن عطية الخطفى، ولد سنة 28هـ. اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة جرير والفرزدق والأخطل، ويُعد جريرًا أشعر الخاصة، وقيل: كان ينهش جرير ثلاثة وأربعون شاعرًا، فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدًا واحدًا، وله نقائض مع الفرزدق والأخطل، توفى سنة 110هـ. ينظر: الأغانى، 8/ 5– 18. الأعلام للزركلى، 2/ 119.

(2) البيت من الوافر، ينظر: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 649.

(3) البيت من الخفيف. ينظر: ديوان أبى الطيب المتنبى، 164.

(4) فى (ك،م) زيادة: الجارى.

(5) وهو الحسن بن هانئ بن صباح الحكمى البصرى، الشاعر المشهور، ولد سنة 146هـ، ونشأ بالبصرة، ونشأ بها، ورحل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء العباسيين، ومدح بعضهم، توفى سنة 198هـ، ببغداد. ينظر: وفيات الأعيان، 2/ 95– 102. الأعلام للزركلى، 2/ 225.

(6) الأبيات من مجزوء الرمل، ولم ترد الأبيات فى ديوان أبى نواس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالى، دار الكتاب العربى، (ت)، بيروت، لبنان، 519– 535. ووردت منسوبة لأبى نواس فى: خزانة الأدب وغاية الأرب، تقى الدين أبو بكر على بن عبد الله =

ومن نفيس ما جاء فى هذا المعنى قول وضاح[1] التميمى[2] شاعر:

قَالَتْ أَلَا لَا تَلِجَنْ دَارَنَا ... إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرُ.

أَمَا رَأَيْتَ البَابَ مِنْ دُونِنَا ... قُلْتُ فَإِنِّى فَوْقَهُ[3] طَائِرُ.

قَالَتْ فَإِنَّ اللَّيْثَ عَادِيَةً ... قُلْتُ فَسَيْفِى مُرْهَفٌ بَاتِرُ.

قَالَتْ أَلَيْسَ البَحْرُ مِنْ بَيْنِنَا ... قُلْتُ فَإِنِّى سَابِحٌ مَاهِرُ.

قَالَتْ أَلَيْسَ اللهُ مِنْ فَوْقِنَا ... قُلْتُ بَلَى وَهُوَ لَنَا غَافِرُ.

قَالَتْ فَأَمَا كُنْتَ أَعْيَيْتَنَا ... فَأْتِ إِذَا هَجَعَ السَّامِرُ.

وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسُقُوطِ النَّدَى ... لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا آمِرُ[4].

فانظر ما ألطف هذه المحاورة، بالإضافة إلى ترجيع الأقوال وتردادها، فلا جرم وقع من البلاغة بموقع.

النكتة الرابعة: التعليل، وإليه الإشارة بقوله: «**قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك**»؛ لأنه لما نظر إلى الحبرة والنعمة والجنان، قال: فلأىّ شىء أعطيت هذا قال الله: «**بعفوك**»، فأخرجه مخرج العلّة فى الإعطاء، وللتعليل فى البلاغة حظّ عظيم وموقع كريم يكسبه حلاوة؛ لأن المعانى إذا عللت رسخت فى الأفئدة، وكان له مدخل فى القلوب لا يخفى، وممّا ورد فيه قول ابن[5] رشيق[6]:

الحموى الأزرارى، تحقيق عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ط1، عام 1987م، بيروت، لبنان، 1/ 219.

(1) وهو وضاح اليمن، عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال، من آل خولان الحميرى، شاعر رقيق الغزل، عجيب النسيب، كان جميل الطلعة، يتقنع فى المواسم، قدم مكة حاجًا فرأى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك، فتغزل بها، فقتله الوليد سنة 90هـ. الوافى بالوفيات، 18/ 70- 72. الأعلام للزركلى، 3/ 299.

(2) القول: بأنه وضاح التميمى، لعله خطأ عند النسخ.

(3) فى (د،ك) واثب. ﴿والسليم: فوقه﴾.

(4) الأبيات من السريع، ونصّها:

قَالَتْ أَلَا لَا تَلِجَنْ دَارَنَا ... إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرُ.

قَالَتْ فَإِنَّ القَصْرَ مِن دُونِنا ... قُلْتُ فَإِنِى فَوقَه ظَاهِرُ.

قَالَتْ فَإِنَّ البَحْرَ مِا بَيْنَنَا ... قُلْتُ فَإِنِّى سَابِحٌ مَاهِرُ.

قُلْتُ فَإِنِى طَالِبٌ غُرَّةً ... مِنْهُ وَسَيْفِى صَارِمٌ بَاتِرُ.

قَالَتْ فَلَيْثٌ رَابِضٌ بَيْنَنَا ... قُلْتُ فَإِنِى أَسَدٌ عَاقِرُ.

قَالَتْ فَإِنَّ اللهَ مِن فوقنا ... قُلْتُ فَرَبِّى رَاحِمٌ غَافِرُ.

قَالَتْ لَقَدْ أَعْيَيْتَنَا حُجَّةً ... فَأْتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّامِرُ.

فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسُقُوطِ النَّدَى ... لَيْلَةَ لا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ.

ينظر: ديوان وضاح اليمن، جمعه وقدم له وشرحه د. محمد خير البقاعى، دار صادر، ط1،عام 1996م، بيروت، لبنان، 46- 48.

(5) فى (ج الأم،د،ك) أبى بدلاً عن ابن. ﴿والسليم ابن﴾.

(6) فى (د،م) رستق. ﴿والسليم رشيق﴾، وهو أبو على الحسن بن رشيق القيروانى، أحد البلغاء، ولد بالمهدية سنة 390هـ، كان أبوه مملوكًا روميًا من موالى الأزد، قرأ الأدب بالمحمدية، وقال الشعر، وتاقت نفسه إلى التزود منه؛ فرحل إلى القيروان، واشتهر بها، توفى سنة 364هـ. ينظر: وفيات =

سَأَلْتُ الأَرْضَ لِمْ جُعِلَتْ مُصَلًّى وَلِمْ كَانَتْ[1] طَهُورًا وَطِيبًا .

فَقَالَتْ غَيْرَ نَاطِقَةٍ لأَنِّي حَوَيْتُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَبِيبًا[2] .

ولقد أحسن غاية الإحسان، وبلغ نهاية الإعجاب فى علّة كون الأرض مسجدًا وطهورًا .

وقال أبو نواس[3]:

وَلَوْ لَمْ تُصَافِحْ رِجْلُهَا صَفْحَةَ الثَّرَى لَمَا كُنْتُ أَدْرِي عِلَّةً لِلتَّيَمُّمِ[4] .

أراد أنها لما وطئت الأرض بأخمصها عرف أن التيمم ما جعل طهورًا إلامن أجل مماسة قدمها للأرض، فلا جرم كان التيمم.

النكتة الخامسة: الاقتباس، وهو إيراد آية من الكتاب الكريم دالة على تقرر المعنى السابق لها، ومناسبة وملائمة لمقصوده، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[5] أوردها الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- عقيب ما حكاه من حال المظلوم والظالم، وما انتهى حالهما فى إصلاح الحال بلطف الله تعالى وكرمه وعظيم إحسانه، فلهذا أوردها بعد ذلك على جهة التتّمة، والتكملة لما قبلها، فقد وقعت ياقوتة لوشاحه، وشعلة فى مصباحه وذرة فى تاجه، وزيتونة سراجه، وغلالة دباجه، ويستعمله الفصحاء كثيرًا، ويرد على وجهين:

أحدهما: أن يكون الوارد آية بكمالها وتمامها، وهو الأكثر فى الإيراد، والأوسع فى الاستعمال، وهو الذى يحصل به الجمال والأبهة كما حكيناه هاهنا فى إيراد هذه الآية عقيب كلامه، ولابن الجوزى[6] فيما هذا حاله اليد البيضاء، فإن له كتابًا سماه (المنتخب)[7]، فيه مائة فصل على مائة آية أورد الوعظ على منوال الآى، وعلى سجعها، فجاء فى أحسن قالب.

وفيات الأعيان، 2/ 85.

(1) فى (د،ك،م) زيادة: لنا . ﴿وهو السليم﴾ .

(2) البيتان من الوافر، وهما ثابتان فى ديوان ابن رشيق القيرواني، ونصّ البيت الأول منها:

سَأَلْتُ الأَرْضَ لِمْ كَانَتْ مُصَلًّى وَلِمْ كَانَتْ لَنَا طُهْرًا وَطِيبَا .

ينظر: ديوان ابن رشيق القيروانى، شرح د. صلاح الدين الهوارى، هدى عودة، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان، 39.

(3) لم يرد البيت فى ديوان أبى نواس. ينظر: ديوان أبى نواس، 233- 370.

(4) البيت من الطويل، وهو ثابت فى ديوان ابن هانئ الأندلسى. ينظر: ديوان ابن هانئ الأندلسى، شرح أنطوان نعيم، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان، 482. وهو أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن هانئ الأندلسى، الشاعر المشهور، ولد بأشبيلية، ونشأ بها، وحصّل حظًا وافرًا من الأدب، توفى سنة 362هـ، وقيل: سنة 365هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 1/ 260.

(5) سورة الأنفال من الآية 1.

(6) وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن على، وينتهى نسبه إلى أبى بكر الصديق، كان علامة عصره فى الحديث، وصناعة الوعظ، توفى سنة 597هـ، ببغداد. ينظر: وفيات الأعيان،3/ 140- 142.

(7) اسم الكتاب: المنتخب فى النوب، مجلد، وقال مؤلفه : لقد وضعه للكلام على الآيات على الترتيب كل آية تليق أن تقرأ نوبة. ينظر: كشف الظنون =

وثانيهما: أن يكون الوارد بعض الآى[1]، كما يقال: يا أيها الناس، ويا بنى آدم فى أول الخطاب لا غير، فما هذا حاله يعد فى الاقتباس، لكنه دون الأول فى البلاغة وحسن الموقع، فهذا ما أردنا ذكره فيما اشتمل عليه من علم البديع، ونشرع الآن فى شرح مقاصده عليه السلام التى أرادها، والمعانى التى أحرزها وقصدها، وبالله التوفيق.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

وقد تضمن كلامه فى هذا الحديث على حسن الإنصاف، وكيفية الانتصاف، وذكر يوم القيامة، وفى صفة الجنة، وفى حسن العفو، وفى إصلاح ذات البين، فهذه مقامات ستة نفصلها بمعونة الله تعالى:

المقام الأول: فى حسن الإنصاف وفضله

اعلم أن الإنصاف للخلق من بعضهم بعض هو رأس العدل، وثمرة الحكمة، وعنوان الحقّ، وقاعدة الوفاء، وبه تظهر أنوار الحقائق، وتشرق سرائر القلوب، والله تعالى يقول: ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ** ﴾[2]، قال تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ** ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ** ﴾[5]، وغير ذلك من الآيات الدالة على وجوب الانتصاف، وتوفية الأعمال وحصرها وضبطها، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لينتصف للشاة الجماء من القرناء»[6]، وفى حديث آخر: «من قتل عصفورًا لغير منفعة جاء يوم القيمة وله صراخ تحت العرش يقول:- يا رب- سل هذا لم قتلنى من غير نفع؟!»[7].

وحكى ابن هشام[8] فى (سيرته)[1] أن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- لما عبأ الناس للقتال، ورتب صفوفهم للقتال

عن أسامى الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الرومى، دار الكتب العلمية، عام 1992م، بيروت، لبنان، 2/ 1850.

(1) فى (د،م) الآية. ﴿وهو الأنسب لأن بعض الآى قد يكون آية فيدخل الوجه الثانى من الاقتباس فى الوجه الأول﴾.

(2) سورة الأنبياء الآية 47.

(3) سورة الزلزلة الآيتان 7، 8.

(4) سورة النساء من الآية 123.

(5) سورة هود من الآية 15.

(6) مسند أحمد، 2/ 235. بلفظ: «حتى ينتصف للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها».

(7) مسند الشهاب، 1/ 312.

(8) وهو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى، مشهور بجمل العلم متقدم فى علم النسب والنحو، وهو من مصر، وأصله من البصرة، توفى =

فصل رجل يقال له: سواد[2] من الصف، وكان فى يد رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- قِدْح، فوخزه بها، فقال:- يا رسول الله- قد بعثك الله بالحق، وإنك قد أوجعتنى، وإنى أريد القصاص، فكشف صلى الله عليه وآله وسلم عن أثوابه، وقال: «استقص يا سواد»، فاحتضنه، وضمّه إليه، وأرسله، ثم قال: «ما حملك على ما فعلت يا سواد»؟ قال:- يا رسول الله- قد حضر ما ترى من القتال، وإنى أحببت أن يكون آخر عهدى ملامستى لجسمك[3]، فقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «من مسّ جسمه جسمى لم تمسه النار»[4]، فهذه الأخبار النقلية كلّها قد تظاهرت، وتعاضدت على الانتصاف للخلق، مع ما يؤيد ذلك من البراهين العقلية، وإن الله تعالى يجب عليه الانتصاف؛ لأنه إذا خلى بينهم فى هذه الدنيا ونهى وأمر وحذر، وأنذر، فلا بدّ أن يكون للتخلية غرض مقصود، وهو أن الموعد القيامة لتوفية الحقوق من أهلها، وإعطائها من يستحقها، وإلا كانت التخلية غير لائقة بالحكمة، ولهذا قال بعض الصالحين: لولا يوم القيامة لانقطعت الأفئدة. يعنى: أن الدنيا وإن حصل فيها الظلم بالقتل، وأخذ المال، وسائر الجنايات فيوم القيامة هو النصفة ومكان الإيفاء.

فالإنسان يعد نفسه، ويواسيها بيوم القيامة؛ لما تضمنت الاستيفاء، وإعطاء كل ذى حقّ حقّه، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ وَيَقُولُون يَـٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلۡكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسۡتَطَرٌ ﴾[6]، وهذه الأدلة كلها دالة على الإحصاء[7] من أجل الانتصاف لا فائدة فى الإحصاء إلا من أجل التوفير على كل أحد ما يستحقه.

المقام الثانى: فى كيفية الانتصاف

واعلم أن الذى عليه أكثر المتكلمين من سائر أهل العدل من الزيدية والمعتزلة أن الذى يقع به الانتصاف بين الخلق فى سائر الجنايات والغموم والأحزان، والقتل والجرح، وأخذ المال، وغير ذلك من توابعه، فإنه إنما يكون بالأعواض دون الثواب والعقاب، وقالوا على أثر ذلك: إن كل من كان عليه مظلمة لأحد من الخلق، فإن الله تعالى لا يخرجه من الدنيا إلا وله ما يقضى تلك المظالم

بمصر سنة 213هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 3/ 177.

(1) هو كتاب (السيرة النبوية)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، عام 1411هـ.

(2) وهو سواد بن غزية بن الأنصارى، من بنى عدى بن النجار، وقيل: حليف الأنصار، شهد بدرًا، والمشاهد كلها، وهو عامل الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- على خيبر. ينظر: الاستيعاب، 2/ 673. الإصابة، 3/ 217، 218.

(3) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، 3/ 173، 174.

(4) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، 4/ 29.

(5) سورة الكهف من الآية 49.

(6) سورة القمر الآية 53.

(7) فى (د) الاختصاص. ﴿والمناسب: الإحصاء﴾.

من أعواضه، وإن لم يكن[1] ثمة[2] عوض في حال حياته، فإن الله تعالى يشدد عليه آلام الموت حتى يستحق في مقابلتها من الأعواض ما يقابل به المظالم، فهذه قاعدة، وقاعدة أخرى أنهم قالوا: إن الانتصاف إنما هو بأخذ أعواض هذا لهذا في مقابلة ما يستحقه عليه من المظالم، فإن رأس الحكمة والعدل أن الله تعالى لا يتفضل بالقضاء للمظالم من عنده هذا هو رأي الشيخ أبي هاشم وأصحابه، وعليه جلّ المعتزلة.

ورُوي[3] عن الشيخ أبي القاسم الكعبي، وغيره من معتزلة بغداد أن الله تعالى يجوز أن يكون الانتصاف بأن يوفر من عنده ما يستحقه المظلوم، وسواء كان للظالم أعواض، أو لم يكن؛ لأنه ليس المقصود إلا جبران حال المظلوم[4]، وهذا حاصل بكونها من جهة الله تعالى، ولهذا فإن من كان له دَين على غيره، وجاء رجل آخر فقضاه من عنده، فإن صاحب الدَين يكون قد استوفى حقّه، وإن كان من غير الغريم، و[5]هكذا الحال في حق الله تعالى، وأما الشيخ أبو هاشم وأصحابه، فقد قالوا: إن هذا وإن كان حسنًا لكنه لا يسمى انتصافاً، وإنما هو تفضل وإحسان، وكلامنا إنما هو في محضّ الإنصاف.

فنقول: إذا كان المظلوم من أهل الجنة، فإن الله تعالى يوفر عليه الأعواض ممن ظلمه منافع في الجنة يعرفه بها منقطعة؛ لأن لها نهاية، وإن أراد الله أن يديمها عليه أدامها بمثلها تفضلات، وإن كان المظلوم من أهل النار، فإن الله تعالى يوفرها عليه تخفيف أوقات منقطعة؛ لأنه يستحيل توفيرها عليه منافع؛ لأن أهل النار لا ينالهم الروح والراحة ساعة واحد، فقد حصل التوفير للحق على هذه الكيفية، كما هو اللائق بالحكمة، فأما الثواب والعقاب فليس فيهما قصاص بالآلام، وإنما يكون فيه[6] الإحباط بفعل الكبائر، والتكفير للسيئات بالحسنات، والموازنة أيضاً جارية في الثواب والعقاب، فإذا استحق الكافر كان ثوابه[7] ثوابًا على فعل بعض الطاعات، فيستحيل توفيره عليه منافع؛ لأن عقابهم لا ينالهم روح ولا راحة، فلا جرم كان ثوابه إسقاطاً لما يستحقه من العقوبات على جهة الدوام؛ لأن كل واحد من الثواب والعقاب استحقاقه على جهة الدوام، فلهذا كانت المساقطة بينهما دائمة.

وأما الموازنة فبين الشيخين: أبي علي، وابنه أبي هاشم خلاف: فالذي يراه الشيخ أبو علي أن القليل يسقط في جنب الأكثر ثوابًا كان أوعقابًا، ولا يكون له عند الله قدر ولا زنة، وأما عند الشيخ أبي هاشم، فالقليل يسقط في جنب الكثير، ويسقط

---

(1) في (ك) زيادة: له.
(2) في (د،م) سقط: ثمة.
(3) في (د) حكي.
(4) في (د) سقط: وسواء كان للظالم أعواض، أو لم يكن؛ لأنه ليس المقصود إلا جبران حال المظلوم.
(5) في (د) الفاء بدلاً عن الواو.
(6) في (د) سقط: فيه.
(7) في (ك) سقط: كان ثوابه.

بقدره منه بمقداره، فإذا كان الكافر والفاسق مثلاً يستحقان ثوابًا، واستحال توفيره منافع، فإنه يسقط بقدره من العقاب جزء بجزء. هذا هو اللائق بالحكمة والعدل، وهو محضّ الإنصاف، والله أعلم.

فحصل من مجموع ما ذكرناه من[1] المقاصة فى المظالم إنما تكون بالأعواض، وأن الإحباط والتكفير والموازنة إنما تكون بين الثواب والعقاب كما فصلناه، فأما المقاصة بحمل الأوزار فليس فى ظاهر الخبر حُجة عليه؛ لأنه ليس فى ظاهر الخبر، إلا أن المظلوم لما بقى للظالم حسنات قال: «**فليحمل من أوزارى**».

وليس كلامه حُجة؛ لأن الحُجة إنما تكون من الله أو من رسوله، فأما كلام المظلوم فلا عبرة به، ثم إنه لا يمتنع أن يطلب ذلك المظلوم؛ لأنه إذا بطل أن يكون للظالم حسنات يقضى منها، فالمراد[2] تشفى الغيظ بحمل الأوزار؛ لأنه هو الممكن فى حقه.

كما أن الغريم إذا كان عليه دَين، ولم يجد فضة ولا ذهبًا يقضيهما، فصاحب الدَين يقول: مكنونى حتى أقضى من جسمه بحقى؛ تشفيًا للغيظ، وإمعاناً فى المقاصة، ولهذا فإن الله تعالى لما طلب ذلك لم يجب إليه، «**وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**» عند ذلك لم يكن ذلك مساعدًا إليه فى حقّ المظلوم، وقال عليه السلام: «**إن ذلك اليوم ليوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم**» فيه دلالة ظاهرة على تعذّر المقاصة بحمل الأوزار، وأن الأوزار إنما تسقط بالتوبة، أو فى مقابلة الثواب بقدرها لا غير، وفى الإحباط، والتكفير بين الثواب والعقاب والموازنة، والكلام فى أحكام الأعواض، وكيفية توفيرها كلام دقيق استوفيناه فى الكتب العقلية.

وذكرنا ما يحتمله من[3] المسائل الكلامية: فهذا ما أردنا ذكره فى وجوب الاقتصاص، وإليه الإشارة بقوله: «**يا رب خذلى مظلمتى من أخى، فقال الله: أعط أخاك مظلمته**»، وفى كيفية الانتصاف، وإليه الإشارة بقوله: إنه «**ما بقى من حسناتى شىء**». قال المظلوم: «**يا رب فليحمل من أوزارى**» على التفصيل الذى ذكرناه.

قاعدة: اعلم أن الذى عليه الجلّة من المتكلمين من الزيدية والمعتزلة، ومن تابعهم أن المنافع الثوابية، والمضار العقابية لا يجوز تعجيل شىء منها لأمرين، أما **أولاً**، فلأنه قد دلّ دليل البرهان العقلى على أنهما لا ينقطعان بعد التوفير لهما، وما كان فى الدنيا فهو ينقطع بالموت، وأما **ثانيًا**، فقالوا: إنه يؤدى إلى الإلجاء، وإلى بطلان التكاليف حتى يفعل الواجب لا لوجوبه بل من أجلّ استحقاق الثواب على فعله والعقاب على تركه، وهكذا حال القبيح، وفى ذلك بطلان التكاليف، وإنما يعجّل فى الدنيا ما كان من المضار المستحقة على جهة العوض والاعتبار والمصالح الدينية، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ

(1) فى (ك،م) أن بدلاً عن من.

(2) فى (د،م) فالغرض.

(3) فى (ك،م) فى بدلاً عن من.

مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[1]، فيكون فى مقابلة هذه المضار أعواض على الآلام، ومصالح تكون حاصلة فى التكليف لأجلها، وهو المعبّر عنها بالألطاف المصلحية.

المقام الثالث: فى ذكر يوم القيامة

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ذلك اليوم ليوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم**»، فنذكر ألقابه الخاصة، ثم نذكر أسماءه باعتبار التغيرات الحادثة فيه، ثم نذكر أسماءه باعتبار ما يعرض فيه من الأحوال ، ثم نذكر صفته، فهذه أنواع أربعة نذكر ما يختص كل واحد منها بمعونة الله تعالى .

الأول منها: ذكر ألقابه الخاصة

وهى: يوم القيامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم الزلزلة، ويوم المنافسة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعد[2]، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم عظيم، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزى[3]، ويوم الجمع، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرهبة[4]، ويوم الرّجّة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم الفزع، ويوم الجزع، ويوم المنتهى، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم المعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم الغرق، ويوم الافتقار[5]، ويوم الاحتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم الوعيد[6]، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم موعود، ويوم مشهود ، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلى السرائر .

النوع الثانى: فى ذكر أسمائه باعتبار ما يجرى فيه من الأمور الهائلة والتغييرات الفضيعة، فنسأل الله حسن الاستعداد لهول هذا اليوم

---

(1) سورة البقرة من الآية 155 .

(2) فى (د،م) الوعيد .

(3) فى (د) الجزاء . ﴿وهو غير مناسب فقد سبق ذكر يوم الجزاء﴾ .

(4) فى (د،ك،م) سقط: يوم الرهبة .

(5) فى (د) الإقتار .

(6) فى (د،م) الوعد .

العظيم الطويل زمانه، القاهرة سلطانه، القريب أوانه، يوم تكون السماء فيه كالمهل[1]، ويوم[2] تكون الجبال فيه كالعهن[3]، ويوم السماء فيه انفطرت، والكواكب من هوله اندثرت، والنجوم الزواهر انكدرت، والشمس فيه كورت، والجبال سيرت، والعشار عطلت، والوحوش حشرت، والبحار سجرت، والنفوس زوجت، والجحيم سعرت، والجنة أزلفت، والجبال نسفت، والأرض مدت، والأرض فيه زلزلت، والأرض أخرجت أثقالها، والبحار فجرت، والقبول بعثرت، ويوم تحمل فيه الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، يوم يكون الملك على أرجاء الأرض، يوم يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم رجّت فيه الأرض رجًّا، وبسّت[4] فيه الجبال بسًّا فكانت هباء منبثًّا، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات[5] وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف الجبال نسفًا فيذرها قاعا صفصفًا لا ترى فيها عوجًّا ولا أمتًّا، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة، وهى تمرّ مرّ السحاب، يوم تكون السماء وردة كالدهان، يوم النجوم فيه مطمسة[6]، ويوم السماء فيه منفرجة، ويوم السماء فى متشعبة، فإن هذه الأسماء إنما أطلقت باعتبار ما ذكرناه من هذه الأمور العظيمة الهائلة، وبالله التوفيق.

النوع الثالث: فى ذكر أسمائه باعتبار ما يجرى عليه من الأمور العظيمة المختصة بأحوال الخلائق يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئًا، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئًا، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، يوم يدعون إلى نار جهنم دعًّا، يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر، يوم تقلب وجوههم فى النار، يوم لا يجزى والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون، يوم لا مردّ له من الله، يوم هم بارزون، يوم هم على النار يفتنون، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، يوم تردّ فيه المعاذير، يوم تبلى فيه السرائر، وتظهر الضمائر، يوم تكشف فيه الأستار، ويوم تخشع فيه الأبصار، وسكنت الأصوات، وقلّ الالتفات، وبرزت الخفيات، وظهرت الخطيئات، وسيق العباد ومعهم الأشهاد، وشابَ الصغير، وسكر الكبير، ووضعت الموازين، ونشرت الدواوين، وبرزت الجحيم، وأغلى الحميم، وزفرت النار، ويئس الكفار، وسعرت النيران، وتغيرت الألوان، وخرس اللسان، ونطقت جوارح الإنسان بما كان من فعله من

(1) المهل: دُرديُّ الزيت. ينظر: لسان العرب، مادة (مهل).

(2) فى (د) سقط:يوم.

(3) العهن: الصوف المصبوغ ألوانًا. ينظر: لسان العرب، مادة (عهن).

(4) فى (ك،م) تبس.

(5) فى (د) سقط: السموات.

(6) فى (د) طمست.

العصيان، والزور والبهتان، فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب، وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فلابست الفجور، فماذا تفعل يا مسكين وقد شهدت عليك جوارحك، فالويل كل الويل لنا يا معشر الغافلين، يرسل إلينا سيد المرسلين، وينزل علينا الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرفنا غفلتنا، ويقول:﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾[1]، ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾[2]، ثم يعرفنا قرب القيامة، فيقول: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[3]، ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[4]، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[5]، ثم يكون أحسن أفعالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً، فلا نتدبر معانيه، ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه، ولا نستعد للفرار من دواهيه، فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يتداركنا الله بواسع رحمته.

النوع الرابع: فى صفة طول يوم القيامة

اعلم أن الشرع قد دلّ على صعوبة الأمر فيه، وعسرته، فالخلائق يقفون فيه شاخصة أبصارهم متفجعة قلوبهم لا يتكلمون، ولا ينظر فى أمرهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة، ولا يشربون شربة، ولا يتصل بوجوههم روح نسيم. قال كعب [6] وقتادة[7]: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[8] قالا: يقومون مقدار ثلثمائة عام[9]، وقال عبدالله بن عمر: تلا رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– هذه الآية: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ ﴾[10]، ثم قال: «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم»[11]، وقال الحسن: ما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة واحدة[12]، ولم

---

(1) سورة الأنبياء الآية 1.

(2) السورة نفسها، من الآية 3.

(3) سورة القمر الآية 1.

(4) سورة المعارج الآيتان 6، 7.

(5) سورة الشورى من الآية 17.

(6) وهو كعب الأحبار بن ماتع الحميرى، تابعى كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن، أسلم فى زمن أبى بكر– رضى الله عنه– وقدم المدينة فى عهد عمر– رضى الله عنه–، توفى بحمص سنة 32هـ. ينظر: طبقات ابن سعد، 7/ 445. الأعلام للزركلى، 5/ 228.

(7) وهو قتادة بن دعامة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسى البصرى، حافظ ضرير أكمه، كان تابعيًا عالمًا كبيرًا، توفى بواسط سنة117هـ، وقيل: 118هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 85. الأعلام للزركلى، 5/ 189.

(8) سورة المطففين الآية 6.

(9) ينظر: تفسير الطبرى، 24/ 281.

(10) سورة المطففين من الآية 6.

(11) ينظر: فتح القدير، 5/ 401.

(12) فى (د،ك،م) سقط: واحدة.

يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا، واحترقت أجوافهم جوعًا انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرّها، واشتّد لفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلّم بعضهم بعضاً فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقّهم فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم، وقال: دعونى: نفسى نفسى شغلنى أمرى عن أمر غيرى، واعتذر كل واحد منهم بشدة غضب الله، قالوا: قد غضب ربنا اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، حتى يشفع نبينا محمد– صلى الله عليه وآله وسلم– لمن يؤذن له فيه[1]، ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[2]، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحًا لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك، بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة لتتخلص من يوم مقداره خمسون ألف سنة، فلو لم تعمل إلا لتتخلص من ذلك اليوم دون رجاء الجنة، والخوف من النار لكان ربحك كثيرًا، وتعبك يسيرًا، فنسأل الله السلامة من أهوال يوم القيامة.

المقام الرابع: فى صفة الجنة وما أعد فيها لأوليائه

واعلم أنّا نورد صفاتها تارة على جهة الإجمال، ومرّة على جهة التفصيل، فهاتان مرتبتّان نفصلهما بمعونة الله تعالى:

المرتبة الأولى: فى بيان ما ورد فيها على جهة الإجمال: قال الله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[4]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[6] لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم عن ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون.

قال أبو هريرة: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– : «إذا صار أهل الجنة فى الجنة نادى منادٍ لكم أن تصحوا فلا تسقمون أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتون أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسون أبدًا»[7]، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 515.
(2) سورة طه الآية 109.
(3) سورة الزخرف من الآية 71.
(4) صحيح مسلم، 4/ 2175.
(5) سورة السجدة الآية 17.
(6) سورة الأنبياء من الآية 102.
(7) صحيح مسلم، 4/ 2182.

أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]، وقال النبي– صلى الله عليه وآله وسلم–: «وإن أهل الجنة ليتراؤون الغرف فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى الأفق من المشرق والمغرب؛ لتفاضل ما بينهم» . قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله، وصدّقوا برسوله، وبجميع المرسلين»[2]، وتأمل الآن فى غرف الدنيا[3]، واختلاف درجاتها فى العلو فيها، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، ففى مثل هذا فليتنافس المتنافسون، ويسبق السابقون.

المرتبة الثانية: فى بيان صفتها على جهة التفصيل

فنذكر صفة أرضها وأشجارها وأنهارها، ثم نذكر صفة طعام أهل الجنة، ثم نردفه بذكر لباسهم، ثم نذكر الحور العين، فهذه أنواع أربعة، هى كافية فى المطلوب بمعونة الله تعالى.

النوع الأول: فى بيان صفة أرضها وأشجارها وأنهار

فقد قال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «تربة الجنة درمكة[4] بيضاء من مسك خالص»[5]، وقال صلى الله عليه وآله و سلم: «حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ترابها زعفران، وطينها مسك»[6]، وقال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، فاقرؤوا إنْ شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[7]»[8]، وقال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– قال الله– عزّ وجلّ–: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾[9]– «يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، ثم انفتق الثمر فيها عن اثنين وسبعين لوناً ما منها لون يشبه لون الآخر»[10]، وعن سلمان الفارسى قال:– يا جرير– لو طلبت فى الجنة مثل هذا، وأخذعوداً صغيرًا لا أكاد أراه من صغره ما وجدته، فقال:– يا أبا عبدالله– أين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب، وأعلاها الثمر[11]، وسئل رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– عن قوله: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾[1]،

---

(1) سورة الأعراف من الآية 43.

(2) صحيح البخارى، 3/ 1188.

(3) فى (د) الجنة. ﴿وهو غير مناسب﴾.

(4) الدرمك الذى يدرمك حتى يكون دقاقاً من كل شىء كالدقيق والكحل وغيرهما، وكذلك التراب الدقيق درمك. ينظر: لسان العرب، مادة (درمك).

(5) مسند أحمد، 3/ 4.

(6) سنن الترمذى، 4/ 672. بلفظ: «ملاطها المسك».

(7) سورة الواقعة الآية 30.

(8) مسند أحمد، 2/ 438.

(9) سورة الواقعة الآية 28.

(10) المستدرك على الصحيحين، 2/ 518.

(11) شعب الإيمان، 6/ 278.

﴾[1]، قال: «قصر من لؤلؤ، في ذلك القصر سبعون دارًا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتًا من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريرًا، في كل سرير سبعون فراشًا من كل لون، على كل فراش زوجة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لونًا من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفة، وأعطى المؤمن في كل غداة ما يأتي على ذلك أجمع»[2].

وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «في الجنة غرف من أصناف الجوهر كله، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» قلت:- يا رسول الله- لمن هذه الغرف؟ قال: « لمن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[3]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[4] «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما من ذهب»[5]، وهذا ما يتعلق بأماكن الجنة كما ذكرناه.

النوع الثاني: في صفة لباس أهل الجنة وفرشهم والسرر والأرائك والخيام

قال تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[6]، وقال تعالى: مُتَّكِـِٔينَ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾[8]، وقال: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾[9]، وقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[10]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لمّا سأله رجل فقال: أخبرنا- يا رسول الله- عن ثياب أهل الجنة أخلق يخلق أم نسج ينسج؟ فسكت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وضحك بعض القوم، فقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ممَّ تضحكون من جاهل سأل عالمًا؟»، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : «بل تنشق عنها ثمر الجنة مرتين»[11]، وقال أبو هريرة: «أول زمرة تلج الجنة،

---

(1) سورة التوبة من الآية 72، سورة الصف من الآية 12.

(2) المعجم الكبير، 18/ 160.

(3) نفسه، 3/ 301. دون ذكر: «من أصناف الجوهر كله».

(4) سورة الرحمن الآية 46.

(5) ينظر: تفسير ابن كثير، 7/ 501.

(6) سورة الحج من الآية 23، وفاطر من الآية 33.

(7) سورة الرحمن الآية 76.

(8) سورة الدخان الآية 53.

(9) سورة الكهف من الآية 31، والإنسان من الآية 13.

(10) سورة الرحمن من الآية 54.

(11) مسند البزار، 6/ 408، 409.

صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم فيها من الذهب والفضة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخّ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف فيما بينهم، ولا تباغض قلوبهم، على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيًّا»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾[2] قال: «عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الخيمة درّة مجوّفة، طولها في السماء ستون ميلاً، وفي كل زاوية منها أهل للمؤمن، لا يراهم الآخرون»[4]. قال ابن عباس: الخيمة درّة مجوفة فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[5].

النوع الثالث: صفة طعام أهل الجنة

قال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[9]، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم من الفواكه والطيور السّمان والمنّ والسلوى والعسل واللبن والخمر وأصناف كثيرة لا تنحصر ولا تحصى، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾[10]، وفي الحديث: جاء رجل من أحبار يهود، فذكر للرسول أسئلة إلى أن قال: فمن أول الناس إجازة على الصراط؟ قال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون». قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا»، فقال: صدقت[11].

---

(1) صحيح البخاري، 3/ 1185.
(2) سورة الكهف من الآية 31، والحج من الآية 23، وفاطر من الآية 33.
(3) المستدرك على الصحيحين، 2/ 462.
(4) مسند أحمد، 4/ 419.
(5) مصنف ابن أبي شيبة، 7/ 41.
(6) سورة الزخرف من الآية 71.
(7) سورة الدخان الآية 55.
(8) سورة محمد من الآية 15.
(9) سورة الواقعة الآية 21.
(10) سورة البقرة من الآية 25.
(11) صحيح مسلم، 1/ 252.

وقال زيد بن أرقم[1]: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وقال:- يا أبا القاسم- ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لى بهذا خصمته، فقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- : «بلى، والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى المطعم والمشرب والجماع»، فقال اليهودى: فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة، فقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- : «حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك، فإذا البطن قد ضمر»[2]، وقال ابن مسعود: إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويًّا[3]، وقال حذيفة: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن فى الجنة طيرًا أمثال البخاتى»، قال أبو بكر: إنها لناعمة- يا رسول الله-؟ قال: «أنعم منها من يأكلها، وأنت ممّن يأكلها يا أبا بكر»[4].

النوع الرابع: فى صفة الحور العين والولدان

قال الله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾[5]، وقال: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على صفاتهن، وقد وردت الأخبار بزيادة شرح فيهن.

قال النبى- صلى الله عليه وآله وسلم-: «لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم فى الجنة، أوموضع قيد فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطّلعت على أهل الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[8] يعنى: الخمار، وقال أبو سعيد الخدرى، قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- فى قوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[9] قال: «ينظر إلى وجهه فى خدّها، أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء

---

(1) وهو زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصارى الخزرجى، أول مشاهده المريسيع فى السنة الخامسة للهجرة، نزل الكوفة، وسكنها، توفى سنة 68هـ. ينظر: الاستيعاب، 2/ 535.
(2) مسند أحمد، 4/ 367.
(3) مسند البزار، 5/ 401.
(4) إحياء علوم الدين، 4/ 540.
(5) سورة الواقعة الآيتان 22، 23.
(6) سورة الرحمن الآية 72.
(7) السورة نفسها الآية 58.
(8) صحيح البخارى، 3/ 1029.
(9) سورة الرحمن الآية 58.

ما بين المشرق والمغرب، وأنه يكون عليها سبعون ثوبًا ينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك»[1].

قال أنس: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعًا يقال له: البيدخ، عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر، فقلن: السلام عليك يا رسول الله، فقلت: ما هذا النداء– يا جبريل–؟، فقال: هؤلاء المقصورات فى الخيام يستأذن ربّهنّ فى السلام عليك، فأذن لهنّ فطفقن يقلنّ نحن الراضيات فلا نسخط أبدًا، ونحن الخالدات فلا نظعن أبدًا، وقرأ رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: **حُورٌ﴿ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾**[2]»[3]،وقال مجاهد[4]: **﴿ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾**[5] قال: من الحيض والغائط والبول والبزاق والنخامة والمنى والولد[6]، وقيل فى قوله تعالى: **﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾**[7] يعنى: شغلهم افتضاض الأبكار[8]، وقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إن الحور فى الجنة يتغنين، ويقلنّ: نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام»[9]، وقال أبو أمامة: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت يسمعه الإنس والجن، وليس بمزمار شيطان»[10]، فهذه صفات أهل الجنة قد ذكرناها جملة وتفصيلاً.

ولقد كان الأحسن ذكر صفة النار وأهلها، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يشر إلى ذكرها، فلا جرم سكتنا عن ذكرها، أعاذنا الله منها، ولعل ذكرها يجرى فى أثناء حديثه الذى نشرحه، فنورده هناك بمعونة الله تعالى، فهذا ما أردنا ذكره فى المقام الرابع من وصف الجنة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ارفع بصرك إلى الجنان، فرفع رأسه فرأى ما أعجبه من الحبرة والنعمة**».

المقام الخامس: فى حسن العفو

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم حاكيًا عن الله– عزّ وجلّ–، قال: «**بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: قد عفوت**

---

(1) المستدرك على الصحيحين، 2/ 516.
(2) سورة الرحمن الآية 72.
(3) إحياء علوم الدين، 4/ 540.
(4) وهو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج مولى قيس بن السائب المخزومى، صاحب التأويل والتفسير والأقاويل، توفى سنة 102هـ، وقيل: 104هـ. ينظر: طبقات ابن سعد، 5/ 466. حلية الأولياء، 3/ 279.
(5) سورة البقرة من الآية 25، آل عمران من الآية 15، النساء من الآية 57.
(6) ينظر: تفسير الطبرى، 1/ 396.
(7) سورة يس من الآية 55.
(8) القول لابن عباس. ينظر: تفسير الطبرى، 20/ 534.
(9) المعجم الأوسط، 6/ 312. وفيه : «هدينا بدلاً عن خبئنا».
(10) المعجم الكبير، 8/ 95.

عنه»، وقد أسلفنا فيه نبذة نافعة فيما سبق، ونزيد هاهنا قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ ﴾[1]، وعلى الجملة فإن هذه الخصلة يتفاوت فيها الخلق، وتعلو بها درجاتهم، وأقلّهم من يستبد بها ويحرزها، وما ذاك إلا لعظم حالها وكِبَر شأنها، وقد قال تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[5]، ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم خُلقه العفو والصفح، وقد رُوى أنه صلى الله عليه وآله وسلم قسم قسمة يومًا، فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، فذكر ذلك للرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- فاحمرّ وجهه، وقال: «رحم الله أخى موسى قد أوذى أكثر من هذا فصبر»[6]، وكان الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «لا يبلغنى أحد منكم عن أصحابى شيئًا فإنى أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم القلب»[7]، ورُوى أن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أُتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل، فما أراك تعدل، فقال: «ويحك من يعدل عليه بعدى» ! ! فلما ولى قال: «ردوه علىّ رويدًا»[8]، وروى جابر- رضى الله عنه- أنه عليه السلام كان يفيض على الناس يوم خيبر من فضة فى ثوب بلال، فقال له رجل: يا نبى الله اعدل، فقال: «ويحك إن لم أعدل فمن يعدل، لقد خبت إذن، وخسرت إن كنت لا أعدل»، فقام عمر، فقال: ألا أضرب عنقه، فإنه قد نافق، فقال عليه السلام: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى»[9]، وروى أنس بن مالك أن يهودية أتت النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- بشاة مسمومة ليأكلها، فجىء بها للرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك» فقالوا: أفلا نقتلها ؟ قال: «لا»[10].

وسحره رجل من اليهود، فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه وحلّ عقده، فوجد لذلك خفّة، وما ذكر ذلك لليهودى، ولا

---

(1) سورة الأعراف من الآية 199.
(2) سورة المائدة من الآية 13.
(3) سورة النور من الآية 22.
(4) سورة آل عمران من الآية 134.
(5) سورة الشورى من الآية 40.
(6) مسند أحمد، 1/ 380.
(7) مسند أحمد، 1/ 395. وفيه: «الصدر بدلاً عن القلب».
(8) ينظر: إحياء علوم الدين، 2/ 377.
(9) مسند أحمد، 3/ 353.
(10) صحيح مسلم، 4/ 1721.

أظهره عليه[1]، فهذه القضايا كلّها دالة على حسن عفوه صلى الله عليه وآله وسلم مع القدرة على العقوبة، ذكرناها هاهنا؛ ليكون عمدة للخلق فى حسن العفو، والمواظبة عليه، والتأسى بأخلاقه، وشمائله الطاهرة.

المقام السادس: فى إصلاح ذات البين

وإليه الإشارة بإيراد الآية عقيب كلامه فى قصة المتخاصمين، وقد قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[2]، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[4]، وقال: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[5]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إصلاح ذات البين أفضل عند الله من عامة الصلاة والصيام»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا متحابين»[7]، وقال تعالى: وَلَمَن﴿ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[8]، فهذه الآيات الحسنة كلها دالة على إصلاح ذات البين، فمن فعلها فقد أصلح الحال فيما بينه وبين الخلق، واعلم أن إصلاح ذات البين هو تنقية الظواهر، والبواطن من الخصال المهلكة من البخل والحسد والبغضاء والحقد والعداوة؛ لأن هذه الأمور كلها مؤدية لفساد الدين وإهلاكه، والمعنى: أنه عليه السلام أمر بإصلاح ذات البين، وخوف من تركه واطراحه بقوله:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[9]، لأن التقوى مأخوذة من الوقاية، وهذا إنما يكون فى فعل الواجبات وترك القبائح، ولا يقال فى المندوبات، وأعظم آية وردت فى إصلاح ذات البين قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[10] حكى الله تعالى أن فريقين من المؤمنين إذا

(1) المعجم الكبير، 5/ 180.
(2) سورة الأنفال من الآية 1.
(3) سورة فصلت من الآية 34.
(4) سورة الحجرات من الآية 12.
(5) السورة نفسها ومن الآية نفسها.
(6) سنن أبى داود، 4/ 280. بلفظ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة». قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين».
(7) صحيح البخارى، 5/ 2253. دون ذكر: «متحابين».
(8) سورة الشورى من الآية 43.
(9) سورة آل عمران من الآية 50 .
(10) سورة الحجرات الآية 9.

وقع بينهما قتلى لشبهة طرت عليهم، والتبس الحق فيها، أوكانت المسألة المختلف فيها اجتهادية، فاقتتلوا ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾ بما سنح من العفو فى القتل، وبالمسامحة فى الدماء[1]، والعفو فيها وأخذ بعضها .

﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ التى بغيها: إما بطلب القصاص فيمن قتل بالخطأ، وإما بالزيادة على الحق، ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي ﴾ إن أحوجت إلى القتال بالإعراض عن الإصلاح بالقول[2]﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ بقبول الحق وإعطائه،﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْ ﴾ اعدلوا فى خوضكم فى الصلاح، والسداد ولا تحيفوا على أحد الفريقين.

﴿ فَإِن فَآءَتۡ ﴾ أىْ: أنابت، ورجعت عن البغى﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ ﴾، والاستقامة على الحق﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾، والقسط: من أسماء الأضداد، يقال: أقسط إذا عدل، وأقسط إذا جار، الغرض هاهنا العدل، فإن الله تعالى منزّه فى حكمته عن الأمر بالجور؛ خلافاً لمن خالف فى الحكمة من فرق الجبرة، فانظر ماذا يصلح الله به من عمد إلى العناية فى إصلاح ذات البين، وإنما ينتفع بالتذكير أهل التقوى، ويعتبر بالعبر من نجعت فى حقّه[3] الذكرى، فمن جعل همّه النظر فى مهمات الدين ولوازمه؛ فقد استمسك بالعروة الوثقى[4]، وفاز بالنصيب الأوفر الأوفى، ولجأ إلى ركن حصين، واستكنّ بركن[5] كنين، ومن كان عن ذكرها لاهيًا، وعند النظر فى محاسنها ساهيًا، فقد أعرض عن الحُجّة، واقتحم اللجّة، فنسأل الله الانتفاع بالحجج القائمة، والمصير برحمته إلى المغفرة[6] الدائمة، وقد تم غرضنا من شرح هذا الحديث.

الحديث التاسع عشر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ– رَضِيَ اللهُ عَنْه– قَالَ: قِيلَ:– يَا رَسُولَ اللَّهِ – مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ نَظَرَوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاهْتَمُّوا بَآجِلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشِوا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكَهُمْ، فَمَا عَرَضَ لَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا عَارِضٌ إِلاَّ رَفَضُوهُ، وَلاَ خَادَعَهُمْ مِنْ رِفْعَتِهَا خَادِعٌ إِلاَّ**

---

(1) فى (د،م) الدنيا . ﴿وهو غير مناسب فى السياق﴾ .

(2) فى (د،ك) سقط: إن أحوجت إلى القتال بالإعراض عن الإصلاح بالقول. ﴿وهى جملة تبرز متى يكون القتال﴾ .

(3) فى (د) قلبه.

(4) فى (د) سقط: الوثقى.

(5) فى (د) سقط: الباء .

(6) فى (د،م) مغفرته.

وَضَعُوهُ، خَلِقَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ فَمَا يُجَدِّدُونَهَا، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَمَا يَعْمُرُونَهَا، وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَمَا يُحْيُونَهَا، بَلْ يَهْدِمُونَهَا فَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ، وَيَبِيعُونَهَا فَيَشْتَرُونَ بِهَا مَا يَبْقَى لَهُمْ، وَنَظَرُوا إِلَى أَهْلِهَا صَرْعَى قَدْ خَلَتْ قَبْلَهُم الْمُثُلاَتُ، فَمَا يَرَونَ أَمَانًا دُونَ مَا يَرْجُونَ وَلاَ خَوفًا دُونَ مَا يَحْذَرُونَ»[1] .

فنقول: الحمد لله المدبر الحكيم، الذى أطلع أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن قبائح عيوبها وعوراتها، حتى نظروا فى شواهدها وآياتها، ووازنوا بين حسناتها وسيأتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفى مرجوها بمخوفها، ولا يسلم إشراقها من كسوفها، وأنها قد تمثلت فى الخدع والاحتيال، والتصنيع وإظهار بُرد الجمال بصورة امرأة جميلة تستميل الناس بحسن جمالها، ولها أسرار سوء، وقبائح تهلك الراغبين فى وصالها، ثم إنها فرّارة عن طلابها، شحيحة بالمساعدة على خطابها، وإذا أقبلت لا يؤمن شرّها، وبالغت فى إيصال وبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سَنة، وإن أساءت مرّة جعلتها سُنّة مستحسنة، فدوائر إقبلها على التقارب دائرة وتجارة أهلها بائرة خاسرة، وآفاتها على التوالى لصدور طلابها راشقة، ومجارى أحوالها بذل طالبيها ناطقة، وكل مغترّ بها، فهو إلى الذلّ مصيره، وكل متكبر فيها فإلى الحسرة والندامة مسيره.

شأنها الهرب من طلابها، والتزين والتزهى بزخرفها وإعجابها، من ساعاها فاتته، ومن واتاها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته، لا يحلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها لا يسوق إلا إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، وهى خداعة مكّارة طيارة فرارة حائلة زائلة، لا تزال تظهر الزينة لطلابها، حتى إذا صاروا من أهلها، وأحبابها كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمها، ورشقتهم بصوائب أسهمها، بينما أصحابها منها فى سرور وإعجاب وإنعام؛ إذ ولّت عنهم معرضة كأنها الأضغاث[2] الأحلام، ثم كشرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم فى أكفانهم تحت الصعيد، إن ملّكت واحدًا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس؛ [3]جعلته حصيدًا كأن لم يغن بالأمس، تمنى أصحابها غرورًا، وتعِدُهم سرورًا، حتى راموا الحياة كثيرًا، وبنوا منازل كثيرة[4] وقصورًا، فتصبح قصورهم قبورًا، وجمعهم بورًا، وسعيهم هباء منثورًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 30.

(2) فى (د) سقط: أل التعريفية من الأضغاث. ﴿ولعله المناسب﴾. والأضغاث: جمع ضغث وهو الحلم الذى لا تأويل له، ولا خير فيه. ينظر: لسان العرب، مادة (ضغث).

(3) فى (د،م) زيادة: الواو. ﴿وهى زيادة غير مناسبة﴾.

(4) فى (ك) كبيرة.

والصلاة على إمام أئمة الهدى، والهادى إلى مصالح الدين والتقوى، والمؤثر للآخرة على الدنيا الهاجر للذّاتها، المعرض عن شهواتها، محمد الأمين، وعلى آله الطيبين الذين صاروا للدّين ظهيرًا، وعلى كل من حالف عونًا ونصيرًا، واعلم أن ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا الحديث مشتمل على النظر فى أمور ثلاثة، نفصلها بمعونة الله تعالى.

النظر الأول: فى بيان ما يشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من الألفاظ اللغوية

الولى والمولى: شىء واحد[1]، وهما لفظتان مشتركتان بين معانٍ، فيراد بهما الناصر، والحليف، وابن العم، والمعتق، واللاحق بالأمر، والمرد[2]، والمراد بهما هاهنا أهل المحبة والولاية فى الدِّين الذين يرعاهم برعايته، ويكلؤهم بكلائته، **والأولياء**: خلاف الأعداء، والسؤال عمّن يختصّ بهذه الخاصة، ويكون متميزًا بهذه الخلاصة، **والخوف**: نقيض الأمن، **والحُزن**: نقيض السرور، فقال عليه السلام مجيبًا للسائل على سؤاله: «**الذين نظروا**» **النظر**: لفظة مشتركة بين معانٍ، فيكون للمقابلة، ويكون لتقليب الحدقة، ويكون للفكر وترتيب المقدمات، وهو المقصود هاهنا؛ لأن الغرض هو التفكر فى حال الدنيا وبطلانها ونفادها، ثم إن **للفكر** مواقع أربعة:

الموقع الأول: يحصل عنده العلم الضرورى، وهو نحو الفكر فى الأخبار المتواترة وترتيب مقدماتها، وأن العدد لا يجوز عليهم التواطؤ على الكذب.

الموقع الثانى: يحصل عنده العلم النظرى، وهو نحو النظر فى المقدمات العلمية، ويكون الترتيب صحيحًا، فما هذا حاله يكون نظريًّا.

الموقع الثالث: يحصل عنده الظن الغالب القوى، وهذا نحو النظر فى الأمارات القوية، فإنه يحصل الظن الغالب على قدر قوة الأمارة وضعفها.

الموقع الرابع: يحصل الاعتقاد، وهذا نحو النظر[3] فى الشبهة لأهل الزيغ وأهل الضلالات، فإنهم نظروا على غير حدّ

---

(1) فى (د) سقط: واحد.

(2) فى (ك) سقط: والمرد.

(3) فى (د) سقط: وهذا نحو النظر.

الاستقامة في نظرهم فضلوا عن الحقّ واعتقدوا الاعتقادات الباطلة، وتوهموا التوهمات الفاسدة، فهذه كلها مواقع النظر لكل ناظر.

الباطن: هو خلاف الظاهر، **والظاهر:** ما ظهر أمره، **والباطن:** ما خفي أمره، **والاهتمام:** هو الاجتهاد، واشتقاقه ممّا يهمّ الخاطر، ويؤلمه من الأمور كلها، ومنه **الهمّ**؛ لأنه يلصق بقلب الإنسان، **والآجل من الدنيا**: هو المنتظر، **والعاجل** منها: هو الحاضر.

الموت: هو نقيض الحياة، **والخشيّة:** هي الخوف، **والترك:** نقيض الفعل، **والعلم:** هو القطع المحقق بكل ما تعلق به. **العارض:** هو نقيض المستقر الثابت، ومنه قولهم: الدنيا عرض حاضر، والمطر عارض، **والنائل:** هو العطاء لا ينال المعطى، **والرفض:** هو الترك للشيء، يقال: فلان رفض أعماله إذا تركها، **والخدع والمكر** سيان، وهو الفساد من قولهم: خدع الريق إذا فسد، والخدع والمكر والخيانة والختر كلها دالة على الفساد، **والوضع:** خلاف الأخذ. **الإخلاق:** نقيض الجِدّة، وهو من خَلِق الثوب إذا صار ضعيفاً، **والخراب:** نقيض العمارة، **والموت:** نقيض الحياة، **والهدم:** نقيض البناء، **والبيع والشراء:** معروفان، وهما من عقود المعاوضات، **والباقي:** نقيض الفاني، **والصرعى:** جمع صريع، وهو الساقط على جنبه، والقياس من (فعيل) من الصفات، بمعنى (مفعول) أن يكون جمعه على (فعلى)، نحو صريع وصرعى، وقتيل وقتلى، وغير ذلك، **والنظر** هاهنا: تقليب الحدقة، نحو المرئي طلبًا لرؤيته. **الخلو** هاهنا: هو التقدم، **والمثلات:** هي العقوبات. **الرؤية:** هاهنا بمعنى العلم؛ لأن الرؤية فيه غير معقولة، **والدون:** هو الأمر المتوسط بين الشيئين، كما قال تعالى: ﴿ **ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ** ﴾[1]، وقوله: ﴿ **إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾[2]، **والرجاء**: هو الأمل، **والحذر**: هو البعد عن الشيء، **والمحاذرة:** المباعدة.

فائدة: اعلم أن أنس بن مالك راوي هذا الحديث كان رجلاً من الأنصار، وكان خادمًا لرسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– وكان كثير الخلطة له، والملابسة لأحواله فيما يحتاج إليه الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– وربّما خاطبه بخطاب الملاطفة، فكان تارة يقول له: يا بني، وتارة يقوله له: يا أنيس، ولقد قال يومًا: خدمت رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته من قبل نفسي[3]، لم فعلته؟ ولا في شيء تركته، هلا فعلته[4]، وعمّرَ إلى زمن عبدالملك بن مروان، وكأنه[5] نزل العراق لحاجة له فدخل يومًا على الحجاج بن يوسف[6]، فقال له الحجاج: يومًا معنا ويومًا مع ابن الزبير[1]، فقال له أنس: من تعني أيها الأمير؟ فقال:

---

(1) سورة الزمر من الآية 3. الشورى من الآية 6، 9.

(2) سورة الأعراف من الآية 30.

(3) في (د) سقط: من قبل نفسي.

(4) ينظر: حديقة الحكمة، 9.

(5) في (ك) كان.

(6) وهو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، ولد ونشأ بالطائف، ولاه عبد الملك بن مروان مكة والمدينة، ثم أضاف إليهما العراق، كان يخبر الحجاج عن نفسه أن أكبر لذته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره، توفي بواسط سنة 95هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 2/ 29– 53.

أنت صكّ الله مسامعك، فقال: والله لولا الصبية ما أبالى على أى حال متّ، ثم آذاه الحجاج وسبّه، وكان الحجاج وقحًا أحمق كثير العداوة لأهل الفضل من أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- خاصة، ولسائر المسلمين عامة، فكتب أنس إلى عبدالملك بن مروان كتابًا أطال فيه الشكوى والعتاب له، ويشكو إليه الحجاج، وقبح معاشرته له، حتى أنه قال فى كتابه إليه: والله لو أن اليهود والنصارى وجدوا رجلاً خدم موسى بن عمران، أو عيسى بن مريم- عليهما السلام- يومًا واحدًا لفعلوا فى أمره كذا وكذا، وأنا خدمت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- عشر سنين، فما رأيتم لى ذلك.

فلما وصل الكتاب إلى عبدالملك بن مروان قرأه وتصفحه، ثم كتب إليه كتابًا يظهر له فى الحدّة والخشونة، قال فيه: أما بعد: يا ابن المستقرمة بعجم الزبيب أنسيت محافر آبائك فى الطائف، ونقلهم الأحجار على عواتقهم، والله ما أردت إلا أن تزورنى بهذه، فإن سكت لك عنها مضيت قدمًا، وإن رددتك عنها عرفت نفسك، والله لأغمزنك غمز الأسد الثعلب، فلما وصل الكتاب قرأه، وامتثل ما قاله عبدالملك، وكتب الحجاج إلى أنس بن مالك يستعطفه، ويسترضيه، ويشفع إليه أن يكتب إلى عبدالملك بأن يرضى عنه، ففعل ذلك[2]، وأقول: لقد أجاد عبدالملك فيما فعل من الاعتراف بحقّ أنس ، وكفّ الحجاج عمّا أراد من أذيته، والوقيعة فى عرضه.

المطلب الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الإعرابية

فقوله: «**قيل**» فعل ما لم يسم فاعله، وفيه ثلاث لغات: قول: بصريح (الواو)، وأصله قول، ثقلت الكسرة على (الواو) فحذفت لثقلها، وقيل: بصريح (الياء)، وأصل قول، ثقلت الكسرة على (الواو) فحذفت فسكنت (الواو)، وانكسر ما قبلها فقلبت (ياء)، وقيل: بالإشمام[3]، إما بإشمام الكسرة صوت الضمة، وإما بإشمام الضمة صوت الكسرة، فكلاهما ممكن حاصل، وهما حاصلان أعنى الضمة والكسرة فى قول، وقد جاءت اللغات الثلاث فيه كلها . «**يا رسول الله**» منادى مضاف، وليس هناك فاعل لما لم يسم فاعله، ولكنه مقدر، تقديره: قيل القول يا رسول الله، واسم «**الله**» مجرور بالإضافة.

«**من**» استفهامية عمّن يعلم، وهى فى موضع رفع بالابتداء، و«**أولياء**» جمع ولىّ، و(أفعال) هى قياس فى (فعيل)، نحو: نبى وأنبياء، وصفى وأصفياء، وهو مرفوع على أنه خبر المبتدأ .

---

(1) وهو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشى الأسدى، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق، ولد فى السنة الأولى من الهجرة، بويع سنة 64هـ، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وقاتل بنى أمية، وانتهى الأمر بمقتله فى مكة سنة 73هـ، بعد استمراره فى الحكم تسع سنين. ينظر: الإصابة، 4/ 89- 94. الأعلام للزركلى، 4/ 87.

(2) ينظر: تاريخ دمشق، 12/ 171- 174.

(3) الإشمام: رَوْمُ الحرف الساكن بحركة خفية لا يعتدّ بها، ولا تكسر وزنًا . ينظر: لسان العرب، مادة (شمم).

«**الذين**» اسم موصول يحتاج إلى صلة وعائد، وهو موصول بجملة ابتدائية، وهو قوله: «**لا خوف عليهم**»، و«**لا**» هاهنا هى التى يقع بعدها المبتدأ والخبر فى قولك: لا زيد قائم ولا عمرو خارج، وليست هذه التى بمعنى (ليس)؛ لأن تلك قليلة الوقوع نادرة الاستعمال، وإنما جاز الابتداء بالنكرة؛ لما كانت فى ضمن النفى العام، و«**عليهم**» جار ومجرور فى موضع خبر المبتدأ، والعائد هو الضمير فى قوله: «**عليهم**»، ويحتمل أن تكون «**لا**» بمعنى (ليس)، و«**عليهم**» فى موضع نصب خبر لها .

«**ولا هم يحزنون**» جملة ابتدائية معطوفة على جملة سلبية على التقرير الذى لخصناه فى الأولى. «**قال**»هو جواب للاستفهام، وأصله: قول؛ لأنه من (الواو) فى تحرك حرف العلة، وهو (الواو) وانفتح ما قبلها، فقلبت (ألفًا)، والإعلال هو أصل فى الأفعال، كما أن الإعراب أصل فى الأسماء، وكل ما هو أصل فى باب فهو دخيل فى الباب الآخر لا محالة. «**الذين نظروا**» جملة موصولة بجملة فعلية، والفاعل هو «**الواو**»، وموضع الموصول من الإعراب فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون مرفوعًا على أنه خبر المبتدأ، تقديره: قال: هم الذين نظروا، ويحتمل أن يكون منصوبًا على تقدير :أعنى، فإما أن يكون مرفوعًا على الصفة للأولياء فهو ضعيف؛ لأن الصفة لا يفصل بينها وبين موصوفها بأجنبى عنها . «**إلى باطن الدنيا**» جار ومجرور فى موضع نصب على المفعولية. «**الدنيا**» فى موضع جر بالإضافة لـ «**باطن**» إليها . «**حين**» منصوب على الظرفية يتعلق بـ «**نظروا**»، و«**حين**» مضاف إلى الجملة الفعلية بعده، ويحتمل أن يكون الحين مبنى على الفتح لإضافته إلى غير المتمكن، وهى الجملة، لكن الأول أحق؛ لأن الأصل فى الأسماء الإعراب، فلا حاجة بنا إلى البناء مع الاحتمال.

«**نظر الناس**» جملة فعلية فى موضع جر بالإضافة **للحين** إليها على أحد الاحتمالين. «**إلى ظاهرها**» جار ومجرور. «**واهتموا**» جملة فعلية، و«**الواو**» عاطفة لجملة على جملة؛ لما بينهما من الملاءمة، والاتفاق فى مطلق الفعلية. «**بآجل الدنيا**» جار ومجرور فى موضع نصب على المفعولية. «**الدنيا**» فى موضع جر بإضافة[1] ما قبلها إليها . «**حين اهتم**» خبر فيه ما ذكرناه من الاحتمالين اللذين سبقا فى غيره. «**بعاجلها**» جار ومجرور ينتصب على المفعولية، و«**الهاء**» ضمير لـ «**لدنيا**» يفسره ما قبله من ذكرها . «**فأماتوا**» «**الفاء**» للعطف، و«**أماتوا**» جملة فعلية منها جار ومجرور يتعلق بالفعل قبلها . «**ما**» موصولة. «**وخشوا**» صلة لها، ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة بما بعدها «**أن يميتهم**» فى موضع نصب على المفعولية؛ لأن **خشى** يتعدى إلى مفعول واحد . «**وتركوا منها**» جملة فعلية. «**ما علموا**» «**ما**» فيها: الوجهان اللذان قدمناهما . «**أن سيتركهم**» فى موضع نصب المفعولية لـ «**علموا**»؛ لأنه بمعنى المعرفة، فلا يكون له[2] إلا مفعول واحد .

---

(1) فى (د،م) بالإضافة. ﴿وهو غير مناسب﴾ .

(2) فى (ك،م) به. ﴿وهو غير مناسب﴾ .

سؤال: أراه قال: «**ما خشوا أن يميتهم**» فوجهه بالخشية، وهى الظن، وقال: «**ما علموا أن سيتركهم**» فوجهه بالعلم، فما التفرقة بينهما ؟

وجوابه: أن الذى أماتوا هو حبّ الدنيا من قلوبهم، ولو لم يميتوه لغلب الظن على أنه قاتل لهم، مهلك لمهجهم بالقرينة القوية؛ لأن حبّ الدنيا مهلك لا محالة بغلبات الظنون، بخلاف تركهم للدنيا، فإنهم قاطعون لا محالة على أن الدنيا منقطعة عنهم فانية من أيديهم، قطعًا ويقينًا لا شك فيه، فافترقا . «**أن**» فى قوله: «**أن سيتركهم**» هى المصدرية، لكنها غير عاملة لأجل (السين)، فهى التى عزلت عملها وأبطلته، كما قال تعالى: ﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ** ﴾[1] . «**فما عرض**» «**ما**» نافية، و«**عرض**» فعل ماض، وفاعله «**عارض**» . «**من نائلها**» جار ومجرور، و«**من**» لابتداء الغاية. «**إلا رفضوه**» استثناء مفرّغ فى الجملة الفعلية، والتقدير: فما عرض لهم من نائلها عارض فعلوا به شيئًا إلا رفضوه، وإن قدرناه بالاسم كان بدلاً من عارض، أىْ: ما عرض لهم عارض إلا الرفض، كقولك: ما جاءنى أحد إلا زيد، ويصح فيه النصب: إما على الانقطاع، وإما على أصل الاستثناء، وليس كقوله تعالى: ﴿ **فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾[2]؛ لأن هذا يجب نصبه؛ لكونه موجبًا، ولكن نظيره قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ** ﴾[3] على قراءة النصب، إذا قلنا: إن المرأة مسرىّ بها، فالنصب لا يكون إلا بما ذكرناه، وفى الآية أسرار بديعة فى قراءة الرفع والنصب، وفى كون المرأة مسرى بها أو غير مسرى، ذكرناها فى شرحنا لكتاب (المفصل)[4]، فليطلب من هنالك.

«**ولا خادعهم**» «**لا**» هاهنا نافية، و«**خادعهم**» جملة من فعل وفاعل ومفعول، و«**خادع**» مرفوع على الفاعلية، و«**من رفعتها**» جار ومجرور، و«**من**» لابتداء الغاية. «**إلا وضعوه**» الكلام فى «**وضعوه**» من الإعراب، والاستثناء مثل ما ذكرناه فى «**رفضوه**» سواء . «**خَلقت الدنيا**» فعل وفاعل. «**عندهم**» مضاف، ومضاف إليه، و«**عند**» منصوب على الظرفية للمكان.

«**فما يجددونها**» «**ما**» هاهنا نافية، و«**الفاء**» للعطف، والاستئناف. «**يجددونها**» فعل مضارع، وفاعله «**الواو**»، والضمير مفعول. «**وخربت بينهم**» جملة فعلية معطوفة على ما قبلها، و«**بينهم**» ظرف مضاف إلى الضمير. «**فما يعمرونها**» جملة سلبية معربة بالرفع لأجل المضارعة. «**وماتت فى صدورهم**» جملة موجبة ماضية، و«**فى صدورهم**» جار ومجرور فى موضع

---

(1) سورة المزمل من الآية 20.

(2) سورة البقرة من الآية 249.

(3) سورة هود من الآية 81.

(4) المحصل فى كشف أسرار المفصل، يحيى بن حمزة العلوى، أطروحة دكتوراة مقدمة من خالد عبد الحميد أبو جندية إلى كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر،عام 1982م ، القاهرة، مصر.

المفعول. «**فما يحيونها**» جملة فعلية سلبية، و«**الواو**» ضمير، و«**الياء**» التى هى (لام) الفعل محذوفة لأجل التقاء الساكنين، «**بل يهدمونها**» «**بل**» للإضراب، و«**يهدمونها**» جملة موجبة معربة بالنون، و«**الواو**» ضمير. «**فيبنون بها آخرتهم**» جملة موجبة مضارعة، و«**بها**» جار ومجرور، و«**الباء**» هاهنا للاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم. «**ويبيعونها**» جملة مضارعة. «**فيشترون**» جملة معربة مضارعة، و«**بها**» جار ومجرور.

«**ما يبقى لهم**» «**ما**» موصولة فى موضع نصب على المفعولية لـ «**يشترون**». «**ونظروا**» جملة موجبة ماضية. «**إلى أهلها**» جار ومجرور يتعلقان بما قبلهما من الفعل. «**صرعى**» جمع صريع فى موضع نصب على الحال من «**الواو**» فى «**نظروا**». «**قد خلت**» جملة محققة بـ «**قد**». «**قبلهم**» ظرف مضاف إلى الضمير. «**فما يرون**» جملة سلبية معربة بالنون، و«**الواو**» ضمير، و«**المَثُلات**» جمع مثلة، وهو جمع المؤنث السالم، كالزينبات، وسماعنا بفتح الميم، وضمّ الثاء، والقياس فيه بضم الميم؛ لأنه جمع لمثلة، مثل: غدوة وبكرة، لكن فتحت الميم سماعًا، اللهم إلا أن يسمع فى واحدة مثلة بفتح الميم، والضم فى الثاء، فعند هذا يكون جمع على «**المثلات**» قياسًا، نحو تمرة وتمرات، وسدرة وسدرات.

«**أمانًا**» مفعول منصوب على المفعولية لـ «**يرون**». «**دون**» نصب على الظرفية. «**ما يرجون**» «**ما**» موصولة فى موضع جر بإضافة «**دون**» إليها. «**ولا خوفًا**» منصوب على العطف على «**أمانًا**» «**دون**» منصوب بالظرفية. «**ما يحذرون**» «**ما**» موصولة، والعائد محذوف، أىْ: يحذرونه، ويحتمل أن تكون مصدرية، أىْ: دون حذرهم، ورجائهم، فهذا هو الإعراب لألفاظه.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم فى البلاغة

وفيه مباحث ثلاثة:

البحث الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

فإنما صدّره بفعل ما لم يسم فاعله مبالغة فى حذف الفاعل، والإبهام فيه من أجل ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ** ﴾[1]،﴿ **وَقِيلَ بُعۡدًا** ﴾[2]،﴿ **وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ** ﴾[3]، إلى غير ذلك مما حذف فاعله من أجل الإبهام. «**يا رسول الله**» منادى تفطنًا بالنداء، وإيقاظًا عن الغفلة. «**من أولياء الله**»، فـ «**من**» هاهنا استفهامية أتى بها من أجل الاستعلام

(1) سورة هود من الآية 44.

(2) السورة نفسها ومن الآية نفسها.

(3) سورة التحريم من الآية 10.

والاستخبار عن الأولياء الذين من صفتهم أنه لا ينالهم خوف، ولا حزن، فالذى أتى به من أجل تعريف حالهم بهذه الصفة. «**قال**» ذكره جواب لما ذكره من الاستفهام «**الذين**» جاء موصول أيضًا يوضح أمر الموصول الأول.

«**نظروا**» هو صلته، وإيراد المسند إليه إما بالفاعلية، أو بالمبتدأ وارد فى التنزيل كثيرًا، وما ذاك إلا من أجل ما يحصل من الفوائد الكثيرة، والنكت الغزيرة من أجل الصلة المتجددة، فهى مشتملة على معانٍ كثيرة متجددة حادثة يدريها أهل الفطانة، ويستولى عليها من كان له أدنى ذوق. «**باطن الدنيا**» هو ما تصير إليه، ويؤول إليه أمرها، و«**نظر الناس**» إنما كان فى ظاهرها، وما يحصل لهم منها من حطام. «**فأماتوا منها**» ترك[1] الالتفات إليه ما ظنوا أنه يميت قلوبهم بالقسوة، فهذه كلها جمل دالة على ما ترى من هذه الحكم العظيمة، ثم أردفه بقوله: «**فما عرض لهم من نائلها عارض إلا رفضوه**» فهذه جملة قد اشتملت على الجملة السلبية، والاستثناء بعدها من أجل ما يحصل فى الكلام من التحقق والثبوت بالاستثناء، ثم استأنف الأمر بكلام آخر بقوله: «**خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها**» بالإيثار والمحبة فى قلوبهم، وخربت بالإهمال، «**فما يعمرونها**» بالتذكر والتعطف عليها. «**وما تت فى صدورهم فما يحيونها**»، ثم :كأنه أعرض عمّا سلف من أمر الدنيا ووصفها، واستأنف بقوله: بل «**يبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها**» آخرتهم، وهو الذى يبقى فى الحقيقة لهم. «**ونظروا**» أيضًا بعين التفكر والبصيرة إلى أهلها كما نظروا إليها صرعى قد صرعتهم المنايا، و«**خلت**» مضت من «**قبلهم المثلات**» العقوبات بما حصل على من كان قبلهم من الأمم الماضية، والقرون الخالية، فإن الله قد أصابهم بالعقوبات بما حصل على من كان قبلهم من الأمم الماضية، وقطع دابرهم بالمصيبات، كما قال: ﴿ **وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ** ﴾[2] «**فما يرون أمانًا**» من جميع المخاوف كلها إلا كان رجاؤهم لما يحصل من ثواب الله تعالى أعظم من كل أمان، ولا يرون خوفًا، وإن عظم من جميع المخاوف دون ما يحذرون ويفرحون ويفرقون من عذاب الله، فهذه جملة ما اشتمل عليه من علوم المعانى، قد سردناها على هذا السرد، وأنت إذا تأملتها وجدتها مشتملة على الأمور الموصولة المسند إليها: إما بالفاعلية، وإما على جهة الابتداء، وعلى إضمار المسند إليه؛ لتقدم ما يفسره من الظواهر، وعلى تصدير الجملة بالنفى والإثبات بالاستثناء، وهكذا حال الحروف المتعلقة نحو: (من، وإلى، وعلى، وفى) فإن هذه الأحرف كلها كل واحد منها يختصّ بموقع ومعنى غير معنى الآخر، وموقعه وصاحب المعانى هو الذى يتكلم على أسرارها ومعانيها، ويعطى كل حرف منها ما يستحقه، وكل واحد منها ما يختصّ بموقعه الذى وقع فيه ولو وقع غيره من حروف المعانى موقعه لم يعط فائدته، ولم يجد جدواه، فهكذا يكون النظر فى علوم المعانى على هذه الكيفية، والله أعلم.

---

(1) فى (د) بترك.

(2) سورة الرعد من الآية 31.

البحث الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم البيانية

واعلم أن مورده هو الاستعمالات المجازية، والاستعارات الرائقة، ونحن نورد ما تضمنه منها، وبالله التوفيق.

المجاز الأول: قوله: «**قيل**»، وقد صدّرها باستعمال الفعل لما لم يسم فاعله، وهو مجاز لما فيه من حذف الفاعل المحقق، وإقامة المصدر مقامه.

المجاز الثانى: الباطن والظاهر للدنيا، فإنهما مجازان؛ لأن الغرض بالنظر هو تقليب الحدقة لأجل المرئى، فلا جرم كانا مجازين؛ لأن المقصود **بالباطن والظاهر** إنما هو ما يرجع عاقبة الأمر فيها، **فباطنها** أنها منقطعة زائلة نافرة طيارة، **والظاهر** منها ما يبدو من رونقها وزخرفها الغار لمن اغتر به.

المجاز الثالث: حرف الجر فى قوله: **إلى باطنها وإلى ظاهرها**، فإن «**إلى**» أصلها وحقيقتها للغاية التى ينقطع عندها التصرف، وهذا ليس حاصلاً هاهنا، فلهذا كان مجازاً.

المجاز الرابع: «**الباء**» فى قوله : **بالآجل والعاجل**، فإن حقيقتها للإلصاق، ولا معنى للإلصاق هاهنا؛ لأن الإلصاق إنما هو المضامة والملامسة، وهما غير حاصلين، فلهذا حكمنا بالمجازية كما ترى.

المجاز الخامس: الإماتة فى قوله: «**فأماتوا ما خشوا أن يميتهم**» لأن الموت هاهنا لا حقيقة له، وإنما هو مجاز فى غاية الرشاقة والحسن.

المجاز السادس: الترك، فإنه مجاز فى تركهم للدنيا وترك الدنيا لهم بالانقطاع والزوال، وفى تركهم لها بالإعراض التولى عنها.

المجاز السابع: العارض والرفض، فإنهما مجازان فى الاستعمال؛ لأنّ **العارض** حقيقة، **والرفض** حقيقة لا يستعملان هاهنا.

المجاز الثامن: الخادع والوضع ، فالمجاز فى حقهما ظاهر فى الاستعمال كما ترى.

المجاز التاسع: الإخلاق والإجداد، فإنهما مجازان؛ إذ لا حقيقة للإخلاق والجِدة هاهنا.

المجاز العاشر: الإماتة والإحياء، فإنهما مجازان لا محالة.

المجاز الحادى عشر: الهدم والبناء، فإنهما مجازان؛ لأن الهدم والبناء لا يعقلان فى الدنيا.

المجاز الثانى عشر: البيع والشراء، فإنهما مجازان؛ إذ لا يعقل لهما حقيقة فى الدنيا.

المجاز الثالث عشر: استعمال **الرؤية** بمعنى العلم هاهنا مجاز؛ لأن حقيقة الرؤية للإدراك.

فهذه المجازات حاصلة فى هذا الحديث، وأكثر جريان خطاب[1] صلى الله عليه وآله وسلم على جهة المجاز؛ لما فى المجاز من

---

(1) فى (د،م) سقط: خطاب. ﴿وهو سقط مخلّ﴾.

الرّقة واللطافة، ولما يحصل للكلام لسببه من البلاغة والفصاحة، والله أعلم.

البحث الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع

وهو كلامه[1] فى تحسين التأليف والنظم، وقد اشتمل على أساليب خمسة:

الأسلوب الأول: السجع، وهذا كقوله: «**ظاهرها**»،و«**عاجلها**» فإنه سجع؛ لاتفاقهما فى الأوزان، وقوله: «**يميتهم**»، و«**سيتركهم**» فإنه كله سجع، وقوله: «**يجددونها**»، و«**يعمرونها**»، و«**يهدمونها**»، وقوله: «**يرجون**»، و«**يحذرون**».

الأسلوب الثانى: الترصيع، ومثاله: «فما عرض لهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه» فقد تقارنت السجعتان فى الكلام والأوزان والأعجاز، فلا جرم كان ترصيعًا.

الأسلوب الثالث: الطباق، وهو ذكر النقيضين جميعًا، ومثاله: الباطن والظاهر، والعاجل والآجل، والإخلاق والجدة، والخراب والعمارة، والموت والحياة، والبناء والهدم، وكله طباق كما ترى؛ لاشتماله على ذكر الضدين والنقيضين.

الأسلوب الرابع: التجنيس، ومثاله قوله: «ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم»، وقوله: «نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الأسلوب الخامس: الفصاحة والبلاغة، فالفصاحة فى ألفاظه، وأنت إذا فكرت فى ألفاظ هذا الحديث وجدتها مشتملة على العذوبة والحلاوة، وإذا فكرت فى تأليفها ونظامها وجدتها، فقد رتبت على أحسن ترتيب، وسيقت على أحسن[2] سياق.

وأما البلاغة؛ فإذا نظرت فيما اشتمل عليه من المعانى وجدتها قد بلغت فى البلاغة مبلغًا عظيمًا من جزالة المعانى فيما تضمنته من الوعيد، ومن رقة المعانى فيما تضمنه من الوعد، وهكذا ترى القرآن، فحيث كان الوعد وجدته فى غاية الرقة والعذوبة، وحيث كان الوعيد وجدته فى غاية الجزالة، وإذا تأملت آى القرآن والسّنة وجدتهما كما أشرنا إليه،وبالله التوفيق.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

اعلم أن كلامه عليه السلام إنما هو فى معرفة أولياء الله الذين عناهم الله بقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ

---

(1) فى (د،ك،م) كلام. ﴿ولعله المناسب﴾.

(2) فى (د،م) أعجب.

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[1]، فأجاب بأنهم التاركون للدنيا المائلون عن مقاصدها .

فاعلم[2] أن الدنيا عدوّة لله تعالى، وعدوّة لأوليائه، وعدوّة لأعدائه، فأما عداوتها لله؛ فإنها قطعت بين الأولياء، وبين الله تعالى، وصارت مانعة لهم عن الوصول إلى طاعته والفوز بكرامته، ولهذا فإن الله تعالى لم ينظر إليها منذ خلقها .

وأما عداوتها لأوليائه؛ فلأنها تزينت لهم بزينتها، وعمتهم بزهرتها ونظارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها، والفطام عنها؛ ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا دنيا مُرّىْ على أوليائى لا تحلولى لهم فتفتنيهم»[3]، وأما عداوتها لأعداء الله؛ فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها، واقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعوّلوا عليها فخذلتهم، وصرعتهم؛ فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت»[4]، فإذا عرفت هذا فلنورد كلامه صلى الله عليه وآله وسلم، ونظهر مقاصده .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى جواب السائل: هم «**الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها**» اعلم أن **باطن الدنيا** هو غايتها ومآلها الذى تؤول إليه من التغير والزوال والانقطاع والاضمحلال، **وظاهرها** هو رونقها وزينتها، وأراد بذلك هو أن كل من نظر الدنيا بعين التحقير وتأمل باطنها بعارض التفكير، فإنه لا ينخدع بغرور ظاهرها؛ لأنه لا دوام له ولا بقاء ولا استقرار؛ لتقلب أحوالها وتغيرها وزوالها، بينا ترى الغنى فيها غنيًّا متمولاً إذ صار فقيرًا معدومًا، وبينا تراه فقيرًا إذ صار غنيًّا أميرًا، عزها يصير ذلاً، وسلمها يؤول حربًا، وحبها بغضًا، وبغضها حبًّا، فكم من عارٍ أمسى فيها كاسيًا ؟ ! وكم من كاسى أمسى عاريًا، وكم من مكثر أصبح وحيدًا وفردًا، وكم من مقل وضعيف قاد فى يوم واحد جنودًا ؟ ! هذا مع أن كل زيادة فيها نقصان، وكل ربح فيها يؤول إلى خسران وسرور إلى أحزان، فليس لها حال يستقر ولا صفة تنحصر، فأما من نظر إلى ظاهرها فقد انخدع بلامع السراب، وكان من أمره على زلزال وشك وارتياب؛ لأنه يظن حلاوة ظاهرة، من تحتها مرارة قاهرة، ولذّة عاجلة، يتلوها تبعة هائلة ومضرّة قاتلة، وكأنه أعجبه منها الخضرة والأنهار[5]، ولم يفكر فى القحول والاصفرار والتنكر والدمار، فعلق قلبه بأغصان عمّا قليل تعود هشيمًا، وبنسيم نسيمًا ينقلب على القرب سمومًا وحميمًا .

---

(1) سورة يونس الآية 62 .

(2) فى (د) الواو بدلاً عن الفاء .

(3) مسند الشهاب، 2/ 325.

(4) شعب الإيمان، 7/ 339.

(5) فى (د،ك،م) الأزهار .

ورُوى أن الله تعالى لمّا أهبط آدم- عليه السلام- إلى الأرض قال له: ابنِ للخراب، ولد للفناء[1]، وقيل: إنه وجد فى صحف إبراهيم- عليه السلام: يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت، وتزينت لهم، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك، والصدود عنك، وما خلقت خلقًا أهون على منك، كل شأنك صغير، وإلى الفناء يصير، وقضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشحّ عليك كان تحسره كثيرًا، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا، ومن ضمائرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما عندى لهم من الجزاء، إذا وفدوا إلى من قبورهم النور يسعى من بين أيديهم وأمامهم، والملائكة حافون بهم، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى[2]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- : «يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها»؟ قلت: بلى- يا رسول الله-، وأخذ بيدى، وأتى بى واديًا من أودية المدينة، فإذا بمزبلة فيها رؤوس ناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم، وتأمل آمالكم، ثم هى الآن عظام بلا جلد، ثم هى صائرة رمادًا، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتوها، ثم قذفوها من بطونهم، فأصبحت، والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم، فأصبحت الرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التى كان ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكيًا على الدنيا فليبك»، فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا[3].

وقال عيسى- صلوات الله عليه-: لا تتخذوا الدنيا ربًّا فتتخذكم عبيدًا، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه، فإن صاحب كنز الدنيا يخشى عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخشى عليه الآفة، وقال: يا مشعر الحواريين إنى قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدى، فإن من خبث الدنيا أن الله تعالى عصى فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورُبّ شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً، وقال أيضًا: بطحتم الدنيا، وجلستم على ظهرها، فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يتعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة[4].

ورُوى أن سليمان بن داود- عليه السلام- مرّ فى موكبه، والطير تظله، والجن والإنس عن يساره ويمينه، فمرّ بعابد من عباد بنى إسرائيل، فقال: والله- يا ابن داود- لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا، فسمع سليمان، فقال: تسبيحة فى صحيفة مؤمن خير ممّا

---

(1) حلية الأولياء، 3/ 286.

(2) ينظر: حلية الأولياء، 10/ 158، 159.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 203.

(4) ينظر: نفسه.

أعطى ابن داود، فإن ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة لا تذهب[1]، وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له»[2].

ورُوى في أخبار آدم- عليه السلام- أنه لمّا أكل الشجرة تحركت معدته ليخرج الثقل والعذرة، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه، فلهذا نهيا عن أكلها، فجعل يدور في الجنّة، فأمر الله ملكاً يخاطبه، فقال له: أيّ شيء تريد؟ قال: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل للملك: قل له في أيّ مكان تضعه على الفرش؟ أم على السرر؟ أم على الأنهار؟ أم تحت ظلال الأشجار، هل ترى هاهنا موضعًا يصلح لذلك؟ ولكن اهبط إلى الدنيا[3].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**واهتّموا بآجل الدنيا حين اهتّم الناس بعاجلها**» أراد أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا حزن من شأنهم وعادتهم أنهم لا يهتّمون بعاجل الدنيا ولا يرعونها طرفاً؛ لأن ذلك دأب من غلبت عليهم الشقاوة، وأكبوا على الشهوات، وجنحوا إلى استعمال اللذات فاغتروا بزهرة غرورها، ولم يتفكروا في عاقبة أمورها، فطعموا حلاوتها ولم يطعموا مرارتها، وافتتنوا بزهرتها الفانية ونظارتها الحقيرة البالية فندموا على الإيثار، وأسفوا على الانقياد للركون إلى دار البوار﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾[4]، وأما الذين اهتموا بآجل الدنيا فهو الموت والزلزال والتغير والانتقال وتقّلب الأحوال وانقطاع الآمال، فلا تزال همومهم إليه طالعة، وأفكارهم لعقاب شدائده فارغة، فأسهروا لياليهم ذكرًا وتفكرًا، وقطعوا أيامهم عزمًا وصبرًا لما تحققوه قطعًا ويقينًا، أن رُبّ مستقبل يومًا لم يستكمله، ونائم ليلاً لم ينمه، ومنتظر غدًا لم يصله، وباذر لم يحصد، وحاصل لم يأكل.

ورُوى أن جبريل- صلى الله عليه- قال يومًا لنوح: يا أطول الأنبياء عمرًا كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر[5].

وقال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- وقد خرج يومًا على أصحابه، فقال: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرًا؟ ألا إنه من رغب في الدنيا فطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله

---

(1) ينظر: تاريخ دمشق، 22/ 275.
(2) إحياء علوم الدين، 3/ 203.
(3) ينظر: نفسه، 3/ 204.
(4) سورة إبراهيم الآية 29.
(5) إحياء علوم الدين، 3/ 204.

فيها أعطاه الله علمًا بغير تعلم، وهدى بغير هداية، ألا إنه سيكون بعدى قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا بإتباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر، وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذلّ، وهو يقدر على العزّ لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقًا»[1].

ورُوى عن عيسى- صلوات الله عليه- أنه لمّا اشتدّ به المطر والبرق والرعد يومًا فجعل يطلب شيئًا يلجأ إليه، فرفعت له خيمة من بعيد، فأتاها ، فإذا فيها امرأة، فحاد عنها، فإذا هو بكهف فى جبل، فأتاه فإذا فيه أسد، فرفع يده إلى السماء، وقال: إلهى جعل لكل شىء مأوى ولم تجعل لى مأوى، فأوحى الله إليه: مأواك مستقر رحمتى، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى، ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام، يوم منها كعمر الدنيا، ولأمرنّ مناديًا ينادى: أين الزهاد فى الدنيا، زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم[2]، وقال أيضاً: ويل لصاحب الدنيا يموت ويتركها ويأمنها وتغرّه، ويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون! ! وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون، ويل لمن الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غدًا بذنبه[3].

قيل: وأوحى الله إلى موسى- صلوات الله عليه-، فقال له: يا موسى مالك ولدار الظالمين، إنها ليست لك بدار، أخرج منها همّك، وفارقها بعقلك، فبئست الدار هى إلا لعامل فيها خيرًا فنعمت الدار، يا موسى إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم[4]، ورُوى أن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- بعث أبا عبيدة بن الجراح[5]، فجاءه بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، فلما صلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء» قالوا: أجل- يا رسول الله- فقال: «أبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من بسطت كان قبلكم، فتنافسوا فيها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[6]، وقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا»[7]، فنهانا عن الاشتغال بذكرها

---

(1) ينظر: تيسير المطالب، 496، 497.

(2) ينظر: تاريخ دمشق، 47/ 421.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 205.

(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 205.

(5) وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال القرشى، شهد المشاهد كلها مع النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، وهو من كبار الصحابة، توفى بطاعون عمواس سنة 18هـ، بالأردن. ينظر: الاستيعاب، 4/ 1710، 1711.

(6) صحيح مسلم، 4/ 2273.

(7) شعب الإيمان، 7/ 361.

فضلاً عمّن أصابه غناها، والطمع فى حطامها، وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا»[1].

ورُوى أن عيسى بن مريم– صلوات الله عليه– مرّ بقرية فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرقات، فقال: يا معشر الحواريين، هؤلاء ماتوا عن سخطة الله تعالى، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا، فقالوا:– يا روح الله– وددنا أنّا عرفنا خبرهم، فسأل الله، فأوحى الله إليه: إذا كان الليل فناداهم، فلما كان الليل أشرف على نَشَزٍ ثم نادى: يا أهل القرية، فأجابه مجيب: لبيك يا روح الله، فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قالوا: بتنا فى عافية، وأصبحنا فى الهاوية، قال: وكيف ذلك؟ قالوا: بحبّ الدنيا، وطاعتنا أهل المعاصى. قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال: حبّ الصبى لأمه، إذا أقبلت فرحنا، وإذا أدبرت حزنّا وبكينا. قال: فما بال أصحابك لم يجيبونى؟ قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدى ملائكة غلاظ شداد. قال: كيف أجبتنى أنت من بينهم؟ قال: لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدرى أأنجو منها أم أكبكب فيها، فقال المسيح– عليه السلام– للحواريين: لأكل خبز الشعير بالجريش، ولبس المسوح، والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة[2].

وقال أنس بن مالك: كان للرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– ناقة يقال لها العضباء لا تسبق، فجاء أعرابى بناقة له، فسبقها، فقال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «حقّ على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه»، بعد أن شقّ على المسلمين سبق الأعرابى لها[3]، وقال عيسى بن مريم: من ذا الذى يبنى على أمواج البحر دارًا، إياكم الدنيا لا تتخذوها قرارًا، وقيل لعيسى– عليه السلام–: علمنا علمًا واحدًا يحببنا الله تعالى عليه. قال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى[4].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم**» أراد أن الأولياء الذين قدم ذكرهم لم يعمروا فيها خرابًا، ولم يشيدوا فيها قصورًا ولا قبابًا، ولم يتعلقوا بشىء من أسبابها، وأغلقوا عن أنفسهم جميع أبوابها؛ لمّا تحققوه من حالها أنها تميت من أخلد إليها، وتغدر بمن ارتكن إليها[5]، كم من مطمئن إليها قد صرعته لليدين وللفم، ومفتون بحلاوتها قد جرعته كأسًا مريرة من العلقم، ومتخذ لها أمًّا فغادرته يتيمًا ومشغولاً بحبها، حتى فارقته كليمًا، فلما نظر أولياء الله إلى ذلك فى غيرهم اعتبروا به منها، واكتفوا به بما خشوا منها، فعملوا بالوثيقة، وجزموا على الحقيقة، وسلكوا أوسط

---

(1) نفسه، 7/ 274.
(2) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 205.
(3) صحيح البخارى، 3/ 1053.
(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 206.
(5) فى (ك،م) عليها.

طريقة، وعلموا أنها تترك صاحبها أحوج ما يكون إليها، فتركوها زهدًا فيها، ورغبة عنها، وأنفة على تقواهم، وحمية على أنفسهم أن يحيوا ميتها، ويعمروا خرابها، فاعلم أنه لا يغتر بها إلا مغرور، ولا يقبل عليها إلا مفتون مثبور.

ويُحكى عن أبى الدرداء أنه قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا، ولضحكتم قليلاً، ولهانت عليكم الدنيا، ولآثرتم الآخرة عليها»[1]، ثم قال أبو الدرداء من قِبل نفسه: لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعداء تبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم بلا حارس لها، ولا راجع إليها، إلا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب على قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شرّ من البهائم التى لا تدع هواها؛ مخافة مما فى عاقبته ضرّ عليها، مالكم لا تحابون، ولا تناصحون، وأنتم إخوان على دين ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البرّ لتحاببتم[2]، وقال عيسى– عليه السلام–: يا معشر الحواريين أرضوا بِدنيِ الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أقوام بِدنيِ الدّين مع سلامة الدنيا[3]. ولقد صدق من قال من الشعراء:

أَرَى رِجَالاً[4] بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنَعُوا ... وَلا أَرَاهُم رَضُوا فِي العَيْشِ بِالدُّونِ.

فَاسْتَغْنِ بِالدِّينِ[5] عَنْ دُنْيَا المُلُوكِ كَمَا ... اسْتَغْنَى المُلُوكُ بِدُنْيَاهُم عَنِ الدِّينِ[6].

وقال عيسى– عليه السلام–: يا طالب الدنيا لتبرّ تركك للدنيا أبرّ[7]، وقال الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم–: «لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب»[8]، وأوحى إلى موسى– عليه السلام–: يا موسى لا تركن إلى حب الدنيا، فلن تأتينى بكبيرة هى أشد على منها[9]، ومرّ موسى– صلى الله عليه– برجل، وهو يبكى، فقال: يا رب عبدك يبكى من مخافتك، فقال: يا ابن عمران لو نزل دماغه مع دموع عينيه، ورفع يديه حتى تسقطا لم أغفرله، وهو يحب الدنيا[10].

---

(1) إحياء علوم الدين، 3/ 206.

(2) ينظر: نفسه.

(3) ينظر: تاريخ دمشق، 47/ 441.

(4) ورد: أناسًا بدلاً عن رجالاً. ينظر: تاريخ دمشق، 6/ 341. وورد: الملوك بدلاً عن رجالاً. ينظر: المستطرف فى كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتوح الأبشيهى، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م، بيروت، لبنان، 1/ 205.

(5) ورد: بالله بدلاً عن بالدين. ينظر: تاريخ دمشق، 6/ 341.

(6) البيتان من البسيط، ونسبا لإبراهيم بن أدهم فى (تاريخ دمشق، 6/ 341)، و نسبا لعبد الله بن المبارك فى (المستطرف، 1/ 205)، ونسبا لأبى العتاهية فى (عيون الأخبار، 2/ 372)، ولم يردا فى ديوان أبى العتاهية، ينظر: ديوان أبى العتاهية، إسماعيل بن القاسم، تحقيق د. درويش الجويدى، المكتبة العصرية، ط1، عام 2008م، صيدا، لبنان، 459– 515.

(7) إحياء علوم الدين، 3/ 206.

(8) نفسه.

(9) نفسه.

(10) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 206.

وعن أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- أنه قال: من جمع ستّ خصال لم يدع للجنة مطلبًا، ولا للنار مهربًا: من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها[1]، وحُكى عن الحسن البصرى أنه قال: رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها وراحوا خفافًا، وقال أيضًا: من نافسك فى دينك فنافسه، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره[2]، وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، ويكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة، أوغداء يوم، فلا تهلك نفسك فى أكله، وصم عن الدنيا، وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى، وربحها النار[3].

وقال بعض الزهاد لمّا سئل: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويقرب المنية، ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر تعب،ومن فاته نصب[4]، وأصدق ما قيل فى هذا المعنى قول من قال:

وَمَنْ يَحمُد الدُّنْيَا لِعَيْشٍ يَسُرُّهُ ... فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا.

إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى المَرْءِ حَسْرَةً ... وَإِنْ أَقْبَلَت كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومُهَا[5].

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا، ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا، ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها فيها على وجلٍ إما سعة بنعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية[6].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فما عرض لهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه**» أراد أن هؤلاء الأولياء الذين تقدم وصفهم ما عرض لهم من الدنيا عارض إلا رفضوه لما عرفوا من قلّة بقائه، وسرعة فنائه، وزواله، وأنه لا يستقر، ولا يدوم، ولا يستمر حاله وأمره، ولا يقوم وحال إقباله فى حكم المدبر، ووقت بقائه فى حكم الفانى؛ لأنّ الإدبار عادته، والفناء نهايته، وذو العادة المستمرة لا يتركها، وذو الغاية المستقرة لا يقف دونها، ورفضهم لها هو تركهم إياها؛ لأنهم يخافون تغطية أبصارهم بزخرفها، واستيلائها على أفئدتهم بزهرتها مع المرتقى كوود[7]، والسفر بعيد، فظاهر[8] نائل الدنيا سرور، وباطنه غرور، وربّما

---

(1) ينظر: نفسه، 3/ 206، 207.

(2) ينظر: نفسه، 3/ 207.

(3) ينظر: نفسه.

(4) ينظر: نفسه.

(5) البيتان من الطويل، ونسبا للإمام على- كرم الله وجهه-. ينظر: تاريخ دمشق، 70/ 197. ولم يردا فيما نسب من شعر للإمام على كرم الله وجهه. ينظر: من الشعر المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب- كرم الله وجهه-، جمعه وشرحه عبد العزيز سيد الأهل، دار صادر، ط2، عام 1980م، بيروت، لبنان، 119- 155.

(6) إحياء علوم الدين، 3/ 207.

(7) كوود: صعبة المرتقى. ينظر: لسان العرب، مادة (كأد).

(8) فى (د،ك،م) الواو بدلاً عن الفاء.

أعطاها أهلها القياد، فطرحت بهم فى البلاد، وأهلكتهم فى المعاد، وقلّ من يسلم من خادع[1] رفعتها، وينجى[2] من عارض نائلها، إلا من رزق التّصديق، وفتح له أبواب التحقيق، واهتدى لمعرفة غامض عيوبها، ونجا من نكد غدرها، وحثيث جموحها، وعرف سرعة انتقالها، ووشيك زوالها، وإن عزّها ذلّ، وكثرها قلّ، وجدها فلّ، وظلها زائل، وكوكب سعدها آفل.

وكان[3] أعظم الخلق معرفة بقدرها وأكثرهم دربة بحالها، وأمرها هو أمير المؤمنين- كرم الله وجهه-، فإنه الذى كفاها على وجهها وكبّها، وأعرض عن زينتها، فلم يرعها طرفاً، ولا بسط إليها كفّاً، ومصداق ذلك ما أثر عنه فى وصفها[4]، والبعد عنها، فمن ذلك قوله عليه السلام: إليك عنى يا دنيا، قد انسللت عن حبائلك، وأفلت عن مخائلك، أين القوم الذين غررتهم بأمانيك، وخدعتهم بزخارفك؟! هاهم، والله أصحاب القبور، ومضامين اللحود، والله لو كنت شخصًا مرئيًا، أو قالبًا حسيًّا لأقمت حدود الله عليك فى عباد ألقيتهم فى المهاوى، وطرحتهم فى المهالك؛ إذ لا ورد ولا صدر، هيهات أن من وطئ دحضك زلق، ومن اجتنب حبائلك وفّق، والسالم منك لا يبالى إن ضاق به مناخه، فالدنيا عنده كيوم حان انسلاخه[5].

وقال عليه السلام فى كلام آخر: أما بعد: فإنى أحذركم الدنيا، فإنها والله أكّالة غوالة خداعة مكارة، غرّارة حائلة زائلة نافدة بائدة، ضوؤها قد أفل، ونفادها قد اقترب، حتى إذا أنس نافرها، واطمأن ناكرها قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها، وأقصدت بأسهمها[6]، وقال فى كلام آخر: الدنيا حلوة خضرة قد عجلت للطالب، والتبست بقلب الناظر، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر إليها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن واتاها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته، فارتحلوا عنها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد، ولا تطلبوا منها فوق الكفاف، ولا تسألوا منها أكثر من البلاغ[7]، وقال عليه السلام فى كلام آخر: إنما أنتم فى هذه الدنيا عرض تنتصل فيكم المنايا، وما لكم فيها نهب للحتوف والمصائب، فى كل جرعة منها شرق، وفى كل أكلة منها غصص، من قلل منها استكثر ممّا يؤمنه، ومن استكثر منها لم تدم له ولم يدم لها[8]، إلى غير ذلك من الكلام المأثور عنه، ومن ذلك ما قاله عليه السلام:

---

(1) فى (د،ك،م) عارض.

(2) فى (ك،م) إن نجا.

(3) فى (د،م) سقط: وكان.

(4) فى (د) ذمها.

(5) ينظر: نهج البلاغة، 419. وجاء فيه: «قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك، أين القرون الذين غررتهم بمداعبتك، وفتنتهم بزخارفك، ...، ومن ازور عن حبائلك، ...».

(6) ينظر: نهج البلاغة، 164، 108. دون ذكر: «خداعة مكارة، ضوؤها قد أفل، ونفادها قد اقترب».

(7) ينظر: نفسه، 85، 106.

(8) ينظر: تيسير المطالب، 261.

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنَّنِي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا .
حَظَرَ الإِلَهُ حَرَامَهَا وَأَنَا اجْتَنَبْتُ حَلالَهَا .
بَسَطَتْ إِلَيَّ يَمِينَهَا فَرَدَدْتُهَا وَشِمَالَهَا .
وَرَأَيْتُهَا مُحْتَاجَةً فَوَهَبْتُ جُمْلَتَهَا لَهَا[1] .

وقال: قد طلقتك ثلاثًا لا رجعة لى فيك[2]، وقد قال بعض الحكماء: من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدًا ما يستحق، لكنها إما تزيد، أو تنقص[3] .

وقال سفيان الثورى[4]: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت فى غير أهلها، وقال بعض الزهاد: من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئًا، إلا أراد أكثر منه، ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئًا إلا أراد أكثر منه، وليس لها غاية ولا لهذا نهاية[5]، وقال رجل لأبى حازم[6]: أشكو إليك الدنيا، وحبها، وليست لى بدار، فقال: انظر ما آتاكم الله منها، فلا تأخذه إلا من حلّه، ولا تضعه إلا فى حقه، ولا يضرك حب الدنيا[7] .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها، وخربت بينهم فما يعمرونها**» أراد بذلك أنهم جعلوها كالثوب الخَلِق المتروك عن اللبس؛ لأن كل ما كان خلقًا فهو متروك، فما يجددونها بالذكر والاستعمال، وقوله: «**وخربت**» أراد أنها اندرس أثرها[8] فما يعمرونها بإحياء أثرها[9]، وهذان المجازان أعنى الإخلاق والتجديد، الخراب والعمارة من أعجب المجازات وأحسنها، وأرشق الاستعمالات[10] وأعلاها، كما سبق تقريره فيما مرّ فى موضعه اللائق به، وإنما خلقت بطول تكرر الإعصار عليها، وتقلب الأحوال فيها، وقد قضى الله عليها بذلك، فأولياء الله لم يروا لأنفسهم أن يجددوا ما قضى الله بإخلاقه،

---

(1) الأبيات من مجزوء الكامل، ووردت منسوبة للإمام على كرم الله وجهه. ينظر: البرهان المؤيد، أحمد الرفاعى الحسينى، تحقيق عبد الغنى نكه مى، دار الكتاب النفيس، ط1، عام 1408هـ، بيروت، لبنان، 42. ولم ترد الأبيات فى ديوان الإمام على . ينظر: من الشعر المنسوب إلى الإمام على، 101- 155 .

(2) ينظر: نهج البلاغة، 480، 481 .

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 207 .

(4) وهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، ولد سنة 97هـ، حُجة، مأمون، كثير الحديث، ثقة، توفى بالبصرة سنة 161هـ. ينظر: طبقات ابن سعد، 6/ 371 .

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 207 .

(6) وهو سلمة بن دينار الأعرج، مولى الأسود بن سفيان المخزومى، العابد، الزاهد، الثقة، توفى سنة 139هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 5/ 198، 199 .

(7) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 207 .

(8) فى (د،م) أمرها .

(9) فى (د،م) أمرها .

(10) فى (ك) الاستعارات. ﴿وهو المناسب﴾ .

بإخلاقه، ولا يعمرون ما أراد الله خرابه؛ إذ تجديده يكن فى حكم المخالفة لأمره وعمرانه يكون فى حكم الرد لقضائه، وما هى إلا سبيل عبرها الناجون فنجوا، وسلكها الهالكون فأزعجوا، والزاد قليل، والرحلة بعيدة، فنسأل الله تعالى فوزاً برضوانه، وزادًا مبلغا لنا إلى حسن جواره.

وحُكى عن يحيى بن معاذ[1] أنه قال: الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئًا فيجىء ويأخذك[2]، وقال الفضيل بن عياض[3]: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغى لنا أن نختار خزفًا يبقى على ذهب لا يبقى[4]، وقال بعض الزهاد: إياكم والدنيا، فإنه بلغنا أن العبد يوقف يوم القيامة إذا كان معظمًا للدنيا، فيقال: هذا عظم ما حقر الله[5].

وحُكى عن ابن مسعود- رضى الله عنه- أنه قال: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية، والضيف مرتحل، والعارية مردودة[6]، وما أحسن قول من قال فى هذا المعنى:

وَمَــا المَــالُ وَالأَهْلُــونَ إلا وَدَائــعُ[7] وَلا بُــدَّ يَوْمًــا أَنْ تُــرَدَّ الوَدَائــعُ[8].

وحُكى أن رابعة العدوية[9] زارها أصحابها، فذكروا الدنيا، وأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم ذكرها، ألا من أحب شيئًا أكثر ذكره[10]، وحُكى عن ابن عباس- رضى الله عنه- أنه قال: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزود منها، والمنافق يتزين بها، والكافر يتمتع بها[11]، وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئًا فليصبر على معاشرة الكلاب[12].

---

(1) وهو يحيى بن معاذ الرازى، أبو زكريا، الواعظ، أحد رجال الطريقة، أقام فى بلخ مدة، ثم فى نيسابور، وتوفى بها سنة 258هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 6/ 165- 167.

(2) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 207.

(3) وهو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى، الزاهد المشهور، أول أمره قاطع طريق بين أبيورد وسرخس، ثم تاب، قدم الكوفة، وسمع الحديث، ثم انتقل إلى مكة، وتوفى بها سنة 187هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 47- 49.

(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 207.

(5) ينظر: نفسه.

(6) شعب الإيمان، 7/ 376.

(7) ورود كلمة ودائع تحريف، والسليم هو: وديعة.

(8) البيت من الطويل، وهو ثابت فى ديوان لبيد بن ربيعة. ينظر: شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى، حققه وقدم له د. إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، عام 1962م، الكويت، 170.

(9) وهى رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، العابدة الزاهدة المشهورة، توفيت سنة 180هـ بالقدس. ينظر: الوافى بالوفيات، 14/ 37.

(10) إحياء علوم الدين، 3/ 207.

(11) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 208.

(12) نفسه.

وأقول: لقد صدق هذا فى مقاله، ولهذا فإنك تراهم يتهارشون عليها تهارش الكلاب الضارية، فمن كان قويًّا نال منها بعض منال، ومن كان ضعيفًا فلاحق له فيها، كما قال بعضهم:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ ... عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ[1]

وقيل لإبراهيم بن أدهم[2]: كيف أنت؟ فقال:

نُرَقِّعُ الدُّنْيَا بِأَخْلَاقِ دِينِنَا ... فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ.

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللَّهَ وَحْدَهُ ... وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ[3].

ولمّا بُعث رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أتت إبليس جنوده فقالوا: قد بعث نبى، وأخرجت أمته. قال: يحبون الدنيا، قالوا: نعم، قال: لئن كانوا يحبونها ما أبالى أن لا يبعدون الأوثان، وأنا أغدو عليهم، وأروح بثلاث: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه فى غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله لهذا تبع[4].

وقال رجل لأمير المؤمنين- كرم الله وجهه-: صف لنا الدنيا، فقال: ما أصف لكم من دار، من صح فيها أمن، ومن سقم فيها ندم[5]، وقيل له مرّة أخرى: صف لنا الدنيا، فقال: أقصر أم أطول؟ فقيل له: أقصر، فقال: حلالها حساب وحرامها عذاب[6]، وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء[7]، وقال بعض الحكماء: إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزحمها الآخرة؛ لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة[8]، وهذا تشديد عظيم فى الإصغاء إلى الدنيا.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وماتت فى صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها، فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم**»، ومراده عليه السلام أن أولياء الله أماتوا ذكر الدنيا فى ألسنتهم، وفكرها عن صدورهم، وهمّها من قلوبهم، فلم يحيوها بذكر، ولا نشروا طيها بفكر، بل صارت عندهم بمنزلة الميت الذى لا يذكر، والفانى الذى لا ينشر لمعرفتهم بحقيقة مكرها،

---

(1) البيت من الطويل، وهو لأبى نواس. ينظر: ديوان أبى نواس الحسن بن هانئ، 621.

(2) وهو إبراهيم بن منصور بن زيد، من بلخ، روى عن جماعة من التابعين، كان زاهدًا عابدًا، توفى سنة 140هـ، ودفن فى صور. ينظر: وفيات الأعيان، 1/ 31، 32.

(3) البيتان من الطويل، ووردا منسوبين للإمام على كرم الله وجهه. وورد الشطر الأول من البيت الأول:
نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا. ينظر: العقد الفريد، 3/ 134.

(4) ينظر: شعب الإيمان، 7/ 338.

(5) إحياء علوم الدين، 3/ 208.

(6) ينظر: شعب الإيمان، 7/ 371.

(7) حلية الأولياء، 2/ 364.

(8) ينظر: تاريخ دمشق، 34/ 136.

وأحاطتهم بطريقة غدرها، فهدموا بنيانها، وقوضوا أركانها، وقدموا بعضها بين أيديهم، فعمروا بها منازل الإقامة فى دار المقامة، ومحطّ الكرامة، ومقعد السلامة، فقدموا إلى منازل عامرة، ومراتب فاخرة، وفارقوا الدنيا خرابًا يبابًا، فلم يحنوا لها انقلابًا ولا مآبًا، وباعوا متاعهم الفانى اليسير، واشتروا به الباقى الكثير من جنة وحرير وقصور وسرر وحوارٍ والسندس والعبقر[1]، وكثبان المسك الأذفر، ومنابر النور، والنظرة والسرور والفوز[2]، والملك الكبير، وجوار الملك القدير، فأىّ شراء أربح من هذا؟! بقى لهم مشتراهم، وهلكت أثمانه، ودثر الذى خربوه، ودمرت أوطانه، وارتفع بينهم الذى عمروه، وكرمت جيرانه، وتواترت إليهم الهدايا بجزيل المن والعطايا، ووردت بشارة الخلود، ونزعت من صدورهم نزعات الغلّ، وأحقاد الحسود، فهم فى قباب الملك خالدون، وفى جنات الخلد ناعمون، فأصبحوا بحمد الله للفردوس وارثين، ﴿ **لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ** ﴾[3].

وحُكى عن مالك بن دينار أنه قال: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همّ الدنيا من قلبك[4]، وحُكى عن عيسى- عليه السلام- أنه قال: الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى[5]، وقال الحسن البصرى: والله لقد أدركت أقوامًا كانت الدنيا عندهم أهون من التراب، الذين يمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، أذهبت إلى هذا أو إلى ذاك[6]، وقال رجل للحسن البصرى: ما تقول فى رجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق منه، ويصل منه، ويحسن منه، أله أن يتعيش فيه؟ يعنى: التنعم، فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف، ويقدم ذلك ليوم فقره[7].

وقال الفضيل بن عياض: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىّ حلالاً[8] ولا أحاسب بها فى الآخرة لكنت أقذرها كما يقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه[9]، وحُكى أن عمر قدم الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل، فسلّم، وسأله عن حاله، ثم أتى منزله فلم يرَ فيه إلا سيفه، وترسه، ورحله، يعنى: جهاز ناقته، فقال له عمر: لو اتخذت متاعًا، فقال:- يا أمير المؤمنين- إنَّ

---

(1) فى (د) العبقرى. العبقر: المرأة التارة الجميلة، والعبقرى: البساط المنقش. ينظر: لسان العرب، مادة (عبقر).

(2) فى (د،م) سقط: و الفوز.

(3) سورة الحجر الآية 48.

(4) ينظر: تاريخ دمشق، 56/ 424.

(5) الجد الحثيث فى بيان ما ليس بحديث، أحمد بن عبد الكريم بن سعود الغزى العامرى، تحقيق بكر عبد الله أبو زيد، دار الراية، ط1، عام 1412هـ، الرياض، المملكة السعودية، 101. وورد أنه لعلى- كرم الله وجهه- . ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 208، 209.

(6) ينظر: حلية الأولياء، 6/ 272.

(7) ينظر: نفسه.

(8) فى (د،ك،م) سقط: حلالا. وفى (د،م) زيادة: بحذافيرها. ﴿والسليم ما ورد فى الأم﴾.

(9) ينظر: حلية الأولياء، 8/ 89.

هذا يبلغنا المقيل[1]، وحُكى عن الحسن البصرى- رحمه الله- أنه قال: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بحبهم الدنيا بعد عبادتهم للرحمن[2].

وقال سفيان : خذ من الدنيا لبدنك، ومن الآخرة لقلبك[3]، وقال وهب بن منبه[4]: قرأت فى بعض الكتب: الدنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجهال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا[5]، وقال لقمان لابنه: يا بنى أفق فإنك استدبرت الدنيا من يوم استقبلتها، واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها[6]، وقال سعد بن مسعود[7]: إذا رأيت العبد تزداد دنياه، وتنقص آخرته، وهو به راضٍ فذلك المغبون الذى يُلعب بوجهه، ولا يشعر[8].

وقال عمرو بن العاص[9] على المنبر: والله ما رأيت قومًا قط أرغب فيما كان رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يزهد فيه منكم، والله ما مرّ برسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- ثلاث إلا والذى عليه من متاع الدنيا أكثر من الذى له[10]، وعن الحسن البصرى، بعد تلاوته لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[11] قيل له: من قال ذا ؟ قال: من خلقها، أو من هو أعلم بها، إياكم وشغل الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[12]، وقال أيضاً: مسكين ابن آدم يرضى بدار حلالها حساب وحرامها عقاب، إن أخذه من حلّه حوسب على تنعمه، وإن أخذه من حرام عوقب به، مسكين ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته فى دينه، ولا يجزع من مصيبته فى دنياه[13].

---

(1) شعب الإيمان، 7/ 372.
(2) ينظر: حلية الأولياء، 2/ 156.
(3) نفسه، 7/ 20.
(4) وهو أبو عبد الله اليمانى، صاحب القصص والأخبار، كانت له معرفة بأخبار الأوائل، وأحوال الأنبياء، وكان يقول: قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابًا، توفى بصنعاء سنة 110هـ، وقيل: 124، وقيل: 116 . ينظر: وفيات الأعيان، 6/ 35، 36.
(5) إحياء علوم الدين، 3/ 209.
(6) ينظر: حلية الأولياء، 6/ 320.
(7) وهو أبو مسعود الصدفى، مصرى، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى أفريقية ليفقه أهلها فى الدين، رجل صالح، أسند حديثًا واحدًا، توفى فى عهد هشام بن عبد الملك. ينظر: تاريخ دمشق، 2/ 400- 403.
(8) ينظر: نفسه، 2/ 401.
(9) وهو عمرو بن العاص بن وائل القرشى السهمى، أسلم فى السنة الثامنة للهجرة قبل فتح مكة، ولاه الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- على عمان، وولاه عمر- رضى الله عنه- على فلسطين، والأردن، فتح مصر فولاه عمر- رضى الله عنه- عليها فلم يزل حتى عزله عثمان- رضى الله عنه- بعد أربع سنوات من خلافته، ثم ولاه معاوية عليها فلم يزل حتى مات سنة 43هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1184- 1188.
(10) ينظر: المستدرك على الصحيحين، 4/ 350.
(11) سورة لقمان من الآية 33. فاطر من الآية 5.
(12) حلية الأولياء، 2/ 153.
(13) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 209.

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبدالعزيز: سلام عليك، أما بعد: فكأنك يا خير من كتب عليه الموت قد مات، فأجابه عمر: سلام عليك، كأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل[1]، وقال الفضيل بن عياض: الدخول فى الدنيا هين، لكن التخلص منه شديد[2]، وحُكى عن بعض الحكماء أنه قال: عجبًا لمن يعرف أن الموت حقّ كيف يفرح! وعجبًا لمن يعلم أن النار حق كيف يضحك! وعجبًا لمن يرى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ! وعجبًا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب![3]، وقدم على معاوية[4] رجل من أهل نجران عُمِّرَ مائتى سنة، فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود باد الخلق، ولولا الهالك ضاقت الدنيا بأهلها . قال له: سل ما شئت ؟ قال: عمر مضى فترده، وأجل حضر فتدفعه. قال: لا أملك ذاك، قال: لا حاجة لى إليك[5] .

وقال داود الطائى[6]: يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم تسوف بعملك كان منفعته لغيرك[7]، وقال بعض الزهاد: من يسأل الله الدنيا فإنما يسأل الله طول الوقوف بين يديه[8]، وقال أبو حازم: ما فى الدنيا شىء يسرك إلا وقد ألصق به شىء يسوءك[9]، وقال الحسن البصرى: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه[10]، وقيل لبعض الزهاد: قد بلغت الغنى، قال: إنما نال الغنى من عتق من رقّ الدنيا[11]، وقال رجل من الزهاد: لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة[12]، وعن مالك بن دينار أنه قال: اصطلحنا على حبّ الدنيا، فلا يأمر بعضنا بعضاً، ولا ينهى بعضنا بعضاً، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعرى أى عذاب الله ينزل بنا[13]،

---

(1) ينظر: نفسه.
(2) ينظر: نفسه.
(3) ينظر: شعب الإيمان، 1/ 223.
(4) وهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية، أسلم يوم فتح مكة، ولاه عمر– رضى الله عنه– الشام، ثم عثمان– رضى الله عنه–، تولى أمر المسلمين بعد استشهاد الإمام على– كرم الله وجهه– توفى سنة 60هـ. ينظر: طبقات ابن سعد، 7/ 406.
(5) ينظر: تاريخ دمشق، 68/ 131.
(6) وهو داود بن نصير الطائى، أبو سليمان، كان قد سمع الحديث والفقه والنحو، ثم تعبّد، توفى سنة 165هـ. ينظر: طبقات ابن سعد، 6/ 367.
(7) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 209.
(8) القائل: بشر بن الحارث. ينظر: حلية الأولياء، 8/ 337.
(9) ينظر: نفسه، 3/ 239.
(10) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 209.
(11) ينظر: نفسه.
(12) ينظر: نفسه، 3/ 209، 210.
(13) ينظر: شعب الإيمان، 6/ 97.

وقال أبو حازم: يسير الدنيا ينسيك عن كثير الآخرة[1] .

وحُكى عن الحسن البصرى أنه قال: أهينوا الدنيا، فوالله ما هى لأحد أهنأ منها لمن أهانها[2]، وقال أيضاً: إذا أراد الله برجل خيرًا أعطاه من الدنيا عطيته ثم يمسك، فإذا أنفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطًا[3]، وكان بعضهم يدعو: يا ممسك السماء أن تقع على الأرض أمسك الدنيا عنى[4] .

وقال محمد بن المنكدر[5]: أرأيت رجلاً لو صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا يفتر، وتصدق بماله، وجاهد فى سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنه يحب الدنيا يؤتى به يوم القيامة، فيقال له: ها إن ذا عظّم فى عينه ما صغّر الله، وصغّر فى عينه ما عظم الله[6] . كيف ترى يكون حاله، فمن منّا ليس هكذا، الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا .

وقال أبو حازم: اشتّدت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شىء منها إلا وجدت فاجرًا قد سبقك إليه، وأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانًا[7]، وقال أبو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن[8] البالى تنادى ربها منذ خلقها إلى يوم القيامة: يا رب يا رب لِمَ تبغضنى؟ فيقول لها: اسكتى يا لا شىء اسكتى يا لا شىء[9]، وقال عبدالله بن المبارك[10]: حبّ الدنيا، والذنوب فى القلب قد احتوشته، فمتى يصل الخير إليه[11]، وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشىء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من طلبه، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب[12]، وقيل لبشر الحافى: مات فلان، فقال: جمع الدنيا، وذهب إلى الآخرة، ضيع نفسه. قيل له: إنه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبوابًا من البر، فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع للدنيا[13]، وقال

---

(1) ينظر: نفسه، 7/ 323 .
(2) ينظر: مصنف ابن أبى شيبة، 7/ 197 .
(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210 .
(4) ينظر: نفسه.
(5) وهو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير القرشى التيمى المدنى، زاهد، من رجال الحديث، أدرك بعض الصحابة، وروى عنهم، توفى سنة 130هـ. ينظر: تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبى، تحقيق د . عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1987م، بيروت، لبنان، 5/ 155– 158 . الأعلام للزركلى، 7/ 112 . وفى (ج الأصل) المكندر . ﴿وهو غير سليم﴾ .
(6) ينظر: تاريخ دمشق، 56/ 56 .
(7) ينظر: نفسه، 22/ 53 .
(8) الشَّنُّ: الخَلَق من كل آنية صنعت من جلد . ينظر: لسان العرب، مادة (شنن) .
(9) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210 .
(10) وهو عبد الله بن المبارك بن واضح المروزى، مولى بنى حنظلة، ولد بمرو سنة 118هـ، جمع بين العلم، والزهد، تفقه على مالك بن أنس، وسفيان الثورى، توفى سنة 181هـ، وقيل: 182 . ينظر: وفيات الأعيان، 3/ 32– 34 .
(11) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210 .
(12) ينظر: نفسه.
(13) ينظر: حلية الأولياء، 8/ 337 .

بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها، ونحن نطلبها، فكيف لو تحببت إلينا؟!(1)، وقيل لحكيم: لمن الدنيا؟ قال: لمن تركها. فقيل: لمن الآخرة؟ قال: لمن طلبها(2)، وقال حكيم: الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها(3).

وقال الجنيد: كان الشافعى(4) من المريدين الناطقين بلسان الحقّ فى الدّين، وعظ أخًا له فى الدين وخوّفه بالله، فقال: يا أخى الدنيا دحض مزلّة ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار منها الإعسار، والإعسار منها يسار، فافزع إلى الله، وارضِ برزق الله، لا تستسلف من دار بقائك فى دار فنائك، فإن عيشك فىء زائل وجدار مائل، بل أكثر من عملك وأقصر من أملك(5).

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت من قبلهم المثلات**» أراد أن أولياء الله نظروا إلى أهل الدنيا الذين أثاروها حقّ الإثارة، وعمروها أكثر العمارة، فعقدوا أبوابها، وزخرفوا مشكاتها، وشيّدوا قبابها، ورفعوا قصورها، وأرخوا ستورها، وقوموا أنوفها، وسردوا خروقها، وخرطوها بالرخام والمرمر، ونقشوها بألوان الصباغات بالأحمر القانى، والأبيض اليقق(6)، واللازوردية، والأصفر والمزعفر، فأصبحوا فى أرجائها مصرعين، وفى حافاتها مطرحين، قد صاروا رممًا بالية، ومنازلهم دارسة خالية، وآثارهم مطموسة بالية، فهل ترى لهم من باقية، لما أخذوا أخذة رابية، وفى الحديث: أن ذا القرنين(7) السيار فى الأرض- رحمه الله- مرّ بمدينة عظيمة قد ملكها ملوك سبعة، وماتوا عنها، فأعجبته، فسأل: هل بقى من نسلهم أحد؟ فقيل له: ليس إلا غلام قد لزم المقابر، وانفرد عن الناس، فأمر من جاء به، فجىء به فسلّم عليه، فقال: ما دلّك على لزوم المقابر؟ فقال: أردت أن أميز بين عظام ملوكهم، وعبيدهم، فإذا هم سواء. قال: فهل لك من همة؟ فقال: إن همتى لعظيمة، فقال: إنى لأرد عليك ملك آبائك، وأوليك هذه المدينة، قال: إنى أريد ملكًا لا يزول، فهل عندك؟ قال: ذلك ما لا يقدر عليه أحد إلا الله. قال: فإنى أطلبه ممّن يقدر عليه، وهو الله، ثم خلاه، وانطلق، فقال ذو القرنين لخاصته: ما رأيت أحكم من هذا.

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم فى المنام أحبّ إليك أم دينار فى اليقظة؟ فقال: دينار فى اليقظة، فقال: كذبت؛ لأن

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210.

(2) ينظر: نفسه.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210.

(4) وهو محمد بن إدريس الشافعى، ولد بغزة سنة 150هـ، كان كثير المناقب، جم المفاخر، ويُعد أول من تكلم فى أصول الفقه، توفى بمصر سنة 204هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 163- 165.

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210.

(6) اليقق: المتناهى فى البياض. ينظر: لسان العرب، مادة (يقق).

(7) فى (د،م) زيادة: الملك.

الذى تحبه فى الدنيا كأنك تحبه فى المنام، والذى لا تحبه فى الآخرة كأنك لا تحبه فى اليقظة، وعن بعض الزهاد، قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون: إليك عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا اسمًا أقبح من هذا لسموها به[1].

وقال كعب الأحبار: لتحبين لكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها[2]، وقال يحيى بن معاذ: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه، وقال أيضًا: الدنيا بلغة من شؤمها أن تمنيك بما يلهيك عن طاعة الله تعالى، فكيف الوقوع فيها[3]، وقال بعض الحكماء: من أراد أن يستغنى بالدنيا عن الدنيا كان كمن يطفئ النار بالنار[4]، وحكى عن بندار[5] أنه قال: إذا رأيت أبناء الدار الدنيا يتكلمون فى الزهد، فاعلم أنهم فى سحرة الشيطان، وقال أيضًا: من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها، يعنى الحرص حتى يصير رمادًا، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها، فصار سبيكة من ذهب، ومن أقبل على الله تعالى أحرقته نيران التوحيد، فصار جوهرًا لا قيمة له[6].

وقال أمير المؤمنين- كرم الله وجهه-: إنما الدنيا ستة أشياء: مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم؛ فأشرف المطعومات العسل، وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروبات الماء يستوى فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير، وهو نسيج دودة، وأشرف المركوبات الخيل، وعليها تقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهو مبال فى مبال، والله إن المرأة تزين أحسنها ويؤتى أقبحها، وأشرف المشمومات المسك، وهو دم حيوان[7]، فهذه لذات الدنيا ونفائسها، فما أحقرها وأهون استعمالها فى كل أحوالها.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قد خلت من قبلهم المثلات**» يعنى: ما أصاب الأمم الماضية، والقرون الخالية، ففى مصارعهم أعظم موعظة وأبلغ عبرة، ولهذا قال تعالى فى غير آية: ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ** ﴾[8]، ولهذا قال بعض الحكماء: يا أيها الناس اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل، ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة مكارة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطابها فأصبحت

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210.
(2) ينظر: نفسه.
(3) ينظر: نفسه.
(4) ينظر: نفسه.
(5) وهو بندار بن الحسين الشيرازى، زاهد نزل أرجان، له لسان مشهور فى علوم الحقائق، عالم بالأصول، توفى سنة 353هـ. ينظر: الوافى بالوفيات، 10/ 183، 184.
(6) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210.
(7) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 210.
(8) سورة الروم من الآية 42.

كالعروس المتحلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها فتنت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثرت بوائقها، وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذلّ، وكثيرها يقلّ، وحيّها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلان عليل ومدنف ثقيل فهل على الدواء من[1] دليل؟ وهل إلى طبيب من سبيل؟ فيدعى لك الأطباء، ولا يُرجى لك الشفاء، ثم يقال: فلان أوصى، وماله أحصى، ثم يقال: قد ثقل لسانه؛ فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه، وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وحشرجت نفسك، وطمحت جفونك، و[2] صدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك: هذا ابنك فلان، هذا أخوك فلان، ومنعت كلام، فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطلق، ثم حلّ بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بروحك إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسلوك، وكفنوك، و[3] انقطع عوادك، واستراح حاسدك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهنًا بأعمالك[4].

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك: إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا، وقلاها من بسط له فيها، وأعطى حاجته منها؛ لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أوعلى جمعه فتفرقه، أوتأتى على سلطانه، فتهدمه من القواعد أو تدبّ على جسمه فتسقمه أوتفجعه بشىء هو ضنين به من أحبابه، فالدنيا أحقّ بالذم هى الآخذة لما تعطى الراجعة فيما تهب، بينا هى تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره، وبينا هى تبكى عليه إذا بكت له، وبينا هى تبسط كفه[5] بالإعطاء إذا[6] بسطتها بالاسترداد تعقد التاج على رأس صاحبها اليوم، وتعفره بالتراب[7] على خدّه سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى، تجد فى الباقى من الذاهب خلفًا، وترضى بكل من كل بدلاً[8].

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل الله آدم إليها عقوبة فاحذروها– يا أمير المؤمنين– فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها لها، فى كل حين قتيل، تذل من أعزّها، وتفقر من

---

(1) فى (د،م) سقط: من.
(2) فى (د،م) الفاء بدلاً عن الواو.
(3) فى (د،م) الفاء بدلاً عن الواو.
(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 211.
(5) فى (د) سقط: كفه.
(6) فى (ك،م) إذ.
(7) فى (ك،م) فى بدلاً عن الباء.
(8) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 211.

جمعها، هى كالسمّ يأكله من لا يعرفه، وهى جيفة فكن فيها كالمداوى جراحته يحتمى قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، فاحذر هذه الدار الغدارة الختّالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وأضلت بآمالها، وتشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المتحلية، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهى لأزواجها كلهم قاتلة، فاحذرها– يا أمير المؤمنين–، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، فإذا أقبل الغنى قلْ ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قلْ مرحبًا بشعار الصالحين، ولتكن قدوتك بصاحب الروح، والكلمة عيسى بن مريم– صلوات الله عليه–، فإنه كان يقول: إدامى الجوع، وشعارى الخوف، ولباسى الصوف، وصلائى فى الشتاء مشارق الشمس، وسراجى القمر، ودابتى رجلاى، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض ، أمسى وليس لى شىء، وأصبح وليس لى شىء، وليس على الأرض أحد أغنى منى بالرضا[1] .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فما يرون أمانًا دون ما يرجون، ولا خوفًا دون ما يحذرون**» أراد بما ذكره أنهم لا يرون أمانًا دون الثواب فى الجنة، وهو الذى كانوا يرجون فى دار الدنيا؛ إذ الأمان دونه غير دائم، والسرور بزواله غير لازم، ولا خوفًا دون ما يحذرون من عذاب الله تعالى؛ إذ كل خوف دون العقاب فهو عافية، وكل هول دونه هو حقير، قلما نظروا بأبصار البصائر، وتحققوا بعين الاعتبار أن الله أعقب أولياءه الخائفين له الراجين لكرمه وثوابه أمنًا لا خوف معه، وسرورًا لا حزن يقاربه، وأعقب أعداءه خوفًا فى الآخرة، لا تنقضى روعته وجرعهم فيها حزنًا لا تنفد لوعته، فمن سلك منهاج أهل الصلاح فاز، ومن اعتزل نزل دار المغترين، وتجرّع كأس الندامة مع المحرومين.

وقال ابن منبه: لمّا بعث الله– عزّ وجلّ– موسى، وهارون إلى فرعون قال لهما: لا يروعكما لباسه الذى لبس فى الدنيا؛ فإن ناصيته بيدى، ليس ينطق، ولا يطرف، ولا يتنفس إلا بإذنى، ولا يعجبكما ما تمتع به منها؛ فإنما هى زهرة الحياة الدنيا، وزينتها للمترفين، ولو شئت أن أزينكما زينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عمّا أوتيتما لفعلت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك، وأزوى عنكما ذلك، وهكذا أفعل بأوليائى، إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق إبله عن منازل العرّة، وما ذاك لهوانهم علىّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالمًا موفرًا، وإنما يتزين إلى أوليائى بالذل والخشوع والخوف والتقوى تثبت فى قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهى ثيابهم التى يلبسونها، ودثارهم التى يظهرون، وضميرهم الذى يستشعرون، وتجارتهم التى بها يفوزون، ورجاؤهم الذى إياه يأملون، ومجدهم الذى به يفرحون[2]، وسيماهم الذى[3] بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أن من

(1) ينظر: حلية الأولياء، 6/ 313، 314.

(2) فى (د،ك،م) يفخرون. ﴿ولعله الأنسب﴾ .

(3) المناسب فى السياق التى، ولعل ذلك من التصحيف.

أخاف لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة[1].

وخطب أمير المؤمنين– كرم الله وجهه– يومًا، فقال فى خطبته: اعلموا أنكم ميتون، وعلى أعمالكم مجزون، ومبعوثون من بعد الموت، فلا تغرنّكم الحياة الدنيا، فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دول، وسجال لا تدوم أحوالها، ولن يسلم من شرّها نُزَّالها بينا أهلها منها فى رخاء وسرور إذ هم منها فى بلاء وغرور، وأحوال مختلفة، وتارات متصرفة العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أعراض مستهدفة ترميهم بسهامها، وتقضمهم بحمامها، وكل حتفه فيها مقدور، وحظه منها موفور[2].

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، وينخرمنك بلياليه، وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك[3]، وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها: الدنيا وقتك الذى يرجع إليك طرفك فيه؛ لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأتك فلا علم لك به، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته، وتطويه ساعته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان[4]، وخطب عمر بن عبدالعزيز، فقال: أيها الناس إنكم خلقتم لأمرٍ إن كنتم تصدقون به فحمقى، وإن كنتم تكذبون إنكم لهلكى إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون.

عباد الله: إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها ألا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه، ثم غلبه البكاء، فنزل[5] .

وخطب أمير المؤمنين– كرم الله وجهه– فقال: أوصيكم بتقوى الله، والترك للدنيا التاركة لكم، وإن كنتم لا تحبون تركها المبلية لأجسادكم، وإن كنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل سفر سلكوا طريقًا، وكأنهم قد قطعوه، وأفضوا إلى علم، وكأنهم قد بلغوه، وكم عسى يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية، وكم عسى يبقى من له يوم فى الدنيا، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها، عجبت لطالب الدنيا، والموت يطلبه، وغافل عما يصلحه من أمر آخرته، وليس مغفولاً عنه[6].

ونختم هذا الحديث بأبيات فيها مواعظ شافية، وحكم وأمثال للدنيا، فهذان مقامان:

المقام الأول: فى إيراد مقطعات بالغة فى ذم الدنيا ونزول قدرها وركّة حالها وأمرها

---

(1) ينظر: حلية الأولياء، 1/ 10– 12.
(2) ينظر: تاريخ دمشق، 42/ 500.
(3) ينظر: حلية الأولياء، 10/ 150.
(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 213.
(5) ينظر: نفسه.
(6) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 213، 214.

قال بعضهم:

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِهِ ... إِنَّ الحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا.

أَفْنَى القُرُونَ الَّتِي كَانَتْ مُنَعَّمَةً ... كَرُّ الجَدِيدَيْنِ[1] إِقْبَالاً وَإِدْبَارَا.

يَا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لا بَقَاءَ لَهَا ... يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي دُنْيَاهُ سَفَّارَا.

هَلا تَرَكْتَ مِنَ الدُّنْيَا مُعَانَقَةً ... حَتَّى تُعَانِقَ فِي الفِرْدَوْسِ أَبْكَارَا.

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جِنَانَ الخُلْدِ تَسْكُنُهَا ... فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ لا تَأْمَنَ النَّارَا[2].

وقال آخر:

أَرَى طَالِبَ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ ... وَنَالَ مِنَ الدُّنْيَا سُرُورًا وَإِنْعَامَا.

كَبَانٍ بَنَى بُنْيَانَهُ فَأَقَامَهُ ... فَلَمَّا اسْتَوَى مَا قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّمَا[3].

وقال آخر:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالِ.

وَمَا دُنْيَاكَ إِلا مِثْلُ فَيْءٍ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ[4].

وقال آخر:

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا إِلَى نَفْسِهَا ... تَنَحَّ عَنْ خِطْبَتِهَا تَسْلَمِ.

إِنَّ الَّتِي تَخْطُبُ غَدَّارَةٌ ... قَرِيبَةُ العُرْسِ مِنَ المَأْتَمِ[5].

وقال آخر:

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لا يُخْدَعُ[6].

---

(1) فى (د،ك،م) الليالى. ﴿والسليم الجديدين﴾.

(2) الأبيات من البسيط، وهى لمحمد الباهلى. ينظر: ديوان محمد بن حازم الباهلى، دار الجيل، عام 2002م، بيروت، لبنان، 37. وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى، من ساكنى بغداد مولده ومنشؤه البصرة، من شعراء الدولة العباسية، ولم يمدح منهم إلا المأمون، كان كثير الهجاء للناس. ينظر: الأغانى، 14/ 93.

(3) البيتان من الطويل. قال أبو البركات ياسين بن إبراهيم اللخمى المقدسى: مما أنشدنا أبو الفتح نصر بن إبراهيم النابلسى ببيت المقدس، ولم يسم قائله، وأنشد البيتين. ينظر: معجم السفر، أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى، تحقيق عبد الله عمر البارودى، المكتبة التجارية،(ت)، مكة المكرمة، المملكة السعودية، 463.

(4) البيتان من الوافر، ونسبا لأبى العتاهية. ينظر: تاريخ بغداد، 6/ 252. التمهيد، 4/ 112. ولم يرد فى ديوانه إلا البيت الأول، 402.

(5) البيتان من السريع، ونسبا لأبى العتاهية فى (البيان والتبيين، 3/ 180)، ونسبا لأحمد إسحاق الخاركى فى (الوافى بالوفيات، 6/ 149) ونصّ البيت الأول فى الأخير:

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا أَلَمْ تَعْتَبِرْ ... بِفِعْلِهَا قَبْلَكَ فِي العَالَمِ.

ولم يردا فى ديوان أبى العتاهية. ينظر: ديوان أبى العتاهية، 430– 458.

(6) البيت من الكامل، ونُسب لابن أبى حصينة فى (معجم الأدباء، 3/ 177)، ونسب لعمران بن حطان فى (تاريخ الإسلام، 6/ 156، وشعر
=

وكان الحسن بن على– رضى الله عنه– يقول:

يَا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيَا لا بَقَاءَ لَهَا   إِنَّ اغْتِرَارًا بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمْقُ[1].

وقال آخر:

أَلا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلِّ ثَنِيَّةٍ   وَلا بُدَّ يَوْمًا أَنَّ ظِلَّكَ زَائِلُ[2].

وقال آخر:

وَإِنَّ امْرَأً دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ   لَمُسْتَمْسِكٌ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ[3].

وقال آخر:

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِعَيْشٍ يَسُرُّهُ   فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا.
إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً   وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومُهَا[4].

وقال آخر:

أَرَى الدُّنْيَا تَجَهَّزُ بِانْطِلاقِ   مُشَمِّرَةً عَلَى قَدَمٍ وَسَاقِ.
فَمَا الدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَيٍّ   وَلا حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقِ[5].

فهذا ما أردنا إيراده من الأبيات الشعرية المتضمنة للحكم والآداب الشافية.

المقام الثانى: فى إيراد الأمثلة للدنيا

وجملة ما نورده من ذلك أمثلة عشرة:

المثال الأول: فى تقضيها وزوالها

اعلم أن الدنيا مثل الظلّ سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء، ثم تخلف بالوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهى سائرة سيرًا عنيفًا ومرتحلة ارتحالاً سريعًا، ولكن الناظر إليها قد لا يحسّ تحركها فيطمئن إليها، وإنما يحسّ عند انقضائها،

الخوارج، 155).

(1) البيت من البسيط، وقد ورد منسوبًا للحسن بن على رضى الله عنهما. ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 214.

(2) البيت من الطويل، أنشده أعرابى، وذلك عندما نزل بقوم فقدموا إليه طعامًا، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه. ينظر: نفسه، 3/ 214.

(3) البيت من الطويل، قال الأصمعى: كان هذا البيت منقوشًا فى خاتم أبى عمرو بن العلاء، فسألته عن ذلك، فقال: كنت فى ضيعتى نصف النهار فسمعت قائلاً يقول هذا البيت فنظرت فلم أجد أحدًا، فكتبته على خاتمى. ينظر: تاريخ دمشق، 67/ 115، 116.

(4) البيتان من الطويل، ونسبا للإمام على– كرم الله وجهه. ينظر: نفسه، 70/ 197. ولم يردا فى ديوانه، 119– 155.

(5) البيتان من مجزوء الوافر، ولم يقف الباحث على قائل للبيتين إلا ما قيل: إن الفضل بن مغفل العجلى المتوفى سنة 52هـ، كان من الرؤساء الفضلاء، وكانت له قبة على سكة الليث على طريق المدينتين بقزوين كُتب عليها هذان البيتان. ينظر: التدوين فى أخبار قزوين، 4/ 30.

ومثالها الظلّ فإنه متحرك فى الحقيقة ساكن فى الظاهر لا تدرك حركتها بالبصر الظاهر إنما تدرك بالبصيرة الباطنة، ولمّا علم أهل العقول، والعلم، والمعرفة أن الله تعالى قد أهان الدنيا، وأنه لم يرضها لأوليائه، وأنها عنده حقيرة قليلة، وإن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- زهد فيها، وزهد فيها أصحابه، وحذرهم من فتنتها أكلوا منها فضلاً وقدموا فضلاً، أخذوا منها ما يكفى، وتركوا ما يلهى، وعرفوا قطعًا ويقينًا أنها فئ زائل، وسناد مائل، ونجم آفل، ونفاد حاصل.

المثال الثانى: من جهة التغرير بخيالها؛ لأنها تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام

وقال بعض الزهاد: ما شبهت نفسى، والدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره، وما يحب، فبينا هو كذلك إذ انتبه[1]، فهكذا حال الناس إذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس فى أيديهم شىء ممّا ركنوا إليه، وفرحوا به، وقيل لحكيم: أىّ شىء أشبه بالدنيا؟ فقال: أحلام النيام[2].

قال أنس بن مالك: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شقّ من أوله إلى آخره، فبقى متعلقًا بخيط فى آخره فيوشك بأن ينقطع ذلك الخيط»[3]، وقال عيسى- صلوات الله عليه-: مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله[4]، وقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما مثل الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ فلينظر ماذا يرجع إليه»[5].

المثال الثالث: فى عداوة الدنيا لأهلها وإهلاكها من اطمأن إليها

اعلم أن طبع الدنيا هو التلطف فى الاستدراج أولاً، والتوصل إلى الإهلاك آخرًا، وهى كامرأة تتزين للخطّاب، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم، فقد رُوى أن عيسى- عليه السلام- مُثّل له الدنيا فرآها فى صورة عجوز هتماء، عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك، أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى- عليه السلام-: بؤسًا لأزواجك الباقين لا يعتبرون بالماضين، كيف يهلكون واحدًا واحدًا ولا يكونون منك على حذر؟ ![6].

ويُحكى أن أمير المؤمنين- كرم الله وجهه- كتب إلى سلمان الفارسى- رضى الله عنه-، فقال له: مثل الدنيا مثل الحيّة لين مسها قاتل سمها، فأعرض عمّا يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لمّا أيقنت من فراقها، وكن آنس ما تكون

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 214.

(2) ينظر: نفسه.

(3) شعب الإيمان، 7/ 260.

(4) تاريخ دمشق، 47/ 431.

(5) صحيح مسلم، 4/ 2193.

(6) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 214، 215.

بها، أحذر ما تكون منها فإن صاحبها كلما اطمأن إلى سرور أشخصته إلى مكروه، والسلام[1].

المثال الرابع: للدنيا فى مخالفة باطنها لظاهرها

اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر، قبيحةالسرائر، وهى تشبه عجوزاً متزينةً تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها، وكشفوا القناع عن وجهها تمثلت لهم قبائحها فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها.

قال العلاء بن زياد: رأيت عجوزاً فى المنام كبيرة، عليها من كل زينة الدنيا، والناس عاكفون[2] حولها معجبون بها ينظرون إليها، فجئت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك فمن أنت؟ فقالت: إنى أنا الدنيا، فقلت: أعوذ بالله من شرّك، قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شرّى فأبغض الدينار، والدرهم[3].

وقال بعض الحكماء: رأيت الدنيا فى صورة عجوز شوهاء شمطاء فى النوم تصفق بيدها، وخلفها خلق يتبعونها، ويصفقون أيديهم، ويرقصون، فلما كانت بحذائى أقبلت علىّ، فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك ما صنعت بهؤلاء، ثم بكى هذا الحكيم[4]، وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس: يُؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية مشوهة خلقها، فتشرف على الخلائق، فيقال: تعرفون هذه، فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال لهم: هذه الدنيا التى تناحرتم عليها، وتقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم، وتباغضتم، واغتررتم، ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى: أى رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله– عزّ وجلّ–: ألحقوا بها أتباعها، وأشياعها[5]، وقال الفضيل بن عياض: بلغنى أن رجلاً عرج بروحه إلى السماء، فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلىّ، واللباس والثياب، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته، فإذا هى أدبرت كانت أحسن شىء رآه الناس، وإذا أقبلت كانت أقبح شىء رآه الناس: عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، قال: فقلت: أعوذ بالله منك. قالت: لا والله لا يعيذك الله منى حتى تبغض الدرهم، فقلت: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا[6].

المثال الخامس: للدنيا فى عبور الإنسان عنها وخروجه منها

اعلم أن أحوال الإنسان ثلاثة: حالة لم يكن فيها شيئًا، وهى ما قبل وجوده إلى الأزل، وحالاً يكون فيها مشاهدًا للدنيا، وهى

---

(1) ينظر: نهج البلاغة، 458.

(2) فى (د،م) عكوف.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 215.

(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 215.

(5) ينظر: شعب الإيمان، 7/ 383.

(6) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 215.

ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل، وهى أيام حياتك فى الدنيا، فانظر إلى مقدار طولها وأقسه[1] إلى طرفى الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقلّ من منزل قصير فى سفر طويل، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب سار فى يوم صائف، فرفعت له شجرة، فقال تحت ظلها ساعة، ثم راح عنها»[2]، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إلى الدنيا، ولم يبال كيف انقضت أيامه فى ضرّ وضيق، أو فى سعة ورفاهية، بل لا يبنى لبنة على لبنة.

ولقد توفى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- وما وضع لبنة على لبنة، ولا فضة على فضة، ورأى بعض أصحابه يبنى بناء من خصّ فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا»[3]، وأنكر ذلك عليه، وإلى هذا أشار عيسى- عليه السلام- حيث قال: الدنيا قنطرة فاعبروها، ولا تعمروها[4]، وهو مثال واضح، فإن الحياة الدنيا معبرة إلى الآخرة، والمهد هو المثل الأول على رأس القنطرة، واللحد هو المثل الثانى، وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة، وهوغافل عنها، وكيف ما كان فلا بد من العبور على هذه القنطرة، ولا شك أن البناء عليها، وتزيينها بأصناف الزينة، وأنت عابرعليها هو غاية الجهل والخذلان.

المثال السادس: للدنيا فى تعذر الخلاص منها والخروج من تبعاتها بعد الخوض فيها والدخول فى بحرها

قال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إنما مثل الحياة الدنيا كمثل الماشى فى الماء،هل يستطيع الذى يمشى فى الماء أن لا تبتل قدماه؟!»[5]، وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون فى نعيم الدنيا بأبدانهم، وقلوبهم عنها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة، وتلك مكيدة الشيطان، بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا أعظم المتفجعين بفراقها، فكما أن المشى على الماء لا بدّ فيه من إصابة البلل لا محالة يلصق بالقدم، فهكذا ملابسة الدنيا تقتضى علامة وظلمة فى القلب، بل علاقة القلب مع الدنيا تمنع حلاوة العبادة.

قال عيسى- صلوات الله عليه-: بحقّ أقول لكم كما ينظر المريض إلى طعام، فلا يلتذ به من شدّة المرض، فهكذا صاحب الدنيا لا يلتذّ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حبّ الدنيا، بحقّ أقول لكم: إن الدابة إذا لم تركب، ولم تمتهن تصعبت، وتغير خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت، ونصب العبادة تقسو وتغلظ، بحقّ أقول لكم: إن الزقّ ما لم يخرق، أو يقحل[6]

---

(1) فى (د،م) انسبه.

(2) المستدرك على الصحيحين، 4/ 345. بلفظ: «مالى وللدنيا، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال تحت شجرة فى يوم صائف فراح، وتركها».

(3) سنن الترمذى، 4/ 568. بلفظ: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك».

(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 215.

(5) شعب الإيمان، 7/ 360.

(6) يقحل: ييبس. ينظر: لسان العرب، مادة (قحل).

يوشك أن يكون وعاء للعسل، فكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، أو يدنسها الطبع، أو يقسها النعيم فإنها تكون أوعية للحكمة[1]، وقد قال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله »[2]، وبالله التوفيق.

المثال السابع: لمخالفة أول الدنيا لآخرها، ولحسن أولها وقبح آخرها ورداءة عواقبها

اعلم أن شهوات الدنيا فى القلب لذيذة كشهوات الأطعمة فى المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة، والنتن، والقبح ما يجد للأطعمة اللذيذة إذا بلغت فى المعدة غايتها، وكما أن الطعام ألذ طعمًا، وأكثر دسمًا، وأظهر حلاوة كان رجيعه أخبث ما يكون، وأشدّ نتنًا، وأقذر حالاً، فهكذا كل شهوة فى القلب هى أشهى وألذّ وأقوى، فالتأذى بها لنتنها، وكراهتها عند الموت أشدّ لا محالة، بل هى فى الدنيا مشاهدة، فكل من نهبت داره وأخذ أهله وولده وماله، فتكون مصيبته، وألمه، وتفجعه فى كل ما فقد بقدر لذته فيه، وحبه له وحرصه عليه، فكل ما كان عند الوجود أشهى وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر، وما الموت معنى ولا حقيقة إلا فقد ما فى الدنيا.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم للضحاك الكلابى[3]: «ألست تؤتى بطعامك، وقد ملح وقزح، ثم تشر ب عليه اللبن والماء» قال: بلى، قال: «فإلى ما يصير»؟ قال: إلى ما علمت يا رسول الله. قال:«فإن الله ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم»[4].

وقال أبيُّ بن كعب[5]: قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- : «إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم بطعامه، فانظر ما يخرج من ابن آدم، وإن قزحه وملحه إلى ما يصير»[6]، وقال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن الله ضرب الدنيا مثلاً لمطعم ابن آدم، وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً، وإن قزحه وملحه»[7].

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 216.

(2) مسند أحمد، 4/ 94.

(3) وهو الضحاك بن سفيان بن عوف الكلابى، صحابى، بعثه النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- على سرية، وكان بمائة فارس، وكان على صدقات قومه، توفى سنة 11هـ. ينظر: الإصابة، 3/ 477. الأعلام للزركلى، 3/ 214.

(4) المعجم الكبير، 8/ 299. بلفظ: «ما طعامك؟ قلت: اللحم واللبن. قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قلت: ثم يصير إلى ما قد علمت، فقال: إن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا».

(5) وهو أبى بن كعب بن قيس الأنصارى، من بنى النجار، سيد القراء، من أصحاب العقبة الثانية، شهد المشاهد كلها، وفى أثبت الأقوال توفى سنة 30هـ. ينظر: الإصابة، 1/ 27.

(6) شعب الإيمان، 5/ 29. بلفظ:« إن مطعم ابن آدم ضرب مثله للدنيا مما يخرج من ابن آدم، وإن ملحه، وقزحه فيعلم إلى ما يصير».

(7) نفسه.

قال الحسن البصري: قد رأيناهم يطيبونها بالأفاويه[1]، والطيب والأبازير[2]، ثم يرمون به حيث رأيتم[3]، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾[4] قال ابن عباس- رضى الله عنهما- إلى رجيعه.

المثال الثامن: للدنيا وأهلها فى اشتغالهم بنعيم الدين وغفلتهم عن نعيم الآخرة وحسراتهم العظيمة بسببها

اعلم أن أهل الدنيا فى غفلتهم مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحوائج، وحذّرهم المقام، وحذرهم مرور السفينة، واستعجالها، فتفرقوا فى نواحى تلك الجزيرة، فقضى بعضهم الحاجة، وبادر إلى السفينة فركبها، وصادف المكان خاليًا، فأخذ أوسع الأماكن منها، وأطيبها، وأوفقها[5] لمراده، وبعضهم وقف فى الجزيرة ينظر إلى أنهارها، وأنوارها العجيبة، وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها العجيبة، وألحانها الموزونة الغريبة، وصار يلحظ من تربتها أحجارها، وجواهرها، ومعادنها المختلفة الألوان، والأشكال العجيبة التى تسلب أعين الناظرين بحسن زبرجدها، وعجائب صورها، ثم إنه تنبه لخطر مرور السفينة وفواتها، فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا حرجًا، فاستقر فيه، وبعضهم أكبّ على تلك الأصداف والأحجار، وأعجبه حسنها، ولم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة، فلم يجد فى السفينة إلا مكانًا ضيقًا، وزادته الحجارة ضيقًا، وصارت ثقلاً عليه، ووبالاً، فندم على أخذها، ولم يقدر على رميها، ولم يجد مكانًا لوضعها، فحملها فى السفينة على عنقه، وهو متأسف على أخذها، وليس ينفعه التأسف، وبعضهم تولج الغياض، ونسى المركب، وبعد فى متفرجه، ومتنزهه منها حتى ما يبلغه نداء الملاح؛ لاشتغاله بتلك الثمار، والشمّ لتلك الأزهار والأنوار، والتفرج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع، وغير خالٍ من السقطات والنكبات، ولا ينفك عن شوك تشبث بثيابه، وشوك تدخل فى رجله، وصوت هائل، وعوسج يجرح ثيابه، ويهتك عورته، ويمنعه عن الانصراف، فلما بلغهم نداء السفينة انصرف بعضهم مثقلاً، ولم يجد فى المركب موضعًا فبقى على الشط حتى مات جوعًا، وبعضهم لم يبلغه النداء، وسارت السفينة ، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات فى الأوحال، ومنهم من نهشته الحيات، وتفرقوا كالجيف المنتنة. فهذا مثال أصناف أهل الدنيا فى اشتغالهم بالحظوظ العاجلة، ونسيانهم للآخرة.

المثال التاسع: لاغترار الخلق بالدنيا، وضعف إيمانهم بتحذير الله تعالى لهم غوائل الدنيا وعواقبها

---

(1) الأفاويه: ما يعالج به الطيب كما أن التوابل ما تُعالج به الأطعمة. ينظر: لسان العرب، مادة (فوه).

(2) الأبازير: جمع إبريز وهو الذهب الخالص. ينظر: نفسه، مادة (برز).

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، 3/ 217.

(4) سورة عبس الآية 24.

(5) فى (د،م) أوقعها.

قال الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- يومًا لأصحابه: «إنما مثلى ومثلكم كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يذروا ما سلكوا منها، وما بقى أنفدوا الزاد، وخسروا الظهر، وبقوا بين ظهرانى المفازة لا زاد، ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل فى حلّة يقطر رأسه، فقالوا: قريب عهد بريف، وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى قال: يا هؤلاء، قالوا: يا هذا . قال: على ما أنتم؟ فقالوا: على ما ترى، قال: أريتكم إن هديتكم إلى ماء رواء، ورياض خضراء، ما تعملون؟ قالوا: نطيعك، ولا نعصيك شيئًا، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصوننى شيئًا . قال: فأوردهم ماء رواءً ورياضًا خضرًا، فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء، قالوا: يا هذا، قال: الرحيل ، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليس كرياضكم، فقال أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لا نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا، قال: وقالت طائفة: وهم أقلّهم، ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم، ومواثيقكم بالله ألا تعصوه شيئًا، وقد صدقكم فى أول حديثه، فو الله ليصدقنكم فى آخره، فراح فى من أتبعه، وبقيت بقيتهم، فبدر بهم عدو فأصبحوا بين قتيل وأسير»[1]، فهذا مثل للدنيا فى الاغترار، وضعف الحال فى الإيمان على ما ذكرناه.

المثال العاشر: للدنيا فى تنعم أهلها وتفجعهم على فراقها

اعلم أن مثل الخلق فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارًا زخرفها، وزينها، وهو يدعو إلى داره قومًا فقومًا، وواحدًا بعد واحد، فدخل واحد داره، فقدّم إليه طبقًا من ذهب عليه بخور ورياحين وطيب ليشمه، ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه، فظن أنه قد وهب له الطبق، فتعلق به قلبه، وشغف لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وسخر وتفجع، ومن كان عالمًا برسمه انتفع به وشكره، ورده بطيبة من نفسه، وقرار من خاطره، وسهولة وانشراح صدر، فهكذا حال من عرف سُنَّة الله فى الدنيا عرف أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافر بالعوارى، ولا يصرفون إليها كل همهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها، فهذه أمثلة الدنيا فى التنعم بها، والفجيعة بتركها، و[2]لنقبض عنان الكلام هاهنا، ونقتصر على ما ذكرناه من أمثلة الدنيا ففيه كفاية، وهى فكرة لمن تفكر، وعبرة لمن اعتبر واستبصر.

فأما أمثالها فى كتاب الله فهى كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾[3]، ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

(1) ينظر: مسند أحمد، 1/ 267.

(2) فى (د) سقط: الواو.

(3) سورة الكهف من الآية 45.

أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾[1]، ومنها: قوله تعالى:﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[2]، فهذا ما أردنا ذكره في ذمّ الدنيا، كما أشار إليه صاحب الشريعة صلوات الله عليه.

(1) سورة يونس من الآية 24 .

(2) سورة آل عمران من الآية 117 .

الحديث العشرون

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صَلّى اللهُ عَلَيه وَآلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُول: «**إِنَّمَا أَنْتُمْ خَلْفُ مَاضِينَ، وَبَقِيَّةُ مُتَقَدِّمِينَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ بَسْطَةً، وَأَعْظَمَ سَطْوَةً، أُزْعِجُوا عَنِ الدُّنْيَا أَسْكَنَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَغَدَرَتْ بِهِمْ أَوْثَقَ مَا كَانُوا بِهَا فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةُ عَشِيرَةٍ، وَلاَ قُبِلَ مِنْهُمْ بَذْلُ فِدْيَةٍ، فَأَرْحِلُوا أَنْفُسَكُم بِزَادٍ مُبَلِّغٍ، قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذُوا عَلَى فَجْأَةٍ، وَقَدْ غَفَلْتُمْ عَنِ الاِسْتِعْدَادِ**»[1].

فنقول: الحمد لله المسبح بأسمائه وصفاته، المقدس فى جميع أرضه وسمواته، الذى جعل الدنيا معبرًا لأوليائه إلى إحراز خيراته، ووصلة وذريعة إلى التنعم فى رياض جناته، وبوأهم رضوانه، وأحلّهم دار كراماته، فاطمأنت بهم الدار، وطاب لهم فيها المسكن والقراربإكرامه بسلامه وتحياته، فأقبلوا على استعمال[2] الشهوات للنفوس، وارتياح القلوب بشريف عطائه ونفيس لذاته، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾[3] على خوف ربكم وطاعاته، وبعدهم عما أعد الله لأعدائه من عظيم عذابه، وشدّة غضبه ونقمه، وأحلّهم دار الهوان التى هيأها للمستحقين لعقابه، وعظيم سطواته، أزعجوا عن الدنيا حين اطمأنواإليها لمّا أعرضوا عن أوامره وسماع عظاته، وغدرت بهم لمّا آثروها، وجنحوا إلى المخالفة بملابسة مناهيه، والمبادرة إلى معاصيه، فعلق الرهن بما فيه، ولم تغن عنهم قوة عشيرة، ولا بذل فدية من ذخائر المال ونفائسه وكريماته، فحمدًا دائمًا، وشكرًا سرمدًا لمن أطلعنا على حقائق معارفه، وعظيم ملكوته، ووفقنا لطاعته، وخصّنا بما ألهمنا عن[4] غرائب العلم ومكنوناته، وأكرمنا بما عرفنا من جواهر أسراره ومخزوناته.

والصلاة على المخصوص بمعجزاته، والمبعوث بأبهر آياته، وعلى آله الطيبين أنجم الهدى ومصابيحه، وخزائن العلم النافع ومفاتيحه، فهذا[5] الحديث قد اشتمل على النظر فى أمور ثلاثة نفصلها بمعونة الله تعالى.

النظر الأول: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم الأدبية

وفيه مطلبان:

---

(1) الأربعون حديثًا السيلقية، 31.

(2) فى (د) استعمالات.

(3) سورة الرعد من الآية 23، ومن الآية 24.

(4) فى (ك،م) من بدلاً عن: عن.

(5) فى (د،م) الواو بدلاً عن الفاء.

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم اللغوية

الخَلَفُ: بفتح (اللام) هو نقيض السلَف بفتح (اللام) أيضاً، **والسلف**: هو القرن المتقدم، **والخلف**: هو الذى يخلفه فى مكانه، وسكون أوطانه وقيامه مقامة فى وراثة سلطانه، ومن هذا أخذت الخلافة، **فالخلف**: هو الذى يعقب السلف، فإن كان بفتح (اللام) فهو الذى يساوى الأول فى الدعاء إلى الخير والدّين، وإن كان مستعملاً بسكون (اللام) فهو دون الأول، قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾[1]، **والماضى**: هو السالف، وأصل المضى فى الاشتقاق هو القطع، ويقال للسيوف: مواضٍ، **والبقية**: هى فضالة الشىء، وحثالته، قال الله تعالى: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ ﴾[2] معناه: استبقاؤكم الله ذخيرة، وهو خير لكم فى جميع الأمور كلها .

والمتقدمون: هم السابقون. **الأكثر**: نقيض الأقل، **والبَسطة**: هى الفضل والسعة، وهى مأخوذة من البسط الذى هو نقيض القبض، **والعظيم**: نقيض الحقير، **والسطوة**: هى الوقعة، يقال: سطا به إذا وقع عليه، وبطش به. **الإزعاج**: هوالإخراج بعنف وشدة، **والسكون**: الطمأنينة، **والغدر**: هو فعل المكروه ممّن لا يخشى منه ذلك.

الوثاق: الشدة والصلابة. **الإغناء**: هو الكفاية، **والغَناء**: هو النفع بفتح (الفاء) . **القوة**: نقيض الضعف، **والعشيرة**: هم أهل الإنسان وأقاربه، واشتقاقها من العِشرة، وهى الألفة والمعاونة والمنافعة، **القبول**: نقيض الردّ، **والبذل**: نقيض المنع، **والفدية**: ما يخلص[3] به الإنسان نفسه ممّا يقوم مقامه من المال، قال الله تعالى: ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴾[4]، ويقال: أفدى وفدى وفادى؛ فأما **أفدى**، فأخذ مالاً، وأعطى رجلاً، كما كان فى أسرى بدر، فإن المسلمين أفدوهم فأخذوا مالاً، وأعطوا رجالاً، وهم الأسرى، وأما **فدى**، فأعطى مالاً وأخذ رجلاً، كما كان فى المشركين، فإنهم أعطوا مالاً وأخذوا رجالاً، وأما **فادى**، فأخذ رجلاً، وأعطى رجلاً[5]، فقد كان ذلك من جهة الرسول– صلى الله عليه وآله وسلم– فإنه أتى برجل أسير فأراد أن يمنّ عليه، وقد كان أسر رجلين أسرا فى سرية ، فقال: لا تطلقوه حتى يقدم الرجلان، أراد اللذين أرسلهما، أراد إن جرى عليهما حبس كان الفداء رجلاً برجل. **الارحال**: أخذ من قولهم: أرحل الرجل نفسه برحلها، ولـ (أفعل) هاهنا معنيان:

---

(1) سورة مريم من الآية 59.

(2) سورة هود من الآية 86.

(3) فى (د،ك،م) يتخلص.

(4) سورة الصافات الآية 107.

(5) فى (د،م) سقط: وأما فادى فأخذ رجلاً و أعطى رجلاً.

المعنى الأول: أن يكون (أفعل) على جهة التعدية، كما تقول: دخل وأدخلته، وخرج وأخرجته، فيكون المعنى على هذا «**أرحلوا نفوسكم**[1]» اجعلوها راحلة بالزاد، وهذه هى فائدة التعدية، كما تقول: أدخلته إذا جعلته داخلاً، وأخرجته إذا جعلته خارجًا، وهذا هو الأكثر فى استعمال (أفعل) من جهة أن الهمزة فيه للتعدية.

المعنى الثانى: أن يكون (أفعل) معناه الصيرورة ذا كذا، كما تقول يقال: أغد البعير إذا صار ذا غدّه، وأجرب الرجل إذا صار ذا جرب فى ماله، وهكذا قولهم ألام إذا صار ذا لوم، وأرأب إذا صار ذا ريبة، فعلى هذا يكون معناه هاهنا «**أرحلوا نفوسكم**[2]» أىْ: صيروها ذا رحلة بالزاد، وكلا المعنيين لا غبار عليه كما ترى، **والزاد:** ما يستصحبه الإنسان فى سفره؛ لأنه أعظم ما يحتاج إليه فى السفر؛ إذ يتعذر السفر من دون زاد. **المبلغ:** هو الموصل، ومنه قولهم: بلغ إذا وصل إلى غرضه ومراده، **وقبل:** نقيض بعد، وهو من الأزمنة المتقدمة، **والأخذ:** نقيض الترك، **والفجأة:** هى الغفلة ، فأما قطرى بن الفجاءة[3] فإنما لقّب بذلك؛ لأن أباه جاء به من اليمن فجأة، وقد صار رجلاً، ولا علم له بأن له فى اليمن ولدًا، فسموه الفجاءة من أجل ذلك[4]، **والغفلة:** نقيض اليقظة، والغفلة قد تكون من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾[5]، والغرض **بالغفلة:** هاهنا هو ترك الألطاف الخفية، إما من جهة أنها غير واجبة على الله تعالى فلا يستحقونها لإعراضهم، وإما على أن الألطاف واجبة على الله، فليس له فى المعلوم لطف، فلا بدّ من تنزيل الآية على ما ذكرناه من الوجهين، وقد تكون الغفلة من الشيطان بأن يوسوس بالأشغال، فيحصل النسيان من أجل ذلك، وهذا عارض، وله موضع أخصّ به، **والاستعداد:** جمع الآلة، والعدّة للحرب وغيره مما يفتقر إلى العدّة، والله الموفق.

المطلب الثانى: فى بيان ما تضمنه من المعانى الإعرابية

فقوله: «**إنما أنتم**» هى للحصر، أعنى: «**إنما**»؛ لأنها فى معنى النفى والإثبات، كأنه قال: ما أنتم إلا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[6] أىْ: ما إلهكم إلا الله، ولا واسطة بين النفى والإثبات، وهذا من الأمور الضرورية المعلومة بصريح العقل، وحكى

---

(1) ورد فى لفظ الحديث: أنفسكم.

(2) ورد فى لفظ الحديث: أنفسكم.

(3) وهو جعونة بن مازن بن يزيد التميمى المازنى الخارجى، خرج زمن مصعب بن الزبير فى العراق، وقاتل، وسلّم له بالخلافة، قتل سنة 78هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 4/ 93.

(4) ينظر: نفسه، 4/ 94.

(5) سورة الكهف من الآية 28.

(6) سورة طه من الآية 98.

عن أبى حنيفة[1] أنه أثبت واسطة بين النفى والإثبات، فإذا قلت ما قام أحد إلا زيد، فالقيام قد تقرر لزيد بالاستثناء، وهو الإثبات ولم ينتف القيام عمّن سواه، وإنما ينتفى على حكم العقل، وما زعمه فاسد لأمرين، أما **أولاً**، فلما ذكرناه من أن صريح العقل قاضٍ بأنه لا واسطة بين النفى والإثبات، وهو من الأمور الضرورية البديهية، وأما **ثانيًا**، فلأنه يلزم أن لا يكون قولنا: لا إله إلا الله صريح فى الوحدانية، وهذا ممّا لا خلاف فى أنه كلمة توحيد، وأنه صريح فى نفى الإلهية عمّا سوى الله، وإثباتها لله تعالى، و«**أنتم**» ضمير منفصل مرفوع على الابتداء. «**خلف ماضين**» مرفوع على أنه خبر المبتدأ مضاف إلى ما بعده، و«**ماضين**» مجرور بإضافة «**خلف**» إليه، و«**اللام**» فى «**ماضين**» محذوفة لأجل الثقل بالكسرة عليها، وأصله: ماضيين بـ (يائين)، فتقلب الكسرة على الياء، فحذفت للخفّة، فالتقى ساكنان (لام) الكلمة و(ياء) الإعراب، فحذف (لام) الكلمة لأنه أحقّ بالحذف؛ لأن الإعراب لا يحذف، وهو مجموع للسلامة معرب بالحرف كالمسلمين، وهو صفة حذف موصوفة، واستغنى بالصفة عنه، كما قال تعالى: ﴿ **وَعِندَهُمۡ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ**﴾[2]، والتقدير: خلف قوم ماضين، وحور قاصرات الطرف، والسرّ فى ذلك هو أن المقصود الإعلام بالصفة من أول وَهْلة، والتعريف بها، فلهذا طرح الموصوف من أجل ذلك، **والخلف:** اسم الجمع، وليس جمعًا على الحقيقة، كما فى النفر والرهط، ولهذا فإنه يصغر على لفظه لو كان جمعًا ردّ إلى مفرده، إما بالواو والنون، كما فى غلمان، فتقول: غليمون، وإما بالألف والتاء، كما فى مساجد، فتقول: مسيجدات، والـ «**بقية**» (فعيلة) مرفوع بالعطف على «**خلف**»، وهو مضاف إلى ما بعده، وهو قوله: «**متقدمين**» جمع للسلامة.

«**كانوا أكثر**» «**الواو**» هى ضمير الفاعل، و«**أكثر**» (أفعل تفضيل) منصوب على الخبرية لـ «**كان**»، ولها استعمالات[3] فى لغة العرب، فقد تستعمل تامة مقصورة على الفاعل لا غير، كما قالوا: كانت الكائنة، وبمعنى صار، وزائدة، وأكثر استعمالها ناقصة دالة على اقتران مضمون الجملة بالأزمنة الماضية، ومعنى نقصانها: افتقارها إلى اسم وخبر، كما وقعت هاهنا. «**منكم**» جار ومجرور متعلقان بـ «**أكثر**»، و«**من**» لابتداء الغاية أينما وقعت بعد أفعل التفضيل. **البسطة:** مصدر بسط، كضرب ضربة، وليس الغرض هاهنا المرّة الواحدة، ولكن استعمال المصدر ورد بـ (التاء)، كالاستعانة والدحرجة، ونصبها على التمييز؛ لأنها رافعة لما وقع من الإبهام فى أكثر، وأعظم سطوة معطوفان على «**أكثر بسطة**»، فيشاركه فى عامله.

---

(1) وهو النعمان بن ثابت، الفقيه الكوفى، مولى تيم الله بن ثعلبة، عالم، زاهد، عابد، ورع، ولد سنة 80هـ، وتوفى سنة 150هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 5/ 405- 414.

(2) سورة الصافات الآية 48، ص الآية 52.

(3) فى (د) استعمالان. ﴿وهو غير سليم﴾.

«**أُزعجوا**» فعل[1] لما لم يسم فاعله، و«**الواو**» هى الفاعلة، أقيمت مقام فاعله. «**عن الدنيا**» جار ومجرور، و«**عن**» معناها المجاوزة. «**أسكن ما كانوا**» هو أفعل تفضيل مضاف إلى «**ما**»، ولها معنيان:

أحدهما: أن تكون نكرة موصوفة، أىْ: أسكن شىء كانوا إليها .

وثانيهما: أن تكون موصولة، أىْ: الذى كانوا إليها، وانتصاب «**أسكن**» فيه أوجه خمسة:

أما أولاً : فيحتمل أن يكون منصوبًا على أنه نعت لمصدر محذوف تقديره: أزعجوا إزعاجًا أسكن ما يكون.

وأما ثانيًا: فيحتمل أن يكون نصبه على نزع الجار تقديره: أزعجوا كأسكن ما يكون، فلما حذف حرف الجر، وهو الكاف تعدى الفعل إليه فصارمنصوبًا .

وأما ثالثًا: فيحتمل أن يكون نصبه على أنه صفة لزمان محذوف تقديره: أزعجوا زمانًا أسكن ما يكون، فلما حذف الظرف صارت منصوبة نصبه، كما قالوا: سير عليه كثيرًا، أىْ: زمانًا كثيرًا وطويلاً وقليلاً.

وأما رابعًا: فيحتمل نصبه على الحال، أىْ: أزعجوا عنها فى حال سكونهم إليها .

وأما خامسًا: فيحتمل نصبه على التمييز، والتقدير[2]: أزعجوا عنها من جهة سكونهم إليها، والحال والتمييز جيدان لا غبار عليهما من جهة المعنى؛ لأنهما أدقّ وأرقّ.

«**وغدرت بهم أوثق**» جملة فعلية معطوفة على ما قبلها، و«**بهم**» جار ومجرور فى موضع المفعول، وقوله: «**إليها**» جار ومجرور فى موضع نصب خبر لـ «**كان**»، ونصب «**أوثق**» على الأوجه الخمسة التى فى «**أسكن**» .

«**فلم تغن عنهم قوة عشيرة**» جملة سلبية، وارتفاع «**قوة**» على الفاعلية، وجر «**عشيرة**» بإضافة «**قوة**» إليه، و«**تغن**» فعل مضارع مجزوم بـ «**لم**»، وعلامة جزمه طرح (الياء)؛ لأن الجزم يقطع الحركة، فلمّا لم يكن هناك حركة لأجل حرف العلة لا جرم كان تأثيره فى طرح الحرف.

«**ولا قُبِل منهم بذل فدية**» جملة سلبية بـ «**لا**»، والفعل معرب بالمضارعة، و«**بذل**» مرفوع على أنه اسم ما لم يسم فاعله، و«**فدية**» مجرور بالإضافة. «**فأرحلوا**» جملة أمرية إنشائية، و«**الفاء**»، إما للعطف على الجمل قبلها، وإما على الاستئناف، و«**الواو**» هى الفاعل، و«**أنفسكم**» منصوب على المفعولية.

«**بزاد**» جار ومجرور فى موضع المفعول، «**قبل**» منصوب على الظرفية للزمان. «**أن تؤخذوا**» «**أن**» هى المصدرية،

---

(1) فى (د،ك،م) زيادة: مبنى.

(2) فى (د،ك،م) المعنى.

و«**تؤخذوا**» منصوب بها، وعلامة نصبه طرح النون، و«**أن**» مجرورة بإضافة «**قبل**» إليها على تأويل المصدر، تقديره: قبل الأخذ بـ «**الكظم**» جار ومجرور، و«**الباء**» فيها وجهان: إما على أنها فى موضع المفعول ، وإما على أنها فى موضع الحال أىْ: مكظومين، **والكظم**: ضيق النفس وقلقها، و«**على فجأة**» فيها الوجهان اللذان ذكرناهما فى قوله: **بالكظم**، فلا وجه لتكريره، ولفظة **الكظم** ليست فى هذا الحديث، وإنما هى فى (الثامن والعشرين)، وهى مشروحة هناك بحمد الله تعالى ،والرواية فى **الكظْم** بسكون (الظاء)، وهو قياس فعله، نحو كظم يكظم كظمًا، نحو ضرب يضرب ضربًا . والرواية فى قوله: «**فأرحلوا أنفسكم**» على أنه جمع قلة. دون نفوسكم: وهو جمع كثرة، وليس سماعًا لنا .

«**وقد غفلتم عن الاستعداد**» جملة فعلية موجبة فى موضع نصب على الحال من الضمير فى قوله: «**تؤخذوا**» أىْ: تؤخذوا غافلين عن أخذ الأهبة، أو تؤخذوا غير مستعدين. **الفجأة**: واحد الفجآت، و(التاء) فيه للمرّة الواحدة، وفيه لغتان، «**فجأة**» على مثال ضربة، و«**فجاءة**» على مثال زهادة، والرواية فيه «**فجأة**» على وزن ضربة، و«**الاستعداد**» مصدر استعد استعدادًا، وهو قياسه، ولا يأتى استفعل، إلا على الاستفعال فى كل مواقعه، بخلاف فاعل نحو قاتل، فإنه كما يجىء مقاتلة فقد يجئ على قتال، وهو قليل.

النظر الثانى: فى بيان ما اشتمل عليه من العلوم فى البلاغة

وفيه مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: فى بيان ما تضمنه من العلوم المعنوية

وهو مشتمل على معانٍ:

المعنى الأول: الحصر، وهو قوله: «إنما أنتم خلف»، وللحصر طرق أربع:

الأولى: منها **النفى والإثبات**، كقولك: ما زيد إلا قائم، وما قائم إلا زيد .

الثانية: الحصر بـ «**إنما**»، كقولك: إنما الله إله واحد؛ لأنها فى معنى النفى والإثبات، كما مرّ بيانه.

الثالثة: العطف، كقولك: ما زيد قائم، بل كاتب؛ لأنه فى معنى النفى والإثبات أيضًا .

الرابعة: التقديم، كقولك تميمى أنا والعالم زيد، فهذه الطرق دالة على الحصر كما ترى، ثم إن القصر يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون قصرًا للصفة على الموصوف، ومثاله: ما عالم إلا زيد، فهذا يفيد أن العلم **لا** يحصل فى غير زيد، فإن حصل فى غير زيد كان مناقضة، ويجوز أن يجعل زيد على غير صفة العلم.

وثانيها: أن يكون قصر الموصوف على الصفة، ومثاله: قولك: ما زيد إلا عالم ، فهذا يفيد أن زيدًا لا يحصل إلا على صفة العلم، فإن حصل له غيرها من الصفات كان نقضاً، ويجوز أن تحصل هذه الصفة لغيره، فهذه هى التفرقة بين قصر الصفة على الموصوف، وبين قصر الموصوف على الصفة.

المعنى الثانى: الفصل والوصل، فالفصل نحو قوله: **أزعجوا عنها**، فإنه أتى من غير (واو)، والوصل فى نحو قوله: «**وغدرت بهم أوثق**» فإنه أتى[1] بـ (الواو) كما ترى.

المعنى الثالث: الإظهار والإضمار، وهما من مهمات علوم المعانى، و[2]الإظهار: للكشف والإيضاح، كما فى قوله: «**أزعجوا عن الدنيا**» فأظهرها لما فى الإظهار من الإيضاح، وأضمرها: فى نحو قوله «**إليها**» و«**بها**»، فإن الإضمار دال على الاختصار.

المعنى الرابع: الجمل المترادفة بالعطف، فإنها دالة على المبالغة فى حسن التأليف، ولطافة المعانى، ودقّة غورها .

المعنى الخامس: الجملة الحالية، فإن لها فى الكلام موقعا بالغاً يزيد الكلام حسنًا ورشاقة، وهذه المعانى كلها مأخوذة من العلوم المعنوية.

المطلب الثانى: فى بيان ما تضمنه من العلوم البيانية

وهو مشتمل على استعارات ست[3]:

الاستعارة الأولى: قوله: «**إنما أنتم**» فالخطاب إنما هو للحاضرين، فمن كان فى زمنه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن يتلوه من بعده فقد صار مستعملاً فى الخطاب وغيره، وظاهره وحقيقته للمخاطبين، وهو شامل للكل، فلا جرم كان استعارة كما ترى.

الاستعارة الثانية: حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، فى قوله: «**إنما أنتم خلف ماضين**» أىْ: قوم ماضين وبقية قوم متقدمين؛ ووجه الاستعارة هو أن المقصود إنما هو الصفة، فلأجل هذا طرح موصوفها لما كان الغرض الاستعجال بذكرها، وهو فى التنزيل أكثر من أن يحصى، كالأوصاف الجارية على ذاته تعالى، كالقادر والعليم والخبير والجبار والمتكبر، فإن موصوفها هو اسم الله تعالى، وليس يذكر معها إلا على جهة الندرة، وما ذاك إلا لما قررناه من مقصود ذكر الصفة، ثم إنه ينقسم إلى ما اطرح فيه الموصوف اطراحًا كليًّا حتى لا يذكر أبدًا، وهذا نحو الأورق، والأطلس، والفارس، والراكب، وإلى ما يذكر الموصوف معها تارة دون تارة، وهذا هو سائر الصفات.

---

(1) فى (د) سقط: أتى.

(2) فى (د،ك،م) الفاء بدلاً عن الواو.

(3) فى (د،ك،م) سقط: ست.

الاستعارة الثالثة: إسناد المصدر إلى الدنيا، فى قوله: «**وغدرت بهم**»، فإن إضافة **الغدر** إليها إنما هو على جهة الاستعارة، وهو من المجازات المركبة، فإنه ليس لها فعل، وإنما الفعل لله.

الاستعارة الرابعة: استعمال «**الباء**»، فى قوله: «**غدرت بهم**»، فإن وضعها للإلصاق، و[1]إلصاق غدرها بهم إنما يتصور على جهة الاستعارة فى الحروف الجارة.

الاستعارة الخامسة: ذكر **البسطة والسطوة:** فإن حقيقتهما غير خافية، واستعارتهما ظاهرة، وهما من أحسن الاستعارات وأرشقها.

الاستعارة السادسة: قوله: «**أسكن ما كانوا**»،و«**أوثق ما كانوا بها**» فإن إطلاقهما إنما هو على جهة الاستعارة والمجاز[2]، وفى الحديث استعارات كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية فى التنبيه على ما لم نذكره من ذلك، ومن عرف ما قررناه هاهنا هان عليه إدراك ما سواه من ذلك.

المطلب الثالث: فى بيان ما اشتمل عليه من علوم البديع و[3]من محاسن البلاغة الفائقة

وقد تضمن أساليب كلها معجبة:

الأسلوب الأول: التسجيع، وهذا كقوله: «**بسطة**» مع قوله: «**سطوة**»، فإنهما سجع، وقوله: «**إليها**»،و«**بها**»، وقوله: «**ماضين**»، و«**متقدمين**»، فكل مما ذكرناه سجع.

الأسلوب الثانى: المبالغة بذكر أفعل التفضيل، فإنه إنما يرد فى الكلام من أجل المبالغة فيما تناوله، وهذا كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أكثر منكم بسطة، وأعظم سطوة**»، وقوله: «**أسكن ما كانوا إليها**»، و«**أوثق ما كانوا بها**»، فسياق الكلام بأفعل[4] فيه دلالة على المبالغة فيما تناوله.

الأسلوب الثالث: التفنن فى الكلام، فإنه ذكر فى هذا الحديث فنوناً خمسة، كل واحد منها دال على الفصاحة، والدخول فى البلاغة:

الأول: حكى فيه حال من سلف، وتقدم من الأمم الماضية، والقرون الخالية، وذكر حالهم فى القوة والبسطة وعظيم

---

(1) فى (د،ك،م) الفاء بدلاً عن الواو.
(2) فى (د،ك،م) المجاز والاستعارة.
(3) فى (د،ك،م) زيادة: هو.
(4) فى (د) زيادة: التفضيل.

السطوة، وآثارهم دالة عليهم في اليمن مثل الآثار الحاصلة في بينون[1] فإن فيه أبنية عظيمة، وآثارًا جسيمة، ومثل الآثار في معين[2]، وهي مشهورة في الجوف، ومثل الآثار الحاصلة في عرش بلقيس[3]، وغيره من الأماكن المشهورة، فكلها[4] دالة على اختصاصهم بالقوة العظيمة التي لا يقدر على مثلها في زماننا هذا مجال.

الثاني: أنه حكى فيه إزعاجهم من الدنيا، وخروجهم منها، وقد كانوا سكنوا إليها، واطمأنوا، ووثقوا بها، فما كان أسرع ما نقلوا عنها، وما كان أسهل نقلتهم عنها، كأن لم يغنوا فيها ساعة واحدة.

الثالث: ما ذكره من أنه لم ينفعهم عن الموت لا قوة عشيرة، فيدفعون عنهم ما حلّ بهم، ولا نفعهم نفيس الأموال والذخائر التي جمعوها في الفداء عما أصابهم.

الرابع: الأمر بالاستعداد، وإرحال الأنفس بالزاد المبلغ.

الخامس: التحذير لهم عن الأخذ على فجأة، وإشخاصهم على بغتة، وهم غافلون عن الأهبة، وأخذ العدّة، فهذه كلها أفانين قد أوردها في حديثه هذا، وما ذاك إلا أنه[5] قد قاد البلاغة بزمامها، واستولى على أسرارها واستخرج ثمراتها من أكمامها.

الأسلوب الرابع: التأكيد من جهة التضمين، ومثاله قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أزعجوا عنها**[6] **أسكن ما كانوا إليها، وغدرت بهم أوثق ما كانوا بها**»، وتقريره: أنها إذا كانت غادرة من غير وثوق بها، فكيف إذا غدرت مع الوثوق بها؟! وإذا أزعجوا عنها مع غير سكون إليها، فكيف إذا أزعجوا مع السكون؟! يكون لا محالة أولى وأحقّ، ومثاله: قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾[7]، فإذا كانوا لا يسمعون لإعراضهم وتمردهم، مع أن الله تعالى قد خلق القوة الفاهمة، فكيف حالهم إذا سلبهم القوة الفاهمة؟! فعدم السماع يكون لا محالة أحقّ وأولى، ومنه الحديث: «نعم العبد صهيب[8] لو لم يخف الله لم يعصه»[1]، فإذا كان مع عدم الخوف لا يمكن من جهته معصية، فكيف حاله إذا كان خائفًا

---

(1) ويقع شرق بلاد عنس ذمار، وسمي ببينون بن ميناف بن شرحبيل بن ينكف. ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، ط3، عام 1403هـ، بيروت، لبنان، 1/ 298.

(2) ينظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، (ت)، بيروت، لبنان، 1/ 364.

(3) كان عرش بلقيس بمأرب مدينة دولة سبأ. ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، 515.

(4) في (د) الواو بدلاً عن الفاء.

(5) في (د،ك،م) لأنه.

(6) ورد في لفظ الحديث: عن الدنيا.

(7) سورة الأنفال الآية 23.

(8) وهو صهيب بن سنان بن مالك، وهو رومي، صحابي من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها، وكان من أرمى العرب سهمًا، توفي بالمدينة =

خائفًا لله؟! فامتناع المعصية يكون أحقّ لا محالة، ومنه بيت زهير[2]:

[illegible] [3]

فإذا كان مع الهيبة تناله المنايا فكيف إذا لم يكن من جهته هيبة، فنيلها يكون أقرب وأسهل لا محالة.

الأسلوب الخامس: حسن التأليف والنظم، فإن هذه الجمل متلائمة، كأن بعضها آخذ بأعناق بعض من شدّة التلازم، ورشاقة التأليف، فإذا فكرت فى مفردات الألفاظ وجدتها من أرقّ الألفاظ وأعذبها، لا تنافر فيها، وإذا فكرت فى تأليفها ونظمها، وجدته أحسن تأليف، وأعجب نظم، فهذا ما أردنا ذكره ممّا تضمنه هذا الحديث من علم البديع، والله أعلم بالصواب.

النظر الثالث: فى بيان مقاصده صلى الله عليه وآله وسلم

واعلم أن كلامه هاهنا قد اشتمل على مقامات خمسة:

المقام الأول: فى بيان حال الأمم الماضية

وإليه الإشارة بقوله: «**إنما أنتم خالف ماضين، وبقية متقدمين**» اعلم أن كلامه صلى الله عليه وآله وسلم هاهنا باعث على التفكر فى حال من مضى من الأمم الماضية، والنظر فى آثارهم، وفيه تعريض على أن ما أصابهم من الموت والفناء، فهو مصيب لنا لا محالة؛ لأنهم سلف لنا، ونحن خلفهم، فالموت زمانة مطلقة تلحق جميع الأعضاء، فأما الشبح والروح فهما باقيان، وإنما يتغير حال الإنسان بالموت من جهتين:

الجهة الأولى: أنه يسلب منه جميع آلاته كلها، كالعين، والأذن، واللسان، واليد، والرجل وجميع الأعضاء، ويسلب منه جميع معارفه من الأهل، والأولاد، والأقارب، ويسلب منه جميع ماله من خيله، ودوابه، وغلمانه، ودوره، وعقاره، وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان، أو يسلب هو منها، فإن المؤلم للقلب هو الفراق، فالفراق تارة يحصل بأن ينتهب مال

بالمدينة سنة 38هـ. ينظر: الإصابة، 3/ 449- 451. الأعلام للزركلى، 3/ 210.

(1) اشتهر الحديث فى كلام الأصوليين، وأصحاب المعانى، وأهل العربية، من حديث عمر- رضى الله عنه-، وبعضهم يرفعه إلى النبى- صلى الله عليه وآله وسلم- وقال ابن حجر: أنه ظفر به فى مشكل الحديث لابن قتيبة من غير إسناد. ينظر: كشف الخفاء، 2/ 428- 429.

(2) وهو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارث المزنى، من مضر، حكيم الشعراء فى الجاهلية، ولد بمزينة، وكان يقيم بالحاجر من ديار نجد، سُميت قصائده بالحوليات، لأنه كان ينظم القصيدة فى شهر، وينقحها ويهذبها فى سَنة، وأشهر قصائده معلقته المشهورة، توفى سنة 13ق هـ، ولأشعاره أكثر من شرح منها شرح لأبى العباس ثعلب، وشرح لأبى سعيد الحسن السكرى. ينظر: الإكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى، على هبة الله بن أبى نصر ماكولا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1411هـ، بيروت، لبنان، 4/ 326. الأعلام للزركلى، 3/ 52.

(3) البيت من الطويل، ونصّ عجزه: وَلَو رَامَ أَنْ يَرْقَى السَّمَاءِ بِسُلَّمِ. ينظر: شرح شعر زهير بن أبى سلمى، صنعه أبى العباس ثعلب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، عام 1981م، 35.

الرجل، وتارة بأن يسبى الرجل عن المال، والألم واحد فى الحالين، وفائدة الموت؛ هو سلب الإنسان عن جميع أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يشابه هذا العالم، فإن كان له شىء فى الدنيا يستريح به، ويأنس به، ويعتدّ بوجوده، فيعظم تحسره عليه بعد الموت، ويعظم شقاؤه فى مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره، حتى إلى قميص كان يلبسه، فإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله، ولم يأنس إلا به عظم نعيمه، وتمّت سعادته؛ إذ خلى بينه وبين محبوبه، وقطعت عنه العوائق والشواغل؛ إذ جميع أسباب الدنيا شاغلته[1] عن ذكر الله.

الجهة الثانية: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً فى حال الحياة، كما ينكشف للمستيقظ ما لم يكن مكشوفاً فى النوم و«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[2]، وأول ما ينكشف له ما يضرّه، وينفعه من حسناته و[3] سيئاته، وقد كان ذلك مسطورًا فى كتاب مطوىّ فى سرّ قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فى حال الحياة، فإذا انقطعت الشواغل بالموت انكشف له جميع أحواله، فلا ينظر إلى سيئاته إلا ويتحسر عليها تحسرًا عظيمًا، وعند ذلك يقال: ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[4]، وكل هذه الحسرات العظيمة تحصل عند مفارقة الروح للجسد قبل الدفن، فأما بعد الدفن فيرد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب، ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من يتنعم عند غيبة الملك من داره وملكه وحريمه اعتقادًا على أن الملك يتساهل فى الأمر، وعلى أن الملك لا يدرى ما يلابس من قبيح أفعاله، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه كتابًا قد دون فيه جميع فواحشه وخباياته[5] جميعها، لا يغادر منها شيئًا، والملك قاهر متسلط، وغيور على حرمه، ومنتقم من الجناة على ملكه، ولا يقبل شفاعة، فانظر إلى حال المأخوذين كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجل والحسرة والندامة؟! و[6]هكذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به، نعوذ برحمة الله الواسعة منه، فإن الخزى والفضيحة أعظم من العذاب.

المقام الثانى: فى بيان أوصاف الأمم الماضية

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كانوا أكثر منكم بسطة، وأعظم سطوة**»، أما البسطة فإنما تكون بالتمكن من الأموال والجنود والعساكر مثل ما كان يقال فى ملك سليمان– عليه السلام، فإنه قد قيل: إن مخيمه كان ثلاثمائة فرسخ للجن

---

(1) فى (د،ك،م) شاغلة.
(2) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 23.
(3) فى (د،ك،م) أو بدلاً عن الواو.
(4) سورة الفرقان من الآية 22.
(5) فى (د،ك،م) جناياته.
(6) فى (د،م) الفاء بدلاً عن الواو.

والإنس والطير، ومثل ما كان من حال فرعون، فإنه قد قيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾[1] في كلام فرعون، يعني: قوم موسى، وقيل: إنهم كانوا ستمائة ألف مقاتل، ومثل ما كان في قوم عاد وثمود من القوة والاستيلاء على نحت الصخور والبنآت الفاخرة، والقصور المشيدة، مثل غمدان، وسلحين، وظفار، ومدائن الجوف العظيمة، وهرمي مصر، وإيوان كسرى، وبينون، وغير ذلك من الآثار القوية؛ فأما غمدان، فهو من الأبنية الفاخرة، كان بصنعاء من الجانب اليماني منها، قد ذهبت آثاره، وقد كان منه بقية في أيام عثمان[2]، فأمر بهدمها وعمارة مسجد الجامع فيه[3]، ورُوي أنه لم يكن في الأرض مثل غمدان، وأما ظفار وبينون فهما عظيمان، كانت التابعة تسكنهما[4]، وأما سلحين وهو قصر بلقيس، وكان مقررًا على الأساطين والأعمدة، وكان عجيبًا رائعًا[5]، وأما مدائن الجوف، فهي على شاطئ نهره الأعظم الذي يقال له الخارد[6]، وهي أماكن عظيمة تروع العاقل؛ لما تضمنته من الآثار الرائعة والتأليفات البديعة الهائلة من الأساطين الميمّنة والعمد المكونة والصور الممثلة والأركان المكللة المخروطة التي كأنها خطّت بالقلم، وكأن الصخور شمع يلين؛ لما فيه من الإحكام والاقتدار.

وأما قصر نمرود، فهو من الآثار الباهرة، يُحكى: إن ارتفاعه في الهواء عشرة آلاف ذراع، وطوله في الأرض ألف وخمسمائة ذراع، وهو الذي حاج إبراهيم في ربه[7]، وهو الذي حكاه الله تعالى بقوله: فَأَتَى﴿ ٱللَّهُ بُنۡيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾[8]، وأما تدمر، فهو من ناحية الشام مّما عمرته الجن لسليمان بن داود[9]، وأما إيوان كسرى، وهرمي مصر فآثارهما إلى الآن باقية؛ لما تضمنته من العمارة الأكيدة، وأما سطواتهم فإنها كانت هائلة عظيمة شديدة قاهرة لما كانوا عليه من الأجسام العظيمة، كما حكى الله تعالى في قوم فرعون ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٍ

---

(1) سورة الشعراء الآية 54.

(2) وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي الأموي- رضي الله عنه-، ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل، هاجر الهجرتين إلى الحبشة مع زوجته رقية بنت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-، تزوج أم كلثوم بنت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- بعد وفاة رقية، جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرًا، وأتم الألف بخمسين فرسًا، بويع بعد استشهاد عمر- رضي الله عنه- سنة 24هـ، واستشهد بالمدينة سنة 35هـ. ينظر: الاستيعاب، 3/ 1037- 1044.

(3) ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، 429، 430.

(4) ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، 1/ 298، 3/ 904، 905.

(5) ينظر: معجم البلدان، 3/ 235. الروض المعطار في خبر الأقطار، 119. الروض المعطار، 515.

(6) ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، 1/ 404.

(7) ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، 357.

(8) سورة النحل من الآية 26.

(9) ينظر: معجم البلدان، 2/ 17.

﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[1]، فسبحان من لا يزول ملكه، ولا يقهر سلطانه، ولا يغالب فى عزّه وعلوّ شأنه، وأىّ بسطة ترى أوسع من بسطتهم، وأىّ سطوة أعظم من سطوتهم، ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾[2].

المقام الثالث فى بيان خروجهم من الدنيا

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أزعجوا عنها**[3] **أسكن ما كانوا إليها، وغدرت بهم أوثق ما كانوا بها**» أراد عليه السلام أن كل من تقدم ذكرهم من الذين كانوا قبلنا أزعجوا من الدنيا المؤنقة فى أعينهم، المتمكنة فى سواد قلوبهم، والمساكن العجيبة فى فكرهم[4]، والأبنية المزخرفة، والبسطة الواسعة، والسطوة النافذة.

«**أسكن ما كانوا إليها**» معناه: أنهم أخذوا بغتة، وهم سكون إلى ما هم فيه، كما أخذ المغترون بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾[5]، وقال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾[6] ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سرعة الأخذ وشدّة الانتقام، «**وغدرت بهم**» فعلت معهم فعل الغادر، وإن لم يكن هناك حقيقة الغدر.

«**أوثق ما كانوا بها**» لأنهم لما اطمأنوا إليها، وثقوا بها جهلاً منهم بعواقبها، وحقيقة حالها، فلما غفلوا فيها غفلة من كان على عهد وميثاق وقعت بهم، وفعلت معهم أفعال الغادر المتمكن القوى الممعن فى تحصيل مراده. قيل: لذلك غدر، فأىّ وعظ أعظم من وعظها؟! وأىّ تذكير أعظم من تذكيرها؟! وأىّ تحذير أنجع من تحذيرها؟! ومصداق ما قلناه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا حلم، وأهلها مجازون ومعاقبون»[9]، وقال بعض الزهاد: ما شبهت نفسى والدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب[10]، فبينا هو كذلك إذ انتبه، وهكذا الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فإذا ليس فى أيديهم شىء ممّا ركنوا إليه وفرحوا

---

(1) سورة الدخان الآيات 25– 27.
(2) سورة الأحقاف من الآية 25.
(3) ورد فى لفظ الحديث: عن الدنيا.
(4) فى (د،ك،م) مكرهم. ﴿والمناسب: فكرهم﴾.
(5) سورة الحاقة من الآية 10.
(6) سورة الأعراف من الآية 95.
(7) سورة الأنعام من الآية 44.
(8) سورة الزخرف من الآية 55.
(9) إحياء علوم الدين، 3/ 214.
(10) ينظر: نفسه.

به، واطمأنوا إليه، ووثقوا به، وقيل لحكيم: أيّ شيء أشبه بالدنيا ؟ قال: أحلام النيام[1] .

المقام الرابع: فى بيان أنهم لا ينفعهم نافع

وإليه الإشارة بقوله: «**فلم تغن عنهم قوة عشيرة، ولا قبل منهم بذل فدية**» أراد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لمّا حلّ بهم ما حلّ، ووقع بهم ما وقع من إزعاجهم عن الدنيا، وإشخاصهم عمّا هم فيه من تراكم اللذات، والتنعم بعظائم المشتهيات، بل أخرجوا منها على رغم آنافهم وكره من أنفسهم، فما نفعهم ممّا حلّ بهم قوة عشيرة فيدفعون عنهم، ولا بذل فدية؛ لأن الشراء إنما يدفع بأحد هذين الأمرين:

إما بقوة العشائر، ومرافدة الأقارب، وتظاهرهم وتقويهم بالاجتماع على كل من خالفهم وناوأهم، وإما ببذل الأموال النفيسة كما نعلمه من حال الملوك والسلاطين وأهل القهر، فإنهم إنما يقهرون ببذل الأموال حتى يحصلوا على مقاصدهم العالية، ويتوصلون بما يبذلون من الأموال إلى التشفى ، وقضاء الأوطار التى لهم، وكيف يغنى عن عذابه قوة العشيرة وكل قوى فهو بالإضافة إلى قوته ضعيف، وكلّ عزيز دون عزّه ذليل، وكل قادر فهو بالإضافة إلى قدرته عاجز، وقد قال تعالى:﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾[2]، ولذلك فإنه لا تقبل الفدية فى ذلك اليوم، ولا تقبل[3] المعذرة من جهة أن التكاليف مرتفعة والأملاك زائلة، والحال غير الحال، والفدية مردودة، والأموال مفقودة، فإن وجدت فهى غير معدودة، فأين العشيرة الدافعة، والفدية النافعة، كما قال تعالى: ﴿ **فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾[4]، فلينظر الناظر لنفسه كيف الخلاص من شدّة هذه الأهوال، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنّى الجبهة، وأصغى بالأذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ»[5]، وقد قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ** ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا**

---

(1) ينظر: نفسه.
(2) سورة مريم الآيات 93- 95.
(3) فى (د،م) تنفع.
(4) سورة الحديد الآية 15.
(5) المستدرك على الصحيحين، 4/ 603. بلفظ: «كيف أنعم، وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر فينفخ».
(6) سورة الزمر الآية 68.

﴿هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾[1]، فلو لم يكن بين يدى الموت[2] من الأهوال إلا هول تلك النفخة لكان جديرًا بأن يتقيها ويخافها، فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، وهم بعض الملائكة ينفرج بها أهل القبور عن قبورهم فيثورون دفعة واحدة، قد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عليه من الغموم وشدّة الهموم، وصعوبة الانتظار لعاقبة الأمر، فتوهم نفسك- يا أيها المسكين- وقد وثبت متغيرًا وجهك، مغبرًا بدنك من قرنك إلى قدمك من تراب قدمك[3] مبهوتاً من شدّة الصعقة، شاخص العين نحو النداء كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[4] قد ثار الخلائق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاهم، وعظم كربهم، فأشعر نفسك وقلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكر والاعتبار؛ لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمير للعرض على الملك الجبار، فانظر فى حالك وحال قلبك هنالك، فلعل الله أن يمنّ بالرحمة بكرمه.

المقام الخامس: فى بيان إشعار النفوس للتزود

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأرحلوا نفوسكم**[5] **بزاد مبلغ قبل أن تؤخذوا على فجأة، وقد غفلتم عن الاستعداد**» أمر صلى الله عليه وآله وسلم بإرحال النفوس بالزاد المبلغ، ولا زاد مبلغ مثل التقوى، والتقوى فهى اطراح الأهواء، والتمسك بالسبب الأقوى، فالرحيل حتم لا بدّ منه، ولا محيص لأحد عنه، والمتزود ناجٍ، والتارك للزاد هالك فى المفازة لا محالة، ومن اختار الهلاك والندامة على النجاة والسلامة، فقد اختار لنفسه الحيرة، ولم يأخذ لنفسه بالوثيقة.

«**قبل أن تؤخذوا على فجأة**»؛ لأن الرحلة إنما تكون بغير اختيار كما تقع رحلة الأسير من غير مشاورة ولا مؤامرة، والغفلة: هى الإعراض عن العدّة وإكمالها، ومنه قولهم: خطّ غفل إذا كان لا نُقط فيه، وقولهم: بعير غفل إذا كان لا سمة على جاعرته[6] بالنار، **والعدّة الحصينة:** هى الأعمال الصالحة الباقية فإنها الجنة الحصينة، والعدّة الرصينة، فما لقى الله بمثلها، ولا استترّ الصالحون المتقون بمثل شكلها، وكيف لا وهى التى لا تقطعها سيوف الانتقام، ولا تنفذ فيها موارق السهام، ولا تخرقها الرماح، ولا تجرى فيها مواضى الصوارم والصفاح، ومن لك بجنة وقت مضرّة العقاب وأورثت لأهلها، طوبى وحسن مآب.

---

(1) سورة يس الآية 51.
(2) فى (د) المؤمن. ﴿وهو المناسب﴾.
(3) فى (د،ك،م) قبرك. ﴿وهو المناسب﴾.
(4) سورة المعارج من الآية 43.
(5) ورد فى نصّ الحديث: أنفسكم.
(6) الجاعر: الدُّبر. ينظر: لسان العرب، مادة (جعر).

واعلم أنه لو لم يكن بين العبد المسكين كربة ولا هول ولا عذاب سوى عذاب القبر، وسكرات الموت لكان جديرًا بأن ينغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن تطول فيه فكرته، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو بصدد كل نفس، كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك[1]، وحُكى عن لقمان أنه قال لابنه: يا بنى أمرٌ لا تدرى متى يلقاك، استعد له قبل أن يغشاك ويفجأك[2]، والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو، وانتظر أن يدخل عليه جندى أو كردى من الأكراد فيضربه خمس ضربات بالخشب لتكدّرت عليه لذته، وفسد عليه عيشه، وكل نفس فإنها بصدد أن يدخل عليها ملك الموت بسكرات النزع، وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الغفلة، والاغترار.

ورُوى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والأنامل، اللهم فأعنى على الموت، وهوّنه علىّ»[3]، ورُوى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض، تقول: عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة»[4]، ورُوى عن موسى- عليه السلام-: لمّا صارت روحه إلى الله تعالى قال:- يا موسى- كيف وجدت الموت؟ قال:وجدت نفسى كالعصفور حين يلقى فى المقلاة لا يموت فيستريح، ولا ينجو فيطير، ورُوى أنه قال: وجدت نفسى كشاة حيّة تسلخ بيد القصاب[5]، ورُوى عن الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده فى الماء، ويمسح بها وجهه، ويقول: «اللهم هون على سكرات الموت»[6]، ورُوى عن فاطمة[7]- عليها السلام- أنها كانت تقول لأبيها: وا كرباه لكربك يا أبتاه، فجعل يقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[8].

ورُوى عن إبراهيم- عليه السلام- أنه لما مات قال الله تعالى: كيف وجدت الموت يا خليلى؟ قال: كسفود فيه خطاطيف جعل فى صوف رطب، ثم جذب، فقال: أما أنّا قد هونّا عليك[9]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «موت الفجأة راحة للمؤمن، وأخذة سوء

(1) إحياء علوم الدين، 4/ 461.

(2) ينظر: نفسه.

(3) جامع العلوم والحكم، 1/ 370.

(4) أخرجه القشيرى فى الرسالة عن إبراهيم بن هدبة عن أنس. ينظر: كنز العمال، 15/ 239.

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 463.

(6) مسند أحمد، 6/ 64. وفيه: «أعنى» بدلاً عن «هون».

(7) وهى فاطمة الزهراء بنت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، تكنى أم أبيها، أصغر بناته، وأحبهن إليه، ولدت والنبى- صلى الله عليه وآله وسلم- ابن خمس وثلاثين سنة، وقيل: سنة إحدى وأربعين من مولده، تزوجها على- كرم الله وجهه- فى السنة الثانية للهجرة، وهى سيدة نساء الجنة، عاشت بعد أبيها ستة أشهر. ينظر: الإصابة، 8/ 53- 59.

(8) سنن ابن ماجة، 1/ 521.

(9) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 463.

للفاجر»[1]، وسئل رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- عن الموت وشدته، فقال: «إن أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف، فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف»[2].

ودخل الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- على رجل مريض من أصحابه، فقال: «إنى أعلم ما يلقى ما منه عرق إلا والموت على حدته»[3]، وكان عليه السلام يحضر على القتال، ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا، والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على الفراش[4]، وحُكى عن عيسى- عليه السلام- قال: يا معشر الحواريين ادعو الله أن يهون على هذه السكرة- يعنى الموت- فقد خفت الموت مخافة أوقعتنى من خوف الموت على الموت[5]، وقالت عائشة: لا أغبط أحدًا يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدّة موت رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-[6]، فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه، فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى، المواقعون للمكاره، والملابسون للملاهى.

اللهم إنّا نستغفرك من كل ما زلّت به القدم، أوطغى به القلم فى كتابنا هذا أو سائر التعليقات، ونستغفرك من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا، ونستغفرك ممّا ادعيناه، وأظهرناه من العلم والبصيرة بدّين الله مع التقصير فيه، ونستغفرك من كل علم وعمل قصدنا به وجهك الكريم، ثم خالطنا فيه ما ليس لك، ونستغفرك من كل وعد وعدناك من أنفسنا، ثم قصّرنا فى الوفاء به، ونستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علينا فتقوينا بها على مخالفتك ومعصيتك، ونستغفرك من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص، وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونرجو بعد الاستغفار من ذلك كله لنا ولمن طالع هذا الكتاب وغيره من سائر ما عنينا فيه أن يتكرم بالمغفرة والرحمة، والتجاوز عن ذلك جميع الفرطات، فإنه الكريم ذو الرحمة الواسعة، والمغفرة الجامعة، إنه قريب مجيب.

تمّ السفر الأول من كتاب (**الأنوار المضيئة فى شرح الأخبار النبوية**) والحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على محمد وآله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(1) شعب الإيمان، 7/ 255. وفيه: «أسف» بدلاً عن «سوء».
(2) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت عن شهر بن حوشب مرسلاً. ينظر: كنز العمال، 15/ 239.
(3) المعجم الكبير، 6/ 269.
(4) ينظر: إحياء علوم الدين، 4/ 462، 463.
(5) ينظر: تاريخ دمشق، 47/ 469.
(6) جامع العلوم والحكم، 1/ 370.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

الآية أو جزء منها	رقمها	رقم السورة	السورة	الصفحة
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ	5	1	الفاتحة	490
ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ	16	2	البقرة	103, 310، 469
كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزۡقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ	25	2	البقرة	536
أَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ	25	2	البقرة	538
عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ	68	2	البقرة	515
وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا	83	2	البقرة	413
يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٍ	96	2	البقرة	336
فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ	152	2	البقرة	300
إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ	153	2	البقرة	242
وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ	155	2	البقرة	528

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ	159	2	البقرة	223
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ	160	2	البقرة	223
إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ	166	2	البقرة	286
وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ	177	2	البقرة	295
يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ	185	2	البقرة	273
وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ	198	2	البقرة	300
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ	207	2	البقرة	495
ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ	208	2	البقرة	228
يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ	219	2	البقرة	369،171
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ	222	2	البقرة	199, 248
وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ	237	2	البقرة	479
فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ	239	2	البقرة	300
فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ	249	2	البقرة	549
وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا	269	2	البقرة	170،315
فَنِعِمَّا هِيَ	271	2	البقرة	308

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ	14	3	آل عمران	319،472
يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ	31	3	آل عمران	248
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا	39	3	آل عمران	450
وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ	79	3	آل عمران	447
شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ	18	3	آل عمران	223
وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ	102	3	آل عمران	489 ,94
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ	117	3	آل عمران	588
لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ	128	3	آل عمران	412
وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ	134	3	آل عمران	477،539 ،474
وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ	169	3	آل عمران	196
وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ	173	3	آل عمران	338
فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ	174	3	آل عمران	338
وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ	178	3	آل عمران	253
وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ	185	3	آل عمران	453
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ	187	3	آل عمران	223

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ	190	3	آل عمران	373،376
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا	191	3	آل عمران	372
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ	198	3	آل عمران	314
ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ	200	3	آل عمران	242
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا	1	4	النساء	303
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ	26	4	النساء	273
وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ	36	4	النساء	264
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا	66	4	النساء	265
وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا	67	4	النساء	266
وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا	68	4	النساء	266
قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ	77	4	النساء	314
وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ	83	4	النساء	394

الآية	رقم الآية	رقم السورة	السورة	الصفحة
وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ	86	4	النساء	413
لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ	114	4	النساء	172، 290، 294، 295،414
مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ	123	4	النساء	60, 189, 524
يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا	142	4	النساء	391
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ	146	4	النساء	268
فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ	155	4	النساء	165
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ	1	5	المائدة	410
فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ	13	5	المائدة	539
فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ	14	5	المائدة	286
يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ	54	5	المائدة	248
بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ	64	5	المائدة	510
كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ	79	5	المائدة	301
رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ	119	5	المائدة	246
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ	2	6	الأنعام	377
لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ	8	6	الأنعام	439

وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ	32	6	الأنعام	319
حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا	34	6	الأنعام	233
فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ	44	6	الأنعام	603
ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ	62	6	الأنعام	456
كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ	71	6	الأنعام	164،53
وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ	94	6	الأنعام	367
فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ	125	6	الأنعام	273
مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا	160	6	الأنعام	210،350
خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ	12	7	الأعراف	438
إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ	30	7	الأعراف	545
كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا	38	7	الأعراف	286
وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ	43	7	الأعراف	533
فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ	95	7	الأعراف	603
لَن تَرَىٰنِي	143	7	الأعراف	340
سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ	146	7	الأعراف	373،435

458	الأعراف	7	154	هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ
372	الأعراف	7	185	أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
416, 475، 479،539	الأعراف	7	199	خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ
304	الأعراف	7	201	إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ
123, 508, 523, 540	الأنفال	8	1	فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ
421	الأنفال	8	2	إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ
421	الأنفال	8	4	أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا
599	الأنفال	8	23	وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ
367	الأنفال	8	50	وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ
313	التوبة	9	38	فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ
202	التوبة	9	52	قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ
534	التوبة	9	72	وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ
473	التوبة	9	73	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ
505	التوبة	9	75	وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ	77	9	التوبة	505
ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ	112	9	التوبة	420
إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ	24	10	يونس	588
سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ	36	36	يس	376
أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ	62	10	يونس	554
فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ	89	10	يونس	489
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ	93	10	يونس	163
وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا	6	11	هود	486 ,344
مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ	15	11	هود	445،524
وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ	44	11	هود	551 ،29
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ	75	11	هود	447
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ	81	11	هود	549

590	هود	11	86	بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
487	هود	11	111	وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ
179	يوسف	12	82	وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ
480	يوسف	12	92	لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
467	الرعد	13	7	إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ
431	الرعد	13	13	وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ
166	الرعد	13	23	وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ
300	الرعد	13	28	أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ
166 ,165	الرعد	13	29	طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ
552	الرعد	13	31	وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ
303	الرعد	13	33	أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ
589	الرعد	13	23، 24	وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ
438	إبراهيم	14	10	قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
558	إبراهيم	14	29	جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ
435	إبراهيم	14	15	وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ

لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ	48	15	الحجر	568
وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ	88	15	الحجر	254
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ	26	16	النحل	602 ,462
يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ	50	16	النحل	431
وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ	71	16	النحل	344
فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ	112	16	النحل	178
وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ	127	16	النحل	242
وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ	4	17	الإسراء	232
كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ	20	17	الإسراء	489
وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ	23	17	الإسراء	233
وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ	24	17	الإسراء	178
إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ	30	17	الإسراء	345
لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا	7	18	الكهف	315
وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا	28	18	الكهف	175, 242، 273،592
يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ	31	18	الكهف	536

مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ	31	18	الكهف	535
وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ	45	18	الكهف	313, 453, 588
وَيَقُولُون يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا	49	18	الكهف	346، 525،409
لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي	109	18	الكهف	375
فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا	110	18	الكهف	268
إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ	93-95	19	مريم	604
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا	41	19	مريم	266
إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا	54	19	مريم	410
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا	56	19	مريم	266
فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ	59	19	مريم	590
رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا	62	19	مريم	201
لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ	64	19	مريم	331

إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ	75	19	مريم	464
وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا	86	19	مريم	228
وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ	69	20	طه	490 ,89
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ	98	20	طه	592 ,467
يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلاً	109	20	طه	532
وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ	131	20	طه	315
ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ	1	21	الأنبياء	531
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ	3	21	الأنبياء	531
وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً	35	21	الأنبياء	330
وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا	47	21	الأنبياء	524
وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ	102	21	الأنبياء	533
يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ	23	22	الحج	535،536
لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ	29	22	الحج	294
وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ	34	22	الحج	441
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا	36	22	الحج	162

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ	**1، 2**	23	المؤمنون	420
ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ	14	23	المؤمنون	377
ٱلۡوَٰرِثُونَ	14	23	المؤمنون	420
وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ	34	23	المؤمنون	438
فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا	47	23	المؤمنون	438
إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ	57	23	المؤمنون	458 ,303
وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ	60	23	المؤمنون	459
وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ	22	24	النور	539
كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ	41	24	النور	489
لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا	21	25	الفرقان	439
لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا	22	25	الفرقان	601
أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ	45	25	الفرقان	360
وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا	63	25	الفرقان	421،441،447
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ	54	42	الشعراء	601
وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ	215	26	الشعراء	178

وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ	39	28	القصص	439
أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ	54	28	القصص	315
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا	77	28	القصص	213
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا	25	29	العنكبوت	286
فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ	40	29	العنكبوت	366
وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ	43	29	العنكبوت	224
وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ	45	29	العنكبوت	300
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ	64	29	العنكبوت	453 ,313
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ	20	30	الروم	377
فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا	30	30	الروم	230
قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ	42	30	الروم	575
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ	43	30	الروم	230،280 ,62
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ	47	30	الروم	202
وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ	17	31	لقمان	403

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ	33	31	لقمان	480،570
فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ	17	32	السجدة	533
سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ	19	33	الأحزاب	297 ,102
رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ	23	33	الأحزاب	265
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ	57	33	الأحزاب	263 ,176
فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُور	5	35	فاطر	480،570
إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ	28	35	فاطر	,457 ,216 458
يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا	33	35	فاطر	536 ،535
وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ	32	36	يس	487
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ	51	36	يس	605
فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ	55	36	يس	538
إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ	11	37	الصافات	377

وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ	48	37	الصافات	593
لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ	61	37	الصافات	203
وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ	107	37	الصافات	590
وَءَاتَيۡنَٰه ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ	20	38	ص	170
نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ	30	38	ص	308
﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ	52	38	ص	593
أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ	3	39	الزمر	508 ,268
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ	3	39	الزمر	545
إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ	10	39	الزمر	244،330
ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا	42	39	الزمر	214
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ	60	39	الزمر	405
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ	68	39	الزمر	605
وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ	31	40	غافر	262
كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ	35	40	غافر	435
وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ	44	40	غافر	237

فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ	12	41	فصلت	232
فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ	34	41	فصلت	540
تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ	42	41	فصلت	295
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ	6	42	الشورى	545
وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ	17	42	الشورى	93, 326، 531
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ	20	42	الشورى	315
وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ	27	42	الشورى	502
فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ	40	42	الشورى	461, 466، 539
وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ	43	42	الشورى	242, 541
هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ	44	42	الشورى	45
لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ	31	43	الزخرف	439
أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ	53	43	الزخرف	439
فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ	55	43	الزخرف	487،603
يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ	71	43	الزخرف	536
وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ	71	43	الزخرف	533

كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ	25-27	44	الدخان	603
وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ	33	44	الدخان	232
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ	53	44	الدخان	535
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ	55	44	الدخان	536
فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ	25	46	الأحقاف	365،603
فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ	15	47	محمد	536
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا	16	47	محمد	45
فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ	21	47	محمد	265
إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ	26	48	الفتح	449،462
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ	29	48	الفتح	473 ,251
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ	6	49	الحجرات	403

الآية	رقم الآية	رقم السورة	السورة	الصفحة
وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا	9	49	الحجرات	541
لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ	11	49	الحجرات	409،410
ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا	12	49	الحجرات	540 ,399،403
وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ	1، 2	52	الطور	433 ,121
وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ	52، 53	54	القمر	347
ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ	1	54	القمر	531
وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ	53	54	القمر	525 ,200
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ	14	55	الرحمن	377
وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ	46	55	الرحمن	535
كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ	58	55	الرحمن	537
هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ	60	55	الرحمن	189 ,60
حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ	72	55	الرحمن	538 ,537
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ	76	55	الرحمن	535
فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ	28	56	الواقعة	534

وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ	30	56	الواقعة	534 ,227
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ	21	56	الواقعة	536
وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ	22، 23	56	الواقعة	537
وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ	14	57	الحديد	481
فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ	15	57	الحديد	605
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ	20	57	الحديد	319
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ	22	57	الحديد	190
لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ	23	57	الحديد	351
وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ	9	59	الحشر	163
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ	9	59	الحشر	495 ,494
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ	18	59	الحشر	304
وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ	21	59	الحشر	224
وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ	12	61	الصف	534

هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ	2	62	الجمعة	170
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ	9	63	المنافقون	445
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ	2	64	التغابن	312
إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ	15	64	التغابن	445
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ	2،3	65	الطلاق	345
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا	8	66	التحريم	347
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ	9	66	التحريم	473
فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا	10	66	التحريم	404
وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ	10	66	التحريم	551
نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ	1	68	القلم	358
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ	4	68	القلم	175, 416, 422, 495
هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ	11	68	القلم	403, 404
عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ	13	68	القلم	404
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ	44	68	القلم	252
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً	10	69	الحاقة	603

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ	11	69	الحاقة	487
إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا	6، 7	70	المعارج	531
كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ	43	70	المعارج	605
ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا	10	71	نوح	347
إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ	1،2	72	الجن	229
وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ	10	73	المزمل	242
عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ	20	73	المزمل	549
إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ	2	76	الإنسان	377
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ	13	76	الإنسان	535
أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا	25، 26	77	المرسلات	311
إِنَّهُۥ طَغَىٰ	17	79	النازعات	503
فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ	24	79	النازعات	503
وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ	40،41	79	النازعات	319،369
قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ	17–22	80	عبس	440
فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ	24	80	عبس	586

304	التكوير	81	14	عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ
433 ,121	التكوير	81	15	ٱلۡخُنَّسِ
433	التكوير	81	16	ٱلۡكُنَّسِ
346	الانفطار	82	10–12	وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ
304	الانفطار	82	5	عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ
531،532 ,204	المطففين	83	6	يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
204	المطففين	83	26	وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ
360	الفجر	89	6	أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ
243	الفجر	89	15	فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ
243	الفجر	89	16	وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ
433،464 ,121	الضحى	93	9، 10	فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ
415	التين	95	4	لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ
303	العلق	96	14	أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ
165	القدر	97	1	إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ
508 ,268	البينة	98	5	وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ	8	98	البينة	303،458
فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ	7 ، 8	99	الزلزلة	60, 524،189
أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ	1، 2	102	التكاثر	445
إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ	2	103	العصر	207
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ	3	103	العصر	242
وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ	1	104	الهمزة	404
أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ	4	106	قريش	184
فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ	4 ،5	107	الماعون	391
ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ	6	107	الماعون	391
وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ	4	111	المسد	404

فهرس الأحاديث النبوية

127-إن بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا، ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا فى ذلك	273
128-إن بعض الملائكة المخصوصين بعظم الخلق ليتضاءل من خشية الله تعالى	431
129-إن ثلث عذاب القبر من النميمة	405
130-إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد	419
131-أن رجلاً قال له رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: كل بيمينك قال: لا أستطيع	439
132-إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص، ولا يردّه كراهة كاره	345
133-أن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- غزا بنى المصطلق وهم غارون	357
134-أن رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- لمّا فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين	480
135-إن فى ابن آدم بضعة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهى القلب	302
136-إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها	534
137-إن فى الجنة طيرًا أمثال البخاتى	537
138-إن فى الجنة لغرفًا يرى باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام	413
139-إن فى جهنم ألف وادٍ، فى كل وادٍ سبعون ألف شعب	218
140-إن فى جهنم واديًا يقال له هبهب، حقّ على الله أن يسكنه كل جبار	436
141-إنّ لجهنم بابًا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعاصى الله تعالى	474
142-إن لكلّ ملك حمى، وحمى الله محارمه	265
143-إن للإنسان أخلاء ثلاثة: فأما خليل فيقول: ما أنفقت فلك وما خلفت فليس لك	368

166–أنه صلى الله عليه وآله وسلم قسم قسمة يومًا، فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى	539
167–إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله	347 ,199
168–إنهم ليسمعون الكلام، ولكنهم لا يقدرون على الجواب	196
169–أنّى أتوب فى اليوم مائة مرّة	347
170–إنى أستغفر الله فى اليوم سبعين مرة	199
171–إنى أعلم ما يلقى ما منه عرق إلا والموت على حدته	607
172–إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتى أهل بيتى	394
173–إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبدًا: كتاب الله، وعترتى أهل بيتى	228
174–إنى رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب، فجاء حسن الخلق فأدخله على الله	419
175–أهون الناس عذابًا يوم القيامة عبد الله بن جدعان	452
176–أوتيت جوامع الكلم	155 ,75
177–أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق السخاء	417
178–أىّ الإيمان أفضل؟ قال: الصبر والسماحة	451
179–أىّ الناس خير؟ قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان	315
180–أىّ أمتك أشر؟ قال: الأغنياء	445
181–أىّ شىء أشد؟ قال: غضب الله	450
182–إياكم والشحّ، فإنه أهلك من كان قبلكم	503
183–إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش	407
184–إياكم، والغيبة فإن الغيبة أشدّ من الزنا	399
185–إياكم، والكذب فإنه مع الفجور، وهما فى النار	405

فهرس الآثار المروية

15-أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة	الحسن البصرى	576
16-إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا، وقلاها من بسط له فيها	بعض الحكماء	576
17-إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن	ابن عباس	566
18-أنا أعز على الله من أن يشغلنى عن نفسه بجما	عيسى عليه السلام	250
19-إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك	بعض الحكماء	562
20-إنما الدنيا ستة أشياء: مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم	الإمام على بن أبى طالب	574
21-إنما أنتم فى هذه الدنيا عرض تنتصل فيكم المنايا	الإمام على	564
22-إنما نال الغنى من عتق من رقّ الدنيا	بعض الزهاد	571
23-أهينوا الدنيا، فوالله ما هى لأحد أهنأ منها لمن أهانها	الحسن البصرى	571
24-أوصيكم بتقوى الله، والترك للدنيا التاركة لكم	الإمام على	578
25-أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر	أبو هريرة	535
26-إياكم وشغل الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال	الحسن البصرى	570
27-الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه	بعض الحكماء	578
28-بؤسًا لأزواجك الباقين لا يعتبرون بالماضين	عيسى عليه السلام	582
29-بحقّ أقول لكم كما ينظر المريض إلى طعام، فلا يلتذ به من شدّة المرض	عيسى عليه السلام	584
30-بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك	مالك بن دينار	568
31-بلغنى أن رجلاً عرج بروحه إلى السماء، فإذا امرأة على قارعة الطريق	الفضيل بن عياض	583
32-توسد يومًا حجرًا فى نومه	عيسى عليه السلام	352
33-جلس فى ظل حائط لإنسان، فأقامه	عيسى عليه السلام	352
34-حبّ الدنيا، والذنوب فى القلب قد احتوشته	عبدالله بن المبارك	572

35-حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا	الحسن البصرى	447
36-خذ من الدنيا لبدنك، ومن الآخرة لقلبك	سفيان الثورى	569
37-الدخول فى الدنيا هين، لكن التخلص منه شديد	الفضيل بن عياض	570
38-دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعلمه	موسى عليه السلام	247
39-الدنيا بلغة من شؤمها أن تمنيك بما يلهيك عن طاعة الله تعالى	يحيى بن معاذ	574
40-الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها	حكيم	573
41-الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها	عيسى عليه السلام	316، 584
42-الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالى	أبو هريرة	572
43-الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى	عيسى عليه السلام	568
44-الدنيا وقتك الذى يرجع إليك طرفك فيه	بعض الحكماء	578
45-رأيت الدنيا فى صورة عجوز شوهاء شمطاء	بعض الحكماء	582
46-رأيت عجوزاً فى المنام كبيرة، عليها من كل زينة	العلاء بن زياد	582
47-رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة	الحسن البصرى	562
48-الزهدالتقوى	مالك بن أنس	352
49-العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى الفرار من الناس	عيسى عليه السلام	398
50-عجبًا لمن يعرف أن الموت حقّ كيف يفرح	بعض الحكماء	570
51-العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه	يحيى بن معاذ	574
52-فإنى أحذركم الدنيا ، فإنها والله أكّالة	على عليه السلام	563
53- قد رأيناهم يطيبونها بالأفاويه	الحسن البصرى	586
54-قد طلقتك ثلاثًا لا رجعة لى فيك	الإمام على	564

55-قرأت فى بعض الكتب: الدنيا غنيمة الأكياس	وهب بن منبه	569
56-كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة	بعض الزهاد	574
57-كان ضجاع الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف	عائشة	354
58-كان لا يصحبه إلا مشط وكوز	عيسى عليه السلام	354
59-كانت الدنيا، ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا	بعض الحكماء	562
60-كأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل	عمر بن عبدالعزيز	570
61-كل أمر رسول الله كان عجبًا، أتانى فى ليلتى حتى مسّ جلده جلدى	عائشة	372
62-كيف وجدت الموت يا خليلى؟ قال: كسفود فيه خطاطيف	إبراهيم عليه السلام	607
63-لا أغبط أحدًا يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدّة موت رسول الله	عائشة	608
64-لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث	الحسن البصرى	571
65-لا تعلم العلم لثلاث، ولا تتركه لثلاث، فلا تعلمه لتباهى به العلماء، ولتمارى به، ولترائى به	عمر بن الخطاب	409
66-لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة	رجل من الزهاد	571
67-لاتهتموا بكثرة العمل ، واهتموا للقبول	الإمام على	269
68-لبس المسوح حتى ثقب جلده	يحيى بن زكريا	352
69-لتحبين لكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها	كعب الأحبار	574
70- لمّا سئل: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان	بعض الزهاد	562
71- لو أن الدنيا بجذافيرها عرضت علىّ حلالاً ولا أحاسب بها فى الآخرة لكنت أقذرها	الفضيل بن عياض	569

72-لو طلبت فى الجنة مثل هذا، وأخذعويدًا صغيرًا لا أكاد أراه من صغره ما وجدته	سلمان الفارسى	534
73-لو قال لى فرعون خيرًا لرددت عليه	ابن عباس	413
74-لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت	عمر بن الخطاب	242
75-ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك	الإمام على	448
76-ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية	ابن مسعود	566
77-ما أصف لكم من دار، من صح فيها أمن	الإمام على	567
78-ما شبهت نفسى والدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب	بعض الزهاد	604
79-ما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة	الحسن البصرى	532
80-ما فى الدنيا شىء يسرك إلا وقد ألصق به شىء يسوءك	أبو حازم	571
81-مثل الدنيا مثل الحيّة لين مسها قاتل سمها	الإمام على	582
82-مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر	عيسى عليه السلام	581
83-مسكين ابن آدم يرضى بدار حلالها حساب وحرامها عقاب	الحسن البصرى	570
84-من أراد أن يستغنى بالدنيا عن الدنيا كان كمن يطفئ النار بالنار	بعض الحكماء	574
85-من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها	بندار بن الحسين الشيرازى	574
86-من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع	أبو هريرة	412
87-من جمع ستّ خصال لم يدع للجنة مطلبًا	الإمام على	562
88-من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس	عمر بن الخطاب	269
89-من ذكر الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها	كعب	499
90-من سلّم عليك من خلق الله فسلّم، ولو كان مجوسيًا	ابن عباس	413

91-من فرح قلبه بشىء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة	وهب بن منبه	572
92-من نافسك فى دينك فنافسه	الحسن البصرى	562
93-من نمّ إليك نمّ عليك	الحسن البصرى	403
94-من يسأل الله الدنيا فإنما يسأل الله طول الوقوف بين يديه	بعض الزهاد	571
95-ها إن ذا عظّم فى عينه ما صغّر الله	محمد بن المنكدر	572
96-والله لقد أدركت أقوامًا كانت الدنيا عندهم أهون من التراب	الحسن البصرى	568
97- والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بحبهم الدنيا بعد عبادتهم للرحمن	الحسن البصرى	569
98- والله ما رأيت قومًا قط أرغب فيما كان رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يزهد فيه منكم	عمرو بن العاص	570
99- ويل لصاحب الدنيا يموت ويتركها ويأمنها وتغرّه	عيسى عليه السلام	558
100- يُؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء	ابن عباس	583
101- يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك	داود الطائى	571
102- يا أخى الدنيا دحض مزلّة ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر	الشافعى	573
103- يا أيها الناس اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل	بعض الحكماء	575
104- يا بنى أفق فإنك استدبرت الدنيا من يوم استقبلتها	لقمان	569
105- يا بنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك	لقمان	475
106- يا رب عبدك يبكى من مخافتك	موسى عليه السلام	561
107- يا طالب الدنيا لتبرّ تركك للدنيا أبرّ	عيسى عليه السلام	561
108- يا معشر الحواريين ادعو الله أن يهون على هذه السكرة	عيسى عليه السلام	607
109- يبدى الغضبالكبر والفخر والتعزز والحميّة	عيسى عليه السلام	474

110- يسير الدنيا ينسيك عن كثير الآخرة	أبو حازم	571

فهرس الأبيات الشعرية

9- أَلَاكُــــــلُّ شِـــــــيْءٍ مَـــــا خَـــــلا اللهَ بَاطِــــــلُ	309
10- تَـــــسِيْلُ عَلَـــــىْ حَـــــدِّ الـــــسّيُوفِ نُفُوسُــــــنَاْ	323
11- ثُـــــوْبُ الرِّيَـــــاءِ يَـــــشِفُّ عَمَّـــــاْ تَحْتَـــــهُ	382
12- خَفِّـــــفِ الـــــوَطْءَ مَـــــاْ أَظُـــــنُّ أَدِيْـــــمَ الـــــ	225
13- دُنَيَـــــــا تُخَـــــــادُعُنِى كَأَنْـــــــــ	564
14- سَـــــأَلْتُ الأَرْضَ لِـــــمْ جُعِلْـــــت مُـــــصَلَّى	522 ,126
15- سُـــــلِبوا وَأَشْـــــرَقَتِ الـــــدِماءُ عَلَـــــيهِمُ	519
16- فَلَـــــيْسَ لِعَيْـــــشِنَا هَـــــذَا هَنَـــــاءٌ	455
17- فِيْهَـــــا خُطُـــــوطٌ مِـــــنْ سَـــــوادٍ وَبَلَـــــقْ	516

18- قَـــالَ لِـــي يَوْمًـــا سُلَيْمَـــانُ	521
19- قَالَـــتْ أَلا لا تَلِجَـــنْ دَارَنَـــا	521
20- مَطَـــوتُ بِهِـــم حَتّـــى تَكِـــلَّ مَطِـــيُّهُم	234
21- نُرَقِّـــعُ الـــدُّنْيَا بِـــأَخْلاقِ دِيْنِنَـــا	567
22- هَـــبِ الـــدُّنْيَا تُـــسَاقُ إِلَيْـــكَ عَفْـــوًا	580
23- وَإِن امْـــرَأً دُنْيَـــاهُ أَكْبَـــرُ هَمِّـــهِ	580
24- وَإِنِّـــيْ لَتَعْرُوْنِـــي لِـــذِكْرَاكِ هَـــزَّةٌ	512
25- وَقَـــد ظَلَّلَـــتْ عِقْبَـــانُ أَعلامِـــهِ ضُـــحىً	519
26- وَكَلْـــمُ الـــسَّيْفِ تَدْمِلُـــهُ فَيَبْـــرَى	297 ,102

27- وَلَــــو لَــــمْ تُــــصَافِحِ رِجْلُهَــــا صَــــفْحَةَ الثَّــــرَى	523 ,126
28- وَمَــــا المَــــالُ وَالأَهْلُــــونَ إِلا وَدَائِــــعُ	566
29- وَمِــــنَ الخَــــيرِ بُــــطءُ سَــــيبِكَ عَنّــــي	520
30- وَمَــــنْ هَــــابَ أَسْــــبَابَ المَنَايَــــا يَنَلْنَــــه	599
31- وَمَــــنْ يَحمُــــدِ الــــدُّنْيَا لِعَــــيْشٍ يَــــسُرُّهُ	580،562
32- وَنَحْــــنُ عَلَــــى الــــدُّنْيَا كَرَكْــــبِ سَــــفِيْنَةٍ	225
33- يَــــا أَهْــــلَ لَــــذَّاتِ دُنْيَــــا لا بَقَــــاءَ لَهَــــا	580
34- يَــــا خَاطِــــبَ الــــدُّنْيَا إِلَــــى نَفْــــسِهَا	580
35- يَــــا رَاقِــــدَ اللَّيْــــلِ مَــــسْرُوْرًا بِأَوَّلِــــهِ	579

519	36- يَبِسَ النَجيعُ عَلَيهِ وَهوَ مُجَرَّدٌ
497	37- يَسُرُّ المَرْءَ مَا ذَهَبَ اللَيَالِى
306	38- يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان

مصادر و مراجع الدراسة والتحقيق

أولاً: المصادر والمراجع المطبوعة

1-القرآن الكريم.

2-أئمة اليمن، محمد بن محمد زبارة ،الدار اليمنية للنشر والتوزيع، عام 1984م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

3-إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين، محمد بن محمد زبارة، مطبعة المقام الشريف، عام 1343هـ، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

4-إثبات عذاب القبر، أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق د. شرف محمود القضاة، دار الفرقان، ط2، عام 1405هـ، عمان، الأردن.

5-الآحاد والمثانى، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيبانى، تحقيق د. باسم فيصل الجوابرة، دار الراية، ط1، عام 1991م، الرياض، المملكة السعودية.

6-إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى، دار المعرفة، عام 1403هـ، بيروت، لبنان.

7-الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار البشائر الإسلامية، ط3، عام 1989م، بيروت، لبنان.

8-الأربعون حديثًا السيلقية، زيد بن عبد الله بن مسعود الهاشمى، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام2002م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

9-الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق على محمد البجاوى، دار الجيل، ط1، عام 1412هـ، بيروت، لبنان.

10-أسد الغابة، عزّ الدين بن الأثير على بن محمد الجزرى، تحقيق عادل أحمد الرفاعى، دار إحياء التراث العربى، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان.

11-أسرار العربية، عبد الرحمن بن أبى الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبى سعيد، تحقيق د. فخر صالح قدارة، دار الجيل، ط1، عام 1995م، بيروت، لبنان.

12-الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق على محمد البجاوى، دار الجيل، ط1، عام 1992م، بيروت، لبنان.

13-أصول الأحكام الجامع لأدلة الحلال والحرام، أحمد بن سليمان بن محمد، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

14-أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجستر أسر، إعداد وتقديم د. محمد البكرى، مطبوعات دار الكتب، عام 1969م، بيروت، لبنان.

15-الأعلام، خير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، ط5، عام1980م، بيروت، لبنان.

16-أعلام المؤلفين الزيدية،عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على العلمية والثقافية، ط1،عام 1985م، عمان، الأردن.

17-الأغانى، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد المروانى الأصبهانى، تحقيق سمير جابر، ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان.

18-الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق فيصل بدير عون، راجعه د. على سامى النشار، منشأة المعارف، عام1971م، الإسكندرية، مصر.

19-الإكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى، على هبة الله بن أبى نصر ماكولا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1411هـ، بيروت، لبنان.

20-الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، د.أحمد محمود صبحى، منشورات العصر الحديث، ط1، عام 1990م ، بيروت، لبنان.

21-الإمام زيد حياته وعصره وفقهه، محمد أبو زهرة، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

22-الإمام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى وأثره فى الفكر الإسلامى سياسيًا وعقائديًا، د. محمد محمد الحاج الكمالى، دار الحكمة اليمانية، ط1، عام 1991م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

23-الانتصار على علماء الأمصار فى تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل علماء الأمة، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق عبد الوهاب على المؤيد، على أحمد مفضل، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط2، عام 1425هـ عمان، الأردن.

24-الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، سوريا . بدون تأريخ.

25-البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى، تحقيق على شيرى، دار إحياء التراث العربى، ط1، عام 1988م، بيروت، لبنان.

26-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن على الشوكانى، دار الكتب العلمية، ط2، عام 2007م، بيروت، لبنان.

27-البر والصلة، الحسين بن الحسن المروزى، تحقيق د. محمد بن سعيد بخارى، دار الوطن، ط1، عام 1419هـ، الرياض، المملكة السعودية.

28-البرهان المؤيد، أحمد الرفاعى الحسينى، تحقيق عبد الغنى نكه مى، دار الكتاب النفيس، ط1، عام 1408هـ، بيروت، لبنان.

29-بغية الطلب فى تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبى جرادة، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، ط1، عام 1988م، بيروت، لبنان.

30-بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، حسين أحمد العرشى، مراجعة وتصحيح محمد سالم شجاب، مكتبة الإرشاد، ط1، عام 2008م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

31-البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، مصر. بدون تأريخ.

32-تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدى، تحقيق د. عبد العزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، عام 1970م، الكويت.

33-التاج المذهب لأحكام المذهب شرح متن الأزهار فى فقه الأئمة الأطهار، أحمد بن قاسم العنسى، ط1، عام 1947م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

34-تاريخ الأدب العربى، كاول بروكلمان، الإشراف على الترجمة محمود فهمى حجازى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،عام 1995م، القاهرة، مصر.

35-تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبى، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1987م، بيروت، لبنان.

36-تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبرى، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1407هـ، بيروت، لبنان.

37- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

38- تاريخ التراث العربى، د. فؤاد سزكين، نقله للعربية د. محمود فهمى حجازى، وراجعه د.عرفة مصطفى، و د. سعيد عبد الرحيم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أشرف على الطباعة والنشر إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، عام 1404هـ -1983م، الرياض، المملكة السعودية.

39- تاريخ النقد الأدبى عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، ط4، عام 1983م، بيروت، لبنان.

40- تاريخ مدينة دمشق، على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر، تحقيق على شيرى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عام 1998م، بيروت، لبنان.

41- التحف فى شرح الزلف، مجد الدين بن محمد المؤيدى، مكتبة بدر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، عام1997م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

42- تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجى، ط7، عام 1998م، القاهرة، مصر.

43- التدوين فى أخبار قزوين، عبد الكريم بن محمد الرافعى القزوينى، تحقيق عزيز الله العطارى، دار الكتب العلمية، عام 1987م، بيروت، لبنان.

44- تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق إسماعيل بن أحمد الجرافى، إشراف أحمد على الهيصمى، المكتبة السلفية، عام1185م، القاهرة، مصر.

45- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر بن الحجاج المروزى، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار، مكتبة الدار، ط1، عام 1406هـ، المدينة، المملكة السعودية.

46- تفسير القرآن العظيم، أبو حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازى، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان. بدون تأريخ.

47- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى، تحقيق سامى محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، عام 1999م، الرياض، المملكة السعودية.

48- تفسير القرطبى، محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الشعب، القاهرة، مصر. بدون تأريخ.

49- تقريب التهذيب، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، ط1، 1986م، دمشق، سوريا.

50-التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى، تحقيق مصطفى أحمد العلوى، محمد عبد الكبير البكرى، وزارة عموم الأوقاف، عام 1387هـ، الدار البيضاء، المغرب.

51-تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى، دار الفكر، ط1، عام 1984م، بيروت، لبنان.

52-تهذيب الكمال، يوسف بن الزكى عبد الرحمن أبو الحجاج المزى، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط1، عام 1980م، بيروت، لبنان.

53-تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، ط1، عام 2001م، بيروت، لبنان.

54-التواضع والخمول، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا القرشى البغدادى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام1989م، بيروت، لبنان.

55-تيسير المطالب فى أمالى أبى طالب، يحيى بن الحسين بن هارون، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2002م، عمان، الأردن.

56-جامع البيان فى تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبرى، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م، بيروت، لبنان.

57-جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادى، تحقيق شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط7، 1997م، بيروت، لبنان.

58-الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع، أحمد بن على الخطيب البغدادى، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، عام 1403هـ، الرياض، المملكة السعودية.

59-الجد الحثيث فى بيان ما ليس بحديث، أحمد بن عبد الكريم بن سعود الغزى العامرى، تحقيق بكر عبد الله أبو زيد، دار الراية، ط1، عام 1412هـ، الرياض، المملكة السعودية.

60-حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية للصبان، شمس الدين محمد بن محمد الإنبابى، المطبعة الأميرية ببولاق، عام 1315هـ، القاهرة، مصر.

61-حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، محمد بن على الصبان، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر. بدون تأريخ.

62-حاشية العطار على جمع الجوامع، حسن العطار، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1420هـ ، بيروت، لبنان.

63-حديقة الحكمة النبوية فى تفسير الأربعين السيلقية، الإمام عبد الله بن حمزة، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، عام 1991م، صنعاء ، الجمهورية اليمنية.

64-الحقائق الراهنة فى المائة الثامنة، الشيخ آغا بزرك الطهرانى، تحقيق على تقى فنزوى، ط1،عام 1975م، بيروت، لبنان.

65-حقائق المعرفة فى علم الكلام، أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر، تصحيح حسن يحيى اليوسفى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

66-حكام اليمن الأئمة المجتهدون، عبد الله الحبشى، دار القرآن الكريم، ط1، عام 1979م، بيروت، لبنان.

67-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى، دار الكتاب العربى، ط4، عام 1405هـ، بيروت، لبنان.

68-الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى، د. أحمد شوقى إبراهيم العمرجى، مكتبة مدبولى، ط1، عام 2000م، القاهرة، مصر.

69-خزانة الأدب وغاية الأرب، تقى الدين أبو بكر على بن عبد الله الحموى الأزرارى، تحقيق عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ط1، عام 1987م، بيروت، لبنان.

70-الخصائص الكبرى، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، دار الكتب العلمية، عام 1985م، بيروت، لبنان.

71-الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنى، تحقيق محمد على النجار، عالم الكتب، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

72-الخطاب والنص "المفهوم- العلاقة- السلطة"، د. عبد الواسع الحميرى، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، عام 2008م، بيروت، لبنان.

73-دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانى، تحقيق د. محمد التنجى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1995م، بيروت، لبنان.

74-الديباج الوضى فى الكشف عن أسرار كلام الوصى، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق خالد المتوكل، إشراف عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

75-ديوان ابن رشيق القيروانى، شرح د. صلاح الدين الهوارى، هدى عودة، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان.

76-ديوان ابن هانئ الأندلسى، شرح أنطوان نعيم، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان.

77-ديوان أبى الطيب المتنبى، تحقيق بدر الدين حاضرى محمد حماقى، دار الشرق العربى، ط3، عام 1995م، بيروت، لبنان.

78-ديوان أبى العتاهية، إسماعيل بن القاسم، تحقيق د. درويش الجويدى، المكتبة العصرية، ط1، عام 2008م، صيدا، لبنان.

79-ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر.

80-ديوان أبى نواس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالى، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

81-ديوان البحترى، ضبطه وعلّق حواشيه عطية سيد، المكتبة الجامعة، عام 1911م، بيروت، لبنان.

82-ديوان التهامى، على بن محمد التهامى، شرح وتحقيق د. على نجيب عطوى، دار ومكتبة الهلال، عام 1986م، بيروت، لبنان.

83-ديوان السموأل، تحقيق وشرح د. واضح الصمد، دار الجيل، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان.

84-ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، عام 1984م، القاهرة، مصر.

85-ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر.

86-ديوان رؤبة بن العجاج، تصحيح وترتيب وليم بن الورد البروسى، دار الآفاق الجديدة، ط2، عام 1980م، بيروت، لبنان.

87-ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق د. عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، 1962م، القاهرة، مصر.

88-ديوان محمد بن حازم الباهلى، دار الجيل، عام 2002م، بيروت، لبنان.

89-ديوان وضاح اليمن، جمعه وقدم له وشرحه د. محمد خير البقاعى، دار صادر، ط1، عام 1996م، بيروت، لبنان.

90-ذيل تاريخ بغداد، محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار البغدادى، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1997م، بيروت، لبنان.

91-الرسالة الوازعة للمعتدين عن سبّ أصحاب سيد المرسلين، الإمام يحيى بن حمزة، المطبعة المنيرية، عام1348هـ، القاهرة، مصر.

92-الروض المعطار فى خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميرى، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، عام 1980م، بيروت، لبنان.

93-الزهد، عبد الله بن المبارك بن واضح، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

94-الزيدية، د.أحمد صبحى، الزهراء للإعلام العربى، ط1، عام 1984م، القاهرة، مصر.

95-سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزوينى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

96-سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

97-سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى السلمى، تحقيق أحمد محمود شاكر و آخرون، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

98-سنن الدار قطنى، على بن عمر الدار قطنى البغدادى، تحقيق عبد الله هاشم يمانى المدنى، دار المعرفة، عام 1966م، بيروت، لبنان.

99-سنن الدارمى، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، تحقيق فواز أحمد، خالد السبع العلمى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1407هـ، بيروت، لبنان.

100- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن على بن موسى البيهقى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة الباز، عام 1994م، مكة المكرمة، المملكة السعودية.

101- سنن النسائى الكبرى، أحمد بن شعيب النسائى، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البندارى، سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1991م، بيروت، لبنان.

102- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم، مؤسسة الرسالة، ط9، عام 1413هـ، بيروت، لبنان.

103- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، ط1، عام 1411هـ، بيروت، لبنان.

104- الشافى، الإمام عبد الله بن حمزة بن سليمان، مكتبة اليمن الكبرى، ط1، عام 1986م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

105- شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى، تحقيق د. عبد الستار أحمد فراج، مطبعة المدنى، ط1، عام 1965م، القاهرة، مصر.

106- شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط2، عام 1985م، دمشق، سوريا .

107- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، وضعه وضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقى، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

108- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى، حققه وقدم له د. إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، عام 1962م، الكويت.

109- شرح سقط الزند، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى، شرح وتعليق د. ن رضا، دار ومكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

110- شرح شافية ابن الحاجب، رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى، تحقيق محمد نور، محمد الزفزاف، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، عام 1975، بيروت، لبنان.

111- شرح شعر زهير بن أبى سلمى، صنعه أبى العباس ثعلب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، عام 1981م.

112- شرح قطر الندى وبل الصدى، جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصارى، ضبطه على المخطوطة وصححه يوسف الشيخ محمد البقاعى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام 2003م، بيروت، لبنان.

113- شرح ما يقع فيه التصحيف، أحمد بن عبد الله بن سعيد العسكرى، تحقيق عبد العزيز أحمد، مطبعة الحلبى، عام1963م، القاهرة، مصر.

114- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبى الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، عام 1959م، بيروت، لبنان.

115- شروح التلخيص، سعد الدين التفتازانى، ابن يعقوب المغربى، بهاء الدين السبكى، دار البصائر، ط1، عام 2008م، القاهرة، مصر.

116- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق محمد السعيد بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1410هـ، بيروت، لبنان.

117- شعر الخوارج، إحسان عباس، دار الثقافة، ط3، عام 1974م، بيروت، لبنان.

118- شعرية الخطاب فى التراث النقدى والبلاغى، د. عبد الواسع أحمد الحميرى، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، عام 2005م، بيروت، لبنان.

119- الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، محمد بن عيسى الترمذى، تحقيق سيد عباس الجليمى، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، عام 1412هـ، بيروت، لبنان.

120- صحيح البخارى، محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير اليمامة، ط3، عام 1987م، بيروت، لبنان.

121- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان التميمى البستى، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2، عام 1993م، بيروت، لبنان.

122- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابورى، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمى، المكتب الإسلامى، عام 1970م، بيروت، لبنان.

123- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

124- الصمت وآداب اللسان، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا القرشى البغدادى، تحقيق أبى إسحاق الحوينى، دار الكتاب العربى، ط1، عام 1410هـ، بيروت، لبنان.

125- كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى، ط الحلبى، عام 1971م.

126- طبقات الزيدية الكبرى، إبراهيم بن القاسم بن محمد، تحقيق عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1،عام 1421هـ، عمان، الأردن.

127- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن على السبكى، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو، د. محمود الطناجى، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، عام 1413هـ، القاهرة، مصر.

128- طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن محمد قاضى شهبة، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، ط1، عام 1407هـ، بيروت، لبنان.

129- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البصرى الزهرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط1، عام 1968م، بيروت، لبنان.

130- طبقات المفسرين للداودى، أحمد بن محمد الأدنهوى، تحقيق سليمان صالح الخزى، مكتبة العلوم والحكم، ط1، عام 1997م، المدينة المنورة، المملكة السعودية.

131- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الإمام يحيى بن حمزة، طبع بعناية دار الكتب المصرية وبتصحيح سعد بن على المرصفى فى مطبعة المقتطف، عام 1332هـ، القاهرة، مصر.

132- العظمة، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهانى، تحقيق رضاء الله محمد إدريس المباركفورى، دار العاصمة، ط1، عام 1408هـ، الرياض، المملكة السعودية.

133- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى، دار إحياء التراث العربى، ط3، عام 1999م، بيروت، لبنان.

134- العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، على بن الحسن الخزرجى، تصحيح محمد بسيونى عسل،ط2، عام 1403هـ، (د).

135- العلل المتناهية، عبد الرحمن بن على بن الجوزى، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1403هـ، بيروت، لبنان.

136- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، تحقيق د. مهدى المخزومى، د. إبراهيم السامرائى، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان. بدون تأريخ

137- غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، يحيى بن الحسين بن القاسم، تحقيق د. سعيد عاشور، د. محمد زيادة، دار الكتاب العربى، عام 1388هـ، القاهرة، مصر.

138- فتح القدير الجامع بين فنى الراوية والدراية، محمد بن على الشوكانى، دار الفكر، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

139- الفصل للوصل المدرج، أحمد بن على بن ثابت البغدادى، تحقيق محمد مطر الزهرانى، دار الهجرة، ط1، عام 1418هـ، الرياض، المملكة السعودية.

140- فهرس مخطوطات المكتبة الغربية فى الجامع الكبير بصنعاء، إعداد أحمد عيسوى، محمد سعيد، طبع بإشراف منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر.

141- الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق، المعروف بابن النديم، دار المعرفة، عام 1978م، بيروت، لبنان.

142- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، مؤسسة الرسالة، ط5، عام 1995م، بيروت، لبنان.

143- قِصر الأمل، أبو بكر عبد الله بن أبى الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط2، عام 1997م، بيروت، لبنان.

144- القضاء والقدر، أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى، تحقيق محمد عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان، ط1، عام 2000م، الرياض، المملكة السعودية.

145- الكامل فى التاريخ، ابن الأثير على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى، تحقيق عبد الله القاضى، دار الكتب العلمية، ط2، عام 1415هـ، بيروت، لبنان.

146- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق عبد الرزاق المهدى، دار إحياء التراث، ط1، عام 1417هـ، بيروت، لبنان.

147- كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسه الرسالة، ط4، عام 1405هـ، بيروت، لبنان.

148- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الرومى، دار الكتب العلمية، عام 1992م، بيروت، لبنان.

149- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى، تحقيق محمود عمر الدمياطى، دار الكتب العلمية، ط1، عام1998م، بيروت، لبنان.

150- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، ط3، عام 1994م، بيروت، لبنان.

151- لسان الميزان، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق دائرة المعارف النظامية الهند، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ط3، عام 1986م، بيروت، لبنان.

152- مآثر الأبرار فى تفصيل مجمل جواهر الأخبار، محمد بن على بن يونس الزحيف، تحقيق عبد السلام الوجيه، خالد المتوكل، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2002م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

153- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، عام 1995م، بيروت، لبنان.

154- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

155- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، دار الكتب العربى، بيروت، لبنان، عام 1407هـ.

156- المجموع الحديثى والفقهى، الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، تحقيق عبد الله حمود العزى، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 2002م، عمان، الأردن.

157- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأندلسى، تحقيق عبد السلام عبد الشافعى محمد، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1993م، بيروت، لبنان.

158- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيدة، تحقيق عبد الحميد هنداوى، دار الكتب العلمية، ط1، عام 2000م، بيروت، لبنان.

159- مختار الصحاح، محمد بن أبى بكر الرازى، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، ط جديدة، عام 1995م، بيروت، لبنان.

160- المراسيل لأبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، عام 1408هـ، بيروت، لبنان.

161- المزهر فى علوم اللغة والأدب، جلال الدين السيوطى، تحقيق فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1998م، بيروت، لبنان.

162- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1990م، بيروت، لبنان.

163- المستطرف فى كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتوح الأبشيهى، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م، بيروت، لبنان.

164- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، أحمد بن أيبك المعروف بابن الدمياطى، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1997م، بيروت، لبنان.

165- مسند أبى يعلى، أحمد بن على المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ط1، عام 1984م، دمشق، سوريا.

166- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيبانى، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر. بدون تأريخ.

167- مسند إسحاق بن راهويه، إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه، تحقيق د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشى، مكتبة الإيمان، ط1، عام 1991م، المدينة المنورة، المملكة السعودية.

168- مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، لبنان، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة السعودية، ط1، عام 1409هـ.

169- مسند الشهاب، محمد بن سلامة القضاعى، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، مؤسسة الرسالة، ط2، عام 1986م، بيروت، لبنان.

170- مسند شمس الأخبار المنتقى من كلام النبى المختار، على بن حميد القرشى، مكتبة اليمن الكبرى، ط1، عام 1407هـ، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

171- مسند عبد بن حميد، عبد بن حميد بن نصر الكسى، تحقيق صبحى البدرى، محمود الصعيدى، مكتبة السنة، ط1، عام 1988م، القاهرة، مصر.

172- مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار، الإمام يحيى بن حمزة، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليندى، منشورات دار الفكر الحديث، عام1962م، القاهرة، مصر.

173-المصابيح الساطعة الأنوار تفسير أهل البيت، القاسم بن إبراهيم، محمد بن القاسم، الإمام الهادى يحيى بن الحسين، جمع وتأليف عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الشرفى، تحقيق محمد قاسم الهاشمى، عبد السلام عباس الوجيه، إشراف صلاح بن محمد الهاشمى، مكتبة التراث الإسلامى، ط1، عام 1998م، صعدة، الجمهورية اليمنية.

174- مصادر التراث اليمنى فى المتحف البريطانى، د. حسين العمرى، دار المختار للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، عام 1980م، دمشق، سوريا.

175- مصادر الفكر العربى الإسلامى فى اليمن، عبد الله محمد الحبشى، منشورات المجمع الثقافى، عام 2004م، أبو ظبى، الإمارات العربية المتحدة.

176- مصنف ابن أبى شيبة، عبد الله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط1، عام 1409هـ، الرياض، المملكة السعودية.

177- مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعانى، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، المكتب الإسلامى، ط2، عام 1403هـ، بيروت، لبنان.

178- المصنف فى الأحاديث والآثار، عبد الله بن أبى شيبة الكوفى، تحقيق كمال الحوت، مكتبة الرشد، ط1، عام 1409هـ، الرياض، المملكة السعودية.

179- المطالب العالية، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق د. سعد ناصر الشترى، دار العاصمة، دار الغيث، ط1، عام 1419هـ، الرياض، المملكة السعودية.

180- المعالم الدينية فى العقائد الإلهية، تحقيق سيد مختار محمد حشاد، دار الفكر المعاصر، عام1988م، بيروت، لبنان.

181- معانى القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبى،عالم الكتب، ط1، عام 1988م، بيروت، لبنان.

182- معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموى، دار الكتب العلمية، ط1، عام 1991م، بيروت، لبنان.

183- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق طارق عوض الله محمد، عبد المحسن إبراهيم الحسينى، دار الحرمين، عام 1415هـ، القاهرة، مصر.

184- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموى، دار الفكر، بيروت، لبنان. بدون تأريخ.

185- معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين، عبد السلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن على الثقافية، ط1، عام 1421هـ، عمان، الأردن.

186- معجم السفر، أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى، تحقيق عبد الله عمر البارودى، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، المملكة السعودية. بدون تأريخ.

187- المعجم الصغير(الروض الدانى)، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق محمد شكور محمود الحاج، المكتب الإسلامى دار عمار، ط1، عام 1985م، بيروت، لبنان، وعمان، الأردن.

188- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، مكتبة العلوم والحكم، ط2، عام 1983م، الموصل، العراق.

189- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

190- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطابع دار المعارف، ط2، عام 1400هـ، القاهرة، مصر.

191- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، ط3، عام 1403هـ، بيروت، لبنان.

192- المفصل فى صنعة الإعراب، محمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق د. على بو ملحم، مكتبة الهلال، ط1، عام 1993م، بيروت، لبنان.

193- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتّاب العرب، عام 2002م، دمشق، سوريا.

194- مكارم الأخلاق، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا القرشى البغدادى، تحقيق مجدى السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، عام 1990م، القاهرة، مصر.

195- ملامح يونانية فى الأدب العربى، د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، عام 1977م، بيروت، لبنان.

196- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، دار المعرفة، عام 1404هـ، بيروت، لبنان.

197- من الشعر المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب- كرم الله وجهه-، جمعه وشرحه عبد العزيز سيد الأهل، دار صادر، ط2، عام 1980م، بيروت، لبنان.

198- من مباحث البلاغة والنقد بين ابن الأثير والعلوى دراسة فى التأثير والتأثر وتجاوزات الفهم، د. نزيه عبد الحميد فراج، مكتبة وهبة، ط1، عام 1997م، القاهرة، مصر.

199- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها، محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى، تحقيق أحمد محمد السلقى الأصبهانى، دار الفكر، عام 1986م، دمشق، سوريا.

200- المنخول، محمد بن محمد الغزالى أبو حامد، تحقيق د. محمد حسن هيتو، دار الفكر، ط2، عام1400هـ، دمشق، سوريا.

201- منهج تحقيق النصوص ونشرها، د. نورى حمودى القيسى، د. سامى مكى العانى، مطبعة المعارف، عام 1975م، بغداد، العراق.

202- المنية والأمل فى شرح الملل والنحل، الإمام أحمد بن يحيى المرتضى، دار الندى، ط2، عام 1990م، بيروت، لبنان.

203- المواقف، عبد الرحمن بن أحمد الإيجى، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ط1، عام 1417هـ، بيروت، لبنان.

204- موسوعة أطراف الحديث النبوى الشريف، إعداد أبى هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول، عالم التراث، ط1، عام 1989م، بيروت، لبنان.

205- موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس الأصبحى- رواية محمد بن الحسن-، تحقيق د. تقى الدين الندوى، دار القلم، ط1، عام 1991م، دمشق، سوريا.

206- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، محمد بن أحمد بن عثمان المعروف بالذهبى، تحقيق على محمد البجاوى، دار المعرفة، ط1، عام 1963م، بيروت، لبنان.

207- نهج البلاغة، الإمام على بن أبى طالب، ضبط نصه د. صبحى الصالح، دار الكتاب العربى، مكتبة المدرسة، ط2، عام 1982م، بيروت، لبنان.

208- هجر العلم ومعرفة معاقله فى اليمن، إسماعيل على الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، عام 1995م.

209- هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادى، عام 1955م، استانبول، تركيا، (د).

210- الوافى بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، تحقيق أحمد الأرناؤوطى، تركى مصطفى، دار إحياء التراث، عام 2000م، بيروت، لبنان.

211- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط1، عام 1971م، بيروت، لبنان.

ثانيًا: المصادر المخطوطة

1- أطواق الحمامة فى حمل الصحابة على السلامة، الإمام يحيى بن حمزة، مكتبة آل يحيى، مدينة تريم، محافظة حضرموت.

2-التحقيق فى الإكفار والتفسيق، الإمام يحيى بن حمزة، مكتبة الأستاذ حسين السياغى بصنعاء.

3-التمهيد لأدلة مسائل العدل والتوحيد، الإمام يحيى بن حمزة، مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (61 علم الكلام).

4-سيرة الإمام يحيى بن حمزة، عبد الله بن الهادى بن يحيى بن حمزة، مكتبة الجامع الكبير التابعة للأوقاف، صنعاء، برقم (10 مجاميع).

5-الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينية، الإمام يحيى بن حمزة، مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (88 علم الكلام).

6-العمدة فى مذاهب الأئمة، الإمام يحيى بن حمزة، الجزء الثالث والرابع مصورتان بمكتبة العلامة محمد عبد العظيم الهادى محافظة صعدة.

7-نهاية الوصول إلى علم الأصول، الإمام يحيى بن حمزة، نسخة مصورة بمكتبة العلامة محمد عبد العظيم الهادى محافظة صعدة.

8-نور الأبصار المنتزع من كتاب الانتصار، الإمام يحيى بن حمزة، مكتبة جامع شهارة، مدينة شهارة، محافظة حجة.

9-وصايا الإمام يحيى بن حمزة إلى أولاده وأزواجه، الإمام يحيى بن حمزة، مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (106) مجاميع.

ثالثًا: الرسائل الجامعية

1- الأزهار الصافية شرح مقدمة الكافية، الإمام يحيى بن حمزة، الجزء الأول، تحقيق محمد على سالم العطاونة، أطروحة دكتوراة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام 1982م، القاهرة، مصر.

2- الأزهار الصافية شرح مقدمة الكافية، الإمام يحيى بن حمزة، الجزء الثانى، تحقيق عبد الحميد مصطفى السيد، أطروحة دكتوراة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام 1982م، القاهرة، مصر.

3- الإيجاز لأسرار كتاب الطراز فى علوم البيان ومعرفة أسرار القرآن، الإمام يحيى بن حمزة, تحقيق د. رياض القرشى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام 1984م، القاهرة، مصر.

4- الجهود النحوية ليحيى بن حمزة العلوى، رسالة ماجستير مقدمة من أزهار محمد لطف فايع، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة صنعاء، عام 2003م، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

5- الحاصر فى فوائد المقدمة لطاهر، الإمام يحيى بن حمزة، دراسة وتحقيق زكريا محمد حسن على، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام 1994م، القاهرة، مصر.

6- شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب، شمس الدين محمد بن عبد المنعم الجوجرى الشافعى، تحقيق نواف جزاء الحارثى، رسالة ماجستير، عمادة البحث العلمى بالجامعة الإسلامية، ط1، 2004م، المدينة المنورة، المملكة السعودية.

7- المحصل فى كشف أسرار المفصل، الإمام يحيى بن حمزة العلوى، أطروحة دكتوراة مقدمة من خالد عبد الحميد أبو جندية إلى كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام 1982م، القاهرة، مصر.

8- المنهاج فى شرح جمل الزجاجى، يحيى بن حمزة العلوى، دراسة وتحقيق د. هادى عبد الله ناجى، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، عام 1999م، مكتبة الرشد، ط1، عام 2009م، الرياض، المملكة السعودية.

فهرس الموضوعات